بسم اللہ الرحمن الرحیم

فتح الجوّاد

فی معارف

آیاتِ الجہاد

جلد دوم

فہرست

سورة الأنفال

ملخص الجهاد في خمس وسبعين آية

الآية (1) : بيان خطة ذات خمسة نقاط للفوز في الجهاد.

الآية (4,3,2): بيان الصفات الخمسة لأهل الإيمان من المجاهدين.

الآية (5) : بيان أن الله الذي أخرج رسوله ﷺ من بيته للجهاد إلى ساحة بدر.

الآية (6) : كان بعض الناس لا يدركون الحق.

الآية (7) : أراد الله أن يحق الحق ويبطل الباطل ويقطع دابر الكافرين فأخرج المسلمين لمواجهة الجيش العظيم للكفار.

الآية (8) : يظهر بالجهاد أن الإسلام حق والكفر باطل.

الآية (9) : دعا المسلمون يوم بدر ربهم لينصرهم فوعدهم بأنه يمدهم بالملائكة متزلين مردفين.

الآية (10) : لا ناصر للمجاهدين إلا الله أما نزول الملائكة فكان لتبشير المسلمين وتثبيت فؤادهم.

الآية (11) : نصر الله المجاهدين يوم بدر بالمطر والنعاس نصرا خاصا.

الآية (12) : الملائكة المجاهدون, وتربية الله إياهم, وتثبيت الملائكة أفئدة المسلمين, وإلقاء الله الرعب في قلوب الكفار.

الآية (13) : الذين يقاتلون المسلمين من الكفار هم أعداء الله ورسوله ويحادونهما.

الآية (14) : وبالجهاد يذيق الله الكفار العذاب الخزي وعذاب جهنم الأليم بانتظارهم.

الآية (15) : تولية الأدبار عند لقاء العدو أمر محرم.

الآية (16) : ويجوز هذا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة, وإن يكن لغيرهما فقد باء بغضب من الله.

الآية (17) : بيان أن كل ما يصيبه المسلمون الكفار من الأذى والقتل والهلاك هو ليس بفعلهم بل فعل الله, ويريد بهذا المن على المسلمين بنعمه العظمى.

الآية (18) : إن الله الذي يوهن كيد الكافرين ومكرهم وحيلهم.

الآية (19) : إن الله مع المؤمنين ولن تغني عن الكفار فئتهم شيئا ولو كثرت, أثبتت غزوة بدر هذه الحقيقة جيدا وأبرمها. فيا أيها المشركون! كفوا أيديكم وآمنوا بالله ورسوله وكونوا مسلمين وإلا لا خير في مستقبلكم فإنه مظلم.

الآية (20) : يا أيها الذين آمنوا استمعوا لما يقول الله لكم ورسوله ثم أطيعوا ما أمر الله به ورسوله خصوصا أمر الجهاد.

الآية (21) : ولا تكونوا كالمنافقين واليهود الذين يسمعون ثم لا يقبلون ولا يعملون.

الآية (22) : إن شر الدراب عند الله الكفار الذين لا يريدون أن يسمعوا الحق ولا أن يفهمـــوه ثم يقبلوه.

الآية (23) : ولم يبق فيهم خير يهديهم إلى قبول الحق.(فلا أسف ولا حزن إن قتل أمثالهم في الجهاد بأيدي المسلمين)

الآية (24) : في الجهاد حياة للمسلمين فامضوا في أمر الجهاد وأسرعوا خوفا من أن يحول القـــدر والموت فتحرموا حينئذ منه.

الآية (25) : واتقوا ترك الجهاد والنهي عن المنكر فإن وباله لا يفلت منه أحد واذكروا عقاب الله الشديد.

الآية (26) : ولا تهنوا ولا تهاونوا في قبول أمر الجهاد وإمضائه نظرا إلى قلتكم وضعفكم, بل انظروا إلى الماضي واذكروا كيف أيدكم الله بنصره (كذا يؤيدكم بنصره في المستقبل إن أمضيتم في الجهـــاد توكلا واعتمادا عليه – المترجم)

الآية (27) : على المؤمنين المجاهدين أن يتصفوا بصفة الأمانة ولا يخونوا أمانـــاتهم لا انفراديـــا ولا جماعيا.

الآية (28) : الحرمان من أجر الجهاد العظيم بسبب الانشغال بالأموال والأولاد هو خطأ فـــاحش وفشل في الامتحان.

الآية (29) : إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا وتأييدا ونصرا وغلبا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ذنوبكم. يعني لا توثروا أموالكم وأولادكم على أمر الله.

الآية (30) : كيد الله ومكره خير وأقوى من مكر الكافرين. فمكر أهل مكة بالنبي ﷺ ليقتلوه لكن الله جعلهم خائبين في مكرهم فأبطل مكرهم وعصم نبيه ﷺ منهم.(هذه إشارة إلى ليلة الهجـــرة), يريد الكفار أن يقضوا على سيادة المسلمين وهم أعداء النبي ﷺ.

الآية (31) : هؤلاء المشركون يعادون القرآن ويحادونه.وظهر أمامهم في غزوة بدر أن القرآن حق لكنهم يحادون رسول الله ودينه كليهما.

الآية (32) : كان المشركون قبل غزوة بدر في مغالطة ولا يدركون الحقيقة حتى يـــدعون علـــى أنفسهم ويطلبون العذاب الأليم على أنفسهم.

الآية (33) : وجود النبي ﷺ والاستغفار هما ذريعتان للنجاة من العذاب.

الآية (34) : يستحق المشركون العذاب بصدهم المسلمين عن المسجد الحرام, مـــع أن المســـلمين المتقين هم أولياءه.

الآية (35) : الذين يفعلون مكاء وتصدية في المسجد الحرام باسم العبادة هم سيعذبون بالجهاد.

الآية (36) : ينفق الكفار أموالهم في معاداة الإسلام والمسلمين وسينفقونها, لكنهم لا يجدون بجهدهم هذا إلا الحسرة والاستسلام, سلاح الكفار مالهم, فبه يحاربون المسلمين حربا اقتصاديا على النطاق الواسع.

الآية (37) : لا يمهل الكفار لإنفاق أموالهم ضد المسلمين إلا لتمييز الفريق الخبيث من الفريق الطيب في الدنيا والآخرة ثم يجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم. فالمال الذي ينفق في الجهاد مال طيب والذي ينفق ضد الإسلام والمسلمين هو مال خبيث. الفريق الذي يجاهد في سبيل الله طيب والذين ويقاتلونهم ويؤيدون الكفار ضد المسلمين هم خبيثون.

الآية (38) : باب الإسلام مفتوح أمام الكفار كل وقت, فإن أسلموا يغفر لهم ما قد سلف, وإن لم يسلموا ويعيدوا إلى عداوتهم للمسلمين فليذكروا عاقبة الأولين من جماعتهم.

الآية (39) : قاتلوا أيها المسلمون هؤلاء الكفار حتى لا تبقى لهم شوكة وقوة ويغلب دين الله الإسلام جميع الأديان ويجري أمر القرآن والإسلام في العالم كله, وإن انتهوا ورجعوا عن قتال المسلمين فلا قتال منهم.

الآية (40) : وإن لم يمنعوا من عداوتهم وقتالهم وحربهم ضد الإسلام والمسلمين فعلى المسلمين الثبات وأن لا يهنوا ولا يفزعوا ويستمروا في الجهاد وليعلموا أن الله مولاهم وهو نعم المولى ونعم النصير.

الآية (41) : بيان القانون الشرعي لتقسيم الغنائم.

الآية (42) : جعل الله للمسلمين الفتح والنصر يوم بدر مع كونهم مستضعفين وقليل العدة والعتاد وعدوهم أقوى منهم وعلى أهبة تام للحرب, فعل الله هذا لإتمام حجته على الكفار ولينجز ما وعده للمسلمين من علوهم ونصرهم على عدوهم وغلبة الدين.

الآية (43) : نصر الله المسلمين يوم بدر بعدة أنواع كان أحدها أن أرى الله النبي ﷺ في منامه الأعداء قليلا, فنفع المسلمين كثيرا.

الآية (44) : رأى كل فريق من المسلمين والمشركين غيرهم قليلا عند بداية وقعة بدر ونفع هذ الأمر المسلمين فوائد حربية كثيرة.

الآية (45) : ست طرائق للفوز في الجهاد: [1] خذوا الثبات عند لقاء العدو. [2] اذكروا الله كثيرا.

الآية (46) : [3] أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم من الأمور التي تتعلق بالجهاد. [4] لا تنازعوا أميركم ولا فيما بينكم فتفشلوا وتذهب ريحكم. [5] واصبروا وتعودوا على الصبر فإن الله مع الصابرين.

الآية (47) : [6] اجتنبوا البطر والخيلاء والرياء والتعدي على الدين فإنها أسباب الهزيمة.

الآية (48) : حضور إبليس يوم بدر ثم هزيمته ونكصه على عقبيه ذليلا مخذولا.

الآية (49) : قول المنافقين والذين في قلوبهم مرض عن المسلمين إن دينهم غرهم ورد القرآن على قولهم.

الآية (50) : من خرج من الكفار لقتال المسلمين توفاهم الملائكة بأقصى شدة وقساوة ضاربين وجوههم وأدبارهم مخبرين إياهم عن عذاب الحريق.

الآية (51) : إن الله لا يظلم أحد ولا يأخذ إلا مجرما بعقاب وعذاب, فما يتعرض له الكفار من قتل وهلاك ما هو إلا كسب أيديهم. (أعداء الإسلام يستحقون العقاب)

الآية (52) : ليس أخذ الكفار بهذه الصورة من العقاب بجديد بل هي سنة قديمة فأخذ الله من قبل آل فرعون ومن معه.(يستحق أعداء الدين العذاب)

الآية (53) : يحرم المرء من النعم إذا تغيرت نيته وحاله من الحسن إلى القبح ومن الشر إلى الخير.(أفسد أعداء الإسلام أحوالهم إذا واجهوا المسلمين)

الآية (54) : كآل فرعون مع فرعون فإنهم إذا لحق بنياتهم السوء والفساد عذبوا بالإغراق.

الآية (57,56,55): الجهاد ضد أهل الكتاب. الذين رفضوا إلا أن يكفروا ويريدون أن يستمروا في كفرهم وطغيانهم وينقضون ما عاهدوا إليك مرة بعد مرة ولا يخافون, هم شر الدواب عند الله, فإن ظفرت بهم في الحرب فافعل بهم فعلا يفرق به من خلفهم ومن يجيء بعدهم ويعتبروا به فلا يجرأ أحد منهم على نقض العهد.

الآية (58) : بيان كيف يلغى العهد والبعد عن ارتكاب الخيانة بتأكيد بالغ.

الآية (59) : لا يحسبن الكفار الذين أنقذوا أنفسهم في الحرب من المسلمين أنهم نجوا ولا يأخذهم الله.

الآية (60) : أعدوا لقتال الكفار والمشركين ما استطعتم من جميع أنواع الإعدادات الحربية فإنها يرهب بها الأعداء, وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم في الدنيا والآخرة ولا ينقص منه شيء.

الآية (61) : بيان أنه يجوز قبول اقتراح الصلح من الكفار إن مالوا إليه لكنه ليس بواجب ولازم على المسلمين.

الآية (63,62) : كفى بك ناصرا ومعينا وعاصما إن أراد الكفار بالصلح أن يخدعوك, فإنه قد أيدك من قبل (أي في غزوة بدر) بنصره وبالمؤمنين, وألف بين أصحابك بقدرته وحكمته البالغة, مع أنه كان أمرا محالا ولو أنفق له ما في الأرض جميعا من خزائنها إن لم يفعله الله.

الآية (64) : يا أيها النبي كافيك الله ومن اتبعك من المؤمنين.

الآية (65) : يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال جيدا فإنه يلزم على المؤمنين لقاء عدو يبلغ عدده عشرة أضعاف.

الآية (66) : الآن خفف عن المسلمين في هذا الأمر فعليهم مواجهة عدو بالغ عدده ضعفا مقابـــل عددهم.

الآية (67) : التنبيه الشديد على فك الأسرى بعد أخذ الفداء,(فعلى المسلمين البعد كل البعد عـــن الالتفات إلى المال في أي مرحلة من مراحل الجهاد) (فكان عليهم أن يقتلوا جميع الأسرى ولا يقبلوا منهم الفداء لتعزيز الإسلام وتذليل الكفر).

الآية (68) : لو لا حكم في الأزل العفو عن هذه الواقعة لمسكم عذاب أليم بسبب الفداء وعـــدم الإثخان.

الآية (69) : قد عفي لكم عن زلتكم هذه فهذا الفداء طيب وحلال لكم.

الآية (70) : من أسلم من الأسرى فلهم وعدان وبشارتان من الله ﷻ.

الآية (71) : وإن خدعوا في المستقبل فيتعرضون لمصيرهم فإنه أمكن منهم ولا يعجـــزون العلـــيم الحكيم.

الآية (72) : المهاجرون والأنصار أولئك بعضهم أولياء بعض, والذين لم يهاجروا من المســـلمين لا يرثونكم حتى يهاجروا إليكم, فإن أساس الأخوة الإسلامية والجماعة الإسلامية على الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد.

الآية (73) : الكفار بعضهم أولياء بعض, إن لم يجتمع المسلمون و لم يتحدوا و لم يكونوا أولياء فيما بينهم وناصرين بعضهم بعضا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

الآية (74) : الذين آمنوا ثم هاجروا ونصروا وآووا بعضهم بعضا هم المؤمنون حقا, لهم مغفرة ورزق كريم.

الآية (75) : والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله فهم أيضا مسلمون صادقون ومن زمرة المسلمين, لكن الميراث فإنه لا يرثه الآن إلا أولوا الأرحام من الأقارب.

﴿الأنفال﴾

اسم السورة: اسم هذه السورة "سورة الأنفال" وإنها سورة مدنية بدرية.
مدنية بدرية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء.(تفسير القرطبي – (7 / 360)
وسماه البعض ب"سورة بدر".
عن سعيد بن جبير أنه سئل الحبر عنها فقال : تلك سورة بدر. (روح المعاني – (9 / 157)
وقال ابن عباس: هي مدنية إلا سبع آيات، من قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا} إلى آخر السبع آيات. (تفسير القرطبي – (7 / 360)
وعند غير واحد من المفسرين هذه السورة كلها مدنية.

متى نزلت؟ نزلت بعد غزوة بدر تبين الحكم في غنائم بدر. قال الإمام أبو حيان: ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه. (البحر المحيط – (6 / 38) وفي الكشاف: نزلت بعد البقرة.(لم أجد هذه العبارة في الكشاف بل وجدتها في الجلالين – المترجم) (تفسير الجلالين – (3 / 168): نَزَلَتْ بَعْد الْبَقَرَة) و (تفسير الفخر الرازى – (1 / 2119): نزلت بعد البقرة).
نزلت سورة البقرة بأمر الجهاد بينما نزلت هذه السورة بطريق الجهاد وكثير من أحكامه وفوائد.
يقول العلامة عبد الماجد الدريابادي صاحب "تفسير ماجدي": هذه سورة فيها بيان الجهاد والقتال مع بيان أحكامه في الآيات الآتية.(تفسير ماجدي)

لماذا سميت بالأنفال؟

الأنفال جمع نفل ومعناه "الغنائم". قال البخاري : قال ابن عباس الأنفال: الغنائم. (تفسير ابن كثير – (4 / 5)
والغنائم عبارة عن مال مأخوذ من الكفار قهرا. ففي تفسير كبير: يحتمل أن يكون المراد من هذه الأنفال الغنائم ، وهي الأموال المأخوذة من الكفار قهراً. (تفسير الرازي – (7 / 356)
والنفل لغة يطلق على الزيادة. ففي روح المعاني: "الأنفال جمع نفل بالفتح وهو الزيادة". (روح المعاني – (9 / 160) وفي القرطبي: " والنفل: الزيادة على الواجب. (تفسير القرطبي – (7 / 361)

لماذا سميت الغنائم بالأنفال؟

(1) لأنها من الأشياء التي لم تحل للأمم السابقة وأحلها الله لأمة محمد ﷺ." لأنها زيادة فيما أحل الله لهذه الأمة مما كان محرما على غيرها". (تفسير القرطبي – (7 / 362)
(2) "النفل الغنيمة لأنها من فضل الله وعطائه".(تفسير النسفي – (1 / 409)
(3) "لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم التي لم تحل لهم". (روح المعاني – (9 / 160)

(4) " وسميت الغنيمة به لأنها زيادة على القيام بحماية الحوزة". (البحر المحيط – (6 / 38) و"لأنها زيادة على ما شرع الجهاد له وهو إعلاء كلمة الله تعالى وحماية حوزة الإسلام". (روح المعاني – (9 / 160)

اختار العلامة اللاهوري هذا القول وقال: الأنفال جمع نفل, ومعناه: الزيادة, والمراد منه الغنيمة, وسميت الغنيمة نفلا لأن غرض المجاهد من الخروج للجهاد هو الدفاع عن الحق ببذل نفسه, فالمال الذي يستحقه هو زائد على الغرض.(حاشية الشيخ اللاهوري)

وفي تفسير الحقاني: الأنفال جمع نفل, ومعنى النفل أو النافلة الزيادة على الأصل, وسميت الغنيمة نفلا لأنها تنتفع بها هذه الأمة لا غيرها من الأمم الماضية وهو زائد على الأصل (وهو الجهاد) وخصت أمة محمد ﷺ بحلتها فكانت حراما على ما قبلها من الأمم كما تدل عليها نسخ التوراة المختلفة حتى الآن. وتسمى الصلاة النافلة نفلا أو نافلة لأنها زائدة على الفرض الذي هو الأصل, وما يعطيه أمير الجيش جنديا على سبيل الجائزة في الحرب هو أيضا يسمى نفلا, وفي هذا المقام المراد منه الغنيمة التي تؤخذ من الكفار قهرا عند الحرب.(تفسير حقاني)

تطلق كلمة النفل أو الأنفال على الغنيمة و الغنائم كما تطلق على بعض أنواعها المخصوصة, وكذا يطلق على أسرى الحرب أيضا, لكن لفظ الأنفال في بداية هذه السورة وكونها اسما لها أطلق أكثر المفسرين على مال الغنيمة مطلقا, ففهم مما قاله أكثر المفسرين وجه تسمية هذه السورة بها وهي أن في هذه السورة بيان الغنائم والأمور الآتية المتعلقة بالغنيمة:

- لا تكون الغنيمة هدف المؤمن من الجهاد, لا يفوز إلا المجاهدون الذين يجاهدون لابتغاء وجه الله ويبتغون الآخرة, كأن المجاهد لا يجاهد إلا بعد تطهير قلبه من متاع الدنيا وأغراضها.
- الغنائم لله أصلا والخيار الكامل لرسوله ﷺ في قسمته.
- بيان الحكم الشرعي والقانون لتقسيم الغنائم حتى الساعة.
- ذكر بعض أحكام تتعلق بالأسرى الذين حصلوا في الغنائم.
- بيان كون الغنائم طيبا حلالا.

الحاصل ذكر كثيرا عن الغنائم في هذه السورة, أما من قالوا إنها سورة بدر فهو أيضا ظاهر, ففيها بيان غزوة بدر مفصلا, وجعلت مثالا للفوز في الجهاد في سبيل الله حتى الساعة, وذكرت طرق الفوز في الجهاد على أساسها, وذكرت فوائد الجهاد وصفات المجاهدين, والقوانين الحربية التي تتضمن للمسلمين الفوز في الدنيا والآخرة بشرط أن يعملوا بها.(والله أعلم بالصواب)

النكتة:

- يذكر اسم هذه السورة المسلمين فريضة الجهاد أي يجب عليهم ما يجلب الأنفال يعني الغنائم.
- يُذكّر اسمها المسلمين مستقبلهم الزاهر إذ كانوا في زمن من الأزمان يأخذون الغنائم من الكفار

قهرا, بينما في زمننا الحاضر يعيش المسلمون وهم يؤدون الضرائب إلى أعداء الإسلام ويستحيون من ذكر الغنيمة ومعناها.(والله أعلم بالصواب)

بشرى:

القرآن كتاب حي معمول به وهو آخر كتاب سماوي حتى الساعة فلا كتاب بعده, فيترشح من هذه السورة أن سلسلة الجهاد والغنائم مستمرة حتى يوم القيامة, ولا يزال المسلمون يأخذون الغنائم ويقسمونها وفق حكم القرآن, فكانت هذه السلسة مستمرة بغاية من الشدة والشوكة في أفغانستان قبل زمن قليل, والآن قد بدأت في العراق, يدل اسم السورة على مضي الجهاد والأنفال واستمراره.(والله أعلم)

فائدة:

اسم هذه السورة الأنفال, وإننا لا نسمع اسمها إلا تنتقل أذهاننا إلى الأنفال أي الغنائم, أي غنائم؟ تلك الغنائم التي اختلف بعض الصحابة فيما بينهم بسببها فنزلت هذه الآيات. متى حصلت للمسلمين هذه الغنائم؟ حصلت يوم بدر, ظفر فيه المسلمون ظفرا مثاليا تاريخيا. يذكر القرآن الكريم مرة بعد مرة غزوة بدر ليعتز المسلمون ويتقووا, ويؤمنوا بوعد الله ولا يتوكلوا إلا عليه, ويوجدوا في أنفسهم صفات أهل بدر, فذكرها القرآن في هذه السورة, وكذا يذكر القرآن ظاهر الهزيمة يوم أحد وينبه على الأخطاء التي كانت سببا للهزيمة الظاهرة, ويمنع من الضلالات التي تحدث بعد الهزيمة, فبيد الأمة هذا نصاب كامل للجهاد في سبيل الله ووظيفتها الوحيدة هي الدعوة والجهاد.

كلام البركة:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله في تفسيره: "نزلت سورة الأنفال بعد غزوة بدر عندما أذن للمسلمين بالقتال بعد الهجرة. فجاهدوا أولا القريش الذين كانوا ظلموهم أشد ظلم حتى اضطروا للهجرة. وكان المسلمون لا يريدون أن يهاجموا قريشا في مكة بسبب حرمتها لكنهم يتعرضون لقوافلهم حتى في السنة الثانية من الهجرة لما رجعت عير قريش من الشام إلى مكة أراد رسول الله ﷺ التعرض لها فخرج إليها مع أصحابه لكن العير أفلتت من أيديهم والتقى الجمعان وفتح الله للمسلمين فتحا عزيزا وقتل سبعون من أشرار قريش وأسر سبعون آخرون.(موضح القرآن)

كان هذا الجهاد إقدامياً لا دفاعيا:

اقرؤوا ما كتبه المفسر العثماني في عباراته الجامعة العلمية المعجبة يقول:

من يرأى أن خروجه ﷺ من البداية لم يكن إلا لمواجهة جيش قريش يتقدم إلى المدينة بنية الهجوم عليها والدفاع عن أنفسهم هو رأي باطل وخيال ناقص ينبني على دراية مزعومة وأصل اخترعوه بأنفسهم, ثم يريدون أن يؤولوا كل ما يخالف درايتهم وأصلهم من الأحاديث والآيات وروايات

السيرة والتاريخ. أما أنا فلا أكاد أفهم أن الكفار المحاربين الذين ظلموا المسلمين أنفسهم وأموالهم و لم يتركوا منهما شيئا إلا ظلموه و لم يكن مرجوا في المستقبل أنهم يمتنعون مما يفعلون من ظلمهم وتعذيبهم على المسلمين, يجوز حربهم وقتلهم وإهلاكهم لكن التعرض لعيرهم والهجوم على قوافلهم التجارية يكون خلافا للحضارة والإنسانية, يعني لم يعصم الكفار دماءهم من المسلمين بسبب ظلمهم وعدوانهم وكفرهم وطغيانهم لكن أموالهم لم تزل معصومة, يعني لا حرج إن حرموا من حياتهم لكن يقع حرج كبير إن حرموا من متاع دنياهم, إن هذا لشيء عجاب! أما زعم من يزعم أنه لا يجوز هجوم المسلمين على من لم يهاجموا عليهم من الكفار فإنه يكون مخالفا لآية "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم", فبقطع النظر إلى أن هذه المسئلة والقضية لا تتعلق بالواقعة الحالية, لأن كفار مكة كانوا قد فتحوا باب الظلم فظلموا المسلمين ظلما عظيما و لم يتركوا أي نوع من أنواع الظلم إلا فعلوه وهاجموا على أموالهم وأنفسهم, ويهددونهم في المستقبل أيضا بل كانوا يدبرون المؤامرات ضد المسلمين ويكتبون الرسائل إلى القبائل ويبعثون إليهم الوفود لتحريضهم ضد المسلمين, ليست بصحيحة في نفسها لأن هذه الآية المذكورة التي تستعمل ضد الجهاد الإقدامي كانت نزلت في بداية زمن الهجرة, ثم بعدها نزلت آيات أخرى تشتمل على حكم القتال المطلق, ثم ليلاحظ هذا الأمر أيضا أنه لا يلزم من قوله "قاتلوا من يقاتلونكم" أنه لا يجوز بأي حال من الأحوال للمسلمين أن يبدءوا بالهجوم.(تفسير عثماني)

الملخص الجامع الموجز لمحتويات سورة الأنفال:

سورة الأنفال سورة أساسية للجهاد, فذكر فيها قوانين الحرب إلى قيام الساعة وفوائد الجهاد مفصلا, مع ذكر صفات وأوصاف خلقية إيمانية إن اتصف بها المجاهدون في أي زمن من الأزمان لا يفشلون في جهادهم بل ينتصرون ويغلبون.

اقرؤوا في ضوء سورة الأنفال خمسة عشر قانونا للحرب وعشرين فائدة للجهاد وخمسة وعشرين صفة للمجاهدين:

15 قانونا للحرب:

1- الثبات عند القتال وعدم تولية الأدبار: الآية 51.

2- إطاعة الله ورسوله خلال الحرب أيضا: الآية 20.

3- طاعة الأمير: الآية 24.

4- إذا خطر بالقلب تدبير حربي فليعمل به بدون تأخير: الآية 42.

5- عدم ارتكاب الخيانة فإنها سبب الجبن: الآية 27.

6- التنافس في تقديم التضحيات والمسابقة فيها: الآية 29.

7- التكثر والاستمرار في ذكر الله: الآية 45.

8- التضامن والاتحاد في الجيش: الآية 46.

9- لا تقاتلوا الكفار إلا قتالا ضارية: الآية 57.

10- الإعداد التام قبل الحرب والمداومة على إلقاء الرعب في قلوب الأعداء: الآية 60.

11- لتكن جماعة تحرض المؤمنين على القتال كل وقت وحين: 65.

12- الإثخان عند الظفر بالأعداء المحاربين ثم الأسر: الآية 67.

13- اجعلوا من ظفرتم بهم من الأسرى متعاملين معكم فيكونون عيونا لكم ضد جماعتهم: الآية 70.

14- إن استنصركم مظلوم فعليكم النصر (ففي ذلك الوقت يترل نصر الله): الأية 72.

15- إن وقع التحالف بين الكفار فتحالفوا أنتم أيضا ضدهم: الآية 73.

فوائد الجهاد:

1- يظفر الإنسان بصراط الحق: الآية 5.

2- يستسلم الكفار أيضا لغلبة الإسلام.

3- يلقى الإنسان الملائكة: الآية 9, 10.

4- يؤيد الله عباده المؤمنين على سبيل خرق العادة: الآية 11.

5- يتلذذ المجاهد بحب ربه وقربه: الآية 17.

6- يسعد الإنسان بحياة حقيقية: الآية 24.

7- يرزق الله رزقا طيبا ومثوبة كريمة ببركة الجهاد: الآية 26, 74.

8- يغفر الله الذنوب ويكفر عن السيئات: الآية 29.

9- يجعل الله للمجاهد الفرقان ونور الفراسة: الآية 29.

10- يصاب الكفار بخسارة مالية شديدة حتى يصيرون مفلسين ومعوزين: 36.

11- يتميز الخبيث من الطيب: الآية 37.

12- وتزول قوة الكفار وشوكتهم: الآية 39.

13- تحصل الغنائم بسبب الجهاد: الآية 41.

14- تتم الحجة على الكافرين: الآية 42.

15 تحصل للمسلمين أكثر من واحد من البشارة من الله: الآية 43.

16- يحصل الفلاح أي الرقي والفوز: الآية 45.

17- يدخل قلوب الكفار رعب المسلمين فيرهبون منهم: الآية 60.

18- يحصل التأليف والائتلاف والتضامن والوحدة بين المسلمين: الآية 63.

19- يزيد الله المؤمنين قوة وبطشا: الآية 65.

20- يتم الإيمان ويكون كاملا غير ناقص: 74.

25 وصفا للمجاهدين:

1- التقوى: الآية 1.

2- إصلاح ذات البين: الآية 1.

3- إطاعة الله ورسوله ﷺ: الآية 1.

4- خشية الله: الآية 2.

5- الشغف بالقرآن: الآية 2.

6- التوكل: الآية 2.

7- إقامة الصلاة: الآية 3.

8- الإنفاق في سبيل الله: الآية 3.

9- الاستغاثة من الله: الآية 9.

10- الثبات: الآية 11.

11- الاستجابة لدعوة الجهاد حالا: الآية 15.

12- إطاعة الأمير: الآية 20.

13- الشكر: الآية 26.

14- النهي عن المنكر: الآية 27.

15- تقديم الأموال والأولاد في سبيل الله وتضحيتهما: الآية 28.

16- السعي كل السعي لقمع شوكة الكفار وإزالتها: الآية 39.

17- القسمة الشرعية للغنائم والأموال الاجتماعية: الآية 41.

18- البعد كل البعد عن الوقوع في التنازع ذات البين: الآية 46.

19- الصبر: الآية 46.

20- ترك الرياء والسمعة والتكبر: الآية 47.

21- السعي المتواصل لازدياد القوة الحربية العسكرية: الآية 60.

22- الاعتناء البالغ بما يجري حوله من الأحوال: الآية 61, 62.

23- الدعوة إلى الجهاد: الآية 65.

24- الاجتناب كل الاجتناب من حب الدنيا وزخارفها: الآية 67.

25- الرعاية التامة للعلاقة الإيمانية بغض النظر عن القومية والوطنية واللسانية: الآية 72.

تحقيق العلامة المفسر اللاهوري:

ذكر المفسر أحمد علي اللاهوري في ضوء سورة الأنفال ثلاث عشرة مادة حربية ثم قال: تحيط هذه البنود 13 جميع قوانين الحرب ولا يمكن لأي قانون حربي من قوانين عالم الحرب أن يبقى خارجا من هذه البنود 13:

1- الاستقامة والثبات عند لقاء العدو: الآية 15.

2- إطاعة الله ورسوله عند القتال: الآية 20.

3- واعتقدوا في إطاعتهما حياة لكم: الآية 24.

4- لا تخونوا أماناتكم وأداء ما فوض إليكم من الواجبات والفرائض.: الآية 27.

5- يلزم التقوى للسعادة بالفرقان: الآية 29.

6- غاية القتال (غرض الجهاد وهدفه): الآية 39.

7- القانون لقسم الغنائم: الآية 41.

8- التعهد والعناية بذكر الله في ساحة الحرب: الآية 45.

9- التلقين والتأكيد لترك التنازع فيما بينهم: الآية 46.

10- إعداد آلات الحرب: الآية 60.

11- استعداد الإسلام كل حين من الأحيان لقبول السلم والصلح: الآية 61.

12- الأمر بالتحريض على القتال: الآية 65.

13- الرعاية والاهتمام في المقاصد السياسية بتلك الجماعات من المسلمين التي ترتبط بالمركز لا غير.

﴿سورة الأنفال مدنية :الآية 1﴾

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ الأنفال: ١

ملخص الآية:

ليست الأنفال إلا لله ورسوله, فلا ترجوا منها شيئا واتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم من العلاقات والمعاملات, وأطيعوا الله ورسوله فإن من يؤمن بالله ورسوله يفعل هكذا كما أمر.

فائدة:

حصلت للمسلمين في غزوة بدر الغنائم بكثيرة, و لم يكن عندهم حتى ذلك الوقت دستور للقسمة, والمجاهدون البالغ عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا الذين نجحوا في امتحانات الهجرة والنصرة كانوا بعيدين كل البعد عن شح المال, فكانوا طالبين رضا الله والآخرة, لذلك لم يروا إلى عدم تأهبهم للقتال وإلى قلة عددهم ولقوا عدوا كان أقوى منهم عدة وعددا, لكن مع هذا كله كانت الغنائم أموال الخير والبركة وحصلت لهم بفضل الله وتأييده الخاص لذا وقع شيء من الاختلاف من بعض الصحابة في تقسيمها, فأنزل الله: "الأنفال لله والرسول", فما إن سمع هذا الصحابة ﷺ حتى رغبوا عنها وزهدوا فيها وصاروا كما كانوا من قبل, إذن أنزل الله دستور القسمة للغنائم والأنفال حتى قيام الساعة بقوله: "واعلموا أنما غنمتم..." فقسمها بينهم وفق هذا الدستور وردها إليهم ما اختلفوا فيه من الغنائم.(والله أعلم بالصواب)

فائدة:

ذكر في هذه الآية نصاب الفوز والفتح في الجهاد للمجاهدين إلى قيام الساعة, هذا النصاب ذو النقاط الخمسة يضمن فلاح الدنيا والآخرة, والذين يعملون به من المجاهدين لا يزالون فاتحين غالبين منصورين, فقال الله ﷻ في كتابه: "وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين". ذكر الله في هذه الآية خمسة أعمال هي مقتضى الإيمان:

1- أولها: طاعة الله. 2- ثانيها: طاعة الرسول ﷺ. 3- ثالثها: التقوى. 4- رابعها: إصلاح ذات البين علاقة ومعاملة. 5- خامسها: لا يكون الجهاد لمتاع الدنيا وزينتها.

فأي مجاهد وأي جماعة وجدت فيها هذه الأمور الخمسة تصير على نهج غزوة بدر وتستحق تأييد الله بنصره, وكل جيش مسلم اتصف بهذه الصفات الخمس لا تثبت أمامه أي قوة عسكرية شيطانية كافرة.(والله أعلم)

الأقوال والمراجع:

يسألونك عن الأنفال: (1) أي كيف مصرفها ومن المستحق لها. (تفسير الرازي – (7 / 355)

(2) الْغَنَائِم لِمَنْ هِيَ. (تفسير الجلالين – (3 / 168)

(3) يسألونك عن الأنفال أي من الأنفال، والمراد من هذا السؤال: الاستعطاء.(تفسير الرازي – (7 / 355) (يعني عن بمعنى من)

من كانوا سائلين؟:

وهم أقوام من الصحابة. (تفسير الرازي – (7 / 355)

روى الإمام القرطبي: عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بواء. (تفسير القرطبي – (7 / 361)

لَمَّا اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي غَنَائِم بَدْر فَقَالَ الشُّبَّان : هِيَ لَنَا لِأَنَّنَا بَاشَرْنَا الْقِتَال وَقَالَ الشُّيُوخ : كُنَّا رِدْءًا لَكُمْ تَحْت الرَّايَات وَلَوْ انْكَشَفْتُمْ لَفِئْتُمْ إلَيْنَا فَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِهَا فَنَزَلَ : "يَسْأَلُونَك" يَا مُحَمَّد "عَنْ الْأَنْفَال". (تفسير الجلالين – (3 / 168)

فائدة: كان حصل للمسلمين فتح عجيب مع أنهم لم يكونوا على تأهب حربي وليس عندهم عدة وعتاد. كان جبريل عليه السلام نزل من السماء مع الملائكة للمشاركة في غزوة بدر. والمشركون الأقوياء من مكة كانوا على الأرض مقتولين مخذولين. كان سبعون أسرى منهم في أسر المسلمين. وكان المسلمون في فرح وسرور بالغ, فلما وقع الاختلاف لشيء من الوقت في هذه الحال من السرور والفرح فتح الله باب الوحي وأرشد المسلمين إلى أن يحافظوا على الإيمان والطاعة والورع والوحدة والتوافق والإخلاص الذي به جعل الله لهم هذا الفتح العظيم, ولا تلتفتوا إلى متاع الدنيا وزينتها بل انظروا إلى الجنة ربكم ومغفرته ورزق الآخرة الكريم. اقتحمتم ساحة الشهادة مخلصين له الدين فحصلتم للفتح العزيز والمال الكثير, فداوموا على حال إخلاصكم وزهدكم في دنياكم فبه يستحق العبد المؤمن بربه الواحد القهار الفتح والنصر المبين, وهذا أمر حق أن الفتح والنصر لا يحصل لأهل الإيمان إلا بتأييد الله بنصره وإعانته.(والله أعلم)

يقول الشاه عبد القادر في تفسيره: " كان بعض الصحابة في ساحة القتال أثناء الحرب إلى الأمام وبعضهم إلى الخلف, فلما جمعت الغنائم قال المتقدمون إنها لنا فإننا فتحنا, وقال من خلفهم: إننا عززناكم وأيدناكم من وراءكم فقاتلتم, فجعل الله كلا منهما ساكتا بقوله إنا فتحنا لكم وما كان من الممكن أن يحصل لكم الفتح بدوني, فلا حول ولا قوة إلا بنا, وبدوننا لا حول ولا قوة ولا صولة ولا كرة.

فالمال لله ونائبه فيه رسوله. ثم ذكر الله في عدة آيات متقدمة وذكر الصحابة أن هذا الفتح نتيجة تأييد الله بنصره فلا تعتقدوا أنكم هم الفاتحون بأنفسكم. (موضح القرآن)

إصلاح المجاهدين:

قوله تعالى {{قل الأنفال لله والرسول}} يعني إن لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم حقـــاً أن يتصرف في توزيع الأنفال كيف ما شاءا ، كما أن فيه رداً على من زعم أن الغنيمـــة حـــق الغـــزاة والمجاهدين ، لأن الوعد مع المجاهدين هو أجر الآخرة ودخول الجنة ونعيمها دون متاع الدنيا، فـــلا يجوز لهم أن يقاتلوا من أجل الغنيمة وأنه سيكون لهم فيها حق الملك والتصرف كما يشاءوا .

وقد كانت الحكومات و الدول الراقية ذات الحضارة والمدنية قبل بدء الإسلام في مصر والهند وفارس واليونان والروم وقد نشب فيما بينهم من الحروب الدامية وجرت المعارك فيهم لن ينســـاها التاريخ ، ولكنهم لم يوجد فيهم من أتى بقانون أو دستور أو أصول قائم على العدل والإنصـــاف في شأن الغنيمة مع وجود كبار العلماء والمفكرين الذين أصلوا أصولاً وقرروا قرارات في شئون الحروب والغنيمة ولكنها خلت من العدل والقسط فجاء القرآن الكريم بدستور بين وقانون عدل الذي تحدى أصولهم وقراراتهم الحربية وبين لهم أصولاً ودستوراً يقوم على العدل والإنصاف أن الغنيمة ليســـت ملك مليك أو قادة جنود أو أفراد جيش أو لشعب وقوم بل إنما هي ملك لله تعالى ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم و لهما حق الملك والتصرف فيها ، وهذا هو أنفع صورة تنشأ الإخلاص في أفـــراد الجيش ومجاهدي المعارك.(تفسير ماجدي)

أصول مهم لاقتصادي إسلامي

إن الجواب على سؤال {يسئلونك} ممتع وبليغ بأن مالك الغنيمة هو الذي مالك الـــنفس والمال ، كأنه قيل كما أن الربوبية له (أي لله) صفة خاصة كذلك الملك،فهو مالك كل نفس ومالك كل مال ، فعلم بذلك أن في النظام الإسلامي القانون المنفذ هو حكم الله تعالى،والملك لله والأرض لله كذلك كل مال حصل من العدو فهو لله يتصرف فيه كما يشاء . (تفسير ماجدي)

فالحاصل أن على المجاهد أن يجاهد ابتغاء مرضاة الله وإعلاء كلمة الله وليفوض أمـــر قوتـــه ورزقه إلى الله وليزكه نيته وهدفه متذكراً أن المال مال الله يعطيه من يشاء ، وما يجد من المال فيحمد الله عليه بأنه منحه ورزقه ولا يعلق نفسه بأحد سوى الله ، وهذا هو الإخلاص لله تعالى فمن أخلص نيته وصحح قصده وأمن بالله أنه رازقه وكافله لاستغنى عما في أيدي الناس واستطاع أن يقف لوحده أمام قوة كبيرة في عالم الكفر والطاغوت بعون الله ونصرته .

الربط بين التقوى والجهاد :

وبعد بيان حكم الغنيمة قال تعالى :{{فاتقوا الله}} والتقوى هي الإيمـــان بـــالله والعمـــل بمقتضاته والبعد عما نهى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وفيه إشارة إلى أنكم إن ملأتم قلـــوبكم بحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وجعلتموها مطيعة لله ورســـوله صـــلى الله عليـــه وســـلم ليستخلفنكم في الأرض ، فلو تركتم معصية الله مخافة منه ليفتحن عليكم أبواب النعم ، ولو جعلـــتم أنفسكم خاضعة لأمر الله لينصرنكم على العدو وليمنحنكم الغلبة والحرية ، فاعلموا أن نصـــرة الله يتوقف على الإيمان بالله وأن تقوى الله هي حصار الإيمان ولا جهاد إلا بالتقوى .

قال المفسر عبد الماجد الدريابادي : كلمة {{اتقوا الله }} تتضمن جميع حقوق الله تعـــالى ، ويرى الناس أن شعبة الحرب هي شعبة مادية دنيوية محضة ولكنها في الإسلام هي شعبة دينية أحاطها الله تعالى بحصار التقوى . (تفسير ماجدي)

مفهوم نفيس لمعنى التقوى :

لا شك أن التقوى هي أساس الجهاد ولا بد منها في كل مراحل الجهاد لئلا يحرم من نصرة الله تعالى ولئلا يستعمل الجهاد بالغلط ، إلا أن سياق الآية يدل على أن المراد بالتقوى ههنا هي تقوى الله في شئون المجاهدين فيما بينهم بأن عليهم أن يتقوا الله فلا يتنازعوا ولن يقع النزاع فيما بينهم إذا أطاعوا الأمير .

قال القرطبي رحمه الله تعالى :

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} أم بالتقوى والإصلاح، أي كونوا مجتمعين على أمر الله في الدعاء: اللهم أصلح ذات البين، أي الحال التي يقع بها الاجتماع. فدل هذا على التصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، أو مالت النفوس إلى التشاح؛ كما هو منصوص في الحديث. تفسير القرطبي - (7 / 364)

كأن الاتفاق بين المجاهدين يحصل بالتقوى والطاعة ، ولا بد في الجهاد من الاتفاق والألفة بين المجاهدين .

قال الزمخشري :

{ فاتقوا الله } في الاختلاف والتخاصم ، وكونوا متحدين متآخين في الله.

الكشاف - (2 / 334)

قال الإمام الرازي :

معناه فاتقوا عقاب الله ولا تقدموا على معصية الله ، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأحوال . وارضوا بما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم . تفسير الرازي - (7 / 357)

وقال أبو حيان : وأمرهم بالتقوى ليزول عنهم التخاصم. البحر المحيط - (6 / 39)

الخطر الأعظم للجهاد:

إن سورة الأنفال هي سورة تربي المسلمين تربية الجهاد وتعلمهم طرق الفتح والغلبة ، فالجملة الأولى منها ربت المجاهدين أن يخلصوا نياتهم ويزكوا أهدافهم الجهادية من دناءة الحصول على متاع الدنيا بل ليفدوا أنفسهم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فعلم بذلك أن الخطر الأكبر للجهاد والعقبة الحاجزة دون قيامه هي حب المال فقط ، فحب المال هو يمنع المسلمين عن القيام بالجهاد ، وإن جاهدوا وفي نفوسهم هذا الحب لأداهم إلى الفشل والهزيمة ، لذا عالج الله تعالى هذا المرض بقوله تعالى {الأنفال لله والرسول}، وهذا حب المال هو سبب النزاع بين المجاهدين كما وقع في غزوة بدر الكبرى ، فعالج سبحانه تعالى هذا الحب بأمره إياهم بتقوى الله لئلا يقع النزاع فيما بينهم .

قال النسفي:

فاتقوا الله في الاختلاف والتخاصم وكونوا متآخين في الله . (المدارك)

ويمكن أن يقال: أن الجملة الأولى يعني {{قل الأنفال لله والرسول}} حث المسلمين على اختيار الاخلاص والجملة الثانية أي {فاتقوا الله} فيها أمر التقوى وهكذا صلحت نياتهم واتحدت جماعتهم .

قال الآلوسي رحمه الله تعالى :

فاتقوه سبحانه وتعالى واجتنبوا ما أنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لشق العصا وسخطه تعالى . تفسير الألوسي - (7 / 9)

فوائد التقوى النفيسة:

ما هي التقوى ؟ وما هي ثمراتها وفوائدها التي وردت في القرآن الكريم ؟ وكيف يكتسب صفة التقوى ؟ للتعرف على ذلك كله يناسب مطالعة كتاب '' أبعون مرضاً لليهود'' ص (154).

علاقات المجاهدين :

قال تعالى: {وأصلحوا ذات بينكم} يعني أصلحوا أموركم وأحوالكم .

(1) {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ } أحوال بينكم يعني ما بينكم من الأحوال التي تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق. تفسير النسفي - (1 / 409)

(2) أي {وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ } أصلحوا أموركم حتى لا يبقى فيكم شيء من الحسد والبغضاء وأدوا كل ذي حقه .

(3) و ذكر ابن كثير في تفسيره قول السدي : {وأصلحوا ذات بينكم} أي لا تستبوا . (ابن كثير)

(4) قوله تعالى : { وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ } أي وأصلحوا ذات بينكم من الأقوال. تفسير الرازي - (7 / 358) تفسير ابن كثير - (4 / 10)

(5) قوله تعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ } أي: اتقوا الله في أموركم، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه.

أي على المجاهدين أن يكونوا على وفاق وتآلف فلا يتشاجروا في أمور تافهة.

(تفسير عثماني)

(6) والمراد ب ''فأصلحوا ذات بينكم'' عند بعض المفسرين هي المشاجرة التي وقعت بين المجاهدين في غزوة بدر.

قال المفسر آلوسي رحمه الله :

وعن عطاء كان الإصلاح بينهم « أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اقسموا غنائمكم بالعدل : فقالوا : قد أكلنا وأنفقنا . فقال عليه الصلاة والسلام : ليرد بعضكم على بعض ». تفسير الألوسي - (7 / 10)

خلاصة الكلام:

إن الوفاق والاتحاد بين أفراد الجماعة هو المفتاح الأساسي للنجاح في الجهاد وإذا كانت الألفة والمحبة حلت مكانتها في نفوس المجاهدين فذلك أنفع لهم وبها تزداد قوتهم الجهادية ، بينما النزاع والمشاجرة تسبب ذهاب رياح المجاهدين وتنكسر بها قوتهم ، ولا شك أن المال هو يكون سبب الخلافات والنزاعات بين أفراد الجماعة لذلك قال جل في علاه {قل الأنفال لله والرسول} وصرف نظر المجاهدين من المال .

وثاني سبب الاختلاف في الجماعة هو العجب بالنفس فأزال سبحانه وتعالى عنهم هذا المرض النفسي بأمره إياهم تقوى الله ، ثم أمرهم بأن يصلحوا أحوالهم ويصححوا أمورهم واللسان هو آلة الخير و الشر يستعين بها الإنسان في أمور الخير والشر، فالكذب والغيبة والنميمة واللعن والطعن والسب والشتم هذه كلها من واردات اللسان التي تكسر قوة الجماعة ،لذلك أمر المجاهدون بالإصلاح ذات بينهم بكف اللسان عن الشر من اللعن والطعن والسب والشتم والنميمة والغيبة والبهتان إلى غير ذلك من الصفات السيئة لأن بها ينشأ الخلاف والنزاع في أفراد الجماعة فإذا خلت الجماعة منها صلحت الجماعة وصلحت أمورها، بل على المجاهدين أن ينشروا الفضائل فيما بينهم من إيثار وتآلف أخوي .

تنبيه :

الأحكام المذكورة في الآية الكريمة هي للمسلمين بأجمعهم وخاصة للمجاهدين منهم.

قال المفسر عبد الماجد : اعلموا أن لسورة الأنفال علاقة وطيدة بالجهاد والقتال كأنها سورة تخص الجهاد و أحكامه مع ذلك تبدأ بأمور التقوى و إصلاح ذات البين وطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم والثبات على الإيمان بالله ، فهل يستوي من اتصف من المجاهدين بهذه الصفات العلى ومن دعا إلى الحزبية والقومية وفرق الأقوام بالعصبية الجنسية والوطنية واتبع هواه وانغمس في الحرص والطمع للملك والمال والجاه وأراد أن يستبعد عباد الله فيغزو البلاد ويأسر العباد للحصول على الملك والمال ؟

وهل يستوي من جاهد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله مع اتصفافه بالصفات العلى المذكور أعلاه ومن غزا لاستيلاء البلاد وأخد زمام حكمها حسب أهوائه النفسية الدنيئة ؟ وشتان ما بينهما و البعد

بينهما واضح كالمشرق من المغرب وهذا الأمر أوضح من ضوء الشمس رابعة النهار . (تفسير ماجدي)

وصفة حفظ اللسان :

ما أحوج الإنسان إلى حفظ اللسان ؟ وكيف يمكن الاتصاف به ؟ وما هي فوائد حفظ اللسان ؟ من أراد الإطلاع على ذلك كله فعليه مطالعة كتاب '' أربعون مرضا لليهود'' ص (703) .

إطاعة اللّه وإطاعة رسوله صلى اللّه عليه وسلم :

(1) قوله تعالى: { وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ } في كل ما يأمر به وينهى عنه في ذلك مصالح لا تعلمونها وإنما يعلمها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

(2) { وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ } فيما أمرتم به في الغنائم وغيرها.

تفسير النسفي - (1 / 409)

(3) **الجهاد والطاعة** :

إن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم هي أساس الإيمان ، إن وجوب طاعة الله تعالى على العباد لأنه القادر المطلق والحاكم الوحيد، أما وجوب طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه آتى بأحكام الله تعالى إلى العباد وناب عن ذات الله تعالى في شرح رسالته لهم ، و حكم {أطيعوا الله ورسوله } لفت النظر إلى أن يكونوا طالبي الآخرة لا طالبي الدنيا ولا يتنازعوا في تقسيم الغنيمة لأنها شيء من عرض الدنيا الفانية، علماً بأن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تخص قضية الجهاد وتقسيم الغنائم وإنما هي واجبة على كل مسلم في كل الأمور دقها وجلها . (تفسير ماجدي)

خلاصة الكلام :

أمروا بأن يكلوا أمر الغنيمة إلى الله ويتمسكوا بالتقوى ولا يتنازعوا بل يصلحوا ذات بينهم ، وقد يشكل على البعض أن هذه الأمور ليست بهين وسهل والإنسان بحاجة إلى المعاش ، والتقوى أمر صعب ، وإن التقوى لها درجات ومستويات مختلفة لدى البعض من الناس فما هي التقوى المطلوب منا ؟ وقد يشكل على البعض أنه كيف يمكن الاجتناب من الخلاف في الجماعة ؟ لأن الطبائع مختلفة والعواطف والأفكار متنوعة فما هو سبيل توحيد الناس في الجماعة وعدم الخلاف فيما بينهم ؟ عالج

الله تعالى هذه الإشكاليات كلها بأمره إياهم بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ووكل أمورهم إلى الله تعالى ،يعني افعلوا ما أمركم به واجتنبوا عما نهاكم عنه ، استحسنوا ما حسَّن لكم واستقبحوا ما قبَّح لكم فإذا فعلتم ذلك تيسرت لكم الأمور و انحلت مشكلة الرزق ورزقتم الإخلاص والتقوى ولا ينشأ فيكم الخلاف ، فلذلك ثبتوا أنفسكم على الطاعة بل اجعلوها عقيدة حياتكم وعماد عيشكم ،وطاعة الأمير هي طاعة الله طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فالزموا الطاعة ولا تخافوا من مواجهة المشقة في سبيلها لأن من لزم من المجاهدين بطاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وتحمل المشقة لأجلها سهل له العمل على كل حكم من أحكام الله وأحكام رسوله صلى الله عليه وسلم وأحكام قادته بل وتنبسط نفسه ويرتاح قلبه في الطاعة ، ووقوع النزاع والخلاف في الجماعات أمر طبيعي وعلاجه رده إلى الله والرسول وإلى أولي الأمر منهم وهذا هو حكم الشريعة الإسلامية وهذا هو الحل الوحيد لإنهاء التنازع والاختلاف فإذا فعلوا ذلك توحدت الجماعة وارتاحت الأنفس واطمئنت القلوب.

وإن هذه السورة المباركة بدأت بتعليم الإخلاص والتقوى وإصلاح ذات البين ، وهذه الأمور هي التي توحد بين صفوف الجماعة وتجمع شملها وتجنبها من التفرق والتشتت ، وهل بمقدرة أحد أن يأتي للفتح والغلبة وصفات أحسن من هذه الوصفات الشرعية ؟ وها هي الوصفات والأوصاف التي عمل بها الصحابة حتى استولوا على الحكومات والدول وأعلوا راية الإسلام فأظهروه على الدين كله . رضي الله عنهم ورضوا عنه .

الإيمان الكامل:

{إن كنتم مؤمنين} كاملي الإيمان (تفسير النسفي)

أي إن كنتم مؤمنين حقاً فأطيعوا الله وأطيعوا رسوله صلى الله عليه وسلم ، والمسلم كلما ازداد طاعته لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم يزداد إيمانه وتعلو درجاته وترسخ جذور الإيمان في قلبه، والآية الكريمة تذكر المؤمن أن الطاعة هي من أولى مسؤولياته ، فكلما ورد الفساد في جماعة المسلمين يقال لهم : إنكم تحسبون أنفسكم مؤمنين والإيمان هي نعمة كبرى فحافظوا عليها واعملوا بمقتضياتها واحصلوا على درجاتها ، ولا يخفى عليكم أن كل نعمة من نعم الآخرة هي تتوقف على الإيمان بالله ولن ينفع عمل بدون إيمان في كل مرحلة من مراحل الآخرة الآتية . (والله تعالى أعلم بالصواب)

سورة الأنفال مدنية (2-3-4)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) [الأنفال : 2 - 4]

خلاصة مضمون الآية:

إن المؤمنين حقاً هم الذين اتصفوا بالصفات الخمس المذكور في الآية.

(1) أولئك الذين وجلت أي خافت قلوبهم عند ذكره تعالى.

(2) وإذا تلي عليهم آياته زادتهم إيمانا.

(3) والذين على ربهم يتوكلون .

(4) والذين يقيمون الصلاة .

(5) والذين ينفقون مما آتاهم الله .

{ أولئك } : أي الموصوفون بالصفات الخمس السابقة لهم من عند ربهم إنعامات ثلاثة.

(1) { لهم درجات } : منازل عالية في الجنة .

(2) ومغفرة .

(3){ ورزق كريم } : أي عطاء عظيم من سائر وجوه النعيم في الجنة .

فائدة:

المسلم إذا خرج للجهاد متوكلاً على الله منيباً إليه ناوياً بذل نفسه وماله في سبيله فهو الصادق في هدفه الجهادي يفتح له أبواب النصر والغلبة بإذن الله تعالى .

أما علامات صدق المجاهد في جهاده فهي كالآتي:

(1) تكون عظمة الله في قلبه .

(2) يسترشد من كتاب الله .

(3) يكون عماد توكله على الله فلا يفوض أموره إلى ما سوى الله ولا يخاف إلا الله ولا يرجو إلا منه .

(4) وجميع عباداته المالية تكون خالصة له .

وبتعبير آخر نستطيع أن نقول أن يكون قلبه مليئاً بحب الله تعالى بحيث يكل أموره إليه ولا يتوكل إلا عليه ولا يعبد إلا إياه ولا ينفق ماله إلا في رضاه ،

أو نستطيع أن نقول:

أن يكون قلبه ممتلأً من عظمة الله ، وهذا لا يتأتى إلا بقراءة القرآن ومحبته وهذا لا يتأتى إلا إذا صرف نظره من الدنيا وزهرتها وأناب إلى ربه جل في علاه،ولا يمكن صرف النظر من الدنيا وزهرتها إلا إذا أقام الصلاة بخشوع القلب واعتادت نفسه على بذل المال في مرضاة الله ، فهذه الأمور الخمسة مرتبطة بعضها ببعض ويجر بعضها بعضاً ، وخلاصة كل منها أن تكون علاقة العبد مع الله علاقة وطيدة طيبة صادقة ، فإذا فعل العبد ذلك ونزل في معركة الجهاد يبارك الله في جهده ويستعمله في إظهار دينه في العالم كله وجعله من المقبولين المحبوبين لديه كما استعمل كل من سلفه من الصحابة وغيرهم في مرضاته .رضي الله عنهم ورضوا عنه .

فائدة:

وهذه الصفات الخمس المذكور أعلاه كانت موجودة في أصحاب بدر فأنزل الله تعالى نصـــرته وأيدهم بجبريل وغيره من الملائكة عليهم السلام وأصاب المشركين خسارة فادحة، وبعد تحقـــق الفتح مالت نفوس بعضهم إلى عرض الدنيا فنبههم الله تعالى ، قال ابن كثير رحمه الله تعالى :

وقال ابن عباس: هذا تحريج من الله على المؤمنين أن يتقوا [الله] ويصلحوا ذات بينهم.

تفسير ابن كثير - (4 / 10)

أقوال المفسرين:

قوله تعالى { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}

(1) فأدوا فرائضه .قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره :

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء مـــن آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهـــم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُـــوبُهُمْ } فأدوا فرائضه .

تفسير ابن كثير - (4 / 11)

(2) وقال النسفي رحمه الله :

قوله تعالى{ إِنَّمَا المؤمنون } إنما الكاملو الإيمان { الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } فزعـــت لذكره استعظاماً له وتهيباً من جلاله وعزه وسلطانه . تفسير النسفي -

(1 / 409)

(3) إذا سمعوا اسم الله تعالى فزعت قلوبهم خوفاً منه وإجلالاً له.(تفسر عثماني)

(4) وروى سفيان عن السدي في قوله جل وعز: {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ} قال: إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له: اتق الله، ووجل قلبه.

تفسير القرطبي - (7 / 365)

(5) وقال الرازي رحمه الله تعالى :
والمراد أن المؤمن إنما يكون مؤمناً إذا كان خائفاً من الله ، ونظيره قوله تعالى : { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ } [الزمر : 23] وقوله : { الذين هُم مّنْ خَشْيةِ رَبّهِمْ مُّشْفِقُونَ } [المؤمنون : 57] وقوله : { الذين هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خاشعون } [المؤمنون : 2]
وقال أصحاب الحقائق : الخوف على قسمين :
(1) خوف العقاب (2) وخوف العظمة والجلال .
أما خوف العقاب فهو للعصاة . وأما خوف الجلال والعظمة فهو لا يزول عن قلب أحد من المخلوقين ، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً . تفسير الرازي - (7 / 359)

خلاصة الكلام:
فعلم بما سبق من الأقوال أن الوجل أو الخوف ليس كخوف الإنسان من الحيات والأسود بل هذا الخوف والوجل إنما يحصل من عظمة الله وجلاله فلا يبعد الإنسان من الله تعالى بل يقربه .
وإن الخوف من الله تعالى له أهمية في الجهاد أكثر من غيره في مواقع أخرى لذلك قدم ذكره في الآية الكريمة على الصفات الخمس الأخرى، فلو خلا قلب المجاهد من خوف الله تعالى صار مقاتلاً عامياً فيكون جهاده سبب الشر والفساد، وإذا خلا قلبه من خوف الله تعالى يمتلأ قلبه بخوف غير الله وتضعف قوته ، ولا شك أن النصر والفتح إنما يترلان بخوف الله وأن يكون عمل المجاهد خالصاً له فإذا خلا قلبه من خشية الله وتحقق له الفتح تسارع نفسه إلى الظلم والعدوان، وعند الانهزام تميل إلى خضوع الرقبة أمام العدو والانقياد له فيقع في الذلة والمهانة هذا وفي جانب آخر يستميله العدو إلى شهوات النفس ويدعوه إلى زخرف الدنيا ليترك الجهاد ، ولا شك أن خوف الله تعالى هو الحاجز المانع عن وقوع المجاهد في المحرمات ، والذي يجنبه عن ارتكاب المعاصي في كلتا الحالتين (حالة الفتح وحالة الهزيمة).
أموال الغنائم توقع المجاهدين في مهلكة الخيانة إن كانت قلوبهم فارغة من خوف الله تعالى ،وقد يواجه المجاهد بعض المشاكل من الفقر والفاقة والابتلاء والأسر والخطر وغيرها من الابتلاءات ، فلولا المجاهد مخلصاً لله تعالى وقلبه خالياً من محبته لأداه هذه الابتلاءات والمصائب إلى الكفر بالله تعالى(العياذ بالله) .

إن المجاهد يكون متسلحاً في أيام الحرب قد ينشأ فيه الغرور والعجب بنفسه فينسى هدفه الأساسي ويعرض عن الإخلاص ويؤثر دنياه على دينه فلا حول ولا قوة إلا بالله أن قلبه قد خلا من خوف الله وخشيته و إلا لما اغتر بأسلحته وما آثر دنياه على دينه و لم يعرض عن الإخلاص لو اصطحبه الخوف من الله تعالى .

إن في الجهاد أمرين لا بد من مراعتهما ألا هما (1) طاعة الأمير (2) وصلاح العلاقة بين أفراد الجيش ، ولا شك أن مراعاة هذين الأمرين ليست سهلة وميسورة بل إنها أمر صعب لا يراعيه إلا من خاف الله واتقاه ، لأن المجاهد الفاتح يرى أمامه قنطاراً مقنطرة من الأموال ،والنساء المجبورات ،وأولئك الأسارى الذين ظلموا من قبل ، وأشياء المدن المتمدنة الراقية الجذابة، بينما يرى المجاهد المغلوب أمامه الذلة والمهانة والمغلوبية والدعوات التي يضطر بها ترك الجهاد وترك دينه والترغيبات التي تستميله إلى قضاء الشهوات المحرمة والانتفاع بها والانغماس فيها ، فكل من الأمرين يتضمن خطورة بالغة لا يستهان بها ولن يخرج منهما مجاهد إلا من نصب أمام عينيه التقوى وتمسك بالإسلام من العروة الوثقى وخاف الله واتقاه في السر والنجوى .

والحاصل مما سبق أن خوف الله صفة لازمة للمجاهد ، وبالأخص هو بحاجة إليها أكثر من قبل لأن في عصرنا الراهن ألقي في قلوب المسلمين رعب قوة أعدائهم الحربية فلا ينقذ المسلمين من هذا الرعب الرهيب إلا تقوى الله واستحضار عظمة الله في القلوب وقوة الإيمان بالله وزيادة الثقة في قدرته جل في علاه وهذا هو الأمر الذي يأتي بهم إلى ميدان العمل بإذن الله تعالى .

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا [الأنفال : 2]

(1) إذا سمعوا آيات الله وأحكامه ازداد إيمانهم وقوي يقينهم . (تفسير عثماني)

(2) ازداد بها يقيناً وطمانينة (تفسير المدارك)

خلاصة الكلام :

إن القرآن الكريم هو الذي ينشا به خوف الله تعالى وبه تحل عظمة الله في القلوب ، فالإيمان بالقرآن أنه كتاب الرب جل في علاه وقراءته وفهمه والعمل به يزيد علاقة المؤمن بالله تعالى ، ويثبت المجاهد في المعركة ولا يمكن الثبات على الجهاد إلا إذا استرشد المجاهد من القرآن الكريم و استنار قلبه بنوره وازداد بقراءة القرآن يوماً بعد يوم وأكثر التدبر فيه والعمل به ، فإذ فعل ذلك فسيكون جهاده مثمراً مفيداً مطابقاً للشريعة الإسلامية . (والله تعالى أعلم بالصواب)

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [الأنفال : 2]

(1) وفي الآية بيان سلوك المؤمنين العملي وأوضح تبارك وتعالى أن المؤمنون لا يتوكلون على أسلحتهم اللامعة والآلات الحربية المتطورة بل إنهم على ربهم يتوكلون . (تفسير ماجدي)

(2) { وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } يعتمدون ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم لا يخشون ولا يرجون إلا إياه . تفسير النسفي - (1 / 409)

(3) { وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب . تفسير ابن كثير - (4 / 12)

خلاصة الكلام :

كان المسلمون قليلي العدد والعتاد، والدنيا كلها كانت مزخرفة بالكفر و أهله ، فلولا عماد الجهاد هو التوكل على الله لما شرع الجهاد، وما بلغ الإسلام إلى ما بلغ من أقاصي الدنيا ، فعلم بذلك أن التوكل على الله هو الذي أقام المسلمين على الجهاد وأتى بهم إلى ميدان المعركة ولن يقوم مقامه (أي مقام الجهاد) أمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو الذي يقيم المسلمين على الجهاد مرة ثانية ، لذلك يجب أن يصرف النظر عن متاع الدنيا وماديتها وليكن الاعتماد والتوكل على الله كما كان هو العماد الكلي في غزوة بدر الكبرى، نعم تلك الغزوة العظيمة الكبرى التي تحقق فيها نجاح المسلمين من أجل التقوى والتوكل على الله ، كذلك كان التقوى والتوكل على الله في معركة طالوت مع جالوت، وإليه دعا رجلا بني إسرائيل قومه لما أمروا بقتال العمالقة ففي سورة المائدة {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}،ولكن يا أسفاه لم يحققوا التوكل على الله فحرمت عليهم الأرض أربعين سنة وتركوا يتيهون في أرض التيه.

إن الذين يهمهم الدنيا ومتاعها فهم ينخدعون بها فيرون قوة الدنيا وأهلها قوة حقيقية، أما الذين يريدون الآخرة فلا يرون القوة قوة حقيقية غير قوة الله وهؤلاء يؤمنون بأن القوة لله جميعاً فلا يطلبون القوة إلا منه ولا يرجون إلا منه، يبتغون رضوانه وجنته حتى يبلغون إلى درجة من الإيمان واليقين فلا يحسبون قوة الدنيا وأهلها إلا كشبكة العنكبوت أو جناح البعوضة، وليس هذا زعم أو دعوى مجردة فقط بل في التاريخ لها أمثلة كثيرة منها أحوال الصحابة وكيفياتهم رضي الله عنهم وأرضاهم في المعارك والحروب بل إنهم غاصوا البحور وخاضوا في الصحراء وقاتلوا عظام الجيوش مع قلة عددهم وعتادهم لأنهم آمنوا بالله وتوكلوا عليه وظنوا أن الله معهم فلن يخزيهم وإن ماتوا فلا انهزام فيه بل فيه اللحوق بالرفيق الأعلى وعنده من النعم التي ما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ (3)

(1) جمع بين أعمال القلوب من الوجل والإخلاص والتوكل،وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة . (تفسير السفي)

(2) لتكن الرؤوس خاضعة لله تعالى وليكن بذل الأموال على اسمه. (تفسير عثماني)

(3) وقال قتادة إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال مقاتل بن حيان إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. (تفسير ابن كثير 2/ دار الفكر 287)

خلاصة الكلام:

ورد ذكر إقامة الصلاة في هذه الآية بوجه خاص واتضح بذلك أن الصلاة ركن من أركان الإسلام الخمسة ولا يصح قول من رآها أنها فرضت لتربية الناس على الجهاد وتجهيزهم له، بل إنها ركن عظيم من أركان الإسلام ، قال ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسيره :إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى.(تفسير ابن كثير 2/ 287 ط/دار الفكر).

إن الصلاة هي عماد الدين وهي الفارق بين المسلم والكافر وهي العهد الذي بيننا وبينهم كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الْعَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ .(سنن الترمذي 13/5 والحديث صحيح)، والصلاة لا عذر في أدائها حتى في ميدان القتال ولا غنى عنها لمجاهد والصلاة هي وسيلة كبرى لتحقق النصر في الجهاد فكلما أقام المجاهد الصلاة قوي عمل جهاده ،وهي التي تجعل مجاهداً صادقاً حقيقياً وهي التي تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، فلذا ينبغي للمجاهدين أن يواطبوا على الصلوات وليهتموا بها ليتحقق لهم الفوز والفلاح وهذا هو درس هذه الآية . (والله تعالى أعلم بالصواب)

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) [الأنفال : 3]

(1) والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب (تفسير ابن كثير 287/2)

(2) إن من شيمة المؤمن أن هدف حياته الأساسي هو الطاعة لله وبذل المال في سبيله .(حاشية الشيخ أحمد اللاهوري رحمه الله)

(3) ويدخل فيه الزكوة والصدقات والصلات والإنفاق في الجهاد والإنفاق على المساجد والقناطير . (التفسير الكبير)

خلاصة الكلام :

إن صفة بذل المال هي صفة أخيرة في هذه الآية بأنهم ينفقون في رضا الله ، وبدأ الكلام في الآية بالنزاع في الغنيمة واختتمت بذكربذل الأموال والترغيب فيها ، كأنّ الآية الكريمة ربتهم أن '' اليد العليا خير من اليد السفلى '' فكأنه قيل لهم : عودوا أنفسكم أن تكونوا معطين ولا تكونوا

سائلين ، فما أعظم شأنه الذي ربى من أطاعه أن يكون معطياً فترتفع مترلته ولا يكون سائلاً فتنحط مكانته ، ولا شك أن الحرص والطمع هما يترلان قدر الإنسان ، أما الاستغناء والعفاف فهما يرفعان قدره ، ونظام الدنيا أن الذي يريد غزو بلاد ليطمع في مالها وثروها ويحرص على قضاء شهوته بجمع الدنيا وحطامها بينما المسلم المجاهد لا يطمع ولا يحرص إلا على مرضاة الله ، فيا أيها المسلمون ! ويا أيها المجاهدون ! كونوا معطي الإنسانية واسألوا الله تعالى لأنفسكم من المغفرة والدرجات العلى من الجنة ، وإذا كان هذا هو حال المجاهدين لن يشتريهم أحد بعرض من الدنيا ولا يستطيع أحد أن يخضعهم أمامه ، ولا شك في أنما إذا اتصف المجاهد بصفة البذل والإنفاق لخرج من نفسه حب الدنيا وانقطع منه حبل البخل وسهل عليه تضحية النفس ، نعم إن اتصف المسلمون بصفة بذل الأموال في سبيل الله ليبذلن أموالهم في الجهاد وليرفعن قدره ولن يجمعن الأموال في الصناديق بل ليصرفنها في وجوه الخير وإشاعة الدين،وليحيا بهم نظام إسلامي الذي يخالف جمع الأموال في مجموعة من الناس ويحرم ادخارها عند حاجة الناس إليها .

وذكر بذل الأموال أثناء الجهاد يوحي إلى أن بينهما نسبة مهمة و صلة لازمة ، فإذا أراد المسلمون بقاء الجهاد يجب عليهم الإنفاق لأن إن انغمسوا في جمع الأموال ليصيبهم الوهن وليصيب المجاهدين النقص في أسباب الجهاد ووسائلها.

أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا [الأنفال : 4]

إنه تعالى ذكر في هذه الآية أن الرجل لا يكون مؤمناً إلا إذا كان موصوفاً بالصفات الخمسة وهي: (1)الخوف من الله (2) والإخلاص في دين الله (3) والتوكل على الله (4) والإتيان بالصلاة (5) والزكاة لوجه الله تعالى . (التفسير الكبير 15/ 99)

(1) لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) [الأنفال : 4]

لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية ومالية ترتّب عليها ثلاثة أشياء فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات ، والبدنية بالغفران ، وقوبلت المالية بالرزق بالكريم وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البيان. تفسير البحر المحيط – (6 / 32)

(3)ولا يقال لمؤمن حقاً إلا من استحق الدرجات العلى عند ربه جل في علاه وتسامح عنه الزلات البسيطة وأكرم برزق كريم . (تفسير عثماني)

(4) وقال ابن كثير رحمه الله تعالى :

وقوله: { لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ } أي: منازل ومقامات ودرجات في الجنات، كما قال تعالى: { هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ } [آل عمران: 163]

{ومغفرة } أي: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات.(تفسير ابن كثير - (4 / 13)

خلاصة الكلام:

إن السورة بدأت بذكر سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الأنفال الذي دل أن التفات المجاهدين انتقل إلى الدنيا ومتاعها ولو للحظة فتزل القرآن الكريم يرد التفاقم إلى الدنيا ويصرف نظرهم من الدنيا ومتاعها إلى الجنة ودرجاتها ومغفرة من الله ورضوانه وأن لهم رزقاً كريماً ، فسبحان الله ما أحسن تعليمه .

وإن صرف النظر من الدنيا إلى الآخرة لهي تربية حسنة ، فليعلم المجاهد أن بدل جهادك ليست هذه الدنيا الدنيئة وإنما مكافأة جهادك هي درجات عند ربك ومغفرة ورزق كريم ، فالله تعالى يدعو المجاهد إلى أعلى درجة الإخلاص فلا يطمع بجهاده في الدنيا ومتاعها ، لأن سر نجاحه وفلاحه هو في اخلاص عمله لله تعالى، وإن له وعد الفتح في الدنيا والمغفرة والدرجات العلى من الجنة في الآخرة وإن له رزقاً كريماً.

وإن أنصار المدينة لما بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة ودعوه إلى المدينة ووعدوه بالنصر والإيواء والمنع عنه ولأصحابه صلى الله عليه وسلم فسألوه وقالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : لكم الجنة .(انظر: دلائل النبوة للبيهقي - (2 / 312)

كذلك علّم الله تعالى المجاهدين أن يصرفوا نظرهم من الدنيا بل ينظروا إلى أعلى الدرجات من الجنة ، أما الدنيا ومتاعها فهي مقسومة لا محالة فلا ينبغي للمجاهد أن يؤثر الدنيا على درجات الآخرة ويشتري بعمل الجهاد شيئاً من عرض الدنيا ، ومن جاهد لأجل الدنيا فليس جهاده هو الجهاد الإسلامي الذي يترتب عليه ثواب الآخرة .

ذكر في الأربع من آيات الأنفال أمور لو اتخذها المجاهدون لاستطاعوا نشر رسالة الإسلام و دعوة العالم إليها مع قلة عددهم وعتادهم واستطاعوا مقاومة أعدائهم بيسر وسهولة ، ومن شك في ذلك فليقرأ الآية التي بعدها أي {كما أخرجك ربك ...الآية} فأهل بدر لكم أسوة حسنة بأنهم اتصفوا بالصفات المذكور أعلاه فهزموا الكفار والمشركين وتحقق لهم الغلبة والنصر وكسروا شوكة المشركين ، وهذا المثال قائم باق إلى يوم القيامة ، وقد سبق المسلمون الذين وضعوا غزوة بدر نصب أعينهم وعملوا بعملهم أنهم انتصروا وفازوا و لم يضرهم قلة عددهم وعتادهم . (والله تعالى أعلم بالصواب)

﴿غزوة بدر الكبرى﴾

رمضان المبارك سنة 2ه

أكبر وأعظم غزوة مكانة وأهمية في الإسلام, بها اتخذ الإسلام عزا وقوة وسطوة, وبدأ الذل والخذلان للكفروالشرك, فأعز الله فيه الإسلام وأهله ودمغ فيه الشرك ودمر مكانه وحزبه.

وبفضل الله ورحمته حصلت للإسلام قوة من الغيب بدون أسباب ظاهرة ومادية وأصيب الكفر والشرك بضرب صار به جسدا بلا روح ودماغا بلا حياة. ساحة بدر التي هي شاهد عدل لعز الإسلام وذل الشرك والكفر هي موجودة حتى الآن, وبها جعل الله في كتابه هذا اليوم "يوم الفرقان" أي اليوم الفارق بين الحق والباطل, بل كان هذا الشهر فرقانا أي شهر رمضان المبارك الذي أنزل الله فيه القرآن المجيد والفرقان الحميد وميز الحق من الباطل والهداية من الضلال .ثم فرض صيام هذا الشهر ليمتحن المحبين والمخلصين والعاشقين والوالهين ليعلم من هو محب صادق له فيصبر على الشدائد في أشد الصيف من الطلوع إلى الغروب حبا له, ومن هو كاذب في دعوى حبه فهو عبد ورهين ببطنه وفمه.الحاصل أن هذا الشهر شهر الفرقان حيث يظهر فيه الفرق من عدة اعتبارات وجهات بين المخلص وغيره.

(بدر قرية تقع على بعد 4 منازل و28 فرسخ أي 80 ميلا تقريبا من المدينة المنورة منسوب إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة أو بدر بن الحارث الذي كان مؤسسها وبانيها, وقيل هو اسم لبئر قيس واشتهرت القرية بهذا الإسم.

(زرقاني ص 406 ج1).

﴿بداية القصة﴾

بلغ رسول الله ﷺ في مستهل رمضان أن أبا سفيان يرجع بعير قريش من الشام تشتمل على أمـــوال التجارة الكثيرة, فجمع أصحابه وأخبرهم به وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم لعل الله جعلها غنيمة لكم .

و لم يخطر ببال أحد أنه سيقع القتال فخرجوا إليها دون تأهب عسكري, وكان أبو سفيان على غاية من الحيطة والحذر و لم يزل في تخوف وخطر من أن يصيبه من المسلمين فلما قرب من الحجاز بـــدأ يتجسس الأخبار ويسأل كل من لقي من الركبان في الطريق عن رسول الله ﷺ وأخباره و لم يلبث أن قيل له: إن محمدا (ﷺ) أمر أصحابه بالخروج إلى عيرك, فاستأجر أبو سفيان ضمضم الغفاري وبعثه حثيثا إلى مكة مستصرخا قريشا بالنفير إلى عيرهم ليمنعوه من أيدي المسلمين فإن محمدا (ﷺ) قـــد خرج مع أصحابه للتعرض له.

يقول كعب بن مالك" :ﷺ لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غـــير أني تخلفت عن غزوة بدر و لم يعاقب أحد تخلف عنها إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد"(صحيح البخاري.346/12) باب قصة غزوة بدر.

يقول ابن سعد: " ثم غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا العشيرة في جمادي الآخرة علـــى رأس ستة عشر شهرا من مهاجره وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان لواء أبيض واســـتخلف علـــى المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وخرج في خمسين ومائة ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتدب و لم يكره أحدا على الخروج وخرجوا على ثلاثين بعيرا يتعقبوها خرج يعترض لعير قريش حين أبدأت إلى الشام وكان قد جاءه الخبر بفصولها من مكة فيها أموال قريش فبلغ ذا العشيرة وهي لـــبني مدلج بناحية ينبع وبين ينبع والمدينة تسعة برد فوجد العير التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام وهي العير التي خرج لها أيضا يريدها حين رجعت من الشام.

وكان قد ندب المسلمين للخروج معه وقال هذه عير قريش فيها أموالهم لعل الله أن يغنمكموها فأسرع من أسرع إلى ذلك وأبطأ عنه بشر كثير وكان من تخلف لم يلم لأنهم لم يخرجوا على قتال إنما خرجوا للعير." (الطبقات الكبرى – (2 / 9)

خروج النبي ﷺ إلى بدر

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهرا من مهاجره في ثلاثمائة و ثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا, وليس عندهم من العتاد إلا سبعين بعيرا وفرسين,فرسا للزبير بن العوام وفرسا للمقداد رضي الله عنهما, وكان لكل اثنين أو ثلاثة منهم بعير يتعاقبونه(**الطبقات الكبرى - (2.(12 /)**

.عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَقَالَا نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ فَقَالَ مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنْ الْأَجْرِ مِنْكُمَا.

(مسند أحمد - (8 / 241)

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عسكره ببئر أبي عنبة (وهي على ميل من المدينة) فعرض أصحابه ورد من استصغر, فلما كان بالروحاء ردَّ أبا لبابة بن عبد المنذر واستعمله على المدينة.

كان في هذا الجيش ثلاث رايات إحداها بيد علي بن أبي طالب والثانية بيد مصعب بن عمير والثالثة بيد أحد من الأنصار (وهو سعد بن معاذ كما في ابن سعد: لواء المهاجرين مع مصعب بن عمير ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ).

(الطبقات الكبرى(14/2)

لما بلغ بقرب من الصفراء بعث بَسبَسَ بن عمرو الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتجسسان له أخبار العير (الطبقات الكبرى - (2 / 12), وخرج ضمضم سريعا حتى أتى مكة وقال: يا معشر قريش عيركم في خطر فأسرعوا إليها.

وما إن وصل هذا الخبر حتى أصاب قريشا الاضطراب فلم يبق أحد من رجال قريش ونسائهم إلا قدم جميع ماله وثروته لهذا العير, فتحفز الناس سراعا ونهضوا مسرعين في ألف مقاتل مع أهبة كاملة وكان قائدهم العام أبا جهل (كما رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عباس عن ابن عمر ,وابن سعد عن ابن مسعود ﷺ)وفي مغازي موسى بن عقبة وابن عائذ أنهم كانوا في تسعمائة وخمسين ولا تعارض بينهما فكان عدد المقاتلين ألفا إلا خمسين وبقية الخمسين كانوا من العمال والخدام (الزرقاني ص 410 ج1).

خرج قريش من ديارهم ومعهم أسباب الطرب والفرح والدفوف والقيان بطرا ورئاء الناس كما **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ الأنفال: ٤٧:

وخرج في هذا الجيش جميع رؤساء وأشراف قريش فلم يتخلف منهم أحد سوى أبي لهب فإنه عوض عنه أخا أبي جهل عاص بن هشام كان له عليه دين بمبلغ أربعة آلاف درهم وصار مفلسا فلم يقدر على قضائه فقبل الخروج عوضا عنه بسبب ضغط الدين.

هكذا رفض أمية بن خلف في بداية الأمر لكن أصر عليه أبو جهل للخروج فخرج.

كان سبب رفض أمية الخروج أن سعد بن معاذ الأنصاري ﷺ كان صديقا لأمية بن خلف من زمن الجاهلية, وَكَانَ أُمَيَّةُ إِذَا مَرَّ بِالْمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ , وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِرًا , فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ ، فَقَالَ لِأُمَيَّةَ : انْظُرْ لِي سَاعَةَ خَلْوَةٍ لَعَلِّي أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ , فَخَرَجَ بِهِ قَرِيبًا مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ , فَلَقِيَهُمَا أَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ : يَا أَبَا صَفْوَانَ مَنْ هَذَا مَعَكَ ؟ فَقَالَ : هَذَا سَعْدٌ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ : أَلَا أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِنًا وَقَدْ أَوَيْتُمُ الصُّبَاةَ , وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ , أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفْوَانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالِمًا ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لَأَمْنَعَنَّكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ , طَرِيقَكَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ لَهُ أُمَيَّةُ : لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ يَا سَعْدُ عَلَى أَبِي الْحَكَمِ سَيِّدِ أَهْلِ الْوَادِي ، فَقَالَ سَعْدٌ : دَعْنَا عَنْكَ يَا أُمَيَّةُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَقُولُ : " إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ " ، قَالَ : بِمَكَّةَ ، قَالَ : لَا أَدْرِي , فَفَزِعَ لِذَلِكَ أُمَيَّةُ فَزَعًا شَدِيدًا , فَلَمَّا رَجَعَ أُمَيَّةُ إِلَى أَهْلِهِ ، قَالَ : يَا أُمَّ صَفْوَانَ أَلَمْ تَرَيْ مَا قَالَ لِي سَعْدٌ ؟ قَالَتْ : وَمَا قَالَ لَكَ ؟ قَالَ : زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ ، فَقُلْتُ لَهُ : بِمَكَّةَ ، قَالَ : لَا أَدْرِي ، فَقَالَ : أُمَيَّةُ وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْ مَكَّةَ , فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ اسْتَنْفَرَ أَبُو جَهْلٍ النَّاسَ ، قَالَ : أَدْرِكُوا عِيرَكُمْ فَكَرِهَ أُمَيَّةُ أَنْ يَخْرُجَ , فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ : يَا أَبَا صَفْوَانَ إِنَّكَ مَتَى مَا يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي تَخَلَّفُوا مَعَكَ , فَلَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى قَالَ : أَمَّا إِذْ غَلَبْتَنِي فَوَاللَّهِ لَأَشْتَرِيَنَّ أَجْوَدَ بَعِيرٍ بِمَكَّةَ ، ثُمَّ قَالَ أُمَيَّةُ " يَا أُمَّ صَفْوَانَ جَهِّزِينِي ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا أَبَا صَفْوَانَ وَقَدْ نَسِيتَ مَا قَالَ : لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ ، قَالَ : لَا مَا أُرِيدُ أَنْ أَجُوزَ مَعَهُمْ إِلَّا قَرِيبًا , فَلَمَّا خَرَجَ أُمَيَّةُ أَخَذَ لَا يَنْزِلُ مَنْزِلًا إِلَّا عَقَلَ بَعِيرَهُ , فَلَمْ يَزَلْ بِذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِبَدْرٍ ".(صحيح البخاري: موسوعة الحديث:رقم الحديث3682).

وفي رواية عند البيهقي فقال:"والله ما يكذب محمد فكاد أن يحدث". كذا وقع عنده بضم التحتانية وسكون المهملة وكسر الدال من الحدث وهو خروج الخارج من أحد السبيلين والضمير لأمية أي أنه كاد أن يخرج منه الحدث من شدة فزعه وما أظن ذلك إلا تصحيفا. (فتح الباري – ابن حجر – 283/7).

وصول خبر خروج قريش إلى النبيﷺ ومشاورته أصحابه وكلماتهم الفدائية

لما ارتحل رسول الله ﷺ من الروحاء وبلغ الصفراء وصل إليه بسبس وعدي رضي الله عنهما بأخبار قريش وخروجهم, فحينئذ جمع المهاجرين والأنصار للمشاورة وأخبرهم بخروج قريش بطرا ورئاء الناس, فقام أبو بكر الصديق ﷺ فقال وأحسن, ثم قام عمر فقال وأحسن, ثم قام مقداد بن الأسود فقال: "يا رسول الله! امض لما أراك الله فنحن معك, والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ المائدة: ٢٤, ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون". هذه رواية ابن إسحاق وفي رواية البخاري: "ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين ويديك وخلفك."

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ مَشْهَدًا لَأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِهِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى:{ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا } وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ يَعْنِي قَوْلَهُ .

(صحيح البخاري–(348/12).

وفي رواية ابن إسحاق :فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير. (تفسير ابن كثير عن ابن اسحاق ص383 ج2).

يقول أبو أيوب الأنصاري :ﷺ قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة:"إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها؟" فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا "ما ترون في قتال القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟ "فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكنا أردنا العير, ثم قال:"ما ترون في قتال القوم؟" فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ

﴿إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ المائدة: ٢٤, قال فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم".

(تفسير ابن كثير عن ابن مردويه وفيه" رواه ابن أبي حاتم من حديث ابن لهيعة" ص381 ج2 تحت الآية "وتودون أن غير ذات الشوكة...). أي ليتنا قلنا ما قاله المقداد في البداية لأن ما قاله المقداد كانوا يجدون في أنفسهم لكنهم لم يسبقوا إليه إلا بعد تحدثه فقالوا فيما بعد ما قاله المقداد بألسنتهم أيضا كما في مسند أحمد بإسناد حسن: قال أصحاب رسول الله ﷺ: لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ولكن انطلق أنت وربك فقاتلا إنا معكم."

مع هذا الجواب المقنع قال رسول الله ﷺ مرة ثالثة: " أشيروا علي أيها الناس" ففهم سعد بن معاذ ﷺ إشارة النبي الأكرم أفصح العرب والعجم فقال :والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.

وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم .

(البداية والنهاية: 3 / 320. عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير:(327/1).

﴿تجاوب سعد بن معاذ وتفانيه في الطاعة﴾

قال: يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودا ومواثيق على السمع والطاعة، ولعلك يا رسول الله خرجت لأمر فأحدث الله غيره فامض لما شئت، وصل حبال من شئت واقطع حبال من شئت وسالم من شئت وعاد من شئت وخذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت, وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت, وأما أمرت به من أمرنا فأمرنا تبع لأمرك, لئن سرت حتى تأتي برك الغماد لنسيرن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه، وما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن نلقى عدونا إنا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء, ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله (زرقاني ص413ج1, البداية والنهاية: 3 / 321, وزاد المعاد: 3 / 153 نحوه).

التنبيه : ورد في بعض الروايات اسم سعد بن عبادة بدل سعد بن معاذ فهو خطأ ووهم من الراوي, لأن سعد بن عبادة لم يشهد بدرا. (انظر الزرقاني للتفصيل:ج1 ص 414 .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشَّطَه ثم قال: " سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين (طائفة أبي جهل وطائفة سفيان) والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم ." هكذا رواه ابن إسحاق رحمه الله (البداية والنهاية: 3 / 321, تفسير ابن كثير: ج2 ,ص383).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾ الأنفال: ٧ - ٨)

﴿رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب﴾

هنا كان رسول الله ﷺ يخبر أصحابه عن مصارع الكفار, وفي مكة "كانت عاتكة بنت عبد المطلب قد رأت قبل قدوم ضمضم إلى مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب فقالت له: يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم على ما أحدثك, قال لها: وما رأيت ؟ قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته" :**ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث ,"**فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه :فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا آل غدر لمصارعكم في ثلاث, ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة. ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة، وكان له صديقا، فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لابنه عتبة، ففشا الحديث حتى تحدثت به قريش. قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وأبو جهل ابن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا.فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال أبو جهل: يا بنى عبدالمطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية ؟ قال: قلت: وما ذاك ؟ قال: تلك الرؤيا التى رأت عاتكة. قال: قلت :وما رأت ؟ قال: يا بنى عبدالمطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ ثم بلغ ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره، قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

فتجهزوا وخرجوا إلى بدر فصدق الله رؤيا عاتكة (الإصابة في تمييز الصحابة: 8 / 13).

(قال المؤلف: قال الهيثمي: رواه الطبراني مرسلا وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن مجمـع الزوائـد .(90 / 6) - وذكـر موسى بن عقبة رؤيا عاتكة كنحو من سياق ابن إسحاق وقال: فلما جاء ضمضم بن عمرو علـى تلك الصفة، خافوا من رؤيا عاتكة فخرجوا على الصعب والذلول".

(السيرة النبوية لابن كثير: 2 / 383,382,381)

فائدة :

اختلف في إسلام عاتكة بنت عبد المطلب. قال ابن سعد: أسلمت عاتكة بمكة وهاجرت إلى المدينـة وهي صاحبة الرؤيا المشهورة في قصة بدر. (الإصابة في تمييز الصحابة: 8 / 13, ترجمة عاتكة بنت عبد المطلب.

﴿رؤيا جهيم بن الصلت﴾

وأقبلت قريش، فلما نزلوا الجحفة رأى جهيم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف رؤيـا، فقال: إني رأيت فيما يرى النائم، وإني لبين النائم واليقظان، نظرت إلى رجل قد أقبل على فرس حتى وقف ومعه بعير له، ثم قال: قتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية بـن خلف وفلان وفلان، فعد رجالا ممن قتل يوم بدر من أشراف قريش، ثم رأيته ضرب في لبة بعـيره ثم أرسله في العسكر فما بقى خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نضح من دمه. فبلغت أبا جهل لعنه الله فقال: هذا أيضا نبى آخر من بنى المطلب! سيعلم غدا من المقتول إن نحن التقينا.(السيرة النبوية لابن كثير: 2 / 398،399).

وكان بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدرا فأناخا إلى تل قريب من الماء، ثم أخذا شنا لهما يستقيان فيه، ومجدى بن عمرو الجهنى على الماء، فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحاضر وهما يتلازمان على الماء والملزومة تقول لصاحبتها: إنما تأتى العير غدا أو بعد غـد، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك, قال مجدي: صدقت, ثم خلص بينهما. وسمع ذلك عدي وبسـبس فجلسا على بعيريهما، ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأخبراه بما سمعا. (السيرة النبوية لابن كثير:2 / 398).

وأقبل أبو سفيان حتى تقدم العير حذرا حتى ورد الماء، فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحدا ؟ قال: ما رأيت أحدا أنكره، إلا أني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ثم استقيا في شن لهمـا ثم انطلقا, فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعار بعيريهما ففته فإذا فيه النوى، فقـال :هـذه والله

علائف يثرب, فرجع إلى أصحابه سريعا، فضرب وجه عيره عن الطريق فساحل بها، وترك بدرا بيسار، وانطلق حتى أسرع. (السيرة النبوية لابن كثير: 398/2). ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش :**إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا .** فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا، وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام، فنقيم عليه ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا، فامضوا.

(السيرة النبوية لابن كثير:2 / 399)

وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، وكان حليفا لبنى زهرة، وهم بالجحفة: يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جبنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا .(السيرة النبوية لابن كثير:2 / 399). فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعا, و لم يكن بقى بطن من قريش إلا وقد نفر منهم ناس إلا بنى عدي، لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس، فلم يشهد بدرا من هاتين القبيلتين أحد ,ومضى القوم.

(السيرة النبوية لابن كثير: 2 / 400)

نزل رسول الله ﷺ مع أصحابه حين سار إلى بدر لكن قريشا سبقهم وغلبهم على الماء واختاروا لهم أرضا مناسبة بخلاف المسلمين فإنهم بدون أرض مناسبة وبدون ماء, أرض رملة دعصة, لا تثبت الأقدام عند المشي, فأمطر الله عليهم مطرا فصنعوا الحياض للشرب والتطهر. ذكر الله ﷻ في سورة الأنفال منّه هذا على المسلمين فقال تَعَالَى:﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ الأنفال)

هذا الماء وإن ادخره المسلمون لرفع حاجاتهم لكن نبي الرحمة والرأفة ﷺ سمح لمن وردها من الكفار بالشرب الذين كانوا يعادونه ويعزمون على قتله.

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، فلما أمسى بعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه، إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له، فأصابوا

راوية لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى، فقالوا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء, فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لابي سفيان فضربوهما، فلما أذلقوهما قـــالا: نحـــن لابي سفيان, فتركوهما, وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتيه وسلم وقال: "إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما ! صدقا والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش ؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، والكثيب العقنقل, فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: كم القوم قالا :كثير، قال: ما عدتهم ؟ قالا: لا ندرى, قال: كم ينحرون كل يوم ؟ قـــالا: يوما تسعا ويوما عشرا, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القوم ما بين التسع مائة إلى الألف ," ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيـــه ومنبـــه ابنـــا الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود, فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على النـــاس فقال: " هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ."

(السيرة النبوية لابن كثير:2 / 398, 397).

﴿الإعداد للحرب﴾

لما أسفر الصبح تأهب رسول الله ﷺ للقتال وبني له عريش يكون فيه على تل برأي سعد بن معـــاذ فروي أن سعد بن معاذ قال: يا نبى الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك، ثم نلقـــى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست علـــى ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك, فأثنى عليه رســـول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير، ثم بنى لرسول الله صلى الله عليـــه وســـلم عـــريش كـــان فيه.(السيرة النبوية لابن كثير: 2/ 403, 404).

وكان هذا العريش قد بني على تل مشرف على معركة القتال.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كُنَّا مَعَ عُمَرَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَتَرَاءَيْنَا الْهِلَالَ وَكُنْتُ رَجُلًا حَدِيدَ الْبَصَرِ فَرَأَيْتُهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَآهُ غَيْرِي قَالَ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِعُمَرَ أَمَا تَرَاهُ فَجَعَلَ لَا يَرَاهُ قَالَ يَقُولُ عُمَرُ سَـــأَرَاهُ وَأَنَا مُسْتَلْقٍ عَلَى فِرَاشِي ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُنَا عَنْ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ

يُرِينَا مَصَارِعَ أَهْلِ بَدْرٍ بِالْأَمْسِ يَقُولُ هَذَا مَصْرَعُ فُلَانٍ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ فَقَالَ عُمَرُ فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ مَا أَخْطَئُوا الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

صحيح مسلم – في باب عرض مقعد الميبت من الجنة أو النار عليه .(14 / 36)

ثم رجع رسول الله ﷺ إلى العريش ودخله هو وأبو بكر, وصلى الركعتين وكان سعد بن معاذ ﷺ واقفا على باب العريش متقلدا بالسيف.

عن علي رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتُنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يصلي تحت شجرة ويبكي حتى أصبح .

(تفسير ابن كثير: 4 /22)مسند أبي يعلى:242/1, ورواه أحمد في مسنده 125/1, ورواه الطبراني وابن جرير وابن خزيمة وغيرهم)

فلما أن طلع الفجر نادى :ﷺ الصلاةَ عباد الله ، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف ، فصلى بنا رسول الله وحرض على القتال (كنز العمال: 10 / 395).

(قال المؤلف:ورواه ابن أبي شيبة وأحمد وابن جرير وصححه, منتخب كنز العمال)

وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان, أقبلت قريش في كتائبها واصطف الفريقان, ولما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة.

(تهذيب سيرة ابن هشام:1 / 195, فتح الباري: باب قول الله تعالى: "إذ تستغيثون ربكم إلى قوله شديد العقاب)

ثم عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم فمر بسواد بن غزية وهو مستنل من الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال استو يا سواد فقال يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل قال فأقدني فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال استقد قال فاعتنقه فقبل بطنه فقال ما حملك على هذا يا سواد قال يا رسول الله حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير. (السيرة النبوية لابن هشام: 3 / 174, إصابة:ترجمة سواد بن غزية الأنصاري رضي الله عنه.

ثم عدل رسول الله الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ووقف سعد بن معاذ على باب العريش متقلدا بالسيف.

قال فيه أبو محجن الثقفي: (الإستيعاب في معرفة الأصحاب:1 / 295)

وسميت صديقاً، وكل مهاجرٍ ... سواك يسمى باسمه غير منكر

سبقت إلى الإسلام والله شاهد ... وكنت جليساً بالعريش المشهر

وبالغار إذ سميت بالغار صاحباً ... وكنت رفيقاً للنبي المطهر

فلما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا احرزوا لنا أصحاب محمد قال فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال ثلاث مئة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ولكن أمهلوني حتى أنظر أ للقوم كمين أو مدد قال فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع إليهم فقال ما وجدت شيئا ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فرأوا رأيكم. فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر قال وما ذاك يا حكيم قال ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت أنت علي بذلك إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية يعني أبا جهل بن هشام فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله فارجعوا أو خلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوا فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم و لم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعا له من جرابها فهو يهيئها فقلت له يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا للذي قال فقال انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه قال: كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وما بعتبة ما قال ولكنه قد رأى أن محمد وأصحابه أكله جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال هذا يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك فقم فأنشد خفرتك ومقتل أخيك فقام عامر بن

الحضرمي فاكتشف ثم صرخ واعمراه واعمراه فحميت الحرب وحقب الناس واستوسقوا على ما هم عليه من الشر وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة.

فائدة : لم يذكر أبو جهل مقتل علاء بن الحضرمي إلا لتحريض قومهم على القتال, مع أن أصل الهدف الذي خرج قريش له من مكة هو منعهم عيرهم من المسلمين, فلما قام أبو سفيان بمنع عيره لم يتهيأ القوم للقتال بل وقع أكثر من مرة أن تشاوروا حينا فحينا للرجوع إلى مكة, فقول علامة: إن قريشا لم يخرجوا من مكة للهجوم على المدينة إلا لثأر مقتل علاء بن الحضرمي لم يصح مطلقا وهو مخالف للروايات كلها.

﴿بداية القتال و دعوة عتبة الى المبارزة﴾

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ والله سحره قال سيعلم مصفر استه من انتفخ سحره أنا أم هو. ثم التمس عتبة بيضة ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضة تسعه من عظم هامته فلما رأى ذلك اعتجر على رأسه ببرد له.

ثم خرج بعد عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى إذا فصل من الصف دعا الى المبارزة فخرج اليه فتية من الأنصار ثلاثة وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء ورجل آخر يقال هو عبد الله بن رواحه.

عوف ومعوذ أبوهما حارث وأمهما عفراء من الصحابيات, يقول الحافظ العسقلاني: ولها خصوصية لم توجد لغيرها وهي أنها صحابية لها سبعة بنين هؤلاء الثلاثة وإخوتهم لأمهم إياس وخالد وعاقل وعامر أولاد البكير بن ياليل الليثي شهد السبعة بدرا مع النبي صلى الله عليه وسلم. (شرح الزرقاني: 3 / 240)

فقالوا من أنتم فقالوا رهط من الأنصار قالوا ما لنا بكم من حاجة ثم نادى مناديهم يا محمد أخرج إلينا أكفائنا من قومنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم عبيدة بن الحارث وقم يا حمزة وقم يا علي فلما قاموا ودنوا منهم قالوا من أنتم قال عبيدة: عبيدة, وقال حمزة :حمزة, وقال علي: علي, قالوا نعم أكفاء كرام.

وفي رواية ابن سعد أن رسول الله ﷺ قال:

يا بني هاشم قوموا وقتلوا بحقكم الذي بعث الله به نبيكم إذ جاؤوا بباطلـــهم ليطفئـــوا نـــور الله. (الطبقات الكبرى - (2 / 17)

﴿قتل عتبة وشيبة ووليد﴾

فبارز عبيدة وكان أسن القوم عتبة بن ربيعة وبارز حمزة شيبة بن ربيعة وبارز علي الوليد بن عتبة فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضـــربتين فضرب عتبة رجل عبيدة بذباب السيف يعني طرفه فأصاب عضلة ساقه فقطعها, وكر حمزة وعلـــي على عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة إلى أصحابه، وقد قطعت رجله، فلما أتوا به النبي صـــلى الله عليـــه وسلم قال: ألست شهيداً يا رسول الله ؟ قال: بلى. قال: لو رآني أبو طالب لعلم أننا أحق منه بقوله:

ونسلمه حتى نصرّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

ثم قرأ هذه الأبيات:

فإن يقطعوا رجلي فإني مسلم ... أرجى به عيشا من الله عاليا

وألبسني الرحمن من فضل منه ... لباسا من الإسلام غطى المساويا

ما قاله عبيدة ﷺ يدل على أن كل جسم لم يلبس لباس الإسلام والورع فهو عار وكاس, وســـكان عالم الغيب ليكونون يشعرون بهذا العرى وإن لم يشعر به أهل عالم الدنيا. يقول الحافظ ابن عبد البر: لما أسلم لبيد ﷺ قال هذا الشعر:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي ... حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

هذا الشعر أيضا يؤيد ما قلته آنفا, وإني لذكرت شواهده من الكتاب والسنة إن لم يطل الكلام, وهذا الأمر لا يخفى على من يفكر فيه من أهل العلم وأولي الألباب.

وفي رواية: لما جاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أضجعوه إلى جانب موقف رســـول الله صلى الله عليه وسلم فأشرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه فوضع خده على قدمه الشـــريفة وقال: يا رسول الله لو رآني أبو طالب لعلم أني أحق بقوله, ثم مات رضي الله عنه فقال رســـول الله صلى الله عليه وسلم: " أشهد أنك شهيد ".(قال المؤلف: رواه الشافعي رحمه الله ,البداية والنهاية). (البداية والنهاية: 3 / 334)

فائدة :كان عتبة وشيبة في الحقيقة يعرضان عن القتال لأهما أولا كانا في قلق مستمر على حياهما بعد سماع رؤيا عاتكة وجهيم بن الصلت, وثانيا عندما أرادا الخروج ورآهما عداس (عداس مولى شيبة بن ربيعة: كان نصرانيا من أهل نينوى: قرية من قرى الموصل ولقي النبي صلى الله عليه وسلم بالطائف وأسلم على يديه) فوثب إليهما فأخذ بأرجلها في غَرْزهما، وهو يقول: بأبي وأمي أنتما، والله إنه رسول الله، وما تساقان إلا إلى مصارعكما، وإن عينيه لتسيل دموعهما على خديه، ومرّ به العاص بن شيبة فوقف عليه حين ولى عتبة وشيبة، فقال: ما يبكيك؟ فقال: يبكيني سيداي وسيدا أهل هذا الوادي، يخرجان إلى مصارعهما، ويقاتلان رسول الله، فقال العاص: وإن محمداً رسول الله؟ قال: فانتفض عدّاس انتفاضة، واقشَعرّ جلده، ثم بكى، وقال: إي والله إنه لرسول الله إلى الناس كافّة.

فكان قول عداس قد دخل قلبهما وهما على يقين كامل بأهما سيقتلان لذا كانا يعرضان عن الخروج, لكن طعن أبو جهل عليهما وأجبرهما على الخروج بكلامه, فإنه يطعن فيهما بالجبان وعدم الرجولة ,فعند بداية الحرب قدما أنفسهما وألقيا إياهما في ساحة القتال ليرفعا عنهما طعن أبي جهل فيهما .عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ إِذَا أَكْثَبُوكُمْ فَارْمُوهُمْ وَاسْتَبْقُوا نَبْلَكُمْ صحيح البخاري: 12 /379)

﴿دعاء النبي ﷺ وابتهاله أمام اللهﷻ﴾

ثم حمي الوطيس بعد قتل عتبة وشيبة واستدارت رحى الحرب واشتد القتال, وخرج النبي ﷺ من العريش وعدل الصفوف ثم رجع إلى العريش ومعه أبو بكر ووقف سعد بن معاذ متوشحا بالسيف أمام باب العريش, ونظر النبي ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم وقوهم وإلى أصحابه فاستقلهم فركع ركعتين وأخذ في الدعاء والابتهال وقال: اللهم أنشدك عهدك ووعدك, اللهم إن شئت لم تعبد.واعتراه الخشوع والخضوع فأحيانا يتضرع ويبتهل إلى الله ساجدا, وأحيانا يدعوا ربه وهو باسط يديه سائلا الفتح والنصر كالبائس الفقير, كان مستغرقا في الدعاء إلى حد أن كان رداؤه يسقط عن منكبيه. عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قاتلت يوم بدر شيئا من قتال ثم جئت لاستكشاف حال النبي ﷺ فإذا رسول الله ﷺ يقول في سجوده " يا حي يا قيوم " لا يزيد على ذلك فرجعت فقاتلت ثم جئت فوجدته كذلك فعل ذلك أربع مرات وقال في الرابعة ففتح عليه. (رواه النسائي والحاكم) (محمد رسول الله239/1، فتح الباري: 7 / 289)

في صحيح مسلم عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ قَالَ حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا

(دخل العريش) وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيْه فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ."

لأنه ﷺ خاتم النبيين وهذه الأمة آخر الأمم, فإن يهلك هو وأصحابه – لا سمح الله – لا يبق على الأرض أحد يعبد الله وحده مخلصا له الدين. ويعلم من هذا الدعاء أنه لم يكن فقط لإنقاذ أصحابه من الهلاك بل كان لتبقى الأرض معمورة من عبادة الله وحده إلى يوم الدين. فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. (صحيح مسلم - (9 / 214). وفي رواية البخاري: فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ. (صحيح البخاري: 10 /56)

كان رسول الله يجتهد ويشتد ويبالغ في الدعاء والابتهال لأنه ينظر إلى عظمة ربه وجلاله وشأن استغنائه كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ﴾ العنكبوت: ٦) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾ فاطر: ١٥ - ١٧) لذلك كان يبتهل ويتضرع إليه. لكن سيدنا أبا بكر ﷺ لما رآه في هذه الحال من غاية الخشوع والابتهال والبكاء تيقن بأن دعاءه قد استجيب له كما قَالَ تَعَالَىٰ:
﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا ﴾ النمل: ٦٢)

الحاصل كان الصديق الأكبر في مقام الرجاء والنبي ﷺ في مقام الخوف.

﴿إزالة شبهة﴾

شبهة :لماذا كان النبي ﷺ قلقا إلى أقصى الدرجة مع أن الله وعده بالنصر والفتح؟

الجواب: كان وعد الله مجملا و لم يكن مقيدا بزمان ومكان معين, وكان النبي ﷺ يخطر بباله أن الله ﷻغني عن العالمين مالك الملك مطلقا يفعل ما يشاء ,ويليق مقام الربوبية أن يخاف العبد وإن وعده من ربه ويعتقد أنه مكلف بالدعاء على كل حال وليس له على ربه أمر محتم, وكل ما يعطيه هو نتيجة فضله وكرمه, وإن كان زمان وعد النصر معينا ومحددا فيبقى الاحتمال أيضا أنه من الممكن أن وقوع الوعد وتحقيقه يتعلق بأسباب وشرائط مخفية لعل الله لم يطلع عليها نبيه أيضا لحكمة أو مصلحة

كما قال تعالى﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾البقرة: ٢٥٥ وليس على الله ﷻ أن يخبر لازما نبيه عن أسباب وشرائط تتعلق بوعد أو واقعة, فربما تقتضي الحكمة البالغة أن يبقى أصل الحقيقة سرا مكتوما ولا يغفل العبد للحظة عن عظمة الله وكبريائه وهيبته وصفة استغنائه.

فقلق الأنبياء وابتهالهم واجتهادهم في الدعاء لا يكون لأنهم على ريب في وعد الله بل يغلب عليهم خوف استغنائه فهم يجتهدون في دعائه ليرضى عنهم ويستجيب لهم لطفا بهم وفضلا منه.(مدارج النبوة)

وفي رواية مسلم: قَالَ :يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾الأنفال: ٩ - ١٠)

وورد في صحيح البخاري :وَهُوَ فِي الدِّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾القمر: ٤٥ (صحيح البخاري - (10/ 56)

وفي رواية ابن اسحاق بينما يدعو رسول الله ﷺ إذ خفق خفقة وهو في العريش ثم انتبه فقال ابشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع (يعني الغبار). (سيرة ابن كثير: 2 / 420, السيرة النبوية لابن هشام: 3 / 174)

﴿نزول الملائكة لإمداد المسلمين﴾

أولا أمد الله المسلمين بألف ملك ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف .

(تفسير ابن كثير: ج1 ص523)

نكتة :كان إبليس قد شارك هذه المعركة بجنوده لإعانة الكفار والمشركين فأنزل الله ﷻ جيش الملائكة في قيادة جبريل وميكائيل وإسرافيل لإمداد المسلمين, ظهر إبليس بنفسه بصورة سراقة بن نوفل وجيشه بصورة رجال بني مدلج (قال المؤلف: كما روي في دلائل البيهقي ودلائل أبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما (دلائل النبوة للبيهقي 75/3) .

فأنزل الملائكة أيضا بصورة الرجال كما صرح العلامة السهيلي والإمام القرطبي. والذين نزل الملائكة لإمدادهم ونصرهم هم وإن كانوا إنسانا صورة لكنهم كانوا كالملائكة معنى.

عن أبي أسيد الساعدي- ﷺ وكان بدريًا- فكان يقول: لو أن بصري فُرِّج منه ثم ذهبتم معـــي إلى أحد، لأخبرتكم بالشِّعب الذي خرجت منه الملائكة في عمائم صُفر قد طرحوها بـــين أكتـــافهم . (تفسير الطبري: 7 / 186).

وروى ابن أبي حاتم أن الزبير ﷺ كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر.(تفسير ابن كثير: ج1 ص523.

وجاء في بعض الروايات أن لون عمائم الملائكة أسود ومن أخرى أبيض.

قال الحافظ السيوطي :الروايات الصحيحة تدل على أن لونها أصفر, وجميع ما جاء فيه من الروايات من أن لونها كان أسود أو أبيض فكلها ضعيفة.

نكتة :لعل اتخاذ اللون الأصفر لعمائم الملائكة ليفرح به المسلمون لأنه يسر الناظرين كما **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾ البقرة: ٦٩.

الحاصل أنزل الله ﷻ جنود الملائكة من السماء لإمداد المسلمين. كان نزول الملائكة بذاته نعمة وسببا للخير والبركة كما كان نزول الملائكة في غزوة حنين سببا لنصر المسلمين (كما سيأتي .

ثانيا: أنعم الله على المسلمين حيث أمر الملائكة بأن يثبتوا المسلمين تثبيتا روحانيا كما قال تعالى: **قَالَ تَعَالَىٰ**: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ١٢﴾ الأنفال: ١٢)

كما جعل الله للشيطان أن يوسوس في صدور الناس, هكذا جعل للملائكة المكـــرمين أن يلقـــوا في القلوب الصالحات من الأقوال والأعمال وهو عبارة عن اللمة أو الإلهام. فقام الملائكة بإلقاء التفاني والتفادي في قلوب المسلمين مقابل المردة من الشياطين بأن تثبتوا أمام الطاغين والباغين من أعداء الله ورسوله. فإن الله ربك نعم المولى ونعم النصير, أنزل جنود الملائكة لإمدادك فلا هم ولا غم. وأساس الفتح والهزيمة هو قوة القلوب وضعفها, فثبت الملائكة قلوب المسلمين وقوَّوها.

ثالثا: أمر الملائكة بالقتال جنبا بجنب مع المسلمين.

رابعا: جعلهم معينا وناصرا للمسلمين فإن المسلمين هم كانوا يقاتلون أصلا وكانت الملائكة تبعا لهم كما يشير إليه كلمة "ممدكم."

خامسا: ألقى الرعب في قلوب الكافرين كما قال تعالى: الأنفال:﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ الأنفال: ١٢) .

﴿تعليم الملائكة طريق الجهاد والقتال﴾

كانت الملائكة لا يعلمون طريق قتل الإنسان فعلمهم الله ﷻ فقال: فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ الأنفال: ١٢) .

عن الربيع بن أنس قال كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة من قتلى الناس بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل وسم النار.(فتح الباري لابن حجر: 7 / 312 .

عن ابن عباس قَالَ :بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ أَقْدِمْ حَيْزُومُ (قال المؤلف: حيزوم اسم فرس جبريل عليه السلام كذا في الزرقاني ص416, ج1) (قال في النهاية "حيزوم" جاء في التفسير أنه اسم فرس جبريل عليه السلام 467/1.عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (173/1) فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ صَدَقْتَ ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ. (صحيح مسلم: 9 / 214.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ بَدْرٍ هَذَا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ عَلَيْهِ أَدَاةُ الْحَرْبِ. (صحيح البخاري: 12 / 389, شهود الملائكة بدرا .

عن أبي أمامة بن سهل عن أبيه قال : يا بني لقد رأيتنا يوم بدر و إن أحدنا ليشير إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف. (سيرة ابن كثير: 2 / 426. قال المؤلف:"رواه الحاكم وصححه تلميذه الإمام البيهقي وأبو نعيم" .

عن سهل بن سعد قال : قال أبو أسيد بعد ما ذهب بصره : يا ابن أخي و الله لو كنت أنا و أنت ببدر ثم أطلق الله بصري لأريك الشعب الذي خرجت علينا منه الملائكة من غير شك و لا تمار. (سيرة ابن كثير: 2 / 426.) (قال المؤلف: "رواه الطبراني وفيه سلامة بن روح وثقه ابن حبان وضعفه غيره لغفلة فيه.

الحاصل أن نزول الملائكة من السماء لإمداد المسلمين ثم مقاتلتهم المشركين مع المسلمين ثابت من آيات القرآن وسنة رسوله ثبوتا صريحا لا مجال لأحد أن يشك فيه. وركوب الملائكة فرسا أيضا تدل عليه عدة روايات, وورد في بعض الروايات أنهم كانوا راكبين فرسا أبلق.

عن ابن عباس أنه قال إن الملائكة لم يباشروا القتال مع المسلمين إلا في بدر, إلا أن نزولهم في مواقع أخرى أيضا ثابت لكن لتأييد المسلمين وتقويتهم وتثبيتهم وتكثير جماعتهم ولإلقاء السكينة والطمأنينة في قلوب المسلمين لا للقتال, مثلا ذكر في سورة التوبة نزول الملائكة عند غزوة حنين كما قال تعالى :قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾التوبة: ٢٦ .

لكن ذكر البخاري ومسلم رحمهما الله قتال جبريل وميكائيل في غزوة أحد أيضا, لكنه لم يكن نيابة عن المسلمين كافة بل كان لحماية النبي ﷺ ومنعه من أيدي المشركين خاصة. (فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر, وفي رواية أخرى عنه قال: و لم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر, وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لا يضربون. تفسير ابن كثير: ج1 ص523- المترجم.

نكتة :عالمنا عالم الأسباب, فأنزل الله ﷻ الملائكة بصورة الجنود رعاية لعالمنا, وإلا يكفي ملك واحد جميع الكفار, الفاعل الحقيقي هو الله وحده لكن ظهور قدرته مربوط بالأسباب والوسائط, فأنزل جنود الملائكة لإمداد المسلمين وفقا لنظام عالم الأسباب.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم وقال والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة فقال عمير بن الحمام أخو ابن سلمة وفي يده تمرات يأكلهن بخ بخ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل (سيرة ابن هشام: 1 / 627 ,الطبقات الكبرى: 2 / 25.

قال ابن اسحاق وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عوف ابن الحارث وهو ابن عفراء قال يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده؟ (يعني ما هو الأمر الذي ينال به العبد أقصى رضا ربه. وَيُضْحِكُ الرّبّ أَيْ يُرْضِيهِ غَايَةَ الرّضَى ، وَحَقِيقَتُهُ أَنّهُ رِضًى مَعَهُ تَبْشِيرٌ وَإِظْهَارُ كَرَامَةٍ وَذَلِكَ أَنّ الضّحِكَ مُضَادّ لِلْغَضَبِ وَقَدْ يَغْضَبُ السّيّدُ وَلَكِنّهُ يَعْفُو وَيُبْقِي الْعَتَبَ فَإِذَا رَضِيَ فَذَلِكَ أَكْثَرُ مِنْ الْعَفْوِ فَإِذَا ضَحِكَ فَذَلِكَ غَايَةُ الرّضَى ، إذْ قَدْ يَرْضَى وَلَا يُظْهِرُ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ الرّضَى ، فَعَبّرَ عَنْ الرّضَى وَإِظْهَارِهِ بِالضّحِكِ فِي حَقّ الرّبّ سُبْحَانَهُ مَجَازًا وَبَلَاغَةً وَتَضْمِينًا لِهَذِهِ الْمَعَانِي فِي لَفْظٍ وَجِيزٍ وَلِذَلِكَ قَالَ عَلَيْهِ السّلَامُ فِي طَلْحَةَ بْنِ الْبَرَاءِ اللّهُمّ الْقَ طَلْحَةَ يَضْحَكُ إلَيْك ، وَتَضْحَكُ إلَيْهِ فَمَعْنَى هَذَا : الْقَهُ لِقَاءَ مُتَحَابّيْنِ مُظْهِرَيْنِ لِمَا فِي أَنْفُسِهِمَا مِنْ رِضًى ، وَمَحَبّةٍ فَإِذَا قِيلَ ضَحِكَ الرّبّ لِفُلَانِ فَهِيَ كَلِمَةٌ وَجِيزَةٌ تَتَضَمّنُ رِضًى مَعَ مَحَبّةٍ وَإِظْهَارِ بِشْرٍ وَكَرَامَةٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهِمَا ، فَهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ الّتِي أُوتِيَهَا عَلَيْهِ السّلَامُ فافهم جيدا معنى "ضحك الله).("ﷺ الروض الأنف: 3 / 71.

فأجاب ﷺ وقال: غمسه يده في العدو حاسرا فترع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل (السيرة النبوية لابن هشام: 3 / 175.

﴿دعاء أبي جهل ربه وتحريضه القوم على القتال﴾

لما قتل عتبة وشيبة ووليد قام أبو جهل يخاطب قومه تحريضا وتشجيعا لهم فقال: ولا يهولنكم قتل عتبة و شيبة والوليد فإنهم قد عجلوا فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالجبال ولا ألفين رجلا منكم قتل منهم رجلا ولكن خذوهم أخذا حتى تعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم ورغبتهم عن اللات والعزى: (المعجم الكبير: 5 / 47)

وَاسْتَفْتَحَ أَبُو جَهْلٍ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَالَ اللّهُمّ أَقْطَعَنَا لِلرّحِمِ وَآتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُهُ فَأَحِنْهُ الْغَدَاةَ اللّهُمّ أَيّنَا كَانَ أَحَبّ إلَيْكَ وَأَرْضَى عِنْدَكَ فَانْصُرْهُ الْيَوْمَ فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ { إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } [الْأَنْفَالِ 19] (زاد المعاد:160/3)

قال المؤلف: أخرجه ابن إسحاق والحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير, خصائص كبرى: ص203,ج1, زاد المعاد: 89,ج2, وقال ابن كثير: أخرجه الإمام أحمد والنسائي ورواه الحاكم ثم قال صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه, البداية والنهاية: ص282 ج3)

في الدلائل للبيهقي وأبي نعيم عن ابن عباس:فلما اختلط القوم قال أبو جهل : اللهم أولانــا بــالحق فانصره فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : يا رب إن تهلك هذه العصابة لم تعبــد في الأرض أبدا. (دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني: 1 / 485, دلائل النبوة للبيهقي: 75/3).

ففي جانب المشركين كان أبو جهل يدعو ربه وفي جانب المسلمين كان رسول الله يجتهد في الدعاء لربه, ثم اشتد القتال فَخَرَجَ ﷺ مِنْ الْعَرِيشِ فَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ وَقَالَ : لِكُلِّ امْرِئٍ مَا أَصَابَ ؟ وَقَالَ وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُقَاتِلُهُمْ الْيَوْمَ رَجُلٌ ، فَيُقْتَلُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ إلَّا أَدْخَلَــهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ (الأحكام السلطانية: 1 / 67)

فقال له جبريل: "خذ قبضة من التراب، فارم بها في وجوههم" فأخذ قبضة من التراب، وحصَبَ بها وجوه المشركين ثم أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا، فأوصــل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبقَ أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله, ولهذا قال الله تعالى: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) [الأنفال: 17]

(السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث:28/3).

يعني يا محمد! وإن رميت قبضة من التراب في الظاهر لكن إيصاله إلى كل فرد من أفراد جيش الكفار إلى أعينهم وأنوفهم لم يكن من عملك بل كان من صنيعي وقدرتي.

لما تزاحم الناس وتدانى بعضهم من بعض خرج رسول الله فأخذ حفنة من حصباء ثم استقبل بها قريشا فنفخ بها في وجوههم وقال ثلاث مرات شاهت الوجوه ثم قال رسول الله احملوا يا معشر المســلمين فحمل المسلمون وهزم الله قريشا وقتل من قتل من أشرافهم وأسر من أسر منهم, فَكَانَتْ الْهَزِيمَةُ فَقَتَلَ اللّهُ تَعَالَى مَنْ قَتَلَ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ ,وَأَسَرَ مَنْ أَسَرَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ. يقول ابن شهاب الزهري وعروة بن الزبير جعل الله ﷻ لقبضة من التراب حالا عجيبا فكل من أصابه في عالم الحيرة والاستسلام ولا يدري أين يذهب.فما إن رميت قبضة من التراب حتى صار جيش الكفار كله خائفا مرعوبا, وجعل صناديدهم ورؤساؤهم يقتلون, فَلَمّا وَضَعَ الْقَوْمُ أَيْدِيَهُمْ يَأْسِرُونَ وَرَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَــلّمَ فِي الْعَرِيشِ وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ قَائِمٌ عَلَى بَابِ الْعَرِيشِ الّذِي فِيهِ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مُتَوَشّحًا السّيْفَ فِي نَفَرٍ مِنْ الْأَنْصَارِ يَحْرُسُونَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَخَافُونَ عَلَيْهِ كَرّةَ الْعَدُوّ وَرَأَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي وَجْهِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ الْكَرَاهِيَةَ لِمَا يَصْنَعُ النّاسُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَاَللّهِ لَكَأَنّك يَا سَعْدُ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ الْقَوْمُ، قَالَ أَجَلْ وَاَللّهِ يَا رَسُولَ اللّهِ كَانَتْ

أَوّلَ وَقْعَةٍ أَوْقَعَهَا اللّهُ بِأَهْلِ الشّرْكِ ,فَكَانَ الْإِثْخَانُ فِي الْقَتْلِ بِأَهْلِ الشّرْكِ أَحَبّ إلَيّ مِنْ اسْتِبْقَاءِ الرّجَالِ.

(الروض الأنف: 3 / 73, السيرة لابن حبان: 157/1)

من خالط قلوبهم توحيد الله وتفريده لا يجدون في أنفسهم جانبا لينا لمن يشركون بالله ويكفرونه, وأيضا هذا من مقتضى التخلق بأخلاق الله أن لا يغفر أن يشرك به كما **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء: ٤٨
النساء: ٤٨.

عن ابْنِ عَبّاسٍ : أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمَئِذٍ إنّي قَدْ عَرَفْت أَنّ رِجَالًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَغَيْرِهِمْ قَدْ أُخْرِجُوا كُرْهًا ، لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِقِتَالِنَا ، فَمَنْ لَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدًا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ فَلَا يَقْتُلْهُ وَمَنْ لَقِيَ أَبَا الْبَخْتَرِيّ بْنَ هِشَامِ بْنِ الْحَارِثِ ابْنِ أَسَدٍ فَلَا يَقْتُلْهُ وَمَنْ لَقِيَ الْعَبّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمُطّلِبِ ، عَمّ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَلَا يَقْتُلْهُ فَإِنّهُ إنّمَا أُخْرِجَ مُسْتَكْرَهًا. (سيرة ابن هشام – (1 / 628)

وَإِنّمَا نَهَى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَنْ قَتْلِ أَبِي الْبَخْتَرِيّ لِأَنّهُ كَانَ أَكَفّ الْقَوْمِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَهُوَ بِمَكّةَ وَكَانَ لَا يُؤْذِيهِ وَلَا يَبْلُغُهُ عَنْهُ شَيْءٌ يَكْرَهُهُ وَكَانَ مِمّنْ قَامَ فِي نَقْضِ الصّحِيفَةِ الّتِي كَتَبَتْ قُرَيْشٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِيّ الْمُطّلِبِ . فَلَقِيَهُ الْمُجَذّرُ بْنُ زِيَادٍ الْبَلَوِيّ ، حَلِيفُ الْأَنْصَارِ، ثُمّ مِنْ بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ لِأَبِي الْبَخْتَرِيّ: إنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَدْ نَهَانَا عَنْ قَتْلِك – وَمَعَ أَبِي الْبَخْتَرِيّ زَمِيلٌ لَهُ قَدْ خَرَجَ مَعَهُ مِنْ مَكّةَ ، وَهُوَ جُنَادَةُ بْنُ مُلَيْحَةَ بِنْتِ زُهَيْرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أَسَدٍ – قَالَ: وَزَمِيلِي؟ فَقَالَ لَهُ: لَا وَاَللّهِ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي زَمِيلِك، مَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إلّا بِك وَحْدَك، فَقَالَ لَا وَاَللّهِ إذَنْ لَأَمُوتَن أَنَا وَهُوَ جَمِيعًا، لَا تَتَحَدّثُ عَنّي نِسَاءُ مَكّةَ أَنّي تَرَكْت زَمِيلِي حِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ. فَقَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيّ حِينَ نَازَلَهُ الْمُجَذّرُ وَأَبَى إلّا الْقِتَالَ يَرْتَجِزُ:

لَنْ يُسْلِمَ ابْنُ حُرّةَ زَمِيلَهُ ... حَتّى يَمُوتَ أَوْ يَرَى سَبِيلَهُ

فَاقْتَتَلَا، فَقَتَلَهُ الْمُجَذّرُ, ثُمّ إنّ الْمُجَذّرَ أَتَى رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ وَاَلّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ لَقَدْ جَهَدْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَأْسِرَ فَآتِيك بِهِ (فَأَبَى) إلّا أَنْ يُقَاتِلَنِي، فَقَاتَلْتُهُ فَقَتَلْتُهُ.

﴿قتل أمية بن خلف وابنه﴾

كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ, وكان قد سمع عن قتله بلسان سعد بن معاذ في مكـــة في وقت لم يكن هناك أي شيء يشير إلى وقعة بدر, فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ اسْتَنْفَرَ أَبُو جَهْلٍ النَّاسَ ، قَالَ : أَدْرِكُوا عِيرَكُمْ فَكَرِهَ أُمَيَّةُ أَنْ يَخْرُجَ , فَأَتَاهُ أَبُو جَهْلٍ ، فَقَالَ : يَا أَبَا صَفْوَانَ إِنَّكَ مَتَى مَا يَرَاكَ النَّاسُ قَدْ تَخَلَّفْتَ وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْوَادِي تَخَلَّفُوا مَعَكَ , فَلَمْ يَزَلْ بِهِ أَبُو جَهْلٍ حَتَّى قَالَ : أَمَّا إِذْ غَلَبْتَنِـــي فَوَاللَّهِ لَأَشْتَرِيَنَّ أَجْوَدَ بَعِيرٍ بِمَكَّةَ ، ثُمَّ قَالَ أُمَيَّةُ " يَا أُمَّ صَفْوَانَ جَهِّزِينِي ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا أَبَا صَـــفْوَانَ وَقَدْ نَسِيتَ مَا ، قَالَ : لَكَ أَخُوكَ الْيَثْرِبِيُّ ، قَالَ : لَا مَا أُرِيدُ أَنْ أَجُوزَ مَعَهُمْ إِلَّا قَرِيبًا , فَلَمَّا خَـــرَجَ أُمَيَّةُ أَخَذَ لَا يَنْزِلُ مَنْزِلًا إِلَّا عَقَلَ بَعِيرَهُ , فَلَمْ يَزَلْ بِذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِبَـــدْرٍ". (موســـوعة الحديث:رقم الحديث3682, البخاري باب من يقتل ببدر)

عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: كَاتَبْتُ أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ كِتَابًا بِأَنْ يَحْفَظَنِي فِي صَـــاغِيَتِي بِمَكَّـــةَ وَأَحْفَظَهُ فِي صَاغِيَتِهِ بِالْمَدِينَةِ فَلَمَّا ذَكَرْتُ الرَّحْمَنَ قَالَ لَا أَعْرِفُ الرَّحْمَنَ كَاتِبْنِي بِاسْمِكَ الَّذِي كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَكَاتَبْتُهُ عَبْدَ عَمْرٍو فَلَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ خَرَجْتُ إِلَى جَبَلٍ لِأُحْرِزَهُ حِينَ نَـــامَ النَّـــاسُ فَأَبْصَرَهُ بِلَالٌ فَخَرَجَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى مَجْلِسٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لَا نَجَوْتُ إِنْ نَجَا أُمَيَّةُ فَخَرَجَ مَعَـــهُ فَرِيقٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي آثَارِنَا فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَلْحَقُونَا خَلَّفْتُ لَهُمْ ابْنَهُ لِأَشْغَلَهُمْ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ أَبَوْا حَتَّـــى يَتْبَعُونَا وَكَانَ رَجُلًا ثَقِيلًا فَلَمَّا أَدْرَكُونَا قُلْتُ لَهُ ابْرُكْ فَبَرَكَ فَأَلْقَيْتُ عَلَيْهِ نَفْسِـــي لِأَمْنَعَـــهُ فَتَخَلَّلُـــوهُ بِالسُّيُوفِ مِنْ تَحْتِي حَتَّى قَتَلُوهُ وَأَصَابَ أَحَدُهُمْ رِجْلِي بِسَيْفِهِ وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَـــوْفٍ يُرِينَـــا ذَلِكَ الْأَثَرَ فِي ظَهْرِ قَدَمِهِ. فَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَقُولُ يَرْحَمُ اللَّهُ بِلَالًا ، ذَهَبَتْ أَدْرَاعِي وَفَجَعَنِي بِأَسِيرَيّ. (صحيح البخاري: 8 / 87, كتاب الوكالة)

﴿قتل أبو جهل عدو الله وفرعون هذه الأمة﴾

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: بينا أنا واقف في الصف يوم بدر فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما تمنيت أن أكون بين أضلع منهما فغمزني أحدهما فقال يا عم هل تعـــرف أبا جهل قلت نعم ما حاجتك إليه يا ابن أخي قال أخبرت أنه يسب رسول الله والذي نفسي بيـــده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا فتعجبت لذلك فغمزني الآخر فقال لي مثلها فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس قلت ألا أن هذا صاحبكما الذي سألتماني فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه.

(عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 22 / 314)

وهما ابنا عفراء معاذ ومعوذ.

عن ابن عباس وعبد الله بن أبي بكر قالا: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، فلما سمعتها جعلته من شأني فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تطيح من تحت مرضخة النوى حين يضرب بها، قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فطرح يدي فتعلقت بجلدة من جنبي، واجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي وإني لاسحبها خلفي فلما آذتني وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها.

قال ابن إسحاق: ثم عاش بعد ذلك حتى كان زمن عثمان.

ثم مر بأبي جهل – وهو عقير – معوذ بن عفراء فضربه حتى أثبته، وتركه وبه رمق.

وقاتل معوذ حتى قتل) .البداية والنهاية: 3 / 351)

﴿البحث عن جثة أبي جهل بعد الفتح﴾

وعند أبي إسحاق والحاكم من حديث ابن عباس قال ابن مسعود: فوجدته بآخر رمق فوضعت رجلي على عنقه فقلت: أخزاك الله يا عدو الله, ثم احترزت رأسه ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله الذي لا إله غيره قال: وكانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: نعم والله الذي لا إله غيره ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الحمد لله الذي أعز الإسلام وأهله ثلاث مرات.

(عمدة القاري: باب قتل أبي جهل, تهذيب سيرة ابن هشام: 1/ 200).

وعن أبي إسحاق لما جاء النبي البشير بقتل أبي جهل استحلفه ثلاثة أيمان بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأيته قتيلا فحلف له فخر ساجدا (عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 25 / 217)

وفي ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى يوم بشر برأس أبي جهل ركعتين) .البداية والنهاية: 3 / 354)

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : كُنْت أُفَتِّشُ الْقَتْلَى يَوْمَ بَدْرٍ لِأُبَشِّرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ أَرَاهُ مَقْتُولًا مِنْهُمْ فَرَأَيْت أَبَا جَهْلٍ صَرِيعًا بِهِ رَمَقٌ فَجَلَسْت عَلَى صَدْرِهِ ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ وَقَالَ : يَا رُوَيْعِيَّ الْغَنَمِ ، لَقَدْ ارْتَقَيْت مُرْتَقًى عَظِيمًا, فَقُلْت : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَكَّنَنِي مِنْ ذَلِكَ, فَقَالَ : لِمَنْ الدَّبْرَةُ ؟ فَقُلْت : لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ,فَقَالَ : مَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَهُ ؟ فَقُلْت : أَحُزُّ رَأْسَك, فَقَالَ : خُذْ سَيْفِي فَهُوَ أَمْضَى لِمَا تُرِيدُ ، وَاقْطَعْ رَأْسِي مِنْ كَاهِلِي لِيَكُونَ أَهْيَبَ فِي عَيْنِ النَّاظِرِ, وَإِذَا رَجَعْتَ إلَى مُحَمَّدٍ فَأَخْبِرْهُ أَنِّي الْيَوْمَ أَشَدُّ بُغْضًا لَهُ مِمَّا كُنْتُ مِنْ قَبْلُ.

فَقَالَ : قَطَعْتُ رَأْسَهُ وَأَتَيْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْت : هَذَا رَأْسُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْلٍ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اللَّهُ أَكْبَرُ, هَذَا فِرْعَوْنِي وَفِرْعَوْنُ أُمَّتِي, كَانَ شَرُّهُ عَلَيَّ وَعَلَى أُمَّتِي أَعْظَمَ مِنْ شَرِّ فِرْعَوْنَ عَلَى مُوسَى وَأُمَّتِهِ,(فكان فرعون موسى عليه السلام آمن عند موته وهذا فرعون هذه الأمة لم يكتف بعدم الإيمان بل استكبر وكفر عند موته) ثُمَّ نَفَّلَنِي سَيْفَه.

(شرح السير الكبير: 2 / 179)

نكتة :عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ثُمَّ قَالَ : لِيَقُمْ مَعِي مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ ، فَقَامَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَحَمَلَهُ : أَيْ أَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ نَفْسِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : خَرَجْنَا مِنْ مَكَّةَ وَخَطَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْلِي خَطًّا وَقَالَ : لَا تَخْرُجْ عَنْ هَذَا الْخَطِّ فَإِنَّك إنْ خَرَجَتْ عَنْهُ لَمْ تَلْقَنِي إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ ذَهَبَ يَدْعُو الْجِنَّ إلَى الْإِيمَانِ) .(العناية شرح الهداية: 1 / 178)

لعل الله عز وجل قدر قتل ابن جهل لابن مسعود ووفقه له وجعله سعيدا به لأنه لم يكن عبدا عاديا فكان من أخص عباد الله وأهله وخاصته, عبد الله الذي لم يكن في قلبه حبة خردل من الكبر والخيلاء, وكان أبو جهل فخرا وخيلاء, و لم يكن في قلبه ذرة من التواضع, فقدر الله قتله بيد شخص مبارك مسعود لا شائبة فخر وخيلاء في قلبه. (والله سبحانه وتعالى أعلم وعلمه أتم وأحكم. رضي الله عن عبد الله بن مسعود وأرضاه وجزاه عن الإسلام ما يحبه ويرضاه آمين.

فائدة :أبو الحكم هي كنية أبي جهل والنبي صلى الله عليه و سلم هو الذي لقبه بأبي جهل.

(فتح الباري – ابن حجر – (7 / 283). أي منبع ومصدر الجهل بأسره ومربيه, وحتى متى بقي حيا استمر منه صدور أعمال الجهل بأنواعها.

وَانْقَطَعَ يَوْمَئِذ سَيْفُ عُكّاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ ، فَأَعْطَاهُ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جِذْلًا مِنْ حَطَبٍ فَقَالَ دُونَكَ هَذَا فَلَمّا أَخَذَهُ عُكّاشَةُ وَهَزّهُ عَادَ فِي يَدِهِ سَيْفًا طَوِيلًا شَدِيدًا أَبْيَضَ فَلَمْ يَزَلْ عِنْدَهُ يُقَاتِلُ بِــهِ حَتّى قُتِلَ فِي الرّدّةِ أَيّامَ أَبِي بَكْرٍ. (زاد المعاد: 3 / 160)

عن الزبير بن العوام القرشي – رضي الله عنه – : قال : «لَقِيتُ يوم بدر عُبَيْدَةَ – ويقال : عَبيدة - بنَ سعيد بنِ العاص، و هو مُدَجَّج ، لا يُرى منه إلا عيناه ، وكان يُكْنى أبا ذاتِ الكَرِش ، فقال : أنا أبو ذات الكَرِش ، فحملتُ عليه بالعَنَزة ، فطعنتُه في عينه ، فمات ، قال هشام بن عروة : فأُخْبِرتُ أن الزبير قال : لقد وضعتُ رجلي عليه ، ثم تَمطَّيتُ فكان الجَهدُ : أن نَزَعْتُها ، وقد انْثَنى طرفاها ، قال عروة : فسأله إياها رسولُ الله –صلى الله عليه وسلم– ، فأعطاه إيَّاها ، فلما قُبِضَ أخذها ، ثم طلبها أبو بكر ، فأعطاه إياها ، فلما قُبض أبو بكر أخذها، ثم سألها عمرُ ، فأعطاه إياها ، فلما قبض عمر أخذها ، ثم طلبها عثمان منه ، فأعطاه إيَّاها ، فلما قُتِلَ وَقَعَتْ إلى آلِ عليّ، فطلبها عبد الله بن الزبير ، فكانت عنده حتى قُتِل». أخرجه البخاري. (جامع الأصــول في أحاديــث الرســول: 8 / 200)

عَنْ عُرْوَةَ قَالَ كَانَ فِي الزُّبَيْرِ ثَلَاثُ ضَرَبَاتٍ بِالسَّيْفِ إِحْدَاهُنَّ فِي عَاتِقِهِ قَالَ إِنْ كُنْتُ لَأُدْخِلُ أَصَابِعِي فِيهَا قَالَ ضُرِبَ ثِنْتَيْنِ يَوْمَ بَدْرٍ وَوَاحِدَةً يَوْمَ الْيَرْمُوكِ قَالَ عُرْوَةُ وَقَالَ لِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ حِــينَ قُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَا عُرْوَةُ هَلْ تَعْرِفُ سَيْفَ الزُّبَيْرِ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ فَمَا فِيهِ قُلْتُ فِيهِ فَلَّةٌ فُلَّهَا يَــوْمَ بَدْرٍ قَالَ صَدَقْتَ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ.

(صحيح البخاري - (12 / 370)

﴿أسارى غزوة بدر﴾

ثم انقضت الحرب بحمد الله وحصل النصر المبين للمسلمين, وقتل من قريش سبعون مقاتلا وأسر سبعون آخرون ,وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يطرحوا في القليب فطرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملاها، فذهبوا ليخرجوه فتزايل [لحمه[فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.

لما أخذ عتبة بن ربيعة فسحب في القليب، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه أبى حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه فقال: " يا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أبيك شئ ؟ " فقال : لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبى ولا في مصرعه، ولكني كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له، أحزنني ذلك, فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير وقال له خيرا.

﴿قذف جثث صناديد قريش بدر في بئر من بدر﴾

عَنْ قَتَادَةَ قَالَ ذَكَرَ لَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِك عَنْ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ أَمَرَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأَرْبَعَة وَعشْرِينَ رَجُلًا منْ صَنَاديد قُرَيْشٍ فَقُذفُوا في طَوِيٍّ منْ أَطْوَاء بَدْرٍ خَبِيث مُخْبِث وَكَانَ إِذَا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِالْعَرْصَة ثَلَاثَ لَيَال فَلَمَّا كَانَ بِبَدْرٍ الْيَوْمَ الثَّالثَ أَمَرَ بِرَاحلَته فَشُدَّ عَلَيْهَا رَحْلُهَا ثُمَّ مَشَى وَاتَّبَعَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا مَا نُرَى يَنْطَلقُ إِلَّا لبَعْضِ حَاجَته حَتَّى قَامَ عَلَى شَفَة الرَّكيِّ فَجَعَلَ يُنَاديهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ يَا فُلَانُ بْنَ فُلَان وَيَا فُلَانُ بْنَ فُلَان أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا.

(صحيح البخاري: 12 / 372)

وفي رواية ابن إسحاق :ثم وَقَفَ عَلَى قليب من الْقَتْلَى فَقَالَ: بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيّ كُنْتُمْ لِنَبِيّكُمْ، كَذّبْتُمُونِي وَصَدّقَنِي النّاسُ, وَخَذَلْتُمُونِي وَنَصَرَنِي النّاسُ, وَأَخْرَجْتُمُونِي وَآوَانِي النّاسُ, (وجعلتم الأمين خائنا والصادق كاذبا) جَزَاكُمْ اللّهُ شَرًّا.(زاد المعاد: 3 / 160, مسند أحمد: 51 / 360 .(
فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّه مَا تُكَلِّمُ منْ أَجْسَاد لَا أَرْوَاحَ لَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّد بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ.

يقول حسان بن ثابت في قصيدته:

قذفناهم كباكب في القليب	يناديهم رسول الله لما
و أمر الله يأخذ بالقلوب	ألم تجدوا كلامي كان حقا
صدقت و كنت ذا رأي مصيب	فما نطقوا و لو نطقوا لقالوا

﴿بعث النبي ﷺ رسولاً إلى المدينه ليخبرهم ببشارة الفتح﴾

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة قال أسامة بن زيد فأتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية ابنه رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت عند عثمان بن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفني عليها مع عثمان حارثة قد قدم قال فجئته وهو واقف بالمصلى قد غشيه الناس وهو يقول قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربعية وأبو جهل بن هشام وزمعة بن السود وأبو البختری العاص بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج قال قلت يا أبت أحق هذا قال نعم والله يا بني.

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين وفيهم عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه النفل الذي أصيب من المشركين وجعل على النفل عبد الله بن كعب بن عمرو بن عوف. ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين فقال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهنئوننا به فوالله إن لقينا إلا عجائز صلعا كالبدن المعقلة فنحرناها فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال أي ابن أخي أولئك الملأ (الأشراف والرؤساء). (السيرة النبوية لابن هشام:192/3).

﴿تقسيم الغنائم﴾

أقام رسول الله ﷺ بعرصة بدر ثلاثة أيام بعد الفتح ثم توجه إلى المدينة وجعل على النفل عبد الله بن كعب حتى إذا بلغ الصفراء أراد أن يقسم النفل, وقبل أن يقسم النفل اختلف المسلمون فيه فقال من جمعه هو لنا وقال الذين كانوا يقاتلون العدو يطلبونه والله لولا نحن ما أصبتموه لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يخالف إليه العدو والله ما أنتم بأحق به منا والله لقد رأينا أن نقتل العدو إن منحنا الله تعالى أكتافه ولقد رأينا

أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ولكنا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كرة العدو فقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا, فنزلت هذه الآية : قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ الأنفال: ١.

فقسمه في الصفراء النفل الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء. وشارك فيه من لم يشهد بدرا بأمره أو بإذنه من ثمانية رجال فأعطاهم أيضا النفل وهم كما يلي:

1- سيدنا عثمان بن عفان ﷺ فإنه أذن له رسول الله ﷺ بالبقاء في المدينة بسبب علالة زوجته رقية بنت رسول الله.ﷺ

2- طلحة بن عبيد الله.ﷺ

3- وسعيد بن زيد .ﷺ فإنهما بعثهما رسول الله ﷺ من المدينة لتفقد أحوال عير أبي سفيان.

4- أبو لبابة ﷺ فإنه رجعه رسول الله ﷺ إلى المدينة واستعمله على المدينة.

5- عاصم بن عدي ﷺ فإنه تركه في العالية.

6- حارث بن حاطب ﷺ فرجعه إلى بني عمرو بن عوف.

7- حاث بن الصمة.ﷺ

8- خوات بن جبير ﷺ فإنهما وإن لم يشهد بدرا لكن رسول الله ﷺ أعطاهما من النفل وجعلهما من البدريين. والله أعلم

فائدة : ليعلم أن الآية﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾ الأنفال: ١)مجملة في تقسيم الغنائم والآية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ الأنفال: ٤١) فيها تفصيل لهذا الإجمال. قد زعم أبو

عبيد القاسم بن سلام رحمه الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قسم غنائم بدر على السواء بين الناس و لم يخمسها ثم نزل بيان الخمس بعد ذلك ناسخا لما تقدم, و في هذا نظر و الله أعلم فإن في الصحيحين عن علي رضي الله عنه أنه قال في قصة شارفيه اللذين اجتب أسنمتهما حمزة أن إحداهما كانت من الخمس يوم بدر ما يرد صريحا على أبي عبيد أن غنائم بدر لم تخمس و الله أعلم بل خمست كما هو قول البخاري و ابن جرير و غيرهما و هو الصحيح الراجح و الله أعلم. (سيرة ابن كثير: 2 / 466)

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه و سلم قافلا إلى المدينة و معه الأسارى و فيهم عقبة بن أبي معيط و النضر بن الحارث, حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه و سلم بالصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث, وإذا كان بعرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط. فقتل علي بن أبي طالب النضر بن الحارث وعاصم بن ثابت عقبة بن أبي معيط. وقفل ببقية أسارى إلى المدينة.

فائدة :كان هذان الرجلان من شر عباد الله و أشدهم كفرا و عنادا و بغيا و حسدا و هجاء للإسلام و أهله, فخصهما من بين الأسارى بالقتل. مرة بينما يصلي النبي صلى الله عليه و سلم في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقا شديدا, ومرة أخرى أخذ سلا جزور فألقاه على ظهره فلم يزل ساجدا حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : اللهم عليك بهذا الملأ من قريش اللهم عليك بعتبة بن ربيعة اللهم عليك بشيبة بن ربيعة اللهم عليك بأبي جهل بن هشام اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط اللهم عليك بأمية بن خلف. وفي دلائل أبي نعيم عن ابن عباس رضي الله عنه بسند صحيح أن عقبة بن أبي معيط تفل مرة في وجهه الكريم. فكان شغلهما الشاغل استهزاء النبي ﷺ والسخرية منه.

ليعلم أن مواجهة نبي الله ومقاتلته ومحاربته ومجادلته وإن هو جرم عظيم وخسران مبين لكن سبه وشتمه والاستهزاء به والتمسخر منه أشد وأعظم من المحاربة والمقاتلة لأنه إهانة لمنصب النبوة. الحاصل استمر النبي ﷺ في طريقه مشيا ووقوفا حتى وصل إلى المدينة مع الأسارى.

﴿تقسيم أسارى بدر بين المسلمين وايصاء النبي صلى الله عليه وسلم بهم خيرا﴾

لما بلغ رسول الله ﷺ المدينة قسم الأسارى بين الصحابة وقال لهم: استوصوا بهم خيرا.

(المعجم الكبير: 22 / 393)

(قال المؤلف: رواه الطبراني في الكبير وقال الحافظ الهيثمي إسناده حسن). فكان الصحابة يقدم الطعام إلى الأسارى أولا ويأكلون بعدهم وإن لم يكف الطعام الجميع يكتفون بالتمر ويطعمون الطعام الأسارى.

كما ورد في حديث عن أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال : كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " استوصوا بالأسارى خيرا " . وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني البر لوصية رسول الله صلى الله عليه و سلم. رواه الطبراني في الصغير والكبير وإسناده حسن(مجمع الزوائد: 115/6).

﴿مشاورة النبي ﷺ أصحابه في الأسارى﴾

استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بعد قدومه المدينة بعدة أيام في أسارى بدر، فقال: "إن الله قد أمكنكم منهم" فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس". فقام عمر فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم عاد النبي صلى الله عليه وسلم فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء.

(تفسير ابن كثير: 4 / 88). (قال المؤلف: مسند أحمد. وقال الهيثمي رواه أحمد عن شيخه علي بن عاصم بن صهيب وهو كثير الخطأ لا يرجع إذا قيل له الصواب وبقية رجال أحمد رجال الصحيح)

في صحيح مسلم عن ابن عباس :ﷺ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ.

(صحيح مسلم: 9 / 214, باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم)

عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله :ﷺ إن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم إذ قال } فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ { وكمثل عيسى إذ قال : { إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم .

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح إذ قال : { رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأرض مِنَ الكافرين دَيَّاراً } ، وكمثل موسى إذ قال : { رَبَّنَا اطمس على أَمْوَالِهِمْ واشدد على قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حتى يَرَوُاْ العذاب الأليم } .

ثم قال – صلى الله عليه وسلم – : " أنتم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق".(المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام:7 / 79, المستدرك على الصحيحين للحاكم مع تعليقات الذهبي في التلخيص: 3 / 24, تعليق الذهبي قي التلخيص:صحيح .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن عبد الله بن عمر، وأبي هريرة، رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه وفي الباب عن أبي أيوب الأنصاري. (تفسير ابن كثير: 4 / 89 .

عن علي، رضي الله عنه، قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال: خَيِّر أصحابك في الأسارى: إن شاءوا الفداء، وإن شاؤوا القتل على أن يقتل منهم مقبلا مثلهم. قالوا : الفداء ويقتل منا.

رواه الترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه وهذا حديث غريب. (تفسير ابن كثير: 4 / 89). (قال المؤلف: رواه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن علي ﷺ .

عن عبيدة أن جبريل نزل على النبي صلى الله عليه و سلم في أسارى بدر فقال إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم أخذتم منهم الفداء واستشهد قابل منكم سبعون قال فنادى النبي صلى الله عليه و سلم في أصحابه فجاؤوا أو من جاء منهم فقال هذا جبريل يخيركم بين أن تقدموهم فتقتلوهم وبين أن تفادوهم واستشهد قابل منكم بعدتهم فقالوا بل نفاديهم فنتقوى به عليهم ويدخل قابل منا الجنة سبعون ففادوهم. (الطبقات الكبرى: 2 / 22)

﴿العتاب من الله بسبب اختيار الفداء على الإثخان﴾

الحاصل قبل رسول الله ﷺ ما قاله أبو بكر ﷺ وأمر بفك الأسرى بعد الفداء. وأما من قال بأخذ الفدية من الصحابة الآخرين فلأنهم يرون أن هؤلاء الأسرى عسى أن يسلموا فيكونوا معينا وناصرا للإسلام, وأما الفداء فيكون معينا في أمور الجهاد ويحصل به القوة لأمور الدين. ولعله يمكن أيضا أن يكون فيمن قال بأخذ الفداء الذين كانوا يريدون المال أصلا, وهو على كل, ناشيء من حب الدنيا

وإن كان مالا حلالا يعني الغنائم فأنزل الله العتاب من السماء بقوله:قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ الأنفال: ٦٧ - ٦٨

فأصل خطاب هذه الآية يتوجه إلى من قال بالفداء نظرا إلى النفع المالي والمصلحة الدنيوية كما يترشح من قوله "تريدون عرض الدنيا ,"أما من قالوا به وهم كانوا ينظرون إلى نفع الدين ومصالح الآخرة فهم في الحقيقة خارجون من هذا العتاب وهو لا يتعلق بهم. فالنبي ﷺ لم يقبل كلام أبي بكر إلا رحمة وصلة للرحم ولينفع به المسلمون, وفكرة نفع الآخرين ما هي إلا جود وسخاء ومحمود ومحبوب إلى أقصى الدرجة بينما النظر إلى نفع الذات فهو مذموم وغير محمود, فالآية وعتابها يتعلق بمن كانوا ينظرون إلى المال نظر الترجيح والتقديم, فبكى النبي ﷺ وأبو بكر ﵁ إثر نزولها, يقول عمر ﵁:قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.(صحيح مسلم: 9 / 214)

عرض الله على نبيه العذاب و لم ينزله لأن الغرض منه التنبيه لا أن يمسهم حقيقة. ثم قال رسول الله ﷺ:ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر. وفي رواية: إلا عمر وسعد بن معاذ. فإن سعد بن معاذ أيضا قال بالإثخان فاستثني مع عمر. وأما عبد الله بن رواحة فإنه وإن كان مخالفا لأخذ الفداء لكن قال بإحراق الأسرى وهو أمر لا يحبه الشرع لذا لم يذكر مع عمر وسعد.﵄

وكان الهدف من هذه الغزوة إحقاق الحق وقطع دابر الكفار وإبطال الباطل كما قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الأنفال: ٧ - ٨ فأمر الله ﷻ الملائكة على وجه خاص بقتل المشركين كما قال تعالى:قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ الأنفال: ١٢ الأنفال: ١٢. وفي آية أخرى :قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ محمد: ٤

تدل هذه الآية دلالة واضحة على أن أخذ الفداء لا يجوز إلا بعد ضرب الرقاب والإثخان حتى تضع الحرب أوزارها ويحق الحق ويبطل الباطل.

ولا حرج في أخذ الفداء بعد إحقاق الحق وإظهار عظمة الإسلام وإدخال هيبته وشوكته في قلوب الكفار.

كان الله ﷻ يريد أن يقع ضرب الرقاب والإثخان إلى حد تدخل به هيبة الإسلام وشوكته القلوب ويقطع دابر الكفر لكي لا يوجد فيه قوة لمواجهة الإسلام, لكن قبل المسلمون الفداء قبل وقع الإثخان إلى حد مطلوب فلذا أنزل الله ﷻ العتاب.

كان مقتضى الوقت الشدة لا الرحمة والرأفة. قال أبو الطيب:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى		مضر كوضع السيف في موضع الندى
حتى يراق على جوانبه الدم		لن يسلم الشرف الرفيع من الأذى

ولا يمكن لأي حكومة من العالم أن تتخذ قوة واستقرارا واستحكاما إلا بعد القتل والإثخان:

إن الإسلام لا يأذن لأهله إلا بقتل المجرمين فحسب, أما الحكومات التي تدعي أنها ذات ثقافة ومدنية وحضارة فلا تميز بين المجرم وغيره في سبيل إقامة سلطتها وإدخال رعبها وهيبتها في القلوب, فإنها تأمر بالقتل مطلقا ولا تستثني أحدا منه, فيشمل النساء والأطفال الأبرياء, وكم من أفعال سيئة مخزية ترتكب جيوشها المهذبة المثقفة لم تكن مخفية على العالم, فإن المدينة كلها تحرق في لحظات ودقائق بشن الغارة عليها بمدافع رشاشات والمدفعيات والطائرات الحربية بصورة بشعة وبضراوة وقساوة قاسية.

والحمد لله على أن الإسلام منزه تماما من هذه الجرائم البشعة. فإنه منع أهله منعا باتا من قتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ والرهبان.

﴿إزالة شبهة﴾

هنا ترد شبهة وهي أن المسلمين إذا أعطوا الخيار بين القتل وأخذ الفداء وعلق الأمر بمشيئتهم فلماذا نزل العتاب على أخذ الفداء؟ فرد عليها العلامة الطيبي في شرحه للمشكاة قائلا: أقول وبالله التوفيق أن التخيير في الحديث وارد على سبيل الاختيار والامتحان ولله أن يمتحن عباده بما شاء امتحن الله تعالى أزواج النبي صلى الله عليه و سلم بقوله تعالى) يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن) الآيتين وامتحن الناس بتعليم السحر في قوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة) وامتحن الناس بالملكين وجعل المحنة في الكفر والإيمان بأن يقبل العامل تعلم السحر فيكفر ويؤمن بترك تعلمه ولعل الله تعالى امتحن النبي صلى الله عليه و سلم وأصحابه بين أمرين القتل والفداء وأنزل جبريل عليه السلام بذلك هل هم يختارون ما فيه رضا الله تعالى من قتل أعدائه أم يؤثرون العاجلة من قبول الفداء)تحفة الأحوذي - (5 / 155). فكان هذا الخيار ظاهرا وصوريا وفي الحقيقة اختبارا وامتحانا, ليظهر أنهم يختارون قتل أعداء الله أو عرض الدنيا كما عندما طلبت أزواج النبي ﷺ منه التوسعة في النفقة والكسوة نزلت الآية قَالَ تَعَالَى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩ ﴾ الأحزاب: ٢٨ - ٢٩

ففي هذه الآية وإن خيرت الأزواج المطهرات بين اختيار الحياة الدنيا وزينتها واختيار الله ورسوله, لكنه في الحقيقة لم يكن خيارا بل اختبارا وامتحانا لهن.

وكما نزول هاروت وماروت في بابل لتعليم السحر لم يكن إلا اختبارا وفتنة, و لم يكن الغرض من نزولهما إعطاء الخيار بين تعلم السحر وعدم تعلمه.

وكما وضع أمام رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء إناء من خمر وإناء من لبن فاختار اللبن, فقال له جبريل :عليه السلام إن اخترت الخمر وقعت أمتك في الضلال. (تفسير القرطبي - (10 / 127).

ملخص القول :أن ما قاله أبو بكر وغيره من بعده من الصحابة رضي الله عنهم من أخذ الفداء كان مبنيا على مصلحة الدين والآخرة. وكان منهم من قال هذا نظرا إلى عرض الدنيا فنزلت آية العتاب هذه متوجهة إلى الذين قالوا بأخذ الفداء نظرا إلى عرض الدنيا كما يترشح من لفظ "يريدون عرض الدنيا", ومعنى العتاب هو: أنكم أصحاب رسول الله فلماذا تريدون عرض الدنيا وأسبابها الحقيرة؟ يا

أصحاب رسول الله! لا يناسب لكم ولجلالة شأنكم ورفعتكم مطلقا أن تنظروا إلى عرض الدنيا وإن يكن حلالا (الفداء والغنائم). أما اختيار النبي ﷺ الفداء مقابل القتل فلم يكن إلا رحمة وصلة للرحم, فليس في قلبه وقلب صاحبه أبي بكر ذرة من نفع الدنيا وزينتها معاذ الله! فإنهما خارجان من هـذا العتاب وهو لم يوجه إليهما أصلا. فإن رسول الله ﷺ كانت الدنيا عنده سواء وجودا وعدما لا قيمة لها عنده مطلقا, فكيف ينظر إلى دراهم معدودة تحصل بصورة الفداء.

﴿فضائل أهل بدر﴾

عن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في قصة حاطب بن أبي بلتعة لعمر رضي الله عنه: لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْـلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. (صحيح البخاري: 378/12)

معاذ الله! ما قيل" اعملوا ما شئتم" لأهل بدر ليعملوا ما شاءوا من معروف ومنكر وحسنة وسيئة, بل غرضه إظهار صدقهم وإخلاصهم بأن تفانيهم وتفاديهم في الله ورسوله ثابت ومعروف عند ربهم , وأنهم لا ينقلبون على أعقابهم حتى أنفاسهم الأخيرة من جادة الحب والوفاء لله ورسوله, قد عمـر قلوبهم حب الله ورسوله, و لم يبق في قلوبهم ذرة من ميول إلى المعصية ,وإن صدر في حين من الأحيان من أحدهم معصية بمقتضى كونهم بشرا (والإنسان مركب من الخطأ والنسيان – المترجم) يسرعون للتو إلى التوبة والاستغفار. على كل قد وجبت الجنة لأهل بدر في كل حال من الأحوال, قد وجبت لهم إن أطاعوا, وإن عصوا بمقتضى البشرية يقومون فورا للتوبة والاستغفار ويبتهلون ويتضرعون إلى ربهم فيجب لهم المغفرة والجنة, بل لا يكون غريبا إن ارتفعت درجاتهم بسبب التوبة والتضرع كما ارتفعت درجات آدم عليه السلام بالتوبة.

(انظر مدارج السالكين للتفصيل)

"اعملوا ما شئتم" هذا الخطاب لا يستحق أحد أن يخاطب به إلا من يعمر قلوبهم حب الله وعظمته وخوفه وخشيته وهيبته, وكذا لا يبشر بالجنة إلا من يخاف على نفسه النفاق كل لحظة وحين. (قال المؤلف:"هذا توضيح ما قاله الحافظ ابن قيم في شرح هذا الحديث في كتابه "الفوائد" (16)فقال في كتابه "الفوائد": "قول النبى لعمر وما يدريك ان الله اطلع علي أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقـد غفرت لكم أشكل علي كثير من الناس معناه فأن ظاهره إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاؤا منها وذلك ممتنع فقالت طائفة منهم ابن الجوزي ليس المراد من قوله اعملوا الاستقبال وانمـا هـو للماضي وتقديره أي عمل كان لكم فقد غفرته قال ويدل على ذلك شيئان أحدهما أنه لـو كـان

للمستقبل كان جوابه قوله فسأغفر لكم والثاني انه كان يكون اطلاقا في الذنوب ولا وجه لـذلك وحقيقة هذا الجواب اني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم لكنه ضعيف من وجهـين أحدهما ان لفظ اعملوا يأباه فانه للاستقبال دون الماضى وقوله قد غفرت لكم لا يوجب أن يكـون اعملوا مثله فان قوله قد غفرت تحقيق لوقوع المغفرة فى المستقبل كقوله أتي أمر الله وجـاء ربـك ونظائره الثاني أن نفس الحديث يرده فان سببه قصة حاطب وتجسسه علي النبى وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعا فالذي نظن فى ذلك والله أعلـم ان هـذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الاسلام وانهم قد يقـارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ولكن لا يتركهم سبحانه مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لانه قد تحقق ذلك فيهم وأنهم مغفور لهم ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضي ذلـك أن يعطلـوا الفرائض وثوقا بالمغفرة فلو كانت قد حصلت بدون الاستمرار علي القيام بالأوامر لما احتاجوا بعـد ذلك الى صلاة ولا صيام ولا حج ولا زكاة ولا جهاد وهذا محال ومن أوجب الواجبات التوبة بعد الذنب فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل اسباب المغفرة ونظير هذا قوله فى الحديث الآخر أذنب عبـد ذنبا فقال أى رب أذنبت ذنبا فاغفره لى فغفر له ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنبا آخـر فقال أى رب أصبت ذنبا فاغفر لى فغفر له ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنبا آخر فقـال رب أصبت ذنبا فاغفره لى فقال الله علم عبدى ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبـدى فليعمل ما شاء فليس فى هذا اطلاق واذن منه سبحانه له فى المحرمات والجرائم وانما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك اذا أذنب تاب واختصاص هذا العبد بهذا لانه قد علم انه لا يصر على ذنب وانـه كلما أذنب تاب حكم يعم كل من كانت حاله حاله لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لاهل بدر وكذلك كل من بشره رسول الله بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة اطلاق الذنوب والمعاصى له ومسامحته بترك الواجبات بل كان هؤلاء أشـد اجتـهادا وحذرا وخوفا بعد البشارة منهم قبلها كالعشرة المشهود لهم بالجنة وقد كان الصديق شديد الحـذر والمخافة وكذلك عمر فلهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها الى المـوت ومقيدة بانتقاء موانعها و لم يفهم أحد منهم من ذلك الاطلاق الاذن فيما شاؤا من الأعمال. (الفوائد: 1 / 14 – 17)

قوله اعملوا ما شئتم فان ظاهره أنه للإباحة وهو خلاف عقد الشرع وأجيب بأنه إخبار عن الماضي أي كل عمل كان لكم فهو مغفور ويؤيده أنه لو كان لما يستقبلونه من العمل لم يقع بلفظ الماضي ولقال فسأغفره لكم وتعقب بأنه لو كان للماضي لما حسن الاستدلال به في قصة حاطب لأنه صلى

الله عليه و سلم خاطب به عمر منكرا عليه ما قال في أمر حاطب وهذه القصة كانت بعد بدر بست سنين فدل على ان المراد ما سيأتي وأورده في لفظ الماضي مبالغة في تحقيقه وقيل إن صيغة الأمـــر في قوله اعملوا للتشريف والتكريم والمراد عدم المؤاخذة بما يصدر منهم بعد ذلك وأنهم خصوا بذلك لما حصل لهم من الحال العظيمة التي اقتضت محو ذنوبهم السابقة وتأهلوا لأن يغفر الله لهـــم الـــذنوب اللاحقة إن وقعت أي كل ما عملتموه بعد هذه الواقعة من أي عمل كان فهو مغفور وقيل إن المراد ذنوبهم تقع إذا وقعت مغفورة وقيل هي بشارة بعدم وقوع الذنوب منهم وفيه نظر ظاهر لما سيأتي في قصة قدامة بن مظعون حين شرب الخمر في أيام عمر وحده عمر فهاجر بسبب ذلك فرأى عمر في المنام من يأمره بمصالحته وكان قدامة بدريا والذي يفهم من سياق القصة الاحتمال الثاني وهو الذي فهمه أبو عبد الرحمن السلمي التابعي الكبير حيث قال لحيان بن عطية قد علمت الذي جرأ صاحبك على الدماء وذكر له هذا الحديث وسيأتي ذلك في باب استتابة المرتدين واتفقوا علـــى أن البشـــارة المذكورة فيما يتعلق بأحكام الآخرة لا بأحكام الدنيا من إقامة الحدود وغيرها والله أعلم –

فتح الباري لابن حجر: 7 / 305،306).

وعند أحمد بإسناد على شرط مسلم من حديث جابر مرفوعا لن يدخل النار أحد شهد بدرا. (فـــتح الباري لابن حجر: 7/ 305)

عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ عَنْ أَبِيهِ وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ قَالَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ. (صحيح البخاري: 12 / 387)

﴿عدد أهل بدر﴾

اختلفت الروايات في تعيين عددهم. وأشهرها أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر. واختلفـــت أقـــوال المحدثين أيضا بسبب الاشتباه والاختلاف. جمع صاحب عيون الأثر الحافظ ابن سيد النـــاس هـــذه الأقوال كلها وعد ثلاثمائة وثلاثة وستين اسما وفق أقوالهم. وليس معناه أنهم كانوا 363 يوم بدر.

ففي مسند أحمد ومسند بزار والمعجم للطبراني عن ابن عباس: كان أهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر.

روى الامام أحمد بسنده عن ابن عباس أنه قال: كان أهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر. (البداية والنهاية: 338/3)

عن أبي أيوب الأنصاري قال خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى بدر فقال لأصحابه تعادوا فوجدهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا ثم قال لهم تعادوا فتعادوا مرتين فأقبل رجل على بكر له ضعيف وهم يتعادون فتمت العدة ثلاثمائة وخمسة عشر.

وروى البيهقي أيضا بإسناد حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال خرج رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم بدر ومعه ثلاثمائة وخمسة عشر.

هذه ثلاثة أحاديث لكنها في الواقع ليست بمختلفة بعضها عن بعض. فهذه الرواية لا تنافي التي قبلها لاحتمال أن تكون الأولى لم يعد النبي صلى الله عليه و سلم ولا الرجل الذي أتى آخرا وأما الرواية التي فيها ذكر ثلاثمائة وتسعة عشر (كما في صحيح مسلم عن عمر) فيحتمل أنه ضم إليهم من استصغر و لم يؤذن له في القتال يومئذ كالبراء وابن عمر وكذلك أنس وجابر بن عبد الله. وحكى السهيلي أنه حضر مع المسلمين سبعون نفسا من الجن.

(فتح الباري لابن حجر: 7 / 291)

ثمانية رجال عدوا في أهل بدر و لم يشهدوها وإنما ضرب لهم رسول الله صلى الله عليه و سلم معهم بسهامهم لكونهم تخلفوا عنها لحاجة وضرورة وهم كما يلي:

(1)عثمان بن عفان ﵁ تخلف عن زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم بإذنه وكانت في مرض الموت.

(2,3)طلحة وسعيد بن زيد ﵄ بعثهما يتجسسان عير قريش.

(4)أبو لبابة ﵁ رده ﷺ من الروحاء واستخلفه على المدينة.

(5)عاصم بن عدي استخلفه على أهل العالية.

(6)الحارث بن حاطب بلغ رسول الله ﷺ عن بني عمرو بن عوف أخبار فرده إليهم.

(7)الحارث بن الصمة وقع فكسر بالروحاء فرده إلى المدينة.

(8)خوات بن جبير رده من الصفراء بسبب إصابة في الساق.

هؤلاء الذين ذكرهم ابن سعد, (وفي مستدرك حاكم أن جعفر بن أبي طالب ﷺ أيضا ممن ضرب لهم سهما وهو في الحبشة). وذكر غيره سعد بن مالك الساعدي والد سهل مات في الطريق وممن اختلف فيه هل شهدها أورد لحاجة سعد بن عبادة وقع ذكره في مسلم وصبيح مولى أحيحة رجع لمرضه فيما قيل. (فتح الباري – لابن حجر: 7 / 292.(

﴿أسماء الملائكة الذين شهدوا وقعة بدر﴾

قد ثبت من القرآن والحديث نزول الملائكة لإمداد الملائكة وأنهم شاركوا المسلمين في الجهاد والقتال, لكن لم نجد في الأحاديث ذكر أسمائهم إلا ثلاثة منهم وهم كما يلي:

1 -أفضل الملائكة المكرمين أمين الله تعالى بينه وبين الأنبياء والمرسلين سيدنا جبريل .عليه السلام صحيح البخاري عن ابن عباس: 12 / 389)

2 -سيدنا ميكائيل.عليه السلام

3–سيدنا إسرافيل عليه السلام (أخرجه أحمد ،والبزار ، أبو يعلى والحاكم والبيهقي عن علي رضي الله عنه والخصائص الكبرى ج201/1)

﴿أسماء من قتل في بدر من الصحابة رضي الله عنهم﴾

قــال الله عز وجل :قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠

1 - عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب المهاجري: رضي الله عنه

قطع رجله في يوم بدر وتوفي وهو في الصفراء فدفنه رسول الله صلى الله عليه و سـلم بالصـفراء. ويروى أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما نزل بأصحابه في الصفراء فقال له أصحابه : إنا نجـد ريح المسك . قال : " وما يمنعكم وها هنا قبر أبي معاوية" (كنيـة أبي عبيـدة). (الاسـتيعاب – 313/1.

2 -عمير بن أبي وقاص: رضي الله عنه

أخ صغير لسعد بن أبي وقاص أسلم قديما وشهد بدرا واستشهد بها.

يقول سعد بن أبي وقاص :ﷺ قال رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله صـــلى الله عليه و سلم يوم بدر يتوارى فقلت مالك يا أخي قال إني أخاف أن يراني رسول الله صـــلى الله عليه و سلم فيستصغرني فيردني وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة قال فعرض علي رسول الله صلى الله عليه و سلم فاستصغره فرده فبكى فأجازه فكان سعد يقول فكنت أعقد حمائل ســـيفه من صغره فقتل وهو ابن ست عشرة سنة.

(الإصابة في تمييز الصحابة – 725/4)

3 -ذو الشمالين بن عبد عمرو المهاجري:ﷺ

كان الزهرى وابن سعد وابن السمعاني يقول: إن ذا اليدين هو ذو الشمالين (اسمه عمير بن عبد عمرو صحابي(، وأنه قُتل ببدر. (تهذيب الأسماء – (1 / 260). وابن ســـعدالطبقات الكـــبرى – (3 / 167 .(وعند جمهور المحدثين هما رجلان مختلفان, واستشهد ذو الشمالين في غزوة بدر, وأمـــا ذو اليدين فبقي حيا بعد وفاة الرسول الله) .ﷺ ألقاب الصحابة والتابعين في المسندين الصحيحين – (1 / 5.(

4 -عاقل بن البكير المهاجري.ﷺ

من السابقين الأولين .قتل ببدر شهيداً، وهو ابن أربع وثلاثين سنة، وكان اسمه غافلاً فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عاقلاً. وكان من أول من أسلم وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم) .الإستيعاب في معرفة الأصحاب – 383/1)

5 - مهجع بن صالح مولى عمر بن الخطاب:ﷺ

هو أول قتيل من المسلمين يوم بدر أتاه سهم غرب وهو بين الصفين فقتله. (أســـد الغابـــة – (1 / 1051 .(عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ ، قَالَ : قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ خَمْسَةُ رِجَالٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، مِنْ قُرَيْشٍ ؛ مِهْجَعٌ مَوْلَى عُمَرَ ، يَحْمِلُ يَقُولُ : أَنَا مِهْجَعٌ ، وَإِلَى رَبِّي أَجْزَعُ (أرجع)، وَقُتِلَ ذُو الشِّمَالَيْنِ ، وَابْنُ بَيْضَاءَ ، وَعُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ ، وَعَامِرُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ. (مصنف ابن أبي شيبة – (14 / 374.(

6 -صفوان بن بيضاء المهاجري:ﷺ

لا خلاف في كونه بدريا ,لكن استشهد يوم بدر أم لا هذا أمر اختلف فيه. يقــول ابــن اســحاق وموسى بن عقبة وابن سعد أن قتله طعيمة بن عدي يوم بدر. قال ابن سعد: قتل صفوان بن بيضاء طعيمة بن عدي قال محمد بن عمر هذه رواية وقد روي لنا أن صفوان بن بيضاء لم يقتل يوم بــدر وأنه قد شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه و سلم وتوفي في شهر رمضان سنة ثمــان وثلاثين وليس له عقب.(الطبقات الكبرى - (3 / 416).الإستيعاب في معرفة الأصــحاب - (1 /218) يقول ابن حبان: مات سنة ثلاثين. (الثقات لابن حبان - (3 / 191). وقال الحاكم: سنة ثمان وثلاثين.(إصابة: ترجمة صفوان بن بيضاء.ﷺ

7 -سعد بن خيثمة الأنصاري:ﷺ

صحابي وابن صحابي, شهيد وابن شهيد, استشهد في غزوة بدر بينما استشهد أبوه خيثمة يوم أحد.

كان قد حضر بيعة العقبة وجعله رسول الله ﷺ نقيب بني عمرو. (الإصابة في تمييز الصحابة - (3 /55)

لما ندب رسول الله صلى الله عليه و سلم المسلمين إلى الخروج إلى عير قريش فأسرعوا قال خيثمة بن الحارث لابنه سعد إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم فآثرني بالخروج وأقم مع نسائك فأبى سعد وقال لو كان غير الجنة آثرتك به إني أرجو الشهادة في وجهي هذا فاستهما فخرج سهم سعد فخــرج مــع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى بدر فقتل يومئذ قتله عمرو بن عبد ود ويقال طعيمة بن عدي. (الطبقات الكبرى - (3 / 481).

8 -مبشر بن عبد المنذر الأنصاري.ﷺ

9 -يزيد بن الحارث الأنصاري.ﷺ

10 -عمير بن الحمام الأنصاري:ﷺ

عن أنس ﷺ قال قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ (يوم بدر): قُومُوا إِلَى جَنَّة عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَالَ يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ يَا رَسُولَ اللَّه جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ قَالَ نَعَمْ قَالَ بَخٍ بَخٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ قَالَ لَا وَاللَّه يَا رَسُولَ اللَّه إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا قَالَ فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا فَأَخْرَجَ تَمَرَات مِنْ قَرَنِه فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ

قَالَ لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ قَالَ فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ. (صحيح مسلم – (9 / 500)

وفي رواية ابن إسحاق... :أخذ سيفه فقاتل حتى قتل وهو يقول:

رَكْضاً إلى الله بغير زادِ إلا التُقى وعملِ المعادِ
والصبرِ في الله على الجهاد وكلّ زادٍ عُرضةُ النفاد

غيرُ التقى والبرّ والرشادِ

الإصابة في تمييز الصحابة – (4 / 715). (حياة الصحابة للكاندهلوى – (1 / 440). (قال المؤلف: استيعاب للحافظ ابن عبد البر ص 482,ج2. حاشية إصابة وإصابة ص 31,ج2 ترجمة عمير بن حمام .ﷺ زرقاني ص144,ج1. البداية والنهاية ص277,ج3.)

11 -رافع بن مولى الأنصاري.رضي الله عنه

١٢ -حارثة بن سراقة الأنصاري:رضي الله عنه

حارثة بن سراقة بن الحارث رضي الله عنه صحابي وابن صحابي, شهيد وابن شهيد. فأصيب حارثة يوم بدر وأبوه سراقة يوم حنين. (حارثة بن فتح الباري – ابن حجر – (7 / 305). عَنْ حُمَيْد قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: أُصِيبَ حَارِثَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ غُلَامٌ فَجَاءَتْ أُمُّهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَةَ حَارِثَةَ مِنِّي فَإِنْ يَكُنْ فِي الْجَنَّةِ أَصْبِرْ وَأَحْتَسِبْ وَإِنْ تَكُ الْأُخْرَى تَرَى مَا أَصْنَعُ فَقَالَ وَيْحَكِ أَوَهَبِلْتِ أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ وَإِنَّهُ فِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ) .صحيح البخاري – (12 / 377.)

13 -عوف بن الحارث الأنصاري.رضي الله عنه

14 - معوذ بن الحارث الأنصاري:رضي الله عنه

هما أخوان شقيقان وأمهما عفراء, وقد سبق ذكر قصة شهادة عوف بن الحارث.رضي الله عنه

عن ابن مسعود أنه قال :الذين قتلوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم بدر جعل الله أرواحهم في الجنة طير خضر تسرح في الجنة قال : فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك إطلاعة فقال :يا عبادي ماذا تشتهون ؟ قالوا : يا ربنا ما فوق هذا شيء قال : فيقول : عبادي ماذا تشتهون ؟

فيقولون : الرابعة : ترد أرواحنا في أجسادنا فنقتل كما قتلنا. (المعجم الكبير - (10 / 202).(قال المؤلف: رواه الطبراني ورجاله ثقات. وهذا موقوف لفظا ومرفوع حكما لأنه لا مدخل للرأي فيه والله أعلم .

﴿إعانة بعض مسلمي مكة المشركين في هذه الغزوة﴾

كانت وقعة بدر بين الكفر والإسلام لذا جعل الله ﷻ يوم بدر يوم الفرقان أي اليوم الفارق بين الحق والباطل..

كان قوم أظهروا الإسلام بمكة و لم يهاجروا عند هجرة النبي ﷺ وأصحابه، بل بقوا في مكة يظاهرون قومهم المشركين على المسلمين، ويستخفون بالإسلام ، فلما كانت وقعة بدر شهد بعضهم بدرا ليقاتلوا المسلمين فأصيب بعضهم وقتل بعض فنزلت فيهم هذه الآية قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾ النساء: ٩٧ - ٩٨ :)

روى البخاري عَن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أُنَاسًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ أَوْ يَضْرِبُهُ فَيَقْتُلُهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ }(صحيح البخاري – 480/21)

وذكر الإمام البخاري هذه الرواية مرة أخرى في كتاب الفتن تحت الباب (باب من كره أن يكثر سواد الفتن أو الظلم). يقول الشاه ولي الله الدهلوي في حاشيته لتفسير هذه الآية: "يعني بسبب ترك الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام وبتكثير سواد الكفار والله أعلم."

علم من هذا أن مشاركة جنود الكفار للمظاهرة على المسلمين ليكثر عدد الكفار أمر محرم وغير جائز وإن لم ينو قتال المسلمين و لم يقاتلهم, فالتجند في جيش الكفار لقتال المسلمين حرام. ليراجع أهل العلم فتح الباري ص132,ج13. وعمدة القاري ص545. والقسطلاني. وإن مست الحاجة إلى تفصيل مزيد فليراجعوا تفسير ابن كثير وتفسير قرطبي وتفسير در منثور.

ورد في حديث: مَنْ كَثَّرَ سَوَادَ قَوْمٍ فهُوَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ رَضِيَ عَمَلَ قَوْمٍ كَانَ شَرِيكًا فِي عَمَلِهِمْ. (إتحاف الخيرة المهرة - (4 / 135 .

﴿إعادة النظر على غزوة بدر﴾

انتهى ذكر غزوة بدر ,وقدمت إلى القارئين كل ما يتعلق بها من الآيات والروايات الصحيحة الصريحة, والتي تدل دلالة واضحة على أن قصد النبي ﷺ بغزوة بدر هو الهجوم على عير قريش يرجع بها أبو سفيان من الشام, و لم يكن غرضه الدفاع عن أي هجوم يتوقع من قريش. قال العلامة الشبلي في كتابه الشهير "سيرة النبي" باللغة الأردية: لم يكن هدفه ﷺ من غزوة بدر التعرض لعير قريش, بل كان قد وصل إليه الخبر وهو في المدينة عن خروج قريش بجيش عظيم من مكة للهجوم على المدينة, فخرج ﷺ مع أصحابه ليواجههم ويدافع عن المدينة إذ وقعت وقعة بدر, انتهى كلامه.

وما قاله العلامة الشبلي هو مخالف لجميع ما قاله المفسرون والمحدثون من أقوال بل تخالفه جميع الروايات الصحيحة الصريحة.

(**1**) روى ابن أبي حاتم من حديث أبي أيوب قال قال لنا رسول الله صلى الله عليه و سلم ونحن بالمدينة إني أخبرت عن عير أبي سفيان فهل لكم أن تخرجوا إليها لعل الله يغنمناها قلنا نعم فخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال قد أخبروا خبرنا فاستعدوا للقتال فقلنا لا والله ما لنا طاقة بقتال القوم فاعاده فقال له المقداد لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل...الحديث. (فتح الباري – ابن حجر – 7 / 288.)

(**2**) لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلا من الشام نَدب المسلمين إليهم، وقال: "هذه عيرُ قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن يُنْفلكُموها" فانتدب الناسُ، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار **... الحديث)** .تفسير ابن كثير – (4 / 17). (البداية والنهاية – 313/3)

فيقول الحافظ ابن حجر العسقلاني: والسبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه و سلم ندب الناس إلى تلقي أبي سفيان لأخذ ما معه من أموال قريش وكان من معه قليلا فلم يظن أكثر الأنصار أنه يقع قتال فلم يجز معه منهم إلا القليل و لم يأخذوا أهبة الاستعداد كما ينبغي بخلاف المشركين فانهم خرجوا مستعدين ذابين عن أموالهم. (فتح الباري – ابن حجر – 285/7)

لما بلغ أبا سفيان أن محمدا قد استنفر أصحابه له ولعيره فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة ومعه رسالة: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

(البداية والنهاية – 315/3)

أقبل أبو سفيان يتقدم العير حذرا وخفض فلحق بساحل البحر ولما رأى أنه قد نجا وأحرز العير كتب إلى قريش رسالة أخرى.

قال ابن إسحاق: ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجاها الله فارجعوا. (البداية والنهاية – 234/3)

بلغت قريشا هذه الرسالة وهم بالجحفة فأراد القوم أن يرجعوا لكن رفض أبو جهل وقال: والله لا نرجع حتى نرد بدرا ونقاتل المسلمين فأمضوا,ولما سمع أخنس بن شريق ما قاله أبو جهل وعلم إرادته قال لقومه: يا بني زهرة قد نجى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جبنها وارجعوا فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة لا ما يقول هذا فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد،(البداية والنهاية – 235/3)

وكان بنو هاشم لا يريدون القتال من أول يوم ولما رأت عاتكة بنت عبد المطلب المنام عزموا على عدم الخروج, ثم ألقاهم رؤيا جهيم في التردد ولما بلغت رسالة أبي سفيان وفيها أن عيرهم قد نجت من أيدي المسلمين تردد غيرهم وهم كثيرون, فرجع طالب بن أبي طالب ومعه بعض آخرون إلى مكة, ولما رجع أخنس بن شريق مع بني زهرة ازدادوا تذبذبا لكن مع هذا كله لم يكن بوسعهم أن يمنعوا أبا جهل من التقدم وكان يصر عليهم للخروج فاستمروا في سفرهم إلى بدر, وهكذا كانت حال عتبة وشيبة فهما من البداية لا يريدون الخروج وبذلوا ما في وسعهم حتى آخر اللحظات للرجوع إلى مكة كما سبق مفصلا.

هل بعد هذه الروايات الصريحة غير المتسعة للتأويل يسع لأي مؤول أن يقول إن النبي ﷺ لم يخرج من المدينة للتعرض لعير قريش بل خرج إلى بدر ليدافع جيش قريش جاء إلى بدر للهجوم على المدينة؟

فلم يكن أمام أعين النبي ﷺ عند خروجه مع أصحابه من المدينة إلا عير قريش و لم يكن هناك أي أثر ووهم وخيال لأبي جهل وجيشه.

لكذا لم يكن هناك أي خيال عسكري في ذهن أبي جهل وقريش و لم يخطر ببالهم أن يهاجموا على المدينة, بل لما وصل قاصد أبي سفيان ضمضم الغفاري إلى مكة وفعل ما فعل وأخبرهم عن خروج المسلمين إلى عيرهم وأنها في خطر وجدوا أنفسهم في اضطراب وقلق, فخرجوا بطرا ورئاء الناس لمنع عيرهم في قيادة أبي جهل, ولما كانوا في الحجفة بلغهم أن أبا سفيان قد نجا بعيرهم وهو في مكان آمن مع العير وبعيد عن أيدي المسلمين, وكان رسول الله ﷺ في الصفراء إذ اطلع على أن العير قد أفلت ويتقدم قريش إلى بدر بعدة وعتاد عظيم, فعقد ﷺ وقتذاك المجلس الإستشاري وشاور فيه أصحابه في الوضع الراهن المتغير وفي اتخاذ موقف فوري جديد. فرأي علاّمة رأى أن خروجه ﷺ من البداية لم يكن إلا لمواجهة جيش قريش يتقدم إلى المدينة بنية الهجوم عليها والدفاع عن أنفسهم هو رأي باطل وخيال ناقص ينبني على دراية مزعومة وأصل اخترعه بنفسه, ثم يريد أن يؤول كل ما يخالف درايته وأصله من الأحاديث والآيات وروايات السيرة والتاريخ. الأسف كل الأسف أن أعداء الله الذين كانوا قد آذوا النبي وأتباعه في أنفسهم وأموالهم وأخرجوهم من ديارهم وغصبوا أموالهم وممتلكاتهم ويريدون أن يستمروا فيما يفعلون بالمسلمين ولا يغفلون للحظة عن اتخاذ إجراءات وتدابير تكون تدميرا للإسلام والمسلمين, إذا أراد المسلمون أن يعاقبوهم ويتخذوا إجراءات وتدابير تلحق أعداءهم الضرر في أنفسهم وأموالهم, فتجعل مخالفة للحضارة والإنسانية, ويؤول في الروايات التي تسع للتأويل ويعرض عن ذكرها إن لم تتسع للتأويل, هذا النهج والأسلوب لا يتفق مع العلم والأمانة بل يخالفهما تماما ومصداق لقول الله تعالى: "قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا". السرايا التي قام ببعثها النبي ﷺ قبل غزوة بدر أكثرها بعثت للتعرض لقوافل قريش التجارية, فلماذا وقع الإشكال والاعتراض في غزوة بدر و لم يقع في السرايا قبلها؟

أما ادعاء من يدعي أنه لم يجز للمسلمين أن يبادروا بالهجوم على الكفار إلى أن يهاجم عليهم الكفار أولا ,يعني لا يجوز للمسلمين السعي للجهاد أولا, بل عليهم أن لا يقوموا بالجهاد والدفاع عن أنفسهم إلا إذا هاجم عليهم الكفار, فقمت بالرد على هذا الادعاء في مبحث الجهاد مفصلا فليراجع هناك. كفار مكة الذي آذوا المسلمين حتى ثلاث عشرة سنة في جميع مجالات الحياة فقتلوهم وسلبو أموالهم وغصبوا ممتلكاتهم وظلموهم كل المظالم و لم يزالوا يهددونهم ويسعون كل وقت وراء اتخاذ المؤامرات ضدهم ويقومون بالكتابة عنها فيما بينهم, فالقول بعدم جواز الهجوم عليهم للمسلمين بداية هو قول مخالف للعقل والنقل كليهما.

ملخص القول:

انجلى الأمر وتبين أن هذه الأحاديث والروايات تدل دلالة بينة على أن رسول الله ﷺ خـــرج مـــع أصحابه للتعرض لعير قريش وخرج قريش بقيادة أبي جهل من مكة لمنع عيرهم, فكان هدف كـــل واحد من المسلمين والكفار من الخروج هو عير أبي سفيان التي كانت مقبلة من الشام ,وكانت كل جماعة تعرف هذا الأمر وتفهمه جيدا وإن لا يدركه العلامة, إضافة إلى أن جميع الغزوات والســـرايا التي وقعت قبل غزوة بدر وقعت هجوميا لا دفاعيا بادر بها النبي ﷺ أولا.

سورة الأنفال مدنية الآية (5،6)

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾ الأنفال: ٥ - ٦)

الملخص:

كما أخرجك ربك من بيتك" بالحق" أي للقتال في سبيل الله وإن فريقا من المؤمنين لكارهون مواجهة جيش قرشي ,وكانوا يجادلونك في الحق الذي كان واضحا ومعينا, وكان حالهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون إليه.

ربط الآية بما قبلها:

كان في الآيات السابقة ذكر أعظم ركن يتوقف عليه فوز المسلمين وغلبتهم على الكفار, والآن يبدأ بتذكير نعم أنعم بها عليهم ببيان وقائع الغلبة والفتح.(بيان القرآن(

ذكر غزوة بدر

في هذه الآيات بيان لغزوة بدر حتى نهاية ركوع, بل ذكرها بعده أيضا في عدة آيات, ثم ذكر تفصيلها في الركوع الخامس والسادس من هذه السورة, وقد تقدم ذكر شيء من غزوة بدر في الركوع الثاني والركوع الثاني عشر من سورة آل عمران. (أنوار البيان)

جامع التفسير

يعني فكروا أيها المسلمون في نصر الله وإمداده وتوفيقه لكم في هذه الغزوة الذي حصلت لكم من بداية الوقعة حتى نهايتها... هذا هو الله الذي وعد نبيه فأنجز وعده وقدر له الخروج من المدينة إلى خارجها لقتال الكفار بينما كان فريق من المؤمنين لا يرغبون في مواجهتهم من قريش, وكانوا يتذبذبون في الأمر الحق المعين ويجادلون النبي بعد ما تبين لهم بالوحي على لسان نبيهم أنه هو وعد الله الحق (أي غلبة الإسلام وأهله على الكفار بالجهاد). كانوا يكرهون مواجهة جيش أبي جهل كما يشق على الذي ينظر الموت بأعينه ثم يساق إليه, لكن الله وفقهم وأخرجهم إلى ساحة القتال ثم قدر

لهم الفتح والنصر فرجعوا إلى بيوتهم غالبين منصورين. فكما بلغت هذه المعركة نهايته من أولها حتى نهايتها بنصر الله وإعانته كذا ينبغي أن يعلم أن الغنائم حق الله وله أن يخبر نبيه كيف يقسمها.

)**تنبيه** (الكاف في)كما أخرجك ... الخ (لم أجعله في تقريري للتشبيه بل جعلته للتعليل كما قاله أبو حيان, كما صرح به العلماء في قوله تعالى "واذكروه كما هداكم", وجعلت ما يتضمنه) كما أخرجك ربك من بيتك ... إلى آخر الآيات (سببا ل) الأنفال لله والرسول .(ولم أقدر "أعزك الله" وغيره من الكلمات كما زعم أبو حيان. وأشرت في تقريري كما صرح به صاحب "روح المعاني" إلى أن المراد في الآية (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) ليس الخروج من البيت فقط, بل الزمن الذي يمتد "من الخروج من البيت حتى الدخول في القتال" والذي وقع فيه (إن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق (وغيرها من الأحوال. ظهرت كراهية فريق عند الخروج من المدينة كما ذكرته في أول فائدة من سورة الأنفال مستندا إلى صحيح مسلم والطبراني, ولعل صورة المجادلة وقعت عندما بلغوا الصفراء, إن فهم هذا ولوحظ لذهبت مغالطات بعض المبطلين سدى ولا يبقى أي خلجان في الذهن.(تفسير عثماني)

توضيح:

تفسير هذه الآية في كتب التفسير المعتبرة هو عين التفسير الذي بينته من التفسير العثماني, بينما وقع بعض المؤرخين والمفسرين الأردين في المغالطة نتيجة إشكالات واعتراضات وجهوها الكفار والمشتشرقون إلى العالم الإسلامي. فبعضهم يستحيي من خروج المسلمين إلى عير قريش للتعرض لها, بينما بعض الآخرين ينكرون تبادر النبي ﷺ مع أصحابه وخروجه خروجا إقدامياً لقتال جيش أبي جهل, ولا مجال لمثقال حبة من خردل من أي إشكال واعتراض في هذين الأمرين, فإن النبي ﷺ لم يخرج من المدينة إلا وهو يريد عير أبي سفيان, وكان خروجه حقا, ولم يخرجه إلا الله لعمل عظيم عمل الجهاد ,فإصابة الكفار بالضرر في أنفسهم وأموالهم وإضعافهم وتقوية الدفاع عن المسلمين كان أمرا مُهماً يفكر فيه النبي ﷺ كل وقت وحين, ثم كان النبي ﷺ الذي عزم بنفسه على مواجهة جيش أبي جهل وكان هذا الأمر من الثناء بمكان نزلت الآيات تثني على ما قام به رسول الله ﷺ وهو العزم على مواجهة أعداء الله ورسوله, فالاستحياء من مثل هذه المآثر النبوية هو بنفسه أمر جدير أن يستحي منه, وإلقاء حجب التأويل على مآثره هو في نفسه مسخ لتاريخنا.(والله أعلم

"الحق" أي الجهاد:

(1) أخرج نبيه بالحق أي لمقاتلة الكفار إلى ساحة بدر خارج المدينة.(تفسير عثماني)

(2)" يجادلونك في الحق "القتال.(تفسير جلالين.

(3) الحق الذي جادلوا فيه رسول الله ﷺ تلقي النفير لايثارهم عليه تلقي العير.(المدارك)

(4) ومعنى "في الحق" أي في القتال.(قرطبي)

(5) يعني كانوا يجادلونك في الحق أي أمر المصلحة أي أمر الجهاد ومواجهة الكفار بعد ما تبين لهم ...الخ.(بيان القرآن)

جواب عن شبهة:

ألقى أحد مهرة من العصر الحاضر في "القانون بين الدول" الضوء على ناحية شرعية من معركة بدر وما قاله يستحق أن يسمع ويقرأ, يقول: "يعتبر الهجوم على قوافل قريش قطع الطريق عندما تكون هذه القوافل أبرياء ويكون المهاجمون أناسا عاديين لا أفراد الحكومة".(تفسير ماجدي)

"كما" في التركيب النحوي:

الكاف في "كما أخرجك "للتشبيه أم للتقليل أم للقسم, ذكر المفسرون كلها, ثم هو في موضع النصب أم في الرفع فيه أيضا قولان, ثم ما هو المشبه إن هو للتشبيه فيه أيضا غير واحد من أقوال المفسرين, أذكر هنا عبارات لطلبة العلم قبل ذكر قول طريف:

(1) قال الزجاج: الكاف في موضع نصب؛ أي الأنفال ثابتة لك كما أخرجك ربك من بيتك بالحق. أي مثل إخراجك ربك من بيتك بالحق. والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت وإن كرهوا. (تفسير القرطبي - (7 / 367)

اختار العلامة أحمد علي اللاهوري هذا القول فإنه يقول: الكاف في "كما" يتعلق ب"امض", ويكون تقدير العبارة هكذا:"امض لأمر الله تعالى في أنفال وإن كرهوا كما أمضيت أمر الله في الخروج من البيت.(هامش للشيخ اللاهوري)

(2) قال أبو عبيدة: هو قسم، أي والذي أخرجك؛ فالكاف بمعنى الواو، وما بمعنى الذي.(تفسير القرطبي - (368/7) لكن رد صاحب البحر المحيط هذا القول.(البحر المحيط - (6 / 42.

(3) وَكَمَا خَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أَيْ هَذِهِ الْحَال فِي كَرَاهَتهمْ لَهَا مِثْل إخْرَاجك فِي حَال كَرَاهَتهمْ وَقَدْ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ.(تفسير الجلالين - (3 / 172). اختار صاحب "تفسير حقاني" هذا التركيب.

(4) الكاف ليست لمحض التشبيه بل فيها معنى التعليل.(البحر المحيط - (6 / 45).)

الملخص:

قد ذكر غير واحد من الأقوال في معنى الكاف وتركيب العبارة, ذكر الإمام أبو حيان الأندلسي رحمه الله في تفسيره "البحر المحيط" خمسة عشر قولا و لم يختر أحدا منها, ثم ذكر رؤياه واختار القول السادس عشر نظرا إلى ما رآه في المنام من تخريج العبارة. إن تدل هذه الأقوال على أمر فيدل على أن الله ﷻ ذكر أكثر من واحد من الأشياء مثالا للخروج إلى غزوة بدر, وجعل غزوة بدر نموذجا لغلبة المسلمين ونصرهم.

فيقول الإمام أبو حيان رحمه الله:" فكان المعنى إن خرجت لإعزاز دين الله وقتل أعدائه نصرك الله وأمدّك بالملائكة".(البحر المحيط - (6 / 45)

وقد سبق ذكر ربط هذه الآية بما قبلها من تفسير "بيان القرآن" ويشير أيضا إلى أن الله ﷻ يصدق بذكر بعض الوقائع في هذه الآية نصاب الفتح والنصر الذي ذكره للمسلمين في الآيات السابقة.(والله أعلم)

قول طريف:

قد ربط بعض المفسرين هذه الآية بكلمة "فاضربوا" في الآية 12. فالمعنى حينئذ: إن الله ﷻ أخرجكم ونصركم فاضربوا الكفار فوق الأعناق واضربوهم كل بنان.

فيقول الإمام القرطبي:كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشاكم النعاس أمنة منه - يعني به إياه ومن معه - وأنزل من السماء ماء ليطهركم به، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مردفين؛ فاضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان.(تفسير القرطبي - (7 / 368.

جواب عن إشكال:

كانت الكراهة من بعض المسلمين لمواجهة جيش المشركين وقتالهم كراهة طبع, وعبر في الآية اهتمامهم بها وعدم تأهبهم لها عند المشورة بالمجادلة كما صرح به صاحب المدارك وصاحب بيان القرآن.

يقول صاحب التفسير الماجدي:

أين ثلاثمائة وثلاثة عشر (وهم بدون أهبة وعتاد) وأين تسعمائة وخمسون مسلحون وعلى عتاد وتأهب تام للقتال ,فكان الخوف والتخوف والتردد أمرا طبيعيا, وهذه الحال الطبيعي لا تستحق العتاب أبدا ,لأن مثله كمثل رجل صالح ورع فاجأه أسد أو أفعى فخاف منه, والعواطف الطبيعية كالحزن والخوف وغيره لم يستثن منها أحد حتى الأنبياء فضلا عن غيرهم , ودرجة الاتصاف بصحبة النبي ﷺ مهما تكون رفيعة وعلية فهي على كل تابعة للبشرية وآثارها, ثم كلمة "فريقا" في الآية أيضا تشير إلى أن الخوف والتردد لم يلحق الجميع.(تفسير ماجدي)

يقول صاحب مدارك التتريل:"ويحتمل أن يكونوا مخلصين ، وأن يكون ذلك كراهة طبع لأنهم غير متأهبين له".(تفسير النسفي - (1 / 411)

يبقى الإنسان عاجزا عن فهم مسئلة الجهاد وإدراك حقيقته مهما أجهد عقله وفكره ليفهم ويدرك, لذا كان بعض الصحابة يجادلون النبي ,ﷺ فإن مواجهة عدو أقوى منهم, وترك البيوت وأمنها والخروج إلى ساحة الموت, ثم العدول عن عير غير قوي إلى مقاتلة جيش هائل عظيم هذا كله من أمور تفوق العقل والفهم العام, لذا أمروا بأن يسمعوا ويطيعوا فحسب, لما جاهدوا وقاتلوا رأوا بأعينهم فوائد الجهاد, هذه الحال ماض إلى يوم القيامة, فالذين يريدون أن يفهموا حقيقة الجهاد عقلا وفكرا ولا يلقوون أنفسهم في ساحة الجهاد ولا يقاتلون مباشرة يحرمون من هذه النعمة العظمى, والذين يتبعون ما أمر الله به وينظرون إلى الآخرة وحياتها ويؤمنون بوعد الله كما كان حقه يفهمون بسهولة مسئلة الجهاد ويدركون حقيقته بيسر, وهم الذين يقدمون أنفسهم مجاهدين لله وجنوده ويقومون .بمآثر باسقات يستحقون بأنفسهم الدرجات العلى. استعرضوا التاريخ من غزوة بدر حتى اليوم مع مطالعة هذه الآيات جنبا بجنب تجدون الحقيقة قد انجلت وانكشفت. فإن الله الذي يخرج عباده الموفقين من بيوتهم إلى ساحة الجهاد ثم يمطر عليهم رحمته ونصرته, بينما الذين يزنون الجهاد .بميزان العقل يبقون في بيوتهم خائفين فزعين, محرومين من نعمة الجهاد وأعلى الدرجات ومع هذا كله لا يستطيعون أن يفلتوا من الموت الذي خافوا منه فلم يخرجوا. عند وقعة بدر أيضا تخلف بعض

المنافقين بمثل هذه المجادلة العقلية, يقول الإمام النسفي رحمه الله: قال الشيخ أبومنصور رحمه الله : يحتمل أنهم منافقون كرهوا ذلك اعتقاداً.(تفسير النسفي - (1 / 411.

إلا أن النبي ﷺ لم يأمر أمرا عاما بالخروج لذا خرج من خرج وبقي من بقي في المدينة من المسلمين, لكن الذين خرجوا صاروا بدريين ولقبوا إلى الأبد بلقب "أصحاب بدر" أي أعلى جماعة وأبرز طائفة في تاريخ الإسلام الذين ينظرون إليهم الملائكة من السماء نظر الغبطة والحسد.(والله أعلم)

الخروج للجهاد أكبر نعمة وأعظمها:

ذكر الله ﷻ بقوله "كما أخرجك ربك" منه ونعمته التي أنعم بها على المسلمين وهي أنه هو الذي أخرج نبيه مع أصحابه من بيوتهم للجهاد. يقول المفسر التهانوي: كما كانت نتيجة النعمة الأولى "الإخراج".(بيان القرآن) يعني كان الإخرج من البيوت للجهاد نعمة من الله.

إن فكر المسلمون في هذه الحقيقة وأدركوا حقيقة كلمة "ربك" لقدروا مدى أهمية الخروج للجهاد.(والله أعلم

الدروس والعبر:

هناك كثير من الدروس والعبر للمسلمين في غزوة بدر. وما يستفاد من هاتين الآيتين هو أن ينبغي للمسلمين أن يتعودوا على الخروج للجهاد, ولا يزنوا مسئلة الجهاد في ميزان العقل بل يؤدوا حقه معتقدين أنه أمر الله.

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 7، 8}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِيْن، لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُوْن}.

ملخص معانى الآيتين:

أشار فيهما إلى ما قطع الله تعالى على نفسه من وعد التمكين على إحدى الطائفتين، إحداهما قادمة من بلاد الشام مع البضائع التجارية، وثانيتهما خرجت من مكة أشراً وبطراً.
كان المسلمون يتمنون لقاء العير التجارية، وأراد الله تعالى أن يكون اللقاء مع الطائفة المُدَجَّجَة بالسلاح، ليحق الحق على الناس بأمره بالجهاد، ويستأصل الشرك وجذوره من أصولها رغم أنف المشركين.

أقوال أهل العلم ومصادرها

لقاء الكفار نعمة:

والنعمة هنا هى «لقاء المشركين» ؛ إذ ترتب عليه الخير، كما أن النعمة الأولى هى «الإخراج». (بيان القرآن)
أشار فيها إلى أن الله سبحانه وتعالى أنعم عليكم بإخراجكم للقاء جيش أكبر منكم عدداً وعُدّةً، وكان استعداد المسلمين – الأقل عددا وعُدّة – لمواجهة جيش أضخم منه دليلاً على أنهم على الحق، إذ لو لا نعمة الله عليهم وتوفيقه لما أمكن لهم ذلك، فمغامرتهم بالروح والغالى إن دلّت على شىء فإنها تدل على صدق الإسلام وحقانيته. (والله أعلم بالصواب)

كلمة خير وبركة:

كان النبى ﷺ قد أكّد لهم أنهم سيجتمعون مع إحدى الطائفتين، إما العير وإما التى خرجت لإنقاذها، فكان المسلمون يتمنون لقاء العير، لكن الذى وقع كان خيرا، فقد أدى إلى إضعاف الشرك وشوكته. (موضح القرآن)
قال الشيخ شبير أحمد العثمانى فى «التفسير العثمانى»:
«كان المسلمون يتمنون لقاء العير؛ لما فيه من عافية الجسم ومكسب المال، وأراد الله تعالى أن تُجابه جماعةُ المسلمين المتواضعةُ جيشاً تزيده أضعافا مضاعفة ليُحق الحق بكلماته ويقطع دابر

الكافرين، وليبرهن على أن وعده حق، رغم أنف المشركين. فكان كما أراد، إذ قُتل سبعون من زعماء الكفر والشرک، من ضمنهم أبو جهل وغيره، وأُسر سبعون، فأدى إلى قصم ظهر الكفر، وإحداث زعزعة فى بُنيان الشرک بمكة، فلله الحمد والمنة». (التفسير العثمانى)

إحقاق الحق:

نعود ثانيةً لنتأمل فى أن الله سبحانه وتعالى أعاد كلمة «يُحق الحق ويُبطل الباطل» مرتين فى الآيتين الكريمتين، ففى الآية الأولى قال: {ويُريد الله أن يُحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين} ثم أعقبها بقوله: {ليُحِقَّ الحقَ ويُبطِل الباطل}.

قد يتساءل هنا أحد أن الحق لاشک أنه حق، فما معنى إحقاقه؟

ثانيا: لماذا أعاد الكلمة الواحدة مرتين؟ فهل هما لمعنى واحد أو لمعنيين مختلفين؟

أجاب عنه الإمام الرازى، وقال: «المراد من تحقيق الحق وإبطال الباطل، بإظهار كون ذلک الحق حقا، وإظهار كون ذلک الباطل باطلا». (التفسير الكبير)

وفى ثنايا رده على السؤال الثانى قال الرازى:

«ليس ههنا تكرير، لأن المراد بالأول سبب ما وعد به فى هذه الواقعة من النصر والظفر بالأعداء، والمراد بالثانى تقوية القرآن والدين ونصرة هذه الشريعة؛ لأن الذى وقع من المؤمنين يوم بدر بالكافرين كان سببا لعزة الدين وقوّته، ولهذا السبب قرنه بقوله: ويبطل الباطل الذى هو الشرک، وذلک فى مقابلة الحق الذى هو الدين والإيمان». (التفسير الكبير)

وملخص كلامه أنه قصد بقوله: «يُحق الحق» الانتصار على المشركين يوم بدر، وقصد بقوله : «ليُحِقّ الحقَّ» غلبة الإسلام والقرآن والشريعة، إذ ترتب على انتصار بدر تقوية الإسلام وتأييده.

ومثله ما قال القرطبى:

{ليُحِق الحَقَّ} أى يظهر دين الإسلام ويعزه، {ويُبطِلَ البَاطِلَ} أى الكفر. (القرطبى)

والمعنى أن الحق لا يبدو للعامة إلا إذا انتصر المسلمون الضعفاء على أعداءهم الأقوياء، كما أنه يحث الكفار على مراجعة ما هم عليه من الدين والعقيدة، ويُنير الطريق لمن كان يبحث عن الحق والصدق، فيَتخلون عن الكفر، ويدخلون فى دين الله أفواجا، ومن هنا وجب على أهل الإيمان بذل ما فى وسعهم لتغليب الإسلام وأهله، ولدحر الشرک وتابعيه، ليتحقق الحق للناس وليتيسر لهم الدخول فى دين الله.

قال صاحب «تفسير الفرقان»:

إنّ ممّا أوجب الله تعالى على عباده المؤمنين المخلصين : إعلاء كلمة الحق ونصره، إذ لم يُخلق الكفرُ إلا لأن يجتهد المؤمنون فى إزهاقه، ليتميّزوا عن غيرهم. (تفسير الفرقان)

فباختصار، إن الحق حق، لكنه لا يبدو للناس إلا بواسطة الجهاد، لذلک أوقف المسلمين أمام المشركين يوم بدر، ووفّقهم للجهاد فى سبيله، وبفضل الجهاد تحقق الحق للجميع، كما تحقق زيغ الباطل، وقضى على بذور الشرک والكفر. فكلما استعد المسلمون مثل استعدادهم يوم بدر، وقاموا بإحياء فريضة الجهاد، أعلى الله كلمة الحق، وأذل كلمة الباطل، فهل يُعجب زعماء الكفر ذلک؟ أشار

إليه بقوله: {وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُوْن} حيث يرفعون الدنيا على الرؤوس ضد الجهاد والمجاهدين، أو بتعبير آخر: يسعون إلى إذلالهم، والواجب على المؤمنين أن لا يغتمُّوا ولا يحزنوا، فإن العزة لله جميعا، وليس بيد الكفر والكفار شيء. (والله أعلم بالصواب)

ماذا أراد بلفظ (كلماته)؟

قال الله تعالى: {ويُرِيدُ اللهُ أنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِه} فما معنى (كلماته)؟

قال القرطبى: بكلماته أى بوعده، فيغلب الحَق على الباطل كما وعد، ووعده هو ما جاء فى الآيتين التاليتين:

(1) {يَومَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكُبرى، إنَّا مُنتَقِمُون} (الدخان 16) أى ننتقم من أبى جهل وأصحابه.

(2) {لِيُظْهِرَهُ علَى الدِّينِ كُلِّه} (التوبة 33 والفتح 28).

وقيل: المراد من (كلماته) الأمر بالجهاد، كما قال القرطبى رحمه الله:

«بكلماته أى بأمره إياكم أن تجاهدوهم». (القرطبى)

وقال النسفى رحمه الله تعالى : «بكلماته المنزَّلة فى محاربة ذات الشوكة وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة وبما قضى من قتلهم وطرحهم فى قليب بدر».(المدارك)

{وَلَوْ كَرِهَ المجْرِمُوْن}..

لاشك فى أن الكفار مجرمون، وأنهم لا يحبون انتصار الحق على الباطل. وهذه هى الكلمة التى يحتاج المسلمون إلى عقدها فى قلوبهم، وبها يمكنهم الخروج من تبعة ما يقال: «لقد ضيّع الإسلام سُمعته بين الكفار» إذ ما من عمل ينفع المسلمين إلا وكان قبيحا ومذموما عند أعدائهم، فهل ينفعل المسلمون بغباء أعدائهم وأفكارهم المضللة؟ (نعوذ بالله منها نعوذ بالله منها). والله أعلم بالصواب

الدروس المستفادة من غزوة بدر:

يوجد كَمٌّ هائل من الدروس والعبر فى غزوة بدر للمسلمين، ففى الآيتين المذكورتين أكّد الله تعالى على ضرورة توجيه ضربة قوية إلى مجمع قوة الكفر والشرك، وعلى ضرورة إحياء عملية الجهاد فى سبيل الله، لِيَحِقَّ الحقُّ، وليتحقق ضلال الباطل.

{**سورة الأنفال مدنية، الآيات** : 9، 10}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذْ تَسْتَغِيْثُوْنَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُم أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْف مِنَ المَلائكَةِ مُرْدِفِيْن، وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيْزٌ حَكِيْم}.

ملخص معانى الآيتين:

لقد طلبتم النصر من ربكم عشية اللقاء مع المشركين ببدر، فقبل الله دعوتكم، ووعدكم بإرسال ألف من الملائكة متتابعين، لم يكن نزول الملائكة لمساعدتكم إلا تبشيراً بنصر الله لكم، وتطميناً لقلوبكم، إذ النصر الحقيقى من الله تعالى العزيز الحكيم. (لذلک قوّوا صلتكم بربكم، ولا تثقوا فى الملائكة وغيرهم من الأسباب الظاهرة، لأن الغلبة الحقيقية لا تكون إلا بإذن الله، وبالطريقة التى يختارها، فالنصر الحقيقى لا يكون إلا من الله، ولا يتعين عليه شىء، فقد ينصر بواسطة الأسباب الظاهرة، وقد ينصر بدونها).

سبب نزول الآية:

أما ما يتعلق بسبب نزول الآية الكريمة، فقد أورد فيها المفسرون حديث عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه الذى أخرجه مسلم فى صحيحه، وقبل سرد لفظ الحديث نلاحظ العبارة التالية التى ذكرها صاحب التفسير الحقانى فى تفسيره:

كلمة «الغوث» تدل على المناصرة والمساعدة، وكلمة «الاستغاثة» تدل على طلب المناصرة والمساعدة. ولمّا وصل النبى ٠ مع أصحابه إلى بدر، واجه حرارة شديدة، ووجد أن الماء قد انفلت من يديه، إذ سبق إليه المشركون، ثم اطلع على أعداد المشركين، فعرف أنهم بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، إذ كانوا ألف مقاتل مدجّجين بالسلاح، وأن أصحابه لا يتجاوزون على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، إضافة إلى الجوع والعطش اللذان كادا يقضيان عليهم، فرفعوا أيديهم إلى السماء وتضرعوا إلى ربهم مبتهلين سائلين نصره وتأييده، كما قال عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ٠ توجه إلى العريش ومعه أبو بكر، فاستقبل القبلة، ثم رفع يديه يدعو ربه متضرعا متكسرا، وقال: اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم ائتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلک هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض، فمازال يدعو ربه حتى سقط رداءه، فأتاه أبو بكر فأخذ ردائه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه: وقال يا نبى الله: كفاک مناشدتک ربک، فإنه سينجز لک ما وعدک، فأنزل الله تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيْثُوْنَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُم أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْف مِنَ المَلائكَةِ مُرْدِفِيْن} نزل بها جبريل، فقال النبى ٠ هذا جبريل آخذ زمام فرسه متشحاً بقوسه.

ومعنى كلمة «مردفين» متتابعين، حيث وعد الله بالنصر بألف من الملائكة، ثم زاد، فصاروا ثلاثة آلاف، ثم خمسة آلاف، كما فى سورة آل عمران. وقد أجمع المفسرون على نزول الملائكة من السماء ومعهم السلاح لمساعدة المسلمين، لكنهم اختلفوا فى: هل هم باشروا القتال أم لا؟

وقد ثبت بما أخرجه أهل الحديث فى كتبهم أنهم باشروا القتال، ففيما أخرجه مسلم أن رجلا من المسلمين تقدم إلى مشرک ليقتله، فوجده صريعا بين يديه، وعلى فمه أثر وقع السوط، وقد سمع صوتا يقول: «أقدم حيزوم».

وقيل: إن الملائكة لم يباشروا القتال، بل كان نزولهم للربط على قلوب المؤمنين وتقويتهم، كما قال الله تعالى: {وما جعله الله إلا بُشرى..} الخ. أى كان نزولهم لمجرد تطمينكم، إذ النصر من الله تعالى.

وهو لا يتعارض إن سلّمنا أنهم باشروا القتال. (التفسير الحقانى)

قال القرطبى رحمه الله:

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:

لما كان يوم بدر نظر رسول الله • إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل نبى الله • القبلة، ثم مدّ يديه، فجعل يهتف بربه: اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم ائتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلک هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض، فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداءه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبى الله: كفاک مناشدتک ربک، فإنه سينجز لک ما وعدک، فأنزل الله تعالى: {إذ تستغيثون ربكم} الآية. فأمده الله بالملائكة. (القرطبى)

والغرض من سرد الحديث هنا تحريض أهل العلم على الدعاء للمجاهدين بالهيئة التى دعا النبى • للمجاهدين يوم بدر، ويجب على المجاهدين أن يدعوا لأنفسهم خاشعين متضرعين مبتهلين منيبين إلى الله تعالى.

الدعاء إثر تكوّن جوّ القتال:

واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لابد من القتال طفقوا يدعون الله يقولون أى ربنا انصرنا على عدوک يا غياث المستغيثين أغثنا. (المدارک)

دلَّ على وجوب التوجّه إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع بدلاً من الفرار يوم الزحف لكثرة أعداد العدوّ وعُدّته.

لينظر المجاهدون إلى الله:

قال القرطبى رحمه الله:

{ومَا النَّصْرُ إلاّ من عِنْد الله} نبّه على أن النصر من عنده جل وعزّ لا من الملائكة، أى لو لا نصره لما أغناهم كثرة أعداد المَلَائكة.

وقال النسفى رحمه الله تعالى:

ولا تحسبوا النصر من الملائكة فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة. (المدارک)

ومن هنا عرفنا أن الاتكال بالملائكة إن لم يكن صحيحاً فمِن الأولى أن لا يصح بغيرهم من البشر والأسباب المادية، فالمسلم لا يجاهد إلا لله، ولا ينصره إلا الله، الذى يُظهره على أعدائه، فيفوز بسعادة الدنيا والآخرة. وسعياً إلى المحافظة على هذه النكتة المهمة من عقيدة المسلم عزل عمر خالداً عن القيادة، حتى لا يزعم أحد أن الانتصارات التى تحققت للمسلمين كانت بسبب خالد بن الوليد. ولاشک أن للزعامة والقيادة دوراً فى الحروب، لكنه تابع لمشيئة الله وإرادته، ويجب على المجاهد أن لا ينظر إلا إلى الله، فلا ينطلق إلا من باب الثقة بالله والاتكال عليه. وقد تخلى اليوم كثير من الناس عن الجهاد فى سبيل الله فى انتظار الإمام المهدى رضى الله عنه، ويجب على هؤلاء أن يتأملوا فى هذه الآية.

عزيز حكيم:

عزيز أى قوى وقادر على النصر مباشرة بدون استخدام وسائط. حكيم أى حكمته تقتضى مراعاة الأسباب، لذلک ينصر المؤمنين بالوسائل والوسائط. (التفسير الماجدى)

دروس مستفادة من الآية:

تزخر غزوة بدر بأعداد هائلة من الدروس والعبر للمؤمنين، أحدها أن لا يفقد المسلم معنوياته نظراً إلى كثرة عدد العدو وعُدّته، بل يجب عليه أن يتضرع إلى ربه بالخشوع والخضوع والتكسر والثقة بوعده بالنصر والظفر.

ومنها أنه يجب على خواص الأمة من أهل العلم والذكر والتقوى أن يبالغوا فى الدعاء لإخوانهم الذين يجاهدون فى سبيل الله.

ومنها أن الجهاد من أحد الأعمال التى ينزل فيه الملائكة المقربون.

وهناک درس مهم توصلنا إليه، وهو أن النصر الحقيقى لا يكون إلا من الله تعالى، ولا يتعين عليه شىء من وجوه النصر، فيلزم على المؤمن أن لا ينظر إلا إلى الناصر الحقيقى، ولا ينظر إلى أسباب النصر.

{سورة الأنفال مدنية، الآية 11}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ}.

ملخص معانى الآية:

لقد نصر الله تعالى المؤمنين يوم بدر قبل القتال بأمرين:

(1) غشيهم النُعاس أمنةً.

(2) أنزل من السماء ماءً غزيراً.

وقد استغل المؤمنون الأمرين فيما تأتى:

(1) أزال النُعاسُ من قلوبهم الخوف، وعادت الطمأنينة إلى أرواحهم وأبدانهم.

(2) بالمطر تتطهروا من الأنجاس الظاهرة والباطنة من وساوس الشيطان ودسائسه، كما صلحت الأرض للتحرك والمشى بعد أن كانت تُعيقهما.

(3) قويت قلوبهم وثبتت أقدامهم وارتفعت معنوياتهم بعدما شاهدوا آثار النصر الأوّلية.

أقوال المفسرين فى تفسير الآية ومصادرها

تفسير جامع للآية:

يجمع المقطع الآتى كل ما ذكره المفسرون عن الآية الكريمة لتحديد معناها ومرادها:

«وقعة بدر كانت من إحدى الوقائع التى امتحن الله فيها المؤمنين، كانوا أقل عدداً وعُدّة، خرجوا فى طلب العير، لم يكن فى حسبانهم أن الله يجمع بينهم وبين جيش أكثر منهم عدداً، مجهزاً بأفضل أسلحة، خرجوا من مكة أشراً وبطراً، فكان أول لقاء حقيقى بين المسلمين والمشركين، وقد سبق المشركون إلى أطيب المواقع أرضاً وماءً، فيما وجد المسلمون موقعاً منخفضاً، محاطا بالحصيات والأتربة المعيقة للسير إضافة إلى الرمال المتطايرة المحرجة. ثم نفاد الماء حال دون الوضوء والغسل، زد عليه العطش الذى كاد يقضى عليهم. فلما شاهدوا ذلک تخوّفوا، إذ هى من آثار الهزيمة، ووسوس إليهم الشيطان أنكم إن كنتم من أولياء الله لأيّدكم ونصركم، ولما واجهتم ما تعانون منه، وكانوا فى تلك الحالة حتى أنزل الله عليهم من السماء ماء، فاستقرت الرمال، وتوفرت المياه للطهارة والغسل والوضوء والشرب، كما تعافوا من الرمال المتطايرة المزعجة، أما موقع المشركين فتَوَحَّلَ بالمطر، وصار بحال تنزلق فيه الأقدام، ويتعسَّر السير عليه. ثم لمّا أذهب الله تعالى المشاكل الظاهرة عن المؤمنين، أنزل عليهم سكينة بأن غشيهم نعاس، حتى إنهم لما استيقظوا وجدوا الخوف قد تطاير من قلوبهم. ذكر بعض الروايات أن النبى ۰ وأبو بكر قضيا الليلة فى العريش

يَدعُوَان، حتى غشى النعاس النبىَ ﷺ، فلما استيقظ قال: أبشروا بنصر الله فإن جبريل قادم لنصركم، ثم خرج من العريش فأجرى الله على لسانه: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}. فباختصار إن رحمة الله تعالى ممثلة فى الماء الذى نزل من السماء كان سبباً فى تطهير الأبدان من الأحداث والقلوب من دسائس الشيطان ووساوسه. واستقرار الرمال تسبب فى ثبات أقدامهم ورفع معنوياتهم». (التفسير العثمانى)

فائدتا النعاس:

قال الإمام القرطبى رحمه الله تعالى:

«وفى امتنان الله عليهم فى هذه الليلة وجهان: أحدهما أن قوّاهم بالاستراحة على القتال من الغد. الثانى أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم كما يقال الأمن منيمٌ والخوف مسهرٌ». (القرطبى)

وقيل: غشّاهم فى حال التقاء الصفين. (القرطبى)

هطول المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان:

فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية.(القرطبى)

الطهارة والجهاد:

أشارت الآية الكريمة إلى نكتة مهمة، وهى أن بين الجهاد والطهارة ارتباطا قويا، يشعر المؤمن بالقوة إن كان فى حالة الطهارة، تنزل عليه رحمة الله تعالى الخاصة، يرافقه ملائكة الرحمة، ولا يتغلّب عليه العدو. ففى الآية تأكيد على أهمية الغسل والوضوء وطهارة اللباس أثناء القتال، وعلى المجاهدين أن يهتمّوا بها، إذ هى تزيدهم قوة وتأييداً. (والله أعلم بالصواب)

تحرّج المشركين من المطر:

فى طبقات ابن سعد أن الوادى كان جافا يابسا، فبعث الله سحابا فبلّله، وصار المسلمون يتحركون بيسر، فيما كان المشركون يتحرّجون من السير والتحرك، على أنه لم يكن بين المسلمين والمشركين إلا ثنية رمال، وقد غشى النعاس المسلمين تلك الليلة. ثم ذكر بعد عدة صفحات: لقد نزل المسلمون بأرض مليئة بأتربة متطايرة، وبعد هطول الأمطار تجمدت وصارت مثل جبل الصفا، وباتوا يتحركون عليها بكل يسر. (التفسير الماجدى)

الجهاد أفضل الطاعات:

لقد أورد الإمام القرطبى رحمه الله تعالى نكتة تلوى على القلوب، فقد قال:

قال مالك بلغنى أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ ما تعدون البدريين عندكم؟ قال: هم يعدون فى خيارنا، فقال جبريل : كذلک عندنا.

فيه أن فضلهم باعتبار أعمالهم دون ذواتهم، فأفضل أعمال الملائكة اشتغالهم بالتسبيح، وأفضل أعمال البشر الإخلاص والطاعات، وأفضل الطاعات هى ما قرر الشرع فضلها، كما قال القرطبى رحمه الله:

وأفضلها الجهاد وأفضل الجهاد يوم بدر، لأن بناء الإسلام كان عليه. (القرطبى)

مشروعية مهاجمة العدو لتلحقه أضرار مادية:

قال القرطبى رحمه الله تعالى:

ودل خروج النبى ﷺ لتلقى العير على جواز النفير للغنيمة، لأنها كسب حلال الخ

وفيه رد على المالكية الذين يمنعونه، وقالوا بكراهته، إذ هو جهاد لأجل الدنيا. ثم قال القرطبى:

وما جاء أن من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله دون من يقاتل للغنيمة يراد به : إذا كان قصده وحده، وليس للدين فيه حظ. (القرطبى)

النعاس أثناء القتال نعمة:

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : «النعاس فى القتال أمنة من الله تعالى، وفى الصلاة وسوسة من الشيطان» انتهى. وعن ابن مسعود رضى الله عنه شبيه هذا الكلام. وقال: النعاس عند حضور القتال علامة الأمن من العدو، وهو من الله تعالى. وهو فى الصلاة من الشيطان». قال ابن عطية: وهذا إنما طريقة الوحى، فهو لا محالة يسند. (البحر المحيط)

ستة أسباب:

كيف كان النعاس الذى غشى المؤمنين يوم بدر نعمة من الله تعالى؟ أورد الإمام الرازى كلاما قيّماً فى هذا الموضع، ذكر أن هناك ستة أسباب تدل على أن النعاس كان نعمة من الله تعالى، ومن أرادها فليعد إلى التفسير الكبير للرازى.

دروس وعبر:

تزخر بدر بكثير من الدروس والعبر، ففى الآية الكريمة إشارة إلى أهمية الطهارة فى الجهاد، وأنها تنفع المؤمنين، وعليهم أن يهتمّوا بها، ويواظبوا عليها.

كما أشارت الآية إلى أهمية المياه، وإلى وجوب توفّرها بغزارة للمجاهدين، كما يجب عليهم السعى إلى السيطرة على منابع المياه ومصادرها.

علاوة على ما ذكرنا فإن الآية دلّت على أهمية الراحة النفسية والقلبية والثبات فى ساحة القتال. وكل ذلك لا تحصل إلا بارتباط قوى مع الله، لذلك يجب على المقاتلين أن يقوّوا صلتهم مع الله، ويهتمّوا بمذاكرتها فيما بينهم أثناء القتال. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 12}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذْ يُوْحِيْ ربُّکَ إلَى الْملائكَة أنِّيْ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوْا الَّذيْنَ آمَنُوْا. سَأُلْقيْ فِيْ قُلُوْبِ الَّذيْنَ كَفَرُوْا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوْا فَوْقَ الأعْنَاقِ واضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}.

ملخص معانی الآية:

أشار فيها إلى إنزال الملائكة يوم بدر لنصر المؤمنين، وأكّد لهم بأنه معهم فليثبّتوا المؤمنين، ثم وعد بأنه سيلقی فی قلوب الذين كفروا الرعب، فقاتلوا فی سبيل الله، واضربوا أعناق الكافرين بالسيف، واضربوا منهم كل مفصل وبنان.

جملة ما وردت فيها من المضامين:

1- أنزل الله تعالى يوم بدر الملائكة بقيادة جبريل وميكال عليهما السلام.

2- أكثر الروايات تدل على أن الملائكة باشروا القتال.

3- طمّن الله الملائكة بأنه معهم، وفيه دلالة على أن الجهاد من أحد الأعمال المقربة من الله، شأنه شأن التسبيح والتقديس اللذان هما من وظائف الملائكة، التی تُقرّبهم من الله تعالى.

4- أمر الله تعالى الملائكةَ بتثبيت المؤمنين وتشجيعهم، ففعلوا كما أُمروا، بأن باشروا القتال، وألهموا فی القلوب، وهتفوا بالنصر والتأييد، وأبدوا حبهم الروحی للمجاهدين.

5- درّبهم الله سبحانه وتعالى على فنون القتال، وأشار إلى أهم المواضع من العدو التی تَشلُّهم عند توجيه الضربة إليها.

إيراد ورده:

قد يتساءل هنا أحد أن الله سبحانه وتعالى أمر الملائكة بتثبيت المؤمنين، أما إلقاء الرعب فی قلوب الأعداء فجعله إلى نفسه، فما الحكمة فی ذلک؟

أورد الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى هنا نكتة مهمة، فقال:

«قلوب المشركين لا تتأهل لإلهام الملائكة، لذلک جعل إلقاء الرعب إليه سبحانه، وأمر الملائكة بتثبيت قلوب أهل الإيمان».

باشر الملائكة القتال يوم بدر بأيديهم. (موضح القرآن)

تفسير جامع للآية:

«يمكن معرفة أهمية غزوة بدر بمشاركة إبليس اللعين بنفسه فيها، فقد جاء يوم بدر إلى أبى جهل بهيئة سراقة بن مالك المدلجى، سيد بنى كنانة، وحثّه على القتال، وقال: لن يغلبكم اليوم أحد، فإنى معكم وهؤلاء قومى ورائى، وكان قد تجمّع تحت راية إبليس جند عظيم من الشياطين».

سوف تأتى تفاصيل هذه القصة. وقد ردّ الله تعالى عليه بإرسال الملائكة بقيادة جبريل وميكال، وأعلن بأنه معهم، إن كان الشياطين قد ظهروا بهيئة الناس لتشجيع المشركين على القتال، ولإلقاء الوساوس فى قلوب المؤمنين، فإن الله أمر الملائكة بالبروز للربط على قلوب المؤمنين البائسين وتثبيتهم، كأنه قال: ادفعوا المؤمنين إلى القتال، وأنا أُلقى الرعب فى قلوب المشركين، أنتم اضربوهم فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان، لأن المشركين إنسهم وجنهم احتشدوا اليوم لمحاربة الله ورسوله، فليعلموا كيف يعاقب الله أعداءه، والعقوبة الحقيقية هى ما تنزل بهم يوم القيامة، لكنهم يتذوّقون عيّنةً من عذابه فى الدنيا قبل الآخرة.

جاء فى الروايات أن المؤمنين شاهدوا الملائكة يوم بدر بأعينهم، وكان قتلى الملائكة من المشركين متميزين عن قتلى البشر.

أراد الله تعالى أن يريهم جانبا من عجائب قدرته، إن كانت الشياطين على مختلف طوائفها من الجن والإنس قد احتشدت لمحاربة الحق، فإنه سبحانه وتعالى أنزل الملائكة المقربين لنصر المؤمنين، أما الفتح والظفر فتحت مشيئته وإرادته، وليس بحاجة إلى الملائكة والبشر، لأنه إن أراد نصر المؤمنين بالملائكة، لكفاهم مَلَكٌ واحدٌ، إذ بإمكان مَلَك واحد أن يقلب قرية بأكملها مع أهلها ويدمرها، فالمقصود هنا – فى عالم الأسباب والتكليف – الرد على تحرّكات الشياطين غير الاعتيادية لمناصرة المشركين. (التفسير العثمانى)

تثبيت الملائكة للمؤمنين:

أمر الله تعالى الملائكة بتثبيت المؤمنين، أورد المفسرون عدة أقوال فى شرح معناه:

1– قال الحسن: بالقتال أى فقاتلوا.

2– وقال مقاتل: بشروهم بالنصر. فكان الملك يسير أمام الصف فى صورة الرجل فيقول: أبشروا فإن الله ناصركم.

3– وذكر الزجاج أنهم يثبتونهم بأشياء يلقونها فى قلوبهم تقوى بها.(البحر المحيط)

وقال الإمام الرازى:

إن الشيطان كما يمكنه إلقاء الوسوسة إلى الإنسان، فكذلك الملك يمكنه إلقاء الإلهام إليه. (التفسير الكبير)

4– وذكر الثعلبى نحوه قال: صححوا عزائمهم ونياتهم على الجهاد. (البحر المحيط)

5– وقال ابن عطية نحوه، قال: يحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذى أمر به ما يلقيه الملك فى قلب الإنسان من توهم الظفر، واحتقار الكفار، ويجرى عليه من خواطر تشجيعه. (البحر المحيط)

إلقاء الرعب فی قلوب الکفار من النعم الجلیلۀ:

قال الله تعالى: {سَأُلْقِیْ فِیْ قُلُوْبِ الَّذِیْنَ کَفَرُوْا الرُّعْبَ} فإلقاء الرعب فی قلوب الکفار من نعَم الله العظیمۀ على المؤمنین فی الجهاد، والمؤمنون إذا ملأوا قلوبهم بنیۀ صادقۀ بالفداء والتضحیۀ بالروح والغالی لأجل دین الله، فإن الله یُلقی الرُعب فی قلوب المشرکین، ویشعرون بالعجز والشلل أمام جحافل المؤمنین. قال أبو حیان:

ولا معونۀ أعظم من إلقاء الرعب فی قلوب الکفرۀ.

وقال الرازی:

وهذا من النعَم الجلیلۀ، وذلک لأن أمیر النفس هو القلب، فلما بین الله تعالى أنه ربط قلوب المؤمنین بمعنى أنه قوّاها وأزال الخوف عنها ذکر أنه ألقى الرعب والخوف فی قلوب الکافرین، فکان ذلک من أعظم نعم الله تعالى على المؤمنین.(التفسیر الکبیر)

دروس وعبر:

هناک جانب کبیر من الدروس والعبر التی تفعم بها غزوۀ بدر، ففیها تأکید على أهمیۀ التدریب على فنون القتال، فقد قام الله تعالى بتدریب الملائکۀ علیها بنفسه.

وأنه یجب على المقاتلین أن یتحلَّوا بالصفات التی تستدعی قتال الملائکۀ إلى جانبهم فی ساحۀ القتال، وما تستدعی إلقاء الله الرعب فی قلوب الأعداء.

لاشک أن القلوب إن کانت مفعمۀ بحب الآخرۀ، بعیدۀ عن حب الدنیا، جاهدۀ فی سبیل الله بنیۀ خالصۀ، راغبۀ فی لقاء الرب، متحمسۀ للفداء بالروح والنفس، فإن الملائکۀ تنزل لنصرهم، ویُلقَى الرعبُ فی قلوب الأعداء.

وأنه یجب على المؤمنین أن لا یخافوا ولا یحزنوا بسبب تحالف المشرکین مع الشیاطین وتواطؤهم معهم، بل علیهم أن یتوکلوا على الله ویقوّوا صلتهم به، فإن الله ینصر المجاهدین بأسالیب مختارۀ، إذ قد یُنزل الملائکۀ ویُلقی الرعب فی قلوب الأعداء. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 13،14}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ذَلِکَ بِأَنَّهمْ شَاَقُّوا اللهَ ورَسُوْلَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُوْلَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيْدُ العِقَابِ. ذَلِکُمْ فذُوْقُوهُ وَاَنَّ لِلْکَافِرِيْنَ عَذَابَ النَّارِ }.

ملخص معانى الآيتين:

يُعاقب الكفار بما ذُكر لكفرهم وعصيانهم ومعاداتهم لله ورسوله، وما هو إلا مجرد طعم لعذاب أليم أُعدّ لهم فى الآخرة.

أكابر المجرمين:

الحكومات ترى من حقها معاقبة المنشقين والعصاة والمجرمين، ولا يُعَدُّ ذلک ظلماً، كذلک ليس من الظلم إبادة السباع المفترسة والوحوش البشرية التى تشكّل خطرا على حياة الآخرين، ومثله من العدل الأمر بقتل أولئک الذين يعادون الله ورسوله، ويعصون أمره، ويتصدون لروح وعقيدة المؤمن، ويسعون إلى نشر الفساد والكفر فى الأرض، ويريدون أن يمحقوا الحق بالباطل لينصروه عليه، فإنزال الملائكة لتصدى هؤلاء والأمر بقتلهم وقتالهم ليس من الظلم والجور فى شيء.

مكانة أولياء الله:

قال القرطبى رحمه الله تعالى:
لم يعاقب الكفار بما عُوقبوا إلا لأنهم شاَقّوا الله ورسوله، وأرادوا محاربتهما.
{شَاَقُّوا اللهَ} أى أولياءه. (القرطبى)
من يجاهد فى سبيل الله، فإن الله يعتبر أعداءهم أعدائه، وبالتالى يُنزل الملائكة لإهلاكهم. (والله أعلم بالصواب)

العذاب الأكبر لا زال باقيا:

إن هذا الذى نزل بهم فى ذلک اليوم شيء قليل مما أعده الله لهم من العقاب فى القيامة. (التفسير الكبير)

دروس وعبر:

دلّت الآية الكريمة على أن أكبر وأخبث جريمة فى الدنيا هى معصية الله ورسوله، فمن يكفر بالله، ويدافع عن باطله، ويحارب المسلمين ليقضى عليهم، فهو من أكابر مجرمى الدنيا. يا ليت لو

أذعن كل مسلم لهذه الفكرة، واتخذها مقياساً للمودة والمعاداة، لتوحدت صفوف المسلمين، وازدادت قوتهم وشوكتهم.

لقد وردت كلمة {شَآقُّوا اللهَ} فی الآية، والشِّق طرف الشیء وجانبه، والمعنى إن الذين فضّلوا طرف الكفر والعداوة على طرف الإيمان والمؤمنين، لهم عذاب أليم. فالله سبحانه وتعالى باستخدام كلمة (شآقوا) الدالة على الطرف والجانب أشار إلى أن المسلمين أمة واحدة، وأن الكافرين أمة مختلفة عنهم، ثم بيّن أن هناک مقياسا للمودة والمعاداة، فمن عادى الله ورسوله، لا يمكن أن يكون محبا للمؤمنين.

إضافة إلى ذلک فإن الآية الكريمة تبعث روح الجهاد والقتال فی نفوس المؤمنين، وتقول لهم: أيها المؤمنون! إن كنتم تحبون الله ورسوله، فحاربوا أولئک الذين يشاقون الله ورسوله. ففی الحالات العامة إن أخبر حبيب حبيبا أن فلانا يعادينی وينفر منی أشد النفور، فإن ذلک يكفی لخلق مشاعر العداء والنفور فی قلب الحبيب، وبالتالی يعاديه ويتنفر منه، إن كان صادقا فی الحب.

كما تشير الآية الكريمة إلى عدل الجهاد وإنصافه، فالإسلام لا يريد إراقة الدماء ولا إزهاق النفوس، لكن هؤلاء أعداء الإسلام من الكفار والمشركين بلغوا إلى أقصى حدود الجريمة والظلم، وشاقوا الله ورسوله، لذلک فإن معاقبتهم وإراقة دمائهم من الخدمات الجليلة إلى البشرية برمتها.

كما أشارت الآية إلى أن الذين يجاهدون فی سبيل الله، ويُفدون بأرواحهم ونفوسهم، فإن الله يجعلهم من مقرّبيه، ويعادی من عاداهم. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 15، 16}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَآَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْآ اذَا لَقِيْتُمُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوْهُمُ الاَدْبَارَ. وَمَنْ يُّوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ اَوْ مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ. وَبِئْسَ المَصِيْرُ}.

ملخص معانى الآيتين:

لا يجوز لمسلم أن يولّى دبره يوم الزحف، ويهرب من ساحة القتال، فمن فعل ذلک ناله غضب من الله، ويُلقَى فى نار جهنم، أما إن كان تولّيه وفق تدبير حربى، أو يريد أن يتزوّد بقوة ويتجهّز بأفضل أسلحة، فلا بأس به.

حكم الآية باق إلى يوم القيامة:

قال بعض أهل العلم أن الحكم المذكور فى الآية خاص بغزوة بدر، لكن الجمهور على أنه باق إلى يوم القيامة، كما قال القرطبى:

ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة. (القرطبى)

قال صاحب التفسير الحقانى فى تفسيره:

قال ضحاک وغيره : الحكم خاص بغزوة بدر، لأنها أولى المعارک، كما أن كلمة {يَومَئِذٍ} ترمز إليها. لكنه قول ضعيف عند الجمهور، والمراد من {يَومَئِذٍ} يوم الزحف، لأن الآية نزلت بَعد بدر، فاللفظ عام يشمل جميع الغزوات والمعارک. (التفسير الحقّانى)

بيان شامل للحكم المذكور:

فيما يلى نلخّص المسائل التى ذكرها الإمام أبو بكر الجصاص فى كتابه «أحكام القرآن»:

1- كل غزوة يشهدها النبى ﷺ بنفسه، لا يجوز لهم تولى الدبر.

قال الجصاص:

فهذا كان حكمهم إذا كانوا مع النبى ﷺ قلَّ عدد العدو أو كثر، إذ لم يحدد الله فيه شيئاً.

وقد استدل على ذلک بالآية 155 من سورة آل عمران، والآية 25 من سورة التوبة.

2- إن لم يشهد النبى ﷺ القتال بنفسه، ولم يكن العدو أكثر بعشرة أضعاف المسلمين، لا يجوز لهم تولى الدبر، أما إن كان العدو أكثر من ذلک، جاز لهم التولى بنية التحيّز إلى فئة، للاستمداد بقوة. كما فى الآية 65 من سورة الأنفال.

قال الجصاص:

فكان على العشرين أن يقاتلوا المائتين، ولا يهربوا عنهم، فإذا كان العدو أكثر من ذلك أباح لهم التحيز إلى فئة من المسلمين نصرة لمعاودة القتال.

3- نسخت الآية 66 من سورة الأنفال هذا الحكم، وكُتب على المؤمنين أن لا يهربوا من عدو يزيده ضعفين.

قال ابن عباس: إن فر رجل من رجلين فقد فرّ، وإن فر من ثلاثة فلم يفر، قال الشيخ يعنى بقوله: «فقد فر» الفرار من الزحف المراد بالآية، والذى فى الآية إيجاب فرض القتال على الواحد لرجلين من الكفار، فإن زاد عدد الكفار على اثنين، فجائز حينئذ للواحد التحيز إلى فئة من المسلمين فيها نصرة، فأما إن أراد الفرار ليلحق بقوم من المسلمين لا نصرة معهم، فهو من أهل الوعيد المذكور فى قوله تعالى: {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ} الآية.

4- فإذا بلغوا اثنَى عشرَ ألفاً، فإن محمد بن الحسن ذكر أن الجيش إذا بلغوا كذلك فليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثر عددهم، ولم يذكر خلافا بين أصحابنا فيه، واحتج بحديث الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله أن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربع مائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يوتى اثنا عشر ألفا من قلة، ولن يغلب. وفى بعضها: «ما غلب قوم يبلغون اثنى عشر ألفاً إذا اجتمعت كلمتهم».

وذكر الطحاوى أن مالكاً سُئل فقيل له: أيسعنا التخلف عن قتال من خرج عن أحكام الله وحكم بغيرها؟ فقال له مالك: إن كان معك اثنا عشر ألفا مثلك لم يسعك التخلف وإلا فأنت فى سعة من التخلف. وكان السائل له عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وهذا المذهب موافق لما ذكر محمد بن الحسن. والذى عن النبى ﷺ فى اثنى عشر ألفا فهو أصل فى هذا الباب، وإن كثر عدد المشركين، أن يفروا منهم وإن كانوا أضعافهم، لقوله ﷺ: إذا اجتمعت كلمتهم وقد أوجب عليهم بذلك جمع كلمتهم. (أحكام القرآن للجصاص)

الفرار من ساحة القتال حرام:

قال القرطبى رحمه الله تعالى:

حرّم الله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفار. (القرطبى)

أخرج مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال:

«اجتنبوا السبع الموبقات» وعَدَّ منها : التولّى يوم الزحف. (القرطبى)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما الفرار من الزحف من أكبر الكبائر. (البحر المحيط)

وقال القرطبى:

«فمهما كان فى مقابلة مسلم أكثر من اثنين فيجوز الانهزام، والصبر أحسن». (القرطبى)

ثم أشار القرطبى إلى غزوة موتة التى ثبت فيها ثلاثة آلاف من المسلمين أمام مائتى ألف من العدو، كما أشار إلى قصة طارق بن زياد رحمه الله تعالى، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى تفسير القرطبى.

التدبير الحربى العظيم:

إن كان الله سبحانه وتعالى قد أكّد على أن الفرار يوم الزحف من الأعمال الشنيعة ليثبتوا أمام العدو بكل قوة وبسالة، فإنه أشار إلى أمرين مهمين:

الأول: التحرّف و الثانى: التَحَيُّز.

فالتحرّف اتخاذ ترتيبات محكمة ذكية تتخلها عمليات الكرّ والفرّ، وإصابة العدو بأضرار فادحة بتدابير آنية قابلة للتغير فى كل لحظة. وهذه المعانى جمعها الله تعالى فى كلمة «التحرّف».

كما قال القرطبى: التحرّف: الزوال عن جهة الاستواء، فالمتحرف من جانب إلى جانب لمكايد الحرب غير منهزم. (القرطبى)

أما التَحَيُّزُ فشدّ أزر المجاهدين بإنشاء شبكة من الامدادات المتنوعة بظهر ساحة القتال بحيث يمكن لهم تقوية أنفسهم فى حالة وصولهم إليها، إضافة إلى قدرتها على مد المجاهدين بالتعزيزات والإمدادات الحديثة والمؤن والذخيرة ليمكن لهم الكرّ على العدوّ، وكان النبى ﷺ قد حوّل نفسه والمدينة بأكملها إلى فئة للمجاهدين، ومثله فعل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، فكان سببا فى تقوية الجهاد وتعزيزه. (والله أعلم بالصواب)

الأجواء القرآنية:

ليس من السهل الثبات فى ساحة القتال ومجابهة العدو بكل شجاعة وبسالة، لذلک قدّم القرآن الكريم قبل بيانه جواً عظيماً يسهّل ذلک الصعب، اقرأ الآية السابقة، ففيها أن الله أخرج نبيه للقتال، وصرّح بغرض الجهاد بأنه إحقاق الحق، وأنزل الملائكة، وبيّن معاداة الكفار والمشركين لله ورسوله، ثم أعقبها بأمره بالثبات فى ساحة القتال وحرّم عليهم التولّى يوم الزحف. كيف يجيز الله تعالى الانحراف عما كتب عليهم، والموافقة على هزيمة الحق وتشجيع الكفار، وفرار المؤمنين من الاستشهاد، وخذلان المؤمنين أمام الملائكة، وسخرية الكفار من المؤمنين؟ اقرءوا الآيات من أولها، ترون أنها تبعث فى المؤمنين الهمة وتحثهم على الثبات، وتسهّل لهم الفداء بالروح مقابل الفرار يوم الزحف. (والله أعلم بالصواب)

الاستغفار لمن تولى يوم الزحف:

قال القرطبى: من صدر منه هذا الذنب العظيم، عليه أن يستغفر الله عزوجل ويتوب إليه، كما فى الحديث، قال القرطبى:

فإن فرّ فليستغفر الله عزوجل : روى الترمذى عن بلال بن يسار بن زيد قال: حدثنى أبى عن جدى سمع النبى ﷺ يقول: من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، غفر الله له وإن كان قد فرّ يوم الزحف. (القرطبى)

دروس وعبر:

لقد شحن الله تعالى هذه الآية بكثير من الدروس والعبر، منها:

1- وجوب تربية المجاهدين وتدريبهم نفسيا وقلبيا وبدنيا بحيث يثبتون فى ساحة القتال، ولا يتولون منها، حتى يستوجبوا غضب الله عليهم.

2- أقل تربية جهادية يكتسبها المؤمن هى ما تؤهله لمواجهة رجلين من المشركين. (وذلك بإشارة النص)

3- تقوية صلة المجاهدين مع الله، وأن تكون هممهم عالية، ومقاصدهم رفيعة، ويشتاقون إلى لقاء الله، الذى يُسهّل لهم الثبات فى ساحة القتال.

4- استخدام عمليات الكرّ والفرّ أثناء القتال.

5- إنشاء معسكرات وثكنات للمقاتلين بالقرب من ساحة القتال تؤيهم وتمدهم بالتعزيزات العسكرية. (والله أعلم بالصواب)

المرفق:

لاحظوا هذه العبارة النافعة:

«من أحد أهم ضوابط الانتصار فى القتال تطبيق قوله تعالى: {يُقَاتِلُوْنَ فِيْ سَبِيْلِه صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرصُوْصٌ} عمليا فى الميدان، فلن يفارق جندى مكانه، وليثبت فيه مثل الجبل». أما تولّى الظهر للعدو والفرار من الميدان فمعناه السعى إلى المحافظة على النفس والروح، لكن بفرار رجل واحد قد يفر الجيش بأكمله، فيتغلّب الكفار على المؤمنين، ويستعبدونهم، لذلك تقرر من الكبائر فى الشريعة، وحذّر من غضب الله وناره لمن ارتكبه. إذ بفرار رجل واحد قد تفسد ترتيبات الجيش، ويضعف رعبهم على العدو، فيُبتلى الجميع بآلام ومحن، لذلك عدّه الرسول ﷺ من أكبر الكبائر، وفى الصحيحين خ م من حديث سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن سالم أبى الغيث عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله وما هن قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات. (رواه البخارى ومسلم)

أخرج الطبرانى عن ثوبان رضى الله عنه رفعه قال: من أتى إحدى هذه الثلاثة لم ينفعه عمل صالح، وهى: الإشراك بالله وعقوق الوالدين والفرار يوم الزحف.

أخرج أحمد فى مسنده عن بشير بن معبد رضى الله عنه أنه قدم إلى النبى ﷺ ليبايعه، فعرض عليه ثلاثة شروط، وكان منها: أن أجاهد فى سبيل الله. قال بشير: فرفضته مخافة من الفرار يوم الزحف، فقال النبى ﷺ: فبم تدخل الجنة؟ فقبلته، وبايعته.

لم يرخص القرآن للفرار يوم الزحف إلا فى وجهين:

الأول: أن لا تكون الأرض صالحة للقتال، ويتفق خبراء الحرب على وجوب تغييرها.

الثاني: أن يريد معاودة الهجوم على العدو بجيش أكبر.

فيرخص له الفرار، ولاشک أنه فرار من الميدان حسب الظاهر، لكن لا يطلق عليه لفظ الفرار. وعلى كل فقد توصلنا إلى أنه لا مانع فی الشريعۀ من الهروب فی كل موضع يتفق خبراء الحرب على ضرورۀ الهروب منه، ولا يتحقق الذنب إلا كان الغرض منه الفرار بنفسه هربا من الموت. (التفسير الفرقان)

{**سورة الأنفال مدنية، الآيات** : 17، 18}

بسم الله الرحمن الرحيم

{فَلَمْ تَقْتُلُوْهُمّ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ اِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى. وَلِيُبْلِىَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَنًا. اِنَّ اللهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ. ذَلِكُمْ وَاَنَّ اللهَ مُوْهِنُ كَيْدَ الْكَافِرِيْنَ}.

ملخص معانى الآيتين:

أشار فيهما إلى أن المشركين الذين قُتلوا يوم بدر إنما قتلهم الله تعالى، وأن حفنة من التراب التى رمى بها النبى ٭ إلى المشركين إنما رماها الله، ليُنعم على المؤمنين بنِعَم حسنة، ويكرمهم بالفتح العظيم والظهور على المشركين، وليُضعف قوة المشركين وتدابيرهم.

نعمة عظيمة:

كلمة «البلاء» فى الآية الكريمة بمعنى النعمة والإحسان.

البلاء ههنا النعمة. (القرطبى)

والمراد من هذا البلاء الإنعام، أى يُنعم عليهم بنعمة عظيمة من النصرة والغنيمة والأجر والثواب. (التفسير الكبير)

وقيل بالشهادة لمن استُشهد يوم بدر. (البحر المحيط) وعددهم أربعة عشر رجلا.

وباختصار، إن الله نصر المؤمنين، وقتل المشركين، وأصاب عيون جميع المشركين من قبضة تراب، ليُنعم على المؤمنين بنعمة جليلة، ويغدق عليهم عطاءه. ومن هنا عرفنا أنه ما من مناسبة يقوم فيها المؤمنون بنفس الترتيبات التى قام بها المؤمنون يوم بدر إلا واستحقوا بلاء حسنا وعطاءً جميلاً من الله.

القضاء على العُجب والأنانية:

قال القرطبى رحمه الله تعالى:

روى أن أصحاب رسول الله ٭ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل: قتلت كذا، فعلت كذا، فجاء ذلك من ذلك تفاخر ونحو ذلك... الخ (القرطبى)

ومثله قال صاحب التفسير الحقانى بتعبير مختلف:

قال مجاهد رحمه الله تعالى: سبب نزولها أن المسلمين لمّا عادوا من بدر ظلوا يقولون: فعلت كذا، قمت بكذا وكذا من الأعمال البطولية، فنزلت الآية، وأشارت إلى أن كل ذلك كان بفضل الله وتوفيقه، حتى إن الذى فعله النبى ٭ من رمى قبضة تراب أصابت عيون المشركين كلهم، لم يكن

منه ﷺ إنما كان من الله تعالى وبتوفيقه، وبذلک قضى على جميع وجوه إعجاب المرء بأعماله. (التفسير الحقانى)

ومن هنا عرفنا أن المجاهدين إذا صاروا يتحدثون عن بطولاتهم وإنجازاتهم بعد الفتح، ونسوا ما أنعم الله عليهم من نعمة النصر والتأييد، فإن ذلک يضر بفكرة الجهاد ونظريته، ومن ثم صاروا ينظرون إلى العدد والعُدّة والتدابير، ولا ينظرون إلى الله تعالى، فإن مات هؤلاء الأبطال، أو ضعفت قوتهم، امتنع البقية عن الخروج فى سبيل الله. فأراد الله تعالى أن يُعلّم المؤمنين أنهم ما فعلوا شيئا من عندهم، بل أكثر ما فعلوه هو أنهم خرجوا بأنفسهم وأرواحهم فداءً للدين ودفاعا عن حياضه يطلبون مرضاة الله، فانهال عليهم بوابل من فضله وكرمه، وأثابهم بأن قتل بهم الكفار، وألحق بهم الهزيمة، وإلا لم يكن بحاجة إلى كل ذلک، فمن منّه وإحسانه أن وفّقهم للأعمال التى هى من وظائف الملائكة، حيث عذّب أعداءه بأيديكم، وقَتَلَهم. لذلک لا تنظروا إلى إنجازاتكم وبطولاتكم، وانظروا إلى ما أنعم الله عليكم من نعمة النصر والفتح، ولتعلموا أن النصر لا يأتى إلا من الله، الحى القيّوم الذى لا يموت، فتوكلوا عليه إذا خرجتم لتجاهدوا فى سبيله. (والله أعلم بالصواب)

حوادث الرمى:

الرمى فى اللغة القذف والرشق، لكن الآية تشير إلى حادثة؟ فما هى؟

إلى ما رمى به النبى ﷺ إلى المشركين يوم بدر؟

أو إلى ما رمى به النبى ﷺ إلى المشركين يوم حنين؟

أو إلى ما طعن النبى ﷺ أُبى بن خلف يوم أُحد؟

أو إلى السهم الذى رماه إلى ابن أبى الحقيق زعيم اليهود يوم خيبر؟

ذكر المفسرون الأقوال الأربعة، ورجّحوا القول الأول.

قال القرطبى: «وذلک أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ: خذ قبضة من التراب فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلک القبضة وقاله ابن عباس». (القرطبى)

إشارة إيمانية:

قال العلامة اللاهورى بشأن تفسير الآية الكريمة:

ليس عليكم إلا أن تثبُتوا فى ساحة القتال، وتقوموا بما تستطيعون، أما الفتح فبإذن الله تعالى. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

أى إن المؤمن إن قدّم نفسه للفداء والتضحية، وخرج لمجابهة أعداء الإسلام، فإن الله يُنجز عنه ما بقى من الأعمال، فالله سبحانه وتعالى فى الحقيقة يقتل الأعداء ويهزمهم، رغم نسبة تلک الأعمال إلى المجاهدين فى الظاهر، فالله سبحانه وتعالى يجعل القوة والتأثير فى أعمال المجاهدين، ويكفيهم القتال، وهذا من أفضاله العظيمة، إذ هو من يقوم بالأعمال كلها، مع ذلک يُثيب المجاهدين

عليها، يُنجز الأعمال بأيدى المجاهدين، وينسبها إلى نفسه. سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. (والله أعلم بالصواب)

كلام خير وبركة:

لمّا حمى وطيس الحرب، أخذ النبى ﷺ قبضة من التراب، فرمى بها إلى المشركين، فما من المشركين من أحد إلا وأصاب عينيه بإذن الله تعالى، ثم انهزموا، ليعلم المؤمنون أن الفتح ليس بفضل قوتهم وإنجازاتهم، إنما بنصر الله وتأييده، ومن هنا وجب عليهم أن يمتنعوا عن المداخلات فى شيء منها. (موضح القرآن)

{ذٰلِكُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ مُوْهِنُ كَيْدَ الْكَافِرِيْنَ}...

أراد بلفظ (ذلكم) النعمة العظيمة التى أنعم بها عليهم.

وفى البحر المحيط: «إشارة إلى البلاء الحسن».

وقال: «يعنى الغرض إبلاء المؤمنين، وتوهين كيد الكافرين». (البحر المحيط)

كيف يوهن الله تعالى الكفار؟ لاحظوا العبارات التالية:

1- والمعنى أن الله عزوجل يلقى فى قلوبهم الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا، والكيد المكر. (القرطبى)

2- توهين الله تعالى كيدهم يكون بأشياء بإطلاع المؤمنين على عوراتهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم. (التفسير الكبير)

نكتة مهمة:

أشار إلى أن الكفار مهما بلغت قوتهم ومهما قَوِىَ كيدُهم، فإن الله ينقضهما.

قال الشيخ شبير أحمد العثمانى فى تفسيره «التفسير العثمانى»:

«لقد نقض الله تعالى جميع ما دبّر مشركوا مكة من كيد وتدبير سيء يوم بدر، ويفعل مثل ذلك كلما دبّر المشركون كيداً ضد المؤمنين». (التفسير العثمانى)

وقال العلامة أحمد على اللاهورى:

«لقد قرّر الله تعالى أن توطأ قوة الأعداء تحت الأقدام». (حاشية اللاهورى رحمه الله)

وبالتأمل فى الآيتين الكريمتين توصلنا إلى أن المؤمنين إذا توكلوا على الله، وقاموا بمواجهة أعداء الإسلام طلباً لرضاه سبحانه، فإن نصر الله ينزل فى ساحة القتال، ويكرم المؤمنين بالنصر والفتح، ويدمّر قوة الكافرين وكيدهم. ومن هنا عرفنا أنه ليس من مهمة المؤمنين أن يغتمّوا على كيد الكافرين، ويَرعَدوا بسبب أعدادهم الكبيرة، ويقعدوا عن قتالهم، بل عليهم أن ينزلوا فى ساحة القتال متوكلين على الله، ويؤمنوا بقوله تعالى: {ذٰلِكُمْ وَاَنَّ اللّٰهَ مُوْهِنُ كَيْدَ الْكَافِرِيْنَ}.

لذلك أرجو من أولئك المفكرين الذين يُخوّفون المؤمنين من تقدّم المشركين فى شتى الميادين وقوتهم، أن يتأمّلوا فى هذه الآية الكريمة. (والله أعلم بالصواب)

دروس وعبر:

1- لا يتحقق للمؤمنين شىء من الفتح والظفر إلا بنصر الله وتأييده.

2- لا يجاهد المؤمنون إلا بعد توكلهم على الله، وبنصره يفوزون، لذلک يجب على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويخرجوا للجهاد فى سبيله.

3- يجب على المجاهدين أن يحذروا من العُجُب والفخر والأنانيۀ إذا تحقق النصر لهم.

4- يجب على المؤمنين أن يواجهوا الكفار ليُبليهم اللهُ بهم، ويُنعم عليهم، وليُوهن كيد الكافرين ويُضعف شوكتهم.

5- يحب الله تعالى عباده المؤمنين لدرجۀ أنه يقوم بالأعمال بنفسه ثم يثيبهم عليها، أو يستعملهم ثم ينسبها إلى نفسه. (والله أعلم بالصواب)

المرجع:

لاستيعاب معنى قولنا: (يقوم بالأعمال بنفسه ثم يثيبهم عليها) ارجع إلى ما ذكره صاحب (تفسير بيان القرآن). ولاستيعاب معنى قولنا: (يستعملهم ثم ينسبها إلى نفسه) ارجع إلى ما ذكره صاحب (تفسير الفرقان) تحت هذه الآيۀ.

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 19}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنْ تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ وإِنْ تَنْتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وإِنْ تَعُوْدُواْ نَعُدْ، وَلَنْ تُغْنِىَ عَنْكُمْ فِئَتُكَمْ شَيْئًا وَّ لَوْ كَثُرَتْ وَاَنَّ اللهَ مَعَ الْمُوْمِنِيْنَ}.

ملخص معانى الآيۀ:

لقد تبدّد فخر المشركين وتفنّدت حساباتهم الخاطئۀ بعد بدر، كانوا يطلبون الفصل من الله بينهم وبين المؤمنين زعماً منهم أنهم على الحق، فقد حكم الله تعالى بينهم يوم بدر، ونصر من كان على الحق. فليس الآن أمام المشركين إلا أن ينتهوا عن كفرهم وشركهم ويدخلوا فى الإسلام، ويفوزوا بالخير والسعادۀ، فإن لم ينتهوا عمّا هم عليه، فإن الله سيعود لنصر المؤمنين، ويغلبهم عليهم، ولن تُغنى عن المشركين فئتهم العظيمۀ، لأن الله مع المؤمنين، وهذا أصل لا يتغير.

سبب نزول الآيۀ:

قيل إن الخطاب فى الآيۀ للمؤمنين، والأصح أن الخطاب فيها للمشركين.
كما قال القرطبى: والصحيح أنه خطاب للكفار. (القرطبى)
القول الأول وهو قول الحسن ومجاهد والسدى أنه خطاب للكفار. (التفسير الكبير).
1- فإنهم لمّا نفروا إلى نصرۀ العير تعلقوا بأستار الكعبۀ وقالوا اللهم انصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدينين. (القرطبى)
(أشار فى الآيۀ إلى أنه قَبِلَ دعاءكم، ونصر أهدى الطائفتين وأفضل الدينين).
2- وروى أنه (أى أبو جهل) قال: اللهم أيّنا كان أقطع للرحم وأفجر فأهلكه الغداۀ. (التفسير الكبير)

قال الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله:
لقد أكثر الله تعالى من ذكر مقولۀ المشركين «متى هذا الفتح» فى السور المكيۀ، وهنا صرّح بأن هذا الفتح قد جاء، فإن انتهيتم عن جحودكم وإنكاركم (فبها) وإن عُدْتُم (إلى القتال) عُدنا (إلى النصر). (موضح القرآن)

لقد شاهدتم الحجۀ:

من السهل توجيه دعوۀ الإسلام إلى الكفار بعد الانتصار عليهم فى القتال، لأنهم إن كانوا يزعمون أنهم على الحق فإن زعمهم قد تلاشى الآن، وإن كانوا يريدون مشاهدۀ نصر الله للإسلام فقد شهدوه. قال العلامۀ اللاهورى:

قولوا للكفار: إن أردتم مشاهدة نصر الله تعالى للمسلمين فقد رأيتموه، وإن عصيتم وكفرتم دُحرتم، ولن تُغنى عنكم قوتكم مقابل قوة الله، وأن الله مع المؤمنين. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

وقال الشيخ شبير أحمد العثمانى رحمه الله:

«الخطاب مُوَجَّهٌ إلى مشركى مكة، كانوا يقولون للنبى ﷺ: «متى هذا الفتح إن كنتم صدقين» (والفتح أى الحُكم بيننا وبينكم) فالحكم الكامل يأتى يوم القيامة، لكنكم رأيتم اليوم ببدر جانباً منه، أن الله كيف عاقبكم بيد المسلمين الضعفاء على غير العادة، فإن انتهيتم عن كفركم وشرككم، ففيه نفعكم فى الدنيا والآخرة، وإن عُدتم إلى القتال، عُدنا إلى نصر المؤمنين، فيصيبكم عار وذلة، وبما أن الله مع المؤمنين، فإن فئتكم لن تنفعكم مهما بلغت فى العدد والعُدّة. (التفسير العثمانى)

إن الله مع المؤمنين:

أشار الله تعالى فى نهاية الآية الكريمة إلى أصل لا يتغير، فقد قال: {وأنَّ اللهَ مع المُؤْمِنِين}.

قال القرطبى: «أى من كان الله فى نصره لم تغلبه فئة وإن كثرت». (القرطبى)

نزلت هذه الآيات بعد غزوة بدر، وفيها بيان لما يصير إليه المستقبل، رغم احتفاظ المشركين بجزء كبير من قوتهم آنذاک، حيث أبدوها يوم أُحد وحُنين وخندق، وكان المسلمون ضعفاء، وفى هذه الظروف دعاهم إلى الإسلام وأنذرهم بالهلاک إن عادوا إلى القتال. لقد تعاقبت على المسلمين مراحل عدة شهدت الصعود والهبوط، وفى آخر المطاف كان المسلمون هم المنتصرين، شهد ذلک العالم كله، كما بسطوا حكمهم على جزيرة العرب برُمّتها، وزال الشرک والمشركون. فبربط هذه الآية بغزوة بدر عرفنا أنه ما من وقت يحيى فيه المسلمون فريضة الجهاد، وعملوا مثلما عمل المسلمون يوم بدر، إلا تحقق لهم ما تحقق للبدريين من نصر وتأييد. (والله أعلم بالصواب)

دروس وعبر:

1- إن كان المسلمون فى حالة الضعف، اختلط أمرهم على المشركين، وظنّوا أنهم على الحق، وأن المسلمين على الباطل، لذلک وجب دحر قوتهم بالجهاد، حتى يُصلحوا خطأهم، وينتهوا عن كفرهم وضلالهم.

2- فى الجهاد يكرم الله تعالى المسلمين بمعيته الخاصة التى ترافق نصره وتأييده، فما من جمع من المجاهدين آمنوا بمعية الله تعالى إلا وأحسّوا بالقوة الغريبة والبركة والنصر.

إن الله معنا ... إن معى ربى ... الله معنا

فهذا درس مهم ونافع جدا. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 20، 21}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ اَطِيْعُواْ اللهَ ورسُوْلَهُ ولَا تَولَّوْا عَنْهُ واَنْتُمْ تَسْمَعُوْنَ. ولا تَكُوْنُواْ كَالَّذِيْنَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُوْنَ}.

ملخص معانى الآيتين:

طاعة الله ورسوله واجبة على المؤمنين، فلا يتولوا عن رسوله كلما سمعوه يأمرهم بالقتال، (بل عليهم أن يُذعنوا لأمر الجهاد وما يتعلق به من أحكام) ولا يكونوا مثل المشركين والمنافقين واليهود الذين قالوا سمعنا، وهم لا يسمعون، أى سماع قبول وطاعة.

ارتباط الآية بما سبق:

يمكن ربط الآية بما سبقت من الآيات بعدة اعتبارات:

1- فى الآية السابقة قال الله تعالى: {واَنَّ اللهَ مَعَ المُوْمِنِيْنَ} وهنا أشار إلى أن بمجرد ادّعاء الإيمان لا يتحقق النصر والمعية الإلهية ما لم يطيعوا الله ورسوله، حتى إن الرسول إذا أمرهم بالجهاد فلينفروا، ولا يكونوا مثل الكفار والمنافقين الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون سماع قبول.

2- فى الآية السابقة أشار الله تعالى إلى عاقبة الكفار السيئة، وأن لهم وصفا لا يفارقونه، وهو أنهم يعصون الله ورسوله، وهنا أراد التأكيد للمؤمنين أنهم إن أرادوا الابتعاد عن ملاحقة الذُل والخزى وغلبة غيرهم عليهم فليطيعوا الله ورسوله، ولا يتبعوا سُبل المشركين.

3- فى الآيات السابقة أشار إلى أن المؤمنين لمّا دعوا ربهم للنصر، فإنه سمع دعوتهم فأجابها، كما قال: {اِذْ تَسْتَغِيْثُوْنَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} فعليهم الآن أن يسمعوا أوامره، ويُذعنوا لها.

معارف الجهاد :

قال الإمام الرازى رحمه الله: قال الله تعالى : {ولَا تَولَّوْا عَنْهُ واَنْتُمْ تَسْمَعُوْنَ} فما المراد من السمع؟

ثم أجاب عنه وقال:

«إن الكلام من أول السورة إلى هنا لما كان واقعا فى الجهاد علم أن المراد : وأنتم تسمعون دعاءه إلى الجهاد».

ثم قال بعد قليل: فمعنى الآية اَطِيْعُواْ اللهَ ورَسُوْلَهُ فى الإجابة إلى الجهاد، وفى الإجابة إلى ترك المال إذا أمره الله بتركه. (التفسير الكبير)

2- وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ، أى فى الطاعة، والضمير عائد إلى الجهاد.

كما قال أهل العلم:

«الضمير للجهاد، أو الأمر الذى دل عليه الطاعة» (تفسير البيضاوى).

«وقيل الضمير للجهاد» (روح المعانى، والتفسير الماجدى)

3- قال العلامة اللاهورى فى تفسير الآيتين:

تقيّدوا بأوامر الله تعالى فى ساحة القتال، وتأسَّوا بأسوة الرسول ؛ فالإقرار بالطاعة إن لم يرافقه العمل، لا فائدة منه. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

4- قال الإمام الرازى:

وَلا تَوَلَّوْاْ لأن التولّى إنما يصح فى حق الرسول بأن يعرضوا عنه وعن قبول قوله وعن معونته فى الجهاد. (التفسير الكبير)

وقال أبو حيّان رحمه الله:

ولما كانت الآية قبلها مسوقة فى أمر الجهاد، قيل: معنى أطيعوه فيما يدعوكم إليه من الجهاد. (البحر المحيط)

الإحالة إلى مصدرين بشأن الربط:

1- فى الآية السابقة {بأنهم شاقوا الله ...} الخ والآية {إن تستفتحوا} ذمَّ الكفار الذين يعصون الله ورسوله، لذلك أمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله بقوله {أطيعوا...} ونهى عن معصيتهما بقوله {وَ لا تَوَلَّواْ}. (بيان القرآن)

2- قبل ذلك قال {وأن الله مع المؤمنين} وهنا يرشد المؤمنين إلى كيفية تعاملهم مع الله ورسوله، التى تستدعى نصر الله وتأييده، فقال إن من واجب المؤمن الصادق أن يطيع ربه بكامل قواه البدنية والروحية، مهما حالت الظروف لتولّيه عن طاعة الله تعالى، لا يتولى عنه مادام سمع كلام الله ووعاه. (التفسير العثمانى)

{ولا تَكُونُواْ كَالَّذِيْنَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُوْنَ}

قال القرطبى رحمه الله:

«أى كاليهود أو المنافقين أو المشركين وهو من سماع الأذن ... الخ». (القرطبى)

وقال الإمام الرازى:

«والمعنى: ولا تكونوا كالذين يقولون بألسنتهم إنا قبلنا تكاليف الله تعالى ثم أنهم بقلوبهم لا يقبلونها. وهو صفة المنافقين». (التفسير الكبير)

أى يريد الله تعالى تربية المسلمين تربية قوية على السمع والطاعة، بأن يفتحوا آذانهم وقلوبهم لأوامر الله تعالى، ويَقبلوا بقلوبهم ما سمعوا بآذانهم، ويعملوا بها، فمن عمل ذلك كان من المؤمنين الصادقين، وسينصره الله، ويغلبه على أعدائه، فيفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

نكتۀ مهمۀ:

لا ينصر الله تعالى المؤمنين فى مقابلۀ الكفار إلا لأنهم يطيعون الله ورسوله، ومن هنا كان من واجب المؤمنين أن يحافظوا على وصفهم هذا، لأنهم إن فعلوا مثل الكفار واليهود بأن سمعوا بآذانهم ولم تُذعن له قلوبهم، لا يستحقون نصر الله، مثل الكفار. (والله أعلم بالصواب)

نكتۀ مهمۀ ثانيۀ:

تولى اليهود عن الجهاد لما أخبرهم موسى عليه السلام عن أمر الله تعالى به، ومثلهم تولى المنافقون عن الجهاد، لذلک يُرشد المؤمنين هنا إلى أن لا يفعلوا مثلهم، إذ ذلک لا يليق بالمؤمن. (والله أعلم بالصواب)

دروس وعبر:

طاعۀ الله تعالى ورسوله واجبۀ على المسلمين فى الحالات كلها، كما يشير إليها عموم الآيۀ، والله سبحانه يُنزل نصره الخاص على المؤمنين فى ساحۀ القتال، فعليهم أن ينقادوا لأمر الجهاد كلما سمعوا نداءه، ويتمسكوا بوظيفۀ السمع والطاعۀ أثناء القتال، بأن يسمعوا كثيرا ويعملوا مثله. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 22، 23}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِيْنَ لا يَعْقِلُوْنَ. وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيْهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ . وَلَوْ اَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُمْ مُّعْرِضُوْنَ}.

ملخص معانی الآيتين:

أشار فيهما إلى أولئک الناس الذين لا يسمعون الحق ولا ينطقون به، ولا يسعون إلى فهمه بقلوبهم وأذهانهم، فقال إنهم من شرّ الدواب، وأنهم لا يستطيعون قبول الحق لأعمالهم القبيحة، فلو أسمعهم الله تعالى الحق بطريق أو بآخر لم يُقبلوا عليه، بل تولوا عنه ولم يلتفتوا إليه.

مصداق الآيتين:

الآيتان باعتبار معناهما ومفهومهما تعمّان جميع البشرية، لكن أهل العلم أشاروا إلى أن أول من صدقت عليهم الآيتان هم نفر من بنی عبد الدار من قريش، فقد روى البخاری رحمه الله وغيره عن عبد الله بن عباس رضی الله عنهما قال: إن هذه الآية نزلت فی نفر من بنی عبد الدار، من قريش، كانوا يقولون: نحن صم بكم عمی عما جاء به محمد، وتوجهوا مع أبی جهل لقتال النبی ° وأصحابه ببدر، فقتلوا جميعا، ولم يؤمن منهم إلا مصعب بن عمير وسويبط بن حرملة. (قرة العينين)

شرّ الدواب:

قال اللاهوری رحمه الله:

«ليس من الإنسانية فی شیء من يسمع ويعی ثم لا يعمل، إنما هو من الدواب، بل هو أسوأ منها، لأن من الدواب ما تطيع بشكل أو بآخر، لكن هؤلاء المعاندين صم بكم، لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم، لكنهم بسبب أعمالهم الرذيلة هبطوا فی مغارة الذلة والهوان بحيث لو أسمعهم لتولوا مدبرين». (حاشية اللاهوری رحمه الله)

الوعيد الشديد على ترک الجهاد:

فی الآيتين المذكورتين أشار الله تعالى إلى الوعيد الشديد لمن ترک الجهاد، وأكّد على لزوم طاعته وطاعة رسوله. ولا شک أن الحكم فی الآيتين يدل على عموم الطاعة، لكن فيهما تأكيد على الجهاد، كما سبقت الإشارة إلى المراجع، وفيها أن النبی ° إذا دعاكم للجهاد فأطيعوه، ولا تولوا عنه مثل المنافقين والكافرين. ففی هذه الآيات يُشدّد الله تعالى على أن من يُعرض عن أوامره وأوامر رسوله، أو يتهاون فيها، ولا يقبلها عناداً ومكابرة، فإن الله سبحانه وتعالى قد يسلب منه التوفيق لقبول

الحق، فيصير أسوأ عند الله من الدواب التى لا تسمع ولا تتكلم، ثم يختم الله على قلبه فلا يعى الحق، (والعياذ بالله). وهذه المرتبة الخطيرة من الكفر لا تُسلط على أحد ما لم يكن متعوّداً للإعراض والعصيان. فيا أيها الإخوة المؤمنون! اسمعوا وأطيعوا ولا تعصوا، ولا تتهاونوا فى الجهاد ولا تُعاندوا، فإن التهاون والمعاندة من أساسيات المحرومية.

وقد أشار الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله إلى نكتة مهمة، فقال:

«إن قلوب العباد بيد الرحمن، ولا يختم على قلب ما لم يتهاون، فإن تهاون أو عاند أو خالف الحق، ختم على قلبه عقابا له». (موضح القرآن)

ملاحظة مهمة:

فى الآيتين إشارة إلى أن الكفار الذين يلقون مصرعهم بيد المجاهدين أثناء القتال، هم شر الدوّاب عند الله، وإلا لما أعرضوا عن الحق، وما حضروا ساحة القتال لإزالته، فكما أن أحداً لا يغتم بقتل الدواب الضارّة، فكيف يغتم على قتل هؤلاء الذين هم شر الدواب؟ إذ هم يشكّلون خطرا للبشرية، وهم بمثابة السرطان الذى يجب بتره. (والله أعلم بالصواب)

أقوال أخرى:

لقد سبقت رواية بشأن مصداق الآيتين، وهناك من المفسرين من يرى المنافقين مصداقهما، وأهل الكتاب عند البعض الآخر، وعلى كلٍ فمفهومهما عام يشمل كل من تحلّى بتلك الصفات الذميمة.

«وظاهر هذه الأخبار العموم» (البحر المحيط).

موجز تفسير الآيات الأربع:

فيما يلى تفسير موجز للآيات الأربع (20 إلى 23) من سورة الأنفال:

قال الله تعالى: {وَاَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ} فيها إشارة إلى معيّة الله للمؤمنين، لكن مجرد الإيمان لا يكفى لمعيّة الله تعالى، بل هى مشروطة بشرطين:

الأول: {اَطِيْعُواْ اللهَ ورَسُوْلَهُ} والثانى: {ولا تَوَلَّوْا عَنْهُ واَنْتُمْ تَسْمَعُوْنَ}. والواقع إن المسلمين طالما تمسكوا بهما كان الله معهم، ومكّنهم فى الأرض، أخضرها ويابسها. ثم أراد توكيد المضمون المذكور بقوله: {إنَّ شَرَّ الدَّوَآب عِنْدَ الله الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِيْنَ لا يَعْقِلُوْنَ. وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيْهِمْ خَيْراً لَاَسْمَعَهُمْ . وَلَوْ اَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُمْ مُّعْرِضُوْنَ}. أى لا تصيروا مثل أولئك المنافقين الذين قالوا سمعنا، وهم لا يسمعون سمع قبول وطاعة، فقد أُنتُزعت منهم قدرة السمع والطاعة، مثل الدواب، وهو مستقبح عند كل من يمشى على الأرض، فهم صم عن الحق، وبكم عن النطق به، ولا عقل لديهم، الذى كرّم الله بنى آدم به، ولم ينزع الله تعالى منهم تلك القدرة إلا لضلالهم عند الله فى الأزل، لذلك يتولون عن الحق» (التفسير الحقانى).

درس وعبرۂ:

الجهاد مما أمر الله تعالى به، ومما أمر به النبى ؑ، كما نزلت الآيات المذكورۂ بأمر الجهاد، وقبلها سبق بيان بالجهاد، وسوف يعقبها بيان بالجهاد، ومفهومها الأغلب أيضاً جهاد، فكل من يدّعى الإسلام، ثم لا يتحدث عن الجهاد، ولا يستفسر عنه، ولا يسعى إلى فهمه، عليه أن يعتبر بهذه الآيات، ويتأمّل فيها.

اللهم إنّا نعوذ بک من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق.

(آمين يا رب العالمين)

***

{سورة الأنفال مدنية، الآية :24}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُواْ اسْتَجِيْبُواْ لله وللرَّسُوْلِ اذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ وَاعْلَمُواْ اَنَّ اللهَ يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَ اَنَّهُ اِلَيْهِ تُحْشَرُوْنَ}.

ملخص معانی الآیة:

لا یأمر الله ورسوله بشیء إلا وللمؤمنین فیه حیاة، کأمرهما بالجهاد، فحیاة المؤمنین الحقیقیة فی الجهاد، لذلک لا تتهاونوا فی الإذعان لأمرهما، إذ قد یسبق قضاء الله وقدره، فتحرموا عن العمل به، والعاملون یجدون جزاءهم کاملا، لأن الجمیع یحضرون عند الله یوم القیامة.

تأکید المضمون السابق:

فی الآیات السابقة أمر الله تعالی بطاعته وطاعة رسوله، وهنا أکّد علیها، وأرشد إلی أن جمیعکم حریصون علی الحیاة، والحیاة الحقیقیة مقدّرة فی طاعة الله ورسوله، فمثلاً أمر الله تعالی بالجهاد، وفیه حیاة عظیمة للمؤمنین، لذلک لا تتهاونوا فی العمل به، فقد یسبق القضاء والقدر، وتُمنعون منه، أما تضحیتکم بالروح والغالی فی الجهاد فلا تضیع، لأن جمیع الناس یموتون ثم یُحشرون إلی الله، فیجازیهم علی أعمالهم.

أیّ عمل یجلب الحیاة؟

قال الله تعالی: {اسْتَجِيْبُواْ لِله وللرَّسُوْلِ اذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ}.
أجمع المفسرون علی أن (استجیبوا) بمعنی (أجیبوا) أی أطیعوا.
«والاستجابة الإجابة» (القرطبی).
«قال أبو عبید والزجاج : استجیبوا معناه أجیبوا» (التفسیر الکبیر).
وما المراد من قوله : { لِمَا يُحْيِيْكُمْ}؟ فیه أقوال:
1- قال السدی: هو الإیمان والإسلام.
2- وقال مجاهد والجمهور: المعنی استجیبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهی. (القرطبی)
3- قال قتادة: یعنی القرآن. (التفسیر الکبیر)
4- لکل حق وصواب. (التفسیر الکبیر)

وذکر أبو حیان فی تفسیره «البحر المحیط» أقوالا أخری، وقال الرازی بعدما جمعها: «قال الأکثرون: لِمَا يُحْيِيْكُم هو الجهاد». (التفسیر الکبیر)

وقال القرطبى: «وقيل المراد بقوله لما يحييكم الجهاد، فإنه سبب الحياة فى الظاهر، لأن العدو إذا لم يغز غزا، وفى غزوه الموت، والموت فى الجهاد الحياة الأبدية، قال الله عزوجل: {ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُواْ فى سَبِيْلِ الله اَمْوَاتاً بَلْ اَحْيَاءٌ}. (آل عمران 169)». (القرطبى)

وقال صاحب التفسير الماجدى:

«فهنا أوضح أن الشيء الذى يستوجب الحياة الأبدية السرمدية هو الدين ونظامه، وهو المراد الخاص من الجهاد». (التفسير الماجدى)

وقال صاحب التفسير الحقانى:

«لا يدعوكم الله ورسوله إلى العبث أو المضرة، بل يدعوكم إلى ما فيه حياة لكم، وهو القرآن، إذ هو سبب الحياة الروحية، ويمكن أن يكون المراد منه الجهاد خاصا، لأنه تترتب عليه الشهادة، وهى سبب للحياة الأبدية، كما قال الله تعالى: {ولا تَقُوْلُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيْلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ ولَكِنْ لا تَشْعُرُوْنَ} ولأنهم سبب للنصر والظفر الذى يجلب المغانم، التى بها الحياة الأصلية، فهل للمقهورين المغلوبين حياة؟ إنما هى موت.

لم تحى إن عشت مع الذل ولم تسعد بالحياة ولا المماة

(التفسير الحقانى)

وكلام الحقانى تلخيص لما قاله الرازى:

«قال الأكثرون: لما يحييكم هو الجهاد ثم فى سبب تسمية الجهاد بالحياة وجوه، أحدها: هو وهن أحد العدوين حياة للعدو الثانى، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار. وثانيها أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهى توجب الحياة الدائمة قال تعالى: {ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ قُتِلُواْ فى سَبِيْلِ الله اَمْوَاتاً بَلْ اَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} وثالثها أن الجهاد قد يفضى إلى القتل، والقتل يوصل إلى الدار الآخرة، معدن الحياة، قال تعالى: {وَاِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الحَيَوَانُ} أى الحياة الدائمة. (التفسير الكبير)

انحلّت المشكلة:

بعض المسلمين يهربون من الجهاد، ولا يتركون أولادهم ليشاركوا فى الجهاد، وسبب ذلك هو الخوف من الموت، وهنا أكّد الله تعالى على أن الجهاد حياة وليس بموت.

وبذلك انحلّت المشكلة، إذ ما من شخص يؤمن بالله إلا ويؤمن بأن فى الجهاد حياة، ثم يجتهد لتحصيلها. (والله أعلم بالصواب)

معنى الحيلولة:

قال الله تعالى: {اَنَّ اللهَ يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرء وقَلْبه}.

اختلف المفسرون فى تحديد معنى الآية على عدة أقوال، نسرد بعضها فيما يلى:

1- إن الله تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بسبب الموت يعنى بذلك أن تبادروا فى الاستجابة فيما ألزمكم من الجهاد وغيره قبل أن يأتيكم الموت. (التفسير الكبير)

2- أن المراد أنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريده بقلبه. (التفسير الكبير)

3- أن المؤمنين كانوا خائفين من القتال يوم بدر، فكأنه قيل لهم: سارعوا إلى الطاعة ولا تمنعوا عنها بسبب ما تجدون فى قلوبكم من الضعف والجبن، فإن الله تعالى يغيّر تلك الأحوال، فيبدل الضعف بالقوة، والجبن بالشجاعة؛ لأنه تعالى مقلب القلوب. (التفسير الكبير)

4- وقيل: {اَنَّ اللهَ يَحُوْلُ بَيْنَ الْمَرءِ وقَلْبِه} لبيان القُرب، بمعنى أن الله أقرب إلى العبد من قلبه، كما قال تعالى: {ونَحْنُ أقْرَبُ إلَيْه مِنْ حَبْلِ الوَرِيْد} (ق 16) لذلک أطيعوا الله بكل صدق وإخلاص، ولا تغدروا معه ولا تخونوه، إذ هو عالم بأحوال قلوبكم وأسرارها أكثر من أنفسكم، فأنتم جميعا تعودون إليه، فتُكشف الأسرار والرموز كلها. (التفسير العثمانى)

5- الحيلولة بين المرء وقلبه بطريقين: الأول: أن يمنع الكفر والمعصية من قلب المؤمن بفضل إيمانه وطاعته. والثانى: أن يمنع الإيمان والطاعة من قلب الكافر بسبب كفره ومعصيته. وفيها إشارة إلى علاقة ورابطة تحمل قوة إرادية عالية فوق الأسباب العادية المادية والطبيعية الظاهرة. (التفسير الماجدى)

قال العلامة أشرف على التهانوى بعد الإشارة إلى هذه العلاقة:

«دلت الآية على جدوى المداومة على الطاعة، وعلى مضرّة المداومة على المعصية» (بيان القرآن).

6- أن الله يحول بين المرء وقلبه فلا يجد قوة فى نيته وإرادته، لذلک إن تغافلتم عن أحكام الله وأوامره، فإن أول عقوبة تلقونها هى ضعف إراداتكم وهممكم. (حاشية اللاهورى)

دروس وعبر:

1- فى الجهاد حياة، وفى التخلى عنه موت.

2- يجب المبادرة إلى العمل بحكم الجهاد.

3- لا يتأخر فى مباشرة الجهاد عند تكوّن العزم عليه، وتهيئ القلب للتضحية بالروح والغالى، لأن التأخير يورث ضعف الهمّة، وقد يموت قبل أن يجاهد، فيكون محروما عن الجهاد وبركاته.

4- عليه أن لا ينسى اليوم الآخر والمثول بين يدى ربه فيه، فإن ذلک يُسهّل له التضحية لله ورسوله.

5- عليه أن يهتم بهذا الدعاء المأثور عن النبى ﷺ وذكره المفسرون تحت الآية الكريمة : اللهم يا مقلب القلوب ثبّت قلبى على دينک.

(آمين يا رب العالمين)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 25}

بسم الله الرحمن الرحيم

{واتَّقُواْ فِتْنَةً لا تُصِيْبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُواْ مِنْكُمْ خَآصَّةً. وَاعْلَمُواْ اَنَّ اللهَ شَدِيْدُ الْعِقَابِ}.

ملخص معانى الآية:

حذّر فيها عن الفتنة التى تعم الجميع، الظالم ومن لم يمنعه من الظلم، وأخبرهم أن عذاب الله شديد.

ربط الآيات:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى حول ربط الآية الكريمة بما سبقتها من الآيات: أمر بطاعة الله ورسوله فى الآيات السابقة، ونهاهم عن التكاسل والتهاون فيها، مخافة أن يؤدّى ذلك إلى الحرمان وسلب التوفيق وعدم الرغبة، وفى هذه الآية الكريمة أشار إلى أن الأتقياء الصالحين إن تهاونوا فى الطاعة وتكاسلوا، فإن العامة يتخلون عنها بالكلّية، فتمتلئ الأرض بالفساد والمعصية. فمثلاً إذا تهاون الشجعان فى الجهاد فى سبيل الله، فإن الجبناء يقعدون عنه بالكلية، فإن هاجم الكفار على بلاد المسلمين، وترتبت عليه الهزيمة فإن الشجعان البواسل لا يقدرون على دفعه وحماية الناس، ومن ثم ينهزم الجميع ويموتون.

هنا نراجع ألفاظ الشاه عبد القادر رحمه الله، الذى قال: إن التهاون فى الطاعة يؤدّى إلى نفاد الرغبة، (أى يورث الضعف)، فيشعرون بالصعوبة كل لحظة، (أى كلما انقضى وقت ازدادت صعوباتهم). ثم قال: إنْ تهاون الأتقياء الصالحون فى الطاعة، فإن العامة يتركونها ويقعدون عنها، وتتحول إلى عادة يرثها جيل عن جيل، فلا يسلم أحد من وبالها، مثاله: إذا تكاسل البواسل والشجعان عن القتال فى سبيل الله، فإن الكسالى يتولون عنه، فلو انهزموا فإن الشجعان لا يقدرون على الحماية والمناعة. (موضح القرآن)

وملخص الربط بين الآيات أن فى الآيات السابقة أمر بالعمل بنفسه، وهنا أمر بدعوة الغير إلى العمل.

لأن معصية الله ورسوله إن عمّت فإن أحداً لا يسلم من وبالها وعذابها. (والله أعلم بالصواب)

معنى الفتنة:

أما الفتنة التى وردت فى الآية الكريمة فإن بعض أهل العلم أرادوا بها : العذاب، كما فى تفسير المدارك، والبعض أراد بها المعصية، كما قال العلامة الآلوسى رحمه الله تعالى:

«والمراد بالفتنة الذنب، وفسر بنحو إقرار المنكر والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد حسبما يقتضيه المعنى». (روح المعانى)

تعمّق المعصية فى المجتمع:

أراد أكثر المفسرين بالفتنة فى الآية : تعمق منكر عظيم بين المسلمين، بحيث يعم الجميع، ولا يسعى أحد إلى منعه، كما قال صاحب الكشاف:

«قيل: هو إقرار المنكر بين أظهرهم» (الكشاف).

قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله العذاب. (القرطبى)

تفسير موجز للآيتين:

فيما يلى لاحظوا تفسيرا مختصراً للآيتين 24 و25 من سورة الأنفال:

إن الحياة فى الجهاد، وانطلاقا من الأصل القائل: «التنازع للبقاء» فإن كل شىء فى العالم يناضل للمحافظة على وجوده وحياته، لكن الحياة لا تُمنح إلا لمن كان الأمثل والأصلح، لذلك أمر بالطاعة والإذعان كلّما أمر الله ورسوله بالجهاد، إذ هو منبع الحياة الاجتماعية والشخصية، ويمنح حياة أبدية، لذلك لمّا قيل للنبى ٍ: أى الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله. وقال فى موضع: لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها. وأخرج الإمام الترمذى فى جامعه قال: من رابط ليلة كانت له كألف ليلة صيامها وقيامها. أما إن لم يُحدّث نفسه بالجهاد ولم يرغب فيه قط، فإنه يعانى من تلك المصائب التى أشار إليها. (أ) ما من كلمة نطق بها النبى ٍ إلا وفى طياتها عشرات رموز الحياة وأسرارها، ويترتب على مخالفتها ضعف الهمة، وعدم الثبات والقوة، بحيث لا يعزم على عمل إلا ويفسخه، وينطبق عليه قوله تعالى: {لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}.

(بـ) للأعمال الإنسانية حالات مختلفة، فمنها ما تكون آثارها محدودة على صاحبها، ولا تتجاوز إلى غيره، ولا يؤخذ بها إلا فاعلها، ومنها ما تتعدى أثرها إلى غير صاحبها، فُيبتلى بها قومه، ويعانون مما يترتب عليها من الآلام والمصائب، وبناء عليها فإن ما من قوم أنكر الجهاد إلا وابتُلى بويلات ومصائب لا تقتصر على المنكرين، بل وتتعدى إلى غيرهم، فيسلّط عليهم أعدائهم فيسترقونهم.

ففى الحديث: إذا ضن الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعين، واتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد فى سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه حتى يراجعوا.

لذلك نُسب النفاق إلى من لم يُحدّث نفسه بالجهاد، فى الحديث: من مات ولم يغزو ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق. (تفسير القرآن)

أراد بالفتنة ترک الجهاد:

قال صاحب أنوار البيان:

قیل: أراد بالفتنۀ البلیۀ التی تصیب القوم جمیعا بسبب تخلفهم عن الجهاد، فلا ینجو منها أحد، إذ لا یمکن المحافظۀ علی الدین وشعائره وعلی أرواح عموم المسلمین إلا بإقامۀ الجهاد، وهو فرض علی الکفایۀ علی المسلمین فی الحالات العامۀ، حتی ولو لم یتعرضوا لهجمات الکفار، أما إن تعرضوا لهجمات الکفار فلا یجوز لأحد أن یتخلف عن الجهاد، ولا یتشجع الأعداء علی التقدم إلی دیار المسلمین إلا إذا لم یهتم المسلمون بالجهاد، وعند زحفهم لبلاد المسلمین یتعرض الرجال والنساء والصبیان للخطر، فیضطرون إلی التفکر حول سلامتهم. ومن هنا یجب علی المسلمین أن یواصلوا الجهاد، ولا یتخلوا عنه، وإلا لتعرض العوام والخواص للویلات، رُوی عن أبی بکر الصدیق رضی الله تعالی عنه أن النبی ﷺ قال: ما من قوم ترک الجهاد إلا وسلّط الله علیهم العذاب. (مجمع الزوائد ص 284 ج5 عن الطبرانی فی الأوسط) (تفسیر أنوار البیان).

وکذلک أراد صاحب التفسیر المظهری بالفتنۀ : ترک الجهاد، واستدل باللوم الذی ذُکر فی الآیات السابقۀ علی ترک الجهاد. (ملخص ما ورد فی معارف القرآن)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 26}

بسم الله الرحمن الرحيم

{واذْكُرواْ إذْ أنْتُم قَلِيْلٌ مُسْتَضعَفُونَ فِى الأرْضِ تَخَافُوْنَ اَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وايَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ورَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ}.

ملخص معانى الآية:

لا تتهاونوا فى الجهاد بسبب ضعفكم وقلة عددكم، فقد كنتم أقل عددا قبل الهجرة، بل بعدها أيضاً، ولم يكن لديكم العتاد، فكان أعداءكم يتمنون القضاء عليكم لقلة عددكم وعُدّتكم، كما كنتم تخشون من أن تتعرضوا للنيل والتنكيل على يد المشركين، فآواكم الله بالمدينة، وآخى بين المهاجرين والأنصار، ثم نصركم من عنده يوم بدر، واستأصل جذور الشرک والمشركين، فانتصرتم عليهم، وحويتم المغانم ومبالغ الفدية من الأسرى، وبالجملة فإنه أكرم عليكم بالحلال الطيب وبنعمه الكثيرة المتنوعة، لتشكروه عليها. (مفهوم ما ورد فى التفسير العثمانى)

تفسير الكلمات:

{فى الأرض} أى أرض مكة. {الناس} هم مشركوا قريش أو فارس والروم. {فآواكم} قال ابن عباس إلى الأنصار، السدى: إلى المدينة، والمعنى واحد. {وأيَّدكم} قواكم. {بنصره} أى بعونه، وقيل بالأنصار، وقيل بالملائكة يوم بدر. {ورزقكم من الطيبات} أى الغنائم. (مفهوم ما ورد فى التفسير العثمانى)

وفى تفسير الجلالين:

{أن يتخطفكم الناس} يأخذكم الكفار بسرعة. {يتخطفكم} تُؤخذون بيد الكفار، أو تُقتلون، أو يُسيطرون عليكم، كل ذلک شملته كلمة التَخَطُّف. (التفسير الماجدى)

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى:

{الطيبات} أى الطاهرة، وهى الغنائم. (موضح القرآن)

عبارة حلوة:

إن قلتم: لاشک أن ما أمر به الأمير من الجهاد فى سبيل الله يجب سمعه وطاعته، لكن ليس من المصلحة الجهاد الآن، نظراً إلى قلة عدد المسلمين وضعف إمكانياتهم المادية. قلنا: هذا العذر لا يُسمع، لأنكم إن تأملتم فى أحوال المسلمين بمكة عندما كانوا قليلين، والمشركون يحسبونهم ضعفاء، والمسلمون كانوا يخشون من أن يثبوا عليهم، فيقضوا عليهم، رغم كل ذلک آواهم الله تعالى، وأيّدهم بنصره، ورزقهم من الطيبات، كى لا يُعرضوا عن الجهاد لقلة العدد والعُدّة فيما تأتى من

الأيام، لذلک لا تعتمدوا على كثرة العدد وقلته للانتصار على العدو فی الجهاد، لأنكم كنتم تفتخرون بعددكم الكبير يوم حنين، كما قال الله تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُّدْبِرِيْنَ} (التوبة: 25). وانظروا إلى حياتكم بالمدينة، كان الجوع يترک أثره على بطن أبى هريرة، فقد كان يُغمى عليه، ثم هو أبو هريرة الذى ينظف أنفه بلفاع كسرى مستندا بظهره إلى الكعبة بمكة، وعدى بن حاتم رضى الله عنه يدوس بقدميه خزائن قيصر وكسرى. (تفسير الفرقان)

دروس وعبر:

من خلال تأملاتنا فی الآية المباركة استخلصنا درساً، وهو أن الواجب على المسلمين القيام بما أُمروا أداءً لواجب المسئولية، ويفوّضوا الأسباب والنتائج إلى الله تعالى، فالذين آمنوا بالرسول ﷺ بمكة، لم يعبأوا بالأسباب والنتائج، لأنهم إن تفكروا فيها لما آمنوا، حيث كان الكفر والظلام سائدا على الجهات كلها، ثم أُمروا بالهجرة، فلم يستفسروا عن الترتيبات الأمامية، وخرجوا من بيوتهم كما أمرهم الله، ثم أُمروا بالجهاد فی سبيله، فما اعتذروا لضعف الإمكانيات المادية والقوة الظاهرة، نزلوا فی ساحة القتال بما كانت معهم من السيوف المنكسرة والعصى والأحجار، فما الذى ترتب على توكلهم هذا؟ مكة التى عاشوا فيها مدة مع الخوف والرهب دخلوها فاتحين، ولمّا خرجوا بنيّة الهجرة قدّم إليهم أنصار المدينة ما كانوا يملكونه من الغالى والنفيس، فظنوا أنهم بين أهلهم وإخوانهم، ولم يشعروا بالغُربة، ولمّا لم يعتذروا لقلة إمكانياتهم المادية جعل المغانم الطاهرة الطيبة على أقدامهم. فيا أيها المسلمون! قبل البدء فی العمل لا تستفسروا عن الأشياء التى يمنحكم بعد مباشرة العمل، فسيروا على بركة الله وتوكلوا عليه، ولاحظوا جميع مشاهد الآية الكريمة. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 27}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُواْ لا تَخُوْنُوْا اللهَ والرَّسُولَ وتَخُوْنُوْا اَماناتِكم واَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ}.

ملخص معانی الآيۃ:

يجب على المؤمنين الوفاء بالأمانات وعدم الخيانۃ فيها، فلا تخونوا الله والرسول، ولا فی أداء مسئولياتكم، ولا تخونوا فيما بينكم وأنتم تعلمون أنها خيانۃ.

ربط الآيات:

1- ذكر فی الآيات السابقۃ أن الله فتح عليهم أبواب الرزق الطيب، وأعطاهم المغانم، وهنا أرشد إلى الحذر من الخيانۃ بأنواعها.

قال الإمام الرازی رحمه الله:

اعلم أنه تعالى لما ذكر أنه رزقهم من الطيبات، منعهم من الخيانۃ هنا.

2- فی الآيات السابقۃ ذكر ظروف المسلمين الأولى، ثم ذكر نِعمه عليهم، ترغيبا لهم فی طاعۃ الله والرسول، وفی هذه الآيۃ منع من الخيانۃ، إذ الخيانۃ تزيل مشاعر المودۃ والمحبۃ التی توجد فی قلوب المسلمين تجاه إخوانهم، وتتسبب فی تمزيق جمعهم. (معنى ما ورد فی التفسير الحقانی)

3- لا زال بصدد التأكيد على طاعۃ الله والرسول، وفی سياق ذلك ذكر النصر والفتوحات والمغانم، وهنا أشار إلى أنكم تستحقون النصر والفتح ما لم تحدث فيكم الخيانۃ، فإن خُنتم فی القيام بمسئولياتكم وأموالكم فلا تستحقون النصر من الله. (والله أعلم بالصواب)

تفسير حلو:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله:

من السرقۃ (أی الخيانۃ) اللقاء مع الكفار سراً حفاظاً على الأموال والأولاد، فأكثر المهاجرين بقی أهلهم بمكۃ. ومن الخيانۃ إخفاء المغنائم عند الأمير، وعدم إظهارها للمجاهدين. (موضح القرآن)

سبب النزول:

ما المراد من الخيانۃ فی الآيۃ؟ ذكر الإمام الرازی ستۃ أقوال، وبما أن فی كل قول منها درس مستقل للجهاد، لذلك نذكرها فيما يلی:

1- قال ابن عباس رضی الله عنهما: نزلت هذه الآيۃ فی أبی لبابۃ رضی الله عنه، كان قد أخبر بنی قريظۃ بالإشارۃ أن مصيركم القتل إن وافقتم على تحكيم سعد بن معاذ رضی الله عنه،

وذلک حرصا علی حیاۃ أهله وأولاده الذین کانوا یعیشیون بین بنی قریظۃ. (فالمراد من الخیانۃ إظهار الأسرار الحربیۃ والقتالیۃ)

2- قال السدی: کان بعض المسلمین یسمعون من النبی ﷺ ما یقول، ثم یذهبون إلی المشرکین، ویطلعونهم علیها، فنهاهم عنه. (فالمراد من الخیانۃ إظهار الأسرار القومیۃ والوطنیۃ)

3- وقال ابن زید: أراد بالخیانۃ النفاق، أی لا تصیروا مثل المنافقین الذین أظهروا الإیمان، وبطّنوا الکفر. (فالخیانۃ مترادفۃ للنفاق)

4- قال جابر بن عبد الله رضی الله عنه: لما خرج أبو سفیان من مکۃ عَلِمَ النبی ﷺ به، فأراد أن یهجم علیهم، فکتب منافق کتابا إلی أبی سفیان، وأخبره عن تحرکات النبی ﷺ. (فمعنی الخیانۃ التجسس لصالح الکفار)

5- قال الزهری والکلبی رحمهما الله: نزلت الآیۃ فی حاطب بن أبی بلتعۃ رضی الله عنه، الذی سعی إلی إطلاع المشرکین بمکۃ عن تحرکات المسلمین بالمدینۃ. (فمن الخیانۃ خدمۃ الکفار بنیۃ الحفاظ علی الأهل والأولاد).

6- قال القاضی رحمه الله: أراد بالخیانۃ: الخیانۃ فی الغنائم. (التفسیر الکبیر)

قال الإمام الرازی رحمه الله تعالی بعد ذکر هذه الأقوال:

وأما الوجوه المذکورۃ فی سبب نزول الآیۃ فهی داخلۃ فیها، لکن لا یجب قصر الآیۃ علیها، لأن العبرۃ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وهذا الذی نقلناه عن الرازی ذکره صاحب التفسیر الحقانی بتعبیره، فقال:

فی قوله تعالی {لا تخونوا الله} لم یذکر خیانۃ معینۃ ولا شخصا معینا، بل أراد الخیانات علی اختلاف أنواعها، سواء کانت فی الأموال أو الغنائم، أو الأعراض أو الأسرار، لکن بعض المفسرین حملوها علی خیانات البعض وأشاروا إلی وقائعهم، کما قال السدی: فیها إشارۃ إلی المنافقین وبعض أولئک الذین یختلطون مع المشرکین، کانوا یُطلعون المشرکین علی أخبار النبی ﷺ فیما تتعلق بالقتال... إلی آخره (التفسیر الحقانی)

تفسیر جامع:

من خیانۃ الله والرسول مخالفۃ أوامرهم، کمن أظهر إسلامه باللسان، وقام بأعمال المشرکین، أو یخون فی العمل الذی أمره النبی ﷺ به، أو أن یسرق من الغنیمۃ ونحو ذلک. علی کل حال، احذروا الخیانۃ فی الأمانات التی تفوض إلیکم من الله ورسوله، فدخل فیها حقوق الله وحقوق العباد.

ففی الحدیث أن بنی قریظۃ طلبوا من النبی ﷺ الصلح، وأن یفعل معهم ما فعل مع بنی النضیر، فقال النبی ﷺ: لا، بل احتکموا إلی سعد بن معاذ، وارضوا بحکمه، فطلبوا أبا لبابۃ إلیهم بعد الاستئذان من النبی ﷺ، وسألوه عن رأیه، هل نوافق علی تحکیم سعد أم لا؟ وکان أهل أبی لبابۃ وأمواله بین بنی قریظۃ، فکان ناصحا معهم، فأشار إلی حلقومه أی أن مصیرکم الذبح، لکن أبا لبابۃ تنبّه لعمله فیما بعد، فعاد إلی المدینۃ وشدّ نفسه بأسطوانۃ، ثم تعهد أن لا یأکل ولا یشرب حتی یموت أو یتوب الله علیه، فبقی علی تلک الحالۃ سبعۃ أو ثمانیۃ أیام، لم یذق طعاما، وأغمی علیه من الجوع، فنزلت

توبته، فقال لن أحُلَّ حبالى ما لم يحُلها النبى • بيده، فقدم النبى • وحلّ حباله بيديه... إلى آخر القصة. (وقد ادّعى ابن عبد البر أن القصة وقعت لمّا تخلف عن رسول الله • يوم تبوک. والله أعلم) (التفسير العثمانى).

معنى آخر للخيانة:

أخرج أبو الشيخ عن يزيد بن أبى حبيب رضى الله عنه أن المراد بها الإخلال بالسلاح فى المغازى. (روح المعانى)

معاذ الله من الخيانة:

ذكر الإمام القرطبى فى ثنايا تفسيره للآية الكريمة عن النسائى دعاء الرسول •:
اللهم إنى أعوذبک من الجوع فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة. (القرطبى)

دروس وعبر:

لا يتحقق النصر والظفر فى الجهاد إلا إذا قام كل واحد من المجاهدين بتعزيز صفة «الأمانة» فى قلبه، ويجتنب عن الخيانة على اختلاف أشكالها وأنواعها، يواظب على الفرائض، ويهتم بالسنن، ويطيع الأمير، ويحذر من أموال العامة، يقوم بالواجب الذى فُوّض إليه على أكمل وجهه، يحافظ على الأسرار الجماعية والعسكرية، لا يوالى الكفار والمنافقين، ولا يخدم الأعداء بأى شكل من الأشكال. إذ الأمانة تُعزّز مكانة الشخص، فيستحق نصر الله وتأييده، أما الخيانة فتجعله مهملا حقيرا لا يمكن الثقة به.

ومفهوم الحديث أن الأمانة تُرفع من القلوب عند قرب الساعة، فلا يسهل لهم المحافظة عليها، ونحن فى عهدنا هذا نشاهد آثارها واضحة، لذلک يجب أن نسأل الله التوفيق للأمانة، ونعوذ من الخيانة. (والله أعلم بالصواب)

نكتة مهمة:

أراد من الخيانة العموم، سواء كانت فى العمل بأحكام الإسلام وتبليغها، أو فى مصالح الأمة ومقاصدها، لكن الأمر الخاص الذى أراد الاهتمام به هو عدم مراسلة المشركين فى مكة الذين أعلنوا الحرب على الإسلام والمسلمين، حتى ولو كانت بنية المحافظة على الأهل والأموال. وكان المسلمون الذين كتبوا رسائل إلى أهلهم وذويهم بمكة قد صدرت منهم الإشارات إلى الحرب، فنبّههم عليها، وأكّد على أنها من ضمن الخيانات مع الله والرسول. وهنا نتوقف لنتأمل أن تلک المراسلة البسيطة إن كانت من ضمن الخيانات مع الله والرسول، فما بال أولئک الذين وقفوا حياتهم لتقديم الخدمات السياسية إلى أعداء الإسلام والمسلمين، وترتب عليها انهيار العديد من الحكومات الإسلامية منذ قرن ونصف. (ترجمان القرآن)

نکتة مهمة أخری:

إن الخیانة عادة قبیحة، شیء علی لسانه، وشیء فی قلبه، هذه الخصلة القبیحة تدمر الحیاة الاجتماعیة والشخصیة للفرد، وللأسف الشدید فإن الشیطان ینادیه من زاویة «الحکمة» و«المنطق»، فلا یُعدّ الیوم العاقل إلا من حافظ علی مصالحه الشخصیة فی الظروف کلها، سواء تضررت به عامة المسلمین أو جماعته. وکان صحابة رسول الله ؐ قد ضحَّوا بمصالحهم الشخصیة لمصلحة الإسلام والجهاد والجماعة، وکانت قلوبهم وجوارحهم تطابق لسانهم فیما یقولون ویتعهدون، فانهالت نِعَم الله تعالی علیهم، ومنهم من صدر منه بعض الأخطاء لمصلحة شخصیة، ولم تکن جماعة المسلمین أو عملیة الجهاد تتضرر بتصرفهم المذکور، لکنهم کانوا ممن یحبهم الله ورسوله، وبمثابة نموذج للأجیال القادمة، لذلک ورد النهی عنه بکل شدّة، وجاء تسمیته بالخیانة.

ومن هنا عرفنا أنه یجب علی المسلمین المحافظة علی «الأمانة» فی قضایاهم الشخصیة والاجتماعیة والجهادیة، ویبتعدوا عن الخیانة. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 28}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَاعْلَمُوْا اَنَّمَآ اَمْوَالُكُمْ وَاَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَّ اَنَّ اللهَ عِنْدَهُ اَجْرٌ عَظِيْمٌ}.

ملخص معانى الآية:

اعلموا أيها المسلمون! إن أموالكم وأولادكم فتنة، (فمنكم من يُرضى ربَّه بتفضيل الجهاد على المال والولد، ومنكم من يُفضّلهما على الجهاد ليُضيِّع آخرته) وأما الأجر الذى أعدّه الله لكم فهو عظيم.

ربط الآيات:

1- لا يخون أحد فى مال العامة إلا لأولاده، أو طمعا فى استكثار المال، فأراد الله تعالى التنبيه على أن للأمانة منزلةً عند الله، لا تبلغها الأولاد والأموال. (التفسير العثمانى)

2- حبّ المال والأولاد قد يتسبب فى الإخلال بالطاعات، لذلك أراد التنبيه على أن أولادكم وأموالكم فتنة لكم، ليَرَى من يُفضّل حبهما ومن يُفضّل حب الله عليهما، فلا ترجّحوها على الله. (بيان القرآن)

لا تزال الآيات تتناول موضوع الطاعة، والمقصود منها الجهاد على وجه الخصوص، كما سبق بيانه مع مراجعه الموثوقة، وحب المال والأولاد قد يعيق الجهاد، فمن ضحّى بهذا الحب وخرج للجهاد فى سبيل الله، فإن الله أعدَّ له أجراً عظيماً. (والله أعلم بالصواب)

للمال والأولاد نوعان:

معنى «الفتنة» الابتلاء والامتحان والوسيلة، وقد أودعهما الله تعالى فى المال والأولاد، فهما إما وسيلة للراحلة الأبدية، وإما وسيلة لأشد أصناف العذاب، فحب المال والأولاد فتنة للعبد، ليرى من يبالغ فى حبهما حتى ينسى أوامر الله ورسوله. حب المال والأولاد أمر طبيعى، ولا يُؤاخذ عليه مادام فى حدوده، ولكن الناس فى الغالب يتعدون الحدود، فيَضُرُّون بمصالحهم الأخروية، ومصالح الملة الدنيوية.

إن كان المال العظيم قد امتلكه أصحاب النبى ۰ المخلصون، مثل طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص، وبعض أنبياء الله تعالى مثل داود وسليمان عليهما السلام، فإن قارون كان يمتلك مالا أعظم، لكن ماله جرّه إلى الهاوية، ومثله كان حال كثرة القوم أو الأولاد. (التفسير الماجدى)

المال فتنة أم سبب الفتنة؟

قال الإمام أبو حيان رحمه الله:
أى سبب الوقوع فى الفتنة، وهى الاثم أو العذاب. (البحر المحيط)
ثم ذكر قصة أبى لبابة الذى كان قد وقع فى الخطأ بسبب المال والأهل.
عُلم بذلک أن المال والأولاد قد يعيقان مقاصد الجهاد، لذلک يجب على المجاهد أن يحذر من الإفراط فى حبهما. (والله أعلم بالصواب)

دروس وعبر:

يجب على المجاهد أن يحذر من اتخاذ مصالحه الشخصية غاية حياته، أو أن يُحرَمَ من أجر الآخرة العظيم لتلک المصالح الفانية، فإن حب المال والأولاد يشغل القلب بالدنيا، فينسى أعمال الآخرة.

«لأنها تشغل القلب بالدنيا وتحجب عن خدمة المولى». (التفسير الكبير)

إضافة إلى ما ذكرنا فإن المال والأولاد يجلبان الجُبن إلى المرء، كما جاء ذلک فى الحديث. لكن المال والأولاد يفنيان، وكذلک الانتفاع من المال والأولاد فى الحياة الدنيوية يفنى، لذلک يجب على المرء أن لا يُطْلقَهُما حتى يعيقا طريق الجهاد، بل عليه أن يسخرهما فى خدمة الجهاد ليحوّلهما من نعمة فانية إلى نعمة أبدية، ما أخرج الله تعالى جماعة المسلمين إلا لنشر الإسلام فى العالم، ولتغليبه عليه، فإن ثبت وجمدَ فى حب المال والأولاد مثل الثلج فإنه يضر بنفسه و بالدعوة الدينية والأمة الإسلامية، لذلک يجب عليه أن يسأل الله تعالى النجاح فى بليته هذه وفتنته.

اللهم إنا نعوذبک من مضلات الفتن. (آمين يا أرحم الراحمين)

نكتة مهمة:

فى الآية السابقة كان قد نهى عن الخيانة، وفى هذه الآية أرشد إلى طرق الوقاية من الخيانة، وأشار إلى أن أحداً لا يخون إلا لمصالحه الشخصية، أو لمنفعة أولاده وماله، لذلک لا تتخذوا المال والأولاد غاية حياتكم، لأنها خُلقت للفتنة، وليكن الأجر العظيم الذى أعدّه الله تعالى لكم مطمح أنظاركم، وهو لا يحصل إلا بالأمانة والتضحية دون الخيانة. (والله أعلم بالصواب)

نكتة مهمة:

المغالاة فى حب الأولاد والمال تُقيّد الإنسان، وتمنعه من الجهاد وغيره من الأمور الاجتماعية، فتنحصر حياته فى الأكل والكسب، وشخص مثله يُحرم من معالى الهمم والشجاعة، ولا تستفيد منه الأمة، لقد أكّد القرآن على أن المال والأولاد فتنة، وأراد به إصلاح الإنسان، وقطع القيود التى عرقلت سيره، لتعلو هممه وعزائمه. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 29}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يَايُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنْ تَتَّقُوْا اللهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ . واللهُ ذُوْ الفَضْلِ الْعَظِيْمِ}.

ملخص معانى الآية الكريمة:

إن خاف المسلم ربه، فلم يخن فى أموال الناس لأجل الأولاد والمال، ولم يجعلهما يعرقلان طريق الجهاد، منحهم الله تعالى الفرقان، أى يغلبهم على أعداءهم، فيقدرون على تقرير مصيرهم، ويميّزهم عن غيرهم، ويجعل فى قلوبهم النور، ويكفّر عنهم سيّاتهم برحمته ومغفرته، ويزيدهم من فضله.

أقوال المفسرين

أراد بالفرقان البشارة بالتمكين:

المراد بلفظ «فرقانا» فى الآية تمكين المسلمين على المشركين عند الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى، والربط بين الآيات فى هذا الوجه: يا أيها الذين آمنوا، لا تتولّوا الكفار لحماية أولادكم وأموالكم، ولا تخونوا الله، وجاهدوا فى سبيل الله، تغلبون عليهم بفضل الله، فلا يقدرون على الإضرار بكم فى أموالكم وأولادكم. فالمحافظة على الأموال والأولاد لا يمكن إلا بالإخلاص مع الله وبالثبات فى الجهاد فى سبيله، كما قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى:

«لعل المسلمين ظنّوا أن الفتح يوم بدر كان من باب المفاجاءات، لذلك أرادوا البر إلى المشركين والإحسان إليهم لكى يمتنعوا عن الإضرار بأهلهم وذويهم المقيمين بين أظهرهم، ففى الآية الأولى منع عن خيانة كهذه، وفى الآية الثانية طمّنهم على أن الله سوف يفصل بينكم وبينهم، فلا يبقى أهلكم وذويكم مأسورين عندهم». (موضح القرآن)

وإلى هذا المعنى أشار لفظ تفسير الجلالين:

{يجعل لكم فرقانا} بينكم وبين ما تخافون فتنجوا. (جلالين)

الفرقان على ثلاثة معان:

1- التمكين فى الدنيا 2- الفوز فى الآخرة 3- نور القلب

قال شيخ الإسلام العلامة شبير أحمد العثمانى:

«أى إن خشيتم الله تعالى وسرتم على طريق التقوى، قضى الله بينكم وبين أعداءكم، فيكرمكم فى الدنيا والآخرة، ويهلك أعداءكم أو يُخزيهم، كما فعل فى بدر، ويُكرمكم فى الآخرة حيث تعيشون فى نعَمه الدائمة، أما أعداءكم فمصيرهم النار. كما قال الله تعالى: {وامْتَازُواْ اليَومَ اَيُّهَا المُجْرِمُونَ} (ياسين 59) {هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ} (المرسلات 38). ثانياً: جعل الله تعالى فى قلوبكم نوراً بفضل خشيتكم لله، فتقدرون على التمييز بين الحق والباطل ذوقاً ووجداناً». (التفسير العثمانى)

وإليه مال الشيخ اللاهورى رحمه الله تعالى، فقد قال:

«إن خشيتم الله تعالى فإن الله يُكرمكم بنعمة التمييز الذى يدلكم على الخير والشر فى جميع شؤونكم». (حاشية اللاهورى رحمه الله)

والعبارة التالية توضّح المعنى المذكور أكثر:

«إن تقيّدتم بأوامر الله تعالى، وخشيتموه، ترتبت عليها النتائج التالية:

(أ) {يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَاناً} أى يُنعم عليكم بنعمة الفرقان، فتقدرون على التمييز بين الخير والشر، والغث والسمين، والطيب والقبيح، والصديق والعدو، والحق والباطل. والحاجة إلى هذه النعمة تشتد فى المعارک لکى تفشل تدابير العدو ومكره. (التفسير الفرقان)

جاء فى كثير من آيات القرآن الكريم بيان ذلك النور القلبى الذى يُكرم الله تعالى به عباده المؤمنين، كما فى الآية 22 من سورة الزمر، والآية 28 من سورة الحديد، والآية 122 من سورة الأنعام.

وهذا المعنى الذى اختاره صاحب التفسير الماجدى، حيث قال:

«فسّر أهل العلم كلمة الفرقان كلٌّ حسبَ ذوقه، والأولى أن نفسرها بالنور الباطنى الذى ينشأ فى المؤمن عند اختياره التقوى، والذى يميّز بين الحقَ والباطل بنفسه».

أى نوراً وتوفيقاً على قلوبكم، يفرّق به بين الحق والباطل، فكان الفرقان هھنا كالسكينة والروح فى غيره (راغب). أى هدايةً ونوراً فى قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل كما روى عن ابن جريج وابن زيد (روح). (التفسير الماجدى)

قال صاحب ترجمان القرآن:

فعلمنا أن ما من جماعة تخشى الله تعالى إلا وتكوّنت فيها قوة تقدر على التمييز بين الحق والباطل والخير والشر بحيث لا تُقدم على الباطل أو الشر. وقد رأت الدنيا ذلك فى المسلمين فى صدر الإسلام، كانوا يقطنون فى الصحراء، ويرعون الإبل، فما لبثوا أن صاروا يقرّرون مصير الأمم المتحضرة من الفُرس والرومان، فكانوا حائزين على قوة تمكّنهم من التمييز بين الخير والشر، حتى إن العدل والحق والخير والسعادة لم تكن تنفلت منهم مهما عملوا وبأى طريق عملوا. (ترجمان القرآن)

لم نجمع هنا تعبيرات المفسرين المتنوعة إلا لأنها تحتوى على بيان معارف الجهاد المختلفة، رغم اتفاقهم على تفسير كلمة «الفرقان» بنور القلب وقوة التمييز.

معنى الفرقان القرار العلمى والعملى:

هذه الآية مؤكدة لمضمون الآيات السابقة، وهو الطاعة (ومنها الجهاد على وجه الخصوص) عند العلامة أشرف على التهانوى رحمه الله تعالى، وأراد بالفرقان القرار العلمى والعملى، ومعنى القرار العلمى الهداية والنور القلبى، ومعنى القرار العملى غلبة المسلمين على أعدائهم والنجاة فى الآخرة. حيث قال:

«اسمعوا مزيداً من بركات الطاعة، إن اتقيتم الله وأطعتموه، أكرمكم بقوة التمييز، وهى تشمل الهداية ونور القلب، وهما عبارة عن التمييز العلمى بين الحق والباطل، كما تشمل الغلبة على الأعداء والنجاة فى الآخرة، وهما عبارة عن التمييز العملى بين الحق والباطل، إضافة إلى ذلک فإنه يغفر لكم ذنوبكم ويطهركم من خطاياكم، والله ذو الفضل العظيم، فكم يعطى بفضله؟ لا يمكننا تقديره». (بيان القرآن)

وبناء على عبارة بيان القرآن هذه، يمكن لنا بيان ارتباط هذه الآية بالركوع السابق بما يلى:

كان مدلول الآيات السابقة هو: يايها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول، ولا تقعدوا عن المساعدة فى الجهاد إذا دُعيتم إليها، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا بآذانهم، ولا يسمعون سمع قبول، واعلموا أن الله جعل حياتكم فى طاعته وطاعة رسوله، فيما يأمركم من الجهاد وغيره. فإن أعرضتم ضعفت همتكم، وإن امتنعتم عن توظيف غيركم فى الجهاد، لما سلمتم من وبال ترک الجهاد وترک النهى عن المنكر. لا تتخلفوا عن الجهاد لقلة العدد والعُدّة، فقد كنتم ضعفاء فيما مضت من الأيام، لكن الله نصركم، وأكرم عليكم بقناطير المغانم. فإن أردتم أن يتتابع نصره لكم فاحذروا الخيانة، ولا تفتتنوا بأولادكم وأموالكم فتتركوا الجهاد، فإن امتنعتم عن تغليب حب الأولاد والمال على طاعة الله والجهاد فى سبيله، جعل الله لكم فرقاناً.

أى الغلبة، والمحافظة، وقوة التمييز، والنور القلبى، والتميّز الخاص، والسعادة فى الآخرة. (والله أعلم بالصواب)

ربط آخر بين الآيات:

{اسْتَجِيْبُواْ لله ولِلرَّسُوْلِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيْكُمْ} أى إذا دعاكم الرسول للجهاد فبادروا إليه، لأن فيه حيَاة لكَم، ولا تعتذروا لَقلة عددكم وَعُدّتكَم، فالله ينصركم بتأييده، شريطة أن لا تخونوا، ولا تخونون إلا لأولادكم وأموالكم، فمن ابتعد عن الخيانة، وشارک فى الجهاد بتضحية الأهل والمال، فهو من المتقين، وسوف يكرمه الله تعالى بالفرقان. فكأنّ الله تعالى أشار إلى نصاب الجهاد بدءاً بالخروج للجهاد وانتهاءاً على الفتح والنصر، فحياة المسلمين فى الجهاد، والظفر فى الجهاد بسبب التقوى، والتقوى فى ترجيح حب الله على حب المال والأهل، بتضحية حبهما لله. (والله أعلم بالصواب)

المراد من الفرقان غزوة بدر:

قال صاحب التفسير الحقانى:

أراد بالفرقان هنا يوم بدر، لأن من أسمائه يوم الفرقان. (التفسير الحقانى)

وفى هذا التفسير العجيب بشارة عظيمة للمجاهدين إن اتقوا الخيانة، ومنعوا الأهل والمال من إعاقة طريق الجهاد وخَلق الفتنة لهم، واتقوا الله تعالى، فإن الله سوف يكرمهم بأجواء مثل أجواء بدر، وانتصارات مثل انتصارات بدر. (والله أعلم بالصواب)

وهناك تفسير آخر لهذه الآية الكريمة فى التفسير الحقانى، وهو كما يلى:

«ثم يخاطب الله تعالى المؤمنين، فيقول: إن اتقيتم الله، وابتعدتم عن الكفر والشرك والكبائر، فإننا نعمل لكم ثلاثة أشياء: أحدها: نميّز بينكم وبين أعداءكم فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا ينوّر قلوبكم، ويضىء وجوهكم، ويزيّنكم بمكارم الأخلاق والفتح والظفر، وفى الآخرة بالنجاة من النار والفوز بالجنة، أما الكفّار فبضدها. ذكر مجاهد رحمه الله أن الفرقان بمعنى الصدق فى الدنيا والآخرة، وذكر مقاتل بن حيان أنه بمعنى التخلّص من الشبهات الدينية، وذكر عكرمة أنه بمعنى النجاة من المكروهات العظيمة. (التفسير الحقانى)

المراد بالفرقان نصر الله:

«قد تُطلق كلمة الفرقان على نصر الله تعالى، لأن بنصر الله تعالى يتغلب أهل الحق على أعدائهم، فيتميّز الحق عن الباطل، ومن هذا الباب جاء تسمية يوم بدر بيوم الفرقان، وهذا هو معنى إكرام المتقين بالفرقان فى الآية الكريمة عند أكثر المفسرين من الصحابة، حيث ينصرهم الله تعالى ويؤيدهم ويمنعهم من أعداءهم، فلا يقدر العدو على إلحاق الضرر بهم، وأن النصر يحالفهم فى جميع مقاصدهم». (معارف القرآن)

معنى الفرقان المخرج:

قال القرطبى رحمه الله:

قال ابن وهب: سألت مالكاً عن قوله سبحانه وتعالى: {إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا} قال: مخرجا. (القرطبى)

معنى الفرقان الفتح والنصر:

عند الفرّاء فتحاً ونصراً. (والنصر بمعنى الغلبة) القرطبى.

تحقيق الإمام الرازى فى معنى الفرقان:

قال الإمام الرازى:

ولمّا كان اللفظ مطلقا وجب حمله على جميع الفروق الحاصلة بين المؤمنين وبين الكفار.

ثم كتب ما ملخصه:

الأحوال على نوعين: 1- أحوال دنيوية 2- أحوال أخروية.

والأحوال الدنيوية على نوعين: 1- الأحوال القلبية 2- الأحوال الظاهرة.

يُكرم الله تعالى أهل الإيمان بميزات ثلاثة فى الأحوال الدنيوية القلبية:

1- بالهداية والمعرفة 2- بنعمة شرح الصدر 3- بإبعاد الحقد والضغينة والحسد عن قلوبهم، وتطهيرها من المكر والدسيسة.

كما يُكرم الله تعالى أهل الإيمان بميزات ثلاثة فى الأحوال الدنيوية الظاهرة:

1- الغلبة 2- الفتح 3- الظفر.

أما فى الأحوال الأخروية فيُكرمهم بالميزات الآتية:

1- بالأجر والثواب 2- النِعَم الدائمة 3- يعاملهم اللهُ تعالى والملائكةُ بالكرم. (التفسير الكبير)

بمعنى أن المؤمنين إن اتقو الله تعالى فإن الله أنعم عليهم بالفرقان الجامع المذكور فى الدنيا والآخرة. ذكر النسفى رحمه الله تعالى معنى الفرقان الجامع المذكور بألفاظ مختصرة، والغالب الراجح عنده أن المراد من الفرقان انتصار الإسلام والمسلمين، وانتشار الإسلام فى العالم كله، وخذلان الكفر وأهله. كما قال:

فرقانا نصراً، لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه والإسلام بإعزاز أهله أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويبث صيتكم وآثاركم فى أقطار الأرض من قولهم «سطع الفرقان» أى طلع الفجر أو مخرجا من الشبهات وشرحاً للصدور، أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الأديان وفضلا ومزية فى الدنيا والآخرة. (المدارك- كشاف)

درس وعبرة:

فيه إشارة إلى أن المسلمين إذا جاهدوا فى سبيل الله، واتقوه، انتصر الإسلام وجرّ الكفر والشرك أذيال الهزيمة بفضل شهامته ورُعبه.

نكتة مهمة:

قال بعض كبار أهل العلم (مثل الشيخ أبى الحسن على الندوى رحمه الله وغيره): الآية الكريمة تُشير إلى أن الله سبحانه وتعالى يحب أن تكون لعباده ميزة خاصة، والواجب على المسلمين العمل بالشريعة والمحافظة على ميزتهم الخاصة، وعدم الذوبان فى المجتمعات الكافرة. (والله أعلم بالصواب)

كفارة المعاصى والعفو عنها:

فى الآية الكريمة تأكيد على أن الله تعالى يَهَبُ المؤمنين الفرقان ببركة تقواهم، ويمحو ذنوبهم، ويعفو عنهم، كما قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى:

وتكفير ذنوبه وهو محوها وغفرها سترها عن الناس. (وعكسه فی روح المعانی) (ابن كثير)

وأشار بعض المفسرين إلى المراد بالفرقان أن الله سبحانه وتعالى يقيهم من آثار ذنوبهم المدمرة، كما يقى جماعتهم وحركتهم منها.

«لاشک أن ما من رجل يقوم بعمل إلا وتصدر عنه بعض الأخطاء، أما تفاديها فيعتمد على تأييد الله تعالى له، وإليه أشار فی الآية الكريمة أن أخطاءكم لا تُعيق طريقكم». (تفسير الفرقان)

«لا يصير الرجل بالتقوى معصوما عن الخطأ، تصدر منه السيئات، لكنها تنجبر بتقواه». (التفسير الماجدى)

اللهم وفِّق أمة الإسلام للجهاد والتقوى، وأكْرمهم بالفرقان، فالأمة بأشد الحاجة إليها اليوم. (آمين يا أرحم الراحمين)

دروس:

لقد جعل الله تعالى القرآن الكريم فرقانا، وجعل يوم بدر «يوم فرقان». فما من نعمة يكرم الله تعالى المجاهد بها بفضل تقواه إلا وهی فرقان. والقرآن يفرّق بين الحق والباطل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فرّق الله تعالى يوم بدر بين الحق والباطل بحيث ظهر الحق للجميع. ومن هنا عرفنا أن ما من مؤمن أكرمه الله تعالى بنعمة الفرقان إلا وصار علامة للحق، به يُعرف الحق، ويبتعد عنه الباطل، كما يكرمه الله تعالى بإرادة قوية، وصفة مميزة، ونصرة وتأييد، وينور قلبه. فإن ازداد أعداد هؤلاء الموصوفين بالصفات المذكورة بين المسلمين، تكاثرت الفتوحات والانتصارات والميزات الخاصة بينهم. فالواجب على المؤمنين التضحية بالأهل والمال لتحصيل نعمة الفرقان، فلا يألون يتقون الله ويجاهدون فی سبيله، ويواصلون جهادهم ونضالهم، ويجعلون مصالحهم الشخصية وراء ظهورهم، لتحصل لهم نعمة الفرقان. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 30}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوْكَ اَوْ يَقْتُلُوْكَ اَوْ يُخرِجُوْكَ وَيَمْكُرُوْنَ ويَمْكُرُ اللهُ واللهُ خيْرُ المَاكِرِيْنَ}.

ملخص معانى الآيۃ:

قصۃ عجيبۃ للفوز بالفرقان:

تشاور المشركون بمكۃ حول قتل النبى ۠ أو حبسه أو نفيه، ثم اتفقوا على قتله، فكانوا يمكرون برسول الله، وكان الله يمكر بهم لإبطال مكرهم، والله قوى عزيز، وهو خير الماكرين.

الربط بين الآيات:

الربط بين الآيات واضح جداً، يُكرم الله تعالى بالفرقان ونصره وتأييده كل من يضحى بأهله وماله لله، ويعمل بجميع أوامره، وبيّن مثالا له أنه نصركم ليلۃ الهجرۃ نصراً مؤزّراً، بقى المشركون خارج منزله مع سيوفهم، فخرج النبى ۠ من وسطهم وتوجه نحو غار ثور ثم منه إلى المدينۃ المنورۃ، ثم جرّ هولاء الذين دبّروا قتله إلى بدر، حيث قُتلوا جميعا، فهذا شأن الله وحاله، وهذا هو فرقانه. كما قال اللاهورى:

فكانت هذه هى التقوى وبركتها حيث شاء المشركون ابتلاء النبى ۠ وافتتانه، فمكر الله تعالى وخلّص رسوله من أيديهم. (هامش اللاهورى)

قال الشاه عبد القادر رحمه الله:

«فكما أن الله سبحانه وتعالى خلّص رسوله منهم، فإنه قادر على تخليص أهلكم وذويكم منهم». (موضح القرآن)

والمعنى : لا تشاركوا المشركين فى التآمر ضد المسلمين، ولا تَغتمّوا لأهلكم ومالكم كثيرا فتُقصّروا فى الجهاد، فمن ضحّى بالغالى والنفيس نصره الله بتأييده، ومنعه من أعداءه. ذكّرهم الله بقصۃ مكۃ ليُرغّبهم فى الجهاد، وليتوكلوا على الله، وليثقوا بنصره وتأييده، ولكى يفنّد رعب المشركين وقوتهم وتدبيرهم فى صدورهم. (والله أعلم بالصواب)

قصۃ موجزۃ:

قال قتادۃ دخلوا فى دار الندوۃ يأتمرون بالنبى صلى الله عليه وسلم فقالوا لا يدخل معكم أحد ليس منكم فدخل معهم الشيطان فى صورۃ شيخ من أهل نجد فقال بعضهم ليس عليكم من هذا

عين هذا رجل من أهل نجد قال فتشاوروا فقال رجل منهم أرى أن تركبوه بعيرا ثم تخرجوه فقال الشيطان بئس ما رأى هذا هو هذا قد كان يفسد ما بينكم وهو بين أظهركم فكيف إذا أخرجتموه فأفسد الناس ثم حملهم عليكم يقاتلوكم فقالوا نعم ما رأى هذا الشيخ فقال قائل آخر فإنی أرى أن تجعلوه فی بيت وتطينوا عليه بابه وتدعوه فيه حتى يموت فقال الشيطان بئس ما رأى هذا أفترى قومه يتركونه فيه أبدا لا بد أن يغضبوا له فيخرجوه فقال أبو جهل أرى أن تخرجوا من كل قبيلة رجلا ثم يأخذوا أسيافهم فيضربونه حصول واحدة فلا يدرى من قتله فتدونه فقال الشيطان نعم ما رأى هذا. (أنوار البيان)

وعملاً بهذا الرأى قاموا بمحاصرة داره ؛ فأمر علياً بأن يضطجع على فراشه، ثم بدأ رحلة هجرته، وهكذا أخرجه الله تعالى من الحصار الشديد الذى فرضه عليه أهل مكة حتى أتى المدينة.

الآية التى زادت من فرح الفتح:

قال بعض المفسرين بشأن ربط هذه الآية بما سبقتها:

«لمّا فتح الله عليه ذكّره بمكر قريش به حين كان بمكة ليشكر نعمة الله فی نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم». (المدارک، الكشاف)

ملحوظة:

رفض بعض أهل العلم بروز إبليس بين المشركين فی هيئة شيخ نجدى، المذكور فی القصة. راجعوا التفسير الكبير.

نكتتان:

1- لا زال الله تعالى بصدد الترغيب فی الجهاد، وفی هذه الآية الكريمة أشار إلى عداء المشركين للنبى ؐ وإساءتهم إليه بشكل نتن، والواقع أن فيها تحريض المؤمنين على مقاتلة أناس كمشركى مكة الظالمين الخبثاء الذين كانوا يعادون رسولهم إلى هذا الحد.

2- وفيها أطلع اللهُ تعالى المؤمنين على طبائع الكفار ونواياهم تجاه المسلمين، أنهم يسعون دائما إلى القضاء على القيادات الإسلامية، فلا يألون جهدا فی توجيه ضربة قاسية إلى مركز المسلمين ومنبعهم الروحى، وهذه هى نية أبى جهل – فرعون هذه الأمة – التى كان يبطنها، وهى نوايا جميع الكفار والمشركين فی كل عهد وزمان، وعلى المسلمين أن يتنبّهوا لها ولا يتغفّلوا عنها.

فائدة:

لقد أدرج المفسرون فی تفسير قوله تعالى: {ويمكر الله والله خير الماكرين} تعبيرات حلوة، بأن تدابير الله تعالى تكون فی غاية القوة والاستحكام والسرّية والمفاجأة. فالذين يُبالغون فی بيان قوة المشركين وتدبيرهم ليُخيفوا المسلمين، عليهم أن يلاحظوا تدبير الله وقوته وتأييده. ففی بدر لحقت بأسد العرب الشرس جروح شديدة بأيدى المسلمين، وبات يحترق بنار الغضب والثأر، وكان شبه

مؤکد أن القبائل العربیۃ الثائرۃ سوف ترتّب هجوما علی المسلمین، للقضاء علیهم. وکان ذلک من الممکنات السهلۃ حسب الظاهر، فکان تذکیر المسلمین بقصۃ الهجرۃ بغرض التشجیع وعدم التخوّف من المشرکین ومکرهم وجنودهم وثورانهم، والمطالبۃ منهم بالخروج للقتال، وأن یکونوا من أولیاء الله تعالی وأحبائه، إن فعلوا ذلک فإن ما بقی من الأعمال یقوم بها الله تعالی، ولاشک أن مکر المشرکین شدید لکنه ضعیف أمام مکر الله تعالی السرّی، وهو خیر الماکرین.

قال الإمام الرازی فی شرح «خیر الماکرین» :

«المراد أقوی الماکرین، لینبّه بذلک علی أن کل مکر فهو یبطل فی مقابلۃ فعل الله تعالی».

وقال النسفی رحمه الله:

«أی مکره أنفذ من مکر غیره وأبلغ تأثیراً».

ولاشک أن الدنیا دار الأسباب، لذلک جعل الله تعالی القوۃ والتأثیر فی مکر غیره، لکنها لیست بالمستوی الذی تصمد أمام مکر الله، وتثبت أمامه، فسواء أکانت أمریکا أو إسرائیل، روسیا أو أوروبا، لا تقدر قوتهم ومکرهم وتدبیرهم علی الصمود أمام مکر الله وقوته. ورسالۃ القرآن هذه بحاجۃ إلی أن تجد مکانا لائقا بها فی قلوب المسلمین، ولیس تخویفهم بقوۃ الکفار. (والله أعلم بالصواب)

شرح بعض الکلمات:

لِیُثْبِتُوْکَ.. معناها الحبس والقید أو الإصابۃ بجروح.

قال ابن عباس ومجاهد: لیثبتوک أی لیقیدوک، وقال عطاء والسدی: لیثخنوک بالجرح والضرب. (البحر المحیط)

ویَمْکُرُوْنَ.. أی یخفون المکاید. (المدارک)

نکتۃ مهمۃ:

سبب محاربۃ المشرکین والکفار أنهم یعادون ذات الرسول ؐ کما أشارت إلیه الآیۃ الکریمۃ، بل یعادون القرآن ودین محمد ؐ کما تشیر إلیه الآیۃ التی تلیها، فإن کانوا یمکرون بذات الرسول ؐ ودینه والقرآن، ویدبّرون ضدهم ویحاربونهم، فلماذا یجلس المسلمون مکتوفی الأیدی؟ (والله أعلم بالصواب).

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 31}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذَا تُتْلى عَلَيْهِمْ آيَاتُنا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا انْ هَذَا الا اَسَاطِيْرُ الاوَّلِيْنَ}.

ملخص معانى الآية:

أشار فيها إلى أن المشركين يعادون القرآن وينكرونه، ويقولون إذا سمعوا آياته: لو نشاء لقلنا مثل هذا القرآن، ولا يشتمل القرآن إلا على قصص خيالية للأمم السابقة.

ربط الآيات:

1- قبل غزوة بدر أغلب المشركين كانوا يزعمون أنهم على الحق، وأن القرآن ليس إلا مجموعة من القصص الأسطورية الخيالية التى لا أساس لها من الصحة، فلما ابتدأ الجهاد، وباتت وعود القرآن تتحقق، علموا أن زعمهم كان باطلاً. هذا هو الارتباط الذى أشار إليه الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى، كما قال:

أى (إن المشركين كانوا يقولون عن القرآن) دائماً (أنه يحتوى على قصص أسطورية) والآن (فى غزوة بدر) شاهدوا أنها لم تكن قصصا أسطورية، فقد جاءهم الوعد بالعذاب كما جاء الأمم السابقة. (موضح القرآن)

2- لقد أكرم الله تعالى المؤمنين بنعمة الفرقان بفضل تقواهم، فهم يعرفون الحق من الباطل، وحُرم منها أولئک الذين أعرضوا عن الإيمان، فلم يعرفوا القرآن، قال اللاهورى بعد بيان هذا الربط:

«عُوقب الكفار على ترک التقوى بعدم التوفيق بمعرفة آيات الله تعالى، وزعموها قصصا أسطورية». (حاشية اللاهورى)

3- لقد نصر الله المؤمنين فى مقابلة الكفار والمشركين، فانتصروا عليهم، وأنزل الملائكة لإهلاكهم، لأن الكفار والمشركين يعاندون الله ورسوله، كما قال: {بِأَنَّهُمْ شَآَقُّوا اللهَ ورَسُوْلَهُ} والآن يذكر مزيداً من عيوب الكفار، ويقول إنهم ما استحقوا الإذلال المذكور إلا لأنهم كانوا يعاندون القرآن، ويسيئون إليه.

قال العلامة التهانوى رحمه الله مشيرا إلى الربط بين الآيات:

قبل الترغيب فى الطاعة والترهيب عن المعصية ذمّهم بقوله: {ذلک بأنهم شاقوا الله ورسوله..} وقوله: {إِنْ تستفتحوا..} وأسباب استحقاقهم العذاب لذمائمهم، وقد ذكر المضمون المذكور بشىء من التفصيل فيما بعدها حتى نهاية ركوع {هم الخاسرون}. (بيان القرآن)

4- القرآن «كتاب الهدى والرشد» ، والكفار والمشركون يمكرون به، ويدّعون بأنهم قادرون على الإتيان بمثله، فيضللون العامة ويصدونهم عن دعوة القرآن، لذلک يجب قتالهم وجهادهم، لکى تزول المعوقات والعراقيل عن طريق الحق، ويستفيد العوام من نور القرآن، ويهتدوا به. (والله أعلم بالصواب)

5- قال الإمام الرازى حول ربط الآيات:

«اعلم أنه تعالى لما حکى مکرهم فى ذات محمد ٭ حکى مکرهم فى دين محمد ٭». (التفسير الکبير)

سبب النزول:

قال الإمام أبو حيان رحمه الله:

«قائل ذلک هو : النضر بن الحارث واتبعه قائلون کثيرون، وکان من مردة قريش، سافر إلى فارس وحيرة وسمع من قصص الرهبان، والأناجيل، وأخبار رستم، واسفنديار». (البحر المحيط)

هذا النضر بن الحارث کان ممن أُسر يوم بدر، وقد أمر النبى ٭ بضرب عنقه بالسيف أثناء عودته إلى المدينة. (البحر المحيط)

لو شئنا..

کان النضر بن الحارث يقول: لو شئنا لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، لکن من سنة القرآن أنه يفصل جميع الخلافات بقوله: {فأتوا بسورة من مثله إن کنتم صادقين}. والسؤال هو تقولون: {لو نشاء لقلنا مثل هذا} لکنکم ما شئتم، فلماذا ما شئتم؟ کمن قال: لو سار فرسى لوصل لندن فى يوم، لکنه لا يسير. وعلى کل فالمشرکون لمّا سمعوا قصص الأمم السابقة قالوا: إن هى إلا أساطير الأولين. فقد شاهدوا يوم بدر أنها لم تکن کما کانوا يزعمون، وأتاهم العذاب الذى وعدهم کما أتى الذين کانوا قبلهم. (التفسير العثمانى)

هذه الآيات وعصرنا الحاضر وإعجاز قرآنى مدهش:

لاحظوا الآية السابقة وهذه ثم الآيات التى تليها، تعرفون الترتيبات العسکرية الکاملة للمشرکين ضد المسلمين، ففى الآية الثلاثين أشار إلى ما مکر المشرکون ضد النبى ٭ من اعتقاله أو إصابته بجروح أو استشهاده. وفى الآية الحادية والثلاثين أشار إلى أنهم يعادون القرآن ويسعون إلى منع تعليماته، وفى الآية الخامسة والثلاثين أشار إلى أنهم يصفّرون ويصفّقون فى مواقع العبادة. وفى الآية السادسة والثلاثين أشار إلى أنهم يسعون إلى منع انتشار الإسلام بفتح باب الحرب الاقتصادية ضدهم. وفى الآية السابعة والثلاثين أشار إلى تحالفهم ضد المسلمين، وفى الآية التاسعة والثلاثين أرشد المسلمين إلى أساليب القضاء على ترتيباتهم العسکرية.

ثم لاحظوا أعداء الإسلام اليوم، ففى المرتبة الأولى يسعون إلى القضاء على القيادات الجهادية الإسلامية، ثم يسعون إلى منع الناس من تعاليم الإسلام، وإلا فما معنى تلک الحملات

الشرسة التى يقومون بها ضد المدارس الدينية؟ فى القديم كان المشركون يصفون القرآن بأساطير الأوّلين، واليوم يصفونه بمقررات الرجعية، ثم يسعون إلى إبعاد المسلمين عن الطاعات والعبادات لكى يشتغلوا بالمكاء والتصدية والمرح، إضافة إلى ذلك فإنهم بدءوا حرباً اقتصادية ضدهم، واستخدموا المال كسلاح، كما أقاموا تحالفات اقتصادية وعسكرية للإضرار بمصالحهم، لذلك يجب على المسلمين فى ضوء التوجيهات القرآنية أن يعملوا بمفهوم الآية التاسعة والثلاثين بحيث يقضوا على كافة الترتيبات العسكرية التى اتخذوها، عملاً بقوله تعالى: {وقَاتِلُوْهُمْ حتّى لا تَكُوْنَ فِتْنَةٌ ويَكُوْنَ الدِّيْنُ كُلُّه لله}.

وبالتَأمل فى الآيات المذكورة ثم بملاحظة أحوال اليوم، وبدراسة الترتيبات العسكرية التى اتخذها الكفار ضد المسلمين، وبالنظر فى لفظ «الفتنة» نتوصل إلى الإعجاز القرآنى المبهر، ونجد قلوبنا مدفوعة إلى الشهادة بصدقه وإعجازه. فقد صدق الله مولانا العظيم ومن أصدق من الله حديثا. (والله أعلم بالصواب)

عبارة جميلة:

من كان قائل تلك المقولة؟ قال أهل السير والتاريخ: هو النضر بن الحارث بن كلدة، أحد زنادقة قريش، ورحّالة زمانه، وصاحب الفكر المنير، زار الدولة الساسانية البالغة أوج الحضارة والمدنية فى ذلك العهد، شأنه شأن الهندى العائد بزيارة وجيزة من بريطانيا. (التفسير الماجدى)

أى مثل الهندى الذى يسافر إلى أوروبا، فتيتأثر بتقدمها المبهر، لتعاسته وحرصه الشديد للمال، ثم يعود إلى الهند، ويظل عبوسا قنطريرا، ينتقد كل دقيق وصغير.

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 32}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيْمٍ}.

ملخص معانی الآية:

كان المشركون يقولون قبل بدر: إن كان الإسلام هو الحق من عندک فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.

الربط بين الآيات:

يُرجى ملاحظة الربط المذكور بين الآيات السابقة.

تفسير موجز:

فيها إشارة إلى جهل المشركين من أهل مكة وعنادهم وشقاءهم التى بلغت إلى أقصى حدودها، إذ كانوا يقولون: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندک الذى لا نزال نكذبه ونعانده، فلماذا التأخير فی المعاقبة؟ فأمطر علينا حجارة من السماء كما فُعل مع الأمم الأخرى، أو بعذاب غيره يستأصلنا من جذورنا. قيل: هذا الدعاء دعا به أبو جهل عند الكعبة لمّا خرج متوجها إلى بدر. وقد وجد نموذجا لما طلبه يوم بدر، فقد لقى مصرعه وتسعة وستون آخرون من زعماء الكفر والشرک على يد مسلمين ضعفاء وبائسين، ووقع سبعون فی مذلة الأسر والقيد، وهكذا استأصلهم الله من جذورهم، لاشک أنهم لم يُمطَروا بحجارة من السماء كما فُعل مع قوم نبى الله لوط عليه السلام، لكن قبضة من التراب بيد محمد ﷺ كانت تُمثّل الإمطار من السماء، كما قال الله تعالى: {فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى} (التفسير العثمانى).

كلام بركة:

لمّا خرج أبو جهل من مكة دعا بهذا الدعاء عند الكعبة، فوقع كما دعا. (موضح القرآن)

«وهو أبو جهل كما رواه البخارى والبيهقى عن أنس بن مالک. (قرة العينين) قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادى عن أنس بن مالک قال: هو أبو جهل بن هشام». (تفسير ابن كثير)

وقيل: القائل هو النضر بن الحارث. ارجع إلى تفسير ابن كثير والجلالين وغيرهما. وقال صاحب المدارک:

«روى أن النضر لما قال: {إن هذا إلا أساطير الأولين} قال له النبى : ويلک هذا كلام الله، فرفع النضر رأسه إلى السماء وقال: {إن كان هذا هو الحق من عندک فأمطر علينا حجارة من السماء} أى إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسجيل كما فعلت بأصحاب الفيل. (المدارک)

نخوة المشركين:

كان هذا حال نخوتهم وكبرياءهم، فلما كان يوم بدر، ذهب ريحهم، فظل يذهب حتى فتح الله مكة على نبيه . وعلى كلٍ، فبيان هذه الأمور فى ثنايا غزوة بدر يشير إلى أنه لا يمكن كسر شوكة المشركين ونخوتهم إلا بالجهاد. (والله أعلم بالصواب)

قال القرطبى رحمه الله تعالى:

قالوه لشبهة كانت فى صدورهم أو على وجه العناد والإبهام على الناس أنهم على بصيرة ثم حل بهم يوم بدر ما سئلوا. (القرطبى)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 33}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيْهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُوْنَ }.

ملخص معانى الآيۀ:

أشار فيها إلى أن الله لم يبعث عليهم عذاباً رُغم طلبهم له، وذلک لوجود النبى ٠ بين أظهرهم، وقد نزل عليهم العذاب ببدر بعدما هاجر النبى ٠ من مکۀ، فلا مفر لبقيتهم من العذاب إلا أن يؤمنوا بالله، ويستغفروا لذنوبهم. (تفسير المدارک)

أقوال أهل العلم ومصادرها

کلام برکۀ:

أى توقف نزول العذاب عليهم بمکۀ بفضل تواجد النبى ٠ بين أظهرهم، لکنه نزل عليهم يوم بدر. فمادام العصاۀ يتوبون إلى الله ويستغفرونه إلا والعذاب لا يحل بهم، مهما کان حجم المعصيۀ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: کان فيهم أمانان: النبى صلى الله عليه وسلم والإستغفار فذهب النبى صلى الله عليه وسلم وبقى الإستغفار (الترمذى) (موضح القرآن)

مزيد من الأقوال:

ما ذکرنا تحت «ملخص معانى الآيۀ» کان وفق تحقيق تفسير المدارک وموضح القرآن، وقال غيرهما من أهل العلم: طالب المشرکون بعذاب يخالف العادۀ، أو طالبوا بعذاب يهلکهم جميعا، لکنه لم يأتهم لأمرين:

أحدهما: وجود النبى ٠ بينهم، فهو رحمۀ الله للعالمين.

ثانيهما: استغفار المشرکين أثناء الطواف.

وما ذکره الإمام القرطبى رحمه الله تعالى بشأن تفسير الآيۀ الکريمۀ، يحيط بجميع جوانبها، وفيما يلى نذکر ملخصه:

لمّا قال أبو جهل: {اللهم إن کان هذا هو الحق من عندک} نزل قوله تعالى: {وما کان الله ليعذبهم وأنت فيهم} کما أخرج مسلم فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما: لا ينزل العذاب بقوم حتى يفارقهم الرسول والذين آمنوا معه ويتوجهوا إلى حيث أُمروا. قال الله تعالى: {وما کان الله معذبهم وهم يستغفرون} قال ابن عباس: کان المشرکون يقولون أثناء الطواف حول الکعبۀ: «غفرانک». فالعصاۀ إذا استغفروا، أُبعد العذاب عنهم ولو لبعض الوقت. وقيل: المراد منه بقاء

المسلمین بینهم، فإنهم عادۀ یستغفرون، ولمّا خرج المسلمون من مکۀ، نزل العذاب علی المشرکین ببدر، وبه قال ضحّاک، وقیل: أراد بالاستغفار : دخولهم فی الإسلام، وبه قال مجاهد وعکرمۀ. وقیل: أراد بالاستغفار استغفار أولئک الذین فی أصلابهم ممن یسلمون فیما بعد فیستغفرون. وقیل: المراد منه أنهم لو استغفروا لم یُعذّبوا، ففیه تحریض وترغیب فی الاستغفار ونبذ الکفر والشرک والمعاصی. (تفسیر القرطبی)

روایۀ الترمذی:

لقد أورد العدید من المفسرین روایۀ الترمذی هذه تحت هذه الآیۀ الکریمۀ:

«أنزل علیَّ أمانین لأمتی : {وما کان الله لیعذبهم وأنت فیهم وما کان الله معذبهم وهم یستغفرون} فإذا مضیت ترکت فیهم الاستغفار إلی یوم القیامۀ». (الترمذی)

نکتۀ غریبۀ:

قال الإمام النسفی رحمه الله تعالی:

«وفیه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم». (المدارک)

والمعنی أن الهجرۀ بدایۀ الجهاد، فبها ابتدأ الجهاد وتحققت هزیمۀ الکفر وانتصار الإسلام. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 34}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ومَا لَهُمْ اَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّوْنَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوْا اَوْلِيَآءَهُ، اِنْ اَوْلِيَآءُهُ اِلا الْمُتَّقُوْنَ ولكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُوْنَ}.

ملخص معانى الآية الكريمة:

استحقوا عذاب الله تعالى لأنهم كانوا يمنعون الناس عن المسجد الحرام، ولم يكن لهم ذلك، كما لم يكن لهم أن يتولوا شؤون المسجد الحرام، لأن ذلك إلى المتقين المسلمين، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

وحين يفارقهم النبى :

«أى {وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم} {وما لهم ألا يعذبهم الله} وهو معذبهم إذا فارقتهم، {وهم يصدون عن المسجد الحرام} وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام». (المدارک)

القول الثانى:

ومعنى الآية الكريمة فى ضوء القول الثانى لأهل العلم:

«أى كان امتناع العذاب عنكم للسببين المذكورين فيما أعلاه، وإلا فأعمالكم القبيحة وظلمكم وشقوتكم تستدعى العذاب الفورى، وهل هناك ظلم فوق منعكم المؤمنين الموحدين عن المسجد الحرام والصلاة فيه بحيل واهية، وإخراجهم عن موطنهم (مكة) كى لا يقترب منه هؤلاء العباد العُبّاد الأطهار، وزد عليه تبريركم ذلك بقولكم: إننا أولياء الحرم أصحاب السلطة الكاملة فى إذِن من أردنا له الدخول، ومنع من لم نرد له ذلك. مع أن سلطة منع الناس من الصلاة وعبادة الله فى المسجد الحرام لم تكن حاصلة لمن كان ولياً بحق، ثم إنكم لا تتأهّلون لتولّى شؤون المسجد الحرام، إذ هو من اختصاص الأتقياء الصالحين الموحدين، دون المشركين الخبثاء المجرمين، لكنكم بجهلكم كنتم تزعمون أنكم من أولاد إبراهيم عليه السلام، ومن القبيلة الفلانية، ورثتم هذا الحق عن آباءكم، ولا شروط لتولّيه عندكم. فقد أخبركم الله تعالى عمن يستحق هذه الولاية، وهم الأتقياء الأطهار من أولاد إبراهيم عليه السلام، ولا حق للمعتدين الظالمين الذين لم ترض عنهم ولم تأذن لهم». (التفسير العثمانى)

بشارة بتحرير الكعبة:

«لا يتولى الكعبة إلا من كان تقيا صالحا، أشار فى الآية الكريمة إلى أن المشركين سيحرمون عن ولاية الكعبة، وسيخلفهم المسلمون، وقد أشار إليه فى سورة التوبة بلفظ أوضح فقال: {ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون. إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله} (التوبة، الآيات: 17-18) (تفسير الفرقان).

ومن أحد أسباب محاربة المشركين: تحرير مساجد الله تعالى من أيديهم، ففى الآية إشارة إلى أن أناساً ظالمين غير متأهلين لمنصب الولاية قد سيطروا على المساجد، ففيها تحريض على الجهاد فى سبيل الله لتحرير المساجد. (والله أعلم بالصواب)

فائدة:

فى الآيات السابقة أمر المؤمنين بالجهاد فى سبيل الله، ورغّبهم فى التقوى بتضحية المال والأهل، ووعدهم بالفرقان وهو النصر والغلبة، وأشار فى هذه الآية إلى أن أولى الناس بتولّى شؤون المسجد الحرام هم أولياء الله وأتقياءه، وبالجمع بين الآيتين نتوصل إلى أن المسجد الحرام سوف يتحرر ببركة الجهاد. فكان كذلك بحمد الله تعالى، وسيطر المسلمون على مركز الهداية. (والله أعلم بالصواب)

مقتضى العذاب لا زال باقيا:

«معنى الآية الكريمة أن موانع العذاب الكبير الخارق للعادة متوفرة، لكن لا مانع من العذاب نفسه، بل مقتضاه الحقيقى وهو منعهم عن المسجد الحرام لا زال باقيا». (التفسير الماجدى)

المراد بالعذاب:

ما المراد من العذاب فى الآية؟ قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى:

«ثم اختلفوا فى هذا العذاب فقال بعضهم: لحقهم هذا العذاب المتوعد به يوم بدر، وقيل بل يوم فتح مكة، وقال ابن عباس: هذا العذاب هو عذاب الآخرة. (التفسير الكبير)

أى فيه ثلاثة أقوال: الأول: عذاب بدر. والثانى: تعذيبهم بشكل فتح مكة. والثالث: عذاب الآخرة.

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 35}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ اِلا مُكَآءً وتَصْدِيَةً فَذُوْقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُوْنَ}.

ملخص معانی الآیة الکریمة:

أشار فيها إلى أنهم ليسوا أهلا لولاية المسجد الحرام، لأنهم يهينونه باسم عبادة الله، إذ ليس صلاتهم عند البيت إلا تصفيراً وتصفيقاً، فسوف يذوقوا العذاب بما كفروا.

فيها بشارة بالجهاد:

قال الإمام الرازی:

«والمقصود بيان أن من كانت هذه حاله لم يكن وليا للمسجد الحرام، فهم إذن أهل لأن يقتلوا بالسيف ويحاربوا، فقتلهم الله يوم بدر وأعز الإسلام بذلک». (التفسير الكبير)

إشارة إلى غزوات الرسول ﷺ:

{فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون} وطبقا لهذا الوعيد فإن عذابا غير عادى، بشكل غزوات الرسول ﷺ قد حلَّ بهم. (التفسير الماجدی)

قال الشيخ أشرف علی التهانوی رحمه الله:

«فقد عوقبوا بالغزوات العديدة، كما أشار إلى ذلک فی الركوع الثانی من هذه السورة». (بيان القرآن)

وقال الإمام النسفی رحمه الله:

«فذوقوا العذاب عذاب القتل والأسر يوم بدر». (المدارک)

محاربة الكفار الثقافية:

أشار فی الآية السابقة إلى أن المشركين لا يتأهلون لتولی شؤون المسجد الحرام، وفی هذه الآية أكّد عليه.

«لمّا نفى عنهم أن يكونوا ولاة البيت ذكر من فعلهم القبيح ما يؤكّد ذلک وأن من كانت صلاته ما ذكر لا يستأهل أن يكونوا أولياءه». (البحر المحيط)

وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية، أشار المفسرون فی ذلک إلى سببين:

الأول: كانوا يزعمونه عبادة، كما قال ابن عباس: «كان ذلک عبادة فی ظنهم» (البحر المحيط)

الثانی: كانوا يفعلون ذلک للإخلال بصلاة الرسول والمسلمين:

«يريدون أن يشغلوا بذلک الرسول عن الصلاة». (البحر المحيط)

«وکانوا یفعلون نحو ذلک إذا قرأ رسول الله ﷺ فی صلاته یخلطون علیه». (المدارک)

«لیشغلوه، وأمته عن القراءة والصلاة». (البحر المحیط)

وبالمقصد الثانی الأخیر یمکن الإشارة إلی أعمال اللهو واللعب والتفرج والموسیقا لیغفل المسلمون عن الصلاة والقرآن والدین، وهذه الحرب الثقافیة تستمر ضد المسلمین فی کل عصر وزمان، کما فی یومنا هذا حیث تقوت وشدّت أزرها أکثر من سابقتها، فنسأل الله العافیة والسلامة لهذه الأمة. آمین یا أرحم الراحمین.

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 36}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُواْ يُنْفِقُوْنَ اَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُوْنَهَا ثُمَّ تَكُوْنُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُوْنَ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُوْنَ}.

ملخص معانی الآیة الکریمة:

أشار فيها إلى أن هؤلاء الكفار والمشركين ينفقون أموالهم ليمنعوا المسلمين عن سبيل الله، فسينفقون مزيدا منها، ثم تكون تلك الأموال حسرة عليهم، ثم يُغلبون بيد المسلمين، فمن مات منهم كافرا يُحشر إلى جهنم.

سبب النزول:

1- قال مقاتل والکلبی رحمهما الله: نزلت فی المطعمین یوم بدر وکانوا اثنی عشر رجلا من صنادید قریش. (التفسیر الکبیر)

2- نزلت فی أبی سفیان بن حرب استأجر یوم أحد ألفین من الأحابیش یقاتل بهم النبی ﷺ.

3- لما رجع فل قریش إلى مکة من بدر إلى آخره. (البحر المحیط)

لمّا رجعت فلول المشرکین إلى مکة من بدر، ووصل أبو سفیان مع العیر بمکة، أجمعوا على أنهم لا یوجهون هذه الأموال إلا لأخذ الثأر من المسلمین، فنزلت هذه الآیة.

تفسیر موجز:

«لقد تکفل اثنا عشر زعیما من المشرکین کل واحد منهم یُطعم الجیش یوما من أیام بدر، فکانت عشرة جزور ینحرها أحد هؤلاء الزعماء کل یوم، فلما تلقوا هزیمة نکراء، ورجعوا إلى مکة قالوا لأبی سفیان وغیره: لا نصرف هذه الأموال إلا فی الانتقام من المسلمین، فاتفقوا علیه، فهذا هو الإنفاق الذی ذکره الله تعالى فی الآیة الکریمة، یقول الله تعالى إن هؤلاء الکفار والمشرکین لمّا یُغلبون ویُقهرون فی الدنیا، ویُعذّبون فی الآخرة، تحسّروا وتندموا على ما أسلفوا فی الدنیا من ضیاع المال وفلتان النصر، وفی الآخرة من الخزی والعار. فقد وجّهوا ما کانوا یملکونه من قوى مالیة وبدنیة إلى محاربة الرسول والإسلام بدایةً من بدر ثم أُحد وغیرهما، لکنهم لم ینالوا شیئا، وقُتلوا على ید المسلمین وأُهلکوا، أو ندموا ورجعوا عن کفرهم وتابوا وأسلموا». (التفسیر العثمانی)

ینفقون الأموال لمنع انتصار الإسلام:

«والمعنى أن الکفار یقصدون بنفقتهم الصد عن سبیل الله وغلبة المؤمنین». (البحر المحیط)

فائدة:

فى ثنايا الترغيب فى الجهاد أشار الله تعالى إلى وتيرة المشركين حيال المسلمين وعدائهم وظلمهم واستخدامهم الأموال للقضاء على الإسلام والمسلمين، لذلك وجب محاربتهم وتدمير أموالهم لحماية الإسلام والمسلمين. (والله أعلم بالصواب)

الحرب الاقتصادية:

أشارت الآية الكريمة إلى الحرب الاقتصادية مع الكفار الذين كانوا يستخدمون أموالهم لإلحاق الضرر بالإسلام والمسلمين، ولا يزالون يحاربونهم، وفى عصرنا الحاضر بلغت هذه الحروب أوجها فى الضراوة والشدة والفظيعة. (والله أعلم بالصواب)

نكتة مهمة جداً:

كان النبى ﷺ قد خرج من المدينة المنورة للقاء عير قريش القادمة من الشام بزعامة أبى سفيان، وهنا يشعر بعض المؤرخين المسلمين بالخجل، ويوردون تأويلات مختلفة، لكن الله سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية الكريمة السبب الرئيسى الذى لأجله كان خروج النبى ﷺ، وهو أن المال كان عنصراً مهما بالنسبة للمشركين الذين كانوا يستخدمونه للنيل من المسلمين والقضاء عليهم، فبه كانوا يشترون السلاح، وينظمون به المقاتلين لمحاربة المسلمين، وبه يجنّدون المرتزقة، ويشترون المنافقين من المسلمين، ويسعون إلى القضاء على الإسلام والمسلمين، فأموال أعداء الإسلام كالسم فى فم الحية، فهل لا يشرع لأحد أن يأخذ الحية ويطرح السم من فمها؟ فالنبى ﷺ وصحابته كانوا بعيدين عن حب المال، لأنهم إن أحبوا المال لوافقوا على عرض تحويل أُحد ذهبا، إن كان المال ما يطمحه النبى ﷺ لوافق على ما عرض عليه المشركون من جمع مال عظيم له بمكة، فكل من ألقى نظرة عابرة على حياته ﷺ المباركة وتعاليمه الكريمة، لاعترف – سواء أكان محبا له أم معاديا – أنه لم يكن يحب المال والدنيا، أما خروجه مع أصحابه للقاء عير أبى سفيان التجارية فكان لقصم ظهر المشركين من الناحية الاقتصادية، التى كانت تتمثل دعامة المشركين الأولى فى محاربة الإسلام والمسلمين، فهذه الآية الكريمة تُشير إلى الأضرار الجسيمة التى تلحق بالمسلمين فى حال تقدم المشركين فى المجالات الاقتصادية، يا ليت لو تأمّل أولئك المؤرّخون الذين يشعرون بالخجل على خروجه ﷺ للقاء عير المشركين فى هذه الآية المباركة الوحيدة لأدركوا أن مهاجمة أموال أعداء الإسلام من أهم ما يقتضيه الإسلام، بل أموالهم تُشكّل خطراً أكبر من عامتهم، لذلك من الأولى مهاجمة أموالهم قبل نفوسهم بغرض حماية الإسلام والمسلمين. (والله أعلم بالصواب)

ومن هنا ندرك بأن الآية الكريمة تُشير المسلمين إلى ضرورة تحطيم القوة المالية للمشركين وإضعافها.

عموم مضمون الآية:

قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى إن مضمون الآية عام رغم خصوص سبب النزول، فكلما بذل الكفار أموالهم لمنع الناس من الحق، فشلوا فى دنياهم واخراهم، وندموا، فدين الله يكتمل وينتشر. ينفق الكفار أموالهم ليطفئوا نور الله بأفواههم، ثم يندمون عليه، يتحسرون على أنهم أنفقوا أموالهم لكن أهدافهم لم تتحقق، فهؤلاء يُغلبون فى الدنيا، ويدخلون نار جهنم فى الآخرة. (تفسير أنوار البيان)

فائدة:

لقد غيّر الله تعالى وجهة الجيش الإسلامى من عير أبى سفيان إلى جند أبى جهل، لأن القضاء على زعامات الشرک والكفر كان من أهم ضرورات الوقت، وبما أن بدر كانت تمثل البذرة الأولى نحو غلبة الإسلام، لذلک أراد الله تعليم حقيقة الجهاد بمواجهة عدو شرس، لتتضح لهم جميع جوانب الجهاد. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 37}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لِيَمِيْزَ اللهُ الخَبِيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيْثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيْعاً فَيَجْعَلَهُ فِيْ جَهَنَّمَ أُولِئكَ هُمُ الْخاسِرُوْنَ}.

ملخص معانی الآیة:

لا يُنفق الكفار شيئاً من أموالهم فی محاربة الإسلام إلا ليُفرّق الله به بين الكافر الخبيث والمؤمن الطيّب، وليُميّز الله بين المال الطيب والخبيث، حيث الطيب يُنفق فی جهات الخير، والخبيث يُنفق فی جهات الشر، ثم يجعل الخبيث بعضه على بعض، بحيث يتراكم ويجتمع بعضه على بعض، فيجعله فی جهنم، أولئک هم الخاسرون.

كلام بركة:

قال الشاه رحمه الله تعالى:

أی إن الله سبحانه وتعالى سيُغلب الإسلام على الكفر رويدا رويدا، وأثناءه ينفق الكفار قواهم البدنية والمالية فی محاربة الإسلام، ليمتاز الخبيث من الطيب، أی ليدخل فی الإسلام كل من قدّر الله له ذلک، ومن قضى عليه بالكفر يموت عليه، فيدخل فی نار جهنم مع أمثاله من الكفار مجتمعين. (موضح القرآن)

والمعنى أن الكفار بإنفاق المال يسلّطون الحرب على المسلمين، ويقيمون حلفا مع أنصارهم، يتحالف معهم الحريصون فی المال، أما المؤمنون المخلصون فينزلون فی ساحة القتال لمحاربتهم، وهكذا تمتاز جماعة المؤمنين عن جماعة الكافرين، وسوف يلقيهم الله تعالى فی نار جهنم مجتمعين.

كلام الرازی:

ذكر الإمام الرازی رحمه الله تعالى معنيين للآية:

الأول: ليميز الله الفريق الخبيث من الكفار من الفريق الطيب من المؤمنين.

فاللام فی «ليميز» متعلقة بـ «يحشرون»، والمعنى أنهم يحشرون ليميز الله الفريق الخبيث من الفريق الطيب.

الثانی: المراد بالخبيث نفقة الكافر على معاداة محمد ، وبالطيب نفقة المؤمن فی جهاد الكفار، كإنفاق أبی بكر وعثمان رضی الله عنهما فی نصرة الرسول .

والمعنى أن الله يميّز المال الخبيث من الطيب، والمال الخبيث ما أنفقه المشركون فى محاربة محمد ، والمال الطيب هو ما أنفقه المسلمون فى محاربة المشركين، مثل ما أنفقه أبو بكر وعثمان لنصر النبى ، ثم يجمع الله المال الخبيث فيجعله فى نار جهنم، ويعذّب به المشركين، كما قال تعالى : {فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم} أى تُذاب الفضة والذهب فى نار جهنم، ثم تكوى بها جباههم وجنوبهم. ووفق هذا التفسير تكون لام «ليميز» متعلقة بـ «تكون». كما فى التفسير الكبير: «وعلى القول الثانى متعلق بقوله ثم تكون عليهم حسرة». (التفسير الكبير).

فائدة:

أشارت الآية الكريمة إلى أن المشركين يتخذون حلفاء بأموالهم لمحاربة المسلمين فى كل عصر وزمان، وعلى المسلمين أن لا يفزعوا منهم، ولا يتقاربوهم، بل عليهم محاربتهم بكل ثبات ويقين، إذ هم وقود النار، إلا من اعتنق الإسلام منهم. والله أعلم بالصواب

نكتة مهمة:

الطيب من المال عند الله كل مال أُنفق فى الجهاد فى سبيل الله، وعلى كل مسلم أن يسعى إلى ادخار هذا النوع من المال لينفعه فى الآخرة. (والله أعلم بالصواب)

حلفاء الدنيا رفقاء النار:

قال صاحب أنوار البيان:

كان المشركون فى الدنيا يدا بيد فى محاربة الإسلام، همهم الوحيد هو إلحاق الضرر بالمسلمين، وسوف يجتمعون معاً يوم القيامة فى دار العذاب ليذوقوا طعمه، ويخلدوا فيها. (أنوار البيان)

المجاهدون طيبون والمتخلفون ضده:

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة:

أى إنما أقدرناهم على ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب، أى من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين أو يعصيه بالنكول على ذلك كقوله {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم} (آل عمران 166-167)

دروس:

1- أموال أعداء الإسلام أخطر سلاح ضد المسلمين، والواجب السعى إلى تدميره.
2- كل مال أُنفق فى محاربة الإسلام فهو مال خبيث.

3- وکل مال أُنفق فی محاربۃ الکفار فهو مال طیب، ویجب علی المسلمین أن ینفقوا أموالهم فی الجهاد فی سبیل الله، أجراً وذُخراً لهم فی الآخرۃ.

4- الکفار یقیمون حلفاء اعتماداً علی المال، لذلک یجب علی المسلمین أن یتحالفوا فیما بینهم لیس علی أساس المال، بل علی أساس الإیمان والهجرۃ والنصرۃ والجهاد.

5- کل من جاهد فی سبیل الله من المسلمین فهو طیب طاهر، وکل من أعرض عن فریضۃ الجهاد فهو لیس کذلک.

6- الکفار یسلّطون علی المسلمین حربا اقتصادیۃ، ویسعون إلی إحداث اضطرابات فی صفوف المسلمین بإنفاق الأموال علی کل من یعمل لمصلحتهم، وطریق محاربۃ هذا النوع من الحرب أن یُبعد المسلمون عن أنفسهم حرص المال وطمعه، ویحرصوا علی قضاء حیاۃ عادیۃ بعیدۃ عن الترف والتنعّم، لا یتخذوا زینۃ الحیاۃ الدنیا وبهجتها مقصود حیاتهم، ولا یقعوا فی حب المال، إن کانوا یشتاقون إلی لقاء الله ویتمنون الشهادۃ فی سبیل الله، فإن حرب الکفار الاقتصادیۃ لن تضرهم، وتتحول أموالهم إلی مغانم للمسلمین، کما وقع فی غزوۃ بدر، وحدث ذلک مرارا فی عهد الصحابۃ الزاهر. والقرآن قد دعا إلی الجهاد عقب هذه الآیۃ، واستعرض مسألۃ تقسیم الغنائم، وفی ذلک إشارۃ واضحۃ إلی أسالیب القضاء علی حرب الکفار الاقتصادیۃ. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 38}

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُل لِلَّذِيْنَ كَفَرُواَ اِنْ يَنْتَهُوْا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَاِنْ يَّعُوْدُوْا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الاَوَّلِيْنَ}.

ملخص معانى الآية الكريمة:

يجب أن يعلم الكفار أن باب التوبة مفتوح، فإن أسلموا وانتهوا عن محاربة المسلمين، غفر الله ما تقدم من ذنبهم، وإن يعودوا إلى محاربة المسلمين، فقد مضت سنت الله فى نصر المسلمين وإهلاک أعدائهم.

الإسلام يمحو الذنوب السابقة:

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

وفى الصحيح أيضاً أن رسول الله ٠ قال: الإسلام يجبّ ما كان قبله، والتوبة تجبّ ما كان قبلها. (ابن كثير)

رحمة الله العظيمة:

قال الإمام القرطبى رحمه الله تعالى:

هذه لطيفة من الله سبحانه... الخ

أى إنه من كرم الله ولطفه على عباده أن الكفار رغم إحاطة الذنوب بهم، وإتيانهم صنوف المعاصى، التى إن حاسبهم الله تعالى عليها لما وجدوا سبيلا إلى التخلص من تبعاتها، فقد يسّر الله تعالى لهم، إن تابوا وأسلموا، تاب الله عليهم وعفا عما سلف. فعل ذلک ليبادروا إلى نبذ الكفر والشرک والدخول فى دين الله أفواجا، ولينطقوا بكلمة المسلمين، لأنهم إن قيل لهم: سوف تحاسبون على ما أسلفتم من الأعمال، لما تابوا إلى الله وما أسلموا. (القرطبى)

فإن عادوا يقاتلون:

وإن يعودوا يريد إلى القتال. (القرطبى)

فقد مضت سنة الأولين... قال مجاهد: أى فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم وقال السدى ومحمد بن إسحاق أى يوم بدر. (ابن كثير)

وقال بعض أهل العلم:

فقد مضت سنة الأولين فى نصر الله وأنبيائه وأوليائه وإهلاک أعدائه. (معالم التنزيل)

قال الإمام أبو حيان رحمه الله:

وتخويفهم بقصة بدر أشدّ. (البحر المحيط)

وعلى كل حال، فالله سبحانه وتعالى يذكّر المسلمين بغزوة بدر مراراً وتكراراً كى يُحيوها، ويذكّرها الكفار ليُخيفهم بها وليدعوهم إلى الإسلام. (والله أعلم بالصواب)

يُغفر عداءهم:

قال الإمام النسفى فى تفسير الآية الكريمة:

«قل للذين كفروا أى أبو سفيان وأصحابه أن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله ﷺ وقتاله بالدخول فى الإسلام، يغفر لهم ما قد سلف لهم من العداوة وإن يعودوا لقتاله فقد مضت سنة الأولين بالإهلاك فى الدنيا والعذاب فى العقبى». (المدارک)

والمعنى أن المسلمين أُمروا بدعوة الكفار المحاربين إلى الإسلام بعد الفتح عليهم، وبتهديدهم بالمصير نفسه إن عادوا لقتال المسلمين، وهذا قد يمهّد الطريق لكثير من الكفار إلى اعتناق الإسلام، لأن الفتح يمهّد طريق الدعوة إلى الله. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 39}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وقَاتِلُوْهُمْ حَتَّى لا تَكُوْنَ فِتْنَةٌ وَّيَكُوْنَ الدِّيْنُ كُلُّهُ لله. فَإِنِ انْتَهَواْ فَاِنَّ اللهَ بِمَـا يَعْمَلُـوْنَ بَصِيْرٌ}.

ملخص معانى الآية الكريمة:

أيها المؤمنون.. قاتلوا الكفار ولا تتوانوا حتى تتحطم قوتهم وشوكتهم، ويتغلب الإسلام على بقية الأديان، فإن انتهوا عن الكفر والشرك فتوقفوا عن قتالهم، إن الله بصير بأعمالهم.

أقوال أهل العلم

1- كلام بركة:

قاتلوهم حتى لا تكون فتنة، أى قوة الكفار وشوكتهم القادرة على منع الناس من الإيمان. (موضح القرآن)

2- لدحر قوة الكفر والشرك:

لن يُعيد أهل الإيمان الأوفياء سيوفهم إلى أغمادها حتى يدحروا قوة الكفر والشرك، وترفرف راية التوحيد خفّاقة فى العالم كله.

3- ما معنى الآية عند الصحابة؟

قال بعض أهل العلم: معنى الآية: واصلوا قتال المشركين حيثما وُجدوا حتى ينتصر الإسلام على الدين كله، ولانتصار الإسلام وجهان: الأول: أن يعتنقوا الإسلام، والثانى: يوافقوا على دفع الجزية، فصحابة رسول الله ٠ واصلوا الجهاد طيلة حياتهم، ثم سار على نهجهم كثير من الملوك والحكام، لكن المسلمين اليوم تركوا الجهاد، لذلك يقهرهم الكفار ويتغلبون عليهم.

4- حتى يسود الحق والصدق على الأرض:

يأمر الله المسلمين بمواصلة قتال المشركين حتى تندحر فتنة الكفر والمعاصى، ويسود الحق والصدق فى الأرض. (التفسير الحقانى)

5- الاعتراف بالقرآن بأنه أسمى دستور:

أشار فى الركوع السابق إلى أن المشركين يعملون دائما للإضرار بالمسلمين، وأن الله سينصر المخلصين الموحدين ضدهم، لكن بشرط أن يجعلوا القرآن الذى أُنزل على محمد ﷺ دستور حياتهم، ويواصلوا قتال المشركين، فسلاسل النور والظلمة والحق والباطل والإيمان والكفر تبقى مختلفة، يسعى كل منهما إلى القضاء على الآخر، ويستحيل استتباب الأمن والسلام ما بقى الكفر والشرك، فإن تمنيتم أن يسود الأمن والسلام ربوع الأرض فعليكم الاستعداد لمحاربة المشركين للأبد، حتى يتم تطبيق شرع الله، وحتى لا يتجرأ أحد على تقبيحه أو تنقيصه، وتزول الفتن كلها، وتقام حكومات الإسلام فى العالم كله، وتعيش شعوب العالم والأديان فى ظله بأمن ورخاء، فهذا هو: {حتى تضع الحرب أوزارها} أى مادامت الحرب قائمة لا يجوز للمسلمين القعود عنها، وهذا هو قوله: {حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله}، وفيه كان قوله ﷺ:

أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.

لم يأت الإسلام لإراقة الدماء وذبح الناس، بل جاء لنشر شرع الله وليستتب الأمن والاستقرار فى الأرض، فكلما امتنع الكفار عن مخالفة الإسلام، وسادت تعاليم الإسلام فى العالم، وتم الاعتراف بضوابط الإسلام على أنها أسمى دستور على وجه الأرض، جاز للمسلمين وضع السيوف فى أغمادها، ثم لا يخفى على الله ما يفعلونه بعدها، فإن عادوا إلى التمرد كفى الله المؤمنين القتال، وسوف ينصرهم عليهم، لذلك اجعلوا إعلاء كلمة الله أقصى غاياتكم وأهدافكم، ولا تهتموا بالغنائم كثيراً. (تفسير الفرقان)

6- تفسير جامع للآية:

معنى الآية : قاتلوهم حتى لا يقدروا على إعاقة طريق الإيمان، أو يشكلوا تهديدا للدين الحق، يشهد لذلك التاريخ، كلما تحقق النصر للكفار شكّل تهديداً لإيمان المسلمين ودينهم، وخير شاهد عليه ما حصل على أرض الأندلس من قتل وإبادة وارتداد عن الدين بعدما تغلب النصارى على المسلمين. وعلى كل حال فمن أهم مقاصد الجهاد إمكانية أداء شعائر الإسلام فى أجواء آمنة بحيث لا يتعرض إيمان المسلم وعقيدته للتهديد بيد الكفار والمشركين، وهذا هو تفسير الفتنة المنقول عن ابن عمر وغيره من الصحابة رضى الله عنهم فى كتب الحديث. {ويكون الدين كله لله} وهذا من مقاصده الأخيرة، بأن يتم القضاء على قوة الكفر وشوكته، ويكون الحكم لله، ويتغلب دين الحق على الأديان كلها. {ليُظهره على الدين كله} سواء أكان ذلك حال بقاء الديانات الباطلة، كما وقع ذلك فى عهود الخلفاء الراشدين، أو بالقضاء على جميع الأديان الباطلة، كما سيكون عند نزول المسيح عليه السلام.

والحاصل أن الجهاد بنوعيه الهجومى والدفاعى مشروع ما لم يتحقق الغرضان المذكوران، لذلك قال النبى ﷺ: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة». ويمكن مراجعة كتب الفقه لمعرفة أحكام الجهاد

وشروطه. ثم قال: {فإن انتهوا} أى كل من امتنع عن الفساد والكفر فى الظاهر من المشركين فلا قتال معه، ويفوّض باطنه إلى الله سبحانه وتعالى، لأنهم لا يغيبون عنه، ولا يكلّف المسلمون إلا بالظاهر. (التفسير العثمانى)

7- حكم الجهاد باق إلى يوم القيامة:

ملخّص هذا التفسير أنه يجب على المسلمين محاربة أعداء الإسلام حتى لا يشكلّوا فتنة وتهديدا للمسلمين، وينتصر الإسلام على كافة الأديان، وهذا لا يتحقق إلا قرب الساعة، لذلك اُمروا بالجهاد إلى يوم القيامة. (معارف القرآن)

لقد ساعدت ما ذكرنا أعلاه من العبارات على توضيح نواحى عدة من الآية الكريمة، وفيما يلى لاحظوا الإحالات إلى بعض المراجع العربية:

1- سبقت عبارة القرطبى هذه عند تفسير الآية 193 من سورة البقرة: «وقاتلوهم أمر بقتال كل مشرك فى كل موضع». (القرطبى، سورة البقرة، الآية 193).

2- قال الإمام الرازى رحمه الله: إن كان معنى قوله: {قاتلوهم حتى لا تكون فتنة} هو: «قاتلوهم لأجل أن يحصل هذه المعنى» فالآية تتعلق بجزيرة العرب. وإن كان معناها: «قاتلوهم لغرض أن يحصل هذا المعنى» ففيها أمر بقتال كفار العالم كلهم. (التفسير الكبير)

3- قال الإمام أبو بكر الجصاص رحمه الله:

وقوله تعالى: {ويكون الدين كله لله} يدل على وجوب قتال سائر أصناف الكفر.

ثم كتب حول لفظ «الفتنة» فى الآية:

«قال ابن عباس والحسن: حتى لا يكون شرك. وقال محمد بن إسحاق: حتى لا يفتتن مؤمن عن دينه، والفتنة ههنا جائز ان يريد بها الكفر، وجائز ان يريد بها البغى والفساد، لأن الكفر إنما سمّى فتنة لما فيه من الفساد، فتنظم الآية قتال الكفار وأهل البغى وأهل العيث والفساد، وهى تدل على وجوب قتال الفئة الباغية». (أحكام القرآن)

4- وقال الإمام الآلوسى رحمه الله:

«قيل: لم يجئ تأويل هذه الآية بعد، وسيتحقق مضمونها إذا ظهر المهدى، فإنه لا يبقى على ظهر الأرض مشرك أصلا على ما روى عن أبى عبيد». (روح المعانى)

نكتة مهمة:

نُقل النوعين من التفاسير عن الصحابة، و مسألة الجهاد بصفة عامة مبسوطة فى مئات صفحات القرن الكريم، إذا قرأنا الآية التى قبلها، اتضح لنا معنى الفتنة هنا، وهو كون الكافرين بوضع وقوة تمكّنانهم من منع الناس عن الإسلام أو على إيذائهم، هذا هو معنى الفتنة، كلما استخدموا قوتهم العسكرية والاقتصادية ضد الإسلام والمسلمين، تحققت الفتنة، والمسلمون لا يقضون عليها إلا بالجهاد فى سبيل الله، فالإسلام لم يأت للجزيرة العربية، إنما جاء للعالم كله، كما اتضح ذلك بالعبارات السابقة. والله أعلم بالصواب

فائدة:

يسخر الكفار جميع إمكانياتهم المادية والمعنوية لمنع المسلمين عن دينهم، ويتآمرون ضد قياداتهم، كما يدبرون الحيل ضد القرآن وتعاليمه، يقيمون حلفاء لمحاربتهم، ويخوضون حربا ثقافية لمنعهم عن الذكر والصلاة، يستخدمون أموالهم لمحاربة الإسلام والمسلمين، فمقدرة الكفار على كل هذه هى الفتنة، لأنهم بها يضلون المسلمين ويضعفونهم، ويمنعون من تطبيق الشريعة الإسلامية والنظُم القرآنية على العالم، والضعفاء من المسلمين إذا شاهدوا قوتهم وشوكتهم وبرقهم الظاهرى، رغبوا فيهم وضلّوا.

فالفتنة هى كون الكفار بحال يتمتعون فيها بالقوة والشوكة، وقد أمر الله تعالى بكسر هذه الشوكة بالقتال فى سبيل الله، وخير مثال عليه غزوة بدر التى سبق ذكرها، فالمشركون بمكة كانوا أقوياء، ظلموا المسلمين وآذوهم، وأجبروا بعضهم على نطق كلمة الكفر، ومنعوا بعضهم عن دينه، كما دبّروا لقتل النبى • بفضل هذه القوة، وأجبروا المسلمين على الهجرة، وأدخلوا بعض الضعفاء من المسلمين بالتهديد بالقتل وبالإغراء بالأموال فى صفوفهم، وكانوا بفضل هذه القوة يمنعون المسلمين من المسجد الحرام، ويقومون فيها بأفعال قبيحة، وفوجئ المسلمون بالأمر بالقتال، فباتت تندحر قوة المشركين هذه التى كانت تخلق الفتن، حتى زال اسم الشرک من الجزيرة العربية. وفى ضوء هذا المثال أراد الله تعالى تعليم المسلمين هذه النكتة، وكل من تعلّمها ووعاها استطاع أن يملأ الأرض بنور الإسلام بعد أن كانت قد امتلأت بالظلم والجور، ومن لم يعيها حُرم من الجهاد وثواب إعلاء كلمة الله، ومن هنا نقول: هذه الآية تُشير إلى نصاب تقدم المسلمين وتراجعهم، فهم إن عملوا بقوله: {قاتلوهم} تحطمت الفتنة وضعفت، وتغلب دين الله على الأديان كلها، وإن تركوا العمل بقوله: {قاتلوهم} فإن الفتنة تُلاحقهم فى جميع الميادين وتُؤذيهم وتتغلب عليهم، يجب على المسلمين أن يعلموا أن الإسلام إنما جاء للتنفيذ والغلبة، لذلک لا يكتفى أحد على أن المشركين لا يمنعوننا عن الإسلام والصلاة. (والله أعلم بالصواب)

{**سورة الأنفال مدنية، الآية** : 40}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَاِنْ تَوَلَّواْ فَاعْلَمُواْ اَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ، نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيْرُ}.

ملخص معانى الآيةَ:

إن لم يمتنع الكفار عن كفرهم ومحاربتهم، ورفضوا دعوة المسلمين إلى الله، فلا يفزع المسلمون عليه، ولا يجزعوا، فالله وليهم وناصرهم، نعم المولى هو ونعم النصير.

الجهاد بالتوكل بالله:

«يجب على المسلمين أن يتوكلوا على الله ويجاهدوا بنصر الله وتأييده، ولا يتخوفوا من كثرة أعداد العدو وعُدّته، وقد شاهدوا ببدر كيف نصرهم الله وأيدهم». (التفسير العثمانى)

فإن لم ينتهوا..

«فإن لم ينتهوا عن أعمالهم القبيحة وطغيانهم، لا تتراجعوا أيها المؤمنون إلى الوراء، فالله مولاكم وناصركم». (حاشيةُ اللاهورى رحمه الله)

وعد صريح بالفتح:

وهذا وعد صريح بالظفر والنصر. (البحر المحيط)

وإن واصلوا القتال:

أى وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم {فاعلموا أن الله مولاكم} وسيدكم وناصركم على أعداءكم {نعم المولى ونعم النصير} (ابن كثير).

لا تُبالوا بأحد:

فإن انتهوا فبها، وإلا فالله وليكم وناصركم، وهو خير مولى وخير ناصر، فلا تُبالوا بأحد. (التفسير الحقانى)

لا يسعكم إظهار الجبن والتخلف عن الجهاد :

قال تعالى: {وإِن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم} أى إن أعرض الكفار عن الإسلام وامتنعوا عن قبوله، واستعدوا لقتالكم، فقاتلوهم ولا تتوانوا ولا تجبنوا، فالله مولاكم وسوف ينصركم.

{نِعم المولى ونِعم النصير} أی الله خير مولى وخير ناصر، إن كان هو ناصركم ومولاكم فلا يسعكم التجبّن والقعود عن القتال. (أنوار البيان)

سلاحكم أقل وناصركم عظيم:

وحاصله أن المشركين إن لم ينتهوا عن الظلم والكفر والشرک، فالواجب على المسلمين ما سبق بيانه من مواصلة قتالهم وعدم التهاون، وبما أن الجهاد والقتال يعتمد عادةً على العدد والعُدّة، والمسلمون فيهما أقل مقارنة بما لدى عدوهم فيما جرت العادة، لذلک قد يحسب المسلمون حكم القتال عبئا ثقيلا عليهم، أو يظنوا أنهم لا ينتصرون على أعداءهم لقلة عددهم وعُدتهم، لذلک أراد الله تعالى معالجته بالإشارة إلى أنه لاشک أن الكفار أكثر عدداً وعُدّة، لكن نصر الله وتأييده لا يرافقهم، وهو لا يفارق المسلمين فی الأحوال كلها، ثم أشار إلى أن النصر والتأييد يحصل للجماعات كلها من هنا أو هناک، لكن النتيجة تعتمد على علم وقدرة وتجربة المعين والناصر، ولاشک أن أحدا لا يقدر على موازاة قدرة الله وعلمه وبصيرته، فكيف التفوّق عليه فيها. (معارف القرآن)

ختم دعوة الجهاد بأسلوب شيّق:

فی الآيات السابقة كانت دعوة المسلمين إلى الجهاد بأساليب متنوعة، والإشارة إلى تلک القبائح التی كانت تستدعی محاربة الكفار، وفی آخرها أمر المسلمين بمواصلة القتال بلفظ واضح حتى تندحر قوة المشركين وشوكتهم ويتغلب الإسلام عليهم، وهذا حكم صعب، لأن محاربة العالم كله وتغليب الإسلام فی العالم كله من الأمور الصعبة، فقال: لا تجزعوا ولا تتوانوا، فالله مولاكم وناصركم.

ليس عليكم إلا أن تعزموا على الجهاد والخروج فی سبيل الله، ثم ما بقی من الأمور فمفوضة إلى الله تعالى، أما رأيتم فی بدر، كيف نصركم وأعزكم، لذلک استمروا فی الجهاد متوكلين على الله ونصره. (والله أعلم بالصواب)

نكتة:

بما أن الله سبحانه وتعالى جعل نصره وتأييده فی كفة المؤمنين، فلا يصلح للمؤمنين أن يقارنوا ما عند المشركين بما عند المؤمنين ليتوانوا ويستضعفوا أمامهم، هربا من الجهاد وقعودا فی البيوت. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 41}

بسم الله الرحمن الرحيم

{واعلموا أنما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير}.

ملخص معانى الآية:

أمر الله تعالى بالجهاد للقضاء على الفتن ولغلبة الإسلام، ووعد بنصره وتأييده، والجهاد لا يخلو عن الغنائم، ولا يجوز تقسيمها إلا بما يُرضى الله ورسوله، فالذى يُرضى الله تعالى هو تقسيمها على خمسة أقسام، أربعة منها للمجاهدين، والخامس لله تعالى، وهذا الخامس يصرفه رسول الله ﷺ إلى المصارف الخمسة التالية نيابة عن ربه:

1- على ذاته ﷺ 2- على أقربائه من بنى هاشم وبنى عبد المطلب 3- على اليتامى 4- على المحتاجين من المسلمين 5- على ابن السبيل

يا أيها المسلمون! إن كنتم تؤمنون بالله ونصره الذى أنزله على عبده محمد ﷺ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، فعليكم أن لا تقسموا المغانم إلا بالوجه الذى ذكرناه، واعلموا أن الله على كل شيء قدير، قادر على نصركم وتأييدكم فيما تأتى من الأيام.

كلام بركة:

قال الشاه عبد العزيز رحمه الله تعالى:

أنزل الله نصره وفتحه على عبده، وبه انتصرتم على أعدائكم، فالله قادر على أن ينصركم فيما تأتى من الأيام، أما الأموال التى حصلتم عليها نتيجة الجهاد فهى غنائم، وخمسها نذر لله تعالى، يصرفه رسول الله ﷺ على نفسه وذوى قرابته والفقراء من المسلمين، وبعده يصرفه زعيم المسلمين وأميرهم، أما الأموال التى حصلتم عليها من الكفار مصالحةً فهى للمسلمين فى بيت مالهم، أما الأقسام الأربعة الباقية من المغانم فهى للمقاتلين، للراكب سهمان وللراجل سهم واحد. (موضح القرآن)

بيان عثمانى:

قال فى أول السورة: {قل الأنفال لله والرسول} وهنا ذكرها بشيء من التفصيل، فقال: ما حصلتم من الأموال بعد القتال مع الكفار فخمسه لله، يستلمه النبى ﷺ نيابة عن ربه ويصرفه إلى جهات خمسة: 1- على نفسه 2- على ذوى قرابته من بنى هاشم وبنى عبد المطلب الذين نصروه فى أول

الإسلام وآزروه إما للإسلام وإما للقرابة، ومنعوا من أموال الزكاة 3- على اليتامى 4- على ذوى الحاجة من المسلمين 5- على ابن السبيل.

وأما أربعة أخماس الباقية فهى للمقاتلين، للراكب سهمان وللراجل سهم واحد. وبعد وفاة النبى • لم تبق من مصارف الخمس إلا الثلاثة الأخيرة، لأن بعد وفاته • لا إنفاق عليه، وكذلك ذووا قرابته لا يحصلون على قديم نصرهم للنبى ؛ أما نصيب الفقراء والمحتاجين فيقدّم فيه ذووا قرابة رسول الله • على غيرهم. وقال بعض أهل العلم: يجوز للأمير أخذ خمس الخمس الذى كان يأخذه النبى : والله أعلم

فى بعض الروايات أن النبى • كان يخص بعضاً من خمس الخمس للكعبة المشرفة، فقال بعض أهل العلم: يخص للمساجد بدلاً من الكعبة إن كانت الكعبة تبعد عنهم. وأراد بيوم الفرقان «يوم بدر»، الذى فرّق بين الحق والباطل، فيه نصر الله أكمل عباده، وأمدهم بالملائكة، وأنزل عليهم السكينة، فالذين آمنوا بالله ونصرهم من الغيب، لا يصعب عليهم تخصيص الخمس من المغانم لله تعالى. (التفسير العثمانى)

فائدة:

جميع ما ذكره المفسرون فى التفاسير العربية، لخصناها فى العبارتين التاليتين، والآن لاحظوا بقية أحكامها وفوائدها.

ربط الآية:

قال الإمام أبو حيّان رحمه الله تعالى:

«ومناسبة هذه الآية لما قبلها : أنه لما أمر تعالى بقتال الكفار حتى لا تكون فتنة، اقتضى ذلك وقائع وحروباً، فذكر بعض أحكام الغنائم».

ثم قال الكلمة الضافية التالية:

«وكان فى ذلك تبشير للمؤمنين بغلبتهم للكفار». (البحر المحيط)

ومن هنا عرفنا أن الآية مرتبطة بآية {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة} يؤيده ما كتبه العلامة التهانوى رحمه الله تعالى:

فى الآية السابقة {وقاتلوهم} كان الأمر بالقتال، والقتال لا يخلو عن غنيمة عادة، لذلك بدأ الآن بذكر أحكامها. (بيان القرآن)

وكذلك الإمام الرازى ربط هذه الآية بآية {وقاتلوهم} وبالتأمل فى هذا الارتباط تظهر لنا أمور مهمة:

إن حكم تقسيم المغانم هذا باق إلى يوم القيامة، فعلمنا أن الأمر بالقتال فى {وقاتلوهم} مستمر إلى يوم القيامة. ففى قوله {وقاتلوهم} أمر بقتال طويل إلى أن يتم القضاء على الفتنة ويتغلب الإسلام على الأديان كلها، ولا يتم ذلك إلا عند قرب الساعة، والسؤال هنا هو من أين يتوفر السلاح

لهذا القتال الطويل؟ فأراد ببيان المغانم تطمين المؤمنين أن الله سبحانه وتعالى سيهبهم أموال الكفار ودولهم وحكوماتهم، التى تُيسّر عملية استمرار الجهاد.

فى قوله {وقاتلوهم} أمرهم بالقتال حتى يتم القضاء على الفتنة، والواقع أن المال أكبر فتنة لهذه الأمة، والمسلمون يقعون فى الفتنة بعدما يحصلون على الأموال بالجهاد، ولمنعهم من الوقوع فى الفتنة بيّن قانون تقسيم الأموال، وأشار إلى أنكم إن قسّمتموها وفق ما بيّنه الله تعالى لكم فإنكم لا تقعون فى الفتنة، لذلك يلزمكم قبول هذا التقسيم تجنّبا عن الفتنة، فإذا حصلت لكم المغانم فاجعلوا خمسه لله، ثم قسّموا الباقى كما ذكر الله لكم.

آية {وقاتلوهم} توجب الجهاد على المؤمنين، والمسلم إذا خرج للجهاد فمن أين يأكل هو وأهله؟ وكل شخص له حاجاته وحاجات أهله وعياله، لذلك أعقب تقسيم المغانم بعد الأمر بالقتال، وأشار إلى أن الله سوف يمنحهم هذا المال الطاهر الطيب، ويقضى به حاجاتهم، كما جاء فى بعض الروايات عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم جعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى.

فى قوله {وقاتلوهم} أمر بتحطيم قوة الكفار وشوكتهم، وقبلها أشار إلى قوة المشركين وشوكتهم بفضل أموالهم، وأنهم يحاربون الإسلام والمسلمين بإنفاق أموالهم، ويقيمون أحلافا، ومن هنا عرفنا أن بقاء أموال كثيرة بيد الكفار أشد خطراً على الناس من الموت، فبعد قوله {وقاتلوهم} ذكر تقسيم المغانم وأشار إلى أن بفضل جهادكم تتحطم قوة المشركين المالية، وأن أموالهم التى كانوا ينفقونها لإضلال الناس وتدميرهم ستتحول إلى مغانم، وتصرف إلى الفقراء والمساكين واليتامى، كما تؤدى إلى تقوية دعائم الخلافة الإسلامية وتوطيد الحركات الجهادية، ففيها بشارة وترغيب إلى أنه يجب على المسلمين العمل لمنع تقوية قوة المشركين المالية، أى لا يسمحوا لسموم الأفاعى وأسنانه بأن تزداد وتتحسن. (والله أعلم بالصواب)

2- ويمكن أن تكون هذه الآية مرتبطة بأول آية من سورة الأنفال وهى {قل الأنفال لله والرسول} وأن هذه الآية تفصيل وبيان لها، وهذا الذى اختاره صاحب التفسير العثمانى أثناء تفسير الآية.

وكما قال التهانوى رحمه الله تعالى:

وإن كان نزول هذه الآيات فى غزوة بدر كما قال أكثر المفسرين، فهذه الآية تفصيل للآية الأولى من سورة الأنفال من وجه، وهى: {قل الأنفال لله والرسول}. (بيان القرآن)

وقال أبو حيان رحمه الله:

قال الكلبى نزلت ببدر، وقال الواقدى: كان الخمس فى غزوة بنى قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة. (البحر المحيط)

فالسؤال الآن: هل هذه الآية ناسخة لآية {قل الأنفال لله والرسول} أم لا؟ ذكر القرطبى القولين، ويُعلم من عبارات أهل العلم فى ديارنا أن الأرجح عدم نسخها، بل لمّا اختلف صحابة رسول الله • فى مغانم بدر، أنزل الله تعالى هذه الآية ليبتعدوا عن حب المال ويحذروا من النزاع فيما بينهم، وأكّد أن ما غنموا من الأموال فهى لله ولرسوله، فلا يصلح لكم أن تبدوا آراءكم فيها، وتتنازعوا

فيما بينكم، بل الله ورسوله يحكم فيها كيف يشاء، فبعد نزول الآية صلحت قلوبهم، ولم يتعمقوا فى المغانم، وعادوا للجهاد غير طامعين فى المغانم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأعاد إليهم أربع حصص الغنائم، وجعله قانونا يعمل به إلى يوم القيامة، فكأنّ الآية الأولى تحمل حكما مختصرا أن تقسيم الغنائم يكون بأمر الله تعالى، و هذه الآية تذكر تفصيله. (والله أعلم بالصواب)

معنى الغنيمة فى اللغة والاصطلاح:

الغنيمة فى اللغة: الفوز بالشيء. (التفسير الكبير)

قال القرطبى رحمه الله:

الغنيمة فى اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي.

وفى الشريعة: مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر. (القرطبى)

والغنيمة فى الشريعة ما دخلت فى أيدى المسلمين من أموال المشركين على سبيل القهر بالخيل والركاب. (التفسير الكبير)

أما الفيىء فما يحصل عليه المسلمون بدون قتال، إما باستسلام المشركين أو بالصلح.

معانى بعض الكلمات:

{واعلموا أنَّما} «ما» فيها بمعنى «الذى» وصلته «غنمتم» والضمير محذوف فيه، تقديره: واعلموا أن الذى غنمتموه. (المدارك)

{من شيء} «من» بيانية، والتنوين للإشارة إلى العموم أن ما من شيء غنمتموه سواء كان أصغر من الإبرة والخيط.

{من شيء} بيانه قيل حتى الخيط والمخيط. (المدارك)

وقد استثنى الفقهاء استعمال بعض الأشياء أثناء القتال فى ضوء الأحاديث الصحيحة، كالمأكولات والمشروبات والسلاح.

{فأَنَّ لله خمسه} صرّح فقهاء الحنفية أن اسم الله ذُكر فى أول مصارف الخمس للبركة، لأن كل ما فى الدنيا ملك لله تعالى، ذكره تعالى للتبرك باسمه فى ابتداء الكلام إذ الكل لله. (الدرالمختار). (التفسير الماجدى)

يجب على المسلم إذا انتصر على الأعداء وحصل على مغانم أن يتذكر الله تعالى قبل كل شيء، الذى لأجله قاتل، وبنصره تحقق النصر له، لذلك كان ابتداء المصارف باسم الله تعالى، بأن يُفرز نصيب الله قبل الجميع، ومنحه للرسول كمنحه لله (كما هو مصرّح فى التفاسير) وتقديمه إلى بيت مال المسلمين أو إعطاءه للفقراء والمساكين كإعطاءه لله تعالى، فهذا من فضل الله عليه، وإلا فهو غنى لا يحتاج إلى شيء. (والله أعلم بالصواب)

أى أربعة أخماس الغنيمة يوزّع بين المقاتلين، والخمس الباقى ينذر لله تعالى، يُصرف إلى جهات الخير التى يُقصد منها مرضاة الله تعالى، من نشر الدين وتبليغه والدعوة إليه.

وفى مصطلح اليوم هذا، يكون ذلک من نصيب الدولة الإسلامية، ويُوجّه إلى خزانة الدولة. (التفسير الماجدى)

{وللرسول} ليس للرسول نصيب منفصل عن نصيب الله، بل لهما نصيب واحد، ونصيب الرسول كان يأخذه ᵔ فى حياته، وبعد وفاته تقديمه إلى خليفة الله فى الأرض أمير المؤمنين هو بمثابة تقديمه إلى الله تعالى، فهذا الخُمس الذى لا يُشكّل أكثر من 25٪ كان يأخذه من كان أميراً للدولة وقائداً للجيش وحاملا لرسالة الإسلام، والذى سقط بعد وفاته ᵔ.

وسهم النبى ᵔ سقط بموته (هداية). وسهم النبى ᵔ إنما كان له ما دام حيا، فلما توفى سقط سهمه. (جصاص)

وقالت الشافعية: سهم النبى ᵔ للخليفة بعد وفاته، واستدل الحنفية على عدم منحه للخليفة بأن النبى ᵔ كان يستحقه لرسالته، ولا رسالة بعد وفاته. (هداية)

يؤيده عمل الخلفاء الراشدين، فإنهم ما نقلوا نصيبه إليهم عقب وفاته ᵔ. (التفسير الماجدى)

يوم الفرقان:

يوم الجمعة 17 رمضان سنة اثنين من الهجرة، المطابق لـ 624م وقعت معركة بدر، يوم ميّز الله بين الحق والباطل بمرأى ومسمع من العالم، ضرب أروع مثال يدوم ما دامت السماوات الأرض.

والمراد منه ما أنزل عليه من الآيات، والملائكة والفتح يوم بدر. (التفسير الكبير)

{والله على كل شىء قدير} أى يقدر على نصركم وأنتم قليلون ذليلون. (التفسير الكبير)

فائدة:

أعقب بيان توزيع المغانم بتذكير معركة بدر بأنكم إن أردتم أن يتواصل نصر الله والفتح، فعليكم بتطبيق حكم الله فى المغانم. (والله أعلم بالصواب)

نكتة عجيبة:

لاحظوا قسمة الغنائم بالدقة، ستصلون إلى مكانة الجهاد ومنزلته العظيمة والرفيعة، ذهب المجاهد للجهاد، وعاد بالغنيمة، فقال الله له بكل محبة ومودة: النصيب الأول منه لى، سبحان الله، ما أعظم هذا الحب؟ أليس الله بغنى عن العالمين وعن مغانمهم؟

ثم عيّن فى هذه الغنيمة نصيب حبيبه المصطفى ᵔ، وهنا تصوروا كم يكون ذلک المال طاهرا وذكيا الذى حدّد الله فيه نصيب آخر أنبياءه المحبوب، ثم حدّد نصيب اليتامى والمساكين وأبناء السبيل حتى لا يُحرم أحد من ذلک الخير الذى جلبه المجاهد، والروايات تشير إلى تخصيص شىء من هذه المغانم للكعبة والمساجد. إذاً بركة الجهاد وخيراته وصلت إلى الكعبة المشرفة وعامة المساجد، ومن هنا يمكن تحديد مكانة الجهاد ومنزلته العالية المباركة. (والله أعلم بالصواب)

{**سورة الأنفال مدنية، الآية** : 42}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذْ أنتم بالعُدوة الدنيا وهم بالعُدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد، ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حىَّ عن بينة، وإن الله لسميع عليم}.

ملخص معانى الآية:

يوم الفرقان يوم الحسم ويوم النصر الخاص، فيه خرج المسلمون للاستيلاء على عير أبى سفيان، والمشركون خرجوا من مكة لإنقاذها، فجمع الله بينهما على غير ميعاد، وفى ساحة القتال ببدر كان المسلمون بالجهة التى هى أقرب إلى المدينة، ولم تكن صالحة للقتال، والمشركون كانوا بالجهة الأبعد من المدينة، وهى أرض نقية قريبة من الماء، أما عير أبى سفيان فقد تمكنت من الفرار بطريق الساحل، فكان اللقاء بين الفريقين على غير ميعاد، لأنه إن كان محدداً لما تمكن الفريقان من الوصول إلى ساحة القتال فى الميعاد، لكن الله جمع بينهما لما أراد من إظهار ما تم بتّه من نصر المؤمنين وغلبة الدين وهزيمة الكافرين، أمّا أن الله تعالى قد أحق الإسلام وأبطل الكفر والشرك يوم بدر فلإتمام الحجة، وليعلم من كان متمسكا بذيل الكفر والشرك أنه على الباطل وأن مصيره إلى النار، وأن من كان مؤمنا رأى بأم عينه أنه سائر على طريق الحق والسعادة، فكأنّه سبحانه وتعالى أراد سدّ باب الخلط بين الحق والباطل، لا يخفى على الله شىء وهو السميع العليم.

كلام بركة:

قال الشاه عبد العزيز الدهلوى رحمه الله:

خرجت قريش لنصر العير، وأنتم لتدميرها، فتخلصت العير، واجتمع الفريقان على جانبى الوادى بدون علم منهما، بتدبير من الله تعالى، ولو تواعدتم على الاجتماع لما استطعتم الوصول إلى الساحة فى الميعاد، ثم بعد فتحكم عليهم ظهر للمشركين صدق الرسول، فمن قُتل قُتل عن علم بالباطل، ومن سَلِم عن القتل تبيّن له الحق، لتتم حجة الله عليهم. (موضح القرآن)

تراكيب الألفاظ ومعانيها:

{إذ أنتم} «إذ» فيه بدل من «يوم». (الجلالين)

أى يوم الفرقان اليوم الذى كنتم فيه بالناحية القريبة من المدينة.

والتركيب الثانى أن «إذ» بدل من «وما أنزلنا».

أى أنزلنا إذ أنتم على هذه الصفة. (القرطبى)

والتركيب الثالث بإضمار «اذكروا» فی العبارۃ، أی اذكروا إذ أنتم، أنه متعلق بمضمر معناه: واذكروا إذ أنتم. (التفسير الكبير)

{العُدوۃ} والعدوۃ جانب الوادی. (القرطبی)

قال ابن السكّيت: عدوۃ الوادی وعدوته جانبه. (التفسير الكبير)

{الدنيا} تأنيث الأدنی، بمعنی الأقرب.

والدنيا تأنيث الأدنی من دنا يدنوا. (القرطبی)

{والقُصوی} تأنيث الأقصی، بمعنی الأبعد.

والقصوی تأنيث الأقصی من قصا يقصو (القرطبی)

فالدنيا كانت مما يلی المدينۃ، والقصوی مما يلی مكۃ. (القرطبی)

{العُدوۃ الدنيا} أی جانب الوادی الأقرب من المدينۃ، بطريق الشام المؤدی إلی مكۃ جبال بجهۃ الشمال الغربی بالقرب من بدر، بها نزل المسلمون. (التفسير الماجدی)

{العُدوۃ القُصوی} أی جانب الوادی الأبعد من المدينۃ، جبال بجنوب وشرق بدر، نزل بها جيش المشركين بزعامۃ أبی جهل المخزومی. (التفسير الماجدی)

وقال الإمام الرازی رحمه الله تعالی:

وكان الماء فی العدوۃ التی نزل بها المشركون. (التفسير الكبير)

الغايۃ من بيان خارطۃ معركۃ بدر:

قال النسفی رحمه الله:

«ليعلم الخلق أن النصر والغلبۃ لا تكون بالكثرۃ والأسباب، بل بالله تعالی...» الخ

(فالله سبحانه وتعالی أشار فی هذه الآيۃ الكريمۃ إلی منازل الجيشين ومراكزهما رغم مشاهدتهم ذلک بأعينهم، فكان ذلک) للإعلام بأن النصر والغلبۃ لا تكون بالكثرۃ والأسباب، بل بفضل الله وكرمه وحكمه، ثم قال النسفی موضحا خارطۃ معركۃ بدر:

«وذلک أن العدوۃ القصوی التی أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكان أرضا لا بأس بها ولا ماء بالعدوۃ الدنيا، وهی غبار تسوخ فيها الأرجل ولا يمشی فيها إلا بتعب ومشقۃ وكان العير وراء ظهور العدو مع كثرۃ عددهم وعدتهم، وقلۃ المسلمين وضعفهم ثم كان ما كان». (المدارک)

{وإنَّ الله لسميع عليم}...

يسمع الله نداءات المسلمين المظلومين وعويلهم، ويعلم كيف ينصرهم، انظروا كيف سمع عويلهم فی بدر ونصرهم. (التفسير العثمانی)

ظروف معركۃ:

يُذكّر القرآنُ المسلمين بمعركۃ بدر مراراً وتكرارا لكی يسعوا إلی إحياء ترتيباتها، فيتغلب الإسلام علی العالم، وفی ثنايا التذكير ببدر يركّز الله تعالی علی حالۃ معينۃ من حالاتها، حتی يتيقن المسلمون بنصر الله، ويقدروا علی إحياء ترتيبات بدر فی مراحل القتال المتنوعۃ، فخروج النبی ° إلی

بدر، ووعد الله بالتمكين على إحدى الطائفتين، ومناقشة بعض المسلمين مع رسول الله ضعفهم وقلة أسبابهم، ودعاء الرسول ليلة القتال وتضرعه إلى الله، ونزول الماء من السماء، ونزول السكينة بأمنة نعاس، ثم نزول الملائكة من السماء، ومشاركتهم فى القتال، وغير ذلک من المراحل والأحوال التى مرّت بالمسلمين ببدر سجّلها القرآن بأسلوبه الحكيم، ثم أسمعها أجيال المسلمين المتتالية إلى يوم القيامة، والآن فى هذه الآية أشار إلى ترتيبات ساحة القتال التى تؤكّد على نصر المسلمين، لكنهم رُغم ذلک تلقّوا هزيمة نكراء.

ليس من الصعب على الله تعالى نصر عباده المؤمنين رُغم عدم مواتاة الظروف لهم، فالمسلمون لا يضعون نصر الله نُصب أعينهم، ولا يخرجون إلى ساحة القتال منقادين لأمره، يشكون عدم مواتاة الظروف ثم يقعدون فى بيوتهم. انظروا إلى بدر هل كانت الظروف تواتيهم؟ بل كان قتال المسلمين من أوله إلى آخره بنصر الله وتأييده، وهذا النصر لا زال مع المسلمين إن خرجوا للجهاد، وضحّوا بأنفسهم وأموالهم، ليبرهنوا على إيمانهم. (والله أعلم بالصواب)

الجهاد يوضّح الدليل:

أشار فى هذه الآية الكريمة إلى الأسباب التى كانت وراء معركة بدر، وأظهر الحق من الباطل بحيث لا يخفى على أحد من الناس، ليحيى من حيى على الحق، ويموت من يموت على الباطل، فالجهاد ذلک العمل الذى إذا خرج المسلمون له رغم قلة عددهم وعُدتهم، نصرهم الله نصراً مؤزّراً، وفتح الله عليهم البلاد بحيث لا يجد العدو بد من الاعتراف بصدق الإسلام، ويدخل فى دين الله من بقى على الفطرة، وأما من لم يبق على الفطرة فقد يستمر فى كفره وعناده، لكنه يعلم أنه ليس على الحق. أما إن لم يكن هناک جهاد، والحال حال غلبة الكفار على المسلمين، زعم الكفار أنهم على الحق، وتتطور زعمهم هذا كلما رأوا المسلمين فى الشقاق والتعاسة والذل، حتى وصل ذلک إلى حد اليقين، والضعفاء من المسلمين يتزعزعون فى إيمانهم لمّا يرون حال إخوانهم من الضعف والذل، وحال الكفار فى ازدهار ورُقى، كأنّ الأمر انقلب رأسا على عقب، نسأل الله أن يوفّقنا لإحياء فريضة الجهاد فى سبيل الله وفق الترتيب الذى كان عليه المسلمون يوم بدر. آمين يا رب العالمين.

قال العلامة ابن كثير رحمه الله:

قال محمد بن إسحاق: ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلک. وهذا تفسير جيد وبسط ذلک أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد، على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة، وحينئذ يهلک من هلک أى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجة عليه، ويحيى من حيى أى يؤمن من آمن عن بينة أى حجة وبصيرة، والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: {أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس} (الأنعام 122) (تفسير ابن كثير).

سبحانه ما أعظم شأن الجهاد، يجعل النور والبصيرة فى إيمان المؤمن، ويُظهر كفر الكافر على نفسه، وبما أن أكبر جهاد هو ما كان يوم بدر لذلک سمّاه بيوم الفرقان.

تواعدهم على القتال لماذا لم يكن ليتحقق؟

قال الله تعالى: {ولو تواعدتم لاختلفتم} ذكر المفسرون قولين فی شرح «لاختلفتم»:

1- تردد المسلمون من القدوم إلى ساحة القتال لقلة عددهم وعُدتهم، وامتنع المشركون عن التوجّه إلى ساحة القتال خوفا من شجاعة المسلمين وبسالتهم واستعدادهم للتضحية بالغالی والنفيس.

2- اختلفوا فيما بينهم، فمنهم من يتقدم للقتال ومنهم من يتراجع عنه، لأن المسلمين كانوا حديث عهد بالجهاد، وكانوا أقل عددا وعُدة. (ملخص من بيان القرآن)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 43، 44}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إذ يُريكهم الله فى منامك قليلاً، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلّم إنه عليم بذات الصدور، وإذ يُريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور}.

ملخص معانى الآيتين:

نصر الله تعالى المؤمنين يوم بدر بوجهين آخرين، الأول: أرى النبى ˚ فى المنام قلة عدد المشركين، فأخبر أصحابه عنه، فارتفعت معنوياتهم، فلو أرى المشركين كثيرين لانخفضت معنويات المسلمين، واضطربت صفوفهم وتنازعوا فى قتال المشركين، لكنه سبحانه وتعالى لم يفعل ذلك لعلمه بما فى قلوب الناس، بل ربط على قلوبهم.

والثانى: جعل كل واحد من الفريقين أقل عددا فى عيون الفريق الثانى. فحصلت للمؤمنين فوائد جمة، ومن أهمها تنفيذ ما قدّره الله تعالى من انتصار المسلمين على المشركين، فعُلم أن الأمور جميعها فى قبضة الله تعالى وقدرته، فلا يتحقق شىء ما لم يرده الله، وترجع إليه الأمور كلها.

سؤالان:

معانى الآيات واضحة لا غموض فيها، لكن يرد هنا سؤالان، الأول: لاشک أن رؤية الأنبياء حق، فما معنى رؤية جند المشركين أقل رغم كونه أكثر؟ الثانى: قال فى هذه الآية {وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويُقلّلكم فى أعينهم} أما فى آية آل عمران ففيها: {يرونهم مثليهم} فكيف الجمع بينهما؟

وللرد على السؤال الأول نقول: لاشک أن رؤية الأنبياء حق، لكن الرؤية ذاتها ليست بمقصودة، بل المقصود تعبيرها، وكانت هذه الرؤية صادقة باعتبار تعبيراتها المتنوعة التالية:

1- معنى قلة المشركين هزيمتهم، وهى تحققت يوم بدر.

2- معنى قلة المشركين : ضعفهم فى القتال، فكانوا كذلک، تزلزلت أقدامهم رغم شجاعتهم وتجهُّزهم بأفضل سلاح. ألقى الله فى قلوبهم الرعب، واضطربت صفوهم وانتشرت، وضعفت معنوياتهم، أخذهم المسلمون وذبحوهم مثل النعاج.

3- معنى قلة المشركين : المشركون الذين ماتوا على الكفر، لأن أكثرهم دخلوا فى الإسلام فيما بعد، وما مات منهم على الكفر إلا القلة، وهؤلاء رآهم النبى ˚ فى المنام.

4- الجُبناء مهما كان عددهم وعُدتهم، يبدون أقل، والشجعان رغم قلة عددهم يبدون أكثر، فمعنى إراءة عددهم أقل : الإشارة إلى جُبنهم، وأنهم لا يتشجعون على القتال، فكانوا كذلک يوم بدر.

وعلى كل حال، يُرى للرجل فى المنام مشهداً ثم يُشار إلى نتيجته. قال أهل التعبير: رؤية الحرائق فى المنزل أيام الشتاء دليل على أنه سينال ذهبا، فمن رأى حريقا ثم وجد ذهبا، قلنا: كانت رؤيته صادقة. وكان النبى • قد فسّر اللبن بالعلم والقميص بالدين. فبناءً عليه نقول: كانت رؤياء النبى • صادقة، والجميع شاهدوا تعبيرها بعيونهم. وهنا نسرد شيئا من نصوص أهل التفسير حول الموضوع:

كلام بركة:

قال الشاه عبد العزيز رحمه الله:

رأى النبى • المشركين فى المنام قليلين، ثم رآهم المسلمون كذلك عشية القتال، لكى يتشجعوا لقتالهم، ولم تكن رؤياه • كاذبة، لأن الذين بقوا منهم على الكفر والشرك كانوا قليلين، وأكثرهم دخلوا فى دين الله فيما بعد. (موضح القرآن)

بيان العثمانى:

ويمكن أن يكون تعبيرها الإشارة إلى هزيمتهم بإراءتهم أقل. (التفسير العثمانى)

كلام الرازى:

«قلنا: مذهبنا أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وأيضاً لعله تعالى أراه البعض دون البعض». (التفسير الكبير)

يُعلم مما ذكره الرازى أن النبى • لا يرى فى المنام إلا ما يكون، فمنامه لا يخالف واقعه.

تحقيق الحقانى:

الجواب: كانت الرؤية المذكورة بناء على قوتهم وشجاعتهم، فكانوا كذلك، ولم تكن بناء على جهل وخطإ. فقد أرى الحقائق لعيون لا ترى إلا الحقائق. فحس المرء قد يخطئ، والله سبحانه وتعالى قادر مطلق، وقُوى الإنسان كلها فى قبضته وقدرته، هذا الذى يحدث فى الليل والنهار، فقد يجعل شيئا فى عين شخص طيبا، ويجعله فى عين غيره كريها. حتى إنه إن قرّر انهيار دولة وشعب فإنه يجعل عدوه قليلا فى عينه، ويشجّع العدو على محاربته، حتى يتحاربان، وتزول دولتهم. فمسبب الأسباب كل يوم فى شأن، لاحظوه إن تملكون عيونا باصرة. (التفسير الحقانى)

البيان الأندلسى:

«وتظاهرت الروايات أنها رؤيا منام رأى الرسول • فيها الكفار قليلاً فأخبر بها أصحابه، فقويت نفوسهم وشجعت على أعدائهم. وقال النبى • لأصحابه حين انتبه: «أبشروا لقد نظرت إلى مصارع القوم» والمراد بالقلة هنا: قلة القدرة والبأس والنجدة وأنهم مهزومون، مصروعون، ولا يحمل على قلة العدد، لأنه • رؤياه حق، وقد كان علم أنهم ما بين تسعمائة إلى ألف». (البحر المحيط)

جواب السؤال الثانی:

وأما الجواب عن السؤال الثانی فالآیة مرتبطة بالأحوال التی کانت عند بدء القتال، بأن کَحَلَ اللهُ عیون المسلمین بکحل النصر حتی امتلأت قلوبهم بالشجاعة والقوة، وأذل الله جنود المشرکین فی عیونهم فرأوهم أقل وأضعف. ومن جهة ثانیة، جعل الله فی عیون المشرکین ملح النخوة والغفلة بحیث ما رأوا المسلمین إلا أقل من عددهم الحقیقی، وترتَّبَ علیه قتال المسلمین بشجاعة بالغة سعیا منهم لنیل مأربهم الأسمی، إذ رأواهم أقل مما سمعوا عنهم، أما المشرکون فقاتلوا بمشاعر النخوة والحماس واللامبالاة بعدما زعموا هدفا سهلا.

هذا کان بیانا لحالاتهم عند بدء القتال، وأما ما ورد فی الآیة الثالثة عشر من سورة آل عمران فکان بیانا لما حدث أثناء القتال ووسطه، أن المسلمین رأوا المشرکین ضعفین، لکن ذلک لم یؤثر علیهم سلبا، لأنهم کانوا قد تمکنوا من إحکام سیطرتهم علی ساحة القتال، والمشرکون رأوا المؤمنین أکثر منهم عشرة أضعاف، فأصیبوا بالذُعر واضطربوا وتزلزت أقدامهم، وعرفوا أن حساباتهم کانت خاطئة. أما زیادة أعداد المسلمین فی عیون المشرکین فکان بسبب الملائکة الذین شارکوا فی القتال إلی جانب المسلمین، أو لإحکام سیطرتهم علی القتال.

بیان ابن کثیر:

«فلما التحم القتال، وأیّد المؤمنین بألف من الملائکة مردفین، بقی حزب الکفار یری حزب الإیمان ضعفیه، کمال قال تعالی: {قد کان لکم...} الآیة».

البیان العثمانی:

فلما هاجم المسلمون علی المشرکین بکل شجاعة وحماس، وأمدهم الله بجنود من الملائکة، رآهم المشرکون مثلَیهم، کما فی آل عمران. (التفسیر العثمانی)

البیان القرطبی:

کان هذا فی ابتداء القتال حتی قال أبو جهل فی ذلک الیوم: إنما هم أکلة جزور خذوهم أخذاً واربطوهم بالحبال، فلما أخذوا فی القتال عظم المسلمون فی أعینهم فکثروا کما قال : {یرونهم مثلیهم رأی العین}. (آل عمران) (القرطبی)

التحقیق النسفی:

قیل قد قللهم فی أعینهم قبل اللقاء ثم کثّرهم فیما بعده لیجترءوا علیهم قلة مبالاة بهم ثم تفجأهم الکثرة فیبهتوا ویهابوا. (المدارک)

قول آخر:

قال بعض أهل العلم: جعل الله المسلمين أقل فى عيون المشركين، لأنهم كانوا كذلک فى الحقيقة.

نصر عجيب:

قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه: قلت لإنسان كان بجانبى يوم بدر: أتراهم سبعين؟ فقال: هم نحو مائة. (القرطبى)

وفيه: «ثم أسرنا مشركا، فقلنا له: كم أنتم؟ فقال: ألف».

لاشک إن كان نظر المرء على الله، والقلب خالياً عن خوف الموت، والمعنويات عالية، رأى قوة الأعداء هينة هشاً. والواقع إن ذلک لا يمكن إلا بنصر الله، ألقى قوة خاصة فى قلوبهم.

وفى تفسير الفرقان:

لمّا وصل الإمام أحمد بن حنبل إلى طرسوس، وبلغ إليه الوالى إبراهيم بن مصعب، قال: ما رأيت أحداً أجرأ بين يدى الملوک من أحمد بن حنبل.

وقال: «يومئذ ما نحن فى عينيه إلا كأمثال الذباب».

وقد صدق، إذ لا يقيم من ملأ عينيه بجلال الله وعظمته وزناً لدُمىً خُلقت من صلصال من حمإ مسنون، تحمل على أكتافها حديداً مصقولا (سلاحا) أو تُزَيِّن صدرها بالذهب والفضة.

ترتيب إلهى خاص بالمجاهدين:

ضرب الله تعالى مثالا بغزوة بدر، وأشار إلى أن ما من مسلم خرج للجهاد فى سبيل الله متوكلا عليه، لا يخرج إلا لنصر الإسلام وكسر شوكة الكفر والشرک إلا أقام الله له ترتيبا معينا.

فمن العادة أن يرى المرء الأشياء كما هى، لا يرى الواحد إلا الواحد، والاثنان لا يراهما إلا الاثنين، لكن للجهاد أحوال مختلفة، يرى الألف سبعين فقط، ويرى ثلاثمائة ألفين. ثم إن الملائكة خُلقت للتسبيح والتهليل وللقيام بالأعمال التكوينية، لكنها تُشارک فى الجهاد مع عمائمها. وثالثا: لا يقترب النوم من العين أثناء الخوف، لكن المجاهدين يتلذذون بالنوم أثناء القتال، ويجددون عقولهم ونفوسهم. فباختصار، سخر الله تعالى جميع الأشياء لخدمة المجاهد، وأنشأ له ترتيبا خاصا مختلفا عن المألوف من السماء إلى الأرض، حتى إن صحابة رسول الله ﷺ لمّا خاضوا المياه بخيولهم جهاداً فى سبيل الله لم تصبهم الماء إلى أقدامهم.

يا أيها المسلم ... أما أدركت معنى الجهاد حتى الآن؟ فهيّا للجهاد.

(والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 45}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون}.

ملخص معانى الآيۀ:

أشار فيها إلى أهميۀ الثبات عند الزحف، والإكثار من الذكر، فهما من مفاتيح الظفر فى القتال.

الأقوال ومراجعها

كلام بركۀ:

قال الشاه عبد العزيز رحمه الله تعالى:

إن طلبتم نصر الله وتأييده، فعليكم الثبات أمام العدو والإكثار من ذكر الله وطاعۀ الأمير واتحاد الهدف، وعدم الاعتماد على الأسباب الظاهرۀ. (موضح القرآن)

كلامه هذا قد أحاط بجميع مضامين الآيۀ الكريمۀ باختصار، أولها أن الظفر لا يحالف الجهاد ما لم ينصره الله ويؤيده، فإن رغب المجاهدون فى نصر الله وتأييده فعليهم الاهتمام بالأمور الأربعۀ الآتيۀ:

الأول: بالثبات بأن يشتاق القلب إلى لقاء الله ... مفعما بالحماس لرفع كلمۀ الله والجهاد فى سبيله، بعيدا عن حب الدنيا والخوف من الموت، فالثبات فى الميدان لا يمكن بدون قوۀ القلب واستقامته على الحق.

الثانى: ذكر الله... بحيث لا يفتر لسانه وقلبه عن ذكر الله، ولا تزل قدمه إلى معصيته، كما يحافظ عليها بالدعاء واليقين بوعده، وذكر الله يجب أن يتحكم على قلبه وعقله وأعضاء بدنه بالصدق والإخلاص بحيث يمنعه من معاصيه، ويحثه على طاعاته، ويمتلئ قلبه بنور وجلال وجهه بحيث تُرى لعيونه جيوش الكفر هينۀ هشاً.

الثالث: طاعۀ الأمير... يتقوى بها القلب، وبها يمكن المحافظۀ على وحدۀ صفوف المجاهدين، فيد الله على الجماعۀ، ولا جماعۀ بدون أمير.

الرابع: اتحاد الهدف، بأن يحارب الجميع لهدف واحد وغايۀ واحدۀ، وهى رضا الله سبحانه وتعالى، ورفع رايۀ الإسلام خفاقۀ فى السماء، وليس لشىء تافهٍ من متاع الدنيا وذيع الصيت والاشتهار. (والله أعلم بالصواب)

الربط بين الآيات:

فى الآيات السابقة كان الأمر بالجهاد، وفى هذه الآيات تعليم طريقة الجهاد، فى الآيات السابقة كان بيانا لغزوة بدر، وفى هذه الآيات تعليم آداب الجهاد وأساليبه وفق ترتيبات بدر.

فى الآيات السابقة كان بيانا لنصر الله تعالى للمجاهدين، وفى هذه الآيات بيان لطُرق اكتساب النصر الإلهى، وهذا الربط الأخير ذكره الشاه عبد العزيز فيما سردنا من عبارته، أما غيرها من وجوه الربط فلما تأتى من كلام أهل العلم.

1- قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى:

«اعلم أنه تعالى لمّا ذكر أنواع نعمه على الرسول وعلى المؤمنين يوم بدر علمهم إذا التقوا بالفئة وهى الجماعة من المحاربين نوعين من الأدب: الأول: الثبات، وهو أن يوطنوا أنفسهم على اللقاء ولا يحدثوها بالتولى. والثانى: أن يذكروا الله كثيرا. (التفسير الكبير)

2- وقال الإمام التهانوى رحمه الله:

فيما سبق ذكر وقائع بدر، وفيما تأتى يُعلّم المؤمنين الآداب الظاهرة والباطنة لمثلها من وقائع القتال. (بيان القرآن)

3- وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء.

اثبتوا إذا لقيتم الأعداء:

الحكم الأول الثبات عند الزحف، لأن الحالات التى استدعت فرضية الجهاد على الأعيان منها: إذا التقى الصفان.

إذا اصطف الجيشان، جيش المسلمين وجيش أعداءهم، ولتفهيم معنى الحكم المذكور استشهد أكثر المفسرين بالحديث الآتى:

وقد روى عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه أن النبى ° انتظر فى بعض غزواته حتى مالت الشمس، ثم قام خطيبا، وقال:

«يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». (رواه البخارى ومسلم)

ثم دعا قائما فقال:

«اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم».

وقد أورد الإمام أبو بكر الجصاص الأحكام الشرعية المتعلقة بكلمة «اثبتوا»، فمن شاء فليرجع إلى كتابه «أحكام القرآن».

الإكثار من الذكر أثناء القتال:

لا شيء أفضل وأنفع من ذكر الله تعالى أثناء القتال لاستنزال نصر الله، والثبات فى ساحة القتال والارتباط بالله تعالى، لكن ما المراد من «ذكر الله» فى الآية الكريمة؟ سوف نسرد أقوال أهل العلم الغالية التى تزيد فى الإيمان بعد الإشارة إلى ثلاث نكات مهمة:

1- لقد دعا الله تعالى عباده المخصوصين إلى الجهاد فى سبيله، فاستجابوا لنداء ربهم رغم قلة عددهم وعُدتهم، ففرح الله بهم، فكأنّه قال لهم : يا عبادى دعوتكم فاستجبتم دعوتى، والآن ادعونى فى الميدان أستجب لكم، أى نصرى وتأيدى ينزل عليكم ويكفيكم عن أعداءكم.

كما قال تعالى: {وكفى الله المؤمنين القتال} {فلَمْ تَقْتُلُوْهُم ولَكِنَّ اللهَ قتلهم} (والله أعلم بالصواب)

2- لا شك أن القتال فظيع، إذ فيه يفقد المرء أحاسيسه وشعوره، يناديه الموت من كل مكان، لا تهمه إلا نفسه، وينسى كل ما كان سواها، وهنا يُرشده الله سبحانه وتعالى إلى ذكره، والإكثار منه، وأن لا ينساه، حتى يسجل أرقاما قياسية للوفاء والحب، وينال الكثير الكثير عنده.

قال قتادة رحمه الله تعالى:

«افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضراب بالسيوف». (القرطبى، وابن كثير)

وقال صاحب أنوار البيان:

لا يقاتل المؤمن إلا لله، حياته ومماته لله، فكيف يغفل عن ذكر الله عند القتال، وثواب الذكر عنده يضاعف. خاصة إن كان ظاهره مشتغلا بالجهاد، وباطنه بذكر الله تعالى، ولسانه مشغولا فى ذكر الله تعالى. فهذا حال المؤمن الخاص به. (أنوار البيان)

قال الإمام أبو حيان رحمه الله تعالى:

«وأمرهم بذكره تعالى كثيراً فى هذا الموطن العظيم من مصابرة العدو، والتلاحم بالرماح وبالسيوف... الخ».

وهذا لأن الرجوع إلى الله تعالى لا يتم عادة إلا فى المصائب والملمات، وبذكره تزول الوحشة من القلوب، ويُستغاث بنداءه، فمن كانت رابطته قوية مع ربه، ذكره فى مواقعه كلها، حتى أثناء القتال ينسى الناس كل شيء، ويفقدون أحاسيسهم وشعورهم: {ألا بِذِكر الله تطمئن القلوب} (الرعد 28) وقد أخبرنى بعض الشجعان البواسل أنهم يزلزلون أثناء القتال، وتَغشاهم حالة قريبة إلى الغشى والسكر.

وقد نظم بعض الشعراء أشعاراً فى تلك الوضع، وما نسى ربه حتى فى أحلك الظروف. (البحر المحيط)

3- يشعر المرء بالتوحد فى الملمات، فيندفع نحو الهروب، لذلك أمر الله عباده المؤمنين بذكره فى مثل هذه الظروف، لأنهم إن كانوا يذكرون الله تعالى من أعماق قلوبهم، زال عنهم الشعور بالوحدة والغُربة، وتيقَّنوا بأن الله معهم، فتمتلئ قلوبهم بالإيمان والشجاعة، كما قال النبي ﷺ يُطَمِّنُ أبا

بكر عندما كانا فى غار ثور: «لا تحزن إن الله معنا» ومثله قال موسى لقومه المذعورين بعدما وجدوا أنفسهم وسط فرعون والبحر: {كلا إن معى ربى}. (والله أعلم بالصواب)

ما المراد من الذكر فى الآية؟

ذكر المفسرون عدة أقوال فيه، نسردها بالتفصيل فيما يلى لما تحتوى على نصائح ومنافع للمجاهدين:

البيان العثمانى:

الذكر: يشمل الصلاة والدعاء والتكبير وجميع أصناف ذكر الله تعالى، ويترتب على الذكر فى قلب المؤمن القوة والطمأنينة، وهما من أشد ما يحتاج إليه المجاهدون، وكانا من أعظم ما يتسلح به صحابة رسول الله ؑ. قال الله تعالى: {الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب} (الرعد) (التفسير العثمانى).

البيان النسفى:

واذكروا الله كثيرا فى مواطن الحرب مستظهرين بذكره مستنصرين به داعين له على عدوكم: اللهم اخذلهم اللهم اقطع دابرهم. (المدارك)

التحقيق الرازى:

وفى تفسير هذا الذكر قولان:

1- المعنى أنه يجب على المجاهدين أن يذكروا الله تعالى فى الجهاد باللسان والقلب، كما قال عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنه:

أمر الله أولياءه بذكره فى أشد أحوالهم تنبيها على أن الإنسان لا يجوز أن يخلو قلبه ولسانه عن ذكر الله.

2- المراد من هذا الذكر الدعاء بالنصر والظفر، لأن ذلک لا يحصل إلا بمعونة الله. (التفسير الكبير)

بيان الجصاص:

وقوله تعالى : واذكروا الله كثيرا يحتمل وجهين، أحدهما: ذكر الله تعالى باللسان والآخرة بالقلب، وذلک على وجهين... الخ

أحدهما: أن يتذكر ثواب الثبات ومعصية التولّى يوم الزحف.

وثانيهما: أن يتذكر تلک الجوائز والأدلة التى يكرم الله بها من يقاتل أعداءه إحياءً لفريضة الجهاد.

أصناف الذكر هذه كلها تساعد فى الثبات والبقاء يوم الزحف وعدم التولّى، وبها يُطلب نصر الله وتأييده وهزيمة الأعداء وخزلانهم. ويمكن أن يراد من الذكر فى الآية جميع أصناف الذكر، لأن لفظ الذكر يشمل جميعها. (أحكام القرآن)

تحقيق القرطبى:

قال القرطبى رحمه الله تعالى:

للعلماء فى هذا الذكر ثلاثة أقوال:

الأول: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإن ذكره يعين على الثبات فى الشدائد.

الثانى: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم ... الخ

لأن القلب يصاب بالقلق فى الحرب، واللسان بالانحراف، لذلك أمر بالذكر لكى يستقر القلب بالثقة بالله، واللسان بالذكر، وعلى المجاهدين أن يردّدوا ما ردّده الذين جاهدوا مع طالوت.

الثالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم فى ابتياعه أنفسكم ومثامنته لكم.

وقال القرطبى بعدما سرد الأقوال الثلاثة: والأظهر أنه ذكر اللسان الموافق للجنان. (القرطبى)

البيان الأندلسى:

أورد الإمام أبو حيان الأندلسى عددا من الأقوال فى حول الذكر، لكنه ذكر رأيه قبل سردها، فقال: «وذكر أن الثبات وذكر الله سببا الفلاح وهو الظفر بالعدو فى الدنيا، والفوز فى الآخرة بالثواب. والظاهر أن لا يعين ذكر».

ثم أورد هذه الأقوال لتحديد المراد من الذكر:

الأول: أن يردّد المجاهدون كلمة «الله أكبر الله أكبر» عند اللقاء.

الثانى: أن يدعو على العدو بلفظ «اللهم اخذلهم اللهم دمّرهم» وما شابهها من الكلمات.

الثالث: أن يدعو بالنصر والفتح له، كما قال جنود طالوت: {ربنا أفرغ علينا صبرا..} الآية.

الرابع: المراد من الذكر قول {وهم لا ينصرون} وهو كان بمثابة شفرة للمسلمين فى المعارك.

وكيف يكون ذلك، بصوت عال أم منخفض؟ قال الإمام أبو حيان رحمه الله تعالى:

حكم هذا الذكر أن يكون بصوت خفى، وعند الزحف إن أمكن مشاركة الجميع بصوت واحد لكان أولى وأفضل، إذ هو يساعد فى إدخال الرعب فى قلوب فى قلوب المشركين. كما جاء فيما أخرجه أبو داود أن النبى ˚ ينكر رفع الصوت فى الجهاد والجنازة. (البحر المحيط)

ملخص الحكم:

أمر الله المؤمنين بالثبات أمام الكفار فى القتال، وبالإكثار من ذكر الله تعالى، لكى يتحقق لهم الظفر والنصر. ومعنى الذكر أن يحفظ الله بلسانه، فمن فضله وكرمه أنه أذن لعباده بذكر اسمه، وهيّأ قلوبهم له، فإن أراد المسلمون الظفر بالعدو، والفوز فى الدنيا والآخرة، فعليهم ترسية الذكر فى

قلوبهم. أما أثناء القتال فتبقى ألسنتهم طرية بالذكر وقلوبهم عامرة بعظمة الله وجلاله، وعقولهم بالإيمان بوعد الله تعالى بالتمكين، إن فعلوا ذلك لن يتغلب الكفار عليهم، لأن الكفار أموات لابتعاد قلوبهم عن ذكر الله، ومهما بلغ عدد الأموات فإنهم لا يقدرون على مواجهة الأحياء. أما إن غفل المسلمون عن الذكر فالمواجهة لا تكون إلا على أساس السلاح والعدد، وعادة يفضُل الأعداء على المسلمين فی العدد والعُدّة. ونحن فی وقتنا هذا بأشد الحاجة إلى إحياء ذكر الله تعالى، لأن المسلمين ابتعدوا عن الجهاد بسبب تخليهم عن ذكر الله تعالى، وبسبب التهاون فی الذكر بعيدون عن النصر والظفر والوحدة واتحاد الصفوف والهدف. إن أدرک المسلمون حقيقة الذكر زال من قلوبهم رعب الأعداء، وفَتَرَ حبهم فی الحياة، واشتاقوا إلى لقاء ربهم، إن صار حالهم على ما ذكرنا، لمسوا بداخلهم غيرة تدفعهم إلى الجهاد فی سبيل الله لرفع كلمته.

ومثله إن تمكن «ذكر الله» الصادق من قلوبهم، أضفى بقوة خاصة فی جهادهم، تجنبوا عن الخلافات وحب الدنيا، ويبارک لهم فی أعمالهم فيتقدمون إلى الأمام ويفظرون بالعدو. فذكر الله من إحدى نعمه الجليلة وفضله العميمة على عباده، نسأل الله تعالى أن يجزل علينا نعمته هذه العظيمة، وأن يوفق قلوبنا وألستنا وجلودنا وشعورنا وعظامنا ولحومنا لدوام الذكر.

اللهم أحيی قلوبنا بذكرک، ووفقنا لذكرک كل لحظة.

الله أعنا على ذكرک وشكرک وحسن عبادتک. (آمين يا أرحم الراحمين)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 46}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين}.

ملخص معانى الآيۃ الكريمۃ:

فى الآيات السابقۃ أشار إلى أحد أهم مفاتيح الظفر فى الجهاد، وهما: الثبات والإكثار من الذكر. وهنا يشير إلى ثلاثۃ أمور إضافيۃ:

الثالث: طاعۃ الله ورسوله فى جميع معاملات الجهاد، وعدم مخالفتهما فى شيء منها.

الرابع: عدم المنازعۃ مع الأمير أو مع الزملاء، وإلا أصبتم بالضعف، لانتشار قواكم، وعدم ثقۃ بعضكم ببعض، وماذا بإمكان الرجل أن يفعل إن كان لوحده؟ وذهب ريحكم، أى رعبكم من قلوب الأعداء.

الخامس: الصبر والنصح عند وقوع أمر يسوءكم، والله مع الصابرين، ومعيۃ الله كافيۃ لجلب نصره وتأييده. (ملخص ما ذكر فى بيان القرآن)

الأقوال

الخلافات البينيۃ تمنع رحمۃ الله تعالى:

قال اللاهورى رحمه الله:

ولا تنازعوا فيما بينكم فتحرموا من رحمۃ الله، وواجهوا كل ملمۃ بالصبر، فالله ظهيركم وناصركم. (حاشيۃ اللاهورى)

فى عبارۃ اللاهورى إشارۃ إلى قول الرسول ﷺ: «يد الله على الجماعۃ» فإن تنازعوا تفرق الجمع، وانفرد كل بما لديه، حتى إن كانوا فى الظاهر جماعۃً فإن نصر الله لا ينزل عليهم، ولا رحمته وتأييده. (والله أعلم بالصواب)

مفتاح السعادۃ:

«واجهوا ما تتعرَّض لكم من الشدائد والصعوبات أثناء الجهاد بالصبر والثبات، والمثل المعروف يقول: يحمى الله الهمم. وهنا فى الآيۃ الكريمۃ إشارۃ إلى مفاتيح النجاح والسعادۃ، وأكّد على أنّ المال والجنود والذخيرۃ لا تجلب النصر والفتح، بل بالصبر والاستقامۃ على الحق، والثبات واليقين، وطمأنينۃ القلب، وطاعۃ من نصبه الله ورسوله بمنصب الأمير والحاكم، والتواصل والتلاحم وجمع الكلمۃ ونبذ الفُرقۃ». (التفسير العثمانى)

تفسير جامع لجميع كلمات الآية:

{وأطيعوا الله ورسوله} لاشک أن طاعة الله والرسول واجبة فی الأحوال كلها، فما معنى التأكيد عليها فی الجهاد؟ أجيب عنه أن المقصود هنا الإشارة إلى أهمية طاعتهما وعدم الخروج عن طاعتهما قيد أنملة، بأن تثوروا فتقدّموا هواكم وشهواتكم عليهما، أو توافقوا نفوسكم فی هواها، أو تعملوا بما تُملی عليكم عقولكم القاصرة.

{ورسوله} ومعنى طاعة الرسول ^ فی هذا السياق أن تؤمنوا بوجوب طاعة الرسول فيما يتعلق بأحكام الجهاد والتدابير القتالية، وتعلموا أن الواسطة بينكم وبين الله ذات الرسول ^، ينقل إليكم مرضاة ربكم، ويبيّن لكم أحكامه ويفسّرها.

«وأطيعوا رسوله فيما أمر به ونهى عنه من شؤون القتال وغيرها من حيث انه هو المبين لكلام الله» (المنار).

{ولا تنازعوا} لا يُقبل نزاع بين أفراد الأمة، أو بين الأمير ومأموريه، فالخلافات الداخلية مرفوضة على الإطلاق، إذ هی بمثابة السموم للروح الجماعی.

{فتفشلوا} هنا إشارة إلى أن الخلافات والنزاعات الداخلية تؤدّی إلى الجبن وضعف الهمة.

{تذهب ريحكم} أی يزول الرعب الذی وُجد فی قلوب عدوكم بفضل توحّدكم وتكاتفكم وتلاحمكم.

«أی قوّتكم ونصركم، كما تقول: الريح لفلان إذا كان غالبا فی الأمر». (القرطبی)

{واصبِروا} أی اصبروا على ما تواجهون من ظروف غير ملائمة لكم أثناء القتال، فالصبر محمود فی المواقع كلها، خاصة عند الزحف.

«أمر بالصبر وهو محمود فی كل المواطن وخاصة موطن الحرب». (القرطبی)

«الصبر» فی المصطلحات القرآنية تُطلق على معانی أوسع وأجمع، فهی تشمل كافة اللوائح والإرشادات العسكرية التی تُنظم الجيش فی يومنا هذا، إضافة إلى القوة الروحية والطمأنينة القلبية والثقة بالله التی تخلو منها أغلب التعليمات العسكرية.

وكل ما ورد فی هذه الآية من أحكام لا تتقيد بغزوة، إذ هی عامة تشمل بدر وغيرها من الملاحم إلى يوم القيامة. (التفسير الماجدی)

الخلافات تؤدّی إلى الهزيمة :

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى فی تفسير قوله تعالى: {وتذهب ريحكم}:

«أی تُولّونهم ظهورهم بدلا من أن تُقدموا عليهم» (موضح القرآن)

والمعنى تتوقف الفتوحات والتقدم إلى الأمام، بل تلاحقكم الهزائم والتراجع. وقال صاحب التفسير الفرقان:

«والواقع إن توحّد جماعة متواضعة من البشر تحقق من النصر والظفر ما تعجز عنه الجيوش العظيمة، وهذا هو السبب فى تأكيد القرآن على التماسک والتلاحم والتوحّد فى المناسبات كلها. (تفسير القرآن)

فمن دعا إلى الشقاق والنزاع بين المسلمين فقد ظلم على الأمة بأسرها، وعَمِلَ لحساب المشركين والكفار. (والله أعلم بالصواب)

وقال بعض أهل العلم: المراد من ذهاب الريح : الريح التى يبعثها الله تعالى لنصر المؤمنين، وبشؤم الخلاف والنزاع تذهب هذه الريح.

قال القرطبى:

وقال قتادة وابن زيد: إنه لم يكن نصر قط إلا بريح تهب فتضرب فى وجوه الكفار ومنه قوله عليه السلام:

«نُصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور».

قال الحكم: وتذهب ريحكم يعنى الصبا، إذ بها نصر محمد • وأمته.

وقال مجاهد: وذهبت ريح أصحاب محمد • حين نازعوه يوم أحد. (القرطبى)

وقال ابن كثير:

وتذهب ريحكم أى قوتكم وما كنتم فيه من الإقبال. (تفسير ابن كثير)

وقال صاحب أنوار البيان:

منع من النزاع ثم أرشد إلى الصبر، للإشارة إلى أن الصبر من أقوى الأساليب للمحافظة على وحدة الكلمة، فالناس إن عاشوا معا، فى بيت واحد، فإنهم يواجهون مواقف مختلفة لا توافق بعض الطبائع، نظراً لاختلافها، وبدون الصبر والمصابرة عليها لا يمكن المحافظة على وحدتهم. ومن هنا عرفنا أننا إذا جلسنا للتشاور، ليس علينا أكثر من تقديم آرائنا، بدون الإصرار عليها، لأن الإصرار يتسبب فى النزاع وتفويت مقصود التشاور.

إن وجد الآراء متضاربة فليصبر، فإن رجّح الأمير رأيه، أو أحداً من الآراء فلا يجد فى قلبه شيئا، بل يصبر، حتى إن أصيب بضرر بسبب بعض الآراء، لا يطعن فى الأمير، فالاتحاد لا يتحقق إلا بعد صبر وثبات، وليتعوّد على قبول ما لا تُرضيه بالبشاشة والمصابرة، فقد عزل عمر خالداً عن القيادة، فقبله برحابة صدر، ولم يخلق له مشاكل، ولم يشق عصا المسلمين، وكان بإمكانه أن يفعل ذلک، لكنه حرص على جمع المسلمين ووحدة كلمتهم، واستمر فى أعماله مع القائد الجديد. فالطاعة الحقيقية هى ما كانت مع مخالفة الطبع، لأن أحداً إن شاء أن يُسمَع له فى المواقع كلها فمن أين يحصل الاتفاق والوحدة؟ لا يحصل منه إلا الفرقة والانتشار وذهاب الريح. (أنوار البيان)

معنى الصبر: ضبط النفس، أى تنشأ فى النفس قوة المدافعة عند الغضب، إن هاجم الشيطان على نفسه وأشعل فيها نار الكبرياء والخروج عن الطاعة، والحسد، والشهوات، واليأس والقنوط، تَحكَّمَ عليها وصبر ولم يتعد حدود الشرع. وبفضل وصف الصبر الذى يتحلّى به المجاهد يكتمل جهاده.

قال الرازى رحمه الله تعالى:

والمقصود أن كمال أمر الجهاد مبنى على الصبر. (التفسير الكبير)

عبارة تزيد فى الإيمان:

كتب العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى العبارة الجياشة التالية فى شرح الآية الكريمة:

«وقد كان للصحابة رضى الله عنهم فى باب الشجاعة والايتمار بما أمرهم الله ورسوله به وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا فى المدة اليسيرة مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفُرس، والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بنى آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها فى أقل من ثلاثين سنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا فى زمرتهم إنه كريم وهّاب».

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 47}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَلا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئآء النّاس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط}.

ملخص معانی الآیۀ:

فی الآیات السابقۀ ذکر خمسۀ من أحکام الجهاد وآدابه، وفی هذه الآیۀ ذکر الحکم السادس.

6- أخلصوا نیاتکم، (بالتواضع) ولا تکونوا فی الفخر والخیلاء مثل أولئک المشرکین الذین خرجوا من دیارهم بطراً ورئاء الناس، إضافۀ إلی ذلک فإنهم کانوا ینوون صدّ الناس عن سبیل الله، والله بما یعملون محیط، فسوف ینزل بهم عقوبۀ کاملۀ. (ملخص من بیان القرآن)

موضوع الآیۀ:

ذکر أهل العلم موضوعات متنوعۀ لهذه الآیۀ الکریمۀ:

1- ذکر فیه الأدب السادس للظفر فی الجهاد والوصفۀ السادسۀ للنصر فیه.

2- فی الآیات السابقۀ أشار إلی أسباب الفتح، وفی هذه الآیۀ ذکر أسباب الهزیمۀ، وهی: الغرور، والفخر، والریاء ومعاداۀ الإسلام.

3- فی الآیات السابقۀ أمر بذکر الله تعالی، والابتعاد عن المنازعۀ والمشاجرۀ، وفی هذه الآیۀ أشار إلی أنکم إن تخلیتم عن الذکر وتنازعتم فیما بینکم، نشأت فیکم خصال المشرکین من الرئاء والبطر.

4- فی الآیات السابقۀ أمَرَ بالثبات فی القتال، وفی هذه الآیۀ أکّد علی أن الثبات یجب أن یکون خالصا لله تعالی، ولیس للریاء والبطر.

5- موضوع هذه الآیۀ أن الجهاد عبادۀ، ولا مساغ للفخر والخیلاء فی الجهاد.

العبارات

1- کلام برکۀ:

الجهاد عبادۀ، ولا تُقبل العبادۀ مع الرئاء والبطر. (موضح القرآن)

2- ترک الذکر وشؤم النزاع:

«إن ترکوا ذکر الله، وأحدثوا النزاع فیما بینهم، حدثت فیهم الرئاء والعصیان، وهما من مقدمات الهلاک». (حاشیۀ اللاهوری رحمه الله تعالی)

3- أسباب الهزيمة:

«إن كان الله قد أشار إلى أسباب الظفر والفتح فی الجهاد، فقد أكّد على أنه يجب على المجاهدين أن يتخلوا عن الرئاء والبطر والخيلاء والنخوة والغرور والشهرة أثناء التوجه إلى ساحة القتال. إذ هی من أسباب الهزيمة، انظروا إلى المشركين خرجوا مع جند عظيم، لكنه عاد إلى مكة يجر أذيال الهزيمة والندامة، لأنهم ما خرجوا من بيوتهم إلا للشهرة والرئاء والفخر والخيلاء». (التفسير الفرقان)

4- الجهاد عبادة عظيمة:

«كان أبو جهل قد خرج مع جنده فی حشم وشهم، ودف وطبل، ليُرعب المسلمين، وتسمع بهم القبائل فتخافهم، لكنه تلقى رسالة من أبی سفيان أن العير قد نجا من أيدی المسلمين، لذلك عليک أن ترجع إلى مكة. فقال فی نخوة: لن نعود إلى مكة حتى نصل بدراً، فتعزف علينا القيان ويضرب الغلمان بالدف، ونشرب وننحر الجزور ونطعم العرب، لكی يسمعوا عنا، ويذكروا أيامنا هذه، ويخافنا المسلمون فلا يجترئوا على مواجهتنا. لم يكن يدر أن ما يذكره ويتخيله ليس بيده إنما بيد الله تعالى، يفعل ما يشاء، وقد يعيد الكرة على أصحابها، فيخابوا ويخسروا. وهذا الذی حصل معه. شرب كأس الموت مكان ماء بدر، ما أقيم حفل للغناء والعزف، إنما كانت مجالس للنياحة والبكاء من بدر إلى مكة. أما الأموال التی ادّخروها للفخر والمباهاة فتحولت إلى مغانم للمسلمين، وهكذا تمّ نصب حجر انتصار الإيمان والتوحيد الأبدی فی ساحة بدر، فكأنّ الله سبحانه وتعالى قضى بهذه القطعة الصغيرة من أرض بدر بتقادير الأمم والملل. وعلى كلٍ، فقد أشار فی هذه الآية الكريمة إلى أن الجهاد ليس مجرد معركة تدور بين طائفة ويقتل فيها العشرات والمئآت، بل هو عبادة عظيمة، لا يقبلها الله تعالى من كل من يُقدم عليها بطراً ورئاء الناس. فلا تقلدوا المشركين فی الفخر والخيلاء والمباهاة». (التفسير العثمانی)

ثبات بدون خيلاء:

وحاصل الكلام أنه تعالى أمرهم عند لقاء العدو بالثبات، والاشتغال بذكر الله، ومنعهم من أن يحملهم على الثبات: البطر والرياء بل أوجب عليهم أن لا يحملهم عليه إلا طلب العبدية لله. (التفسير الكبير)

تعين موضوع الآية الكريمة من خلال ما ذكرنا من خلاصة التفسير والعبارات الخمسة، والآن لاحظوا الفوائد التفسيرية الباقية.

نصيحة مهمة للمجاهدين:

من ضمن الأمور القبيحة التی أمرت هذه الآية الكريمة المجاهدين باجتنابها «البطر» ذكر الإمام الرازی معنى البطر بما يأتی:

«قال الزجاج: البطر: الطغيان فى نعمة، والتحقيق أن النعم إذا كثرت من الله على العبد، فإن صَرَفَها إلى مرضاته، وعرف أنها من الله تعالى، فذاك هو الشكر، وأما إن توسل بها إلى المفاخرة على الأقران والمكاثرة على أهل الزمان فذاك هو البطر. (التفسير الكبير)

وقال القرطبى فى شرح معنى كلمة «بطر»:

والبطر فى اللغة : التقوية بنعم الله عزوجل وما ألبسه من العافية على المعاصى.

والمعنى أن يستغل نعم الله من مال وصحة وعافية فى معصيته.

وقال النسفى موضحا معنى البطر: والبطر أن تشغله كثرة النعمة عن شكرها. (المدارک)

أى رجل كان مطيعا لربه، مجتنبا عن معاصيه، فأنعم الله عليه بنعم كثيرة، وأعزه وقوّاه، فتغيّر حاله، وصار لا يجتنب عن المعاصى ولا يطيع ربه، ولا يتواضع، بل اغترّ بما عنده من النعم، يتبختر ويتكبر، فذلک البطر.

قال صاحب أنوار البيان:

كما ثبت فى الصحيحين خ م عن أبى موسى الأشعرى قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلک فى سبيل الله فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله (مشكاة المصابيح ص 1331 من البخارى ومسلم)

الاختيال والتبختر، والثقة بالذات والجماعة لا تزين المؤمن، وقد تسبب فى حرمانه من إخلاص النية، يتحلى بالتواضع من رغب فى رضى الله تعالى، يثق بالله فلا يقاتل إلا لله، ولا يموت إلا لله وفى سبيله. ولاشک أن الاختيال والتبختر أثناء مبارزة المشركين ومنازلتهم محبوب عند الله، إن ملأ قلبه بالتواضع والثقة بالله ثم اختال وتبختر أمام الكفار ليُضعف هممهم ومعنوياتهم، فذلک مما يحبه الله تعالى.

فى الحديث فأما الخيلاء التى يحب الله فاختيال الرجل عند القتال واختياله عند الصدقة. (كما فى مشكاة المصابيح ص 287) (تفسير أنوار البيان)

وقال المفسرون: لمّا دعا النبى ٠ على المشركين يوم بدر أشار إلى خيلائهم وفخرهم، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدل على شناعتها. قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى:

روى أنه ٠ لمّا رآهم فى موقف بدر قال: «اللهم إن قريشا أقبلت بفخرها وخيلائها لمعارضة دينک ومحاربة رسولک. (التفسير الكبير)

الفخر والخيلاء من أكثر الأمور ضرراً بالمجاهدين، وعليهم أن يتحلوا بالتواضع كلّما أكرمهم الله تعالى بالفتح والقوة والعزة والمال، فمن اختار منهم الفخر والخيلاء فقد سار على نهج المشركين، وتنطبق عليه طريقتهم، ويُحرم من النصر والتأييد. (والله أعلم بالصواب)

الفخر والخيلاء والكبرياء من صفات المشركين:

أشار الإمام الرازى إلى نكتة مهمة فى الآية الكريمة، وقال: إن الله ذكر كلمات «بطراً» و «رئاءً» بصيغة الاسم، فيما ذكر كلمة «يصدون» بصيغة الفعل، وفى ذلک إشارة إلى أن الفخر والخيلاء

كانت من صفاتهم الملازمة التى لا تفارقهم، أما الصد عن الدين فقد ابتدؤه بعد ظهور الدعوة الإسلامية، والاسم يدل على الاستمرار، والفعل على الحدوث. (التفسير الكبير)

الابتعاد عن الرئاء:

إن يسير الرياء شرك، يُبطّل جميع الأعمال، ما من عمل صالح يرافقه الرياء إلا وأفسده، لأنه ليس لله، وكل ما ليس لله ليس بصالح، وإلى هذا المعنى أشار الإمام الرازى فى قوله:

«والرئاء عبارة عن القصد إلى إظهار الجميل مع أن باطنه يكون قبيحا». (التفسير الكبير)

وقال صاحب التفسير الماجدى:

{بطراً رئآء الناس} أكثر ما تنطبق هذه الكلمات من الآية الكريمة على ما تقوم به القوات الفرنجية من الفخر والرئآء، والغرور واستعراض العضلات، وعلى جنودها فى ثياب خضراء وصفراء، وأعلام وعلامات، ودعاوى غرورية وبيانات، ومدفعيات وطائرات حربية وأساطيل وغواصات وقاذفات وقذائف ذرية، وأكثر منها على ما تصدر من بيانات وإعلانات. (التفسير الماجدى)

عبارة من سبب نزول الآية:

تكفينا للإشارة إلى سبب نزول الآية الكريمة عبارة واحدة من التفسير العثمانى، ذكرها علماء التفسير فى كتبهم من القرطبى والتفسير الكبير وروح المعانى والمدارك وغيرها، إلا القرطبى والتفسير الكبير اللذان أخرجا نصاً متقاربا منه، وهنا نسرده حتى يتيسر لطلاب العلم مراجعته:

«يعنى أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير، خرجوا بالقيان والمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة بعث «خفاف الكنانى» وكان صديقا لأبى جهل بهدايا إليه مع ابن له وقال: إن شئت أمددتک بالرجال، وإن شئت أمددتک بنفسى مع من خفّ من قومى. فقال أبو جهل: إن كنّا نقاتل الله كما يزعم محمد (ﷺ) فوالله مالنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة. والله لا نرجع عن قتال محمد (ﷺ) حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدراً موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم، حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد». (القرطبى)

ومثله ما نقله الرازى مع اختلاف قليل، وقال فى آخره:

قال المفسرون: فوردوا بدراً وشربوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان. (التفسير الكبير)

فالحمد لله رب العالمين.

آية مهمة حول موضوع الجهاد:

«أشار فى الآية الكريمة إلى الفارق الكبير بين مَن يُقاتل فى سبيل الله وبين مَن عامة المقاتلين، فهذه الآية من إحدى الآيات الأساسية فى باب الجهاد، فجنود الدنيا لا يقاتلون إلا للدنيا، ولا تهمهم إلا تطويع الدنيا وتسخيرها، ولا تظهر من قيامهم وقعودهم وكرّهم وفرّهم إلا الدنيا،

وعكسه المجاهد والغازى الذى أفنى أنانيته قبل خوض المعركة، لا يهمه بفعله وقوله وظاهره وباطنه إلا رفع شأن الدين وإعلاء كلمته. وهنا يجب التأمل فى لفظ {كالذين} فى الآية الكريمة، فالمسلمون كانوا بريئيين من كل ما من شأنه الفخر والخيلاء، ومع ذلک أُمروا بالابتعاد عن التشابه بالمشركين بلفظ واضح صريح. وهنا وقفة مع المسلمين اليوم، عليهم أن يتأملوا وجوه التشابه مع المشركين رغم ادّعاءهم محبة الله وولايتهم له». (التفسير الماجدى)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 48}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وإذْ زيَّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس إنى جار لكم. فلمّا تراَءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برئ منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب}.

ملخص معانى الآيۀ:

تذكّروا ما حصل يوم بدر، عندما زيّن الشيطان للمشركين أعمالهم القبيحۀ، فزعموا أن ما يقومون به من الكفر والشرک ومعاداۀ الإسلام ومخالفۀ الرسول ۰ حق، وقال لهم عشيۀ القتال: لا غالب لكم اليوم لما بكم من قوۀ وشوكۀ، وأنا ظهيركم وناصركم، فلما ابتدأ القتال ورأى الملائكۀ رجع على أعقابه، وأعلن براءته عنهم وقال: إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب.

سبب نزول الآيۀ:

رُوى أن الشيطان تمثل لهم يومئذ فى صورۀ سراقۀ بن مالک بن جعشم وهو من بنى بكر بن كنانۀ، وكانت قريش تخاف بنى بكر أن يأتوهم من وراءهم، لأنهم قتلوا رجلا منهم، فلما تمثل لهم قال ما أخبر الله به عنه. وقال الضحاک جاءهم إبليس يوم بدر برايته وجنوده وألقى فى قلوبهم أنهم لن يهزموا وهم يقاتلون على دين آبائهم. (القرطبى)

لاحظوا العبارۀ التاليۀ وعُصارۀ عبارات المفسرين:

«اغترت قريش بجمعها وقوتها، وكانت فى دوامۀ النزاع مع بنى بكر بن كنانۀ، فخافت أن تُغير عليها من وراءها، حتى ظهر عليها الشيطان فى هيئۀ سيد كنانۀ سراقۀ بن مالک بن جعشم، وشدّ أزرها، وأكّد على أبى جهل وغيره أنه سيمدهم وينصرهم، كيلا يخافوا كنانۀ ويطمأنّوا غارتهم. ولمّا حمى وطيس الحرب واشتد فى بدر، وشاهد إبليسُ جبريلَ ومن معه من الملائكۀ خلّص يده من يد أبى جهل ولاذ بالفرار، فقال أبو جهل: أتَغُرّنى وتولّى دبرک؟ أين تفر؟ فأجاب: لا يمكننى البقاء معكم، لأننى أرى ما لا ترون، (أى الملائكۀ) وراعنى مشهد الملائكۀ حتى كاد لا ينبض قلبى من شدۀ الخوف، وأخاف إن أطلتُ البقاء معكم أن يمسكنى عذاب أليم. قال قتادۀ: كذب الملعون إبليس، لم يكن يخاف الله تعالى، إنما كان قد أدرک أن جيش قريش على وشک الهزيمۀ، ولا مانع لهم منها، وكان تعوّد على خداع كل من اتبعه، ويتخلف عن نصره إن طوّق به العذاب، ففعل كعادته.

{يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً}. (النساء) {كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى بريئ منک إنى أخاف الله رب العالمين} (الحشر). {وقال الشيطان لمّا قُضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم

فاستجبتم لى، فلا تلومونى، ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم} (إبراهيم) (التفسير العثمانى).

وكانت يده فى يد حارث بن هشام. (تفسير الجلالين)

قيل: خاف إبليس أن يكون يوم بدر اليوم الذى أنظر إليه. (القرطبى)

إشارة إلى ما أمهله الله تعالى فى قوله: {قال فأنظرنى إلى يوم يُبعثون قال فإنک من المُنظرين إلى يوم الوقت المعلوم}.

وقال التهانوى رحمه الله:

بما أن الخوف المجرد عن الإيمان لا عبرة به، لذلک لا إشكال حتى وإن كان خائفا فى الحقيقة والواقع. (بيان القرآن)

والقول الثانى ما ورد فى التفسير العثمانى، أن الشيطان لم يكن خائفا فى الحقيقة. (والله أعلم بالصواب)

وأقوى رأى لأكثر المفسرين هو أن الشيطان حضر يوم بدر بهيئة إنسان، وأكّد للمشركين بنصره وموازرته، وعند البعض أنه لم يحضر فى هيئة إنسان، إنما وسوس فى قلوب المشركين بما ذُكر فى الآية المباركة.

قال الرازى:

فى كيفية هذا التزيين وجهان: الأول: إن الشيطان زيّن بوسوسته من غير أن يتحول فى صورة إنسان، وهو قول الحسن والأصم. (التفسير الكبير)

وقد جمع التهانوى رحمه الله بين القولين، وقال: قوله تعالى: {وإذ زيّن} متعلق بالوسوسة، وقوله: {وقال لا غالب لكم اليوم} متعلق بقدوم الشيطان فى هيئة بشر. (ارجع إلى بيان القرآن للتهانوى)

ربط الآية:

ما علاقة الآية الكريمة بما قبلها؟ ما ذكره المفسرون حوله يشير إلى ما يلى:

1- فى الآيات السابقة كان النهى عن البطر ورئاء الناس، وفى هذه الآية أكّد على أن كل من ابتُلى بشىء منها تسلّط عليه الشيطان، ثم غرَّه وأوقعه فى الهزيمة.

2- فى الآيات السابقة أشار إلى النعم التى أنعم على المسلمين يوم بدر، ومن تلک النِعم فرار الشيطان يجر أذيال العار والندامة، ونزول الملائكة من السماء لنصر المؤمنين ومشاهدة الشيطان لهم.

3- فى الآيات السابقة أشار إلى ثلاثة عيوب فى المشركين: (1) البطر (2) والرياء (3) والصد عن الدين. وهنا أشار إلى عيب رابع، وهو أنهم يزعمون قبائحهم حسنات، إذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم.

وفيما يلى لاحظوا بعض العبارت:

1- العصاۃ والمراؤون تنقطع صِلاتهم مع الله، ولا تنزل علیهم رحمۃ الله، یمنّیهم الشیطان ویغرّهم ثم یقعون فی المهالک وینهزمون. (حاشیۃ اللاهوری)

2- وقیل: هو عطف علی ما تقدم من تذکیر النعم وتقدیره: واذکروا إذ یریکموهم وإذ زین. (التفسیر الکبیر)

فیه إشارۃ إلی الربط الثانی.

3- وقیل: هو عطف علی قوله خرجوا بطرا ورئاء الناس وتقدیره: لا تکونوا کالذین خرجوا من دیارهم بطرا ورئاء الناس وإذ زیّن لهم الشیطان أعمالهم. (التفسیر الکبیر)

معجزۃ جسیمۃ:

قال الرازی رحمه الله تعالی:

فیه معجزۃ عظیمۃ للرسول علیه السلام. (التفسیر الکبیر)

لأن المشرکین قالوا لدی عودتهم إلی مکۃ : ما انهزمنا إلا لسراقۃ بن مالک، فلما بلغ سراقۃ ذلک قال: والله ما علمتُ خروجکم إلی بدر إلا بعد ما بلغنی مرجعکم منها منهزمین، فعلم الناس أنه لم یکن سراقۃ، إنما کان إبلیس. (التفسیر الکبیر)

هجوم شدید:

فی الجملۃ الأولی من الآیۃ الکریمۃ ذکر هجوم الشیطان الشدید وإغوائه بحیث لا یمکنهم التوبۃ إلی الله، وهجومه أنه جعل القبیح حسنا فی عیون الناس، فزعموا أنهم لا یأتون إلا بالخیر، فکیف الندم علیه والتوبۃ منه؟

فالشیطان زیّن لهم أعمالهم السیئۃ حتی باتوا یدعون للقضاء علی الباطل علناً، إذ کانوا یزعمون أن المسلمین علی الباطل، وأنهم علی الحق. (والله أعلم بالصواب)

أهمیۃ غزوۃ بدر:

خرج المسلمون إلی بدر لمواجهۃ جیش أکبر منهم عدداً وعُدّۃً، ولم یکن خروجهم إلا طلباً لرضی الله سبحانه، وکان مخرجهم أحدث ضجۃ فی ملکوت السموات والأرض، فنزلت الملائکۃ من السماء، وخرج الشیطان مع جیشه وجنوده وأعلامهم، وانساقت السُحب، وهاجت الریاح، إن کان الهدوء تُخیّم علی طرف فإن الرعب والرهب کانا یسیطران علی قلوب الطرف الآخر. سبحان الله وبحمده سبحان الله العظیم.

فکلّما خرج المؤمنون وفق ترتیب بدر، أراهم الله تعالی عجائب نصره وتأییده فی کل عصر وزمان. (والله أعلم بالصواب)

إذلال الشیطان:

قال الرازی رحمه الله: ما سبب خوف الشیطان؟ فیه أربعۃ أقوال:

الأول: أنه رأى الملائكة.

الثاني: أنه رأى جبريل يمشى بين يدى النبى ﷺ.

الثالث: أنه رأى الملائكة يتعاقبون على بدر وهم ألف.

الرابع: رأى آثار انتصار النبى ﷺ وغلبته على المشركين، فخاف أن لا تحيط به دائرة. (التفسير الكبير)

أما الحديث التالى فقد أورده القرطبى وابن كثير فى إذلال الشيطان يوم بدر:

«ما رأى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة، وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا ما رأى يوم بدر قالوا: يا رسول الله وما رأى يوم بدر؟ قال أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة (عن طلحة بن عبيد الله بن كريز عن رسول الله ﷺ. وهذا مرسل من هذا الوجه. ابن كثير)

لاشک أن الجهاد يحتوى على ما فيه إذلال للشيطان وأذنابه وجنوده، اللهم انصر أمة الإسلام على الشيطان وقواته. آمين يا أرحم الراحمين

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 49}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإذْ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم}.

ملخص معانى الآية:

لمّا رأى المنافقون بالمدينة والضعفاء من المسلمين بمكة خروج المسلمين إلى بدر وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر لمواجهة جيش عظيم من المشركين، قالوا: غرّ هؤلاء دينُهم، ولم يكن إلقاء أنفسهم لمواجهة الخطر الجسيم إلا ثقة بالله، لذلک قال الله تعالى لهم: ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم.

كلام بركة:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى:

انتقد المنافقون المسلمين بعدما رأوا تحمّس المسلمين، فردّ الله عليهم، وقال إنه توكل بالله تعالى، وليس اغترار بالدين. (موضح القرآن)

لا تتحقق الغلبة إلا بنصر الله:

قال اللاهورى رحمه الله تعالى:

كان المنافقون يقولون إن المسلمين اغتروا بدينهم، فقد زعموا أنهم ينتصرون على الأعداء ببركة دينهم، وكان ذلک مستحيلا فى عيون المنافقين، لجهلهم أن من يتوكل على الله، وصار لله، كان غالباً على الأعداء بنصر الله. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

المسلمون متوكلون وليسوا مغرورين:

قال العثمانى رحمه الله:

لمّا رأى المنافقون والضعفاء من المسلمين حفنة من المؤمنين غير مجهزين بالسلاح مندفعين بالحماس والشجاعة نحو العدو قالوا: إنما غرّهم دينُهم وزعمُهم أنهم على الحق، واستعدوا لإلقاء أنفسهم فى التهلكة. أجاب الله تعالى عنهم وقال إنهم متوكلون على الله وليسوا بمغرورين بدينهم، فكل من آمن بقدرة الله واطمأنّ قلبه على أن شيئا لن يتحقق بدون أمر الله وحكمه وإرادته، صار شجاعا وباسلاً فى سبيل الحق. (التفسير الحقانى)

ربط الآيات:

كيف ترتبط هذه الآية بما سبقتها من الآيات؟ فيها آراء عديدة:

الأول: أغلب الظن أن الكفار يغلبون على المسلمين يوم بدر، ففى الآيات السابقة فنّد هذا الزعم، وفى هذه الآية أراد إبطال زعم آخر، وهو أن المنافقين كانوا يظنون أن المسلمين ينهزمون، ويغلب عليهم المشركون. كما قال التهانوى رحمه الله تعالى:

فيما سبق أراد إبطال ظن خاطئ ... وهو أن المشركين يتغلبون على المسلمين عادةً، لكنهم هُزموا وغلب عليهم المسلمون فى هذه المرة، وفى هذه الآية أكّد على خطأ هذا الظن، حيث بدا المسلمون ينهزمون فى بادى الأمر، لكنهم غلبوا على أعدائهم ببركة التوكل على الله. (بيان القرآن)

الثانى: فى الآيات السابقة أشار إلى أن الشيطان زيّن للمشركين أعمالهم القبيحة، وفى هذه الآية أشار إلى أن الشيطان زيّن للمنافقين أن المسلمين سينهزمون، كما قال الحقانى رحمه الله تعالى:

بما أن الآيات السابقة ذكرت تزيين الشيطان للمشركين وإضلاله لهم، وهنا أراد الإشارة إلى أن التزيين لم يكن منحصرا على المشركين، إذ تعدّى إلى المنافقين الذين فى قلوبهم مرض النفاق والشك صاروا يقولون للمسلمين: هؤلاء غرّهم دينهم حتى تَجَرَّأ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا منهم على مجابهة ألف بطل قرشى. (التفسير الحقانى)

الثالث: فى الآيات السابقة ذكر نِعَم الله على المؤمنين يوم بدر، وفى هذه الآية أشار إلى نعمة جديدة، وهى وفق المثل القائل: «صاحب الدار أدرى بما فى الدار» كان الضعفاء من المسلمين والمنافقون يظنون أن المسلمين بما هم عليه من الضعف والقلة ليس بإمكانهم مواجهة قريش، وأن قريشاً سوف تقضى على الوجود الإسلامى يوم بدر، إلا أن الله أمدّهم بنصره وتأييده، حتى تأكّد للمنافقين وغيرهم من المشركين أن الله مع المؤمنين. (والله أعلم بالصواب)

من كان المنافقون؟

قال الرازى:

أما المنافقون فهم قوم من الأوس والخزرج. (التفسير الكبير)

الذين أظهروا الإيمان وبطّنوا الكفر. (القرطبى)

من كانوا مرضى القلوب؟

قيل: هو اسم آخر للمنافقين:

«والذين فى قلوبهم مرض». فالعطف تفسيرى (التفسير القرطبى)

وقيل: هم الضعفاء من المسلمين الشاكّين. كما قال القرطبى:

«الشاكون» القرطبى.

وقال الرازى رحمه الله:

«وأما الذين فى قلوبهم مرض فهم قوم من قريش أسلموا وما قوى إسلامهم فى قلوبهم ولم يهاجروا ثم إن قريشا لما خرجوا لحرب رسول الله ° قال أولئک نخرج مع قومنا فإن كان محمد (°) فى كثرة خرجنا إليه، وإن كان فى قلة أقمنا فى قومنا. قال محمد بن إسحاق: ثم قتل هؤلاء جميعا مع المشركين يوم بدر».

أرجو قراءة عبارة الرازى هذه مراراً وتكراراً، والحذر من تقليد أولئک الذين ذكرهم الله تعالى فى الآية، فقد كانوا يتّسمون بالخنوع أمام القوة والطغيان، خاصة إذا وجدوا المؤمنين أقل من المشركين شأنا وظرفاً. (والعياذ بالله)

غرهم دينهم بماذا؟

قال الله تعالى: {وَإِذْ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم} فما هذا الشيئ الذى انخدع به المسلمون يوم بدر؟

ذكر الإمام الرازى له معنيين، وقال:

الأول: قال ابن عباس: معناه إنه خرج بثلثمائة وثلاثة عشر يقاتلون ألف رجل وما ذاک إلا أنهم اعتمدوا على دينهم. (لأن الناس لا يخوضون المعارک إلا استناداً إلى العدد والعُدة، وهما لا يتوفران لدى المسلمين، فدل على أنهم انخدعوا بدينهم).

الثانى: وقيل المراد أن هؤلاء يسعون فى قتل أنفسهم رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ويثابون على هذا القتل. (التفسير الكبير)

أرجو ملاحظة القولين، والمقارنة بين ما قاله المنافقون فى عهد النبى ° وما يقوله مثقفوا اليوم من مناوئى الجهاد ذوى الأفكار النيّرة.

وما قاله المنافقون وضعفاء الإيمان بناءً على الأوضاع العامة لم يكن من المستبعد. (التفسير الماجدى)

أى لا يتعدى نظر المنافقين الأوضاع العامة.

قوله: {عزيز حكيم}:

قال التهانوى رحمه الله تعالى: إن الله سبحانه وتعالى عزيز، يُغَلِّبُ من يتوكل عليه على أعدائه فى عموم الأحوال، ثم إنه «حكيم» فإنه إن لم يغلّب المسلمين على المشركين فلحكمة أرادها. (معنى بيان القرآن)

والغرض منها الإشارة إلى أن مدار الغلبة ليس على الاستعداد الظاهرى أو ضده.

رفع كلمة الله:

فيما يلى لاحظوا عبارة مستغربة:

«لمّا خرج حفنة من المسلمين يوم بدر لمواجهة العدو، عجز المنافقون والضعفاء من المسلمين عن تفسيره، وفى النهاية قالوا: ما غَرَّ هؤلاء إلا دينهم، ولاشک أنه صحيح ببعض

الاعتبارات، خاصة لأنه قيل فى معرض نقد المسلمين، فكلامهم صحيح من ناحيةٍ، إذ المسلمين سُكروا بدينهم، لذلك لم يرد القرآن على قولهم فى الآية (49) إنما اكتفى بقوله: {ومن يتوكل على الله..} » (ترجمان القرآن).

{**سورة الأنفال مدنية، الآيات** : 50، 51}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد}.

ملخص معانى الآيتين:

أشار إلى المشهد المُرعِب وقت قبض الملائكة أرواح الكفار والمشركين، يضربونهم بأسواط من النار على وجوههم وأدبارهم، ويقولون: ستذوقون عذاب الحريق بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد.

ربط الآيات:

الأول: ذكر فى الآيات السابقة أن المشركين سيُغلبون ويُقتلون، وفى هذه الآيات أشار إلى عقوبتهم المستقبلية بدءاً من البرزخ. (بيان القرآن)

الثانى: هذه الآية مرتبطة بغزوة بدر، فالمسلمون كانوا يضربون المشركين بالسيوف من الجهة الأمامية، وإذا تولّوا ضربهم الملائكة على أدبارهم، وقبضوا أرواحهم بعنف.

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى:

عن مجاهد قال يوم بدر قال ابن جريج: قال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين، ضربوا وجوههم بالسيوف، وإذا ولّوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم. (ابن كثير)

قال اللاهورى رحمه الله:

كانت الملائكة تقول ما ذُكر فى الآيتين بشأن المشركين الذين أتوا إلى بدر للقضاء على المسلمين، وهو مصير كل من عاش حياة مخالفة لما أمر الله تعالى. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

وقيل: الآية تعم المشركين جميعا، ومن ضمنهم القتلى يوم بدر.

قال العثمانى رحمه الله تعالى:

من المفسرين من أدخل هذه الآية فى بدر، وقال: كانت الملائكة تتعامل مع أولئك المشركين الذين كانوا يُقتلون يوم بدر بما ذُكر فى الآية، لكن لفظ الآية عام يشمل الجميع، فالذى يترجح أن الآية تخص البرزخ. وتوجيه ارتباطها ببدر أن الكفار واجهوا ما واجهوا يوم بدر ثم انتقلوا إلى البرزخ فعَرضَ لهم ما ذُكر فى الآية، أما الآخرة ففيها لهم عذاب أليم.

الثالث: كان الله بصدد بيان أحوال بدر وأعمال المشركين السيئة، ليعلموا أسباب محاربتهم، وهنا ذكر عاقبتهم القبيحة بأنهم يعاقبون فى البرزخ والآخرة.

فیها إنذار للمشرکین کی ینتهوا عما هم فیه، وبشری للمؤمنین بالعقوبة الشدیدة التی أنزلها بساحة أعدائهم. فأعداء الإسلام یُعاقبون فی الدنیا بأیدی المجاهدین، وفی البرزخ بأیدی الملائکة. وفیها إشارة إلی حکمة من حِکم الجهاد. (والله أعلم بالصواب)

مشهد مُرعب عند وفاة المشرکین:

قال العلامة ابن کثیر رحمه الله تعالی:

یقول تعالی: ولو عاینت یا محمد (ﷺ) حال توفی الملائکة أرواح الکفار، لرأیت أمرا عظیما هائلا فظیعا منکراً. (ابن کثیر)

وبما ذکر ابن کثیر عرفنا الترکیب النحوی أیضاً للآیة.

الملائکة تضرب أبا جهل:

أورد ابن کثیر والقرطبی ما روی عن الحسن البصری:

«إن رجلا قال لرسول الله ﷺ یا رسول الله! إنی رأیت بظهر أبی جهل مثل الشراک قال ذلک ضرب الملائکة». (القرطبی)

سیاط من نار:

قال العلامة أبو حیان رحمه الله تعالی:

فإن کان ذلک عند الموت ضربتهم الملائکة بسیاط من نار. (البحر المحیط)

نکتة رازیة:

{یضربون وجوههم وأدبارهم}

استنبط الرازی فائدة مهمة من الضرب علی الوجوه والأدبار، فقال: یحزن المشرک عندما یفارق روحه الدنیا، ثم ینظر إلی الآخرة فلا یری فیها إلا الظلمات، فکأنه یَلقی الضربات من الجهتین الأمامیة والخلفیة. (التفسیر الماجدی والتفسیر الکبیر)

{**سورة الأنفال مدنية، الآيات** : 52}

بسم الله الرحمن الرحيم

{كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب}.

ملخص معانى الآية:

شأنهم فى تلقى العقوبات على كفرهم ومعاداتهم للإسلام شأن آل فرعون والذين كانوا قبلهم من الكفار، فإنهم كانوا كافرين لآيات الله مثل سلفهم، فأخذهم الله بذنوبهم وعاقبهم، إن الله قوى شديد العقاب. (أعداء الإسلام استوجبوا العقوبة، وعقوبتهم الجهاد، وسوف يُغلبون كما غُلب آل فرعون)

التعذيب بسبب التكذيب:

والمعنى جروا على عادتهم فى التكذيب فأجرى عليه مثل ما فعل بهم فى التعذيب. (المدارك)

الربط والتفسير:

قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى:
إنه تعالى لمّا بيّن ما أنزله بأهل بدر من الكفار عاجلا وآجلاً كما شرحناه أتبعه بأن بين هذه طريقته وسنته فى الكل، فقال كدأب آل فرعون والمعنى: عادة هؤلاء فى كفرهم كعادة آل فرعون فى كفرهم، فجوزى هؤلاء بالقتل والسبى كما جوزى أولئك بالإغراق. (التفسير الكبير)

تفسير آخر:

قال القرطبى رحمه الله تعالى:
الدأب العادة وقد تقدم فى آل عمران أى العادة فى تعذيبهم عند قبض الأرواح وفى القبور كعادة آل فرعون. (القرطبى)

معارف:

ربط هذه الآية بما سبقت من الآيات واضح، حيث بين الله تعالى مصيرا مخزياً مليئاً بالعبرة والنصيحة لأولئك الذين خرجوا لقتال المسلمين، وفى هذه الآية أشار إلى أن معاقبة من كان مثلهم فى الكفر والظلم ليس بأمر جديد، بل هى سنة الله التى لا تتبدل منذ القدم، لذلك الواجب على

الكفار والمشركين أن ينبذوا الشرک والكفر، ويدخلوا فى دين الله أفواجا، لكى يُجنّبوا أنفسهم من العواقب الوخيمة والعقوبات الرادعة. أما بالنسبة للمسلمين فلهم نصيحة فى هذه الآية أن لا يهابوا قوة أعداء الإسلام من المشركين والكفار، إذ لم ينجُ من عذاب الله تعالى ملک جابر قوى مثل فرعون وجنوده المزوّدين بالسلاح والعتاد، انفلتت الحكومة من يده فى الدنيا، ثم ذاق الويل والعذاب بعد أن فارق الدنيا. ومثله واجه المشركون يوم بدر الذين خرجوا لمحاربة المسلمين، تعانقوا الموت وهم أذل الناس وأشدهم عقوبة، لذلک يجب على المسلمين أن لا يخافوا فرعونا ولا أبا جهل فى كل عصر وزمان، ولا يخنعوا لهم، بل عليهم أن يخلصوا فى إيمانهم بالله، ويحيوا الهجرة والجهاد كما أمرهم، إن فعلوا ذلک رأوا أن قوة الله وثأره يفتت أعداء الدين.

هاجر موسى عليه السلام، فأغرق الله تعالى فرعون وجنوده. جاهد محمد ۖ فأهلک الله تعالى أبا جهل وجنوده، فهذه سنة الله التى لا تبديل لها، وتستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فالواجب إحياء وتيرة الجهاد يوم بدر، لأن أعداءهم استوجبوا العذاب على أنفسهم بكفرهم وجرائمهم، فلا يقدرون على مواجهتهم، وقد جرت سنته أنه يعاقب المجرمين بأيدى المؤمنين المجاهدين، كما قال تعالى: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم}. والله أعلم بالصواب

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 53}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ذلک بأن الله لم یک مغيَّرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسـهم، وأن الله سميع عليم}.

ملخص معانی الآیۃ:

أشار فيها إلى أن الله تعالى لا يعاقب أحدا بدون ذنب، وأنه لا يبدل نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيّروا أحوالهم وظروفهم، لا تخفى عليه نوايا الناس وإراداتهم، ووفق هذا الأصل استوجب أهل مكۃ العذاب، شأنهم شأن آل فرعون.

كلام برکۃ:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى:
لا تُسلب نعمۃ من نعم الله تعالى ما لم تتبدل النوايا والعقائد. (موضح القرآن)

العقوبۃ بعد الرحمۃ:

لا يغير الله تعالى ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلم ينزل عليهم العقاب بعد الرحمۃ إلا بسبب أعمالهم. (حاشیۃ اللاهوری)

وضع المشركين السیء بمکۃ:

«كتبديل كفار مكۃ من إطعامهم من جوع، وأمنهم من خوف، وبعث النبی ٠ إليهم بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين». (الجلالين)
وكان الله قد أنعم على المشركين بمكۃ بثلاث نعَم كبيرۃ: الأولى: أبعد عنهم الجوع ووسّع لهم فيما رزقهم. الثانیۃ: بدّل خوفهم بالأمن. الثالثۃ: أرسل إليهم محمداً ٠.
أما المشركون فقد كفروا بالنِعَم الثلاث، ثم (1) أنكروا بالرسول. (2) صدوا الناس عن دين الله. (3) حاربوا المسلمين.
قال السدّی:
نعمۃ الله عليهم محمد ٠ فكفروا به فنقل إلى المدينۃ وحل بالمشركين العقاب. (القرطبی)
وقال القرطبی:
ونعمۃ الله على قريش الخصب والسعۃ والأمن والعافيۃ. (القرطبی)

النکتۃ النسفیۃ:

کان المشرکون علی الکفر والشرک قبل البعثۃ، فما معنی سوء أحوالهم؟ أجاب عنه النسفی وقال:

تغیرت الحال المسخوطۃ إلی أسخط منها... الخ

أی معنی سوء أحوالهم أن تتبدل أحوالهم من السیء إلی الأسوأ، حالۃ سخط الله تعالی تزداد سوءً، لاشک أن المشرکین کانوا علی الکفر والشرک قبل البعثۃ المحمدیۃ، یعبدون الأصنام، ولمّا أنزل الله علیهم آیاته، کذّبوها، وتصدوا لإراقۃ دم الرسول الذی بُعث إلیهم، فاستبدلوا حالتهم السیئۃ بحالۃ أسوأ منها، حتی ازدادوا سُوءاً، فسلب الله تعالی نعمۃ الإمهال منهم، حتی حل بهم عذاب عاجل، فالمعنی أن الإمهال کان من النعم التی سُلبت منهم. (المدارک)

لاحظوا عبارتین أُخریین فیهما العبرۃ والنصیحۃ:

البیان العثمانی:

أی عندما یغیّر الناس بإفراطهم وأعمالهم السیئۃ القُوی الطبیعیۃ التی أودعها الله تعالی فی کل إنسان، ولا یوجّهون نِعَمه الظاهرۃ والباطنۃ إلی ما أرشد إلیها من الأعمال الحسنۃ، وظلوا یعادونها ویتصدون لإعاقتها، عاَقبهم الله تعالی بإذهاب تلک النعم منهم، ویستبدل حالۃ النعمۃ بالنقمۃ، فهو مطلع علی أحوالهم کلها ویسمعها، لا تخفی علیه خافیۃ، لذلک لا یتعامل مع أحد منهم إلا بما کان الأصلح لأحواله. (التفسیر العثمانی)

البیان الماجدی:

هنا أشار إلی حقیقۃ ثابتۃ أن ما من قوم لا یغیر ما به من حالۃ عند نزول الرحمۃ علیها، ولا یُحدث فیه الکفر والخبث مکان الإیمان والطاعۃ... إذ الجمع بین النعمۃ والخبث یخالف حکمۃ الله تعالی... فتاریخ الأمۃ الإسلامیۃ خیر شرح وبیان لهذه الآیۃ، فقد بلغت أوج الرُقی والتقدم فی کافۃ مجالات الحیاۃ عقب البعثۃ النبویۃ وعهود الخلفاء الراشدین، حتی بسطت نفوذها علی العالم کله، وکان ذلک معجزۃ من معجزاته، إذ لا نظیر له فی تاریخ بقیۃ الأمم والشعوب، ثم انظروا إلیها لما سقطت هبطت إلی حیث صارت عبرۃ للمعتبرین. حکموا علی بلاد الأندلس لمدۃ سبعمائۃ سنۃ، ثم اضطروا إلی الجلاء فی وضع مأساوی، ولم تقدر نفس واحدۃ منهم البقاء علی تلک الأراضی، وفی أرض الهند رفعوا رایتهم لمدۃ تسعمائۃ سنۃ أو أکثر، ثم انسحب بساط الحکم من تحت أرجلهم، وصاروا الآن یتعرضون للویلات علی ید الهندوس. الدولۃ الترکیۃ شهدت التفکک والانقسام وتراجعت إلی أهون ما تکون. حاکم ولایۃ حیدرآباد الهندیۃ الغنیۃ بثرواتها أقدم علی الانتحار. فهذه کلها نعیم الدنیا بثمرها المسلوب علی ما بدّلت الأمۃ ما کان بها، حتی تغیرت علیها الدنیا، لمّا استبدلت العدل والخشیۃ بالظلم والعدوان والهوی والشقاء والخیانۃ والانهماک فی الملذات وقطیعۃ الرحم وبکل أصناف الشر والخبث. (التفسیر الماجدی).

فائدۀ:

فى الآيات السابقۀ ذكر أحوال غزوۀ بدر، وأمر المسلمين بقتال المشركين، لاشک أن جهادهم هذا فى مواجهۀ قوۀ عظيمۀ تعيق طريق الإسلام والمسلمين، أو تسلط الحرب عليهم، والسؤال هو: كيف بإمكان المسلمين الضعفاء مواجهۀ قوۀ عظيمۀ؟ رد الله تعالى عليهم بذكر فرعون وجنوده أن قوۀ المشركين لا عبرۀ بها أمام قوۀ الله تعالى، فملک مثل فرعون فى البطش والظلم لقى حتفه بأمواج البحر. ما بهم من نعمۀ وملک وجنود وسلطۀ فلأجل معين، ينقضى عند خروجهم لقتال المؤمنين، فيأخذهم العذاب الدنيوى، كما حدث مع أهل مكۀ وآل فرعون، وهكذا يستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومن هنا وجب على المسلمين أن يقوموا بتبليغ الرسالۀ إلى الأمم شعوب الدنيا فى شرقها وغربها، فمن أعاق طريقهم وواجهم بالقوۀ كان مصيرهم مثل آل فرعون وأهل مكۀ فى بدر. ويجب هنا أن ندرک بأن قانون المعاقبۀ الإلهيۀ عام شامل للجميع، مسلمهم وكافرهم، فمن ضيّع ما كان معه من الدين، وطمع فى الدنيا ونعيمها، منعهم الله تعالى من نعيمه.

وقال صلى الله عليه وسلم: إذا تبايعتم بالعينۀ وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه منكم حتى ترجعوا إلى دينكم.

وعن أبى هريرۀ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لثوبان كيف بک يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعۀ الطعام تصيبون منه قال ثوبان بأبى أنت وأمى يا رسول الله أمن قلۀ بنا قال لا أنتم يومئذ كثير ولكن يلقى فى قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن يا رسول الله قال حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط بنحوه وإسناد أحمد جيد.

فماداموا على توكلهم وإيمانهم بالله، أكرمهم بنعمۀ النصر والفتح والغلبۀ، فإن تخلوا عنها نزع منهم النعمۀ، وهذه سنۀ الله فى الناس، لا يظلم الله أحدا ولا يعاقبهم بلا ذنب. (والله أعلم)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 54}

بسم الله الرحمن الرحيم

{كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذّبوا بآيات ربهم فأهلكناهم وأغرقنا آل فرعون وكلٌ كانوا ظالمين}.

ملخص معانى الآيۀ:

فرعون ومن سلفه من الكفار والمشركين كلهم كذّبوا بآيات الله فاستحقوا العذاب، وأُهلكوا بسبب ذنوبهم، أُغرقَ فرعونُ، وكلهم كانوا ظالمين، وتلك عواقب ظلمهم.

إن الله لا يعادى أحداً لذاته:

أُهلك فرعون ومن كان مثله بسبب أعمالهم، وكان مصير فرعون الغرق فى البحر، وما أُهلكوا إلا بعدما تعدّوا وظلموا أنفسهم، وإلا فلا يعادى الله أحداً لذاته.

ذكر فرعون:

فرعون اسم للقوۀ العظمى فى عهده، فقد أنشأ أقوى وأكثر الدول توسعا فى العالم، أشار القرآن إلى عاقبته مراراً وتكراراً، أما فى عصر نزول القرآن فكانت قوتا – الفرس والرومان – متسيطرتان على العالم، والمؤمنون بالقرآن وضعوهما فى كفۀ فرعون، وظلوا لا يقيمون لهما وزنا، ولقد أمهل الله فرعون طويلاً، حتى قطعه بعدما خرج لملاحقۀ كل من آمن بالله لإهلاكه، فأغرقه فى البحر. ومثله مشركوا مكۀ أمهلهم الله تعالى حتى لمّا خرجوا بطراً بعدما لبسوا عُدّۀ حربهم لمحاربۀ المؤمنين، انقضى وقت إمهالهم فأُخذوا وعوقبوا.

ومن هنا يتضح أنه لا يجوز للمسلمين أن يتخوّفوا من فراعنۀ العصر وأبا جهل الوقت، فما منهم يستخدم قوته لمحاربۀ المسلمين إلا واستحق غضب الله، وانقضت مهلته. (والله أعلم بالصواب)

لا تكرار بين الآيتين:

قال القرطبى رحمه الله تعالى:

ليس هذا بتكرير، لأن الأول للعادۀ فى التكذيب والثانى للعادۀ فى التغيير. (القرطبى)

يعنى لا تكرار بين قوله تعالى: {كدأب آل فرعون} وبين هذه الآيۀ، لأن فى الأولى بيان لعادتهم فى التكذيب، (فتكذيب مشركى مكۀ للدين مثل تكذيب الفراعنۀ) وهنا إشارۀ إلى عادۀ التغيير، (حيث غيّر المشركون أحوالهم كما فعل الفراعنۀ). (القرطبى)

كما أشار القرطبى رحمه الله تعالى إلى ثلاثة فروق للتفريق بين الآيتين، من شاء فليرجع إليها فى التفسير الكبير.

{سورة الأنفال مدنية، الآيات :55، 56، 57}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إن شرّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الذين عاهدتَ منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون. فإما تثقفنهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفَهم لعلهم يذّكرون}.

ملخص معانى الآيات:

أشار فيها إلى أن ما من شخص ظل ثابتا على الكفر والشرك، وصار ينقض عهوده ومواثيقه بدون خوف، كان من شر الدواب عند الله، فإن وقعوا بأيديك فى الحرب فأنزل بهم عقوبة يردع بها من بعدهم، ولا يجترئوا على نقض العهد. (أى الأولى بأحوال أعداء الإسلام استخدام الجهاد ضدهم والتشديد عليهم).

سبب النزول:

(1) ونزل فى قريظة. (الجلالين)

(2) والآية على ما قال جمع: نزلت فى يهود بنى قريظة عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه، فأعانوا المشركين بالسلاح فقالوا نسينا ثم عاهدهم عليه الصلاة والسلام، فنكثوا ومالؤوهم عليه (عليه الصلاة والسلام) يوم الخندق وركب كعب إلى مكة فحالفهم على حرب رسول الله ﷺ. (روح المعانى)

(3) والمعنى بهم قريظة والنضير فى قول مجاهد وغيره. (القرطبى)

(4) عن سعيد بن جبير أنها نزلت فى ستة رهط من يهود منهم ابن تابوت.

ثم قال الآلوسى بعدما نقل ما أسلفنا:

«ولعله أراد بهم الرؤساء المباشرين للعهد». (روح المعانى)

(5) وهذا هو الراجح عند الإمام الرازى، بأن المراد منهم يهود بنى قريظة، كما قال:

«قال ابن عباس : هم قريظة فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وأعانوا عليه المشركين بالسلاح يوم بدر، ثم قالوا: أخطأنا فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه يوم الخندق. (التفسير الكبير)

وقال الشيخ الدرياآبادى رحمه الله:

بنو قريظة إحدى عشائر اليهود ذوى النفوذ والقوة بالمدينة، فاقت على أقرانها فى الخبث وبذاءة اللسان. وكانت منطقة عوالى المدينة تفصل بينهم وبين بنى النضير، فزحفهم النبى ﷺ بأصحابه (فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة) وحاصر حصونهم وشدّد عليهم، واستمر الحصار لمدة

خمسة وعشرين يوما، فنزلوا على حكم سعد بن عبادة، فقضى بضرب أعناق رجالهم بالسيف، فضُربوا، وكانوا ستمائة رجل، بينهم امرأة واحدة. (التفسير الماجدى)

وقال صاحب قرة العينين:

«ونزل فى قريظة هم قوم من اليهود من حلفاء الأوس استوطنوا واديا فى ضاحية المدينة على مسافة ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الشرفى من المدينة، قرب منازل يهود «بنى النضير» الذين أجلاهم النبى ؐ عن المدينة السنة الرابعة بعد أن نقضوا العهد وهموا بقتله ؐ، وفيهم نزلت سورة الحشر، التى كان يسميها عبد الله بن عباس رضى الله عنهما سورة النضير كما رواه عنه البخارى، أما يهود بنى قريظة فقد نقضوا العهد وحاربوا رسول الله ؐ مع الأحزاب أيام الخندق سنة خمس، فحاصرهم النبى ؐ فقتل مقاتلتهم وسبى نساءهم وذراريهم، وغنم أموالهم. (قرة العينين)

وخلاصة هذه الأقوال أن مصداق هذه الآيات الأوّلى هم اليهود، لكن المعنى عام يشمل كل طائفة من الكفار والمشركين ممن توفرت فيهم الشرطان التاليان:

1- من كان قويا فى كفره وإنكاره.

2- نقض العهد مع المسلمين.

الربط بين الآيات:

قال التهانوى رحمه الله تعالى:

فى الآيات السابقة إلى هنا كان بيانا لأحوال وقتال الكفار والمشركين، ومن هنا يبين أحوال وقتال أهل الكتاب، كما سبقت الإشارة إليها فى التمهيد، وسبب نزولها نقض بنى قريظة ما عهدوا إلى النبى ؐ من عدم مناصرة أعدائه، ثم نصروا المشركين يوم الأحزاب، ونصروا آخرين مراراً، كانوا يعتذرون فى كل مرة أنهم فعلوا ذلک نسيانا، وأنهم لن يعودوا إليه، ثم يجدّدون عهدهم مع النبى ؐ، ثم ينقضونه، فأمره الله تعالى بقتالهم.

(2) فى الآيات السابقة قال عن المشركين {كلٌ كانوا ظالمين} وهنا أشار إلى أكثرهم ظلما وشرا، وأشار إلى المعاملة التى يستحقونها، وقال {إن شرّ الدواب} ذكر فيها شرّ الكفار من تحلّى بصفتين: الأولى: كان متمسكا فكفره وشركه بحيث لا يُرجى إيمانه ودخوله فى الإسلام. الثانية: تعوّدَ على نقض العهد والميثاق. فالمعاملة التى يستحقونها هى إنزال عقوبة شديدة بحقهم، وهذا هو الربط الذى اختاره الرازى رحمه الله تعالى، كما قال:

اعلم أنه تعالى لمّا وصف كل الكفار بقوله {وكل كانوا ظالمين} أفرد بعضهم بمزية فى الشر والعناد، فقال {إن شر الدواب} عند الله أى فى حكمه وعلمه من حصلت له خصلتان (الصفة الأولى) الكافر الذى يكن مستمرا على كفره مصراً عليه لا يتغير عنه ألبتة. (الصفة الثانية) أن يكون ناقضا للعهد على الدوم. (التفسير الكبير)

وهذا الذى اختاره صاحب التفسير الحقانى، وقال صاحب التفسير الماجدى:

{شر الدواب} لاشک أن جميع الكفار من شر الدواب، لكن منهم من زادوا عليه بنقض العهد.

«بيّن الله تعالى أن من بين جمع بين الكفر الدائم وبين نقض العهد على هذا الوجه كان شر الدواب». (التفسير الكبير، التفسير الماجدى)

(3) ضرب الله تعالى فيها مثالا بغزوة بدر، وأمر بقتال بقية المشركين، لأن حكم القتال عام لا يقتصر على الجزيرة العربية، إذ هو سبب لإقامة العدل والاستقرار فى ربوع الأرض، وأن الأشرار من الكفار الذى اتسموا بنقض العهد يشكّلون خطراً لأمن العالم. (والله أعلم بالصواب) لاحظوا العبارة التالية:

«أشار فى الآيات السابقة إلى أن الكفار ظالمون بصفة عامة، وهنا يشير إلى ميزاتهم وخصائصهم:

(أ) هم أشد الناس كراهة للإيمان بالله.

(ب) تعوّدوا على نقض العهد، لا يثبتون عليه، والمعاملة المذكورة أنسب لأحوالهم تحقيقا للأمن والاستقرار فى العالم، يجب إنزال العقوبة الرادعة بحقهم، ويكف من خلفهم عن نقض العهد. لم يستقم المشركون بمكة قط على ما عاهدوا الله ورسوله، فأنزل الله تعالى عليهم أشد العقوبات حيث قتل عددا منهم، ومثلهم فعل بنو قريظة إذ نصروا المشركين، فقضى الله تعالى عليهم باستئصالهم من جذورهم. (تفسير القرآن)

معانى بعض الكلمات والجمل:

{عاهدتَ منهم} «من» فى قوله {منهم} للتبعيض، لأن العهد إنما كان يجرى مع أشرافهم ثم ينقضونه. (القرطبى)

{وهم لا يتقون} أى لا يخافون الانتقام. (القرطبى) لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون بما فيه من العار والنار. (المدارک)

{فإما تثقفنهم فى الحرب} ومعنى تثقفنّهم تأسرهم وتجعلهم فى ثقاف، أو تلقاهم بحال ضعف، تقدر عليهم فيها وتغلبهم. (القرطبى)

فأما تصادفنهم وتظفرن بهم. (المدارک)

قال الليث: يقال: ثقفنا فلانا فى موضع كذا أى أخذناه وظفرنا به. (التفسير الكبير)

{فشرّد بهم} والتشريد عبارة عن التفريق مع الاضطراب. (التفسير الكبير)

قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى:

«فمعنى الآية : إنک إن ظفرت فى الحرب هؤلاء الكفار الذين ينقضون العهد فافعل بهم فعلا يفرق بهم من خلفهم قال عطاء: تثخن فيهم القتل حتى يخافک غيرهم». (التفسير الكبير)

قال الإمام النسفى رحمه الله تعالى:

«ففرق عن محاربتک ومناصبتک بقتلهم شر قتلة والنكاية فيهم من وراءهم من الكفرة حتى لا يجسر عليک بعدهم أحد اعتبارا بهم واتعاظا بحالهم».

{من خلفهم} أى من ورائهم من الكفرة. (روح المعانى، التفسير الماجدى)

إلى هنا كان بيانا لسبب نزول الآيات وربطها وشرح معانيها، وفيما يلى لاحظوا بعض النصوص التفسيرية:

1- قصم ظهر المشركين:

ما من إنسان يتولى عن ربه، إلا وصار أسوأ من الدواب، والأشرار من الكفار الذين لا يمتنعون عن نقض العهد إذا تمكنتَ منهم أثناء القتال فشرّد بهم حتى يعتبر بهم من وراءهم من الكفار والمشركين. (حاشية اللاهورى)

2- هم شرّ الدواب:

كل من تمادى فى الكفر والشرک، ثم خان ونقض العهد غافلا عن العواقب، فهو من شر الدواب عند الله، وهذا كان حال الفراعنة فى الغدر والخيانة ونقض العهد.

{«ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربک بما عهد عندک لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لک ولنرسلن معک بنى إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون}. (الأعراف)

وهذا ما تعوّد عليه اليهود من بنى قريظة فى عهد النبى ، كانوا يتعهدون معه • أنهم لا ينصرون المشركين، ثم ينصرونهم، وقالوا: نسينا العهد، يفعلون ذلک مراراً. فبيّن الله تعالى المعاملة المناسبة التى تليق بحالهم، وأرشد إلى أنهم إن خرجوا إلى الميدان لقتالک مع ما بينک وبينهم من عهد فأنزل بهم عقوبة تردع من وراءهم، ولا يتجاسروا على نقض العهد. (التفسير العثمانى)

فائدة:

إن كانت هذه السورة المباركة تشير المسلمين إلى أسباب الفتح، فإنها تشير إلى أسباب الهزيمة، وأكدت على أن نقض العهد من الأمور التى تجلب الذلة والهزيمة، وهى الخصلة التى لا توجد فى عموم الكفار، إنما توجد فى أشرارهم، فكيف تصورها فى المسلمين.

قال العلامة أبو حيان رحمه الله تعالى:

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنها: شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصرين الناكثون للعهود. (البحر المحيط)

يجب على عامة المسلمين، والمجاهدين خاصة، الحذر من جريمة نقض العهد الخطيرة، إذ هى من خصال الكفار الأشرار، وتجلب لصاحبها العار والندامة. (والله أعلم بالصواب)

وسوف يأتى مزيد من البيان والشرح حول نقض العهد ومخالفة الوعد فيما تأتى من الآيات. (إن شاء الله تعالى)

{**سورة الأنفال مدنية، الآية** : 58}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبِذْ إليهم على سوآء إن الله لا يحب الخآئنين}.

ملخص معانی الآیة:

أشار فيها إلى أنک إن عاهدتَ قوما على أمر، ولم ينقضوا العهد علناً، لكن يبدو من حالهم أنهم ينقضونه ويخونونک، جاز لک أو للأمير أن ترد إليهم عهدهم، بأن تُخبرهم أنک الآن لستَ معهم على شیء من العهد بلفظ واضح صريح لا غموض فيه، ثم جاز لک أن تزحف عليهم، لكنک إن لم تُخبرهم ثم هاجمتَ عليهم بجيش فهذه خيانة، والله لا يحب الخائنين، ولو مع المشركين.

تفسير جامع للآية:

فيما يلى لاحظوا عصارة ما كتب أهل العلم فی تفسير هذه الآية الكريمة:

قوم من المشركين لم ينكثوا العهد علناً، لكن الآثار والقرائن تشير إلى أنهم سوف يُقدمون عليه، جاز لک أو للأمير رد العهد إليهم إن كان فيه مصلحة للمسلمين، وإبلاغهم بذلک ثم اتخاذ ترتيبات مناسبة لأحوالهم، کی لا يبيت أحد الفريقين على الشک والتردد بشأن العهد السابق، ثم الاستعداد لما يراه الأمير مناسبا للأحوال والظروف بعد إبلاغهم عن التخلی عن العهود والمواثيق السابقة، لا تخونهم أنتَ، ويكون كل شیء فی وضح النهار، لأن الله لا يحب الخائنين، وإن كان مع المشركين.

ففی السنن أن معاوية بن أبی سفيان رضی الله تعالى عنهما قد عاهد عهدا مع الروم إلى أجل، ثم رأى أن يتقدم نحو العدو، ليتمكن من الزحف عند انتهاء الأجل، فوجدوا راكبا يقول: «الله أكبر الله أكبر وفاءً لا غدراً». قال النبی ﷺ: إذا عاهدتم عهدا لا تحلوا العقد حتى ينقضی الأجل، أو تردوا إليهم على السواء. فلما بلغ ذلک معاوية نكص على عقبيه، ثم رأوا إلى الرجل، فكان عمرو بن عنبسة رضی الله تعالى عنه. (التفسير العثمانی)

تدابير الحماية:

«إن كانوا يخافون قوما، بأن تبدو صديقة وهی تعُد العدة لضرب المسلمين، فانبذ إليهم العهد على السواء لكی تقدر على اتخاذ التدابير اللازمة للحماية». (حاشية اللاهوری رحمه الله تعالى)

مسألة مهمة:

قال التهانوی رحمه الله تعالى:

فی تخصیص النبی • بلفظ الخطاب فی قوله {فشرّدْ} و {فانْبِذْ} و{فاجنَحْ لها} إشارة إلى أن ذلک خاص بالنبی • ومن بعده من أئمة المسلمین، لا یجوز لعامتهم التدخل فیها. (بیان القرآن)

مسألة:

أشار فی الآیة إلى أن نبذ العهد إلیهم لا یکون إلا فی حالة الخوف من عدم وفائهم به، وهذا جریا على العادة، إذ العادة أن التخلی عن العهد لا یتحقق إلا إذا کان الطرف الثانی یخشى الغدر من الطرف الأول أو عکسه، أما إن لم یکن یخاف الغدر، لکن إمام المسلمین یرى من المصلحة الخروج منه، جاز له ذلک بعد إبلاغ العدو به. (مفهوم بیان القرآن)

مسألة:

إن عاهد المسلمون قوما، فغدروا وخانوا، جاز للمسلمین مهاجمتهم بغتة وهم لا یشعرون، ولا حاجة إلى إبلاغهم بانتهاء الأجل، إذ العهد قد انفسخ بغدرهم وخیانتهم. جهّز النبی • سراً ضد المشرکین لمّا غدروا وخانوا صلح الحدیبیة، وسأل الله تعالى فقال: اللهم اقطع خبرنا عنهم.

ثم هاجمهم وفتح مکة، ولم یقم بإبلاغ المشرکین فنقض العهد، لأنهم فسخوه بغدرهم وخیانتهم. (معنى ما ورد عند القرطبی وغیره)

مسألة:

إذا أراد المسلمون نبذ العهد إلى المشرکین، لا یلزمهم إبلاغه إلى کل واحد منهم منفصلا، إذ یکفیهم إبلاغ زعیم المشرکین، ویکفی من المدة ما یمکنه فیها إبلاغ رعیته بالخبر. (أنوار البیان بالإحالة إلى الهدایة)

الإسلام والمحافظة على العهود والمواثیق:

لم یهتم أحد من الشرائع بالعهود والمواثیق مثل اهتمام الإسلام بها، فقد أکّد علیه النبی • بقوله: «آیة المنافق أربع:

1- إذا اؤتمن خان.

2- وإذا حدّث کذب.

3- وإذا عاهد غدر.

4- وإذا خاصم فجر. (رواه البخاری 1/451)

یجب على المسلمین کلهم المحافظة على العهود والمواثیق، سواء الحکومة هی الطرف الذی عاهد أو جماعة أو شخص من المسلمین، یجب على بقیة المسلمین المحافظة علیها.

روى البخاری عن ابی هریرة رضی الله عنه عن النبی صلى الله علیه و سلم قال قال الله تعالى ثلاثة أنا خصمهم یوم القیامة رجل أعطى بی ثم غدر و رجل باع حرا ثم أکل ثمنه و رجل استأجر أجیرا فاستوفى منه و لم یعطه أجره. (رواه البخاری 1/302)

وقال النبى ﷺ: من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة. (رواه البخارى 1/448، أنوار البيان)

الخائن لا يتقدم:

«ولمّا أثبت يوسف براءته مما نسبوا إليه فى الملأ بمصر، وجعله العزيز مسئولا عن الخزائن، خاطب مولاه ولفت انتباهه إلى هذه النكتة المهمة وقال: {ذَلکَ لِيَعْلَمَ أَنِّی لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ وأَنَّ اللهَ لا يَهْدِیْ كَيْدَ الخَائِنيْنَ} (يوسف 52) (تفسير القرآن)

فائدة:

من أحد أسباب الهزيمة الغدر، يجب على الإخوة المجاهدين الحذر منه، إذ هو يدفع المرء إلى الخزى والعار والندامة فى الدنيا والآخرة. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 59}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ولا يَحْسَبَنَّ الَّذيْنَ كَفَرُوْا سَبَقُوا اِنَّهُم لا يُعْجِزُوْنَ}.

ملخص معانى الآيۃ:

أشار فيها إلى أن الكفار لا يمكنهم الفرار من الله، إنما يمهلهم لأجل، فلا يغتروا به.

الربط:

أكثر أهل العلم على أن هذه الآيۃ نزلت فى أولئک المشركين الذين ما أصيبوا يوم بدر.

«ونزل فيمن أفلت يوم بدر» (الجلالين).

والرازى سعى فى الربط بين الآيات منطلقا من سبب النزول الذى أشرنا إليه:

«اعلم أنه تعالى لمّا بيّن ما يفعل الرسول فى حق من يجده فى الحرب ويتمكن منه وذكر أيضاً ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد بين أيضاً حال من فاته من يوم بدر وغيره لئلا يبقى حسرۃ فى قلبه، فقد كان فيهم من بلغ من أذيۃ الرسول عليه الصلاۃ والسلام مبلغا عظيما، فقال: {لا يحسبن الذين كفروا سبقوا...}».

ثم قال الرازى بعد بيان الربط: فى أخذ هؤلاء المشركين قولان: الأول: أن الله سوف يمكّن نبيه عليهم. الثانى: سوف يعذّبهم فى الآخرۃ. (التفسير الكبير)

(2) لاحظوا الربط الثانى فى العبارۃ التاليۃ:

حكم نبذ العهد الذى سبق بيانه لعله يُوقع المشركين فى الغرر، خاصۃ بعدما علموا أن الغدر والخيانۃ لا تُباح فى الشريعۃ الإسلاميۃ، فزعموا أنهم سوف يجدون وقتا كافيا لحمايۃ أنفسهم وللاستعداد والتجهيز بعد الإبلاغ، فأشار الله تعالى إلى أنكم مهما بلغتم فى الاستعداد والتجهيز فإنَّه إنْ قدّر إصابتكم وخزيكم وذلتكم ومعاقبتكم فى الدنيا والآخرۃ بأيدى المسلمين لا يمكنكم تعجيزه بالحيل كلها، ولا الفرار من قدرته وسلطانه، وفيها تطمين للمسلمين أنهم هم الغالبون إن كانوا واثقين بالله ممتثلين لأوامره. (التفسير العثمانى)

(3) لاحظوا الربط الثالث فيما يلى:

فيما سبق كان بيانا لمشركى مكۃ ويهود المدينۃ، وبما أن من طبيعۃ القتال أن البعض منهم ينفلتون من القتل، أشار فى هذه الآيۃ إليهم، وأكّد أنهم لن ينفلتوا منه، وأنهم سوف يؤخذون فى يوم من الأيام. (بيان القرآن)

فائدۃ:

تعجیز للمشرکین بأنهم لا یقدرون علی الفلتان منه مهما بلغوا فی القوۃ والاستعداد، وتطمین للمسلمین بأن الله سوف یذلهم ویخذلهم بأیدیکم، لکن لا یغفلوا عن الاستعداد للجهاد، ویتوکلوا علی الله دون الأسباب الظاهرۃ، ولا یعنی ذلک عدم أخذ الأسباب مأخذ الجد، فالأخذ بالأسباب مما أمر الله تعالی به، کما یؤکّد علیه فیما تأتی من الآیات. (والله أعلم بالصواب)

{**سورة الأنفال مدنية، الآية** : 60}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبـون بـه عـدو الله وعـدوّكم وآخرين من دونهم، لا تعلمونهم، الله يعلمهم، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تُظلمون}.

ملخص معانى الآية:

أشار فيها إلى أن الاستعداد لقتال المشركين واجب حسب استطاعتهم وقدرتهم، وعليهم السعى لتحصيل جميع أصناف القوة، ورباط الخيل، لكى يُرهبوا عدوا الله وآخرين من دونهم مستورين، وما ينفقون من الأموال فى الاستعداد للجهاد فى سبيل الله يوفّيهم الله تعالى إليهم، وأنهم يربحون فيه ولا يخسرون.

عبارات شيّـقة:

لهذه الآية الكريمة مكانة مرموقة فى «النظام الجهادى» الإسلامى، ويجب على المسلمين أن يعيوها، ويحيوا العمل بكل إشارة من إشاراتها، وقبل فهم تفسير الآية لاحظوا فيما يلى جانبا من عبارات المحققين الحلوة، ثم نشير إلى فوائدها بإذن الله:

(1) البيان العثمانى:

لا يعنى الاعتماد بالله التخلى عن الأسباب الضرورية المشروعة، بل الواجب على المسلمين الاهتمام بعُدّة الحرب بقدر الإمكان، فقد كانت الفروسية والرماية والطعن والاشتباك بالسيوف ضمن فنون القتال والاستعداد للجهاد فى العهد النبوى ٭ الزاهر، أما اليوم فصناعة البنادق على اختلاف أنواعها والمدافع والطائرات المقاتلة والغوّاصات والمدرعات واستخدامها وتلقى التدريبات على فنون القتال المتنوعة والرياضة البدنية ضمن الاستعداد للجهاد، إضافة إلى مختلف الأسلحة التى يتم إنتاجها فيما تأتى من الأيام، تُعتبر ضمن الاستعداد للجهاد، أما الخيل فقد قال النبى ٭ عنها: «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة» وجاء فى الصحيح عن النبى ٭ أنه قال: قال من ارتبط فرسا فى سبيل الله كان علفه وشربه وبوله وروثه فى ميزانه يوم القيامة.

{تُرهبون به} أى هذه المعدات الحربية والاستعدادات الظاهرة لترهيب العدو ولإدخال الرعب فى قلبه، أما الظفر والفتح فالسبب الحقيقى له هو نصر الله وتأييده، وقد سبق بيانه. أما أولئك الذين لا تعرفونهم فهم المنافقون الذين يتسترون بعموم المسلمين، أو يهود بنى قريظة أو الروم أو الفرس أو تلك الأمم التى سوف تخوضون معها حروبا طاحنة.

{وما تُنفقوا من شیء} فيه إشارة إلى الجهاد المالى، أى ما تُنفقون من مال استعداداً للجهاد إلا وتجدون بدله وجزاءه أضعافا مضاعفة، أى درهم بسبعمائة درهم. {والله يضاعف لمن يشآء} وقد تجدون جزاءه أضعافا مضاعفة فى الدنيا. (التفسير العثمانى)

(**2**) البيان الأشرفى:

فيما سبق كان بيانا للقتال، وفيما يأتى أوامر بتوفير معدات القتال.. {أعدوا لهم ما استطعتم من قوة} إلى قوله تعالى {وأنتم لا تُظلمون} أمر بإعداد القوة ورباط الخيل قدر الاستطاعة لإرهاب أولئک الذين يعادون الله بكفرهم، ويعادونكم بتدبير الحيل للنيل منكم، وهم فى مواجهة معكم. كما أرهبوا آخرين من دونهم لا تعرفونهم بالتحديد، الله يعلمهم، مثل الفُرس والروم وغيرهم، الذين لستم فى مواجهة فعلية معهم، وقد نفع الله صحابة رسول الله ‏ استعدادهم وبراعتهم فى فنون القتال فى مواجتهم فيما بعد، فمنهم من قاتل فقُتل وغُلب، ومنهم من وافق على دفع الجزية، فهذا من مزايا الاستعداد للجهاد. وما تنفقوا فى سبيل الله من شیء، سواء كان فى الجهاد أو فى إصلاح وترميم معدات الجهاد، تجدون ثوابها عند الله كاملاً يوم القيامة، ولا يُنقص شیء منه.

فائدة:

هناک فوائد جمّة وأجراً عظيما لمن يحبس الخيل ويتعلم الفروسية ويتدرب عليها، واليوم احتلت البنادق والمدافع مكان الخيل والرماية، وجميعها شاملة فى عموم القوة، ومنها الرياضة البدنية. (بيان القرآن)

3- البيان الحقانى:

ومنفعة القوة الحربية المذكورة فى الآية إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء، لأنهم لا يبالون بالعلم والعهد والصناعة والمهنة، ولا بلباس الضوء والعادات والتقاليد، إنما يخافون من قوة الحرب، ففيها العزة والشهامة، وفيها العهد والميثاق، وما ينفق المسلمون للإعداد من شیء يجدونها عند الله. (التفسير الحقانى)

4- البيان الماجدى:

فيها تعليم لحقيقة ثابتة، وهى أن الكفار يظلون أعداء لكم ولدينكم، فكونوا مستعدين لقتالهم، ولا تكونوا فى غفلة عنهم، واحتفظوا لديكم بالمقومات والمعدات التى تُرهبونهم بها، ويخافون منها، ففى الآية تأكيد بكل صراحة على التسلح بسلاح الدنيا، وبها قطع الله تعالى تلک الأفكار الفاسدة المضلّلة التى تدعو إلى التوكل والامتناع عن اتخاذ التدابير الاحتياطية وترک الجهد، فلفظ {من قوة} عام شامل للقوة العددية وقوة السلاح والمعدات وغيرها، حتى عدّ بعض الفقهاء الأظفار الطويلة من ضمنها. وفى الحديث تصريح بلفظ «ألا إن القوة الرمى» والرمى فى العهد النبوى

المبارک كان عبارة عن الرماح و القوس وتعلّم استعمالها، واليوم يمكن إطلاقه على البنادق والمدافع وكل أنواع السلاح.

«وقد روى فى القوة أنها الرمى (جصاص) عموم اللفظ شامل بجميع ما يستعان به على العدو ومن سائر أنواع السلاح وآلات الحرب (جصاص) أى إعداد جميع أسباب القوة لها بقدر الاستطاعة (المنار).

قال أصحاب المعانى: الأولى أن يقال : هذا عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد، فهو من جملة القوة. (كبير)

هذا يدل على أن جميع ما يقوى على العدو فهو مأمور باستعداده (جصاص) أى من كل ما يتقوى به من الحرب كائنا ما كان. (روح)

وقد صرّح صاحب روح المعانى بلفظ البنادق عند تفسير هذه الآية، وليس من المستبعد أن يكتب الرشاشات والطائرات والمدرعات والدبابات والغوّاصات والمدافع والقنابل الذرية والهيدروجينية وأسلحة الدمار الشامل. كما جاء ذلک صراحة عند الشيخ رشيد رضا المصرى الذى قال:

«وإطلاق الرمى فى الحديث يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة منجنيق أو طيارة أو بندقية أو مدفع وغير ذلک، وإن لم يكن كل هذا معروفا فى عصره ؛ فإن اللفظ يشمله (المنار). فالواجب على المسلمين فى هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها البنادق والدبابات والطيارات وإنشاء السفن الحربية بأنواعها. (المنار)

{رباط الخيل} يدل على أهمية المُشاة من الجنود، أما للاطلاع على أهمية الركاب من الجنود فليرجع إلى التفاسير الإنجليزية.

وقال مرشد التهانوى: التدابير الحربية والسياسية التى أشارت الآية الكريمة إليها، لا تعارض مع الكمالات الباطنية الجليلية، كما يزعم ذلک الغُلاة المقصّرون من الصوفية. (التفسير الماجدى)

5- بيان الخواجه:

لم تخضع قُوى البغى والعدوان والشيطان إلا للقوة والسلاح فى كل عصر وزمان، إذ المواعظ الخُلقية ودروس المواساة ونشر العلوم والمعارف لا تتعدّى لديهم نطاق الكلمات المحبّرة، لم تؤت ثمارها قط، فالأمن والسلام ما وجدا ملجأ إلا فى ظلال السيوف، ولم يلتزم أحد بالعهود والمواثيق إلا إذا كان الطرف الآخر قويا، وإلا لم تكن لها قيمة أكثر من حبر على ورق. حتى صرخ البعض بأن العهود لا تبرم إلا للنقض، فهذه من ثمار القوة والطاقة. وهذا ليس بشىء مستحدث، إنما تعارفت البشرية عليها منذ القدم.

ونكر إن شئنا على الناس قولهم   ولا ينكرون القول حين نقول

وشاعر جاهلى يُشير إلى قوته بهذه الكلمات:

إذا بلغ الفطام لنا صبى   تخر له الجبابر ساجدينا

وبما أن الناس عادة لا يخضعون إلا للقوة والسلطان، لذلک أمر الله تعالى بالاستعداد للرد على السيف بالسيف، کی يهابکم الذين يعادونکم الآن، ويخافکم أولئک الذين يريدون قتالکم فيما تأتى من الأيام. (التفسير الفرقان) ما من مسلم ينفق ماله للجهاد فی سبيل الله، يوفّ الله إليه أجره. يشهد التاريخ أن الأمة العربية بسطت نفوذها وسلطانها على العالم فی فترة زمنية قياسية، فکان وفاء لما وعد. (تفسير الفرقان)

بيان الشيخ عاشق إلهی:

ثم أمر المسلمين بإعداد کل ما يساعدهم فی قتال الأعداء ومحاربتهم والدفاع عن أنفسهم، فلفظ {ما استطعتم} عام يشمل کافة أنواع الإعداد فی کل عصر وزمان، کما أن کلمة {من قوة} نکرة تدل على العموم، وتشمل ادخار القوة على اختلاف أنواعها وأصنافها، وصنعها وتوفيرها وفق متطلبات العصر والزمان، وجميع أصناف القوة والوحدة بالتشاور والتحاور فيما بينهم. فلفظ {من قوة} يشمل جميع ما ذکرنا، وأمر باقتناء الخيول بلفظ {رباط الخيل}. ولفظ الآية {من قوة} يشمل إعداد کافة أنواع القوة، وقد فسّرها النبی ٭ بقوله: «ألا إن القوة الرمی ألا إن القوة الرمی ألا إن القوة الرمی». (رواه مسلم 1/142) وأشار إلى قوة الرمی لأن بها يمکن مهاجمة العدو عن بُعد، أما إذا اقترب من المسلمين فلا مفر من قتالهم بالسيف، ففی حالة اللقاء عن بُعد، أمکن إجباره على التراجع برشقه بالسهام، کما أمر النبی ٭ برشق المشرکين بالسهام إذا اقتربوا منهم، والمعنى لا تضيّعوا السهام ماداموا على بُعد منکم. (والمعنى مأخوذ مما أخرجه البخاری فی صحيحه) أما القتال بالسيوف فلا يمکن إلا إذا وقف العدو بين يديه، وحينئذ يجب قتالهم بکل شجاعة واستقامة.

وعموم قول النبی ٭: «ألا إن القوة الرمی» يشمل القنابل بأنواعها هذه الأيام.

قال النبی ٭ : «ألا إن القوة الرمی» ولم يذکر مفعول (رمی)، أی ما الذی يرميه إلى العدو؟ أجيب عنه بأن المقصود منه الإشارة إلى عموم المقذوف حسب العصر والزمان، ويشمله مفهوم القوة، ويلزم المسلمين الاهتمام بتحصيلها، لأن لفظ {وأعدوا لهم ما استطعتم} يشير إلى امتلاک کافة أصناف الأسلحة الحديثة وصناعتها، أو شراءها من الغير عند الحاجة، ولکن الاعتماد على الشراء لا يناسب، لأن صانعی أحدث الأسلحة مشرکون، والکفر ملة واحدة، فلا يبيعونها للمسلمين إلا بعد بيعها لأعداءهم، ثم لا يبيعون للمسلمين إلا بعدد أقل من أعداءهم بثمن أغلى، ومن غفلة المسلمين اليوم أنهم يشترون السلاح من المشرکين ولا يصنعونها بأيديهم، وقد أدى ذلک إلى فرض هيمنتهم على المسلمين، وقيامهم بتفتيش مخازن السلاح والمدخرات ومصانع المعدات الحربية، يعنی ذلک أنه لا مکانة لکم أيها المسلمون، وهذا فی الواقع اغترار بهم، إذ الإسلام لم يرشدهم إلا إلى الحياة فی ظل الکرامة والشهامة، ولم يسمح بالخضوع أمام المشرکين وإطلاعهم على الأسرار، أمرهم بإعداد العُدّة بلفظ {تُرهبون به عدو الله وعدوکم} العدو لا يخافکم ما لم تسلّحوا بأحدث الأسلحة، ولا يجترئون على مهاجمتکم، ولاشک أن إنتاج السلاح لا يمکن بدون المال، وکذلک الحال بالنسبة إلى الخيل والمشارکة فی الجهاد، لذلک قال عندما أمر بإعداد القوة: {وما تنفقوا فی سبيل الله من شیء يوفّ إليکم}. (تفسير أنوار البيان)

7- البيان الأحمدى:

أيها الأوفياء مع الله، أعدّوا قوتكم العسكرية لتفتيت قُوى الأعداء كل حين. (حاشية اللاهورى رحمه الله تعالى)

8- كلام بركة:

أمر بالإعداد للجهاد بما تقدرون من قوة، وأن الرماية وكسب السلاح من القوة، وما تنفقون فى اقتناء الخيل وعلفها وريها وروثها من مال ففى ميزان حسناتكم يوم القيامة، وأشار إلى أن كل ذلك ليس إلا لترهيب الأعداء، وأن النصر لا يمكن بالأسباب المادية، إنما الفتح والظفر بنصر الله وتأييده، أما الذين لا تعرفونهم فهم منافقون يتسترون بالمسلمين. (موضح القرآن)

هذه النصوص الثمانية التى سردناها بالتفصيل تشير إلى جوانب مهمة من الآية الكريمة، كما تشير إلى وجوه الربط بما قبلها، وقد تناولت معظم التفاسير العربية هذا الموضوع بالتفصيل، يطول البحث هنا إذا تصدينا لسردها، وفيما يلى نشير إلى بعض الفوائد التى استخلصناها منها.

أعدوا كافة أنواع القوة:

قال الإمام أبو بكر الجصاص رحمه الله تعالى:

فى هذه الآيات أمر الله تعالى بإعداد السلاح والدواب قبل خوض المعركة، كى يتخوّف الأعداء، ثم أشار أبوبكر الجصاص إلى نكتة مهمة فقال: قال النبى ﷺ: «ألا إن القوة الرمى» وهو لا ينفى كون غيرها من الأشياء قوة، إذ جميع أصناف المعدات القتالية والسلاح قوة، كما روى الحكم بن عمير قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن لا نحفى الأظفار فى الجهاد وقال إن القوة فى الأظفار». فدل على أن كل ما يساعد فى ممارسة الضغوط على العدو قوة، والله تعالى أمر بإعدادها.

وقال أبو بكر الجصاص رحمه الله تعالى:

وقال الله تعالى: {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة} (التوبة 46) فذمهم على ترك الاستعداد والتقدم قبل لقاء العدو.

وقد أورد عدداً من الأحاديث فى تفسير هذه الآية ومنها:

قال رسول الله ﷺ: من حق الولد على الوالد أن يعلّمه كتاب الله والسباحة والرمى. (أحكام القرآن)

تعلم استخدام السلاح من فروض الإسلام:

كتب الإمام القرطبى رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية المباركة ما يقارب خمس صفحات، وفيما يلى نشير إلى بعض أهم النكات:

1- أمر بإعداد القوة من السلاح والدواب ليبتلى الناس بعضهم ببعض، وإلا فهو قادر على إهلاك العدو بأدنى شيء، مثل قبضة تراب وما شابهها. (أما فى الأمر بإعداد القوة ففيه امتحان لهم ليعلم من يُعد القوة ومن لا يُعد).

2- فى الصحيح عن النبى ‍ أنه قال: ستُفتح عليكم البلاد، وسيكفيكم الله، فلا تغفلوا عن الرمى.

3- وفى الصحيح عن النبى ‍: كل فعل ابن آدم باطل إلا ثلاث: رميه بقوسه، وركوبه الخيل، ومداعبته مع امرأته.

4- للرماية فضل كبير، ولها منافع عظيمة تعود إلى المسلمين، ولها أثر قوى على الأعداء، لذلك قال النبى ‍: ارموا يا بنى إسماعيل، فإن أباكم إسماعيل كان راميا.

5- تعلم الفروسية واستخدام السلاح من فروض الكفاية، وقد يصير فرضا على الأعيان.

6- فى اقتناء الخيل للجهاد فضيلة عظيمة ومنزلة رفيعة، وكان عند عروة البارقى رحمه الله سبعون فرسا، أعدها للجهاد فى سبيل الله، ويرى عكرمة وجماعة من أهل العلم أن اقتناء الأنثى من الخيل أولى، لأن بطنها خزينة وظهرها شرف ومنزلة، وكان لجبريل أنثى من الخيل.

7- تُرهبون به عدو الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، فمن هؤلاء؟

1- قال السدى: هم الفُرس والروم.

2- قال الطبرى: هم الجن.

3- وقال السهيلى: هم بنو قريظة.

4- هم كل عدو لا تبدو عداوته للعيان. (أى العدو المستور)

5- وقال القرطبى رحمه الله:

ولا ينبغى أن يقال فيهم شيء، لأن الله سبحانه قال: {وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم}.

أما المراد منهم الجن كما قال القرطبى فلما ثبت بالحديث، قال القرطبى:

«إلا أن يصح حديث جاء فى ذلك عن رسول الله ‍ وهو قوله فى هذه الآية هم الجن، ثم قال رسول الله ‍: إن الشيطان لا يخبل أحداً فى دار فيها فرس عتيق».

8- نقل القرطبى عددا من الأحاديث فى فضل الخيل وأنواعها الجيدة، يُرجى مراجعة تفسير القرطبى للاطلاع عليها.

إرهاب الكفار نافع للمسلمين:

لقد أورد الرازى فى التفسير الكبير كلاما مفصلا حول هذه الآية الكريمة، وفيما يلى نلخص بعضا مما ذكر من الفوائد:

1- فى الآيات السابقة أمر الله نبيه بإنزال أشد العقوبات فى كل كافر ينقض العهد، وبنبذ العهد إلى كل من يخشى منهم نكثه، وهنا أمر بإعداد القوة لمحاربة الكفار فى الأوقات كلها.

2- المراد من القوة فى الآية كل ما كان سببا لاكتساب القدرة العسكرية، وفيها أربعة أقوال:

(1) المراد من القوة السلاح على اختلاف أنواعه. (2) القوة هى الرمى، أى القدرة على الرماية. (3) المراد من القوة الحصون. (4) القوة هى كل شىء ينفع فى محاربة الأعداء.

3- الخيول من أقوى أجهزة القتال، فقد سأل شخص محمد بن سيرين أن فلانا أوصى بثلث ماله للحصون، فقال: يشترى بها الخيول للجهاد فى سبيل الله. (أى كأنه قرّر الخيول حصونا)

4- والبعض فضّل أنثى الخيل، لأنها تساعد فى زيادة النسل، أجيب عنه أن ذكر الخيل أقوى من الأنثى فى القيام بفنون القتال من الكرّ والفرّ، لذلک من الأولى إبقاء اللفظ على عمومه، ليشمل الذكر والأنثى، فكل من اقتنى خيلا سواء كان ذكرا أو أنثى للجهاد فى سبيل الله فله ما ورد فى الحديث من الأجر.

5- يتخوف الكفار إن علموا عن استعداد المسلمين للقتال، وله فوائد جمّة، منها:

* إن كان الرهب كبيرا، أدى إلى موافقتهم على دفع الجزية.
* قد يرغبون فى الإسلام بسبب التخوف من المسلمين.
* لا يساعدون بقية المشركين فى محاربة المسلمين.
* تزيد فى منزلة دار الإسلام ومكانتها.

6- {وآخرين من دونهم} المراد منهم المنافقون فى أصح الأقوال، وبما أنه لا جهاد معهم، فكيف إرهابهم بإعداد القوة؟ أجيب عنه أن إرهابهم بطريقين:

الأول: إذا رأوا قوة المسلمين واستعدادهم للقتال ضعفت معنوياتهم، وقطعوا أملهم فى هزيمة المسلمين، فهذا قد يدفعهم إلى إخلاص الإيمان لله تعالى. (أى يتخلون عن كفرهم بفضل القوة والطاقة)

الثانى: المنافقون يترقبون الدائرة على المسلمين، ويسعون إلى إفساد ما بين المسلمين، وقد ينتهون عن أعمالهم هذه إن علموا بقوة المسلمين.

7- {يُوَفَّ إليكم} ما تنفقون من شىء فى سبيل الله إلا ويوفيه الله إليكم.

قال ابن عباس: يوف لكم أجره أى لا يضيع فى الآخرة أجره، ويعجل الله عوضه فى الدنيا. (التفسير الكبير)

الاستعداد الكامل للجهاد:

لقد كتب العلامة محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسى عددا من الصفحات فى تفسير هذه الآية الكريمة، وفيما يلى نسرد بعضا منها:

1- هذه الآية إن كانت تحث على الإعداد لأولئک الذين يحاربون المسلمين فإنها تحث على الإعداد لأولئک الذين سوف يلحقون بهم.

«وهم المأمورون بحربهم فى ذلک الوقت ويعم من بعده».

2- المراد بالقوة الاستعداد الكامل للجهاد، كالرماية واقتناء الذكور من الخيل وقوة القلب، ووحدة الكلمة، والحصون المشيّدة، والمعدّات القتالية، وأعداد الجنود، والزاد والطيب من اللباس... حتى إن مجاهدا رئى يتجهز للجهاد وعنده جوالق فقال: هذا من القوة.

3- {وما تنفقوا من شيء} حث الله تعالى فيها على الإنفاق فى سبيل الله، وكان بعض الصحابة يجهّز الجيش بكامله بالخيل والإبل، وقد أعطى عثمان ألف دينار للتجهّز لغزوة تبوك.

{يُوَفَّ إليكم} أى يُعطى أجره من الثواب والجزاء بدون تنقيص، وقيل: هذا فى الدنيا، وله مزيد من الأجر فى الآخرة.

وقيل: هذه التوفية فى الدنيا على ما أنفقوا مع ما أعد لهم فى الآخرة من الثواب. (البحر المحيط)

نكات متنوعة:

الجهاد ماض إلى يوم القيامة

ذكر الإمام أبو بكر الجصاص رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية الحديث الذى جاء فيه أن الخيل ركّب بنواصيها الخير إلى يوم القيامة، ثم قال:

«وهو يدل أيضاً على بقاء الجهاد إلى يوم القيامة». (أحكام القرآن)

لا يقبل عذر الضعف:

قال صاحب ترجمان القرآن:

أمر الله تعالى فى الآية 60 بالإعداد بالجهاد على قدر الاستطاعة، لأن من المستحيل القدرة على توفير كامل الأجهزة بالاعتبارات كلها، فعلمنا أن المسلمين لم يكلفوا بما يفوق قدرتهم وطاقتهم، والمهم أن يستعدوا لتأدية الفريضة، ولا يعنى ذلک أن يعتذروا عن الجهاد ما لم يتمكنوا من إحراز أحدث سلاح وكافة المعدات، ويتغافلوا عن فريضة الدفاع، يا ليت لو استوعب المسلمون معانى هذه الآية، لما عانوا من الشلل الذى أصيبت به الأمة منذ قرن ونصف. (ترجمان القرآن)

والمهم الإرهاب:

بيّن الله تعالى فى هذه الآية الكريمة الغرض من إعداد القوة، وقال: {تُرهبون به} أى تُخوّفون بهذا الإعداد عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم، وأشار فى الآيات السابقة إلى هول جريمة الكفر والغدر، و أن من قاتل المسلمين من الكفار هم شر الدواب عند الله، لذلک أوجب على المؤمنين وضعهم فى حالة من الخوف والرهب حتى لا يسعوا إلى الفساد فى الأرض.

كلمة {تُرهبون} من الإرهاب، وهو التخويف والترعيب، وقد استطاع الأعداء تحويل هذه الكلمة إلى شتيمة اليوم، لذلک يجب على المسلمين أخذ الحيطة والحذر، لأن الله سبحانه وتعالى أمر بتخويف الأعداء وترهيبهم، فمن أرهب الأعداء فقد عمل بالقرآن. وطعنهم فى عملهم هذا وطعن كلمة الإرهاب خطأ كبير ومعصية مكشوفة. (والله أعلم بالصواب)

من الذی يُرهب الأعداء؟

يشير مفهوم الآية الكريمة إلى أنه يلزم على المسلمين القيام بالاستعداد للجهاد الذی يُرهب الأعداء ويُخوّفهم، وقد تسببت غفلة المسلمين فی الماضی القريب فی ضعف مستوى إعداد المسلمين للجهاد، وتقدم الكفار عليهم فيه، فإن بدأ المسلمون الآن بإنتاج سلاح تقليدی فإن ذلک لن يساعد فی تخويف الكفار، لامتلاکهم سلاحا أحدث وأكثر قدرة، وفی ضوء ما أرشد الله تعالى فی كتابه، هناک ثلاث طرق للعمل اليوم:

الأول: إعداد الفدائيين من المجاهدين، واستحداث شتى طرق الجهاد الفدائی، ولاشک أنه من أهم الاستعدادات التی يعجز الأعداء عن مقاومتها، فبارک الله فی الفدائيين الذين أحدثوا زلزالا فی حصون الكفر والشرک، فهم من عملوا بهذه الآية بطريقة صحيحة.

الثانی: السعی إلى إيجاد طرق لتحويل المواد المتفجرة إلى شديدة الانفجار، والحمد لله على أن الأمة تمتلک عقولا قديرة مبدعة، فإن سعی المسلمون إلى تعميم هذا الحكم القرآنی، وأخبروا عموم المسلمين أن الاستعداد للجهاد فريضة من فروض الإسلام، وأن ترهيب أعداء الله عبادة، لبرز إلى ساحة القتال من المسلمين من يقدر على تحويل المواد المتفجرة إلى شديدة الانفجار، فهذا سلاح يقدر على قلب الموازين فی القتال، وتقوية الهجمات الفدائية.

الثالث: يجب على المسلمين أن يسعوا إلى إنتاج القنبلة الذرية، وتسخير كافة الإمكانيات البشرية والمادية فی سبيله. (والله أعلم بالصواب)

الرد على شبهة:

نظراً إلى أوضاع العراق الحالية قد يتساءل أحد: لم يقع العراق فيما وقع إلا بسبب سعيه إلى امتلاک أسلحة فتاكة وأسلحة الدمار الشامل، فالعدو قام بمهاجمته بدلا من التخوّف من استعداداته، أجيب عنه بعدة أجوبة:

الأول: فی لفظ هذه الآية رد على هذا السؤال، وهو قوله تعالى: {وأعدّوا لهم} أی لقتالهم كما فی تفسير الجلالين، والمعنى أن إعداد المسلمين يجب أن لا يقتصر على الظهور والبروز أمام الناس، بل يجب أن يتعدى إلى إحياء فريضة الجهاد، فاستعدادات العراق لم تكن لقتال الكفار، بل الجيش العراقی لم يكن مستعدا للدفاع عن الوطن، إن كان الغرض من سلاحه الجهاد فی سبيل الله لما عرضه على المفتشين الدوليين، الذين أقاموا فيه لسنوات عدة بغرض التجسّس.

الثانی: هذه السورة بكاملها تحث المسلمين على إحياء فريضة الجهاد متوكلين على الله، والفتح لا يتحقق بفضل كثرة الأسباب والعدد والعدة، إنما بنصر الله وتأييده، وهناک أوامر بالإعداد بقدر الإمكان. لم يسع أحد من الدول الإسلامية بما فيها العراق إلى إحياء فريضة الجهاد، فالعراق رغم ما كان يمتلک من قوة عظيمة وإمكانيات هائلة لم يُطلق رصاصة واحدة فی سبيل الجهاد لله، كيف يمكن له الاستفادة من ثمرات الجهاد بدون إحياءه؟

ثم فى الآية إشارة إلى أن إلقاء الرعب فى قلوب المشركين من أحد فوائد الجهاد، القوات الأمريكية لمّا هاجمت العراق، استسلمت القوات العراقية للأمريكيين بمئآت الآلاف، لكن لمّا أحيا حُفنة من المسلمين العراقيين فريضة الجهاد فى سبيل الله، أدى ذلک إلى شلل مئآت الآلاف من القوات الأمريكية والحليفة معها، وهى الآن تجر أذيال العار والندامة هناک.

ومن هنا عرفنا أنه لا يمكن الاستفادة من نعمة التخويف والترهيب إلا بفضل الجهاد، وليس بالبدلات الحكومية، نشاهد اليوم القوات الاستعمارية الكافرة متخوفة من عصابات المجاهدين المسلحين بأسلحة هشّة، ولا تقض مضاجعها إلا خوفها من وقوع الأسلحة النووية ببعض الدول المتسمّية باسم الإسلام بيد المجاهدين. (والله أعلم بالصواب).

اعملوا بهذا الحكم أيها المسلمون..

ما أنزل الله تعالى القرآن إلا لرشدنا وهدايتنا، وليست لنا الحياة إلا فى إحياء كل حكم من أحكامه، فليعمل بهذا الحكم كل منا بقدر قوته وطاقته، وليتعلم استخدام السلاح والسباحة، وليصلح إصابته، ينشط بدنه بالرياضة، وليتعلم الفروسية إن أمكن وإلا تعلم قيادة السيارات، وليستعد للجهاد كل لحظة، ولينفق من أمواله ما استطاع فى الجهاد، إذ لا ننفق شيئا فى سبيله إلا صار أغلى ما نستفيد منه فى آخرتنا، وسوف يجازيه الله تعالى على ما ينفقه، فمن نوى منا التدرّب للجهاد أثناء صعود السلالم، صار ذلک عملا صالحا غاليا، وكذلک إن بدأوا الاستعداد للجهاد، عادت فى قلوب الدنيا منزلتهم وهيبتهم التى فقدوها بسبب انهماكهم فى الدنيا وملذاتها، ويسترجعون هيمنتهم الضائعة على العالم، ويقدرون على خدمة الإسلام بطُرق أفضل، نسأل الله أن يوفقنا جميعا للعمل بهذه الآية المباركة..

آمين يا أرحم الراحمين.

نظراً إلى أهمية الموضوع والتأكيد عليه فى الإسلام، نرفق مقالا بعنوان: «الإسلام والاستعداد للجهاد» الذى طُبع بشكل منفصل عن هذا الكتاب.

الإسلام والاستعداد للجهاد

الإسلام والحاجة إلى السلاح:

لاشک أن عظمة الإسلام ورفعته وبقاءه بفضل الجهاد، والجهاد يتطلب رجالا يستعدون لمواجهة الأعداء بالنفس والغالى، وسلاحاً يُلقى الرعب فى قلوب الأعداء قبل القتال، السلاح الذى يقدر على القضاء عليهم أثناء القتال. وبما أن الجهاد من أحد تلک الأحكام التى تعتمد عليها عظمة الإسلام وحماية المسلمين، لذلک أمضاه الله تعالى إلى يوم القيامة، وأمر بإعداد العدد والعُدّة، وأعطى تعليمات خاصة بشأنها.

القوۂ العددیۂ:

الإسلام أمر جميع المسلمين بالجهاد، وباستثناء البعض الذين عذّرهم الله، فإنه أوجب على البقيۂ الاستعداد للجهاد، والعيش فى حالۂ من الجهاد، ومنع من كل ما من شأنه الإضرار بالجهاد.

وقد عذّر الله هؤلاء عن الجهاد:

{ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما يُنفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله} (سورۂ التوبۂ 91).

بالتأمّل فى العهد النبوى الزاهر نجد أنه كان عهدا يفسّر القرآن حياً، لم يتخلف أحد من الصحابۂ عن الجهاد إلا أولئک الذين عذّرهم الله تعالى، ومن المعذورين من عمل بالعزيمۂ واختارها رغم الرخصۂ، كما نجد من النساء من خرجت إلى ساحۂ القتال.

كان التخلف عن الجهاد فى ذلک العهد المبارک يستدعى سخط الله ورسوله ﷺ والشقاوۂ فى الدنيا والآخرۂ، لذلک سابقوا إلى القتال.

القوۂ العسكریۂ:

المرحلۂ الأولى من الدعوۂ الإسلامیۂ كانت عبارۂ عن إعداد المسلمين للتضحیۂ بالمال والنفس، وبعدما لُوحظ استعدادهم التام للتضحیۂ تم دفعهم إلى المرحلۂ التالیۂ وهى الإعداد للقتال، وقد لفت القرآن انتباه الناس إليه على وجه الخصوص، وحثهم على تكوين القوۂ التى مكّنتهم من ترسيخ دعائم العظمۂ الإسلامیۂ وشوكتها.

وكان النبى ﷺ يحثُّ أصحابه على تعلم الفروسیۂ والرمایۂ والتدريب العسكرى.

الحديث:

عن عقبۂ بن عامر رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ على المنبر فقرأ قوله: {وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوۂ} ثم قال: ألا إن القوۂ الرمى، ألا إن القوۂ الرمى. (صحيح البخارى 402/1)

الرمى هو القذف، ويطلق على الرمى بالسهم، فألفاظ النبى ﷺ العالمیۂ تشير إلى أن القوۂ الحقيقیۂ هى الرمى. كما آل إليه الأمر فى يومنا هذا، فقد اقتصرت القوۂ اليوم على الرمى، فمن كان قادرا على الرمى إلى مسافات بعيدۂ بواسطۂ الصواريخ، أو من قدر على قذف الحديد والمتفجرات لمسافۂ أطول كان أظهر وأغلب، ولم يؤكّد عليه النبى ﷺ ولم يأمر المسلمين بإعداده وتمديده إلا لكى لا يتخلفوا عن أعدائهم فيه، لأنه يستجلب لهم الويلات فى الدنيا والآخرۂ، وصاروا لقمۂ سائغۂ بيد أعدائهم.

الحديث:

وعن عقبۂ بن عامر رضى الله عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: من ترک الرمى بعد أن تعلمه فقد عصانى. (مسلم 143/1)

لاحظوا الوعيد الشديد على من ترك الرماية أو نسيها بعدما تعلمها، ومن هنا عرفنا أن التدرّب على السلاح ثم الحفاظ عليه من خلال استعماله من توجيهات الإسلام الحكيمة، والوعيد الشديد لمن تخلّى عنه. وهنا يجب مراجعة أحوال أولئک الذين ما أقاموا لهذه الشعيرة الدينية وزنا، ولم يعتبروها جزءاً من الدين، فقد كان النبى ۢ يتدرّب على استخدام السلاح، ويحث الناس عليه.

الحديث:

عن سلمة بن الأكوع أن النبى ۢ مر على نفر من اسلم ينتضلون فقال ارموا بنى اسماعيل فان باكم كان راميا ارموا وانا مع بنى فلان فأمسک احد صليت بأيديهم فقال مالكم لا ترمون قالوا كيف نرمى وانت معهم فقال ارموا وانا معكم كلكم. رواه البخارى

وقال النبى ۢ يوم لسعد يوم أحد: ارم فداک أبى وأمى.

وكان أبو طلحة قد تناول تُرسا يوم أحد، وكان من الرماة، فكان كلما رمى بسهم رفع النبى ۢ رأسه ورأى موقع سهمه من العدو. (صحيح البخارى 402/1)

ومن التوجيهات النبوية الحكيمة احترام المساجد والابتعاد عن اللهو واللعب فيها، بل أشار إلى أنها من علامات الساعة، لكنه ۢ لم يمنع من وضع السلاح فى المسجد والتدريب عليه فيه، وقد كان قوم من الحبش يقومون بألعابهم من الرماية والقذف فى المسجد، فكان النبى ۢ ينظر إليهم، وقالت عائشة رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يسترنى وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد فزجرهم عمر فقال النبى صلى الله عليه وسلم دعهم أمنا بنى أرفدة يعنى من الأمن. (صحيح البخارى 402/1)

فاستعراض السلاح فى المسجد النبوى الشريف إن دل على شىء فإنه يدل على أن الاستعداد للجهاد من العبادات التى يتقرب بها العباد إلى الله، لذلک أُذن لهم بها فى المساجد.

وقد نتج عن حث النبى ۢ وترغيبه اهتمام الصحابة المفرط بالجهاد وشأنه، وكانوا يعتزون بتحقيق أعلى المهارات فى الفروسية والرماية، ويتسابقون فيها، فكان الواحد منهم يركب الخيل لا رحل عليه، ويصيب الظبى فى عينه وهو يعدو.

كما حث النبى ۢ أصحابه على السباحة وتلقى فنون القتال البحرية إلى جانب الفروسية والرماية، وبشّر بالجنة أولئک الذين يعبرون المحيطات على متن الأساطيل الإسلامية ويحققون الانتصارات والفتوحات لأمتهم. (صحيح البخارى 392/1)

فهذه التوجيهات النبوية الحكيمة تعتبر أساساً فى إنشاء الأساطيل الإسلامية التى ساعدت فى فرض هيمنة المسلمين على ربوع الأرض وتأسيس حكومات إسلامية بسواحل العالم، وفتح أراضى واسعة وإدخالها ضمن الدولة الإسلامية، وظلت تجوب الشواطئ وترفع فيها رايات الإسلام خفّاقة منذ عصور طويلة، حتى آل بهم الأمر إلى التبعية والذل والهوان بعد أن أصيبوا بالوهن، والإعداد العسكرى فقد أهميته لديهم، وباتوا لا يقيمون لعظمة الإسلام قيمة ولا لحماية المسلمين وزنا.

وقد ظل المسلمون يولون الاستعداد للجهاد أهمية عظيمة إلى جانب تنشئة كل فرد على الجهاد، وقد تميزت عصور الخلفاء الراشدين المباركة بالاهتمام بهذا الجانب، وأهم وثيقة فيها هى

الرسائل التى كتبها خليفة رسول الله ﷺ أبو بكر ومن بعده عمر إلى القواد والحكام، وجّههم فيها إلى اختيار التقشّف والزهد والابتعاد عن ملذات الدنيا والتعمق فى نعيمها، وحب العمل والجهد، وقد كانت حياتهم خير نماذج للكفاح والاستعداد للجهاد على مدار العام. كانوا يفترشون الأرض أو الجلد الخشن، ويتوسدون الحجر، ولايجمعون بين لونين من الطعام، يثبون إلى ظهر الخيل ولا رحل عليه، ويستعدون لخوض المعارك الجليلة، يقدمون أنفسهم قبل الغير للجهاد، يلبسون من الثياب أغلظها، ويأكلون من رغيف الخبز المنخول. هذه كانت مما تعودوا عليها فى حياتهم اليومية.

عُرض على عمر ماء بارد بعد معركة، فرفض وقال: أخشى أن يوفّى ثواب أعمالنا فى الدنيا، فلا يبقى لنا رصيد فى الآخرة.

لم يكن وراء ولع النبى ﷺ وخلفاءه الراشدين وصحابته بتربية الجهاد وحبهم لها إلا التوجيهات القرآنية التى أمر الله تعالى فيها المسلمين بالاستعداد للجهاد، إن كان الله قد أمرهم بإعداد القوة فإنه قد أمرهم بتسييسها، ونبّههم على ما يُكنّ المشركون فى صدورهم من رغبة شديدة فى أن يروا المسلمين غافلين عن السلاح، وذكر نعمة صناعة السلاح لأنبياءه بحيث امتلأت القلوب بحب السلاح.

تعالوا نتأمل فى تلك التوجيهات القرآنية، لعله يدفعنا إلى محاسبة الذات، ونتخلص من غطاء الغفلة.

الحاجة إلى الاستعداد للجهاد:

بعد الاستنفار العام من النبى ﷺ كان الصحابة يسعون إلى المشاركة النشطة فى هذا العمل المبارك، ورغم العذر عند البعض لم يكن يرضى بالتخلف عن رسول الله ﷺ، كانت النساء يعرضن أولادهن على رسول الله ﷺ، والأمهات المسنّات يَقُدْنَ أفلاذ أكبادهن إلى ساحة القتال بعد تزيينهم بأحسن ما لديهن، لكن المنافقين كانوا يلجأون إلى الحيل للتخلف عن رسول الله ﷺ، وللتخلص من هذا العمل المبارك، وقد أشار القرآن إلى بعض حيلهم، منها أنهم كانوا يشكون شدة الحر.

{لا تَنْفِروا فى الحَرِّ} التوبة 81.

ردَّ عليهم بأن النار التى سوف تدخلونها بسبب فراركم من الجهاد أشد حرا، فكيف تُقدمون على الحر الدائم فراراً من الحر الموقت؟

وأحيانا قالوا: {إنَّ بُيُوتَنَا عَورَةٌ} الأحزاب 13.

فرد الله عليهم بقوله: {وما هى بعورة} الأحزاب 13.

وأحيانا قالوا: لا جهاد هناك، لو كان جهاد لشهدناه:

{لو نعلم قتالا لاتَّبَعْنَاكم} آل عمران 167.

رد الله تعالى على جميع حيلهم، لكن المنافقين كانوا يرددون كلمة واحدة، وهى أننا نريد المشاركة فى الجهاد لكن الأعذار تمنعنا، فأشار القرآن إلى ضابطة عامة للعبرة بالنية، (وإلا لادّعى كل شخص أنه ينوى المشاركة فى الجهاد لكن العذر الفلانى يمنعه منها، كذلك عوام الناس يلجأون إلى الحيل فراراً من الجهاد، رغم الرغبة فى الجهاد، والمشاركة فيه، وأنه ممن يحنّ إليه، وأن حب الجهاد

قد أُشرب فى قلبه) فأشار القرآن إلى ضابطة عامة ليتم معرفة صاحب العذر من غيره، والصادق من الكاذب، وهى كما يلى:

{ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عُدّةً ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين} التوبة 46.

وفيها إشارة إلى أن من أعدّ للجهاد بدنيا وعسكريا، ثم لحقه عذر بأن مرض، أو ليس لديه الزاد، وصار يبكى لمّا رأى المجاهدين يتوجهون إلى ساحة القتال، قلبه حزين، لكنه لا يجد ما يتزود به للجهاد، فعذره مقبول عند الله.

أما من لم يستعد للجهاد، ولم يتزوّد بالزاد رغم استطاعته، ولم يتلق من التدريبات العسكرية ما تؤهله للقتال، ثم يحتال الحِيل، فذلك دليل على كذبه، لا يحب الله استقدامه إلى الساحة، لذلك أقعده عند النساء.

جدير بالتأمل:

وفى ضوء الأصل المذكور يجب على كل امرئ أن يفحص نفسه، المفكر الذى يؤمن بالجهاد، لكن شروطه لم تتوفر لديه إلى الآن، ويرفع شعاراً واحداً : إن كان هناك جهاداً شرعياً لنخرجنّ فيه. نسأله: هل هو اتخذ من التجهيزات ما تؤهله للخروج إلى الميدان لمواجهة العدو؟ الجواب: لا، بل هو وأمثاله من المثقفين لم يخطر ببالهم قط أن عليهم الخروج للجهاد فى يوم من الأيام، بل صيّروا الجهاد الفعلى قضية علمية فكرية، وسوّدوا الأوراق فى تبييضها، وسجّلوا أشرطة إلى أشرطة، لكنهم لا يريدون المشاركة الفعلية فى الجهاد، ولا يدعون الناس إليه، ولم يستعدوا له قط، حتى لا يضطروا للخروج إن توفرت تلك الشروط التى وضعوها للجهاد من عند أنفسهم.

وعلى كل حال، هذا الأصل القرآنى أشار إلى أهمية الإعداد للجهاد، وأن لا عبرة بالإرادة بدون الإعداد، بل يُقْدِم على الإعداد كل من أراد إرادة حقيقية للجهاد.

وجوب الاستعداد للجهاد:

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بإعداد قوة تُرهب الأعداء وتردعهم من مغبطة القيام بعملية عسكرية ضدهم.

قال الله تعالى:

{وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم} سورة الأنفال 60.

سوف يساعد شرح كل جزء من أجزاء هذه الآية الكريمة فى إدراك أهمية الموضوع.

{وأعدِّوا} صيغة الأمر، والأمر للوجوب، وجميع أوامر الله تعالى تضمن الحياة للعباده، والتخلى عنه يؤدّى إلى موت جماعى للأمة.

{لهم} أى للكافرين من أعداء الإسلام، مادام امتلك الكافرون قوة، وجّهوها لمحاربة الإسلام والمسلمين، لذلك يجب على المسلمين إعداد قوة أكبر من قوتهم.

{ما استطعتم} أى حسب قدرتكم واستطاعتكم، لا تقتصر عند حد، بل يجب عليهم أن يستعدوا بقدر ما يستطيعون، وكلما زادت قوتهم زادت غلبتهم وشوكتهم، وتيسر القيام بواجب الدعوة إلى الله، وإعلاء كلمته، وتندفع الفتن، ويموت المفتنون موتا طبيعيا، إذ الكفار دائما بالمرصاد، يسعون إلى القضاء على الوجود الإسلامى أو إضلالهم عن دينهم، لذلک المسلمون فى مواجهة مع كل فرد من أفراد الكفر والشرک، بغضّ النظر عن انتمائه الدينى والعرقى، والمسلمون جماعة واحدة، والكفر ملة واحدة، لذلک لم يبيّن حداً لإعداد الجهاد، بل أمرهم بالإعداد بقدر ما يستطيعون، كى لا تواجهوا الهزيمة والندامة.

{قوة} وهى تشمل جميع أنواع السلاح، سواء كان ما استخدمه الصحابة فى عهد النبى ^ أو ما استحدثه المسلمون فيما بعد، أو ما يتم استخدامه للقتال إلى يوم القيامة، لذلک جعل كلمة «قوة» نكرة لتدل على العموم، ولتشمل جميع أشكال الإعداد، لكن من أهم هذه القوى قوة الرماية، وهى تحوّلت اليوم إلى المدافع والصواريخ والقنابل.

ومن أين يتم الحصول على هذه القوة؟ أشار القرآن إليه ببيان الحديد وأهميته، وأن فيه صلابة وقوة، أودع الله فيه الشدة، وجعل فيه منافع للناس، وقد يتحول إلى قوة أفضل عند استخدامه مع النار.

قال الله تعالى:

{وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس} الحديد 25.

{بأس شديد} فسّره صاحب الكشاف بالقتال، ولا قتال إلا بالحديد، ولا درء للفتن إلا بالقتال والجهاد، فيعود بالنفع إلى المسلمين، وينعمون بنعمة الأمن والاستقرار، فهذا قد يكون المراد من لفظ {منافع للناس}.

وبالتأمل فى الآيات السابقة يتضح الربط بين الكتاب والميزان والحديد التى تناولتها، أنزل الله الكتاب والحديد، ولا تطبيق للكتاب إلا بالحديد، فمن سعى إلى إعاقة طريق الكتاب والعدل المتحقق بالميزان، يتم القضاء عليه بالميزان، فالمحافظة على الكتاب والميزان بالحديد، أى بالأجهزة والأسلحة التى صُنعت بالحديد.

ثم قال فى هذه الآية: {وليعلم الله من ينصره} أى ليعلم الله من ينصر دينه، بالسلاح المصنوع بالحديد المُنزَّل، من المعدات القتالية من سيف وسنان ورماح وأسل، ويستخدمها لدحر أعداء الله. {إن الله قوى عزيز} قادر على إهلاک أعداءه، لكنه أمر عباده بالجهاد لكى يتوصلوا به إلى منافع كثيرة فى الدنيا والآخرة.

لقد أنعم الله تعالى على نبيه داود ممن سبق من رسله عليهم السلام بنعمة خاصة، ألان له الحديد، الذى كان يعمل به معدات متنوعة وسلاح وأجهزة دفاعية.

قال الله تعالى:

{ولقد آتينا داود منا فضلا، يا جبال أوّبى معه والطيرَ، وألنَّا له الحديد، أن اعمَلْ سابغات وقدّر فى السرد، واعملوا صالحا، إنى بما تعملون بصير} سورة سبأ 10-11.

ونقل القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس أن آدم عليه السلام لمّا هبط إلى الأرض كان معه خمسة من الأجهزة الحديدية: السندان والكبتان والميقة والمطرقة والإبرة. (القرطبى 261/1)

كما أشار الله تعالى إلى ما أكرم نبيه داود من صنعة السلاح للجهاد.

قال تعالى: {وعَلَّمناه صَنْعَةَ لبوس لكم لتُحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون} الأنبياء 80.

كما ذكر الله تعالى استخدام الحديد والنار ضد الأعداء فى قصة ذو القرنين:

{قالوا يا ذا القرنين إنَّ يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لک خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً. قال ما مكَّنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً، آتونى زُبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتونى أُفرغ عليه قِطرا، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا} سورة الكهف 94-97.

دل على أن الأنبياء الذين هم من عباد الله المقرّبين إليه، ومن أشد الناس إيمانا بالله ويقينا به، وتوكلاً عليه، كانوا يستخدمون الحديد ضد الأعداء بشكل قوى ومؤثر، يصنعون السلاح بأنفسهم، يتدربون عليها ويستخدمونها، ومن هنا عرفنا أن الاستفادة من السلاح لا يعارض الإيمان بالله والتوكل عليه. وليس بإمكان المؤمنين الاستغناء عن السلاح، ولا الانكار بمنافع السلاح والحاجة إليه.

وثانيا، علينا أن نتأمل أن رفعة الإسلام وسموه فى الجهاد، ولا جهاد بدون الأجهزة، فكيف الحصول على فضائل الجهاد ومنافعه بدون الأجهزة؟ وقد عمل وأعمل النبى • بجد ومثابرة لتحصيل القوة، وبعث بعثات إلى الأقطار المختلفة لتعلم أحدث وأقوى سلاح يتم استخدامه فى عصره، فقد أخرج ابن سعد وابن هشام أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا حصار الطائف، كانا قد ذهبا إلى الجرش ليتعلما المنجنيق والدبابة والضبور.

كان المنجنيق والدبابة تُعتبران من أفضل وأقوى السلاح فى ذلک العصر، أما الضبور فكانوا يستخدمونه موضع القمصان المضادة للرصاص اليوم، ويقومون بمهاجمة العدو بعدما تمكنوا من حماية أنفسهم بالضبور، كما استخدم صحابة رسول الله • أسلحة أخرى حصينة، والنبى • استخدم المنجنيق فى غزوة الطائف.

وقال ابن هشام فى السيرة: إن أول من استعمل المنجنيق فى الإسلام كان النبى • نفسه، بعض الروايات يشير إلى استخدام المنجنيق فى غزوة خيبر.

{ومن رباط الخيل}..

يحتل الخيل مكانة بارزة فى ساحة القتال، فقد أقسم الله بالخيل العاديات الموريات المغيرات..

قال تعالى: {والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا} سورة العاديات 1-5.

وقد أشار القرآن إلى أن أنبياء الله كانوا يستخدمون الخيل لإعداد القوة، ويهتمون بها كثيرا، وقد طلب سليمان عليه السلام الجياد لمّا أراد الجهاد فى سبيل الله، ثم أمر بتمريرها بين يديه حتى غابت عن الأنظار، ثم أمر بإرجاعها، فلما عادت مسح أعناقها وسوقها حبا لها، لِما لها من منزلة عالية، ولِمَا كانت تنفع فى ساحة القتال وللحاجة إليها.

أشار الله تعالى إلى هذه القصة باللفظ التالى:

{ووهبنا لداود سليمان نِعْمَ العبدُ إنَّه أوّاب، إذْ عُرض عليه بالعشى الصافنات الجياد، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب، رُدُّوها علىَّ، فطفق مسحا بالسُوق والأعناق} سورة ص 30-33.

لقد ذكر النبى فضائل جمّة لرباط الخيل واقتنائها، أخرج الإمام البخارى فى صحيحه أن النبى ٭ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الخير معقود فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة قيل يا رسول الله ما الخير قال الأجر والمغنم.

وقال النبى ٭: من ارتبط فرسا فى سبيل الله كان علفه وشربه وبوله وروثه فى ميزانه يوم القيامة.

كما جعل النبى ٭ الإنفاق على الخيل مثل الصدقة الجارية.

ظل المسلمون يقاتلون مشيا على الأقدام، ولم تكن لديهم الخيل، وشهدوا معركة أُحد بفرسين، وبستة حاصروا بنى قُريظة، وبعدما حصلوا على مغانم عظيمة من قريظة أرسل النبى ٭ أسراهم وأمتعتهم إلى نجد، فاشتروا له الخيول والسلاح، وشهدوا خيبر بمائتى خيل، ثم بدأت تزداد الخيول والأجهزة القتالية الأخرى حتى جاء يوم تبوک الذى بلغ فيه قوام الجيش الإسلامى إلى ثلاثين ألفا منهم عشرة آلاف فارس.

كل هذه التطورات التى شهدها قُطاع الدفاع لم تكن ممكنة بدون اهتمام خاص من النبى ٭.

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خالصا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزل نفقة أهله سنة ثم يجعل ما بقى فى الكراع والسلاح عدة فى سبيل الله عز وجل.

{تُرهبون به عدو الله وعدوّكم}

الغرض من إعداد القوة من السلاح والخيل إرهاب الكفار والمشركين، حتى يَكُفّوا عن خلق الفتن والبلابل بين المسلمين، وتُوجّه الآية إلى أنه يلزم على المسلمين الاحتفاظ بقدر كاف من القوة التى تُرهب المشركين وتمنعهم من مغبة مهاجمة المسلمين، وكانت من أشهر السلاح فى عهد الرسول ٭ الرماح والسيوف والمنجنيق والخيل وما شابهها، فكان الكفار يرعبون لكثرتها ونوعيتها وجودتها، لكن الزمان تغير، واستحدثت أسلحة مختلفة عنها، وما لم يمتلک قوم من السلاح الحديث ما يكفى لإرهاب العدو، تعرَّضَ للعبث على يديه. فباختصار يجب على المسلمين الحصول من السلاح ما يكفى لردع الأعداء وترويعهم، خاصة إن كانوا يريدون العيش فى أجواء إيمانية يسودها الأمن والاستقرار، ومن قصَّر من المسلمين فى هذا الجانب تَعَرَّضَ للعبث والزحف من العدو، وقد يظفر بهم العدو، فيتعرض دينهم وإيمانهم وأموالهم وأرواحهم للخطر.

فما من عصر من العصور تنبَّه المسلمون لهذا الجانب، وعملوا بالتوجيهات القرآنية الحكيمة إلا وبسطوا نفوذهم وحكمهم على العالم، وسيطروا على معظم أقطار الأرض، تنعم بالرخاء والسعادة والرفاهية والأمن والاستقرار. لقد شهد قطاع السلاح فى ذلک العصر تقدماً قصم ظهر العدو، وقد

توصلوا إلى إنتاج القنابل اليدوية ولهيب النار ما لعبت دوراً مهماً فی إلحاق الهزائم بالعدو فی عهد السلطان صلاح الدين الأيوبی وتفنيد طموحاتهم فی أرض الإسلام، كما كانوا أول من أنتج المتفجرات فی المعارک التی دارت رحاها بأرض الأندلس، وأول من استخدم المدافع الكبيرة.

لكنهم اليوم تخلفوا عن الكفار فيه، أما الكفار فقد طوّروا تلک الأسلحة التی ابتدعها المسلمون، وباتوا ينزلون بالمسلمين الذلة والهوان متى شاءوا، وعبثوا بدمائهم وأرواحهم فی عُقر دارهم.

يا ليت لو تيقظ المسلمون الآن، واستفادوا من النار والحديد فی ضوء التوجيهات القرآنية، ليُرعبوا بهما أعداءهم، وليُعيدوا إلى الأمة مجدها الضائع.

إن استطاع المسلمون إنزال الهزيمة بالمشركين فی يومنا هذا فبفضل الجهاد، ومن ثمار الجهاد المبارک ما تحقق للمسلمين من الفتح المبين بأرض أفغانستان، وبفضل التضحيات فی ميدان الجهاد زالت دولة الاتحاد السوفييتی عن الوجود. فالواجب على الأمة إحياء هذا الركن العظيم من الإسلام من جديد، ويقوموا بإنتاج السلاح لإعلاء الدين ورفع كلمته، ويقوموا بادخاره وتعلمه واستخدامه ضد العدو بكل شجاعة وبسالة.

ربَّنا تقبل منا إنک أنت السميع العليم.

{**سورة الأنفال مدنية، الآية** : 61}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وإن جنحوا لِلسَّلْمِ فاجنَح لنا وتوكَّلْ على الله إنه هو السميع العليم}.

ملخص معانى الآية:

أشار فيها إلى جواز المصالحة مع العدو إن كان راغباً فى الأمن والسلام، وقدّم تنازلات، لكن يجب أن يكون ثقتك بالله، حتى إنهم إن أرادوا المخادعة تحت ستار المصالحة فإن الله سبحانه وتعالى يكفيكم عنهم، إذ لا يخفى عليه شىء من الظواهر والبواطن، فهو السميع العليم.

الربط:

فى الآيات السابقة أشار إلى إرهاب الكفار والمشركين، وبناء عليه فإنهم قد يميلون إلى إقامة الصلح، فأرشدهم بلفظ {وإن جنحوا للسلم}، وبما أن الصلح قد ينطوى على شىء من المكر والخداع، فللوعد بالصيانة والتأكيد عليها ذكّر النبى ⁕ نعمه السابقة بلفظ «وإن يريدوا». (بيان القرآن)

قال الرازى رحمه الله تعالى:

واعلم أنه لمّا بيّن ما يُرهب به العدو من القوة والاستظهار، بيّن بعده أنهم عند الإرهاب إذا جنحوا أى مالوا إلى الصلح... الخ. (التفسير الكبير)

لا يجب الاستجابة لدعوة المصالحة:

قال صاحب أنور البيان:

فيما سبقت من الآيات كان الأمر بإعداد العُدّة للجهاد، وبعض التوجيهات بشأن نقض العهد، وهنا أرشد إلى أن العدو إن كان راغبا فى الصلح فارغب أنتَ فيه، والأمر هنا ليس للوجوب، بل تابع للمصلحة العامة. فإن كان فيه نفعا لدار الإسلام والمسلمين، أقام الصلح، لأن القتال ليس من مقاصد الإسلام، إن كان الصلح نافعا فما الحاجة إلى إراقة الدماء، ومن الصلح أخذ الجزية منهم.

قال بعض الأكابر من علماءنا أن كلمة {وإن جنحوا} تُشير إلى عدم مبادرة المسلمين بالمصالحة، ولا مانع من الموافقة إن بادروا بالصلح.

وهذا الذى استنبطه بعض الأكابر من علماءنا تؤيده آية {فلا تَهِنُوا وتدعوا إلى السَلْمِ}، لكن إن كانت الظروف تُملى عليهم المصالحة مع العدو، بأن وقعوا فى فخ نصبه العدو، أو وقع فى حصار العدو، فلا مانع من تقديم مبادرة بالمصالحة، وبما أن احتمال غدر المشركين وخيانتهم أمر وارد، لذا أشار الله تعالى إليه بقوله: {وتوكَّلْ على الله إنه هو السميع العليم} أى إن رأيت من منفعة المسلمين إقامة الصلح معهم، فافعل، ولا تُضيّع الفرصة خشية الغدر. (أنوار البيان)

قال صاحب التفسير الماجدى:

فی قوله تعالی: {فاجنَح لها} لیس الأمر بالمصالحة، بل فیه الإذن بالمصالحة، إن شئت أن تصالحهم فافعل، الأمر راجع إلیک.

إن الأمر فی من تقبل منهم الجزیة علی ما یری فیها الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم ولیس بحتم أن یقاتلوا أبدا أو یجابوا إلی الهدنة أبدا. (روح) وعقد الصلح لیس بلازم للمسلمین وإنما جائز باتفاقهم أجمعین. (ابن العربی)

ارجع إلی تفسیر أحکام القرآن:

هذه الآیة منسوخة أم محکمة؟ ما الأثر الذی یترتب علی اختلاف زمان نزول سورة الأنفال والبراءة؟ متی یجب الاستجابة لدعوة المصالحة ومتی لا؟ هذه وغیرها ذکرها العلامة أبو بکر الجصاص فی «أحکام القرآن» بالتفصیل، من أرادها فلیرجع إلیها.

کلام برکة:

أی الکفار إن بطّنوا الغدر والخیانة، فإن الله یعلمه، وسوف یعاقبهم علیه. (موضح القرآن)

المهادنة لأکثر من عشر سنوات:

قال الرازی رحمه الله تعالی:

هذه الآیة منسوخة عند قتادة، نسختها آیة {فاقتلوا المشرکین حیث وجدتموهم} و آیة {قاتلوا الذین لا یؤمنون بالله}، وعند البعض أنها لم تُنسخ، بل فیها إذن بالمهادنة إن کانت فیها مصلحة للمسلمین، یجوز لأمیر المؤمنین إقامة الصلح مع المشرکین لأقل من سنة إن کان فیه مصلحة للمسلمین، ویجوز لأکثر منها إن زادت قوة المشرکین، لکن لا یجوز لأکثر من عشر سنوات، لأن النبی ﷺ لم یهادن أهل مکة لأکثر من عشر سنوات، وقد نقضه المشرکون قبلها.

«ولا یجوز الزیادة علیها اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه هادن أهل مکة عشر سنین ثم إنهم نقضوا العهد قبل کمال المدة». (التفسیر الکبیر)

البیان العثمانی:

قد یضطر المشرکون إلی طلب المهادنة مع المسلمین إن رأواهم یستعدون للقتال، ویقدّمون تضحیات غالیة، فأرشد نبیه ﷺ إلی أنه یجوز له أن یهادنهم إن کان فیها مصلحة للمسلمین، إذ الغرض من الجهاد لیس إراقة الدماء، بل إعلاء کلمة الله ودفع الفتنة، فإن استطاعوا الحصول علی مکاسب الجهاد بدون إراقة الدماء فما الداعی إلی الإراقة؟ أما أنهم قد یتسترون بستار الهدنة للإضرار بالمسلمین إذا سنحت لهم فرصة، فهذا إلی الله تعالی، وما علیکم إلا أن تتوکلوا علیه، فإنه علیم بأسرارهم وعلانیتهم، ویسمع ما یتحاورون فیما بینهم، لا تضرکم بواطنهم إن کان الله معکم، فأنت أخلِص نیتک لله. (التفسیر العثمانی)

فائدۂ:

کلما استعد المسلمون للجهاد إذعانا لأوامر الله تعالی، ووجهوا خیولهم باتجاه العدو، انهالت علیهم رسائل الصلح من الجهات کلها، وخضعت لهم القبائل الکبیرۂ والملوک الجبابرۂ مطالبین بالهدنۂ. وهذا لیس بمستبعد الیوم، إن استعدوا للجهاد، وبالغوا فیه.

اللهم انصر واهدِ أمۂ محمد ﷺ (آمین یا رب العالمین)

{**سورة الأنفال مدنية، الآيات** : 62، 63}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَإن يريدوا أن يخدعوک فإنَّ حسبک الله هو الذی أيّدک بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم، لو أنفقتَ ما فی الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم إنّه عزيز حكيم}.

ملخص معانی الآيتين:

أشار إلى أن الكفار إن أرادوا أن يخدعوک من وراء الصلح، فلا تبال بهم، لأن الله معک، وحسبکَ نصره، فهو الذی أيّدک بنصره من الغيب، كما أيدک بالمؤمنين فی الظاهر، وانظر كيف نصرک الله نصراً مؤزّراً بتأليف قلوب المؤمنين، الذی لم تكن لتتوصل إليه ولو أنفقتَ خزائن الدنيا كلها، لكن الله ألّف بين قلوبهم بفضله وقوته، والله غالب أمره، يفعل ما يشاء، لا يخلو عمله عن حكمة. (كما بدّل ما فی القلوب بحكمته وقوته فإنه سوف يبدّل أحوال الدنيا، وسيخسر أولئک الذين أرادوا مخادعتک).

التذكير ببدر:

{هو الذی أيّدک بنصره} فيه إشارة إلى بدر.

قال القرطبی: أی قوّاک بنصره، يريد يوم بدر. (القرطبی)

وقال صاحب التفسير العثمانی:

إن عزموا على الغدر والخيانة من وراء الصلح فلا تبال بهم، فإن الله يؤيدک بنصره، ويُفنّد كافة ترتيباتهم، فهو الذی أيّدک ونصرک بجماعة الصحابة المخلصين يوم بدر. (التفسير العثمانی)

ذكّرهم بيوم بدر فی ثنايا بيان ضوابط الهدنة، وأرشده إلى عدم الالتفات إلى غدرهم، فالله الذی نصرک يوم بدر، معک فی المناسبات كلها.

وقال البعض: أراد به كل نصر أيد الله به رسوله فی المواقع كلها، كما قال الإمام الرازی رحمه الله تعالى:

«قال المفسرون: يريد قواک وأعانک بنصره يوم يدر، وأقول هذا التقييد خطأ، لأن أمر النبی ﷺ من أول حياته إلى آخر وفاته ساعة فساعة كان أمراً إلهيا وتدبيرا علويا، وما كان لكسب الخلق فيه مدخل. (التفسير الكبير)

ولا مانع من الجمع بين القولين، بأن يعم النصر والتأييد بكافة أشكاله وأنواعه، وتشير إلى بدر على وجه الخصوص. (والله أعلم بالصواب)

نصر بالمؤمنين:

قال الله تعالى: {هو الذى أيّدک بنصره وبالمؤمنين} والمراد منهم المهاجرون والأنصار، كما قال الآلوسى رحمه الله تعالى:

«من المهاجرين والأنصار على ما هو المتبادر». (روح المعانى)

وقيل: بل المراد منهم الأنصار على وجه الخصوص:

«قال النعمان بن بشير رضى الله عنه: نزلت فى الأنصار». (القرطبى)

وعن أبى جعفر والنعمان بن بشير وابن عباس والسدى رحمه الله أنهم الأنصار رضى الله عنهم. (روح المعانى)

جواب سؤال:

إن كان النصر والتأييد من الله تعالى، فما معنى قوله: «وبالمؤمنين»؟ أجاب عنه الإمام الرازى وقال:

«التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين: الأول: ما كان من الله إلى عباده مباشرة بدون أسباب ظاهرة. والثانى: ما كان بواسطة الأسباب الظاهرة».

ففى قوله: {هو الذى أيدک بنصره} أراد الأول، وفى قوله: {وبالمؤمنين} الثانى. (التفسير الكبير).

ويمكن أن نرد عليه بجواب بسيط، نقول: إن الجهاد عمل جماعى يتطلب الأفراد والمجاهدين، والمسلمون أمة واحدة وجماعة واحدة، لذلک ذكرهم على وجه الخصوص، وقال: إن الله أعطاک جماعة قوية من المؤمنين، ولا تقدر قوةٌ و لا غدرٌ على إعاقة طريقه، وقد جعل صاحب التفسير الحقانى الآية بكاملها بشرى بالفتوحات المستقبلية، وهو ما أشارت إليه الآية. (والله أعلم بالصواب)

تآلف القلوب نعمة:

قال الله تعالى: {وألَّفَ بين قلوبهم} أى ألقى فى قلوبهم المودة والمحبة والاتحاد بحيث صاروا مثل الجسم الواحد والقلب الواحد.

فكيف يضرک غدر وخيانة المشركين إن كان قد أحاط بک هؤلاء المخلصون من الأصحاب، وكان من فضل الله وكرمه عليک أن جمع بينهم وألقى فى قلوبهم المودة والمحبة، التى أدت إلى تقوية أواصر الجماعة، ولم ينشق أحد من أفرادها، إن كانوا مائة رجل متآلفون متوادون لأحس كل واحد منهم أن فيه قوة مائة رجل. ثم إن أولئک الذين بعث الله رسوله إليهم كانوا فيما بينهم متباغضين متحاسدين، فقد كانت بينهم عداوات يتصارعون ويتفانون، فلما دعاهم الرسول إلى توحيد الله تعالى ونبذ الشرک تناسوا عداواتهم، وصاروا يعادونه جميعا ويُبغضونه.

فألّف الله قلوبهم بقدرته الخاصة القوية، وجعل رسوله مرجعا لهذا التآلف والتآزر، ونسبه إلى نفسه، حتى تحوّل إلى «حب فى الله».

فلما صار الحب لله تعالى، استبعد إمكانية تعرضه للضياع والنفور، وتوحَّدت غايات حياتهم، وتكوُّنُ مثل هذه الجماعة العظيمة تحت قيادة الرسول ٠ كانت بشارة بغلبة الإسلام، والتى تحققت فيما بعد فى مدة يسيرة. لقد أشار المفسرون إلى نكات رائعة عن مشاعر الألفة والمحبة التى أنشأها الله تعالى فى قلوب الصحابة، خاصة الإمام الرازى الذى تناول الموضوع بشكل أوسع، وأشار إلى المحبة الحقيقية وأسباب قوتها وضعفها، يمكن مراجعتها فى التفسير الكبير للرازى، نكتفى هنا بإيراد بعض النصوص المهمة منه:

تغيّرت القلوب تماماً:

قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى:

إن النبى ٠ بعث إلى قوم أنفتهم شديد، وحميتهم قوية، إن تعرض أحد منهم للطمة قامت القبيلة كلها تحارب حتى ينتقموا من المعتدى، وبفضل الإسلام تغير حالهم، وصار الواحد منهم يقاتل أخاه وأباه وابنه لأجل الإسلام، واتحدوا على مناصرة الإسلام وموازرته، وصاروا من أعوانه وأنصاره. قيل: هذه الآية نزلت فى الأوس والخزرج، لمِا كانت بينهم من العداوات والقتال فى الجاهلية، والتى لقيت الزوال بعد الدخول فى الإسلام، وصاروا يتحابون ويتوادون، فلو لا فضل الله عليهم لما أمكن محو تلك العداوات التى توارثوها من الأجيال، واستبدالها بالوئام والوفاق والألفة. (التفسير الكبير)

القضاء على عداء **120** سنة:

قال الإمام النسفى رحمه الله تعالى:

{وألّفَ بين قلوبهم} قلوب الأوس والخزرج بعد معاداتهم لمدة مائة وعشرين سنة. (المدارک)

لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألّفْتَ بين قلوبهم:

كان العرب مُغرَمون بالقتال وإراقة الدماء والنهب والسلب قبل الإسلام، كانوا يتقاتلون لأمر تافه، ويستمر لسنوات طويلة، بل لقرون، لا تخمد نيران الحرب، وكانت الأوس والخزرج بالمدينةً قبيلًتان متناحرتان، تدور بينهما رحى الحرب منذ فترة، لا تكاد تتوقف، حريصة لإراقة الدماء والعبث بالأعراض والحرمات.

فبعث الله محمداً بدعوة التوحيد والعلم والمعرفة والوحدة والوئام والأخوة العالمية، لكن الناس اعتبروه أحد أطراف النزاع، ووجّهوا إليه سهام الخلاف والشقاق، جعلوا نزاعاتهم القديمة جانباً، واتخذوا ذاته القدسية هدفا لكافة أصناف العداء والضغينة والحقد، كانوا يتخوفون من نصائحه ومواعظه، ويهربون من ظلاله، ففى مثل هذه الظروف لم يكن على وجه الأرض أحد يقدر على غرس روح المعرفة الإلهية وحب الرسول فى قطعان الذئاب وحظائر البهائم، وصهرهم فى بوتقة

واحدة حتى يتأهبوا أخوة متحابين، ويعتبروا أنفسهم أتباعا وأحباباً له، والذى كانوا يعتبرونه قبل أيام من أبغض الناس إليهم. لم يكن ليحصل ذلك بإنفاق جميع ما فى الأرض، فقد ألقى الله تعالى فى قلوبهم المودة والمحبة يتحابون مثل الأشقاء، وجعل ذات الرسول مرجعها ومصدر طاقتها، ولم تكن قلوبهم تتغير لو لا فضل الله عليهم ورحمته وقدرته، وما ذلك إلا ليدل على قدرته وقوته، كما أن تركيزهم على نقطة واحدة فى وقت حرج دليلاً على حكمته وعلمه. (التفسير العثمانى).

نكتة مهمة:

قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى: الحب إن كان لغرض من أغراض الدنيا، لم يكتُب له الدوام والبقاء، وإن كان الغرض منه رضا الله ونعيم الآخرة، طال ودام وتقوّى. والناس كانوا يتحابون فيما بينهم لأغراض دنيوية من الجاه والمال والعزة، فدعاهم النبى ܁ إلى الله والآخرة، ووضع أساس حبهم عليه، فكان حبا حقيقيا وواقعيا، وهذه هى النكتة التى أشار إليها فى التفسير العثمانى بأسلوبه الرائع البليغ. ويمكن استخلاص الأسس التى تبتنى عليها بناية الحب فى الجماعة الإسلامية، وما مدى الإخلاص الذى يجب أن يتمتع به المجاهدون فى سبيل الله. (والله أعلم بالصواب)

4- البشارة بالظفر:

إضافة إلى الوثنية والفاحشة والمنكر كان المجتمع العربى يمزّقه العداوات والحروب القبلية، فقد يلطم المرء طفلا من قوم، فيثورون عليه، وتشتعل نيران الحرب، فتستمر لقرون. قبيلتا الأوس والخزرج بالمدينة المنورة هما الأخريان المتناحرتين، تدور بينهما رحى الحرب، وقد طلعت شمس الهداية من سماء مكة، فأنارت الدنيا وملأت قلوب العرب بالمحبة والمودة، إن لم يكن ذلك عطراً وخلاصة لمعجزات الأنبياء الذين سلفوا فما هو؟ وفى {عزيز حكيم} إشارة إلى المصلحة التى بفضلها تمكنوا من إخضاع الروم والفُرس، ورفع راية التوحيد خفاقة خضراء. (التفسير الحقانى)

كلام خير وبركة:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى :

كانت الأمة العربية تمزقها العداوات، يريقون الدماء، وبفضل دعوة النبى ܁ توحّدوا وتحابوا.

مما ذكرنا من النصوص الخمسة يتضح تفسير الآية الكريمة، قيل: هى نزلت فيمن كانوا يتحابون فى الله. أما ابن كثير فقد أورد حديث ابن مسعود هذا بالسند:

«قال هم المتحابون فى الله، وفى رواية نزلت فى المتحابين فى الله». (ابن كثير)

كما أشار ابن كثير إلى تلك الروايات التى تذكر قصة مصافحة المتحابين فى الله، أنهم إن تصافحوا غفر الله لهم، وتتساقط ذنوبهم كما تتساقط الأوراق من الشجر اليابس، لاحظوا ما ذكرناه عند ابن كثير فى تفسيره.

فائدۀ:

قال التهانوی رحمه الله فی بیان القرآن:

«لاشک أن إنجاز عمل مّا خاصۀ إن کان مما یتعلق بنصر الله، لا یمکن تحقیقه بدون اتحاد الکلمۀ. (بیان القرآن)

وأهم ما یتعلق بنصر الدین الجهاد، وقد نزلت الآیۀ فی بیان الجهاد، ومن هنا یبرز مدی أهمیۀ التوافق والتآلف بین المجاهدین، والواجب علیهم نبذ فوارق الجنس واللون واللغۀ وراء ظهورهم، ویعتبروا جماعۀ المجاهدین أسرۀ واحدۀ، والاستعداد للتضحیۀ بالغالی والنفیس فی سبیل المحالفۀ علی تماسک الجماعۀ ووحدتها وأُلفتها ومودتها، وبعدها یمکن لهم أن یصبحوا جنود الله وجیوشه، وکلما زادت المحبۀ والمودۀ بینهم زادت قوتهم وشوکتهم، حتی إن أحدهم یکفی لمواجهۀ جماعۀ الکفار ودولتهم وجیشهم.

لا یمکن للمجاهدین إنشاء أواصر المودۀ والمحبۀ فی القلوب بدون التزهد فی الدنیا والإعراض عنها، ویُلزموا أنفسهم طاعۀ الله ورسوله، ویجعلوا الدار الآخرۀ غایۀ أعمالهم، ویلتزموا بطاعۀ الأمیر... فالمودۀ والمحبۀ من الأمور الضروریۀ التی لا یمکن التغافل عنها، کما فی قوله تعالی {الله عزیز حکیم} یشیر إلی أنه سبحانه وتعالی قادر علی إنشاء هذه المودۀ والمحبۀ فی القلوب، لذلک علیهم أن یسألوا الله تعالی نعمته هذه، ففیها سعادتهم وراحتهم.

اللهم ألّف بین قلوبنا وأصلح ذات بیننا بحق لو أنفقتَ ما فی الأرض جمیعا ما ألفت بین قلوبهم، ولکن الله ألف بینهم، إنه عزیز حکیم. آمین یا عزیز یا حکیم.

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 64}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبی حسبُک الله ومن اتَّبعَکَ من المؤمنين}.

التفسير الميسر:

يمكن أن يكون لها معنيان، الأول: معناها عند أكثر السلف : يا أيها الرسول! كفاك الله ومن اتبعک من المؤمنين. فلا تجزع ولا تفزع نظراً لقلۃ العدد والعُدّۃ. والثانی: يا أيها الرسول حسبک الله وحده، وجماعۃ المؤمنين المخلصين مهما صَغُرت فإنها كافيۃ، كأن هذه الآيۃ بيان وخلاصۃ لما سبقت: {أيَّدَکَ بنصره وبالمؤمنين}. (التفسير العثمانی)

كلام بركۃ:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالی:

لمّا هاجر النبی ؐ إلی المدينۃ، أمر بِعَدِّ المسلمين، فقالوا: ستمائۃ رجل يصلحون للقتال، ففرح بذلک النبی ؐ وقال: ما علينا أن نتخوف من المشركين الآن، فنزلت هذه الآيۃ. (موضح القرآن)

فمعنی الآيۃ عند الشاه عبد القادر رحمه الله أنک أنت أيها النبی يكفيک الله ومن اتعبک من المؤمنين. وهذا الذی اختاره القرطبی، كما قال:

«قيل : المعنی حسبک الله وحسبک المهاجرون والأنصار. وقيل: المعنی: كافيک الله وكافی من اتبعک. قاله الشعبی وابن زيد. والأول عن الحسن واختاره النحاس وغيره. (القرطبی)

دلَّ ذلک علی أنه قول الحسن، وهذا الذی أراده التهانوی فی بيان القرآن، كما قال:

«لمّا عُلم أن الله نصرک من الغيب عنده وبالمؤمنين الذين صدّقوک، دلَّ ذلک علی أن الله يكفيک، ويكفيک فی الظاهر أولئک المؤمنين الذين اتبعوک». (بيان القرآن)

وبالتأمل فی عبارات المفسرين يبدو صحۃ الترجمتين، فلا يخلو ما نسبه العلامۃ ابن القيم رحمه الله الترجمۃ الثانيۃ إلی الخطأ من نظر. (والله أعلم بالصواب)

سبب النزول:

وقال الكلبی: نزلت الآيۃ بالبيداء فی غزوۃ بدر قبل القتال. (القرطبی)

وقيل: هی مكيۃ، وأُدخلت فی السورۃ المدنيۃ بعدما أمر النبی ؐ به، وعند نزولها لم يتجاوز عدد المسلمين علی 39، منهم 33 رجلا و6 نساء، ودخل عمر فی الإسلام فنزلت الآيۃ. وقد رفض القرطبی هذا القول.

راجع لمزيد من التفاصيل تفسير القرطبی والبحر المحيط والمدارک وغيرها.

ربط عجیب:

وقال الإمام الرازی حول ربطها بما قبلها:

«اعلم أنه تعالى لما وعده بالنصر عند مخادعة الأعداء، وعده بالنصر والظفر فی هذه الآیة مطلقا على جمیع التقدیرات». (التفسیر الکبیر)

کفی الله لحزبه**:**

قال العلامة اللاهوری رحمه الله تعالى:

کفی الله نبیه وحزبه (فلا تعبأ بمعاداة المشرکین) (حاشیة اللاهوری).

نکتة:

أکّد الله تعالى فی هذه السورة على أن الظفر والفتح لا یمکن بدون نصر الله وتأییده، ولیس بسبب العدد والعُدّة. وفی هذه الآیة یُرشد إلى الطریقة التی تُساعد فی استصحاب نصر الله، فقال: نصر الله الکامل مع نبیه محمد ؑ، ومع أولئک المؤمنین الذین یتبعونه بالصدق والإخلاص، فیا أیها المؤمنون! اتبعوا محمداً ؑ بالصدق، وتقلدوا أسوته الحسنة، وعندئذ یکفیکم نصر الله فی محاربة الکفر والشرک فی العالم کله. (والله أعلم بالصواب)

بشری:

وبالتأمّل فی هذه الآیة توصلنا إلى أن الفتح والظفر مؤکّد إن تمسَّکَ المسلمون بسنة المصطفى ؑ، وسیرافقهم نصر الله الکامل والکافی.

الله ارزقنا اتباع حبیبک محمد ؑ. آمین یا رب العالمین

فائدة:

لا یمکن الادعاء باتباع سنة المصطفى ما لم یتم إحیاء الجهاد المبارک، لأن النبی ؑ جاهد فی سبیل الله بنفسه، وحرّض أصحابه علیه، وسنَّ الجهاد بین أمته. (والله أعلم بالصواب)

{**سورة الأنفال مدنية، الآيات** : 65، 66}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبى حرّض المؤمنين على القتال. إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفَّفَ الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين}.

ملخص معانى الآيتين:

- أن يحرّض النبى ﷺ المؤمنين على القتال.
- سوف ينتصر المسلمون على عدو يزيدهم عشرة أضعاف. ففيه بشارة وأمر بمواجهة عدو يزيد عشرة أضعاف، ولا يولّوهم الأدبار. ثم خفّف الله فيه، لكن البشارة لا زالت باقية، وبعد التخفيف يلزم على المسلمين أن يواجهوا عدواً يزيدهم ضعفين.
- المسلمون يدركون ما قدّر الله تعالى فى الجهاد من أجر وثواب، والكافر لا يدركها، لحرمانهم من ثواب الآخرة، لذلک لا يثبتون فى الجهاد أمام المسلمين، لأن من جعل الدنيا غايته، لا يقاتل بالشجاعة والبسالة، وعلى المسلمين أن يتحلوا بالصبر (أى الثبات والهمة) كى يجدوا نصر الله وتأييده معهم.

مضامين الآية:

* وجه ارتباطها بما قبلها؟
* المعنى الحقيقى لكلمة : (حرّض).
* لا يتلقى المشركون الهزائم إلا لأنهم لا يفقهون، وما هذا الذى لا يفقهونه؟
* ما الحكم الذى بيّنته الآية؟
* هل الآية 66 نسخت آية 65؟
* كم من الصفات التى يجب أن يتحلى بها مسلم صابر؟
* كان إيمان الصحابة يزداد كل يوم، فما معنى قوله: {الآن خفَّفَ الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا}؟

الربط:

قال التهانوى رحمه الله تعالى:

فيما سبق كان بيانا للصلح، وفيما يأتى بيان أصلٍ حول القتال، كما أن فيما مضى كان بيانا لنصر الله وكفايته، وفيما تأتى أمر بالقتال تفريعا عليه، (أى بما أن نصر الله معكم، فلا تقعدوا عن القتال بحجۀ قلۀ عددكم وعُدتكم، واخرجوا للجهاد).

معنى «حرّض» :

قال الله تعالى: {يا أيها النبى حرِّض المؤمنين على القتال}.

لم يأمر بالدعوۀ إلى الجهاد أو الترغيب فيه أو التشويق إليه، إنما أمر بالتحريض عليه، وفيما يلى نسرد معانى كلمۀ «حرّض» فى اللغۀ:

(1) قال صاحب القاموس: «حرَّضه على الشىء» أى حثه وحضّه وأهاجه. قال الله تعالى: {يا أيها النبى حرّض المؤمنين على القتال} (القاموس الوحيد، ص 328).

(2) قال صاحب مصباح اللغات:

حرّضه على الأمر: حثّه، فلانا: دفع ما كان بأحد من فساد فى بدنه أو عقله. الحرض: الفساد فى البدن أو الدين أو العقل. الحرض: قريب من الهلاک. (مصباح اللغات، ص 147)

(3) قال الإمام القرطبى رحمه الله تعالى:

«أى حثهم وحضهم يقال حارض على الأمر وواظب وواصب واكب بمعنى واحد. والحارض: الذى قد قارب الهلاک. ومنه قوله عزوجل : {حتى تكون حرضا} (يوسف 85) أى تذوب غما. (القرطبى)

(4) وقال صاحب الكشاف:

التحريض المبالغۀ فى الحث على الأمر، من الحرض، وهو أن ينهكه المرض، ويتبالغ فيه حتى يشفى على الموت، أو أن تسميه حرضا: وتقول له: ما أراک إلا حرضا فى هذا الأمر وممرضا فيه، ليهيجه ويحرک منه. (الكشاف)

والنسفى فى المدارک اختار الجملۀ الأولى من هذه العبارۀ.

(5) وقال الإمام الرازى فى التفسير الكبير:

والتحريض فى اللغۀ كالتحضيض، وهو الحث على الشىء، وذكر الزجاج فى اشتقاقه وجهاً آخر بعيداً فقال: التحريض فى اللغۀ أن يحث الإنسان غيره على شىء حثاً يعلم منه أنه إن تخلف عنه كان حارضا، والحارض الذى قارب الهلاک، أشار بهذا إلى أن المؤمنين لو تخلفوا عن القتال بعد حث النبى ٠ كانوا حارضين أى هالكين. (التفسير الكبير)

(6) وقد أيّد الآلوسى ما ذكره الزجاج، ثم أورد العبارۀ الإيمانيۀ التاليۀ:

والحق معه، ويؤيده ما قاله الراغب من أن الحرض يقال لما أشرف على الهلاک، والتحريض الحث على الشىء بكثرۀ التزيين وتسهيل الخطب فيه، كأنه فى الأصل إزالۀ الحرض.

المعنى هنا يا أيها النبى بالغ فى حث المؤمنين على قتال الكفار. (روح المعانى)

وبما ذكرنا اتضح معنى «حرِّضْ» ويمكن تلخيص مراده بما يلى:

1- أن يبالغ فى حث المؤمنين على الجهاد.

2- الاستمرار فی الدعوۀ إلی الجهاد.

3- یجب أن ترافق دعوۀ الجهاد إحساس بهلاک المسلمین إن لم یخرجوا للجهاد، فمثلاً مرض ولد شخص، فقال طبیب حاذق: إن لم یتناول الدواء الفلانی مات، وهنا قدّروا الجهد الذی یبذله هذا الشخص کی یتناول ابنه ذلک الدواء، کذلک یجب تحریض الأمۀ الإسلامیۀ علی الجهاد، لأنه لا حیاۀ لها بدونه.

(4) الحرض: المرض الشدید الذی یشرف صاحبه علی الهلاک. أما حرّض فمن باب التفعیل، ومن خاصیاته: سلب المأخذ، والمعنی: بالغ فی دعوۀ المسلمین الذین حدث فیهم مرض الجُبن وحب الدنیا حتی تندفع منهم تلک الأمراض. أو المعنی أن المسلمین یشرفون علی الموت بسبب تخلیهم عن الجهاد، فادعهم إلی الجهاد حتی یندفع الهلاک عنهم.

(5) تزیین دعوۀ الجهاد وتحلیتها بحیث تمیل قلوب سامعیها إلی الآخرۀ، وإلی البقاء من الفناء والهلاک.

فهذه أمور خمسۀ عرفناها من خلال عبارات المفسرین، ویلزم علی العلماء والدعاۀ إلی الجهاد أن یقوموا بواجب الدعوۀ إلی الجهاد کما أمرهم الله تعالی. إضافۀ إلی ما ذکرنا فإن هناک نکتتین أخریین:

(1) فی المواضع الأخری أمر الله تعالی نبیه محمداً • بالقتال والتحریض علیه، کما فی قوله تعالی: {فقاتِلْ فی سبیل الله لا تکلف إلا نفسک وحرّض المؤمنین}. وقد سبق تفسیره، ومن هنا عرفنا أن الداعی إلی الجهاد إن کان مجاهدا فعلاً کان لقوله أثراً علی النفوس، وأدعی للاستجابۀ، إذ الجهاد عبادۀ عملیۀ، ولیست علمیۀ بحتۀ.

(2) جمع الله تعالی بین کلمتی «حرِّض» و «القتال» فی قوله {حرِّض المؤمنین علی القتال} ولم یذکر الجهاد، للإشارۀ إلی نکتۀ مهمۀ، وهی أن فی الجهاد أعمالاً کثیرۀ، کالتخبیز وحمل الأمتعۀ، فمن کلّفه الأمیر بعمل وجد أجر الجهاد کاملا بإذن الله تعالی، أما الدعوۀ فیجب أن تقتصر علی القتال، حتی یستعد الجیش بکامله للقتال ویندفع له، الجمیع منهم یسعی إلی مواجهۀ العدو، وبعد التعبئۀ الکاملۀ واستعداد الجمیع للتضحیۀ بالروح والنفس، إن وکّل الأمیر إلی أحدهم عملا، قام به علی أتم وجه. وعلی کل حال، یجب علی کل شخص أن یمتلئ بالروح القتالی والفداء، وهذا معنی التحریض علی القتال. والله أعلم بالصواب.

وبیّن العلامۀ ابن کثیر رحمه الله تعالی مثالا علی تحریض النبی • علی القتال بما یأتی:

ولهذا کان رسول الله • یحرض علی القتال، عند صفهم ومواجهۀ العدو، کما قال لأصحابه یوم بدر حین أقبل المشرکون فی عَددهم وعُددهم قوموا إلی الجنۀ عرضها السماوات والأرض، فقال عمیر بن الحمام: عرضها السماوات والأرض؟ فقال رسول الله • «نعم» فقال: بخ بخ ... الخ (تفسیر ابن کثیر)

إلی هنا کان بیانا لمضمونین من مضامین الآیۀ السبعۀ، وقبل تناول بقیۀ المضامین لاحظوا بعض النصوص فیما یلی، لأن فیها إشارات إلی تلک المضامین، وفی النهایۀ نذکر خلاصتها، بإذن الله تعالی.

البيان العثمانى:

هذه الآية تحثّ المسلمين على الجهاد، وتأمر بعدم التهرب منه إن كانوا أقل عدداً، وسوف يغلبون على عدو أكثر منهم عشرة أضعاف بفضل الله ورحمته، لأن المسلم لا يقاتل إلا لله، فهو يعلم ربه ويسعى إلى تحصيل مرضاته، ولا ينزل فى ساحة القتال إلا بعد معرفته وإيمانه بأن الحياة الحقيقية هى الموت فى سبيل الله، وعلى يقين بأن ثمار فداءه وتضحياته جاهزة له فى الآخرة، وسوف ينالها هناك، سواء انتصر على العدو أو لم ينتصر. ولا يتحمل شيئا من أذى أو ضرر فى سبيل إعلاء كلمة الله تعالى إلا جلب المسرة الأبدية إليه، إن كان من نيته من الجهاد ما ذكرنا رافقه النصر والتأييد من الله، ولا يتوحش من الموت، فكان أشجع وأقوى فى القتال، أما الكافر ففى غفلة عن هذه الحقيقة، لذلک لا يقاتل إلا لغرض من أغراض الدنيا الفانية مثل البهائم، ولا يتنعم بنعمة القوة القلبية والنصر الإلهى، فبناء على ما ذكرنا أمر الله تعالى المؤمنين بالثبات أمام العدو الذى يكبرهم عشرة أضعاف، إن كان المسلمون عشرون لا يتهربون عن قتال مائتين، وإن كانوا مائة لا يتهربون عن قتال ألف.

تنبيه:

ذكر الله تعالى عدد 20 و100، ولعل السبب فيه أن عدد المسلمين لم يكن يتجاوز على عشرين فى السرية وعلى مائة فى الجيش فى ذلک العهد، والآية الثانية نزلت بعد مدة، وقد تزايد عدد المسلمين، لذلک لا يكون فى السرية أقل من مائة، وفى الجيش أقل من ألف، والتفاوت فى بيان النسبة بين الآيتين دليل على زيادة أعداد المسلمين بين الفترتين.

أخرج البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن آية التخفيف وهى {الآن خفف الله} نزلت بعد أن شقّ على المسلمين الثبات أمام المشركين إن كانوا عشرة أضعاف المسلمين كما فى الآية الأولى، والمعنى أن الله سبحانه وتعالى رفع الحكم الأول بعدما لاحظ فيكم التهاون، والآن ليس عليكم إلا أن تثبتوا أمام جيش لا يكبر عنكم إلا مرتين، ولا يجوز الفرار. وهذا الضعف أو التهاون كان وراء التخفيف، ويمكن أن يكون له عدة أسباب: فى أول الهجرة لم يكن المسلمين بأعداد كبيرة، كما أن قوتهم وجلادتهم كانت مكشوفة، وبعد مدة هرم كثير منهم وضعفوا، أما الجُدد الذين اعتنقوا الإسلام لم يتحلوا بتلک الصفات التى تحلى بها أوائلهم من البصيرة والثبات والتسليم والتفويض، وبزيادة العدد حصل الاغترار بالكثرة والضعف فى جانب التوكل على الله، وقد جُبلت الطبائع البشرية على أن ما من عمل وُكّل به ثُلّة من الناس إلاّ ارتفعت معنوياتهم، وقاموا به بأتم وجه، وما من عمل وُكّل به جماعة من الناس إلا سعى كل منهم فى التخلص منه، ويرى أنه ليس المسئول الوحيد، فلماذا يقوم به قبل الآخرين. قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى: كان المسلمون الأوائل موفوروا الإيمان واليقين، أُمروا بقتال عدو يزيدهم عشرة أضعاف، أما المسلمين الذين جاءوا بعدهم كانوا متخلفين عنهم فى جانب الإيمان بقدم، فأُمروا بقتال عدو يزيدهم ضعفين، وهذا الحكم لا زال باقيا، فإن هاجموا على من هو أكبر منهم من ضعفيهم، استزادوا أجرا وثوابا، ألف من المسلمين فى عهد

الرسول ﷺ جاهدوا ثمانين ألفا من المشركين، وفی غزوة موتة ثبت ثلاثة آلاف من المسلمين أمام مائتی ألف مشرک، وقد حفل تاريخ الإسلام بمثل هذه الوقائع. (التفسير العثمانی)

البيان الأحمدی:

«يجب الاستمرار فی تجنيد الناس، وإلا يورث ضعفا فی القوات. وكان مواجهة جيش يكبر عشرة أضعاف ضروريا فی أول الإسلام، ثم خفّفَ فلا يجب مواجهة ما كان أزيد من المسلمين ضعفيهم». (حاشية اللاهوری رحمه الله)

بيان الخواجه:

لقد تكاثر الأعداء، وأقبلوا على القتال، أما المسلمون فلاشک أن عليهم أن يعيشوا بهذه الأرض، ولا يعلمون شيئا عن أماكن تواجد الأعداء، ولا عن عددهم وعُدّتهم، ولمواجهة مثل هذه الظروف أمر الله تعالى رسوله بالبقاء بحالة الاستعداد التام فی الأوقات كلها.

كل من تجهَّزَ للقتال بصحبة الرسول ﷺ ومرافقته، استطاع عشرون منهم على مواجهة مائتی كافر شريطة استعدادهم للتفانی لتحقيق أسمى مقاصد الحياة، ومائة منهم يغلبون ألفا، وكيف لا يغلب المؤمنون على هؤلاء الكفار المحرومين عن العقل والحكمة، إضافة إلى حرمانهم من توحيد الهدف والثقة بالله تعالى، يجهلون الرقی الجماعی والتعبئة العامة، ولا يسعى أحدهم إلا للمنفعة الذاتية، لذلک يقدمونها على مصالح الملة والشعب، فمن ملأ قلبه رُعبا من مئات الآلهة الباطلة، لا يقوى على مواجهة تلک النفوس الزكية التی لا تخاف إلا الله، والظاهر أن من تمتع بصحبة رسول الله ﷺ بلغ فی الشجاعة والتضحية ما لا يبلغه من جاء بعده، وقد تميّز بها أصحابه المهاجرون والأنصار الذين عاصروه، كان الواحد منهم يواجه عشرة من الأعداء، ولمّا رأى الله تعالى فی المسلمين ضعفاً خفّف عليهم، وأمر الواحد بمواجهة الاثنين من الكفار، وهذه من تلک الآيات الخمسة التی اعترف الشاه ولی الله رحمه الله تعالى بنسخها فی القرآن الكريم، لكن لا حاجة إلى القول بنسخها، لأن أحداً من المسلمين إن استعد لمواجهة عشرة من المشركين، فإن الشرع لا يمنعه منها. (تفسير القرآن)

أسباب ضعف الكفار:

{بأنهم قوم لا يفقهون} ولإدراک تلک الأبعاد التی أشار إليها القرآن لاحظوا النصوص التالية التی ذكرها أهل العلم:

1- ذلک بأنكم تفقهون ما تقاتلون عليه، وهو الثواب، وهم لا يعلمون ما يقاتلون عليه. (القرطبی)

(لاشک أن بين معنويات الرجلين فرقا، إذ أحدهما يسعى لتحقيق رضا ربه، والجنة الجميلة تبتسم وتناديه، وثانيهما يتقدم إلى الظلمات)

2- قال الشاه عبد القادر رحمه الله:

الكافر لا يؤمن بالله ولا بثوابه، وكل من آمن بهما تحمّس لمواجهة الموت. (موضح القرآن)

فالمسلم متحمس للموت، يلهث وراءه، والكافر يخافه، والموت يلاحقه.

3- «بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون غير احتساب وطلب ثواب كالبهائم، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته بخلاف من يقاتل على بصيرة وهو يرجو النصر من الله». (المدارک)

وهذه الأقوال الثلاثة متشابهة، وفيما يلى لاحظوا ملخص تحقيقات الإمام الرازى:

4- من كان يكفر بالله واليوم الآخر، فإن الحياة الدنيوية هى أغلى شىء لديه، لذلک يسعى إلى المحافظة عليها، أما الذى يؤمن بالله واليوم الآخر فإن السعادة الحقيقية لديه هى سعادة الآخرة، وأن السعادة الدنيوية ليست بمهمة، لذلک لا يعبأ بها، وبالتالى يخوض المعارک مع فرط الشجاعة والإخلاص، ولاشک أن الساعين إلى المحافظة على أرواحهم لا يطيقون مواجهته مهما بلغوا فى العدد. (التفسير الكبير)

5- الكفار أغبياء، لا يثقون إلا بقوتهم وطاقتهم، والمسلمون يبتهلون ويتضرعون إلى ربهم، يسألون نصره وتأييده، فهم أولى به من غيرهم. (لأن النصر يتحقق بإذن الله وليس بفضل القوة)

6- يتمتع المؤمنون بنور معين ورعب مخصوص، والكفار لا نور لهم ولا رعب. إن المؤمن الذى خرج للجهاد مُضَحِّياً بروحه وماله لربه، فهو بحالة يشاهد نور ربه وجلاله، فيتقوّى قلبه، ويكتمل روحه، ويتميز بقوة وطاقة عن غيره، أما قلب الكافر الغبى فيخلو عن العلم والمعرفة ومشاهدة النور المذكور. (التفسير الكبير)

حكم الآية المباركة:

فى السابق أمر بالثبات أمام عدو يكبر المسلمين عشرة أضعاف، والآن أمر بالثبات أمام عدو يكبرهم ضعفين، كما قال الإمام أبو بكر الجصاص رحمه الله تعالى:

وكان الفرض فى أول الإسلام على الواحد قتال العشرة من الكفار لصحة بصائر المؤمنين فى ذلک الوقت وصدق يقينهم، ثم لما أسلم قوم آخرون خالطهم من لم يكن لهم بصائرهم ونياتهم، خفف عن الجميع وأجراهم مجرى واحداً ففرض على الواحد مقاومة الاثنين. (أحكام القرآن)

والمعنى أن الله ألزم الجميع حكماً واحدا يخص الضعفاء، لكن البشارة لا زالت باقية للأقوياء، الذين إن ثبتوا وواجهوا عدوا يكبرهم عشرة أضعاف، فإن الله ينصرهم ويؤازرهم. كما قال الإمام ابن كثير:

«ثم نسخ هذا الأمر، وبقيت البشارة». (تفسير ابن كثير)

وقال الشاه عبد القادر رحمه الله:

يعظّم الله أجر من هاجم على عدو يزيدون عليهم أضعافا مضاعفة، فقد قاوم ألف مجاهد ثمانين ألفا من المشركين فى عهد الرسول ﷺ. (موضح القرآن)

هل الأمر الذى فى هذه الآية قد نُسخ؟

لاشک أن التخفيف وقع فيه، كما أخرج البخارى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه، ذكره ابن كثير بطرق عديدة، قال:

عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزلت {إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين} شق ذلک على المسلمين حتى فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: الآن خفف الله عنكم. (التفسير ابن كثير)

قال البعض: حكم الآية الأولى منسوخ، ورفض ذلک آخرون.

وقد أورد القرطبی والجصاص رحمهما الله تعالى كلاما جيدا فی هذا الموضع، فليرجع إليه من شاء. لكن الأولى عدم القول بنسخ هذه الآية لعدة أسباب، إذ فيها كثير من الأحكام ما عدا الحكم المخفف. (والله أعلم بالصواب)

المسلمون الصابرون:

للصبر معانی كثيرة، وهو عبارة عن وصف يتخلص فی «ضبط النفس» والتعلق مع الله تعالى فی الحالات كلها، والثبات على الحق والأعمال الصالحة، والاجتناب عن المعاصی، والصبر عند المصيبة، كل هذه المعانی تشملها كلمة الصبر.

وإذا كان اللقاء مع عدو يزيدهم أضعافا مضاعفة، فإن الواجب على المؤمنين أن يتحلوا بصفات إضافية حسب تحقيق الإمام الرازی، وهی كما يلی:

1- أن يكون شديد الأعضاء قويا جلدا.
2- أن يكون قوی القلب شجاعا غير جبان.
3- أن يكون غير منحرف إلا لقتال أو متحيزا إلى فئة. (التفسير الكبير)

ما معنى الضعف؟

قال الله تعالى: {وعلم أن فيكم ضعفا} قد يتساءل هنا أحد: أن المؤمنين فی عهده ﷺ كانوا فی تقدم وازدهار فی إيمانهم، فما معنى حدوث ضعف فيهم؟ والجواب عنه قد تناولته النصوص التی أسلفناها، وفيما يلی ما قاله العلامة أشرف على التهانوی:

«أما معنى الضعف فأرى أن هناک ضابطة عامة، وهی: إن كان العاملون قليلون، وخوّلت إليهم مهمة، حسبوها ضرورية، وشعر الجميع بالقوة والاندفاع إلى العمل، لأن كل واحد منهم ظنّ أنه هو خوطب بها، وأن عليه إنجازها. أما إن كثُر العدد، ظنّ كل منهم أنه ليس الوحيد الذی يجب عليه أن يقوم به، ويقتصر عليه، فهناک غيره من يقدر عليه، ولماذا لا يقوم الجميع به على وجه التساوی؟، وهذا يؤدی إلى إضعاف معنوياتهم. ومن هنا عرفنا أن حماسهم وشجاعتهم فی بدر وغيرها من المعارک الأوّلية تختلف عما لحقتها من المعارک، وكلما زاد العدد ضعفت المعنويات، وهذا الذی نُقل عن بعض السلف، بأن الحكم بمواجهة عشرة أضعاف كان فی بدر، والتخفيف كان فيما بعدُ، ولا شک أنه أمر طبيعی، فلا يجوز الشک فی الصحابة، لأن إيمانهم كان فی ازدياد باستمرار ولم يلحقهم ضعف قط. (بيان القرآن)

وسيلة استمرار الجهاد:

الجهاد ماض إلى يوم القيامة، إذ لا بقاء للإسلام بدونه، وقد أشار الله تعالى فى هذه الآية المباركة إلى طريقة الاستمرار فى الجهاد، وهى التحريض على القتال، كما قال الله تعالى: {يا أيها النبى حرّض المؤمنين على القتال} والمعنى أن الدعوة القوية ضرورية لاستمرار الجهاد، ولا يمكن إيجاد جهاد قوى بدون دعوة قوية له، وقد عمل به النبى ٭ كما عمل بغيره من أوامر الله تعالى، ودعا إليه بشدة وقوة، افتحوا ما شئتم من كتب الحديث، تلاحظون مئات الأحاديث التى تصرّح بذلك، إضافة إلى ما ذكر من فضائل الجهاد التى تبعث فى القلب القوة والنشاط والحياة والاندفاع، حتى يشعر روحه يرغب فيما أعد الله له فى الآخرة.

ومن هنا عرفنا أنه إن دعونا الناس إلى الجهاد وفق ما ذكره الله تعالى فى القرآن الكريم، لن يتخلف أحد من المسلمين عن الجهاد فى سبيل الله، أدرك ذلك أعداء الإسلام، حتى تناولوا كلمة الجهاد بالتشكيك، وبه ترتبت آثار سيئة على الدعوة والجهاد، وأدى إلى إضعاف المسلمين فى العالم. فظروف اليوم تستدعى العلماء إلى إحياء فريضة الجهاد عملاً بقوله تعالى: {حرِّض المؤمنين على القتال} فليحرضوهم على القتال، ثم إن من فضل الله علينا أنه ذكر لفظ «القتال» فى الموضعين اللذين فيهما دعوة للجهاد، فلا مساغ للتأويل فيه، ومعناه الواضح هو: القتال فى سبيل الله، والأمر بالتحريض عليه.

قيل: إن القتال من مسئوليات الحكومات، لذلك لا نحرّض الناس عليه، نردّ عليهم فنقول: إن الله سبحانه وتعالى خاطب به نبيه، وهو بدوره خاطب به المؤمنين.

والعلماء ورثة الأنبياء، يقيمون الصلوات الخمسة والجمعة مع الجماعة فى وقت يعانى فيه الحكام من ضعف فى الجانب الدينى وتهاون فى شعائره.

لذلك عليهم أن لا يهملوا فريضة الجهاد، بل يعمموا دعوته، فى كل حى ومسجد يدعوا الناس إلى القتال فى سبيل الله، حتى يصحوا من نومهم العميق، كما لا يبعد أن يمنحهم بفضل صحوتهم حكاما يُدركون مسئولياتهم الشرعية الملقاة على عواتقهم، ويُلزموا الناس فريضة الجهاد. وما ذلك على الله بعزيز. (والله أعلم بالصواب)

{سورة الأنفال مدنية، الآية : 76}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض. تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة. والله عزيز حكيم}.

ملخص معانى الآية:

أى كان من اللازم قتل المشركين بأعداد كبيرة يوم بدر، وعدم إخلاء سبيلهم بالفدية، وبدلا من النظر فى مال الفدية كان من الأولى أن ينظروا إلى الله تعالى، والله عزيز حكيم، قادر على تغليبكم عليهم بدون أخذ الفدية.

كلام بركة:

قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى:

أسروا يوم بدر سبعين مشركا، فاستشار النبى ' أصحابه، فكان أغلبهم يرون أن تؤخذ منهم الفدية ويخلّى سبيلهم، وبعضهم أراد أن يُقتلوا جميعا، وهذا ما أشار عليه عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ، وفى نهاية المطاف أخذوا الأموال وخلّوا سبيلهم. فنزلت هذه الآية وفيها عتاب، والمعنى أن جمع المال من وراء الجهاد ليس بمقبول عند الله، والمطلوب هو توجيه ضربة قوية إلى قوة الكفر وشوكته، ولا يحصل ذلك إلا بقتلهم كى لا يصرّوا على ما هم عليه. (موضح القرآن)

تفسير جامع:

«أُسر سبعون مشركا يوم بدر، فعرض الله تعالى على المسلمين أمرين: 1- إما القتل 2- وإما الفداء، بشرط أن يُقتل منهم بعددهم من القادم. والعرض المذكور كان من باب الابتلاء والامتحان، ليعرف منعطف المسلمين فى آرائهم وطبائعهم، كما عُرض خياران أمام أزواجه المطهرات، حيث قال: {إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين} (الآية .. الآحزاب 28).

وفى ليلة الإسراء والمعراج عُرض عليه إناءان من خمر ولبن، فاختار ' اللبن. فقال جبريل: لو اخترت الخمر لضلت أمتك. وعلى كل حال، فقد استشار النبى ' أصحابه بشأن الأسرى، فقال أبو بكر: إنهم يا رسول من ذوينا وأقاربنا، فخذ منهم الفدية ولاتقتلهم، وهذا البر والإحسان إليهم قد يحملهم على الإسلام، فيؤمنوا ويؤازروا الإسلام، والمال الذى نأخذه منهم نستعين به فى الإعداد للجهاد، أما مقتل سبعين منّا من العام القادم فلا ضير فيه، إذ هم شهداء ينالون فضل الشهادة وثوابها، وكان النبى ' بطبعه يميل إلى التراحم والتواصل والإشفاق وإلى رأى العامة من أصحابه، (كما يظهر من قوله تعالى: {تريدون عرض الدنيا} صرّح به الحافظ ابن حجر وابن القيم رحمهما الله). أما عمر

وسعد بن معاذ فكانا يريان غير ما يرون، حتى قال عمر : يا رسول الله: هؤلاء أئمة الكفر ورأس المشركين، وبالقضاء عليهم تضعف شوكتهم وقوتهم، ويهابک الكفار، فلا يجترئوا على إيذاء المسلمين وإعاقة طريق الدعوة، وفيه إظهار براءتنا ونفورنا عن المشركين رغم قرابتهم ونسبهم وما عرضوا علينا من منفعة مالية، لذلک أشير عليک أن تأمر بقتلهم، وتأمر أحدنا أن يقوم إلى قريبه منهم فيقتله.

وفى النهاية بعد التأمل والتدقيق فيه توصلوا إلى ما أشار عليه أبو بكر، إذ الأكثرية كانت تؤيده، والنبى ٭ كان يميل إليه لما جُبل عليه من الرحمة والرأفة، إضافة ما يُسانده الجانب الخُلقى والاعتبار العام، لكن الظروف المحيطة بالإسلام فى ذلک الوقت كانت تقتضى توجيه ضربة تقصم ظهر المشركين، الذين لم يألوا جهدا فى إيذاء المسلمين بمكة، والمسلمون الذين ذاقوا صنوف الويلات على يدى عبّاد الشيطان، فكانت الفرصة فرصة الثأر منهم، ليعلموا أن سيف الانتقام لا يمنعه من قطع رقابهم القرابةُ النسبية والأموال والعشائر والجماعات، فالتعامل معهم بالخشونة فى اللقاء الأول ثم باللين فى اللقاءات التالية له آثار إيجابية. ثم إن موافقة المسلمين على مقتل سبعين من المسلمين لم يكن أمراً هيّناً، لذلک لم يكن هذا الرأى مرغوبا عند الله بمبررات المصلحة الآنية والظروف الطارئة، فقال تعالى: {ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثخن فى الأرض} أشار فيه إلى ما ذكرنا أن الصحابة قد وقعوا فى خطإ اجتهادى كبير، حتى قال لمن كان نظره على المنفعة المالية: {يريدون عرض الدنيا} والأولى بالمؤمن أن ينظر إلى العواقب، إذ هو قادر على إنجاز ما أردتموه إن شاء رغم انعدام الأسباب الظاهرة، وعلى كل حال، فإطلاق سراحهم بعد أخذ الفدية كان خطأ اجتهاديا كبيرا.

ويجب أن يعلم هنا أن النبى ٭ كان مائلا إلى الفدية بناء على طبعه الرحيم والرفيق وصلة الرحم. وصار ما صار، وبما أنهم قصّروا فى جانب «البغض فى الله» وتهاونوا فى تحقيق «الغرض» الحقيقى من الجهاد، ورضوا بمقتل سبعين منهم من القادم، لذلک نزل معاتبتهم فى هذه الآية، واستخدم أسلوبا عنيفا. (التفسير العثمانى)

كان الصحابة من عباد الله المقربين إليه، وممن يحبهم الله، وقد نصرهم الله تعالى يوم بدر نصراً عاليا، وأثابهم فتحا قويا، والشكر عليها يقتضى منهم قتل مزيد من المشركين ليفرح الله بهم أكثر، ولكى يستحقوا مزيدا من الأجور فى الآخرة، لكن الذى أقروه فى التشاور هو أن الأسرى يُطلقون بأخذ الفدية منهم، وبما أن الصحابة كانوا من أحبة الله، لذلک تم توجيه الزجر والتوبيخ إليهم، ثم العفو عنهم، ثم أشار إلى أن الفدية التى أخذتموها منهم تحل لكم، فكلوا منها.

فهذه هى مكانة الصحابة عند الله تعالى، رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين.

نكتة مهمة:

تشير الآية الكريمة إلى أن الله تعالى يريد أن يثخن نبيه فى الأرض، يُثخن دماء أولئک الظالمين الذين يعيقون طريق الحق والعدل.

{حتى يُثخن فى الأرض} والإثخان : إراقة الدماء بغزارة، وهى طاعة عند الله، وأفضل من كثير من الطاعات، حيث قال الله تعالى: {تريدون عرض الحياة الدنيا} {والله يريد الآخرة} أى يريد الله أن تتفكروا فى الآخرة وتزيدوا فى أجرها، كما ورد فى الجلالين: «والله يريد لكم الآخرة أى ثوابها بقتلهم..».

وهنا ندعو للتأمل أولئك الذين يعتبرون لفظ القتل والقتال شنيعاً، وأنه يخالف الإسلام. (نعوذ بالله). (والله أعلم بالصواب)

البيان الحقانى:

رجع النبى ﷺ من بدر ومعه سبعون أسيراً من المشركين، بينهم عباس بن عبد المطلب عمه ﷺ، وعقيل بن أبى طالب، ابن عمه، واستشار الناس حولهم، فقال أبو بكر: خذ الفدية ثم خلّ عنهم، فهم قومك، وقد يهديهم الله تعالى لدينه، وقال عمر: أُقتلهم حتى تزول قوة الكفر وشوكتها، وقال عبد الله بن رواحة: أحرقهم بالنار. لكن النبى ﷺ استحسن ما رآه أبو بكر، وأخذ من كل واحد منهم أربعين أوقية، (أى ألف وستمائة درهم) وخلى سبيلهم، وأخذ من العباس فديته وفدية ابن أخيه عقيل، وفدية نوفل بن الحارث، فقال العباس: أصبحت فقيراً، فقال النبى ﷺ: أين الذهب الذى تركته عند أم الفضل؟ وكان لا يعلم به أحد، فلمّا سمع ذلك أسلم، هذا ما ورد ذكره فى كتب الحديث. أباح الله تعالى للنبى ﷺ أمرين: القتل أو أخذ الفدية، لذلك استشار الناس، ولكن الأولى كان قتلهم، حتى يكفوا عن العناد، والأنبياء يعاتبون على ترك الأولى، لذلك نزلت هذه الآية، وأشار فيها إلى أنه لا يليق بالنبى أن يكون عنده أسارى ثم لا يريق دمائهم، أنتم أيها المسلمون هل ترغبون فى الفدية التى هى عرض الحياة الدنيا، والله يُعدّ لكم ما يبقى، إن الله عزيز حكيم، عارف بمنفعة قتلهم. (التفسير الحقانى)

الربط:

قال التهانوى رحمه الله تعالى:

فيما سبق أَمَرَ بالقتال، وبما أن القتال لا يخلو عن أسير، لذلك بيّن الله تعالى أحكام الأسرى تحت سرد قصة بدر. (بيان القرآن)

وقال الرازى رحمه الله:

«واعلم أن المقصود من هذه الآية تعليم حكم آخر من أحكام الغزو والجهاد فى حق النبى ﷺ». (التفسير الكبير)

تشبيه الصحابة بالأنبياء:

لمّا أشار الصحابة على النبى ﷺ بشأن الأسرى بما أشاروا، قال النبى ﷺ لأبى بكر مثلك مثل إبراهيم وعيسى عليهما السلام، ومثل عمر مثل نوح وموسى عليهما السلام، فكأنّ النبى ﷺ أراد الإشارة إلى نِسَبِ أصحابه، وأثنى عليهم خيراً، كما قال الرازى رحمه الله:

وإن مثلک يا أبا بکر مثل إبراهيم {قال فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنک غفور رحيم} ومثال عيسى فى قوله: {إن تعذبهم فإنهم عبادک وإن تغفر لهم فإنک أنت العزيز الحکيم} ومثلک يا عمر مثل نوح {قال رب لا تذر على الأرض من الکافرين ديارا} ومثل موسى حيث قال: {ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم} (التفسير الکبير)

معنى «الإثخان» عند الرازى:

{حتى يُثخن فى الأرض} قال الرازى رحمه الله:

«الإثخان فى کل شىء عبارة عن قوته وشدته يقال: أثخنه المرض إذا اشتد قوة المرض عليه، وکذلک أثخنه الجراح، والإثخانة الغلظة، فکل شىء غليظ فهو ثخين، فقوله {حتى يُثخن فى الأرض} معناه حتى يقوى ويشتد ويغلب ويبالغ ويقهر، ثم إن کثيرا من المفسرين قالوا: المراد منه: أن يبالغ فى قتل أعدائه. قالوا: وإنما حملنا اللفظ عليه لأن الملک والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتل. قال الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ولأن کثرة القتل توجب قوة الرعب وشدة المهابة، وذلک يمنع من الجرأة ومن الإقدام على ما لا ينبغى، فلهذا السبب أمر الله تعالى بذلک». (التفسير الکبير)

فائدة:

لقد تطاول البعض على عصمة الأنبياء استناداً إلى هذه الآية الکريمة، ردّ الرازى رحمه الله تعالى عليهم فى مبحث مفصل، ارجع إلى «التفسير الکبير». ونقل القرطبى عن أکثر أهل العلم أن العتاب فى الآية الکريمة موجَّهٌ إلى الصحابة الذين أشاروا عليه بأخذ الفدية، دون النبى ﷺ کما قال القرطبى:

«هذه الآية نزلت يوم بدر، عتاباً من الله عزوجل لأصحاب نبيه ﷺ والمعنى: ما کان ينبغى لکم أن تفعلوا عن الفعل الذى أوجب أن يکون للنبى أسرى قبل الإثخان ولهم هذا الإخبار بقوله: تريدون عرض الدنيا.

والنبى لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب، فالتوبيخ والعتاب إنما کان متوجها بسبب من أشار على النبى ﷺ بأخذ الفدية، هذا قول أکثر المفسرين».

وقال القرطبى بعدما نقله: «وهو الذى لا يصح غيره».

ثم کتب: إن عملية أسر المشرکين وقعت بالصدفة، وکان النبى ﷺ مهتما بالنصر السماوى، فلم يقدر على منع عملية الأسر، حتى نزلت الآية، فبکى النبى ﷺ وأبو بکر رضى الله عنه. (القرطبى)

نكتة مهمة:

نجاح الإنسان كامن فى اتباع الإسلام، وفى الإسلام سلام الدنيا والآخرة، وقد أُمر النبى ﷺ بدعوة الجن والإنس إلى الإسلام، وأخبرهم على الملأ أنه لا يُقبل دين بعد اليوم غير الإسلام، فنهض بعضهم لمناهضته، وطفقوا يمنعون الناس منه، فما حكمهم؟ فقد شاءوا أن يدخل الناس فى نار جهنم، يحاربون دين الحق، ويقتلون المؤمنين، فهل إراقة دمائهم ظلم؟ نضرب مثالا: لقد وجّهتَ دعوة لضيف كريم، فحضر واستقبلتَه فى غرفة الضيوف، وبعد قليل ظهرت ثعابين سامة بناحية من الغرفة، فماذا تفعل بها؟ إن لم تقتلها قتلت الضيف. فالرجل الكريم إن لم يجز له التغافل عن سلامة ضيفه فكيف يجوز للإسلام أن يتغافل عن سلامة المسلمين؟ لذلك تقرَّرَ إراقة دماء أعداء المسلمين طاعة فى الإسلام.

ما من حكومة تصدر تأشيرة لأجنبى إلا وتتخذ من الاجراءات ما تضمن سلامته، كذلك الإسلام يقدّم ضوابط للحفاظ على كرامة المسلمين وحمايتهم، وبفضله تنعم البشرية بنعمة الأمن والاستقرار، بل فى إراقة الدماء فضلاً على المشركين، لأن الناجين منهم يُسرعون إلى الإسلام، لما شاهدوا من قوة الإسلام وإذلال الشرك والكفر، أما إن كان المشركون أقوياء، زعموا أنهم على الحق، وإذا تطوّروا فى جانب من الدنيا زعموا أنهم سلالة سامية، فلا يميلون إلى الإسلام. كما قال صاحب التفسير الماجدى:

«لقد كثرت المباحث حول كلمة «الإثخان» ومعناها اللغوى، لكن الأصل هو معرفة الغرض من الإثخان وغايته، وهو استئصال الفساد. والمعنى أنه يجب على الرسول مواصلة القتل والقتال ما لم يتم استئصال الفساد من جذوره، ويعز الإسلام ويذل الشرك والكفر». (التفسير الماجدى)

كما أشار فى الآية الكريمة إلى أنهم أخذوا عرض الدنيا الفانية، والله يريد الآخرة وثوابها وفوائدها. قال أهل العلم: المعنى أنكم أيها المؤمنون إن قتلتموهم لاعتز الإسلام به، وذلَّ الكفر، فكان سببا لثوابكم فى الآخرة. ومن هنا عرفنا أن جميع ما يتم إنجازه أثناء الجهاد من قتل وغيره يستفيد منه الإسلام، ويُثاب المجاهد على إنفاعه الإسلام وخدمة جميع فروعه، ومن هنا يفضل المجاهد على غيره. (والله أعلم بالصواب)

قال صاحب روح المعانى:

«أى يريد لكم ثواب الآخرة، أو سبب نيل الآخرة من الطاعة بإعزاز دينه وقمع أعدائه». (روح المعانى)

وقال صاحب المدارك:

«والله يريد الآخرة، أى ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثخان فى القتل». (المدارك)

نكتة:

أكّدت الآية الكريمة بشدة على أنه يجب على المجاهدين أن لا يجعلوا المال غاية جهادهم، لأن النظر إلى المال لا يليق بإيمان المجاهد وكرامته، كما يجب على المجاهدين أن يجعلوا حكم

الإسلام ورابطته فوق جميع الانتماءات القبليۀ والعشائريۀ والنسبيۀ. وقد اتضح الدرسان من الآيۀ الكريمۀ. (والله أعلم بالصواب)

{**سورة الأنفال مدنية، الآيات** : 68، 69}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لو لا كتاب من الله سَبَقَ لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم. فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله، إن الله غفور رحيم}.

ملخص معانى الآيتين:

لو لم يسبق كتاب من الله بالعفو، لمسَّكم عذاب أليم فيما أخذتم من المال والفدية.

وما أخذتم من المال فهو حلال وطيب لكم، واتقوا الله فيما تأتى من الأيام، إن الله غفور رحيم. فلقد عفا عنكم، ورحم عليكم، إذ أحل لكم مال الفدية والغنيمة، وجعلهما طيبا.

{لو لا كتاب من الله سبق} ما المراد منه؟

فيه عدة أقوال لأهل العلم. ردّ الرازى على أكثرها، وقال:

«معناه: لو لا أنه تعالى حكم فى الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسهم عذاب عظيم». (التفسير الكبير)

أما الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى فله رأى مختلف عنه، حيث قال:

«لو لم يسبق فى علم الله تعالى إسلام عدد من هؤلاء الأسرى..لمسَّكم..» (موضح القرآن)

أما القرطبى فذكر الأقوال التالية:

1- أى بتحليل الغنائم.

2- الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم أو تأخر من ذنوبهم. لقول رسول الله ٠ لعمر فى أهل بدر: وما يدريک لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. خرّجه مسلم (القرطبى)

3- الكتاب السابق هو ألا يعذبهم ومحمد عليه السلام فيهم.

4- الكتاب السابق هو ألا يعذب أحداً بذنب أتاه جاهلا حتى يتقدم إليه.

5- الكتاب السابق هو مما قضى الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر.

(وهذا القول نسبه الرازى إلى المعتزلة)

6- وذهب الطبرى إلى أن هذه المعانى كلها داخلة تحت اللفظ وأنه يعمها. (القرطبى)

أما ما ورد فى المدارک وروح المعانى وبيان القرآن حول معانى هذه الآية الكريمة، فقد جمعها العلامة العثمانى فى التفسير العثمانى بما يلى:

«والمعنى أن ما فعلتموه يستدعى معاقبة أولئک الذين أشاروا عليک بنية جمع المال، لكن المعاقبة ممتنعة لما سبق فى كتاب الله تعالى، وهى أمور كثيرة:

1- المجتهد لا يعاقب على مثل هذا الخطأ الاجتهادى 2- ليس من سنة الله تعالى تعذيب أحد ما لم يصرّح بالحكم أمراً أو نهياً 3- لقد عفا الله أخطاء أهل بدر 4- السلوك الذى انتهجوه قبل الموعد بالخطأ، وهو إطلاق الأسرى بالفدية، كان مما تقرَّرَ فى علم الله أنه سيُؤذَنُ لهم به فيما تأتى من الأيام، كما فى سورة محمد: {فإمَّا مَنّاً بعدُ وإما فداءً}. 5- كما أن الله لا يُعذِّبُ أحداً مادام فيهم رسول الله ، أو كانوا يستغفرون بنية صادقة 6- لقد سبق فى علم الله أن كثيراً من هؤلاء الأسرى يُسلمون. وعلى كل حال، لو لم تكن تلك الموانع التى أسلفناها، لكان الخطأ الذى صدر منهم جليلاً يستدعى عذاباً عظيما. (التفسير العثمانى)

فائدة:

لم نسرد ما سردنا من الأقوال إلا لاستيعاب معنى الآية الكريمة، وإلا فالمقصود الحقيقى من إنزال هذه الآية هو العتاب على تضييع فرصة سنحت لهم لإذلال الكفر والشرك، وإعزاز الإسلام وتكريمه وحماية أهله، فقد أفرجتم عن أعداء الإسلام بعدما أخذتم منهم الفدية. وفى الواقع يجب على المسلمين أن ينفعلوا مع القرآن والروح الذى يريد أن ينفخ فى قلوب المسلمين، وأن يسألوا الله تعالى إصلاح طبائعهم وعاداتهم وأحوالهم. وهذه الآيات الثلاث تدعو المسلمين إلى طبع نفوسهم على تلك الخصال التى ذكرها فيها، وأنهم إن فعلوا ذلك اطَّلعُوا على حقيقة الإسلام ومكانته العظيمة، كما عرفوا نجس الكفر وخبثه الباطنى. (والله أعلم بالصواب)

أراهم الله العذاب:

والعذاب الذى كان من المقرر إنزاله عليهم أراه الله نبيه، فبكى رسول الله كثيرا، كما فى الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه.

قال الإمام النسفى رحمه الله تعالى:

روى أن عمر رضى الله عنه دخل على رسول الله فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله أخبرنى فإن وجدت بكاء بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت، فقال: أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء، ولقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة. (لشجرة قريبة منه). (المدارك)

واللفظ فى رواية:

«لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ». (المدارك)

{فكلوا مما غنمتم}

جاء فى الروايات أن الصحابة امتنعوا عن أكل مال الفدية بعدما نزل عليهم الوعيد الشديد بالعذاب، خوفا منه، فنزلت هذه الآية، وأشارت إلى أنه مال حلال وطيب، فكلوه.

قال النسفى:

«رُوى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم يمدوا أيديهم إليها، فنزلت. وقيل: هو إباحة للفداء، لأنه من جملة الغنائم». (المدارك)

وقال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى:

{واتقوا الله} أى اخشوه رغم ما تصدر منكم من أخطاء، فإنه يغفر لكم، لقد تخوّف المسلمون بعدما سمعوا حكم الأسرى، فنزلت هذه الآية لتسليتهم، وقالت كلوا هذه الأموال فإنها مما أعطاها الله لكم، فكلوها هنيئا مريئا، لكن لا تقاتلوا من أجل الغنيمة، ومن هنا قالت الحنفية: لا يجوز الإفراج عن الكافر بالمال إذا أمسكهم المسلمون أثناء القتال، ولا بدون مال حتى يلحقوا بالمشركين، لكن يجوز استرقاقهم، أو الإخلاء عنهم حتى يسكنوا بين المسلمين بذمتهم وعهدهم، أما الإمام الشافعى فيجوز عنده الأول، وهو إطلاق سراحهم بالمال، قال الله تعالى فى سورة محمد: {فإمَّا مَنًّاً بعدُ وإما فداء}. (موضح القرآن)

لقد ذكر صاحب أنوار البيان مسائل الأسرى تحت هذه الآية الكريمة، فمن شاء فليرجع إليه، وعادة لا يذكرها المفسرون إلا تحت آية سورة محمد.

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 70، 71}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أُخذ منكم ويغفر لكم، والله غفور رحيم. وإن يريدوا خيانتک فقد خانوا الله من قبلُ فأمكن منهم، والله عليم حكيم}.

ملخص معانى الآيتين:

من هؤلاء الأسرى من آمن منهم، وأخلص إيمانه لله، وافتدى نفسه بالمال، لا يتأسف عليه، فإن الله سيُعوّضه بمال أكثر منه، ويغفر له، فإن عادوا وخانوا الله ورسوله، فإنهم سيواجهون مصيرا مخزيا.

سبب نزول الآيتين:

هذه الآيت نزلت فى عباس بن عبد المطلب وأبناء إخوته عقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث.

قال ابن عباس رضى الله عنهما: نزلت فى العباس، وعقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث. (التفسير الكبير)

وقال الرازى: إنها نزلت فى الكل، وهذا أولى. (التفسير الكبير)

أقصى ما فى الباب أن يقال: سبب نزول الآيۂ هو العباس رضى الله عنه، إلا أن العبرۂ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. (التفسير الكبير)

تفسير موجز:

«أبدى بعض الأسرى استعدادهم للدخول فى الإسلام، (مثل العباس رضى الله عنه) فقيل له: إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم، ويغفر لكم، والله غفور رحيم. وإن يريدوا خيانتک فقد خانوا الله من قبل، وهنا إشارۂ إلى العهد الذى أخذ من بنى آدم من ذريته، قال ألست بربكم قالوا بلى. أو أراد به بعض بنى هاشم الذين وعدوا فى حياۂ أبى طالب بحمايۂ النبى ؐ، والآن جاءوا لمحاربته مع المشركين فى بدر، وليشهدوا الآن عاقبۂ خيانتهم، فقد وقعوا فى أيدى المسلمين، وسوف يعاقبون فى المستقبل إن عادوا لحالهم، ولا يمكنهم إخفاء ما فى قلوبهم، ولا إعاقۂ الترتيبات الحكيمۂ التى اتخذها. قال الشاه عبد القادر رحمه الله: فتحقق ما وعدهم الله تعالى، فقد أثرى ثراءً فاحشا منهم من أسلم، ومن بقى على كفره خاب وخسر». (التفسير العثمانى)

وقال اللاهورى رحمه الله:

قال بعض أسارى بدر: لم نخرج لقتالكم إلا بعدما أجبرونا عليه، ما أردنا قتالكم، فقيل لهم: إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أُخذ منكم إن أسلمتم، وإن يريدوا خيانتک فقد خانوا الله من قبل، فأمكن منهم. (حاشية اللاهورى)

قصة العباس بن عبد المطلب:

كان العباس عم النبى ˚ الذى كان يحبه حبا جمًّا، وقد قال له عمر: أسلم فإن إسلامک أحب إلىَّ من إسلام والدى الخطاب، فإننى أدرى كم يفرح النبى ˚ بإسلامک. (تفسير ابن كثير)

أورد الرازى وغيره من المفسرين قصص عباس الكاملة تحت هذه الآية، وفيما يلى نسرد بعضها التى لها علاقة بالآية، لاحظوا نص ما ذكره صاحب تفسير «أنوار البيان»:

قدم عباس إلى بدر مع المشركين فى جندهم، خرج من بيته مع عشرين أوقية يُطعم بها أصحابه. (وكان العباس واحداً من أولئک الذين انتابوا على إطعام الجند أجمعه، ولم تأتِ نوبته إلا يوم القتال) فبقيت عنده عشرون أوقية، وقد أخذها الصحابة منه فى بدر، ولمّا أُسرَ، وجِيئَ به إلى المدينة، طُولب بالفدية، فقال: لقد أخذتم منى عشرون أوقية فى بدر، فقال النبى ˚ ادفع غيرها، فقد أردتَ بها محاربتنا، وكان مما قال العباس: يا رسول الله: لقد كنتُ مسلماً، فقال النبى ˚: يعلم الله بإسلامک، وسوف يؤتِکَ خيراً مما أُخذ منک، فافدِ عن نفسک وابنى إخوتک عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفک عتبه بن عمرو، فقال العباس: ما أردتَ إلا أن أتسوّل قريشا ما بقيتُ، ليس لدىَّ من المال ما أفدى، فقال النبى ˚: أين المال الذى دفنتما أنتَ وأم الفضل؟ وقد قلتَ لها: سوف يكفى هذا المال أبناى عبد الله وعبيد الله وفضل وقثم إن أنا قُتلتُ فى بدر، فقال العباس: والله لا يعلمه أحد سوى أم الفضل، فمن أخبرک به؟ فقال: الله، فقال العباس: أشهد أنک رسول الله. (من معالم التنزيل 263/2 وابن كثير 367/2)

وعند البخارى فى صحيحه (428/1) قال بعض الأنصار: يا رسول ائذن لنا نخلّى عن العباس، ولا نأخذ منه الفدية، فقال النبى ˚: لا تتركوا درهما واحداً.

هذا خير نموذج للعدل فى الإسلام. ولمّا دخل العباس فى الإسلام كافة، رأى ما وعده الله تعالى صادقاً، كان يقول: لقد عوّضنى الله تعالى عن عشرين أوقية بعشرين رقيقا كلهم يكسبون المال لى، وأرجو من الله تعالى المغفرة التى وعدنى بها. وفى رواية قال: لقد عوّضنى الله تعالى بما أُخذ منى بأربعين رقيقا. وفى رواية: لقد عوّضنى الله تعالى بمائة أضعاف مما أُخذ منى. (أنوار البيان)

وقد أورد صاحب المدارک القصة التى جاء فيها أن النبى ˚ أعطى العباس بملإ رداءه لمّا جاءه مال البحرين.

«روى أنه قدم على رسول الله ˚ مال البحرين ثمانون ألفا، فتوضأ لصلاة الظهر، وما صلى حتى فرّقه وأمر العباس أن يأخذ منه، فأخذ منه ما قدر على حمله، وكان يقول: هذا خير مما أُخذ منى، وأرجو المغفرة، وكان له عشرون عبداً، وإن أدناهم ليتجر فى عشرين ألفاً. وكان يقول: أنجز الله أحد الوعدين، وأنا على ثقة من الآخر». (المدارک)

وقال القرطبى رحمه الله:

وذكر أنه أسلم حين أسر يوم بدر، وذكر أنه أسلم عام خيبر، وكان يكتب لرسول الله ﷺ بأخبار المشركين، وكان يحب أن يهاجر، فكتب إليه رسول الله ﷺ: امكث بمكة فمقامك بها أنفع لنا. (القرطبى)

وعد الله تعالى:

وعد الله تعالى برسوله أنهم إن خانوا ومكروا أو حاربوا، فإن الله أمكنك منهم وهو معك، وسوف يجازيهم على أعمالهم.

ويجب على المسلمين أن يجتهدوا فى دعوتهم إلى الإسلام، ويسخروهم لنصر الدين وتأييده، فإن أرادوا الكيد، فإن الله يعلم كيدهم، وسوف يعاقبهم عليه. (والله أعلم بالصواب)

إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً:

المراد من الخير فى الآية الإيمان عند أكثر أهل العلم، أى إن صدقتم فى إيمانكم مع الله، وذكر الإمام الرازى ستة أشياء ضمن هذا الخير:

1- الإيمان

2- العزم القوى على طاعة الله ورسوله ﷺ.

3- التوبة عن الكفر.

4- التوبة عن الذنوب كلها.

5- العزم على نصر الرسول.

6- التوبة عن محاربة الرسول. (التفسير الكبير)

وهذه الأمور متقاربة المعنى، ومجموعها يسمى «الخير». والمعنى: إن كان فى قلوبكم هذا الخير الذى ذكرناه، فإن الله يجازيكم عليه خيرا ويغفر لكم.

معنى الخيانة فى الآية:

{وإن يريدوا خيانتك} ما المراد من الخيانة فى الآية؟ أورد الإمام الرازى عدة أقوال فيه:

1- الخيانة فى الدين، أى الكفر بالله.

2- الخيانة فى وعدهم فى دفع الفدية.

3- الخيانة فى العهد الذى أعطوك أنهم لا يحاربونك فيما تأتى من الأيام. (التفسير الكبير)

والمهم، ما من خيانة أرادوا ارتكابها، إلا وخابوا وخسروا فيها بفضل الله تعالى.

فى الآية الأولى تطمين للأسرى بأن أبواب الرحمة والعفو مفتوحة لهم، وفى الآية الثانية تسلية للمؤمنين بالمداومة على الدين والجهاد، ولا يضرهم خيانة خائن ولا كيد كائد. ويمكن استنباط بعض الرموز الحربية من الآيتين، ومنها أن الأسرى لا يزالون يعملون لحساب العدو، ويسعون إلى الاطلاع على الأسرار ونقاط الضعف فى الطرف الآخر، فإن أسلموا وأخلصوا إيمانهم لله، أمكنهم أن يقدّموا إلى الإسلام الكثير من الخدمات فيما يتعلق بتقدّم عملية الجهاد، فإن أردتم

استبقاءهم، فأحسنوا إليهم، وتعاملوا معهم بالخلق الحسن، ليقتربوا من الإسلام، كما يجب على المسلمين أن لا يغتمّوا بخيانات المشركين ومكرهم، بل عليهم أن يفعلوا ما أمرهم الله تعالى، ويتوكلوا عليه، إنه عليم حكيم.. {والله عليم حكيم} فإنه عليم بخيانة الخائن وكيده، وسوف يهيئ بحكمته من الظروف ما تقضى على خياناتهم فيخيبوا ويخسروا. وكلما نظر المسلمون إلى كيد العدو وخيانته، جعلوا نصب عينهم أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، حتى يزيّن الله قلوبهم بنعمة التوكل على الله والثقة به. (والله أعلم بالصواب)

لاحظوا العبارة التالية:

والمعنى أنهم إن لم يخلصوا نياتهم، وما قصدوا إلا خداعک، فلا تقلق، فإن الله سيبطّل كيدهم، وسوف يمكّنک منهم فتأسرهم، كما وقع ذلک يوم بدر {وإن يريدوا خيانتک} أى إن لم يصدقوا فی إيمانهم بقلوبهم، بل أرادوا بإسلامهم خداعک. ومعنى «الخيانة» عام يشمل كل أصناف الكيد وما يبطّنون من الغدر والخيانة، و «الأمانة» ضدها.

«الخيانة مخالفة الحق بنقض العهد فی السر ونقيض الخيانة الأمانة». (راغب)

{فقد خانوا الله من قبل} أى خانوک بغدرک وخروجهم لمحاربتک. (والخيانة مع الرسول خيانة مع الله).

{فأمكن منهم} أى جعلهم الله فی يدک تأسرهم، كما فی بدر «أى أقدرک عليهم حسبما رأيت فی بدر». (روح المعانی)

{والله عليم حكيم} يعلم الخائن من غيره. {حكيم} سيتخذ من التدابير ما تُبطّل خيانتهم، حتى يتحقق معنى العلم والخيانة. (التفسير الماجدی)

{سورة الأنفال مدنية، الآيات : 72، 73، 74، 75}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئک بعضُهم أوليآء بعض. والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا. وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضهم أوليآء بعض، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله، والذين آووا ونصروا أولئک هم المؤمنون حقا. لهم مغفرة ورزق كريم. والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئک منكم وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله، إن الله بكل شىء عليم}.

ملخص معانى الآيات:

1- الأنصار والمهاجرون فيما بينهم أولياء وناصرون ورفقاء ووارثون. فهم جماعة واحدة، ولى أحدهم ولى الجميع، وعدو أحدهم عدو الجميع. المهاجر من آمن بالله وهاجر فى سبيله، وجاهد بماله ونفسه، والأنصار من آمنوا بالله وآووا النبى ٭ والذين آمنوا معه، ونصروهم.

فرابطة الإسلام من أقوى الروابط، تستند إلى الإيمان والهجرة والنصر.

2- أما الذين آمنوا ولم يهاجروا فى سبيل الله، فلا نصيب لهم مع المسلمين فى الحرب والأمن والميراث وغيرها من المعاملات. أما إن استنصروا المسلمين فى الدين لمحاربة المشركين، لزم على المسلمين نصرهم. وإن استنصروا على أولئک المشركين الذين بينهم وبين جماعة المسلمين ميثاق، فلا يجوز نصرهم حتى ينبذ إليهم ميثاقهم.

3- والكفار فيما بينهم أولياء وأنصار، يتحالفون ضد المسلمين، وينبذون خلافاتهم وراء ظهورهم فى قتال المسلمين، لذلک لا يجوز للمسلمين موالاتهم، ولا مشاركتهم فى مواريثهم، وعليهم أن يبتعدوا عن ولاءهم ومودتهم، ويقطعوا مواريثهم إن كانت بينهم وبين المسلمين قرابة نسب.

4- إن لم يعمل المسلمون بما أُمروا، تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير، والمعنى أن المسلمين إن لم تقم صلاتهم وروابطهم على أساس الدين، ولم ينشئوا لهم جماعات على أساس الإيمان والدين والهجرة والنصر والجهاد، ولم ينصروا إخوانهم إن استنصروهم، ولم يمتنعوا عن موالاة المشركين، ولم يُقدّموا رابطة الإسلام على جميع الروابط، تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير، لأن المشركين يغلبون على المسلمين ما لم يتوحّدوا مثل الجسد الواحد، فينتشر الفساد فى الأرض.

5- المسلمون الصادقون أولئک الذين آمنوا بالله، وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله، والذين آووهم ونصروا، فالمسلمون الصادقون هم الأنصار والمهاجرون، لهم مغفرة ورزق كريم فى الدنيا والآخرة، ولا فضل فى الإسلام لعرق أو سُلالة وقبيلة وقوم، إنما الفضل بالإيمان والهجرة والنصر والجهاد، وهذا هو أساس المسلم الحقيقى، وعليها تعتمد جماعة المسلمين فى الإنشاء والتكوين.

6- والذين آمنوا من بعدهم، ثم هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله مع جماعة المسلمين، فهم مثل غيرهم، مسلمون صادقون، وأعضاء فى جماعتهم، أما ما يتعلق بالمال والميراث، فهى بناء على القرابة النسبية الآن، فلا تجرى المواريث إلا فى ذوى القرابة والأرحام، هذا هو حكم الله فيها، إنه عليم حكيم.

الربط:

زادت قوة الإسلام وشوكته بعد غزوة بدر، وأسلم كثير من الأسرى، كما سعت قبائل العرب إلى مصالحة المسلمين، فساعد ذلک فى انتشار الإسلام بينهم، والمترددون من أهل مكة أسلموا، فبقى بعضهم فيها، والآخرون هاجروا إلى المدينة، فكانت الضرورة إلى قانون يحسم أمور الحرب والأمن والصلح والنصر والولاء، وقد ذكره الله تعالى فى هذه الآيات فى ثنايا فضائل المهاجرين والأنصار، أوضح فيه ضوابط تُنظّم حياة الجماعة، كما أبلغ حديثى العهد بالإسلام أن عليهم الدخول فى الإسلام بدون أىّ هم وغم، لأنه ليس دين قوم أو قبيلة وعشيرة. فكل آمن بالله، وهاجر، وجاهد فى سبيله بماله ونفسه، فهو مؤمن صادق، سواء تأخَّرَ إسلامه أو تقدم، وبغض النظر عن انتمائه القبلى والعرقى. (والله أعلم بالصواب)

قال صاحب التفسير الحقانى:

لما أفرج عن هؤلاء الأسرى بعدما أخذ منهم العهد، وكان كثير منهم قد شاهدوا نزول النصر السماوى، رغبوا فى الإسلام، ثم إن كثيرا من قبائل العرب رغبت فى الارتباط مع المسلمين بواسطة العهود والمواثيق، ولقيت الخوارق والمعجزات التى حدثت أثناء القتال اشتهارا بين العرب، حتى صار العرب ممن يجاورون مكة يدخلون فى دين الله أفواجا، فمنهم من هاجر إلى المدينة، لفرضية الهجرة، ومنهم من لم يتحمس لها لأهلهم وذويهم ومالهم، فكانت الضرورة إلى ضوابط تُنظّم العلاقة بين المسلمين والمشركين من سِلم وحِلف وولاء، فهذه الآيات تناولت تلک الضوابط إلى جانب مناقب المهاجرين والأنصار. (التفسير الحقانى)

أربع طبقات:

قال النسفى: تناولت هذه الآيات أربع طبقات من الناس: الأولى: الذين آمنوا وهاجروا، والثانية: الذين آمنوا ونصروا، الثالثة: الذين آمنوا ولم يهاجروا، الرابعة: الذين بقوا على كفرهم وشركهم. (المدارک)

كلام بركة:

لقد ذكر الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى فى الهامش أموراً مفيدة بشأن الآيات الأربع، سهّلها فى التفسير العثمانى، فيما يلى لاحظوا كلام البركة بلفظ «التفسير العثمانى»:

كان من بين الأسرى من أسلم بقلبه، ولم يقدر على الهجرة مع رسول الله ، واضطر إلى مرافقة المشركين إلى بدر رغم أنفه، فهذه الآيات أرشدت إلى الضوابط التى تُحدّد طريقة التعامل معه وأمثاله. قال الشاه عبد القادر رحمه الله تعالى: كان أصحاب النبى ينقسمون إلى طائفتين: المهاجرون والأنصار، أما المهاجرون فمن هجر الدار والعشيرة، والأنصار من آوى ونصر، فأقام النبى بينهما علاقة الأخوة والمودة. ومعنى الآية أن الحاضرين مع النبى حربهم وسلمهم واحد، إن أذن أحدهم فهو إذن الجميع، وإن منع أحدهم فهو منع الجميع، بل كانوا يتوارثون فى أول الإسلام بناء على المواخاة، أما المسلمون الذين لا زالوا فى دار الحرب بين المشركين، وللمشركين السلطان والقوة فيها، فلا يشاركهم بقية المسلمين فى سلمهم وحربهم، فإن صالحوا مع طائفة من المشركين، ليس على مسلمى دار الإسلام الوفاء به، بل يجوز لهم قتالهم إن كان فيه مصلحة لهم، لكن المسلمين بدار الحرب إن استغاثوا إخوانهم بدارالإسلام، يلزمهم نصرهم وتأييدهم إن استطاعوا، أما إن كان بين المسلمين بدار الإسلام وبين المشركين عهد، فلا يجوز لهم مناصرة المسلمين بدار الحرب حتى ينقضى الأجل، كما أن المسلمين بدار الحرب لا يستفيدون من نظام التوريث بين المسلمين بناء على المواخاة.

{والذين كفروا بعضهم أولياء بعض} أى لا مودة صادقة بين المسلم والكافر، ولا يرث أحدهما الآخر، نعم الكافر ولى الكافر ووارثه، بل الكفار كلهم مجتمعون على معاداة المسلمين، يؤذون الضعفاء من المسلمين كلما سنحت لهم فرصة، فإن لم يناصر المسلمون بعضهم بعضا، ولم يسع الأقوياء منهم إلى حماية الضعفاء، تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير، ولا يأمن المسلمون على أنفسهم وإيمانهم.

{والذين آمنوا وهاجروا} فالذين كانوا مع أمير المسلمين، كانوا أفضل حالا من غيرهم فى الدنيا والآخرة من القاعدين، ولهم مغفرة عظيمة فى الآخرة، ورزق كريم فى الدنيا من غنيمة وامتيازات أخرى.

{والذين آمنوا من بعدُ} أى كل من انضم إلى المهاجرين فيما بعد، فهم مثل «المهاجرين الأولين» باعتبار الأحكام الدنيوية، والتأخير فى الهجرة لا يؤثّر على شيء من أحكام الحرب والسلم والتوريث وغيرها، أما إن أسلم أحد أقارب قديم الهجرة، أو هاجر بعد مدة، كان أولى بميراثه، رُغم مصاحبته لغيره. (التفسير العثمانى)

حكم موالاة المشركين:

لقد ذكر القرطبى قول الإمام محمد بن إسحاق فى موالاة المشركين:

{إلاّ تفعلوه} وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمنين، تكن فتنۃ، أی محنۃ بالحرب، وما انجرّ معها من الغارات والجلاء والأسر والفساد الكبير ظهور الشرک. (القرطبی)

الهجرۃ والجهاد:

قال الآلوسی رحمه الله تعالى:

«هم المهاجرون الذين هجروا أوطانهم وتركوها لأعدائهم فی الله لله عزوجل {وجاهدوا بأموالهم} فصرفوها للكراع والسلاح وأنفقوها على محاويج المسلمين، {وأنفسهم} بمباشرۃ القتال واقتحام المعارک والخوض فی لجج المهالک. (روح المعانی)

وقال صاحب التفسير الماجدی:

«ثم هجر الوطن، الوطن وما يرتبط به مما أَلِفها، وجاء إلى دار الغربۃ، وبذل ماله فی السلاح، وعرض نفسه للقتال». (التفسير الماجدی)

وقال صاحب التفسير الحقانی:

تخلَّوا عن الأهل والأقارب والدار والوطن لله، وذلک لم يكن بأقل من قتل الذات، الإجلاء إلى الجزر النائيۃ ليس بأقل من عقوبۃ الإعدام بالشنق، إن كانوا قد تخلوا عن دينهم القديم فقد تخلوا عن وطنهم الأسبق، جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فی سبيل الله، وألقوا بأنفسهم فی المهالک. (التفسير الحقانی)

وقال صاحب تفسير الفرقان:

ومن أهم مقدمات الجهاد فی سبيل الله : الهجرۃ من دار الكفر.

والرابطۃ بين الوطن والدار قويۃ، بحيث قد يضطر المرء إلى التخلّی عن الأهل والعيال والمال والعرض والأصدقاء والزملاء، فرابطۃ الوطن والدار أغلى من جميع روابط العاطفۃ والمودۃ، لذلک تقررت هجرۃ الدار فوق جميع الهجرات، وعادۃ لا تُطلق كلمۃ «المهاجر» إلا على هجرۃ الوطن، وقد أذلها الأمم التی تعبُد المادۃ، وأبعدوا عن الكمالات الروحيۃ، ومع ذلک نالوا كافۃ المنافع الدنيويۃ. فمن ثمار الهجرات : الاستكشافات المبهرۃ، والتقنيات الثوريۃ، وانتشار الثروۃ، وعولمۃ التجارۃ، وإنشاء مستعمرات حديثۃ، وتنوع مصادر الدخل، وتقدم الدول، وهيمنۃ الشعوب، وتوسع الحضارۃ والثقافۃ. أما الإسلام فطموحاته فوق كل ما ذكرنا، لذلک قال: هاجروا فی سبيل الله وتخلوا عن الأوطان والديار والأهل والمال بحثاً عن رضا الله تعالى. ولمّا تقررت الهجرۃ مقدمۃ الجهاد فی سبيل الله، كانت الضرورۃ إلى تسليط الأضواء على ضوابط تُنظم روابط المسلمين فيما بينهم، وإلى بيان أفضلهم، وقد تناولت هذه الآيات أقساما متعددۃ منهم، وفيما يلی بيانها:

(أ) يسعى الإسلام إلى تشكيل وحدۃ قوميۃ بعيدا عن فوارق العرق والانتماء، لذلک أرشد إلى أن المهاجر من قطع علاقۃ الإنسان مع الإنسان كی يربطها مع الله، وتخلى عن وطنه وماله، وتوجّه إلى مركز المسلمين لرُقی الإسلام وتطوره، حتى ضحّى بكل ما يملكه.

(ب) ومن عاش بدار الإسلام، وآوى إليها المهاجرين المفدين بالغالی والنفيس، وفتح أبواب قصوره ومحلاته لهم، وبذل كل ما يملكه فی نصرهم، فذلک من الأنصار. (تفسير الفرقان)

قولان فى تفسير الآية:

معنى «الولاء» فى الآية الوراثة، ومعنى «الولى» هو: «الوارث» عند جمع من أهل العلم، وعند البعض «الولاء» بمعنى المودة والمحبة والنصر والتأييد، وفى خلاصة التفسير التى مضت ذكرنا المعنى وفق القول الثانى الأخير، وهذا هو المعنى الذى اختاره صاحب المدار وغيره من التفاسير. أما صاحب روح المعانى وبيان القرآن فقد أرادا من «الولاء» الإرث، وأوردوا مباحث، فمن أراد الاطلاع عليها فليرجع إليهما.

وفيما يلى نذكر تفسيرا موجزا أورده النسفى فى كتابه تيسيرا على طلاب العلم. لأنه سعى إلى الجمع بين المعنيين، ولأن آخر الآية {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} ناسخ للحكم المذكور فى الآيات السابقة أن المهاجرين والأنصار فيما بينهم يتوارثون، أما عند غيره من أهل العلم فمعنى قوله {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} هو ما ذكرناه نقلاً عن التفسير العثمانى، فيما يلى لاحظوا نص ما ذكره صاحب «المدارک»:

« {إن الذين آمنوا وهاجروا} من مكة حباً لله ورسوله {وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله} هم المهاجرون {والذين آووا ونصروا} أى آووهم إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم وهم الأنصار، {أولئک بعضهم أولياء بعض} أى يتولى بعضهم بعضا فى الميراث، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة وبالنصرة بعضهم بعضا دون ذوى القرابات حتى نسخ بقوله {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} وقيل: أراد به النصرة والمعاونة {والذين آمنوا ولم يهاجروا} من مكة {ما لكم من ولايتهم} من توليهم فى الميراث {من شيء حتى يهاجروا} فكان لا يرث المؤمن الذى لم يهاجر ممن آمن وهاجر، ولما أبقى للذين لم يهاجروا اسم الإيمان، وكانت الهجرة فريضة، فصاروا بتركها مرتكبين كبيرة دل على أن صاحب الكبيرة لا يخرج من الإيمان. {وإن استنصروكم} أى من أسلم ولم يهاجر {فى الدين فعليكم النصر} أى إن وقع بينهم وبين الكفار قتال، وطلبوا مساعدة، فالواجب عليكم أن تنصروهم على الكافرين {إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق} فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم، لأنهم لا يبتدئون بالقتال، إذ الميثاق مانع من ذلک، {والله بما تعملون بصير} تحذير عن تعدى حد الشرع.

{والذين كفروا بعضهم أولياء بعض} ظاهره إثبات الموالاة بينهم، ومعناه نهى المسلمين عن موالاة الكفار وموارثتهم، وإيجاب مباعدتهم ومصارمتهم، وإن كانوا أقارب، وأن يتركوهم يتوارثون بعضهم بعضا. ثم قال: {إلاّ تفعلوه} أى إن لم تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولى بعضهم بعضاً حتى فى التوارث تفضيلا لنسبة الإسلام على نسبة القرابة، ولم تجعلوا قرابة الكفار كلا قرابة {تكنْ فتنة فى الأرض وفساد كبير} تحصل فتنة فى الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدةً على الشرک كان الشرک ظاهرا، والفساد زائداً. {والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئک هم المؤمنون حقا} لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى. {لهم مغفرة ورزق كريم} لا منة فيه ولا تنغيص ولا تكرار، لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم

مع الوعد الكريم، والأولى للأمر بالتواصل. {والذين آمنوا من بعد} يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة. {وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئک منكم} جعلهم منهم تفضلا وترغيبا، {وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض} وأولوا القرابات أولى بالتوارث وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة {فى كتاب الله} فى حكمه وقسمته أو فى اللوح أو فى القرآن وهو آية المواريث، وهو دليل لنا على توريث ذوى الأرحام. {إن الله بكل شىء عليم} فيقضى بين عباده بما شاء من أحكامه. (المدارک)

نکتۃ:

جعل التوارث بين ذوى القرابات دون عامۃ المسلمين، يبدو أنه يؤدّى إلى تقويۃ جماعۃ المسلمين، لأن المال من أحد أسباب الفتنۃ، وبما أن ذوى القرابۃ يعيشون معا، لذلک لا تضرهم فتنۃ المال مثل ما تضر جماعۃ المسلمين. (والله أعلم بالصواب)

المؤمنون بالقرآن جماعۃ واحدۃ:

قال اللاهورى رحمه الله تعالى:

أعداء الإسلام بعضهم ينصر بعضا، {إلا تفعلوه تكن فتنۃ فى الأرض} ولا يمكن العمل بالقرآن إلا إذا قلنا بأن المؤمنين بالقرآن جماعۃ واحدۃ، وأن الكافرين به جماعۃ مختلفۃ عنهم. (حاشيۃ العلامۃ اللاهورى)

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لإقامۃ الصلات التى أمرنا الله تعالى بإقامتها بين المسلمين فى الآيات الأخيرۃ من سورۃ الأنفال، وأغدق علينا من ثمارها. آمين يا أرحم الراحمين.

ربنا تقبل منا إنک أنت السميع العليم، وتب علينا إنک أنت التواب الرحيم.

وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجممعين، وبارک وسلم تسليما كثيرا كثيرا.

5 جمادى الأولى 1427هـ

يوم الجمعۃ

سورة

التوبة

مدنية

الفاتحة

* تحقيق أسماء السورة
* غزواتها ووقائعها وعصر نزولها
* الربط بين سورة الأنفال والتوبة
* خلاصة عجيبة لمضامين سورة التوبة
* ملاحظات جهادية للشاه عبد القادر
* ملخص مضامين سورة التوبة

من أحد أشهر أسماءها «التوبة».

«لأن فيها التوبة على المؤمنين» (المدارك)

{لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت بهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التوّاب الرحيم} (التوبة 117-118).

أى إن الخروج للجهاد فى سبيل الله فى حالة العسرة رحمة خاصة من الله تعالى، لا ينزلها إلا على عباده المخصوصين، فمن تخلف عن الجهاد، عليه أن يبالغ فى التوبة إلى الله.

أسماء أخرى لسورة التوبة

وأحد أسماء هذه السورة المشهورة «سورة البراءة» والبراءة عبارة عن ترك الموالاة ورفع الأمان، أى قطع الروابط وارتفاع العصمة، وأن السيف يحسم أمرهم. فيما يلى لاحظوا النصوص التالية:

* البراءة هى: ترك الموالاة وارتفاع العصمة وزوال الأمان (الجصاص) معنى البراءة انقطاع العصمة. (كبير)

* توجيه إنذار إلى مشركى العرب بعد سلسلة من الغدر والخيانة، بانتهاء جميع العهود والمواثيق، وأن السيف يحسم أمرهم. (التفسير الماجدى)

ذكر المفسرون 13 من أسماء هذه السورة، وبما أن الجهاد فى سبيل الله من أهم مضامينها، لذلك تشير أسماءها كلها إلى بعض جوانب الجهاد، قال الإمام النسفى:

«فقال بعضهم: الأنفال وبراءة واحدة نزلت فى القتال»

وذكر بعض أهل العلم الأسماء التالية لسورة البراءة:

1- سورة البراءة 2- التوبة 3- سورة العذاب 4- المقشقشة 5- المبعثرة 6-المشردة 7- المخزية 8- المثيرة 9- الحافرة 10- المنكلة 11- المدمدمة 12- الفاضحة 13- الحامزة (كشاف، المدارك، الحقانى).

وقد سبق بيان معنى البراءة والتوبة، كذلك معنى سورة العذاب واضح، ففيها بيان عذاب الكفار والمنافقين. والأسماء البقية مرتبطة بأحوال المنافقين، فهى تُفضحهم، وتنقب عيوبهم وأمراضهم، وتكشف الستار عن مكرهم وكيدهم ومؤامراتهم. (وغيرها)

غزوات ووقائع هذه السورة وعصر نزولها

ورد فيها ذكر ثلاث من الحوادث العظيمة، وهى:

1- فتح مكة

2- غزوة حنين

3- غزوۃ تبوک

كما ورد فيها قصة هجرة النبى ﷺ بالتبعية، وقد نزلت عام 9 من الهجرة، وقال بعض أهل العلم: بعض آيات هذه السورة نزلت للترغيب فى فتح مكة، فقد سبق نزولها، وحرّض فيها المسلمين على مهاجمة مكة وفتحها، وأما الآيات التى تتعلق بغزوة حنين فهى نزلت بعد حنين، أما غزوة تبوک فنزلت بشأنها صنفان من الآيات، صنف نزل قبل الغزو، وحرّض فيها على غزو تبوک، وصنف نزل بعدها، وفيها معاتبة أولئک الذين تخلّفوا عن الغزو من المنافقين وغيرهم، وفى النهاية نزلت الآيات التى تُعلن بإنهاء جميع العهود والمواثيق التى أُبرمت مع المشركين، فهذه السورة نزلت من السنة الثامنة إلى أواخر السنة التاسعة من الهجرة وفق التحقيق المذكور.

ولمعرفة مزيد من التفاصيل حول التحقيق المذكور مع أدلته، يُرجى مراجعة تفسير «روح المعانى» و «بيان القرآن». وعلى كل حال، فالمفسرون اتفقوا على أن سورة التوبة من تلک السور القرآنية التى نزلن فى الأخير.

وروى البخارى عن البراء أنها آخر سورة نزلت. (تفسير الجلالين)

وقال ابن كثير رحمه الله:

«هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ». (تفسير ابن كثير)

وقال الشيخ عبد الله عزّام رحمه الله:

«نزلت فى العام التاسع من الهجرة، وهى تتكلم عن غزوة تبوک». (فى ظلال سورة التوبة)

ولمّا تقرر أن سورة التوبة من آخر ما نزلت من السور على رسول الله ﷺ، صحّ القول:

إن الجهاد، وأحكامه القطعية، ومعالمه الواضحة، ومشروعيته تتضح من هذه السورة.

«إن هذه السورة تمثّل الشرعة النهائية لحكم القتال فى سبيل الله». (الشيخ عزّام)

وقال صاحب بيان القرآن بشأن الغزوات والوقائع وترتيب نزول الآيات:

تناولت سورة التوبة العديد من الغزوات والوقائع التى لها حكم الغزوات، وهى ما يلى:

1- الإعلان بإنهاء جميع المواثيق والعهود التى تم إبرامها مع قبائل العرب 2- فتح مكة 3- غزوة حنين 4- الإعلان بإخراج المشركين من الحرم المكى الشريف 5-غزوة تبوک.

والسورة الماضية – سورة الأنفال – تناولت غزوة بدر وغزوة بنى قريظة، وبذلک اتضح وجه ارتباط السورتين. (مفهوم ما ورد فى بيان القرآن)

وقال صاحب تفسير الفرقان:

«يمكن لمن قرأ السورة بكاملها أن يتوصل إلى أنها آخر ما نزلت من القرآن الكريم، وقد أخرج الإمام البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال: «آخر سورة نزلت براءة» ولاشک أنها نزلت بالمدينة المنورة، وعليه اتفاق أهل العلم. وهذا الذى اختاره ابن عباس وقتادة. ويشير ترتيب الآيات والسور إلى أنها نزلت بكاملها سنة تسع من الهجرة، نعم لا مفر من الاعتراف بأن آياتها الأخيرة كانت مما نزلت فى آخر هذا العام، لأنها هى الآيات التى تلاها على بن أبى طالب أمام المشركين يوم الحج، ليعلموا أن الإسلام لن يعاهدهم من جديد فى شىء، والآيات من 29 إلى آخر

السورة نزلت قبل غزوة تبوک أو بعدها مباشرة فى الغالب، وليس من المستبعد نزولها أثناء القتال، لأن تبوک من الغزوات التى وقعت سنة تسع من الهجرة. (تفسير القرآن)

ارتباط سورة التوبة بسورة الأنفال:

بفضل توجيهات سورة الأنفال لمّا أتقن المسلمون قوانين الحرب، آذَنَ بالحرب فى هذه السورة العرب أولاً، وعامة الأعداء ثانيا، وأبلغهم أنهم إن أرادوا إعاقة طريق الإسلام، وتشديد الخناق عليه، فإن الله سبحانه وتعالى كما أعزَّ المسلمين بالفتح والنصر فى أرض العرب واستيصال الباطل من جذوره، فإن دحر الباطل سيستمر فى كافة أرجاء المعمورة، فقد قال الله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر}. (تفسير المدارک)

1- الربط بين السورتين باعتبار أنهما تناولتا الجهاد. (تفسير المدارک، وتفسير الفرقان)

2- فى آخر سورة الأنفال كان تشكيلا لجماعة المسلمين الأممية، والأخوة العالمية، وعقب ذلک جاء الإعلان بمحاربة كافة أعداء الإسلام.. كما جاء فى تفسير الفرقان:

كان قد قال الله تعالى: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئک بعضهم أوليآء بعض}.

وكان هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: {أولئک هم المؤمنون حقا. لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم}.

وبعد تكوّن الوحدة الدينية والسياسية بين المسلمين، جاء الإعلان بمحاربة الأعداء فى سورة التوبة: {برآءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين} (تفسير الفرقان).

3- وكان الأمر بالإعداد للجهاد فى سورة الأنفال: {وأعدُّوا لهم ما استطعتم} (الأنفال 60) وفى هذه السورة توجيه اللائمة إلى المنافقين على أنهم لا يستعدون للجهاد: {ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عُدَّةً} (التوبة).

قال الإمام الآلوسى رحمه الله:

«وإنه تعالى أمر فى الأولى (الأنفال) بالإعداد فقال سبحانه: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} (الأنفال 60) ونعى هنا على المنافقين عدم الإعداد بقوله عزوجل: {ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة} (التوبة 46)». (روح المعانى)

4- فى آخر سورة الأنفال أمر المسلمين بموالاة بعضهم بعضا، وبترک موالاة الكفار والمشركين، وهنا فى سورة التوبة زاد فى توضيحها وبيانها، وأعلن بأن الله ورسوله بريئآن عن المشركين، كما قال صاحب روح المعانى:

«وأنه سبحانه وتعالى ختم الأولى بإيجاب موالاة المؤمنين بعضهم بعضا، وأن يتقاطعوا الكفار بالكلية، وصرّح جل شأنه فى هذه بهذا المعنى بقوله: {برآءة من الله ورسوله} (التوبة : 1)».

5- ووجه مناسبتها للأنفال أن فى الأولى قسمة الغنائم، وجعل خمسها لخمسة أصناف على ما علمت، وفى هذه قسمة الصدقات، وجعلها لثمانية أصناف على ما ستعلم إن شاء الله تعالى. (روح المعانى)

6- سورة الأنفال تناولت الالتزام بالعهود والمواثيق وما يتعلق بالصلح.. {وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكَّل على الله} والآن بعد أن نقض الكفار العهود والمواثيق مراراً وتكراراً، وداموا على إيذاء المسلمين، جعل المسلمين فى سورة التوبة غير مقيّدين ببنود الاتفاقيات السابقة. (تفسير القرآن)

وقال الآلوسى: وفى الأولى أيضاً ذكر العهود وهنا نبذها.

7- فى سورة الأنفال ذكر غزوة بدر، وهنا ذكر فتح مكة، والحنين، وتبوک، وآذن بالحرب مع قبائل العرب كلها بشكل قطعى، وكان المسلمون ضعفاء يوم بدر، ومع ذلک استمروا فى الجهاد، وواصلوا الاستعداد حسبما ورد فى سورة الأنفال، حتى استطاعوا أن يعلنوا بخروج كل كافر ومشرک من جزيرة العرب، ومن هنا عرفنا أن المناسبة بين السورتين – الأنفال والتوبة – من ناحية تقوية المسلمين والنصر والظفر والانتصار والتمكن من الأرض، بأن لا يتهاون المسلمون عن الاستعداد حتى فى حالات الضعف، فإن فعلوا تحقق لهم النصر الذى أشار إليه فى سورة التوبة، وباختصار يمكن للمسلمين التوصل إلى العظمة والشوكة التى ذكرها الله فى سورة التوبة إن عملوا بها. (والله أعلم بالصواب)

8- هناک وجوه أخرى كثيرة تربط السورتين بعضها ببعض، منها أن سورة الأنفال تناولت قصة بدر، ومن دروسها أنكم أيها المسلمون لا تقلقوا لقلتكم أو ضعفكم، وسورة التوبة تناولت قصة الحنين، وفيها أنكم لا تتبختروا لزيادة عددكم.

فى سورة الأنفال أشار إلى أن المشركين بمكة لا يُعظّمون حرمات الكعبة، فلا يتأهلون لخدمتها، وفى سورة التوبة أشار إلى طهارة الكعبة وتزكيتها وفک أسرها من قيدهم. فى سورة الأنفال أمر بالقتال للقضاء على الفتنة، وفى سورة التوبة تطبيق عملى له، بأن الفتنة ترونها كيف تم استئصال جذورها من الجزيرة العربية، وتحررت أرض الحجاز منها، فإن استمر المسلمون فى القتال فى سبيل الله، تحققت لهم نتائج مشابهة بكل بقعة من الأرض. فى سورة الأنفال كان بيانا لعدو قريب، إذ كانت ساحة القتال ببدر أقرب من المدينة، فإن سورة التوبة تذكر قصة تبوک، وكانت بعيدة عن المدينة كثيرا، ففيها إشارة إلى ضرورة التوجه إلى جميع الجبهات والمواقع القتالية، سواء كانت قريبة أم بعيدة، ولذلک للدعوة والعظمة والغلبة والانتصار.

فى سورة الأنفال أشار إلى ضرورة الاستمرار فى الجهاد، حتى وإن كان عددهم أقل، وفى سورة التوبة أيضاً أشار إلى الاستمرار فى الجهاد حتى وإن كانوا أكثر منهم، والغريب فى الاثنين أنهما أشارا إلى قصة الهجرة، وكيف نصر الله نبيه. والمعنى أن النصر والفتح ليس إلا بإذن الله، وهو الحافظ لدينه، أما الذين ينصرون دينه فذلک من حسن حظهم، وإلا فقد قرّر الله تعالى نصر دينه وغلبته، وأكبر دليل عليه هو نصره العجيب لنبيه يوم الهجرة. (والله أعلم بالصواب)

نكتة غريبة:

نزلت سورة الأنفال فى الأيام الأولى من الهجرة، أى أيام غزوة بدر، أما سورة التوبة فأغلب آياتها نزلت فى الفترة الزمنية المجاورة لعام تسع من الهجرة، والغريب المدهش أن ما بين أسلوبيهما

تقارباً، وهو خلاف ما تعارفنا عليه من أمور دنيانا، أن ما من حركة إلا وكانت قوية وشديدة فى أيامها الأولى، ثم طرأ عليها الفتور بعد مرور زمن، لكن القرآن كان يتحدى المشركين عندما لم يكن لديه أكثر من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، ولم يتغير شيئ من تحدياته بعدما صار لديه الرجال بعشرات الآلاف، فما من شخص يتأمّل هذه النكتة بعدل إلا ويصرخ بأن القرآن كلام الله، وليس كلام البشر. (والله أعلم بالصواب)

تلخيص غريب لبعض العناوين الجهادية من سورة التوبة:

سورة التوبة مشحونة بمعارف الجهاد ومضامينه من أولها إلى آخرها، وبما أنها من إحدى السور التى نزلت فى الأخير، لذلک جميع مضامينها محكمة قطعية غير منسوخة، وقد سبق أن أشرنا فيما مضى إلى أنها تتناول العديد من أهم غزوات الإسلام، مثل فتح مكة وغزوة تبوک وحنين. قال أهل العلم: فى قوله تعالى {قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم} تحريض على فتح مكة، وفى قوله {انفروا خفافا وثقالا} تحريض على الاستعداد لأصعب رحلات الجهاد، وهى غزوة تبوک، كأن هذه السورة تحتوى على كامل منهج الجهاد ونصابه، من فريضة الجهاد، والحث عليه، وأسباب وجوبه، وحِكَمه، وفضائله، وفوائده، والوعيد على تركه، وفضائل الشهادة، والجهاد ضد المشركين وأهل الكِتاب، وتعامل المنافقين مع الجهاد، وأنواع مخالفيه من المنافقين، وحِيَلُهم المعروفة، وإنشاء مركز إسلامى خالص، وفضيلة الهجرة والنصرة، وفضيلة إنفاق المال فى الجهاد وأهميته، وطريقة القتال، وسلوكيات المنافقين وطُرق معالجتها، وغيرها الكثير...

وتيسيرا على طلاب العلم نورد فيما يلى ملخصاً لجانب مهم من قضايا الجهاد التى شملتها هذه السورة العظيمة المباركة، كما نكتب رقم الآية التى جاء فيها المضمون المذكور.

1- سبع منافع وحِكَم للجهاد فى سبيل الله:

القتال عبارة عن الحرب، وهل فى هذا القتال شىء من المنافع والمصالح للبشرية؟ خاصة لأن الله سبحانه وتعالى أمر به؟ نعم، القتال فى سبيل الله يشتمل على فوائد وحِكَم عظيمة سواء كانت ظاهرة أو باطنة، فقد تناولت الآية الرابعة عشر والخامسة عشر سبع فوائد رفيعة.

2- خمسة أمور لايمكن لها تبرير التخلف عن الجهاد:

هناک خمسة أمور يتستر وراءها كل من أراد التخلف عن الجهاد، أشارت إليها سورة التوبة، وأكّدت على أنها لا تجدر لتكون سببا للتخلف عن الجهاد:

(1) لا نتوقف عن الجهاد ضد أعداء الإسلام إن كانوا يقومون ببعض أعمال خيرية، لأن مشركى مكة كانوا سدنة الكعبة، يجاورون الحرم، ومع ذلک لم يتوقف الجهاد ضدهم. الآية 17.

(2) لا يمكن التخلّى عن الجهاد بحجة أن المسلمين بحاجة إلى إحياء المساجد بالذكر والفكر والتلاوة. الآية 19.

(3) لا يتوقف الجهاد مع الأعداء إن كان بعضهم يرتبط ببعض المسلمين بالقرابة والنسب. الآية 23.

(4) لا يمكن التخلّى عن الجهاد بسبب قلة العدد. الآية 25.

(5) لا يجوز التخلى عن الجهاد إن كان بالجهاد تلحق أضرار اقتصادية ومالية بالمسلمين، بأن كان المسلمون يتلقون من الأعداء بعض المساعدات المالية، وعند الجهاد معهم امكانية تعرضها للتوقف، فلا يُلتفت إلى ذلك، ويواصل جهادهم مع الأعداء. الآية 28. (معنى تقرير اللاهورى رحمه الله)

2- قتال أهل الكتاب:

ويجاهد المسلمون مع اليهود والنصارى من أهل الكتاب.. وقد ذكرت سورة التوبة التفاصيل، وأن الجهاد معهم إلى متى سيستمر؟ وما الذى يدعو إلى الجهاد معهم؟ وما هى العيوب التى ظهرت فيهم حتى وجب محاربتهم؟ (وإلا سوف تنتشر عيوبهم تلك فى العالم) الآية 29 إلى 35.

4- من النفاق استثناء الذات عن الجهاد:

إن من علامات النفاق أن يبتعد المرء عن الجهاد بدون عذر شرعى، أو يستثنى نفسه منه، وهذه القضية المهمة تبتدئ من الآية 45.. أشارت سورة التوبة إلى خمسة أصناف من الناس الذين يستثنون أنفسهم من الجهاد، ويقعون فى مرض النفاق، وهم:

(1) الذين لا يتجهّزون للخروج فى سبيل الله لقتال أعداء الإسلام، وإذا حان وقت الخروج يلجأون إلى حيل كثيرة، مطالبين بالإعفاء. (الآية 45، 46)

(2) الذين يقولون : ما فائدة خروجنا للجهاد؟ نحن ضعفاء، لا ننفعكم، وقد تتضررون بنا، أو نخاف أن نقع فى فتنة أو محنة. (الآية 49)

(3) الذين لا يجاهدون إلا للمال، فإن وجدوا مالا أقل مما كانوا يرجونه، تَبَدَّلوا وسخطوا.

(4) الذين يحملون أفكارا مناهضة لما جاء به رسول الله ، ويُسيئون الظن فيه، ويعتبرون من الخطأ قتال الناس لأجل دين محمد . (الآية 61)

(5) الذين يتعهدون أنهم سوف يجاهدون فى سبيل الله إن كانت لهم سعة من المال، ثم إن وسّع الله فى مالهم انهمكوا فيه، ونسوا الجهاد فى سبيله. (الآية 75، 76) (معنى ما ذكره اللاهورى رحمه الله)

5- الجهاد يكشف النقاب عن المنافقين:

لم يتم كشف النقاب عن المنافقين الذين يتسترون باسم الإسلام، ويعيشون مع جماعة المسلمين حتى طُولبوا بالمشاركة فى واحدة من أهم فروض الإسلام بالنفس والمال، وهو الجهاد فى سبيل الله، فمضامين سورة التوبة واضحة وبيّنة ومفصّلة تُساعد فى إدراك النفاق والمنافق، كما جاء فيها بيان لأنواع المنافقين، فمثلاً تناولت الآية 101 أولئك المنافقين الذين لا يمكن التسامح عنهم،

لأن نفاقهم فى العقيدة، وغايتهم تفريق كلمة المسلمين وشق عصاهم، أما الآية التى تليها فقد تناولت أولئک المنافقين الذين يمكن التغاضى عنهم، لأن نفاقهم عادى، دون عقدى، أما الآية 67 فقد تناولت غايات المنافقين وعقوباتهم، والآية 107 تناولت مسجد الضرار، وأن المنافقين الذين يعيشيون بين المسلمين كيف كانوا يمدون المشركين بالمدد والمأوى والمعقل. فباختصار، تُعتبر آيات سورة التوبة حرفا نهائيا لمعرفة أفكار المنافقين وسلوكياتهم، وطريقة تعاملهم مع المسلمين، أشرنا إليها ببعض الأمثلة التى ذكرنا فيما مضى، وسوف تتضح مزيد من التفاصيل عند تفسير الآيات وتوضيحها وبيان معارفها بإذن الله تعالى، لأننا إن سعينا إلى تدوين خلاصتها فقط، طال الكتاب معها، ويجب على كل مسلم أن يقرأ سورة التوبة ويفهمها جيداً للحماية من النفاق والمنافقين، والله أعلم بالصواب.

إن من أهم موضوعات سورة التوبة : ابتعاد المنافقين عن الجهاد، ونفورهم منه، وتجانبهم عنه، وأعذارهم السخيفة كى لا يشاركوا فيه.

الوعيد الشديد على ترک الجهاد:

ومن أحد موضوعات سورة التوبة الوعيد على ترک الجهاد، والوعيد المذكور كان فى سياق ذكر أحداث غزوة تبوک، كما أن فيه تحديدا لمعنى الجهاد، أى ما ذلک الجهاد الذى عوتبوا على تركه؟ فالوعيد المذكور بشأن ترک الجهاد ورد فى الآيات (13) ، (14) و (24) و (38) و(39) و(42) و(45) و(46) و(47) و(93) و(95) وغيرها كثير من الآيات، وقد ورد وعيد شديد للمنافقين فى سورة التوبة على ترک الجهاد، فإن سعينا إلى جمعها كلها، طالت القائمة. أرجو من كافة الإخوة المسلمين أن يقرءوا تلک الآيات التى ذكرنا رقمها بكل تأمل وتدبر، ثم يقوموا بإصلاح أفكارهم وأعمالهم وعقيدتهم فى ضوءها.

فريضة الجهاد وفضيلتها:

تناولت سورة التوبة بيان فرضية الجهاد فى سبيل الله، وأفضلية الجهاد على غيره من الأحكام، يتضح ذلک بملاحظة الآيات الآتية:

(41)، (19)، (20) (21) (22) (88) (89) (111) (112) (130) (131) (39) (36) (44) (71) (72) (73) (117) (123).. وغيرها كثير من الآيات.

فلو قرأنا هذه الآيات مع معانيها وتفسيرها وتوضيحها، واستوعبناها، لكانت كافية لمعرفة فرضية الجهاد وفضيلته وعظمته.

8- تعليم طريق القتال:

أشارت سورة التوبة إلى طُرق محاربة الكفار.

مثلاً لاحظوا الآية 12 و 123.

9- تتمة سورة الأنفال ومركز إسلامى خالص:

فى نهاية سورة الأنفال تم تشكيل جماعة إسلامية أممية، وبما أنها بحاجة إلى مقر يخصها ويخلص لها، فجاء اختيار أرض الحجاز لهذا الغرض، وبيّن خارطتها التنظيمية الكاملة فى سورة البراءة، وبناءً عليها أنشأه النبى ٠ وخلفاءه الذين جاءوا من بعده، وقد ساعد ذلك فى انتشار الإسلام فيما بعد، فهناك توجيهات صريحة فى الآيات الأولية من سورة البراءة بشأن إخلاص المسلمين إيمانهم لله تعالى، وإقامة نظام إسلامى متكامل على وجه الأرض.

ولاستيعاب ما ذكرنا لاحظوا النص الجميل الآتى:

«هناك ارتباطاً كاملا بين مضامين سورة الأنفال والبراءة بحيث يمكن وصف سورة البراءة بأنها تتمة وتكملة لسورة الأنفال، تناولت سورة الأنفال غزوة بدر وما يتعلق بها من أمور، وقد وصف القرآن يوم بدر بيوم الفرقان، لأن فيه تميَّزَ الحق من الباطل، والإسلام من الكفر، والموحدون من المشركين. معركة بدر تمثل حجر الأساس نحو تشكيل مجتمع إسلامى أممى قوى، ومقدمة لتأسيس حكومة ربانية. وفى {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض} إن كان الكفر كياناً موحداً، فضده الإسلام كيّان مستقل، ونبّه على أهميته فى آخر سورة الأنفال بلفظ {إلاَّ تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير} وهذا يقتضى صراحة وجود مركز قوى ضخم حسّى على الأرض، ولا يصلح لهذا المركز إلا أرض الجزيرة العربية وقلبها مكة المكرمة. ثم أشار فى آخر الأنفال إلى أن المسلمين الذين لم يهاجروا من مكة وغيرها من الأقطار، وظلوا يعيشون بين المشركين، ليس على قاطنى دار الإسلام من المسلمين ولايتهم ولا مودتهم. حيث قال: {ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا}. نعم يمكنهم تقديم المساعدات الدينية إليهم إن استطاعوا، وينتج عنه عدم إمكانية تقوية أواصر الأخوة والولاية فى مركز الإسلام إلا بأمرين: إما أن يهاجر المسلمون العرب إلى المدينة ويتركوا أوطانهم، وينضموا إلى الأسرة الإسلامية، وإما أن يقوم المسلمون الأحرار من قاطنى دار الإسلام بتوجيه ضربة قوية إلى الكفر بحيث تتم تسوية أرض الجزيرة وتزول جميع العراقيل التى أقامها المشركون، فلا يضطر أحد من المسلمين إلى الهجرة، أى تتحول الجزيرة العربية إلى مقر آمن وقوى خالص للأسرة الإسلامية الأممية، بحيث يرتبط به مستقبل الأمة الحكيم والفخم. وهذا الوجه الأخير كان أولى للقضاء على بذور الفتن والفساد التى تؤرّق مضاجع المسلمين من حين لآخر، حتى يتطهر المركز الإسلامى من مؤامرات الأعداء الداخلية، ومن حوادث الغدر والخيانة التى يمارسونها إذا سنحت لهم الفرصة، لكى يقدر المركز على توجيه الدعوة إلى بقية شعوب العالم للانضمام إليه فى ظل الأمن والاستقرار، ولتحقيق هذا الهدف الأسمى والغاية المثلى خطا المسلمون إلى بدر الخطوة الأولى عام اثنين من الهجرة، وانتهت تلك الخطوات المباركة يوم فتح مكة عام ثمانية من الهجرة، وما من فتنة كانت تعرقل طريق نشر الإسلام وحمايته إلا وتم القضاء عليها يوم فتح مكة، وكانت الحاجة إلى تطهير الجزيرة العربية معقل الأسرة الإسلامية العالمية ومقر الحكومة الربانية من براثن الفتن، حتى تتوحد كلمة جزيرة العرب أثناء دعوة الشعوب إلى حظيرة الإسلام، ولا يقدر ضعف داخلى أو الفوضى

الباطنية على الإضرار بالهدف الأسمى بمساعدة القوى الخارجية. ومن هنا وجب صبغ معقل المسلمين – جزيرة العرب – بالصبغ الإسلامى البحت، سعيا إلى إبعادها عن كافة أشكال الضعف الداخلى والفتن، وللنهوض بها إلى موقع الدعوة الإسلامية العالمية، فلا يخرج من قلبها وروحها إلا صوت الحق، وتتحول إلى معلم وهادى للعالم، ويتم القضاء على كافة أوجه التناحر بين الإيمان والكفر. هذا هو خلاصة مضامين سورة البراءة، فقد تطهرت الجزيرة العربية من دنس الكفر والشرك خلال مدة قياسية، وتكفلت لنشر النور والهدى والأخوة الإسلامية العالمية فى العالم كله. فلله الحمد على ذلک. وباختصار، أنهت سورة البراءة الأمر الذى بدأته سورة الأنفال. (التفسير العثمانى)

هذه عبارة مفيدة وجامعة، ويلزم على طلاب العلم أن يدققوا فى تعبيرات سورة التوبة للتوصل إلى روحها وإلى طبيعة الإسلام الحقيقية، وفى ضوءها يطالع مضامين سورة البراءة.

10 – ستة أجزاء من سورة البراءة:

أشار الشيخ عبد الله العزام إلى أن سورة البراءة تحتوى على ستة موضوعات مهمة:

1- المقطع الأول: من الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين، وهذه كلها تعلن الحرب على مشركى الجزيرة العربية الخ.

2- المقطع الثانى: حملة شديدة على أهل الكتاب، مبررات قتالهم.

3- المقطع الثالث: تهديد ووعيد وتأنيب وتبكيت للذين يقعدون عن الجهاد. {ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض} (التوبة 38).

4- المقطع الرابع: وهو نصف السورة تقريبا كشف صفات المنافقين {ومنهم من عاهد الله} {ومنهم الذين يؤذون النبى} {ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى} {والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا} إلى آخره. هذا نصف السورة تقريبا، سميت بالبحوث، لأنها: بحثت عن عيوب المنافقين، قال ابن عباس: ما زالت آيات التوبة تنزل وتقول منهم ومنهم حتى قلنا لا تدع أحداً بينت نهائياً صفاتهم ومؤامراتهم، تخللهم فى داخل المجتمع المسلم، بث الأراجيف، الفساد، تثبيط المسلمين عن الجهاد.

5- والمقطع الخامس: تصنيف المجتمع المسلم.

(1) السابقون الأولون.. أى من سبق إلى الإيمان والهجرة من المهاجرين والأنصار (2) ضعفاء الإيمان الذين خلطوا أعمالاً حسنة وأخرى سيئة (3) المنافقون (4) الذين أُجِّلَ توبتهم (5) الذين أسسوا مسجد الضرار (6) أصحاب بيعة الرضوان (7) أصحاب بدر (8) أصحاب أُحد وغيرهم.

6- المقطع السادس: هو مقطع طبيعة البيعة لهذا الدين : {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة} طبيعة هؤلاء الذين لا يتخلفون عن رسول الله ٠ {ما كان لأهل المدينة ومَن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم..} (التوبة 120).

وهذا كما فى قوله تعالى: {إن الله اشترى..} وقوله: {ما كان لأهل المدينة..} الآية. (فى ظلال سورة التوبة)

10- ملاحظات جهادية فى سورة التوبة للشاه عبد القادر:

هذه بعض الملاحظات التى توصلنا إليها فى سورة التوبة من خلال دراستنا لما كتبه الشاه عبد القادر رحمه الله:

لا أمان بدون الصلاة والزكاة:

لقد أكّد النبى ؐ على أن العبرة بالظاهر دون الباطن فى الأعمال الدنيوية، فمن كان مسلما فى ظاهره كان كغيره من المسلمين، دمه وماله حرام، ومن علامات الإيمان فى الظاهر : الإقرار بالإيمان، والتوبة من الكفر، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فمن لم يصل أو لم يؤد زكاة أمواله فقد زالت حرمته، لذلک قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانعى الزكاة، وسوّاهم مع الكفار، وقال: الزكاة حق المال..(الآية 5).

إعلان البراءة بعد عام من فتح مكة:

بعد فتح مكة بعام جاء الحكم بالامتناع عن الصلح مع المشركين، وأعلنوا يوم الحج الأكبر بالبراءة عن المشركين. (الآية 1)

لا ذمة لمن ينتقد الإسلام:

كل ذمى ينتقد الإسلام ويعيبه، لا ذمة له. (الآية 12)

الجهاد أعلى مرتبة من القرابة النسبية:

قال على بن أبى طالب للعباس: لو استعجلت الهجرة لشهدت الغزو مع رسول الله ؐ، فقال: كنّا فى أعمال الخير، نخدم الحجيج، ونعمر المسجد الحرام، فنزلت الآية، وأشارت إلى أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا تساوى الإيمان بالله واليوم الآخر، ولا عبرة بخدمة المشركين، ومن هنا عرفنا أن العمل الصالح أفضل من قرابة النبى ؐ، لأن العباس كان قريبا للنبى ؐ، وفاق عليه على بن أبى طالب بعمله.. (الآية 19)

الجهاد ضد أهل الكتاب:

فيما مضى كان الأمر بمحاربة المشركين وطردهم من البلاد الإسلامية، والآن يأمر بمحاربة أهل الكتاب، لأنهم ينكرون دين الحق، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر كما يجب، إلا أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فتلك تؤخذ منهم (إن استسلموا). أما مشركوا العرب فلا تقبل منهم الجزية، ومن غيرهم يجوز عند الحنفية، والجزية تُضرب عليهم حسب ظروفهم، من نصف درهم وربعه وثلثيه، ومعنى {عن يد وهم صاغرون} أى لا يتعادلون مع المسلمين فى اللباس والمظهر الخارجى والسير على الطريق وحمل السلاح. (الآية 29)

الدرس المستفاد من غزوة حنين:

لقّن الله تعالى المسلمين درساً فى غزوة حنين، وهو أن لا يتكلوا على الأسباب الظاهرة. (الآية 25)

معنى: إطفاء نور الله بأفوافههم.. الشائعات

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، أى بالشائعات الكاذبة، ويمنعوا طريق انتشار الإسلام. (الآية 32)

الإسلام يعلو..

وأراد الله أن يتم نوره ويعلو دينه، فهو عالى عند العقل وعند الرب. (الآية 23)

يجوز محاربة المشركين فى الظروف كلها..

ونستنبط من هذه الآية جواز محاربة الكفار والمشركين فى الظروف والأوقات كلها، ومحاربة المسلمين فيما بينهم لا تجوز، وفى الأشهر الأربعة المحرمة أكثر شناعة وقبحا، هذا إن كان الكفار يعظّمون حرمتها، وكفّوا أيديهم عن محاربة المسلمين، وامتنعوا عن ابتداء القتال معهم. (الآية 36(

بيان أحوال المنافقين أهم موضوع السورة:

من هنا كان بيانا لغزوة تبوك، وكان العدو يبدو قويا، والسفر بعيدا، والإعداد متواضعا، فطفق المنافقون يعتذرون بالحيل الكاذبة، حتى أذن لهم جميعا، ولمّا رجع النبى ؐ بعد الظفر والانتصار على العدو ندم المنافقون على ما فعلوا. تناولت السورة أحوال المنافقين بصفة عامة. وتشتمل عليها الآيات من 38 من إلى آخر السورة.

اعتذار غريب من منافق:

جاء جد بن قيس إلى رسول الله ؐ، وقال أخاف أن أفتتن بنساء الروم إن شهدتُ معك الغزو، فإنهن من أجمل النساء، فائذن لى فى القعود عن الجهاد، وسوف أنصرك بالمال. (الآية 49) قيل له: أنفق طوعا أو كرها لن يُتقبل منك. (الآية 53)

مال الفاسق وأولاده وبال عليه:

لا تستغرب ما أعطى الله الفاسق من مال وولد، فإنها وبال عليه، إذ قلبه لا يهدأ يتفكر فيها، ولا يسير على طريق الخير خوفا من حرمانه من نعمة المال والولد. (الآية 55)

يجوز صرف أموال الزكاة للمجاهد:

والإنفاق فى سبيل الله، أى فى الجهاد. (الآية 60)

الاستهزاء بالدين نفاق:

من سخر بشيء من أمور الدين، صار منافقا، سواء كان بقلبه أو بظاهره، لأن المسلم يجب أن يتأدَّب مع أمور الدين ظاهراً وباطناً. (الآية 64، 65)

انجازان شريران للمنافقين:

سعى المنافقون إلى إحداث زعزعة وبلبلة بين المسلمين على أساس اللسان، وقتل النبى ﷺ. (الآية 74)

الفرق بين المذنب والمنافق:

المذنب من يرى ذنبه ذنبا ويندم عليه، وهذا يستفيد من شفاعة النبى ﷺ له واستغفاره، أما المنافق فلا ينفعه استغفار النبى ﷺ، وإن استغفر له سبعين مرة، فمن لا يرى الذنب ذنبا، ويسوى بين فعل وترك ما أمر الله به، ويطعن من يطيع ربه، فهو منافق سيئ العقيدة. (الآية 80)

من السابقون؟

السابقون من كان قد أسلم قبل غزوة بدر، ومن أسلم بعدها فهو تبع لهم. (الآية 100)

المتخلف عن غزو ينتظر غيره:

من تخلّف عن غزوة، عليه أن ينتظر الأخرى حتى يشهدها، إما فى عهده ﷺ المبارك، وإما فى العهود التالية من الخلفاء الراشدين المهديين. (الآية 105)

وبال الظلم:

من وبال الظلم أن يُحرم صاحبه من الحسنات، وإن أرادها. (109)

ثلاث معانى للسائحين:

معنى السائحين: المبتعدون، فهم إما يصومون أو يهاجرون أو يزهدون فى الدنيا. (الآية 112)

فليجدوا فيكم غِلظة:

أى أن يلاحظ الكفار فيكم قوة لقتالهم وغلظة، أو عدم الرغبة فى التعامل معكم، فلا يتعامل بالرفق مع الكافر إلا إذا رآه يرغب فى الإسلام. (الآية 123)

لا يُعرف المنافق إلا عند الجهاد:

لا يمكن معرفة المنافقين إلا عند الجهاد والقتال عادة. (126)
لأنهم يتخلفون عنه، ويخالفونه.

يحب النبى • أن تكثر أمته:

{حريص عليكم} أى كان حريصا على أن تكثر أمته. (الآية 129). (موضح القرآن، تسهيل)

نص ما كتبه صاحب المدارك الجامع

لها أسماء: براءة، التوبة، المقشقشة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكلة، المدمدمة، لأن فيها التوبة على المؤمنين وهى تقشقش من النفاق، أى تبرئ منه، وتبعثر عن أسرار المنافقين، وتبحث عنها، وتثيرها وتحفر عنها، وتفضحهم وتنكلهم وتشردهم وتخزيهم وتدمدم عليهم، وفى ترك التسمية فى ابتدائها أقوال، فعن على وابن عباس رضى الله عنهم أن بسم الله أمان وبراءة نزلت لرفع الأمان، وعن عثمان رضى الله عنه أن رسول الله • كان إذا نزلت عليه سورة أو آية قال: اجعلوها فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا، وتوفى رسول الله • ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت قصتها تشبه الأنفال، لأن فيها ذكر العهود، وفى براءة نبذ العهود، فلذلک قرنت بينهما، وكانتا تدعيان القرينتين وتعدان السابقة من الطوال وهى سبع، وقيل: اختلف أصحاب رسول الله • فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة نزلت فى القتال، وقال بعضهم: هما سورتان فتركت بينهما فرجة لقول من قال هنا سورتان، وتركت بسم الله لقول من قال هما سورة واحدة. (المدارك 483)

ملحوظة:

ذكر العلامة الآلوسى رحمه الله تعالى مزيداً من أسماء سورة البراءة، وذكر مطالبها ومعانيها، فليرجع إلى تفسيره «روح المعانى» من أراد التوسع فيها.

فائدة:

أورد أهل العلم مباحث طويلة على عدم ذكر البسملة فى أول سورة البراءة، ومن شاء معرفتها فليرجع إلى التفاسير الموثوقة.

خلاصة مضامين سورة التوبة المأخوذة من تفسير الفرقان

كان إعلانا بالحرب مع المشركين فى أول السورة، وبعد المقاطعة أُمهلوا لمدة أربعة أشهر فى الآية الثانية، وجاء الإعلان بالمقاطعة يوم الحج الأكبر، لما كان الحج يجمع العرب من كافة الأقطار، ولأنهم يحملون تلك الرسالة إلى القبائل أجمع، أما الآية السابعة فقد أشارت إلى الأسباب التى وراء المقاطعة والحرب، وبعد توجيه دعوة الحرب إلى المشركين وجّه دعوة إلى المسلمين بالجهاد فى سبيل الله، إذ فيه سر حياتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة، وقبل بدء المعركة هرب كثير من الناس منها بحُجج واهية، ففى الآية السابعة أشار إليها وفَنَّدها، وأكّد على أنها لا تجدر بالاهتمام، وهكذا زالت الشبهات كلها.

والآن قد يتساءل أحد أن الحرب ستكون مع من؟ ففى الآية التاسعة أوضح هذه المسألة، وأشار إلى أن الأعداء يسعون دائماً إلى القضاء على الوجود الإسلامى، لذلک عليهم أن يستعدوا لقتالهم فى الأوقات كلها، ولا يتوقع انتهاء حالة الحرب بين الجانبين، لذلک أشارت الآية التاسعة والثلاثون بعدم منح الإجازة للمقاتلين إلا لمدة أربعة أشهر من كل عام، كى يأخذوا قسطاً من الراحة، ويقدروا على تنظيم شئون منازلهم، (لا شک أن منح الإجازة لمدة أربعة أشهر صحيح، لكن الجمهور لا يرون بقاء حرمة القتال فيها) الأعداء أحاطوا بالمسلمين من الجهات كلها، والعالم كله يعادونهم، لذلک أكدت الآية الثامنة والثلاثون على ضرورة استعداد جميع المسلمين لمحاربتهم بدون استثناء، ولا يتخلف أحد بحجج واهية كاذبة، بل يهاجم على العدو إن سنحت لهم فرصة. وفى الآية الحادية والأربعين أكّد على ضرورة الاستعداد للجهاد دائماً، لأن أحداً لا يدرى متى يهاجم العدو، والعالم بأجمعه يعادى المسلمين، لكنهم يمتنعون عن الاستعداد لقضاء بعض أوطارهم الشخصية، ويسعون إلى الاستثناء منه، وليعلموا إنهم سوف يعاقبون معاقبة جماعية للتخلف عنه، فالآية الرابعة والأربعون أشارت إلى هذه المطالب والمعانى.

الباب الثانى

ذوى النفاق:

فيه إشارة إلى الأقسام التالية من المنافقين:

المعركة بدأت، والعدو يقاوم، وذووا النفاق يريدون الهروب من القتال بحِيَل كاذبة. نسرد الآن تلک العراقيل التى نشأت أثناء القتال، البعض قالوا: لا نقاتل إلا إذا تأكدنا من الانتصار وعدم استمرار الحرب لفترة طويلة، وبما أنهما لن يتحققا فى ظل الظروف الراهنة، لذلک لا نشهدها. فالآية الثانية والأربعون تناولت أناسا كهؤلاء.

والآية الخامسة والأربعون تناولت تلک الطائفة التى تزعم أنه ليس بإمكان المسلمين تحقيق الازدهار والرقى مع القرآن الكريم، ولا يكتفون عند هذا الحد، بل يواصلون أعمالهم الإجرامية، فقد

يرسلون عيونا وجواسيس لكى يُعدّوا مذكرات تشتمل على مشاهداتهم، وليلحقوا بالمسلمين أضراراً إذا عادوا إليهم.

والبعض الآخر من المنافقين يعتذرون، فيلجأون إلى حيل واهية، كمن يقول: لا نشارك فى الجهاد حتى لا يتخلل الفساد فى شئوننا الدينية، وقد نُحرم عن بعض الحسنات التى نكتسبها، فالأولى أن لا نشارك فى القتال، لكن قولهم ذلك أيضاً دليل على نفاقهم الصريح، لأنهم يشمتون على ما يلحق المسلمين من أذى وضرر، ولا يسرهم انتصاراتهم، فالآية التاسعة والأربعون تناولت أحوال أناس كهؤلاء.

والآية الثامنة والخمسون تناولت أولئك الذين يستعدون للقتال إذا وجدوا المال، فإن تأخر المال تأخروا عن القتال.

والبعض من الناس اتخذوا انتقاد الأمير من إحدى الهوايات التى تدر عليهم بالأرباح، بغرض عرقلة السير، ولتنبيه هؤلاء ذكر الله تعالى أحوال الأمم الماضية، والآية الحادية والستون تناولت أحوالهم.

وقال بعض المنافقين: لو كان لدينا مال لأنفقناه فيما يعم المسلمين نفعاً، فإن جاءهم المال، بخلوا وسخروا بالمسلمين. أما الذين لا يستطيعون أن ينفقوا إلا قليلاً من المال لحاجتهم وفقرهم، فقد ذكرهم الله تعالى فى الآية السادسة والسبعين.

الباب الثالث

{السابقون الأولون} إلى هنا كان بيانا لأولئك الذين يتخلفون عن رسول الله ، ولا يحضرون معه القتال، سمّاهم القرآن بالمنافقين، ومن الآية الثالثة والثمانين ذكر نتيجة التخلف عن الجهاد، وما التغيرات التى سوف تظهر عليهم بعد التهديد المذكور فى الآيات، وقد تناولتها الآية الرابعة والثمانون، وذكرت أولاً من أهل المدينة أولئك الذين رفضوا تقديم المساعدات فى بداية أمرهم، وأشار إلى أن الثقة بأولئك الذين تخلفوا عن الغزو مرة واحدة لا يصح.

ثم أشار الله تعالى إلى أحوال عامة الأعراب، أنهم يعتذرون إليك ليتخلفوا عن الغزو، ولا يعلمون أن خلق ظروف تلائم منع الجهاد نوع من النفاق، ثم ذكر عدداً من الناس، والآية الثامنة إلى الحادية عشرة بعد المائة تشير إلى ميزات الطائفة التى سعت إلى إدخال النفاق بين المسلمين، والآية الثانية عشرة بعد المائة أشارت إلى النعم التى يُكرم الله بها المجاهدين، وبما أن الحرب لا تدوم، لذلك أشار فى الآية الرابعة عشرة بعد المائة إلى ميزاتهم الخاصة التى يمكن بها معرفتهم، وبما أنهم مسلمون، وقد باعوا أنفسهم لله تعالى، لذلك لا يمكنهم أن يترحموا على الكفار، حتى وإن كانوا ذوى قرابتهم، ولهم فى إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة.

والآية الثامنة بعد المائة تناولت قصة أولئك الثلاثة من الصحابة الذين عوتبوا لتخلفهم عن غزوة تبوك، وأعقبهم بذكر أولئك الذين ضحّوا بالغالى والنفيس فى ساعة العسرة. وفى الآية الحادية

والعشرين بعد المائة أشار إلى أن الواجب على مركز المسلمين عدم التخلف عن الجهاد، فقد أعدَّ الله لهم أجراً عظيما.

والآية الثالثة والعشرون بعد المائة تناولت تقسيم المسئوليات والمهام الجماعية والفردية، وفى الآية الرابعة والعشرين بعد المائة أشار إلى التدابير التى تساعد فى تعميم فريضة الجهاد فى سبيل الله، وفى النهاية أكّد على أن جميع المسلمين إن تركوا الجهاد، ولم يسع واحد منهم لإحياء فريضة الجهاد، فإن مالک العرش العظيم و السموات والأرض سيختار أناسا آخرين لرفع راية التوحيد خفاقة فى العالم. وعليه تنتهى سورة البراءة. (تفسير الفرقان)

{سورة التوبة مدنية، الآيات : 1، 2}

بسم الله الرحمن الرحيم

{برآءةٌ من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله، وأن الله مخزى الكافرين}.

ملخص معانى الآيتين:

الآية الأولى أشارت إلى إنهاء جميع العهود التى كانت بين رسول الله ﷺ والمشركين إلى أجل غير محدود، وإيذان من الله ورسوله بالحرب معهم، لقد تقرر تطهير مركز الإسلام من الكفر والشرك.

والآية الثانية تمهل المشركين لمدة أربعة أشهر، لهم الأمن وكامل حرية التنقل خلالها، وبعد انقضاء الأجل عليهم إما أن ينبذوا الكفر والشرك أو يخرجوا من المنطقة، فإن قرّروا البقاء على الكفر وعدم الخروج من مكة، فلا خيار لهم إلا الحرب التى سوف تحسم أمرهم، وعليهم أن يعلموا أنهم لا يعجزون الله، وأن الله يُخزى الكافرين فى الدنيا والآخرة.

فائدة:

أشارت الآيتان إلى حكم أولئك المشركين الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد إلى أجل غير محدد، وفيه إيذان بإنهاء العهد، وليس لديكم أكثر من أربعة أشهر لتُقرّروا مصيركم، وهذا الحكم يشمل كل كافر ليس بينه وبين المسلمين عهد أو كان ولكنه إلى أجل غير محدد، وراجعوا لتفاصيل هذا القول الأخير «تفسير بيان القرآن».

ولاستيعاب معانى الآيتين بالتفصيل لاحظوا النصوص الآتية:

البيان اللاهورى:

إعلان الحرب مع الكفار: لا يريد الله تعالى ورسوله تقديم الحماية إلى الكفار، وبعد الإعلان بالحرب أمهلهم لمدة أربعة أشهر، للانتهاء من مناهضة الإسلام، وإلا سوف يتم القضاء عليهم. (حاشية اللاهورى)

وقال الشاه عبد القادر رحمه الله: أمهلهم لمدة أربعة أشهر ليُقرّروا مصيرهم: إما الاستعداد للحرب، أو الدخول فى الإسلام، أو الخروج من مكة. (موضح القرآن)

البيان العثمانى:

صالح النبى ﷺ مع المشركين فى الحديبية عام اثنين من الهجرة، فتحالفت خزاعة مع المسلمين، وبنو بكر مع قريش، ثم نقض بنو بكر المعاهدة، وهاجموا على خزاعة، فأمدتهم قريش

بالسلاح والعتاد، وهكذا لم يتقيّد قريش ولا حليفها بمعاهدة الصلح، ورداً عليه زحف النبى ° مكة عام ثمانية من الهجرة، وفتحها. ثم إن هناك قبائل عربية أخرى كانت ترتبط مع المسلمين بالصلح مع أجل وبدون أجل، وحافظت كثير منها على معاهدتها، وهناك قبائل لم تكن بينها وبين المسلمين معاهدة، فآيات هذه السورة المتنوعة نزلت فى قبائل مختلفة، لعل الآيات الأوّلية تناولت المشركين المتعاهدين بدون أجل، فأُبلغوا بإنهاء العهد، وأُمهلوا لمدة أربعة أشهر، إما أن يسلموا وإما أن يتخلوا عن بلدهم ليتخلص مركز الإسلام من دنس الكفر والشرك، وإلا فليستعدوا لمواجهة جيش المسلمين، وليعلموا أنهم غير معجزى الله، وأنه سوف يخزيهم فى الدنيا والآخرة. أما القبائل التى لم يكن بينها وبين المسلمين عهد، فلها المهلة لمدة أربعة أشهر. وقد قام بالإعلان بما ورد فى هذه الآيات رسول رسول الله على بن أبى طالب فى الحج عام تسع من الهجرة. (التفسير العثمانى)

أصناف المشركين الأربعة:

لاستيعاب معانى الآيتين والآيات التى تلتها يجب معرفة أصناف المشركين الأربعة باعتبار المعاهدات، لقد سبق وأن قُرئت هذه الآيات عليهم عام تسع من الهجرة، وكان الحكم يومئذ بمكة بيد المسلمين، وكان يتواجد بها وفى أطرافها المشركون، كانوا يأتون إليها للحج، ويحجون وهم عراة، يقولون: كيف نطوف فى الثياب التى أتينا بها المعاصى، فمن كان غنيا منهم، استأجر ثيابا للطواف، ومن كان فقيرا طاف عريانا، ويمكن تقسيمهم إلى أربعة أصناف اعتباراً بالمعاهدة مع المسلمين:

الأول: المشركون الذين بينهم وبين المسلمين عهد لغير أجل، ومثل هذا العهد ينفسخ إذا أراد أحد الطرفين ذلك، فالآيتان الأوليان من سورة التوبة تناولتا هذا الصنف من المشركين، ويتم إبلاغهم بالفسخ عند حضورهم إلى مكة لأداء مناسك الحج، وسيُمهلون لمدة أربعة أشهر.

الثانى: المشركون الذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد، حكمهم حكم الصنف الأول عند أكثر المصنفين، ولهم المهلة لمدة أربعة أشهر.

الثالث: المشركون الذين بينهم وبين المسلمين عهد، وقد نقضوه، جاء حكمهم فى الآية الثالثة أنه لم يبق شىء من ميثاقهم وعهدهم، وليس بينهم وبين المسلمين إلا الحرب، وكان الأولى أن يتم محاربتهم فور نقضهم للعهد، لكنهم يُمهلون إلى انقضاء الأشهر الحُرم، حتى يتوبوا إلى الله ويدخلوا فى الإسلام، فإن أبوا فلهم الخزى والندامة فى الدنيا والآخرة.

الرابع: المشركون الذين بينهم وبين المسلمين عهد إلى أجل، وقد حافظوا عليه، جاء حكمهم فى الآية الرابعة أن الصلح يستمر معهم إلى انقضاء الأجل، ثم لا يتم تجديده.

وللتفاصيل يُرجى الرجوع إلى «بيان القرآن» وهذا الذى رجّحه الحافظ ابن كثير، لكنه يقول: المشركون الذين بينهم وبين المسلمين عهد إلى أجل غير معلوم، أو بقى من أجلهم أقل من أربعة أشهر، فلهم المهلة لأربعة أشهر، أى من اليوم العاشر لذى الحجة إلى اليوم العاشر من ربيع الثانى. أما المشركون الذين ليس لهم عهد، أو نقضوا العهد، فلهم المهلة إلى الأشهر الحُرم، أى إلى نهاية شهر

محرم، ثم يُقاتلون، وهكذا صارت المهلة لهم لمدة خمسين يوماً، أى من اليوم العاشر من ذى الحجة إلى نهاية محرم، عشرون يوما من ذى الحجة، وثلاثون يوما من المحرم.

وفيما يلى لاحظوا نص ما كتبه ابن كثير رحمه الله:

«فقال قائلون: هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير الموقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد موقت، فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: {فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم} (التوبة 4) الآية. ولما سيأتى فى الحديث. ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد، فعهده إلى مدته، وهذا أحسن الأقوال وأقواها، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله. وروى الكلبى ومحمد بن كعب القرظى وغير واحد. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: {برآءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر} الآية. قال: حدّ الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا، وأجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة، فأمر الله نبيه إذا انسلخ الأشهر الحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر، يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا فى الإسلام. (تفسير ابن كثير).

إلى هنا كان بيانا وتوضيحا لموضوع الآيتين المذكورتين، كما اتضحت الأشهر الأربعة المحرّمة، وسوف نذكر مزيدا من شرحه من تفسير المدارك فى الصفحات الآتية.

زمن نزول هذه الآيات وأجوائه:

هذه هى السنة التاسعة من هجرة النبى ﷺ من مكة إلى المدينة، قبل تسع سنوات لقى النبى ﷺ وأصحابه بمكة على يد أهلها من الإيذاء ما أجبرهم على الهجرة، وخلال تسع سنوات تغير كل شىء، وكان قد مُنع من العمرة سنة ست، فبايع الصحابة على الموت والجهاد بالحديبية على يديه، وسُمّى ببيعة الرضوان، وأقام هُدنة مع المشركين لمدة عشر سنوات، ثم عاد من العام القادم وأدّى مناسك العمرة، قضى سبع سنوات فى الهجرة والجهاد، ولم يتيسر له القدوم إلى وطنه ومسقط رأسه إلا لثلاثة أيام، وبعد عدة أيام نقض المشركون العهد، وزحفوا على خزاعة حلفاء النبى ﷺ، فجاء الخزاعيون إلى المدينة وذكروا مظلمتهم، فوعدهم النبى ﷺ بالنصر، وتجهّز لمهاجمة مكة فى الخفية، وفى السنة الثمانية زحف على مكة، وفتحها بدون أية مقاومة تُذكر، ثم فتح حنيناً، لكنه رجع بدون أداء مناسك الحج، وأمّر عتاب بن أسيد على مكة، ثم أقام شهورا بالمدينة، وفى سنة تسع للهجرة توجه إلى تبوك واستقبل حراً شديدا وسفرا شاقا وطويلاً، أما العدو فكان القوة الكبرى فى عهده، فأراد المنافقون التخلص بأنفسهم وأموالهم، وفى هذه الظروف نزلت سورة البراءة فكانت بمثابة البرق يرعد فى السماء، وقررت بأن إسلام المنافقين الخالى عن الجهاد مردود عليهم، ورسمت خطا واضحا بين الإيمان والنفاق يمكن به تقرير إيمان أحد ونفاقه.

انتهت غزوة تبوك، وظلت سورة التوبة تمطر أنواراً أثناء السفر وبعده، ثم أراد أداء مناسك الحج، لكن معقل الإسلام لم يخلص للمسلمين، فنزلت آيات من سورة التوبة، وأعطت منهجا متكاملا لتشكيل مركز إسلامى خاص بهم.

ثم توجه أبو بكر الصديق أميراً للحجاج، وعلى بن أبى طالب رسول رسول الله الخاص، يحملان معهما ذلك المنهج المتكامل، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وما أن انتهت مناسك الحج حتى أوقف أبو بكر عليا بين الناس، فأعلن بالبراءة حتى ضجّت بها أودية عرفات.

{برآءة من الله ورسوله}..

فجاء إعلان واضح، لا يحج أحد من المشركين من العام القادم، لا يطوف أحد حول الكعبة عاريا، لا يدخل الجنة إلا من كان مؤمنا، والذين لهم عهد مع النبى · إلى أجل، فإن عهدهم يظل سارى المفعول.

صدع على بن أبى طالب بإعلان البرآءة، الذى كان قد نام على فراش الموت، فراش رسول الله · ليلة الهجرة، يسمعها كل مشرك، كان يصل إلى الأخبية واحدة بعد أخرى، ويبلغها بالبرآءة بصوت عال، حتى كاد ينقطع صوته، فكان أبو هريرة يقوم بالإعلان، لاحظوا الأحوال والظروف كيف تغيرت خلال تسع سنوات، إن الله قوى، ينصر المؤمنين، فقد ضجّت الجزيرة العربية بإعلان تطهيرها عن دنس الكفر والشرك، من أراد القتال فليبرز فى الساحة، ومن أسلم صار أخا، وأما الكفار فعليهم أن يغادروا هذا البلد. فقد شكّلت سورة الأنفال جماعة المسلمين، وأنشأت سورة البراءة مركزاً للإسلام، وقد حان وقت وفات الرسول ·، وبالقيام بغزوة تبوك بدأ بمحاربة أهل الكتاب، والآن بعد إعلان البراءة طفقت تطهر الجزيرة العربية من وجود الكفر والشرك، وقام من بعده خلفاءه بدفع منهج سورة البراءة إلى الأمام، واستكملوا جميع الأعمال التى كان النبى · قد بدأها، فهذه هى الأجواء التى نزلت فيها هذه الآيات المباركة، وتُتلى على الناس. (والله أعلم بالصواب)

ولاحظوا الآن جانبا من شرح معانى ألفاظ الآيتين:

{برآءة من الله ورسوله}

البراءة: هى قطع الموالاة وارتفاع العصمة وزوال الأمان. (الجصاص)

فيها بلاغ لمشركى العرب بإنهاء كافة العهود والمواثيق بعد مدة معينة، والسيف سيحسم الأمر بينهم وبين المسلمين. (التفسير الماجدى)

إن أول كلمة من سورة التوبة {براءة من الله} تُشير إلى سياسة الجهاد فى الإسلام، لأن أول ما تقع هذه الكلمة على السمع يتبادر إلى الذهن عدة أمور:

الأول: الكفار والمشركون الذين أعلن الله تعالى براءته عنهم هم من جملة خلائقه، أما الذين تبرأ منهم النبى · فقد تبرأ منهم رُغم كونه رؤوفا رحيما، فلماذا يأخذ بهم رأفة فى قلوب أحدنا؟

الثانى: هل يمكن لمن يحب الله ورسوله · أن يصبر على تقدم المشركين والكفار الذين أعلن الله ورسوله · البراءة عنهم فى ميادين التسلّح؟

الثالث: إن كان الله ورسوله يعلن البراءة عن هؤلاء الكفار والمشركين، فهل لا ينصر أولئك الذين يحاربونهم؟

الرابع: لا يمكن لمسلم أن يقيم صلات مع أحد ما لم تكن مرضية عند الله، فالكفار الذين تبرأ الله عنهم لا يمكن إقامة الروابط والصلات معهم.

فبمجرد أن تقع كلمة البراءة على السمع، تحضر هذه الأمور فى الذهن، وتجعله جنديا مخلصا لله، أما ما يتعلق عن القرابات وأواصر الأخوة النسبية، فإن الأفاعى والحيتان لها قرابات مع أولادها وأسرها، لكنها تُقتل إن آذت أحداً، ثم إن اللصوص والقتلة من البشر لهم أهالى وذريات، ولكن لا يُستقبح قتل القاتل عند أحد، كذلك كل من صار رمزاً للظلم والفساد فى الأرض، وجب قتله، وإلا عم الفساد فى الأرض. أمر الله تعالى بقتالهم، فمن أخذه رأفة بهم، يجب أن يشرح له تلك الأسباب والظروف التى استدعت قتالهم، وأن الله تعالى أمرنا بالتبرّى منهم وهو خالقهم، هل يحب الخلق أحد أكثر من خالقه؟ والغريب أن قتالهم مبنى على الرحمة والشفقة، لأنه يفتح الباب أمام كثير للدخول فى دين الله، فينجون من النار ويدخلون الجنة. (والله أعلم بالصواب)

{إلى الذين عاهدتم من المشركين} عاهدتم بصيغة الجمع، مع أن المعاهد كان النبى · وحده، وذلك للإشارة إلى أن ما فعله كان نيابة عن أمته وجماعته، فهو فعل الجميع، وليس بخاص معه.

«ولم يعاهدهم إلا النبى · وحده، ولكنه كان الآمر والحاكم، وكل ما أمر به أو أحكمه، فهو لازم للأمة منسوب إليهم، محسوب عليهم (ابن العربى). يعنى إلى الذين عاهدهم رسول الله ·، لأنه كان المتولى للعقد، وأصحابه كلهم راضون، فكأنهم عاقدوا وعاهدوا فنسب العقد إليهم. (القرطبى)

ومن هنا عرفنا جواز نسبة ما قام به الرسول أو الأمير إلى الأمة أجمعها. (التفسير الماجدى)

{فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر}

أى سيروا فى الأرض مقبلين ومدبرين، آمنين غير خائفين أحداً من المسلمين بحرب ولا سلب ولا قتل ولا أسر. (القرطبى)

مما تعوَّدت عليه الحكومات والأمم أنها بعد الإعلان بالحرب لا تعطى العدو فرصة للاستعداد، لأنهم لا يقصدون من وراء القتال إلا حطام الدنيا، وضده الإسلام الذى عبارة عن الرحمة والمودة، يدعو إلى السلام والأمن، لذلك أعطى فرصة للعدو لمدة أربعة أشهر بعد إعلان البراءة، وأثناءها يمكن للعدو البقاء داخل الجزيرة العربية، ودراسة الأحوال والظروف التى تحيط به، حتى يتيسر له تقرير مصيره، فإن أراد الدخول فى الإسلام فالباب مفتوح على مصراعيه، لكن بعد انتهاء المهلة لا يمكن له البقاء على بوصة واحدة من أرض الجزيرة.

ينبغى للعدو أن يتفكر فى أن المسلمين كانوا ضعفاء، أقل عدداً وعُدّة، وكل عربى كان يعاديهم، يدبرون قتلهم وإبادتهم، مثلهم اليهود تصدوا لقتلهم، والنصارى يُرهبونهم، ولم يكن المجوس أقل شأنا من غيرهم، فإن أمكن للمسلمين البقاء فى هذه الظروف، فمالذى تستطيعون أن تلحقوه بهم بعده؟ خاصة بعد إحكام قبضتهم على كافة أقطار الجزيرة العربية، وبسط سلطانهم عليها؟ وعليهم أن يتيقنوا أنهم لا يغلبون عليهم قط، بل عليهم أن يدركوا أن من خالف القرآن بعد أن فهمه، فإنه يخزيه. (تفسير القرآن)

ما هذه الأرشهر الأربعۀ؟

قال النسفی:

«والأشهر الأربعۀ: شوال وذو القعدۀ وذو الحجۀ والمحرم، أو عشرون من ذی الحجۀ والمحرم وصفر وشهر ربیع الأول وعشر من ربیع الآخر، وكانت حرُما، لأنهم أومنوا فیها، وحرم قتلهم وقتالهم أو علی التغلیب، لأن ذا الحجۀ والمحرم منها. والجمهور علی إباحۀ القتال فی الأشهر الحرم، وإن ذلک قد نسخ». (المدارک)

{واعلموا أنكم غیر معجزی الله}

فیها دعوۀ للمشركین إلی الإسلام، وتحذیر لهم بأنكم لا تقدرون علی تعجیزه، احذروا من مواجهۀ ربكم، فقد رأیتم أنكم كنتم أصحاب القوۀ والسلطان علی هذه الأرض قبل هذا، كنتم تُخرجون المسلمین من دیارهم وأوطانهم، والیوم صرتم أذلاء وضعفاء، لا حیلۀ لكم ولا قوۀ، فهل أدركتم صدق الإسلام؟

ثم فی نهایۀ الآیۀ وعد المسلمین بالفتح والنصر، وإذلال الكفر والشرک. لاحظوا العبارۀ التالیۀ:

«المعنی أن هؤلاء المعاندین الحمقاء أین لهم القوۀ فی مواجهۀ الله؟ بل الله یخزیهم ویذلهم، الذی یظهر لهم یوم الحشر والجزاء بالشكل الكامل، لكنهم ینالون قسطا منه بعد نزول الآیۀ فی الدنیا».

قال ابن عباس : بالقتل فی الدنیا والعذاب فی الآخرۀ. (التفسیر الكبیر)

قال الزجاج: هذا ضمان من الله عزوجل بنصرۀ المؤمنین علی الكافرین. (التفسیر الكبیر) (التفسیر الماجدی)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 3}

بسم الله الرحمن الرحيم

{واَذَانٌ من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريئ من المشركين ورسولُه. فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله. وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم}.

ملخص معانى الآيۂ:

وصف الحج بالأكبر لأن العمرۂ حج أصغر، والمراد من «يوم الحج الأكبر» العاشر من ذى الحجۂ «يوم العيد»، أو التاسع من ذى الحجۂ «يوم عرفۂ».

الإعلان الذى جاء فى هذه الآيۂ كان موجَّهاً إلى أولئک الذين كان بينهم وبين المسلمين عهد إلى أجل، ثم نقضوه، وهم قريش وبنو بكر حلفاء قريش. والمعنى أن العهد قد زال، وما بقى شىء منه، فإن تابوا عن الشرک والكفر فذلک خير لهم فى الدنيا والآخرۂ، وإن تولّوا فإن الله قد أراد تطهير الجزيرۂ العربيۂ من دنس الكفر والشرک، ولا يمكن للكفار والمشركين أن يعجزوه، وسوف ينالون عقوبۂ أعمالهم.

(ملحوظۂ): لاشک أن تلک القبائل نقضت العهد قبل سنۂ ثمان من الهجرۂ، وترتب عليه فتح مكۂ سنۂ تسع، لكن الإعلان جاء سنۂ تسع بموسم الحج، ليعلم جميع من كان على شاكلتهم أن ميثاقهم قد تم فسخه وإزالته، وأنه ما بقى شىء بينهم وبين المسلمين بعد الآن. (مفهوم التفسير العثمانى)

أقوال المفسرين:

{اَذَان من الله ورسوله} والأذان بمعنى الإيذان وهو الإعلام. (المدارک)

{إلى الناس} الناس هنا جميع الخلق. (القرطبى)

وقال النسفى:

لأن البراءۂ مختصۂ بالمعاهدين والناكثين منهم، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث. (المدارک)

وقال الرازى:

وهى عامۂ فى حق جميع الناس، لأن ذلک مما يجب أن يعرفه المؤمن والمشرک من حيث كان الحكم المتعلق بذلک يلزمهما جميعا، فيجب على المؤمنين أن يعرفوا الوقت الذى يكون فيه القتال من الوقت الذى يحرم فيه. (التفسير الكبير)

{يوم الحج الأكبر}

فى تفسيره مبحثان:

المبحث الأول: فى المراد منه، وفيه ثلاثة أقوال: الأول: التاسع من ذى الحجة، وهو يوم عرفة. الثانى: العاشر من ذى الحجة، وهو يوم النحر. الثالث: المراد منه جميع أيام الحج. أى أيام منى كلها. ويكثر استعمال لفظ «يوم» بهذا الشكل، كيوم صفين، ويوم بُعاث.

وللتوسع حول الأقوال الثلاثة يُرجى مراجعة التفسير القرطبى والتفسير الكبير وغيرهما.

والمبحث الثانى: حول الحج الأكبر، هل أُطلق عليه هذا اللفظ بمناسبة خاصة، أم أنه يُطلق على كل حج؟ فأكثر أهل العلم على أن المراد منه مطلق الحج، لأن الحج الأصغر يُطلق على العمرة، وقيل: لا بل تم إطلاق الحج الأكبر على السنة التاسعة من الهجرة لمناسبة خاصة، وللتفاصيل يُرجى مراجعة «البحر المحيط» و«التفسير الكبير».

{أنَّ اللهَ برىء من المشركين ورسولُه} أى الله ورسوله يتبرءان من توفير الحماية والأمان لهم. (التفسير الماجدى)

موجز قصة البراءة:

أعاد مفهوم البراءة بلفظ {وأذان من الله ورسوله} وقد تم الإعلان عنها فى المواقف سنة تسع من الهجرة بإيفاد أبى بكر وعلى رضى الله عنهما، كما شمل الإعلان العديد من الأمور الأخرى، أمر أبو بكر أبا هريرة بالإعلان عن البراءة.

ففى الصحيح عند البخارى (271/2) عن أبى هريرة أنه قال: فى الحج الذى أمّر النبى ٠ أبا بكر، كنتُ من ضمن من كلّفه أبو بكر بإبلاغ المشركين، فأعلنّا بأعلى أصواتنا: «ألا لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان» وكان النبى ٠ قد أمّر أبا بكر، وأرسله للحج، ثم أتبعه بعلى بن أبى طالب ليُعلن، وذلك أن البعض أشاروا على النبى ٠ أن العرب لا يعتبرون بالإعلان بالنقض والوفاء إن لم يكن المعلن من نفس القبيلة، وما فعله النبى ٠ من العهد والميثاق مع المشركين كان باعتباره إمام المسلمين، وليس نيابة عن قبيلة أو عشيرة، وبما أن من الناس من قد يعتبره بين بنى هاشم والمشركين، لذلك أوفد على بن أبى طالب لإعلان البراءة، إذ هو هاشمى. وكان على بن أبى طالب يعلن بالبراءة كما وردت فى سورة البراءة، ويُبلغ المشركين بها، لكن رجلا واحدا لم يكن كافيا نظراً إلى حجم الجمع الذى اجتمع لأداء مناسك الحج، لذلك أمر أبو بكر أبا هريرة وغيره من الصحابة بالإعلان.

وفى معالم التنزيل (2/267) عن زيد بن تبيع أنه سأل عليا، عن أى شىء أمر بتبليغه فى هذا الحج؟ فقال: أمرنى بالإعلان عن أربعة أشياء، أن لا يطوف بالبيت عريان، وأن الذين عاهدهم النبى ٠ يتم عهدهم إلى مدتهم، والذين لم يعاهدهم فلهم أربعة أشهر، يسيرون فى الأرض خلالها، لا يتعرض لهم مسلم، وبعدها لا أمان لهم على دمائهم وأموالهم، والثالث: لا يدخل الجنة إلا مؤمن. والرابع: لا يحج بعد العام مشرك.

وقال صاحب معالم التنزيل (2/266) أُمهلوا لمدة أربعة أشهر، فلا حماية لدمائهم وأرواحهم بعدها، وأولها يوم الحج الذى تم الإعلان فيه، وستستمر إلى العاشر من ربيع الآخر، لأن العدة بالمدة بعد الإعلان. (أنوار البيان)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 4}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مدتهم. إن الله يحب المتقين}.

ملخص معانی الآیۀ:

القبائل التی عاهدتموها من المشرکین، ثم لم تنقض العهد، ولم تنصر أحدا من أعدائکم، فأتمّوا إلیهم عهدهم إلی مدتهم، وإتمام العهد والمحافظۀ علیه من التقوی، والله یحب المتقین.

بعض النصوص:

1- إن کان أحد بینکم وبینهم عهد مبهم، فاقتلوهم إن ثقفتموهم، والذین عاهدتموهم إلی مدۀ، ثم حافظوا علیه، فأتمّوا المدۀ. (حاشیۀ اللاهوری)

2- الاستثناء المذکور فی الآیۀ خاص مع أولئک الذین عاهدتموهم إلی مدۀ، ثم حافظوا علیه، حیث لم ینقضوه، ولا ظاهروا الناکثین، (کبنی ضمرۀ وبنی مدلج) فأتمّوا إلیهم عهدهم إلی مدتهم، ثم لا تجددوا العهد معهم، ولهم ما لغیرهم من السبیل، إما الإسلام والقتال. (التفسیر العثمانی)

3- {لم ینقصوکم شیئا. ولم یُظاهروا علیکم أحدا} وفیها إشارۀ إلی أن من فعل ذلک فقد نقض العهد.

قال الجصاص: «یدل علی أن المعاهد متی عاون علینا عدوا لنا، فقد نقض عهده». (الجصاص)

{إن الله یحب المتقین} وعلی کل، فالإسلام لا یوافق علی مخالفۀ الضوابط الخُلقیۀ، والإصرار علی التزام التقوی والأخلاق الحسنۀ فی سیاق العتاب والعقاب من إحدی میزات القرآن الکریم، التی تُمیّزه عن غیره. (التفسیر الماجدی)

3- قال النسفی:

5- لکن الذین لم ینکثوا فأتموا إلیهم عهدهم، ولا تجروهم مجراهم، ولا تجعلوا الوافی کالغادر، {إن الله یحب المتقین} یعنی أن قضیۀ التقوی ألا یسوّی بین الفریقین، فاتقوا الله فی ذلک. (المدارک)

وقال الآلوسی رحمه الله:

بقی لبنی ضمرۀ، وبنی مدلج حیّین من کنانۀ من عهدهم تسعۀ أشهر، فأتم إلیهم عهدهم. (روح المعانی)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 5}

بسم الله الرحمن الرحيم

{فإذا انسلخ الأشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد، فإن تابوا وأقاموا الصلاۃ وأتَوُا الزکوۃ فخلُّوا سبیلهم. إن الله غفور رحيم}.

ملخص معانى الآية:

إن انقضت الأشهر المؤجّلة، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وألقوا القبض عليهم، وقوموا بمحاصرتهم، واقعدوا لهم كل مَرصد، فإن تابوا عن كفرهم وشركهم، وأقاموا الصلاة، وأتَوُا الزكاة، فلا تتعرضوا لهم، إن الله غفور رحيم.

الأشهر الأربعة:

قال بعض أهل العلم: أراد بها الفترة ما بين العاشرة من ذى الحجة إلى العاشر من ربيع الثانى، سمّيت بالأشهر الحُرم لأن الله عزوجل أمهل المشركين فيها، ونهى عن قتالهم. لاحظوا فيما يلى بعض النصوص والمراجع المتعلقة بها، التى تُساعد فى فهم معانى الآية الكريمة:

1- إن تمت الأشهر الحُرم بداية من عشرة ذى الحجة إلى استكمال أربعة أشهر، فاقضوا عليهم حيث وجدتموهم، وإن أسلموا فخلوا سبيلهم. (حاشية اللاهورى)

2- الأشهر الحرم الأربعة هذه من العاشر ذى الحجة إلى العاشر ربيع الثانى. (فى ظلال سورة التوبة)

القول الثانى:

القول الثانى أن المشركين الذين نقضوا العهد، أُمهلُوا إلى نهاية محرم، فمعنى الآية أى قاتلوهم بعد انقضاء الأشهر الحُرم، وذلک من أول صفر. ومصدر هذا القول سبق بالإحالة إلى ابن كثير وغيره. ولاحظوا مزيدا من عبارات أهل العلم:

قال الأصم: أريد به من لا عقد له من المشركين، فأوجب أن يمسک عن قتالهم حتى ينسلخ الأشهر الحرم، وهو مدة خمسين يوما على ما ذكره ابن عباس، لأن النداء كان بذلک يوم النحر. (القرطبى)

عبارة جامعة:

قال مجاهد وابن أسحاق: أراد بالأشهر الحُرم ما ذكر فى أول السورة، فالذين عاهدتم معهم ولم تضربوا له أجلا، أو الذين لا عهد بينكم وبينهم، فلهم المهلة إلى أربعة أشهر، أما الذين نقضوا العهد، كقريش، فلهم المهلة لأربعة أشهر من عشرة ذى الحجة إلى استكمال شهر محرم. هذا الذى كتبه صاحب معالم التنزيل، ومثله فعل صاحب مدارک التنزيل، وأيده صاحب روح المعانى، وقال: لا يراد من الأشهر الحُرم تلک الأشهر المعروفة عند العرب فى الجاهلية، (وهى ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، كانوا يمتنعون عن القتال فيها فى الجاهلية وصدر الإسلام) وسببه أنه لم يبق وقت الإعلان إلا عشرون يوما من ذى الحجة وشهر محرم بكامل أيامه، أما رجب فلا يأتى إلا بعد خمسة أشهر، وعند اعتدادها تطول المدة، مع أن أحداً لم يُمهَل لأكثر من أربعة أشهر. أمر فى الآية الكريمة بقتال المشركين حيث وجدتموهم عند انقضاء الأشهر الحرم، وخذوهم واحصروهم. ومعنى حصرهم كما قال ابن عباس: احبسوهم فى الحصون، وامنعوهم من الخروج منها، واقعدوا لهم كل مقعد، أى فى طرقات مكة، فلا تسمحوا لهم بالدخول فيها.

{فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة فخلّوا سبيلهم} ليدخلوا مكة ويؤدّوا مناسک حجهم، {إن الله غفور رحيم} بعد توبتهم عن كفرهم ودخولهم فى الإسلام تهدمت الذنوب والمعاصى كلها، فلا مؤاخذة عليهم. {واحصروهم} فيها إشارة إلى جواز فرض الحصار عليهم. {واقعدوا لهم كل مَرصد} فيها إشارة إلى إنشاء نقاط التفتيش داخل الدولة الإسلامية بغرض الحماية من العدو والحذر منه. (أنوار البيان)

البيان العثمانى:

أى لا عهد بينكم وبينهم بعد نقضهم للعهد، ويمكن لكم الآن محاربتهم بدون توجيه إنذار مسبق، والذى يمنع من ترتيب هجوم عليهم هو دخول الأشهر الحرم. إمّا لأن ابتداء القتال فى الأشهر الحرم كان ممنوعا عند ذلک الوقت، أو رعايةً لمصلحة وقتية، إذ القتال كان محرما عند الجميع فى ذلک. وعلى كل فقد أُمهلوا حتى تنقضى الأشهر الحرم ويتمكنوا من اتخاذ الترتيبات اللازمة لمغادرة المنطقة، وعند انتهاء الأجل لا مفر من الحرب (بما فيها من قتل وأخذ وحصر وكر وفر والقعود فى المراصد) لتطهير أرض الجزيرة من دنس الشرک والكفر. أما إن تابوا من الكفر، ودخلوا فى الإسلام، وقاموا بأداء الصلاة والزكاة والصوم، فخلوا سبيلهم، ولا يجوز التعرض لهم، هذا باعتبار الظاهر، أما باعتبار الباطن فأمرهم مفوّض إلى الله تعالى، وليس للمسلمين إلا النظر إلى ظاهر أحوالهم. ومن هنا عرفنا أن أحداً إن نطق بكلمة الشهادة، ثم لم يصل، ولم يؤد الزكاة، جاز منع سبيله، وقال الإمام أحمد والشافعى ومالک رحمهم الله: من مسئوليات الحكومة الإسلامية قتل تارک الصلاة إن رفض التوبة. (فعند أحمد لارتداده، وعند مالک والشافعى حداً وتعزيراً) وقال أبو حنيفة: يُسجن فيُضرب ضربا شديدا حتى يموت أو يتوب. (ولا يُخلّى سبيله عند أحد من الأئمة). ومن منع زكاة أمواله، تؤخذ منه

بالقوة، وإن رفض إلا القتال، تُقاتله الحكومة، فقصة قتال مانعى الزكاة مشهورة فى كتب الحديث. (التفسير العثمانى)

كلام بركة:

الذين عاهدتموهم، ولم يغدروكم، وحافظوا على مواثيقهم، والذين لم تعاهدوهم، فلهم المهلة لمدة أربعة أشهر. وقد قال النبى ﷺ: لا يعلم البواطن إلا الله، فمن أسلم فى ظاهره فهو مثل بقية المسلمين، ومن علاماته إشهار الإسلام، والتوبة عن الكفر، وإقامة الصلاة وأداء الزكاة. وبناءً عليه فمن ترك الصلاة فقد حُرم من الأمان، وكان أبو بكر الصديق يقتل مانعى الزكاة كما كان يقتل الكفار والمشركين. (موضح القرآن)

وفيها إشارة إلى عدم إيمان تارك الصلاة، لكنهم الآن انتصبوا لحكم البلاد الإسلامية، ويصرّون على أنهم ناصحون لهذه الأمة. وإلى الله المشتكى.

هذه آية السيف:

هذه الآية تُسمّى بآية السيف عند أهل العلم، حيث قال ابن كثير:

«وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحدٍ من المشركين، وكل عقد وكل مدة» (تفسير ابن كثير)

منح النبى ﷺ أربعة سيوف:

عن على بن أبى طالب قال: بُعث النبى ﷺ بأربعة أسيف:

(1) سيف فى المشركين فى العرب. وذلك فى قوله تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} (تفسير ابن كثير)

(2) وسيف فى أهل الكتاب، وذلك فى قوله تعالى: {قاتلُوا الذين لا يؤمنون} (التوبة 29).

(3) وسيف فى المنافقين، وذلك فى قوله تعالى: {يا أَيها النبى جاهد الكفار والمنافقين} (التوبة 73، التحريم 9) (تفسير ابن كثير).

(4) سيف فى المنشقّين، وذلك فى قوله تعالى: {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا} (الحجرات 9) (تفسير ابن كثير)

وعلى كلٍ، من يأنف القتال فى سبيل الله، عليه أن يتفكر فى هذه السيوف الأربعة، وينظر فى سيرته ﷺ الطيبة، ليعلَم كيف استعمل هذه السيوف، وكيف عمِلَ بهذه الآيات.

الإصرار على القتال:

الأمر بالجهاد ليس بأمر سطحى فى الإسلام، إنما هو أمر قطعى كتبه الله على عباده، بيّنه الله بكل بسط وشرح. والدليل عليه أن الله لم يقل: قاتلوا المشركين واقتلوهم عند انتهاء الأشهر الحرم،

إنما وجّه إليهم تعليمات شاملة وتوجيهات محكمة ترشدهم إلى خوض حرب حاسمة مع المشركين. وهى:

(1) اقتلوهم حيث وجدتموهم (2) اقتلوهم كيف شئتم (واجتنبوا عن المُثلة) (3) خذوهم واحبسوهم (4) احصروهم إن اختبئوا فى الحصون والقلع. (5) واقعدوا لهم كل مرصد، وأقيموا نقاط التفتيش عند الممرات الرئيسية، وقوموا بالترتيبات العسكرية التى تضمن قبض كل واحد منهم وقتله، وأقيموا نقاط التفتيش فى الصحراء والأسواق.

قال الإمام الرازى:

(2) أولها: {فاقتلوهم حيث وجدتموهم} وذلک أمر بقتلهم على الإطلاق فى أى وقت وأى مكان.

قال المفسرون: المعنى اقعدوا لهم على كل طريق يأخذون فيه إلى البيت أو إلى الصحراء أو إلى التجارة. (التفسير الكبير)

{واقعدوا} ليس معناه حقيقة القعود، بل المراد ترقبهم وترصدهم (روح) واحصروهم أى امنعوهم عن الخروج إذا تحصنوا منكم بحصن (روح عن ابن عباس) (التفسير الماجدى).

طلب بسيط:

أرجو من الإخوة المسلمين الذين أخرجوا الجهاد فى سبيل الله من مسار حياتهم أن يقرءوا هذه الآية بعيونهم التى فى قلوبهم، ويلاحظوا الترتيبات الحربية التى وردت فيها، سواء كان بنية التأويل، أو لغرض آخر، ثم يسأل نفسه، ويقول: هل أنا مسلم؟ خاصة أولئک الذين لم يجدوا أنفسهم جاهزة لتلقى هذه الأحكامات الربانية. فأستغفر الله، ثم أستغفر الله، ثم أستغفر الله. (والله أعلم بالصواب).

قول آخر:

وهذه هى الآية المعروفة بآية السيف، التى نسخت جميع آيات الأمر بالصفح عن المشركين، والصبر على أذاهم. (قرة العينين).

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 6}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وإن أحد من المشركين استجارک فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه. ذلک بأنهم قوم لا يعلمون}.

ملخص معانى الآيۀ:

أى بعد انقضاء الأجل، وبعد أن يحين وقت مباشرۀ قتال المشركين، إن جاءک أحد من المشركين طالبا منک الأمان ليتعرف على الإسلام وحقيقته، وليطلع على براهين صدق الإسلام والقرآن، فأعطه الأمان، حتى يسمع كلام الله، ويعيه جيدا، ثم أبلغه مأمنه كى يقرّر مصيره، والأمر بإعطاءه الأمان كان بسبب جهلهم للإسلام، لذلک قدّم إليهم مزيداً من الفُرص.

الأقوال ومراجعها

باب الإسلام مفتوح:

إن جاء مشرک لدفع الشكوک التى لديه، فلا مانع من تقديم الأمان له. (حاشيۀ اللاهورى)

جانب من الأحكام الضروريۀ:

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: ما من مشرک طلب الأمان ليجد وقتا يدرس فيه الإسلام، إلا ويجوز توفير الأمان له، وله أن يأتى إلى المسلمين، ويسمع كلام الله، ويعى التوحيد، ويعرف أدلۀ نبوۀ محمد ﷺ. وقال: ومن هنا عرفنا أنه إن طلب أحد من المشركين براهين التوحيد والرسالۀ، فعلينا توفيرها، كما علينا توضيحها وتشريحها، ولا يجوز قتله ما لم يتم شرح التوحيد والرسالۀ. ثم قال: قال الله تعالى: {ثم أبلغه مأمنه} وعرفنا منه أنه يجب على إمام المسلمين إذا جاء الحربى بالأمان إلى دار الإسلام أن يحافظ على دمه وماله، كما علمنا وجوب المحافظۀ على أهل الذمۀ، وأن لا يتعرض لهم مسلم، ولا يعتدى عليهم، وعرفنا من أمر إيصال الكافر الحربى إلى دار أمنه أنه لا يجوز له البقاء بين المسلمين بصفۀ دائمۀ، ومذهب الحنفيۀ فى هذه المسألۀ أنه إن بقى سنۀ كاملۀ، صار فى حكم أهل الذمۀ، وتُطبّق عليه كافۀ أحكام أهل الذمۀ، وتؤخذ منه الجزيۀ. (أحكام القرآن 84/3) ثم قال تعالى: {ذلک بأنهم قوم لا يعلمون} لا يعلمون الإسلام وحقيقته، ولا يعرفون الحاجۀ إلى الدخول فى الإسلام، فلابد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا أو يفهموا الحق) (المدارک، وأنوار البيان).

محاسن الإسلام:

من حسن الإسلام أنه أعطى مهلة أربعة أشهر إلى أولئک الذين قتلوا المسلمين أيام قوتهم، وآذوهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وخاضوا معارک طاحنة لاستئصالهم من جذورهم، کی يقرّروا مصيرهم، إن أرادوا الدخول فی الإسلام فلهم ذلک، وإن أرادوا القتال فليستعدوا له، سبحان الله. وقد أثبت الإسلام بسَنّ تلک القوانين أن إخراج الضعفاء من الناس بدون إمهال، أو مهاجمتهم بشکل مفاجئ عمل مهين من أعمال الجُبناء، فقد ظل باب الأمان مفتوحا يوم فتح مکة باستثناء بعض الأشخاص. هذا هو الإسلام وهذا هو الجهاد فيه، وکلما زادت قوته وشوکته، زادت ضوابطه الخُلقية رفعة وسموا، والأمم الأخرى کلما زادت قوة وشوکة، زادت شراسة وظلما وغطرسة وکبرياء، لذلک لا يمکن المحافظة على أمن العالم وسلامته بدون غلبة الإسلام والمسلمين. لاحظوا هذه الآية الکريمة أنها أظلت باب الدعوة مفتوحا رغم انقضاء الأجل، وهذا فی الواقع إن دلّ على شیء فإنه يدل على ثقة الإسلام بصدقه، لذلک لا يتحرج من فتح الباب أمام کل من أراد أن يسمعه ويفهمه، ثم يضمن لهم العودة إلى ديارهم سالمين. وهنا من السهل تقدير المستوى الخُلقی لتلک الأمم التی تقصف المناطق الآهلة بالسکان والمعزولة عن السلاح.

تفسير سهل وجامع لطلاب العلم:

والمعنى وإن جاءک أحد من المشرکين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينک وبينه، واستأمنک ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه {حتى يسمع کلام الله} ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر، على أن المستأمن لا يؤذى، وليس له الإقامة فی دارنا، ويمکن من العود {ذلک} أی الأمر بالإجازة فی قوله فأجره {بأنهم قوم لا يعلمون} بسبب أنهم قوم جهلة لا يعلمون ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه، فلابد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا و يفهموا الحق. (المدارک)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 7}

بسم الله الرحمن الرحيم

{كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم، إن الله يحب المتقين}.

ملخص معانى الآيۀ:

أى كيف يمكن أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله، إذ هم يعادون الله ورسوله، ويشركون به شيئاً، وينقضون عهودهم ومواثيقهم كلما عاهدوا، ويعادون المسلمين عداء شديداً، كيف يصلح توفير الأمان لهم؟ أما الذين عاهدهم المسلمون داخل الحرم، فإن استقاموا فاستقيموا، إن المحافظۀ على العهود والمواثيق من التقوى، والله يحب المتقين.

لا تتحرجوا فى قتل المشركين:

قال النسفى:

استفهام فى معنى الاستنكار، أى مستنكر أن يثبت لهؤلاء عهد، فلا تطمعوا فى ذلک، ولا تحدثوا به نفوسكم، ولا تفكروا فى قتلهم. (المدارک)

الحكمۀ من البراءۀ والقتال:

قال ابن كثير:

يبين الله تعالى حكمته فى البراءۀ من المشركين ونظرته إياهم أربعۀ أشهر ثم بعد ذلک السيف المرهف أين ثقفوا، فقال تعالى: {كيف يكون للمشركين عهد} أى أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله، كافرون به وبرسوله. (تفسير ابن كثير)

تفسير مدهش:

والبعض قال فى معنى {عهد عند الله ورسوله} :

كيف يكون للمشركين عهد عند الله ويأمنون به عذابه غداً. وكيف يكون لهم عند رسوله عهد يأمنون به عذاب الدنيا. (تفسير القرطبى)

وهذا الذى اختاره الدكتور الشهيد عبد الله عزّام:

«عهد عند الله يحميهم من عذاب يوم القيامۀ، وعهد عند رسوله يحميهم من القتال فى الدنيا». (فى ظلال سورۀ التوبۀ)

وملخص التفسير المذكور أن الله يريد تفهيم المسلمين نكتة مهمة فى الجهاد، وهى أنه كيف يمكن للمشركين الذين لا أمان لهم عند الله ورسوله أن يجدوا رأفة ولينا فى قلوبكم. (والله أعلم بالصواب)

{إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام}..

أى باستثناء قليل من المشركين الذين حافظوا على عهدهم، فعليكم أن تحافظوا عليه. والمراد منهم بنو ضمرة وبنو مدلج، فرعى كنانة، لم ينقضا العهد. وقيل: المراد منهم قريش وبنو بكر، والمعنى: إن حافظت قريش وبنو بكر على الصلح الذى أبرمتموه معهم بالحديبية، فحافظوا عليه، لكنهما نقضا العهد بمهاجمة خزاعة. (والله أعلم بالصواب)

وفيما يلى لاحظوا مزيدا من النصوص التى تُوضّح الآية الكريمة بشكل أوسع:

موالاة أعداء الله:

كيف يمكن موالاة أعداء الله تعالى؟ أما الذين عاهدتموهم إن حافظوا عليه، فحافظوا عليه. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

أسباب إيذان الحرب:

عرفنا بما سبقت من الآيات أن من لم يخضع للقرآن، ولم يتخذه دستورا لحياته، فهو من المنشقين، ولاشک أن بقاء المنشقين داخل الدولة يتسبب فى انهيارها، لذلک لا يمكن لحكومة رشيدة أن تتغافل عن تواجد أشرار ومفسدين والساعين فى الفتن، وبناء عليه آذنهم القرآن بالحرب فيما سبقت من الآيات، ثم لم يترک لهم إلا خيارين: إما أن يدخلوا فى الإسلام، أو يغادروا الدولة الإسلامية، وهنا يشير إلى تلک الأسباب التى استدعت إيذانهم بالحرب؟ والأصل عند الإيذان بالحرب الإشارة إلى تلک الأسباب كانت وراء القتال. وقد ظهرت ثورة عظيمة بأرض العرب يوم فتح مكة، وبتغيّر الحكومة يتغير كل شىء، ولمّا يشاهد المشركون أن كل شىء تغير، وأن زمام الحكم قد آل اليوم بيد أولئک الذين كانوا يزدرون بهم، ويذلونهم، قد يثورون ويجيش فى عروقهم دم الحمية القبلية والعصبية، ويسعون إلى إبادة المسلمين جماعيا، يزعمون أنهم بذلک قد يستعيدون سلطانهم ومجدهم الضايع، وعند ارتكابهم لهذه الجريمة لا يرعون فى مؤمن إلاً ولا ذمة، وقد تجرّع المسلمون منهم كأس الغدر والخيانة مراراً، وتأذوا منهم، لذلک لا يجوز لمسلم إقامة روابط الموالاة والمودة بمثل هؤلاء المعتدين المنشقين، إذ لا أهمية لعهودهم ومواثيقهم عند الله ورسوله، ويستثنى منهم من حافظ على الوعود، وهم بنو ضمرة وبنو مدلج». (تفسير الفرقان)

حكمة إعلان البراءة:

البراءة التى سبق الإعلان عنها فى الآيات السابقة، يُشير هنا إلى حكمتها، والمعنى أن هؤلاء مشركى العرب كيف يمكن لهم رعاية العهود والمواثيق، وكيف يمكن المصالحة معهم، لقد رأيتموهم يؤذونكم إذا غلبوا عليكم، فهم لا يرعون فى مؤمن إلاً ولا ذمةً، وبما أنهم عجزوا عن بسط

سلطانهم عليكم، لذلک يرغبون فی إرضاءكم بوعود شفهية، غير نابعة من قلوبهم، وقد ظلوا يبحثون عن فُرص تمكنهم من الغدر والخيانة، جُبل أغلبهم على الغدر والخيانة، ولا عبرة بمحافظة بعضهم على وعودهم إن كان معظمهم لا يحافظون عليها، وعلى كل حال لا يمكن لله ورسوله أن يعاهد قوما خائنا غداراً. أما القبائل التی عاهدتموها عند المسجد الحرام، فلا تنقضوا عدها إن استقاموا عليه، واستقيموا معهم إن استقاموا، واحذروا من أن تفرطوا فی أمر تافه، فيشيعوا الغدر والخيانة عنكم، والله يحب الذين يخافونه. وبما أن بنی كنانة حافظت على عهدها، لذلک أتم المسلمون معهم العهد إلى مدته، وكانت تسعة أشهر قد بقيت عند إعلان البراءة، فحافظوا عليها». (التفسير العثمانی)

أسباب قتال المشركين:

فی هذه الآيات أراد الله تعالى بيان تلک الأسباب التی استدعت قتال المشركين، فهی مبرّرات القتال مع المشركين. (والله أعلم بالصواب)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 8}

بسم الله الرحمن الرحيم

{كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة. يُرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم، وأكثرهم فاسقون}.

ملخص معانى الآية:

كيف تستحق عهودهم ومواثيقهم الرعاية عند الله ورسوله، وكيف يمكن أن تدوم مودتكم ومحبتكم معهم؟ ذلك لأنهم إن غلبوا وتسلّطوا عليكم، لا يرقبوا فيكم قرابةً ولا عهداً، يسعون إلى إرضاءكم بأفواههم، وقلوبهم لا تريد الوفاء بعهودكم، يخافون من الجهاد، ويرغبون فى إرضائكم باللسان دون القلب، إذ هى مليئة بالحقد والعداوة، وأكثرهم فاسقون، يميلون إلى نقض العهد والميثاق.

كيف موالاتهم؟

قال اللاهورى رحمه الله:

كيف موالاتهم؟ فإنهم إن سيطروا عليكم، لا يرقبوا فى مؤمن قرابة ولا عهداً، وألحقوا بهم الأضرار بالوجوه كلها. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

لعل المسلمين يعقلون:

فى هذه الآية الكريمة أشار الله تعالى إلى شرح طبيعة المشركين العامة لعباده المسلمين، ومن يعلم أكثر من الله؟ الكفار ألدّ أعداء الإسلام، ولا يألون جهداً فى إلحاق الأذى بهم كلما تيسر لهم ذلك، ولا ينظرون فى مؤمن قرابته النسبية ولا عهوده، أما إن كانوا ضعفاء ولا حيلة لهم، طفقوا ينشدون الإنسانية والأمن والوحدة وغيرها من الكلمات الرنانة، يسعون إلى عزل المسلمين وإضعافهم. لقد حذّر القرآن من عداوات المشركين والكفار. وقد اتخذها صحابة رسول الله ﷺ نبراسا لحياتهم، فلم يغترّوا ببسماتهم وكلماتهم المعسولة وحضاراتهم، لكن مسلمى اليوم جعلوها وراء ظهورهم، وتغفلوا عن أعدائهم، فطفقوا يسقطون فيما حفروا لهم، ويضيع دينهم ودنياهم.

قال صاحب أنوار البيان:

قال الله تعالى: {كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة} فهذا حالهم منذ القِدم، أما اليوم فيسعون إلى إخماد حماس المسلمين للجهاد بشعارات مختلفة من القومية والوطنية والوحدة والتوحّد، ويعاهدونهم، ثم إن ظفروا بهم، أو تسلّطوا عليهم، لا يرقبوا فى مؤمن قرابة نسبية ولا عهدا ولا ميثاقا، ويبيدونهم جماعيا. كما هذا حال تلك الجماعات التى تنتسب إلى الإسلام، لكنها

كافرة لعقيدتها وأفكارها المضللة، بل هى أنشئت لهدم الإسلام من داخله، وهم يسعون إلى خداع المسلمين باسم الإسلام، ويناشدون الوحدة والتلاحم، وفى باطنهم لا يألون جهدا فى الإضرار بالإسلام والمسلمين، وكلما سنحت لهم الفرصة قتلوهم وأراقوا دمائهم. فهذه وتيرتهم منذ قرون. (أنوار البيان)

الكفار يسعون إلى تهدئة المسلمين وتطمينهم بكلامهم المعسول، فهيئة الأمم المتحدة والمنظمات العاملة فى مجالات حقوق الإنسان ليست إلا وجها من وجوه الكفار والمشركين الكثيرة التى تسعى إلى محو روح الجهاد من قلوب المسلمين، أما أولئک الجنود الذين يقصفون البلاد الإسلامية ويزحفونها فهى فى قلوبهم وعيونهم، هؤلاء الجنود أذلوا البلاد الإسلامية ونهكوا حرماتها، ولا زالوا ينتهكونها، وفى مثل هذه الظروف تسأل هذه الآية، وتقول: كيف توالونهم وكيف تعاهدونهم؟

شر الكفر والشرک ونحسه:

لاحظوا العبارة التالية:

لا يوجد شىء فى الدنيا أضر بخُلق الإنسان من الشرک، لذلک أرجع القرآن الشر كله إليه، وبناء عليه لا يمكن الثقة بصاحبه، ثم فى هذه الآية أشار إلى مزيد من قبائحهم التى ظهرت بسبب تواجد الشرك فيهم، ومنها أنهم إن يظهروا على المسلمين ويغلبوا عليهم، فإنهم لا يقيمون للقرابة النسبية والعهود والمواثيق وزناً.

{إن يثقفوكم يكونوا لكم أعدآء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء} أى يسعون إلى إرضائكم بكلامهم وخُطبهم المعسولة، أما قلوبهم فلميئة بالأحقاد والضغائن، ويجتهدون فى القضاء عليكم كلما تيسر لهم ذلک. (تفسير القرآن)

الأمم الإفرنجية اليوم:

قال صاحب التفسير الماجدى:

الكفار والمشركون فى الجاهلية ما كانوا مختلفين عن المثقفين والمتحضرين من الأمم الإفرنجية اليوم، فعهودهم ومواثيقهم كانت تابعة لمصالحهم الآنية. (تفسير الفرقان)

وهذه من ميزات الإسلام أنه يوصى أهله بالوفاء بالعهود فى الظروف كلها، والإيفاء إليهم فى جميع ما تعاهدتم معهم مع كامل الصدق والإخلاص، كتب التاريخ محشوة بوقائعهم الجليلة فى سبيل الوفاء بالعهود، أما الكفار والمشركون فلا يلجأون إلى العهود إلا لمصالح آنية، وكلما سنحت لهم الفرصة ثاروا عليهم ونقضوا ما كان بينهم من صلح وعهد، وألحقوا بهم أضراراً، يا ليت لو أدرک المسلمون توجيهات القرآن، وعملوا بها، واستعادوا مجدهم الضائع، وللأسف الشديد إن عدداً من المسلمين اتخذوا وظائفهم ورواتبهم عند المشركين غاية حياتهم. وإلى الله المشتكى.

كيف توادون من أنكر الله ورسوله؟

كتب العلامة ابن كثير رحمه الله العبارة الجزلية التالية فى تفسير الآية الكريمة:

«يقول تعالى محرّضا المؤمنين على معاداتهم، والتبرّى منهم، ومبيّناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى، وكفرهم برسول الله ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة».

رُوى عن ابن عباس أن (الإلّ) بمعنى القرابة، و (الذمة) بمعنى العهد. (ابن كثير)

أى إن جريمتهم الكبرى هى الإشراک بالله، ثم إنكارهم برسالة محمد ، ثم عداءهم للمسلمين، فالقرآن يشير إلى شناعتها وشدتها، يا ليت لو اعتبرها المسلمون كذلک، فلا يوادوا أصحابها. لاحظوا مشركى اليوم، لقد أقرّوا الجهاد الإسلامى إرهابا واعتبروه جريمة العصر الكبرى، فنهضوا لمحاربته، فياليت المسلمين لو صاروا أوفياء لربهم ولرسولهم، واعتبروا كل من أنكر الله ورسوله مجرما، لكانت الدنيا اليوم بغير وجهها التى عليه.

كيف فسّق المشركين؟

فى آخر هذه الآية جاء: {وأكثرهم فاسقون} وتفصيل ذلک أن ما من مشرک إلا وهو فاسق أى عاص لربه، لكن المراد من الفسق هنا نوع خاص منه، وهو نقض العهد، لذلک أكّد على أن أكثرهم فاسقون، ومنهم من يحافظ عليه، وبأسلوب القرآن المذكور الذى فيه جانب من الحذر والحيطة من عدم استخدام صيغة العموم يمكن لنا استخلاص بعض الدروس والنصائح:

1- لا يترک جادة الحق والاستقامة عند مخالفة قوم، فقد استثنى بعض المشركين من نقض العهد والفسق، ثم أطلق الفسق على عامتهم.

2- إن نقض العهد من الجرائم الشنيعة التى تتنفر منها نفوس بعض المشركين، فضلاً عن المسلمين الذين يجب عليهم أن يبتعدوا من ريحه.

3- إن شرّ الدواب عند الله الكفار والمشركون، ثم أفسقهم وأقبحهم من كان ينقض العهد، كما سبق ذلک فى سورة الأنفال.

قال النسفى: {وأكثرهم فاسقون} ناقضون العهد. (المدارک)

وقال القرطبى:

أى ناقضون العهد، وكل كافر فاسق ولكنه أراد ههنا المجاهرين بالقبائح ونقض العهد. (القرطبى)

فائدة:

قال صاحب التفسير الحقانى:

مجرد الإشراک بالله يكفى لتدمير كافة محاسن العبد الخُلقية والكمالية، إذ هو عبارة عن : الجهل بالله، وحب الدنيا، وترجيح الذات، وعدم الاعتراف بفضل مالكه الحقيقى. (التفسير الحقانى)

نسأل الله أن یوفقنا جمیعا لإدراک حقیقۀ الکفار والمشرکین، ویحفظنا من شرورهم الظاهرۀ والباطنۀ. آمین یا أرحم الراحمین.

{سورة التوبة مدنية، الآية : 9}

بسم الله الرحمن الرحيم

{اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً فصدّوا عن سبيله، إنهم سآء ما يعملون}.

ملخص معانى الآيۃ:

المشركون ليسوا على عقيدۃ صحيحۃ أو إيمان صادق، إنما هم عُبّاد الدنيا وأحباءها، وقد وجب محاربتهم لأنهم لا يهدفون بإنكارهم بآيات الله تعالى إلا حطام الدنيا، رفضوا الإيمان بالله خشيۃ الحرمان من الدنيا الحقيرۃ، فما من شخص يجعل الدنيا نُصب عينيه إلا وتعسّر عليه السير فى طريق الله، لا يؤمنون بالله ولا يوسعون الطريق أمام غيرهم ليؤمنوا، إنهم ساء ما كانوا يعملون. (مستفاد من ابن كثير وأنوار البيان)

فيها ترغيب إلى القتال:

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى ذمّاً للمشركين وحثاً للمؤمنين على قتالهم {اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً}. (تفسير ابن كثير)

إن الانغماس فى الدنيا بحيث لا يفوته الإيمان يعتبر جريمۃ، لأن من لا يؤمن باليوم الآخر يصعب كفه عن الظلم ونقض العهد والقبائح الخُلقيۃ، يملأ العالم بالظلم والفاحشۃ والمكر، وخير شاهد عليه ما نراه اليوم حولنا، يسعون إلى نشر الرذيلۃ والظلم بقوۃ السلاح. (والله أعلم بالصواب)

قبائح المشركين عائدۃ إلى حب الدنيا:

قال صاحب معارف القرآن:

وفى الآيۃ التاسعۃ بعد الإشارۃ إلى المشركين الذين نقضوا العهد، وإلى أسباب النقض، وجّه إليهم تعليمات خاصۃ، وأكّد أنهم إن تأمّلوا فيما هم فيه لأصلحوا أحوالهم، كما حذّر عموم المسلمين من مغبۃ الوقوع فيما أُبتلى به المشركون حتى أقدموا على الغدر والخيانۃ، فإن حب الدنيا أعمى أبصارهم، ورضوا بشراء آيات الله تعالى بثمن قليل، وساء ما كانوا يعملون. (معارف القرآن)

عدم الشعور بمسئوليۃ اليوم الآخر جريمۃ:

أى ما الذى كسبوه عوضا عن الأحكام الربانيۃ التى تُمثّل نعمۃ سرمديۃ؟ حطام الدنيا الفانيۃ الزائلۃ؟ هنا أشار إلى الدافع الحقيقى لنقض العهد، وهو الكفر باليوم الآخر، إذ هم لا يشعرون بشىء من المسئوليات تجاهه فى قلوبهم. (التفسير الماجدى)

عدم الإيمان بالله استجابةً للشهوات:

لم يؤمنوا بالله لهرعهم إلى الشهوات، فكيف توادُّهم؟ (حاشية اللاهورى)

لاحظوا العبارات المذكورة بدقة، فحب الدنيا يُعتبر اليوم كمالا إنسانيا وبراعة وفنّاً، يتخلى المسلم عن إيمانه سعياً وراء بريقها، رغم شناعتها وقبحها عند الله، فمن فاته الإيمان والقرآن للهثه وراء الدنيا وبريقها، كان من المجرمين الذين يستحقون كافة أشكال الشجب والتنديد، لأنهم لم يؤمنوا بالله لأجل شيء حقير وتافه، ومنعوا غيرهم عن الإيمان بالانهماك فى جمال الدنيا وروعتها وبريقها، هم ساء ما كانوا يعملون. (التفسير العثمانى)

تفسير سهل لطلبة العلم:

{اشتروا} استبدلوا {بآيات الله} بالقرآن {ثمناً قليلا} عرضا يسيرا وهو اتباع الأهواء والشهوات {فصدوا عن سبيله} فعدلوا عنه وصرفوا غيرهم {إنهم ساء ما كانوا يعملون} أى بئس الصنيع صنيعهم. (المدارك)

يا ليت...

يا ليت لو عمل المسلمون بهذه الآية، واستقبحوا صنيع أولئك الذين ابتعدوا عن الإيمان والقرآن لأجل الدنيا، ولا ينفعلوا بتقدمهم الظاهرى وبريقهم وروعتهم.

مائدة نقض العهد:

وكان مجاهد من بين المفسرين يقول: أراد ب {ثمنا قليلا} الطعام الذى أطعم أبو سفيان المشركين، فنقضوا عهدهم مع المسلمين، حيث يقول القرطبى:

يعنى المشركين فى نقضهم العهود بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان، قاله مجاهد. (القرطبى)

وفى الآية إشارة إلى اليهود:

وفى التفسير الحقانى:

اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً من الدنيا، أى قدّموا الفوائد الدنيوية على الدين، وفيها إشارة إلى يهود بنى قريظة الذين شاركوا فى نقض العهد. (التفسير الحقانى)

يبدو أن هذا القول مستفاد من تحقيق الإمام الرازى التالى:

الثانى: لا يبعد أن تكون طائفة من اليهود أعانوا المشركين على نقض تلك العهود، فكان المراد من هذه الآية ذم اليهود. (التفسير الكبير)

الخُلق الحسن فى اتباع دين الحق:

فى تفسير الفرقان:

یحرص المشركون دائما فی القضاء علی المسلمین بأی طریق كان، أو فی استرقاقهم، أما عن أنفسهم فلا یرضون أن یقیّدوها بشیء من الأدیان، وحیاتهم عبارة عن الفسق والفجور. لقد أكّد فی هذه الآیة علی أن معتقداتهم لا تستند إلی الحق، ولا یمكن استحداث الخُلق الحسن فی داخل الإنسان بدون التقیّد بالقوانین الربانیة، فلما تسربت اللامذهبیة إلی قلوبهم، صاروا یشترون بآیات الله ثمنا قلیلاً، ینشرون الرذیلة متسترین بآیات الله، ویصدون الله عن سبیل الله. (تفسیر الفرقان)

وقد أُبتلی العلمانیون بمرض اللامذهبیة، وعندهم من الحكمة الاستفادة من المنافع الدنیویة بجعل تعلیمات الدین وراء ظهورهم. والعیاذ بالله

{سورة التوبة مدنية، الآية : 10}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئک هم المعتدون}.

ملخص معانى الآية:

ليسوا أعداءكم، بل هم أعداء الأمة الإسلامية بأجمعها، أى لم يكتفوا بمعاداة المسلمين الذين عاهدوا معهم، وجعلوا قرابتهم وعهودهم وراء ظهورهم، وصاروا بحال لا يرقبون فى مؤمن قرابة ولا عهداً، لأنهم يعادون كل شيء اسمه إسلام، سعوا إلى إلحاق الأذى بالمسلمين كلما سنحت لهم الفرصة، وينقضون جميع العهود والقرابات، ويتعدون الحدود فى المظالم.

الآية ليس فيها تكرار:

لاشک أن بين مضمونى الآيتين تشابها، لكن أكثر أهل العلم على أنه لا تكرار بينهما، قال النسفى رحمه الله:

جاء فى الآية الثامنة أنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، وهنا أشار إلى أنهم لا يرقبون فى مؤمن قرابة ولا عهدا، فمفهوم الآية الثامنة كان خاصا مع أولئک الذين عاهدهم المسلمون، ومفهوم الآية العاشرة عام يشمل جميع المسلمين.

«ولا تكرار، لأن الأول على الخصوص حيث قال فيكم والثانى على العموم لأنه قال فى مؤمن». (المدارک).

وقال القرطبى:

«قال النحاس: ليس هذا تكريراً، ولكن الأول لجميع المشركين، والثانى لليهود خاصة». (القرطبى)

القول الثانى:

بين مضمونى الآيتين تكراراً، والغرض منه التأكيد على أنهم تعدوا جميع الحدود الخُلقية فى جريمتهم هذه، بل عداءهم للإسلام قد اختلط بدمهم ولحمهم. لاحظوا العبارة التالية:

{لا يرقبون..} الخ كرّر للتأكيد، لقد سقطوا فى مهابط الذلة بعد التخلى عن المسئولية الدنيوية والمؤاخذة الأخروية، فالشرف جوهر مستودع فى الأمم كلها، بغض النظر عن ديانتها، ويقتضى المحافظة على القرابة النسبية والعهد الذى قطعه على نفسه، فهؤلاء أعداء الإسلام حُرموا من هذا الجوهر أيضاً. (التفسير الماجدى)

أناس تعدوا حدود البشرية:

قال اللاهوری رحمه الله:

لا ينظرون إلى إيمان المرء ولا إلى قرابته وعهده، فقد تعدوا حدود البشرية. (حاشية اللاهوری)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 11}

بسم الله الرحمن الرحيم

{فإن تابوا وأقاموا الصلاۃ وآتَوُا الزكوۃ فإخوانكم فی الدين. ونُفصّل الآيات لقوم يعلمون}.

ملخص معانی الآیۃ:

الغرض من القتال فی سبیل الله إعلاء کلمۃ الله، وإصلاح الأرض ومن علیها، وسعیا إلی تحقیق هذا الغرض الأسمی جعل باب التوبۃ مفتوحا رغم غدر الکفار والمشرکین وجرائمهم الأخری، فإن تابوا عن کفرهم، ودخلوا فی الإسلام، وقاموا بتأدیۃ الصلاۃ والزکاۃ، فلهم الأمن فی الأیام المستقبلیۃ، وینضمون إلی الأخوۃ الإسلامیۃ التی تکفل لهم کافۃ الحقوق التی یتمتع بها المجتمع الإسلامی، وسوف یُغفر لهم غدرهم وخیاناتهم السابقۃ، فلیدرک العلماء معانی هذه الآیات، ولیستوعبوها جیداً، ویتأملوا فیها، ویطبقوها علی أنفسهم.

تفسیر موجز:

قال القرطبی رحمه الله:

فإن تابوا أی عن الشرک، والتزموا أحکام الإسلام فإخوانکم، أی فهم إخوانکم فی الدین. قال ابن عباس: حرمت هذه دماء أهل القبلۃ، وقد تقدم هذا المعنی. وقال ابن زید: افترض الله الصلاۃ والزکاۃ، وأبی أن یفرق بینهما، وأن لا تقبل الصلاۃ إلا بالزکاۃ. (القرطبی)

ملاحظۃ مهمۃ:

أشار الشاه عبد القادر رحمه الله تعالی إلی نکتۃ مهمۃ فی کلمۃ «الدین» فقال:

{فإخوانکم فی الدین} أی فی أحکام الشرع، ومن هنا عرفنا أن من کان مسلما بظاهره، وقلبه رافضاً له، فهو فی حکم المسلمین باعتبار الظاهر، لکن لا تثقوا فیه، ولا تتخذوه ولیا ولا صدیقا. (موضح القرآن)

رحمنا الله، فقد انتصب علی المسلمین حکام وأمراء لا تتوفر فیهم مقتضیات الإسلام الظاهرۃ، لا یهتمون بفروض الإسلام من الصلاۃ والزکاۃ، وانتصبوا أنفسهم حکاما علی المسلمین وقادۃ، ویدّعون بالنصح للأمۃ، وأنهم یسعون إلی إنقاذها. اللهم ارحم أمۃ محمد ﷺ.

ملاحظة مهمة:

هنا أشار بعض أهل العلم إلى نكتة مهمة، وقالوا: لا يمكن الثقة بالكفار والمشركين ما لم يتوبوا عن الكفر، ولا التودد إليهم، إليه الإشارة فی آخر الآية حيث قال: {ونُفَصِّلُ الآيات لقوم يعلمون}. لاحظوا العبارة التالية:

«إن هم استسلموا للمدارج الأوّلية، فلا إشكال لهم عليهم، فليدرک العلماء أن المولعين باليهودية والنصرانية والشرک والكفر لا يخلصون لهم المودة والمحبة، فلا يثقوا فی صداقاتهم ووِدادهم». (تفسير القرآن)

وأشار صاحب الكشاف وصاحب المدارک إلى أن {ونفصل الآيات لقوم يعلمون} جملة معترضة، وقالوا معناها:

«كأنه قيل: وأن من تأمل تفصيلها فهو العالم تحريضا على تأمل ما فصل من أحكام المشركين المعاهدين وعلى المحافظة عليها». (المدارک)

ثلاثة شروط للانضمام إلى المجتمع الإسلامی:

قال صاحب معارف القرآن:

أشارت الآية إلى أن للانضمام إلى المجتمع الإسلامی ثلاثة شروط: الأول: التوبة عن الشرک والكفر. والثانی: الصلاة. والثالث: الزكاة. لأن الإيمان والتوبة من الأمور المخفية التی لا يمكن الاطلاع عليها، لذلک ذكر علامتين ظاهرتين، وهما الصلاة والزكاة.

وللتأكيد على المحافظة على أحكام المعاهدين والتائبين المذكورة قال: {ونُفَصّل الآيات لقوم يعلمون}. (معارف القرآن)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 12}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فی دينكم فقاتلوا أئمة الكفر، إنّهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون}.

ملخص معانی الآيةِ:

وإن نقضوا العهد (كما فعل بنو بكر، وهاجموا على خزاعة، وأمدتهم قريش بالعتاد) ولم ينتهوا عن الكفر، بل ساروا على نهجهم فی طعن الإسلام وتعييبه والإساءة إليه، فاعلموا أنهم أئمة الكفر، لأن كثيرا من المتخلفين عقليا يقلدونهم فی أفعالهم وأقوالهم، فقاتلوا زعامة الكفر وقيادته، إذ لم يبق لهم عهد ولا ميثاق لديكم، لعلهم ينتهون من شنائعهم وتهاورهم بعدما ينالون عقاباً بأيديكم، أو يتوبوا عن كفرهم وشركهم ويُسلموا. (ملخص من التفسير العثمانی)

المناسبة بين الآيات:

هنا بصدد ذكر مبررات قتال المشركين، وتحديد غايته، أنه يستمر لحين يتوبون عن كفرهم، ثم أشار إلى السببين اللذين استدعيا وجوب القتال على الفور: الأول: مخالفتهم للعهد. الثانی: إساءتهم للإسلام. ثم حدّد للمجاهدين هدفا كبيرا، وقال: صوّبوا بنادقكم باتجاه زعامة الكفر وقيادته، حتى يؤدی إلى قصم ظهر الكفر والشرك، ويعجزوا عن الغدر والخيانة، فينتهوا عن الكفر والشرك.

وأفضل طريق لكسر شوكة الكفر وشره: القتال فی سبيل الله، كما قال الله تعالى فی موضع آخر: {فقاتل فی سبيل الله، لا تُكلف إلا نفسک وحرّض المؤمنين، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا. والله أشد بأسا وأشد تنكيلا}. (النساء 84)

والمناسبة بين الآيات عند التهانوی رحمه الله تعالى:

الآيات من 7 إلى 12 نزلت قبل فتح مكة، وفيها تبشير بأن هؤلاء المشركين – الذين عاهدتم معهم بالحديبية – سوف ينقضون عهدهم. وفی الآية 12 أشار إلى أنهم إن نقضوا العهد قاتلتموهم. ونزلت الآية 13 بعد نقض العهد، وفيها أوامر إلى المسلمين بقتالهم. ارجع إلى بيان القرآن لمزيد من التفاصيل. (والله أعلم بالصواب)

أمر فی هذه الآية بقتال أئمة الكفر، فمن هم؟ سوف نتكلم عنهم فيما بعد، وقبله لاحظوا جانبا من شرح وبيان هذه الآية على لسان المفسرين:

البيان القرطبی:

أشار القرطبی رحمه الله تعالى إلى النكات المهمة التالية فی شرح هذه الآية:

(1) استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن فى الدين. الخ. وللطعن فى الدين معنيين: الأول: نسبة ما لا يليق بالدين إليه. الثانى: الإساءة إلى حكم من أحكام الدين. ثم قال رحمه الله:

وقال ابن المنذر: أجمع عامة أهل العلم على أن من سبّ النبى ﷺ عليه القتل.

(2) الأقوال فى أئمة الكفر:

(1) والمراد صناديد قريش.. فى قول بعض العلماء.

كأبى جهل وعتبة وشيبة وغيرهم.

يرد عليه القرطبى، ويشير إلى أن عند نزول هذه الآية كان قد زال نظام الزعامة القبلية والعشائرية فى قريش، لإسلام أكثرهم، ولتسوّل بعضهم الأمان.

(2) من أقدم على نكث العهد والطعن فى الدين يكون أصلا ورأسا فى الكفر.

(3) المشركون الذين أمدوا بنى بكر على خزاعة، إذ قال حذيفة رضى الله عنه يوما: لم يبق من أئمة الكفر اليوم سوى ثلاثة. (القرطبى)

تفسير ميسر:

قال صاحب أنوار البيان:

لم يقل «فقاتلوهم» إنما قال: {فقاتلوا أئمة الكفر} بلفظ واضح صريح، أراد بهم كافة مشركى قريش، الذين تزعموا مشركى العرب، لا يؤمنون ولا يسمحون غيرهم يؤمنون، تزعمتهم العرب واقتدت بهم، ينظرون إليهم، لا يسلمون حتى يُسلموا. أو أراد بأئمة الكفر أبا جهل وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وأبا سفيان بن حرب وغيرهم، وهذا الذى اختاره ابن عباس. وقال: نزلت فى زعماء قريش من المشركين، الذين نقضوا العهد، وأشاروا بإخراج الرسول من مكة عند اجتماعهم بدار الندوة. {إنهم لا اَيمان لهم} أى لا تُغنى حلفهم. {لعلهم ينتهون} قاتلوهم حتى ينتهوا عن طعن دينكم ومواجهتكم. وقيل: حتى ينتهوا عن كفرهم وشركهم. (معالم التنزيل)

لقد نقض مشركوا مكة العهد، فلماذا ذكر نقض العهد بأداة الشرط؟

قال صاحب روح المعانى: والمعنى أنهم إن ثبتوا على النقض، ولم يؤمنوا فقاتلوهم. وقد ورد على قلبى أن المقصود منها الإشارة إلى كل من يأتى بعدهم من المشركين، والمعنى أنه لاشك أن المشركين قد نقضوا العهد، فإن فعل المشركون الذين يأتون بعدهم مثل ما فعل سلفهم، وطعنوا فى دينكم، فقاتلوهم، وخاصة الصناديد منهم، ولا عبرة بحلفهم وأيمانهم، إن فعلتم ذلك، امتنعوا عن الطعن ولا يتشجعوا لقتالكم. (أنوار البيان)

شرح غريب الآية:

قال صاحب التفسير الماجدى:

{وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا فى دينكم} الطعن فى اللغة: الضرب بالسهم، وهذه الكلمة لا تُطلق على النقد الهادف البنّاء، بل هو ما يشق القلب، ويجرحه. ليس الغرض من

الطعن فى الدين : التوصل إلى حقيقة الشيء وإدراک کنهه، بل الغرض منه الإساءة والإزدراء بالدين، ومثل هذا التطاول فى قرننا النيّر هذا العشرين يعتبر جريمة فى جميع الأعراف والقوانين الدولية.

{فقاتلوا أئمة الكفر} حكم قتل الأئمة لا ينافى قتل عامتهم، فالتصريح باسم الأئمة للاهتمام والتأكيد عليه، إذ بقتلهم ينقاد عامتهم أو يتشتتون فى الأرض.

أى قاتلوا الكفار (بحر) وخص الأئمة بالذكر لأنهم هم الذين يحرضون الأتباع على البقاء على الكفر. (بحر)

تخصيصهم بالذكر لأن قتلهم أهم، لا لأنه لا يقتل غيرهم. (روح)

ويبدو مما ذكرنا أن المعاهد إن خالف العهد بأى شكل من الأشكال، وطعن فى الدين، فقد نقض العهد.

فيه دلالة على أن أهل العهد متى خالفوا شيئاً مما عوهدوا عليه، وطعنوا فى ديننا، فقد نقضوا العهد. (الجصاص) (التفسير الماجدى).

من هم أئمة الكفر؟

لاشک أن أحكام القرآن الكريم غير مختصة بزمان أو مكان، بل باقية ما بقيت السموات والأرض، ففى هذه الآية الكريمة أشار الله تعالى إلى وصفة مهمة للحصانة من شر الكفار والمشركين وتطاولهم وتآمرهم، وهى محاربتهم بالاستمرار، حتى يكفوا عن خبثهم وإساءتهم، وعسى أن يكفوا عن كفرهم، فيدخلوا فى دين الله.

قال القرطبى رحمه الله:

لعلهم ينتهون أى عن كفرهم وباطلهم، وأذيتهم للمسلمين، وذلک يقتضى أن يكون الغرض من قتالهم دفع ضررهم لينتهوا عن مقاتلتنا ويدخلوا فى ديننا. (القرطبى)

كلمة «لعل» فى القرآن الكريم تدل على ما هو فوق الرجاء، وهو اليقين. والمعنى: أنتم أيها المسلمون إن أردتم منع المشركين عن خبثهم وإساءتهم وكيدهم، وأن ينتشر فيهم الإسلام على قدم وساق، فما عليكم إلا أن تحاربوهم، به تبلغون غايتكم.

فهذه استراتيجية عسكرية مهمة، أشار إليها القرآن، إذ الكفر والشرک ليس بفكر صادق يتمسكون به، إنما هناک مجموعة من الناس يرغمون العوام على الكفر والشرک بفضل قوتهم وثراءهم ونفوذهم، وللعوام بعض المصالح الدنيوية التى تدفعهم إلى التمسک بذيل الكفر، فإن تم القضاء على صناديد الكفر والشرک، لم يجد عوامهم فيه ما يغريهم على البقاء، ثم يجدون مصالحهم الخاصة فى خطر بعد تعرضهم للهجوم على يد المسلمين. لا يحصل ذلک إلا إذا زالت الأغطية عن الأبصار، وتأمل الناس بفكر عميق، فيجذبهم الإسلام إلى جنباته بدافعه الطبيعى، فيدخلون فى دين الله أفواجا.

كلمة {أئمة الكفر} تُشير إلى معنيين للقتال: أحدهما: البحث عن أولئک الذين يقومون بتغذية المشركين بالفكر والإدارة. فالزعماء الفكريون هم من يحثونهم على المحافظة بعقائدهم الباطلة، ويحرّضونهم على معاداة الإسلام، ويزينون لهم عقائدهم الباطلة، ويزرعون فى قلوبهم بذور

العصبيۀ الشركيۀ. أما الزعماء الإداريون فهم من يزوّدونهم بالمال، ويسعون إلى إقامۀ تحالف سياسى، ويسيّرون شؤون الجيش وينظّمونها.

فلو تمَّ تنحيۀ المذكورين عن الطريق، لأسرع البقيۀ إلى الإيمان والأمن، وكان النبى ٠ يهتم بهذه الوصفۀ القرآنيۀ فى غزواته، فقد تقلص عدد المقتولين إلى حدّ كبير فى عهد الرسول ٠، وارتفع عدد الداخلين فى الإسلام، حتى تمكن ٠ من مشاهدۀ مشهد دخول الناس أفواجا فى الإسلام بنفسه الشريفۀ، كما قال تعالى: {يدخلون فى دين الله أفواجاً}.

المعنى الثانى: أن يتم زحف المشركين بقوۀ بعدما ظهرت منهم الخيانۀ والغدر والإساءۀ إلى الإسلام والطعن فيه، والشدّ عليهم بكل ما يستطيعون بحيث يبلغون بها إلى رؤوس الكفر وصناديده، ولاشک أن الوصول إليهم ليس بسهل، إذ دونهم حجاب وستار، وحرس وحجب، فلا يمكن البلوغ إليهم إلا بعد ضراوۀ المعركۀ وحمى وطيسها، والمرور فوق الأشلاء، ليمكن تطهير الأرض من وجودهم القذر. والمعنى خوض معركۀ قويۀ وحاسمۀ ضدهم بدلاً من المناوشات الآنيۀ، واستئصال الكفر من جذوره. لاحظوا ما يلى نص ما ذكره صاحب تفسير الفرقان:

«فإن لم ينتهوا بعدما عهدوا ووعدوا، ولم يقيموا لأقوالهم وزنا، ونددوا بالإسلام حيث حلّوا وارتحلوا، وطعنوا فى المسلمين لدينهم، ونادوا بأنه لا يمكن إحلال السلام فى العالم ما لم يتم القضاء على المسلمين، فأفضل طريق لعلاج مثل هؤلاء القضاء على زعمائهم ورؤساءهم وقادتهم، لأن تحقق الانتصار والهزيمۀ يعتمد على الزعامۀ والقيادۀ، فهم المسئولون عن أفعال القوم وأعماله، وبعد القضاء عليهم سوف تمتنع أممهم وشعوبهم عن أفعالها ونشاطاتها، ويعم الأمن والاستقرار ربوع الأرض. أما فى الحالات العامۀ فتسعى عقول القوم هؤلاء إلى المحافظۀ على أنفسها بالبقاء فى حصون مشيّدۀ، ولا تبرز فى مواجهۀ مع العدو، ولا سبيل للقضاء عليها إلا بخلق جو من الإبادۀ الجماعيۀ التى تُفنى القوم عن آخرهم، وتقضى على الأخضر واليابس، وتطحن الجيد والردى، وتنتهى رؤوس الكفر والشرک، وهذا هو الغرض الذى تسعى الأمم لتحقيقه من وراء الحرب، من تدمير آليات العدو وخيرۀ رجاله وعقوله، التى تزوّدهم بالغذاء الروحى، وتدفعهم إلى الفساد والبغى. (تفسير الفرقان)

والآن نحتاج إلى وعى ملاحظۀ مهمۀ، وهى أن الإسلام لا شک أنه أنشىء استناداً إلى عقيدۀ طبيعيۀ وفكر واضح لا غموض فيه، فهو ليس بحاجۀ إلى الاعتماد على الشتائم والسباب، وليس هذا حال الكفر والشرک، لذلک تتفكر حول الوسائل التى تضمن لهم المحافظۀ على عقيدۀ المشركين وتقوّيهم عليها، فليجأون إلى السبّ والشتم والطعن والتطاول والبذاءۀ، ولا يمتنعون عن طعن الإسلام والتطاول على ذات الرسول ٠، وتقبيح المسلمين، وهكذا يسعون إلى تقويۀ المشركين على عقيدتهم الباطلۀ، وقد أمر النبى ٠ بضرب أعناق ثمانيۀ بالسيف من أمثال هؤلاء يوم فتح مكۀ، وإن تعلّقوا بأستار الكعبۀ، وكان منهم ابن خطل المشرک البذى الذى ضُرب عنقه.

يجب على المسلمين المحافظۀ على دماء وأموال أهل الذمۀ، وقد أكّد عليها الإسلام بشدۀ، أما إن طعن الذمى فى الإسلام، وتطاول عليه، فإنه لا يبقى ذميا، ويجب قتله. حيث قال النسفى رحمه الله:

«إذا طعن الذمی فی دین الإسلام طعنا ظاهرا، جاز قتله، لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة». (المدارک)

وقال الشاه عبد القادر فی تفسير هذه الآية:

«لا ذمة لمن عاب فی ديننا من أهل الذمة». (موضح القرآن)

فالإسلام دين متكامل ومحفوظ عن العبث، وفيه سعادة للبشرية جمعاء، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو يعالج هذا الموضوع بالحذر والحساسية، ولم تتحول بقية أديان العالم إلى لعبة بيد العابثين إلا لتقصيرها بهذا الجانب، ففيها ضوابط لاحترام الشخص، ولا ضوابط لاحترام الدين نفسه، لذلک لم تسلم من عبث العابثين، بل وتتعرض للتبديل كل يوم، أما الإسلام فدين الله الصادق والأخير، ولم يأذن لأحد بالعبث بعظمته وقداسته، والمسلمون يدركون هذا التوجيه القرآنی، لذلک لا يقدرون على تحمّل شیء من التطاول على الإسلام أو رسول الإسلام، من السهل لهم التضحية بالروح والغالی، ومن الصعب عليهم السماح لأحد بازدراءه وشجبه، أسأل الله تعالى أن يقوّی حماس المسلمين هذا، إذ الجوهر الحقيقی للبشرية حماية دين الله وقوانينه من العبث. والله أعلم بالصواب

نكتة مهمة:

ما من شخص يسیء إلى الإسلام أو رسوله، أو يتطاول عليه أو يهذر، إلا وهو عميل للشيطان، فإن لم يُقتَلوا ولم يتعرضوا للشجب والتنديد شجّعهم الشيطان ورفع معنوياتهم، حتى حسبوا أنفسهم مثقفين وزعماء دينيين، وسعوا إلى إدخال أقاويلهم الكاذبة فی الدين. تأملوا فی اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان، تجدون فيها جانباً كبيراً من الأعمال الخرافية والتطاولات قد تحولت إلى جزء من الدين، ولحماية الإسلام من أمثال هؤلاء الملعونين أصدر توجيهات بقتلهم باعتبارهم أئمة الكفر، وقد سعى المسلمون إلى تطبيقها بكل حماس فی كل عصر وزمان، لذلک نلاحظ نتائجها الطيبة اليوم بحمد الله وفضله. (والله أعلم بالصواب)

{سورة التوبة مدنية، الآيات : 13}

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَلا تُقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بـإخراج الرسـول وهـم بـدءوكم أول مـرة، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين}.

ملخص معانى الآية:

أيها المسلمون! ما لكم لا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وقسمهم، وأرادوا إخراج الرسول من مكة، ثم بدءوا بالقتال من عند أنفسهم، بأن نصروا بنى بكر فى حربه مع حزاعة حلفاءكم، فهل تخشونهم ولا تقاتلونهم والله أحق أن تخشوه وتطيعوا أمره، ولا تنتهوا عن قتالهم، إن كنتم مؤمنين فقوموا بواجب الإيمان، ومن ضمنه قتالهم. (ملخص ما جاء فى أنوار البيان)

تحريض على الجهاد:

لقد فسّر الإمام النسفى الآية بشكل مختصر وجامع بما يأتى:

{ألا يقاتلون قوما نكثوا أيمانهم} التى حلفوها فى المعاهدة {وهمّوا بإخراج الرسول} من مكة {وهم بدءوكم أول مرة} بالقتال والبادى أظلم، فما يمنعكم من أن تقاتلوهم، وبّخهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب {أتخشونهم} توبيخ على الخشية منهم {فاللهُ أحق أن تخشوه} بأن تخشوه فقاتلوا أعداءه {إن كنتم مؤمنين}.

فاخشوه أى قضية الإيمان الكامل أن لا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يبالى بمن سواه. (المدارك)

فيه إشارة إلى أمور عديدة:

1- فى الآية تعيير أولئك الذين امتنعوا عن القتال.

2- وفيها تحريض على القتال.

3- فيها إشارة إلى الأسباب الثلاثة التى استدعت وجوب القتال، وهى: (1) نقض العهد (2) معاداتهم للرسول ﷺ (3) بدء القتال بدون مبرر.

4- الامتناع عن قتال المشركين خوفا منهم يستحق كل شجب وتنديد.

5- من مقتضيات الخشية لله تعالى محاربة أعدائه.

6- كمال الإيمان يقتضى أن لا يخاف المؤمن أحداً سوى الله، ولا يعبأ بأحد سواه.

قال اللاهورى رحمه الله:

إن من أحد أسباب معاداة المشركين أنهم أعداء الرسول ، ومن أحد أدلة خبثهم وشرهم أنهم لا يحافظون على عهودهم ومواثيقهم، بل ينقضونها كلما تيسر لهم ذلك. (حاشية اللاهوری)

تحريض شديد وقوی..

فی الآية تحريض علی قتال أولئک الذين نكثوا أيمانهم وأرادوا إخراج الرسول من مكة.
حيث قال: {وإذ يمكر بک الذين كفروا ليُثبتوک أو يقتلوک أو يخرجوک} (8: 30)
وقال فی سورة الممتحنة : {يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم} (60: 1)
وقال فی موضع: {وإن كادوا ليستفزوک من الأرض ليخرجوک منها} (17: 76)
ثم هذا العداء والحقد لا يتوقف عند ذاتک الكريم، بل يتعدی إلی كل من آمن بک واستخلفک، ليُخرجوهم منها، وليسيطروا عليها، وهم بدؤوكم بالقتال، بحيث نقضوا ما ورد فی وثيقة صلح الحديبية، بمناصرة بنی بكر، مع تفصيله المذكور. فأنتم لماذا تخشون محاربتهم، وإلهكم إله واحد، فاتبعوه، وقاتلوا فی سبيله، بحيث تساوركم هموم المحافظة علی ضوابطه وقواعده، والسعی إلی نشرها وتبليغها. (تفسير القرآن)

الحمية الإيمانية:

فيها إثارة غيرتهم الإيمانية علی الكفار بعدم التخوّف منهم، لأن أحداً لا يليق بالخشية إلا الله، القادر المختار. {أتخشونهم} لِمَا لديهم من العدد والعُدّة أكثر منكم؟ ولاشک أن الخوف عند كثرة العدد والعُدة طبيعی، ودفعه بقوة الإيمان بالله وتثبيته. (التفسير الماجدی)
أی تقوية الإيمان بالله تعالی علاج طبيعی للخوف، لذلک أشار إليها بقوله {إن كنتم مؤمنين}.

جملة عجيبة من القرطبی..

قال القرطبی فی تفسير قوله تعالی: {فالله أحق أن تخشوه}..
«أی تخافوا عقابه فی ترک قتالهم، من أن تخافوا أن ينالكم فی قتالهم مكروه».

البيان الرازی:

أورد الإمام الرازی كلاماً مفصلا فی تفسير هذه الآية، وفيما يلی نذكر ملخصه:
ربط.. اعلم أنه تعالی لما قال {فقاتلوا أئمة الكفر} أتبعه بذكر السبب الذی يبعثهم علی مقاتلتهم، فقال: {ألا تقاتلون قوما نكثوا}.
ثلاثة أسباب: واعلم أنه تعالی ذكر ثلاثة أسباب، فإن توفر فيهم سبب واحد وجب قتالهم، ناهيک عن قتالهم عند اجتماع الأسباب الثلاثة معاً:
1- الغدر... ففيها إشارة أن قتال من غدر من المشركين أولی من قتال غيرهم، ليعتبر بهم غيرهم.

2- همهم بإخراج الرسول ∴... من أحد الأسباب المهمة التى تستدعى وجوب القتال.
3- بدءهم القتال.

مزيد من أسباب التحريض على القتال..

بعد ذكر الأسباب الثلاثة قال: {أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين} وبه تقوّى حكم قتالهم بأربعة أوجه أخرى، وهى:

1- تأكيد حكم القتال بذكر الأسباب المذكورة 2- إثارة الغيرة بقول: أتخشون فلانا، حتى لا يخشوهم، ويقاتلوهم. 3- أشار بقول {فالله أحق أن تخشوه} إلى أن أحداً إن كان لائقا بالخشية فهو الله سبحانه وتعالى، فاخشوه، فلا أحد يبلغه فى القوة والعظمة والجلال، ولا ضرر أكبر من القتل تُصابون به من الكفار، (ولا مفرّ من الموت)، وينالكم خزى الدنيا والعذاب الشديد يوم القيامة، (إن عصيتموه).

2- {إن كنتم مؤمنين} دل بمفهوم المخالفة على عدم الإيمان إن لم يجاهدوا، وباختصار حرّض الله تعالى بالأمور السبعة المذكورة على القتال.

التحريض على فتح مكة:

رُوى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى التحريض على فتح مكة، وردّه الحسن، وقال لا يمكن ذلك، لأن سورة البراءة نزلت بعد سنة من فتح مكة. (موجز ما ورد فى التفسير الكبير)

وإليه مال التهانوى، وقال إنها نزلت قبل فتح مكة، للترغيب فى فتحها، لكن أكثر المفسرين على أنها نزلت بعد الفتح. (والله أعلم بالصواب)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 14، 15}

بسم الله الرحمن الرحيم

{قاتلوهم يُعذّبهم الله بأيديكم ويُخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين. ويُذهب غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم}.

ملخص معانى الآيتين:

(إن كنتم مؤمنين فأطيعوا الله، فيما يأمركم من قتال المشركين) فقاتلوهم (وأمره لا يخلو عن حكمة ومنفعة، وفيما يلى نلخص بعضها):

1- سوف يُعذّب الله الكفار بأيديكم، وفى السابق كان يُعذّب الأمم الكافرة بواسطة الملائكة وبأساليب متنوعة، وتشرَّف اليوم المجاهدون بهذه المرتبة العظيمة، إذ الآن يُعاقب الله أعداءه بأيديهم، فكأنّهم صاروا من آليات القدرة الإلهية.

2- وسوف يُذل الكافرين ويخذلهم، ويذل الكفر بذُلهم، ويؤدى إلى كسر شوكة الكفر، إذ هى العامل الأساسى فى محنة المسلمين، لذلك إن وقعوا فى الأسر والقيد، ضعف صوت الكفر والشرک، وانتشر الإسلام على قدم وساق.

3- وسوف يُغلب الله المؤمنين على الكافرين، بحيث ينصرهم بتأييده، وتتقوى بمشاهدته قلوب المؤمنين، وبعد غلبته ينفّذون حكم الله فى الأرض، وهكذا تنعم الدنيا ببركات الجهاد، إذ فى غلبة النظام الإسلامى وتنفيذه مصلحة الجميع.

4- ويشف الله صدور قوم مؤمنين، فتثلج قلوبهم، لأن قلب المؤمن يتحرک لإعلاء كلمة الله تعالى ورفعتها، ولغلبة الإسلام، ويتضايق إذا رأى الكفر والشرک آخذاً فى القوة والازدهار. فببركة الجهاد عندما ينتصر الإسلام، وينهزم الكفر، يشف صدور قوم مؤمنين، إذ الجهاد دواء لكثير من أمراض القلب، كحب الدنيا، والجبن، والوهن، وسوء استخدام القوة الغاضبة.

5- ويُذهب الله غيظ قلوب المسلمين، حيث تتحول حسراتهم إلى مسرات، إذ المؤمن يشعر بنوع مضايقة فى قلوبهم بما ينالون من المشركين من ظلم وجهد، ويجرح قلبهم كل هذر وهذيان بلسان الكفار، فلا يزول إلا عند تحقق الانتصار بالجهاد فى سبيل الله.

6- وبفضل الجهاد يفتح الله باب التوبة على من يشاء من عباده، أما الكفار فيضطرون إلى المراجعة والتأمل بعدما يشاهدون خزيهم وندمهم، ويتغيرون من الداخل لمّا يشاهدون النصر يتوالى على المسلمين، فيُوفّق كثير منهم للتوبة إلى الله، كما أن المسلمين يستغفرون لذنوبهم ويتوبون ببركة الجهاد.

والله عليم حكيم، يعلم ما فيه مصلحتهم وما فيه ضررهم، يعلم أحوال الناس، ويتعامل معهم حسب الأصلح لهم.

تفسير مختصر وجامع:

أشار الله تعالى فى هذه الآية الكريمة إلى الحكمة من مشروعية الجهاد، لقد تناول القرآن قصص الأمم الماضية التى أُهلكت بما كانت تعمل من الخبائث، تكفر بالله تعالى وتكذّب أنبياءه ولا تؤمن بهم، حتى يبعث الله عليهم عذاباً من السماء، فيهلكون عن آخرهم.

{فكلاً أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم مَّن خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون} (العنكبوت 40).

لاشک أن الأصناف المذكورة من العذاب كانت مؤلمة ومدمرة، فيها العبر والنصيحة للأجيال القادمة، لكن المُعذَّبين لم يكونوا يشاهدون ما وقع عليهم من الذلة والندامة، ولا إمكانية التوبة والرجوع إلى الله، أما الغرض الحقيقى من مشروعية الجهاد فهو إرادة الله فى تعذيب المشركين والمكذّبين بأيدى عباده المؤمنين المخلصين، ففيه تعظيم المؤمنين وتذليل المجرمين، يبدو للعيان ما أيد الله المؤمنين من نصر، تثلج قلوبهم بعدما يشاهدون أولئک الذين يسخرون منهم ويُذلونهم ويعتدون عليهم كيف سقطوا على أيديهم ذليلين مهانين تحت رحمة سيف العدل، وكانوا قبل ذلک يقلقون بما يشاهدون من قوة الكفر وشوكته، والذين لا يقوون على أخذ الثأر من المعتدين لضعفهم ومسكنتهم، تستقر قلوبهم ببركة الجهاد فى سبيل الله. ثم إنه الطريق الأنسب لمعاقبة المجرمين، إذ باب التوبة يظلّ مفتوحاً بعد تلقى العقوبات، وقد يندفع كثير منهم إلى التوبة إذعاناً للأمر الواقع، فقد وقع ذلک فى عهد الرسول ، إذ اعتنق العرب الإسلام خلال مدة يسيرة». (التفسير العثمانى)

ملاحظات جهادية للإمام الرازى:

أشار الإمام الرازى رحمه الله تعالى إلى عدة ملاحظات جهادية فى ثنايا تفسيره للآيتين الكريمتين... وفيما يلى نلخصها:

المناسبة:

فيما سبقت من الآيات أمر الله تعالى بالجهاد بقوله: {ألا تُقاتلون قوما} وأعقبه بذكر سبعة أمور تُلزم الجهاد، ثم أعاد حكم الجهاد فى هذه الآية، وأشار فيها إلى خمسة منافع للجهاد.

{يُعذبهم الله بأيديهم} سمّى الله تعالى بالعذاب الأذى الذى يلحق المشركين بأيدى المسلمين، وهو إما بالقتل وإما بالأسر، وإما بالسلب والنهب، فهذه كلها أنواع العذاب.

{ويُخزِهم} وهذا الخزى يلحقهم فى الدنيا قبل الآخرة {وينصركم عليهم} وبفضل غلبة المسلمين يتقوون. فإن قيل: لا فرق باعتبار المعنى بين خزى المشركين وغلبة المسلمين، فلماذا تكرار مضمون واحد فى الآية الكريمة؟ أجيب عنه أن من الممكن أن يواجه المشركون الخزى والندامة بأيدى المسلمين، لكن المسلمين لا يقدرون على الاستفادة من خيرات الغلبة بسبب آفة، لذلک أشار بلفظ {ينصركم عليهم} إلى أن المسلمين يستفيدون منها.

{ويشف صدور قوم مؤمنين} لحقت خزاعة أضرار بيد بنى بكر وقريش، فأثلج قلوبهم بهزيمة بنى بكر، ومن الطبيعى أن يشعر المرء بالفرح إذا وجد من كان يؤذيه ويصيبه بأذى مقهورا ومهانا ويغلبه عليه، فهذا يسر ويفرح، ويملأ قلبه بالقوة والعزيمة.

{ويُذهب غيظ قلوبهم} ففى النصر والفتح دواء لغيظ القلوب، وبنيله تندفع الهموم والغموم، فلا تكرار بين المضمونين.

جميع ما ذُكر فى هذه الآية الكريمة من حالات، نالها المسلمون عقب فتح مكة، لذلك قيل انها نزلت بشأن فتح مكة. (ملخص التفسير الكبير)

أشار الإمام الرازى إلى معنيين لقوله تعالى: {ويتوبُ الله على من يشاء} الأول: أن المؤمن المجاهد بفضل جهاده ينال مرتبة التوبة إلى الله، ولها أسباب خمسة، ذكرها فى التفسير الكبير، فليعد إليه طلبة العلم. وقيل: المراد من التوبة فى الآية توبة الكفار والمشركين، كما قال القرطبى:

«والذين تاب عليهم مثل أبى سفيان وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن أبى عمرو فإنهم أسلموا...» (القرطبى)

وفّقهم الله تعالى للتوبة، فأسلموا.

وهذه البشارة تدوم إلى يوم القيامة:

أورد الآلوسى رحمه الله سؤالا فى روح المعانى، ثم ردّ عليه، فيما يلى لاحظوه بما كتبه صاحب أنوار البيان..

فائدة:

قد يتساءل هنا أحد أن فتح مكة وقع سنة ثمان من الهجرة، وسورة البراءة نزلت سنة تسع، فأى جهاد تُحرّض عليه هذه الآيات؟ أجاب عنه صاحب روح المعانى فى صفحة 10/62، وقال: الآيات الأولية من سورة البراءة نزلت بعد فتح مكة، وهذه الآيات نزلت قبل الفتح.. إلى آخره. ويمكن أن نقول: فيها بشارة بالنصر والتأييد للمسلمين إلى يوم القيامة، بأنه سوف يدفع عن قلوبهم الغيظ بسبب أذى المشركين وخبثهم، وينصركم، ويخزى الكافرين، ويشف صدوركم بإنزال الهزيمة بحق الكفار. فكما اجتمعت فى أهل مكة أمور استدعت قتالهم من الغدر والخيانة ونقض العهد، والطعن فى الدين، والعزم على إخراج الرسول، والبدء فى القتال. فمثل هذه الأمور قد تظهر من المشركين فى المستقبل، ولا يكون الرسول بين أظهركم، لوفاته، ولا يأتى بعده رسول ولا نبى، فإن ظهرت مثل هذه الأمور، فقاتلوا المشركين حتى يُذلهم الله ويشفى صدوركم، والخطاب موجّه إلى أصحاب رسول الله ﷺ لكن العموم يشمل جميع المسلمين. (تفسير أنوار البيان)

ملاحظة:

قال النسفى رحمه الله:

«ولمّا وبّخهم على ترک القتال جرد لهم الأمر به بقوله {قاتلوهم} ووعدهم النصر ليثبت قلوبهم ويصحح نياتهم بقوله {يعذبهم الله بأيديكم}. (المدارک)

البيان اللاهوری:

قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويشف صدوركم، فقد عذّبوكم فانتقموا منهم، يُذهب الله غيظ المؤمنين، ويتوب على من يشاء منهم، فقد وُفّق أبو سفيان وعكرمة بن أبی جهل للإسلام. (حاشية اللاهوری)

ملحوظة:

ما ورد فی هذه الآيات من أوضاع وظروف وفوائد، تحققت فی عهده ؐ، وهی من دلائل نبوته ؐ، لذلک اعتبرها المفسرون ضمن المعجزات، ثم بعد ذلک ما من عصر من العصور جاهد فيه المسلمون وفق ما أمرهم الله تعالى إلا وتحققت لهم تلک الفوائد، وسوف يستمر القتال فی سبيل الله مع جملة فوائده إلى قيام الساعة.

قال الآلوسی رحمه الله:

وقد أنجز الله تعالى جميع ما وعدهم به على أجمل ما يكون، فالآية من المعجزات لما فيها من الإخبار بالغيب، ووقع ما أخبر عنه. (روح المعانی)

وقال صاحب الكشاف:

وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها، فكان ذلک دليلا على صدق رسول الله ؐ وصحة نبوته. (الكشاف)

نصر الله للمظلومين:

قال القرطبی رحمه الله:

وكانت خزاعة حلفاء النبی ؐ، فأنشد رجل من بنی بكر يهجو النبی ؐ، فقال له خزاعی: إن عُدتَ له جدعتُ أنفک، فعاد له، فجدعه الخزاعی، فاشتعلت نار الحرب بين القبيلتين، وقُتل نفر من خزاعة، فقدم عمرو بن سالم مع نفر من خزاعة إلى النبی ؐ، وأخبره بما حصل بينهم وبين بنی بكر، فلما سمع النبی ؐ ما أخبره، دخل على ميمونة أم المؤمنين رضی الله عنها، وقال: صُبّی علیّ الماء، فكان يغتسل ويقول: لا نصرت إن لم أنصر بنی كعب ثم تجهّز للقتال، وأمر بالتوجه نحو مكة حتى فتحها. (القرطبی)

أراد بلفظ {ويشف صدور قوم مؤمنين} مسلمی خزاعة، لأن فيهم عدد من المسلمين، وراجع البحر المحيط للمزيد.

وقد أورد صاحب الكشاف والآلوسی قول ابن عباس الآتی:

إنهم بطون من اليمن والسبا، قدموا مكة وأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا، فبعثوا إلى رسول الله ؐ يشكون إليه، فقال عليه الصلاة والسلام: «أبشروا فإن الفرج قريب».

والذين شفى الله صدورهم من قوم مؤمنين، هم من خزاعة، من اليمن والسباء، أناس مضطهدون، هم أول من تنطبق عليهم الآية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فمعناها ومفهومها يعم المؤمنين كلهم، كما قال ابن كثير:

وهذا عام فى المؤمنين كلهم. (ابن كثير)

فهى تعم المسلمين جميعا، وبفضل الجهاد تبردت قلوب المؤمنين.

ضرورة إدخال السرور فى قلوب المظلومين للنهوض بهم:

جاء فى تفسير الفرقان:

تقدموا للجهاد فى سبيل الله، تحصلون على الفوائد التالية:

لم يكن عدد المؤمنين بالأنبياء كبيراً حتى عهد موسى عليه السلام، فكانت طريقة تعذيب العصاة من الأمم بإنزال الآفات السماوية والأرضية، ثم صارت أعداد المسلمين تتزايد، فكان إنزال الهزيمة والخزى بهم بيد المؤمنين مكان الآفات السماوية، وصاروا ينشرون الحق والصدق بصفتهم خلفاء الله فى الأرض. فإن قصّروا فى ذلك {يستبدِلْ قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم} تلاحقهم الذلة والخزى، فلما تقرر قتل المشركين، كان الأنسبَ قتلهم بأيدى المسلمين، لأنهم ذاقوا الويلات بأيدى المشركين، ومن طبيعة البشر أخذ الثأر من الظالم عند حصول القوة والمقدرة، فلا مسرة له بدونه، وإلا لأدت إلى ضعف معنوياته، وإهدار مواهبه وقُواه، فإن قتل المسلمون المشركين بأيديهم، دخل الفرح والسرور فى قلوبهم، ويُقبلون على أعمالهم، كما قال تعالى: {وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون} وعملاً بالعدل الإلهى يُسرون عوضا عن المسرة التى حصلت للمشركين فى أول الأمر، وينتج عنه دخول الطيبين الصالحين منهم فى دين الله، لينالوا رحمة الله ومغفرته. (تفسير الفرقان)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 16}

بسم الله الرحمن الرحيم

{أَم حسبتم ان تُتركوا ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة، والله خبير بما تعملون}.

ملخص معانى الآيۃ:

ومن أحد منافع مشروعيۃ الجهاد وحِكَمه ابتلاءكم وامتحانكم، ليعلم المجاهد منكم من غيره، الذين يضحون بالروح والغالى فى سبيلِ الله، ولم يتخذوا من دون الله ورسوله ولا المؤمنين بطانۃ يُطلعونهم على الأسرار، ولو كانوا ذوى القربى، هذا هو المقياس الذى يُختبر به إيمانهم، ولا يمكن تحقيق الانتصار ما لم يتم المشاركۃ العمليۃ فى الجهاد، والله عليم بما تعملون، فيجازيكم حسب أعمالكم، إن تنشطتم فى الجهاد فجزاء مثله، وإن تكاسلتم فمثله. (موجز ما ورد فى بيان القرآن)

بالجهاد يتميز المؤمن الحقيقى من غيره:

قال صاحب أنوار البيان:

ثم قال محرّضا على الجهاد: {أم حسبتم أن تُتركوا..} بدون امتحانكم؟ كلاّ سوف تُختبرون، وسيعلم الله الذين جاهدوا منكم، والذين أخلصوا حبهم لله ورسوله، فإنهم يتميزون عمن تخلف عن الجهاد، واتخذوا الكفار والمشركين بطانۃ. ومضمون الامتحان ورد فى غير هذه الآيۃ أيضاً، كما فى قوله تعالى: {ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} وفى سورۃ العنكبوت {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم يفتنون}. (أنوار البيان)

بالجهاد يتميز المؤمن من المنافق:

ذكر القرطبى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال:

قال: ولما فرض القتال تبين المنافق من غيره، وتميز من يوالى المؤمنين ممن يعاديهم. (التفسير الكبير)

ملحوظۃ:

ما من قُطر من أقطار الأرض يستمر الجهاد فيه إلا وتلاحظون صنفين من الناس، الأول من يقاتل مع المشركين، والثانى: من يناصر المشركين، ويزوّدهم بالمعلومات، ويتخذهم بطانۃ، وقبل بدء المعركۃ كانوا يدّعون الإسلام، وما إن بدأت المعركۃ حتى تميّز المنافق من المؤمن، يهرب المنافق

إلى المشرک ليجد لديه ملاذاً آمناً، يقسم له بالولاء ويتحالف معه، وهکذا بفضل الجهاد يتميز المنافق من المؤمن. (والله أعلم بالصواب)

صنفان من الامتحان:

هذه الآية تذکر نوعين من الامتحان عند الإمام الرازى رحمه الله، الأول من يجاهد ومن لا يجاهد ممن يدّعى الإيمان، ثم الذى يجاهد لأىّ غرض يجاهد، لله أو لغرض من أغراض الدنيا، فيتودّد إلى المشرکين ويواليهم، فمن أخلص نيته فى الجهاد فهو مؤمن، ومن جاهد لغرض من أغراض الدنيا وتودد إلى الکفار فهو منافق.

وفيما يلى نص ما قاله الإمام الرازى:

«والمقصود من ذکر هذا الشرط أن المجاهد قد يجاهد ولا يکون مخلصا بل يکون منافقا، باطنه خلاف ظاهره، وهو الذى يتخذ الوليجة من دون الله ورسوله والمؤمنين، فبيّن تعالى أنه لا يترکهم إلا إذا أتوا بالجهاد مع الإخلاص خاليا عن النفاق والرياء والتودد إلى الکفار وإبطال ما يخالف طريقة الدين». (التفسير الکبير)

لا تتخلوا عن الجهاد إن کنتم مسلمين:

قال صاحب «تفسير الفرقان» تحت هذه الآية:

«لاشک أن الدنيا کلها تُعادى المسلمين، ما من حکومة من الحکومات الأجنبية إلا وتطمع فى القضاء عليهم، فإن مدّت يد الغوث والتعاون إليهم فبنية الکيد والمکر والدجل والخُبث، وللوقاية من شرهم وخبثهم وجب تحريض المؤمنين على الجهاد، إذ سر حياتهم الجهاد فى سبيل الله، أحاط بهم العدو کلما تخلّوا عنه ليدمروهم، لذلک أشار إلى أنکم لا تهدأون ما لم يتم تمحيص المجاهدين من غيرهم».

قال الله تعالى فى موضع: {أحسب الناس أن يُترکوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون} (29: 2) وقال فى موضع: {أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتکم مثل الذين خلوا من قبلکم مستهم البأسآء والضرّآء وزُلزلوا} (2: 214) وقال فى موضع: {ما کان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب} (3: 179) وليس الغرض من هذا الجهاد إراقة الدماء، بل الغرض منه:

(أ) توضيح مدى استفادتکم من توجيهات الرسول فى تثقيف الخُلق وتهذيب النفس، والإشارة إلى القدر الذى اکتسبه کل فرد من أفراد الأمة الإسلامية من شخصية الرسول ﷺ.

(ب) الإشارة إلى الفارق الکبير بين أمة محمد ﷺ وغيرها من الأمم فى اتباع الرُسل. فقد قال بنو إسرائيل لنبيهم: {فاذهب أنت وربُّک فقاتلا إنّا ههنا قاعدون}.

(ج) سوف يُنعم الله عليهم بالمُلک، وما لم يتم الاستعداد لتولى هذه الخدمة المهمة، لا يمکن العمل بالدين، فکأنّ إسلام المرء دليل على تهيئته لمواجهة الفتن والمحن، تذکروا ما قال العباس بن عبد المطلب ليلة العقبة إذ تعاهد أهل المدينة على الحماية والدفاع، وهم ثلاث وسبعون

رجلا وامرأتان: تعلمون أن قريشا تعاديه، فإن تتعهدون على الحماية والإيواء فأصعب ما تتعهدون، فوالله لتعاهدكم به إنما هو تكفلكم حروبا سوداء وحمراء.

يظنون من السهل الدخول فى الإسلام. (تفسير القرآن)

فى الآية إشارة إلى الحروب:

قال اللاهورى فى تفسير هذه الآية:

يتم دحر المشركين وتدميرهم بأيديكم، لا مفر لكم من النزول إلى الميدان، حتى يميز الله الخبيث من الطيب. (حاشية اللاهورى)

قتال الأقارب لأجل الدين:

والمعنى: حان الآن موعد الامتحان الحقيقى، إذ يضطرون إلى مقاتلة أقاربهم وذويهم، والتضحية بكل رابطة ومودة من أجل الدين والإسلام والله ورسوله. (التفسير الماجدى)

وليجة؟ موالاة الأجانب:

كلمة الوليجة مأخوذة من الولوج، وهو الدخول. قال القرطبى: وقال أبو عبيدة: كل شىء أدخلته فى شىء ليس منه فهو وليجة..

والرجل يكون فى القوم وليس منهم وليجة.

فهؤلاء المشركون ليسوا منكم يا أهل الإسلام، فلا تتخذوهم بطانة.

وقال القرطبى رحمه الله: معنى الوليجة: البطانة، أى الصديق الحميم والحليف. (وقد سبق تحقيق معنى البطانة فى سورة آل عمران).

وقيل: وليجة بطانة، والمعنى واحد نظيره.

لا تتخذوا بطانة من دونكم. (آل عمران 118) وقال الفراء: وليجة بطانة من المشركين يتخذونهم ويفشون إليهم أسرارهم ويعلمونهم أمورهم. (القرطبى)

وفى معارف القرآن:

أشارت الآية إلى علامتين من علامات المخلصين من المؤمنين، الأولى: جهادهم فى سبيل الله. الثانية: أن لا يتخذوا الكفار بطانة يودون إليهم. ومعنى كلمة «وليجة» فى الآية : الدخيل وصاحب السر، وفى آية بمعنى «البطانة» والمراد منه: كل من كان مطلعاً على الأسرار والخبايا. (معارف القرآن)

وفى التفسير المظهرى:

معنى الوليجة: البطانة الخبير بالأسرار. (التفسير المظهرى)

الإشارة إلى بقاء المجاهدين:

قال العلامة ثناء الله البانى بتى رحمه الله:

فی قوله تعالی {ولمّا یعلم الله} إشارۃ إلی جواز تعلیق الآمال بعدم خلو أمۃ محمد ﷺ من المجاهدین المخلصین.

وقد قال النبی ﷺ: لا تزال طائفۃ من أمتی ظاهرین علی الحق لا یضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتی یأتی أمر الله وهم کذلک. (أی ینصرهم الله ویؤیدهم، فلا یضرهم من عاداهم) حتی یأتی أمر الله. (أی تقوم الساعۃ) رواہ الشیخان فی الصحیحین عن معاویۃ بن أبی سفیان رضی الله عنهما. (التفسیر المظهری)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 17}

بسم الله الرحمن الرحيم

{مَا كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر. أولئک حبطت أعمالهم. وفى النار هم خالدون}.

ملخص معانى الآيۃ:

لا عبرۃ بما يفعله المشركون تجاه المسجد الحرام مع بقاءهم على الكفر والشرک علناً، وما كان لهم أن يديروا شئونه مع عقائدهم الباطلۃ، ولا أن يصلوا فيه، إن أرادوا مُنعوا، حبطت أعمالهم الطيبۃ كلها، ويخلدون فى النار.

لأن:

الإيذان بالبراءۃ عنهم حق، وأنهم لا يقربون من المسجد الحرام بعد عامهم هذا.

القتال معهم حق، لا يمكن التخلى عن قتالهم نظراً لما يقدّمون إلى المسجد الحرام، والواجب تطهير المسجد من وجودهم الآثم.

الموضوع الأول للآيۃ:

قال اللاهورى رحمه الله:

لا يتوقف الجهاد ضد المشركين إن كانوا يقومون ببعض أعمال الخير، فلا يتوقف القتال ضد مشركى مكۃ بحجۃ أنهم يجاورون المسجد الحرام. (حاشيۃ اللاهورى)

وهذا هو الموضوع الذى اختاره صاحب تفسير الفرقان، وقال:

ينبغى للمسلمين أن يستعدوا للجهاد إن أحاط بهم الكفار، وهناک نفوس ضعيفۃ تسعى إلى التهرّب منه بحجج واهيۃ، وسوف يشير إلى أن من النفاق عدم أخذ عدۃ الجهاد، والتهرّب منه بحجج كاذبۃ، لذلک أدعو الإخوۃ المسلمين اليوم إلى محاسبۃ أنفسهم ليدركوا مدى النفاق الذى تسرب فيهم، وفى الآيات التى تليها يشير الله إلى عموم الأسباب التى يختلقها الناس للتهرب من الجهاد، ويكشف الستار عن وجوه تلک الأعذار الكاذبۃ، ويؤكد على أنها واهيۃ باطلۃ، وأنه ينبغى على كل مسلم أن يستعد للجهاد. (تفسير الفرقان)

موضوع الآيۃ الثانى:

الموضوع الثانى ذكره الإمام الرازى فى التفسير الكبير، ولخصه صاحب التفسير الحقانى فى الكلمات التاليۃ:

2- المشركون بمكة كانوا يعمرون المسجد الحرام منذ القِدَم، ويقدّمون الماء إلى الحجاج أيام الحج، فكانوا يتفاخرون بها ويعتزون، ويعدّونها أغلى من الإسلام، فكانوا يزعمون أن لهم منزلة عالية عند الله لجوارهم البيت، وأنهم سدنته، فلا يحق للمسلمين أن يحاربوهم وينقضوا عهدهم، وقد صدّقهم اليهود فيما قالوا، وقالوا: إن لكم منزلة رفيعة عند ربكم لما تقدمون إلى الحجيج من خدمات جليلة، فنزلت هذه الآيات ردا عليهم. (الحقانى بتغيير يسير)

كما أن القرطبى قد صدّق الموضوع الذى ذكرناه للآية بلفظه الآتى:

أراد ليس لهم الحج بعد ما نودى فيهم بالمنع عن المسجد الحرام، وكانت أمور البيت كالسدانة والسقاية والرمادة إلى المشركين، فبيّن أنهم ليسوا أهلا لذلک، بل أهله المؤمنون.

موضوع الآية الثالث:

وهو ما ذكره معظم المفسرين من القرطبى والتفسير الكبير، وروح المعانى، وموضح القرآن:

إن العباس لما أسر وعيّر بالكفر وقطيعة الرحم، قال تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا، فقال على: ألكم محاسن؟ قال نعم، إنا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج، ونفك العانى، فنزلت هذه الآية ردا عليه. فيجب إذا على المسلمين تولى أحكام المساجد ومنع المشركين من دخولها. (القرطبى)

لأن الكعبة بناها إبراهيم عليه السلام، وهو أشد من كان يعادى الأصنام، والكعبة أساسها التوحيد الخالص، فمن شهد بلسانه على الكفر والشرک بإقراره وأعماله، وأنه لا يؤمن بالرسول الذى بعثه، فكيف إعماره للمساجد؟ فمن أعمرها باعتبار الظاهر، بأن قدّم بعض الخدمات إليها باعتباره من سدنته، فإنه قد أتى بما هو أعظم جريمة، ثم صلاتهم عند البيت ليس إلا مكاءً وتصدية، وهذا فى الواقع إن كان إعماراً للمسجد الحرام فى نظرهم، فإنه ليس بإعمار عند الله تعالى.

قال صاحب معالم التنزيل 2/273:

«أى ما ينبغى للمشركين أن يعمروا مساجد الله أوجب على المسلمين منعهم من ذلک؛ لأن المساجد إنما تعمر لعبادة الله وحده، فمن كان كافرا بالله، فليس من شأنه أن يعمرها.» (أنوار البيان)

شرح موجز وجامع للآية:

قال شيخ الإسلام ..

فيما مضى قال : لا يمكن ترک المسلمين على ما هم عليه بدون اختبارهم وامتحانهم، فى عزائم الأمور، من الجهاد وغيره، هل يثبتون فيها أم يتزلزلون؟ وأنهم كيف يفضّلون جانب الله ورسوله على قراباتهم. وهنا أكّد على أن مساجد الله تعالى لا يعمرها إلا من آمن بالله واليوم الآخر، بأن يوجد فيها بأعداد كبيرة أولئک الذين يعبدونه كما يحب ويرضى، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويحافظون على قداسة تلک المواضع، وكيف يمكن ذلک من الكفار والمشركين؟ لاحظوا أن المشركين يعتزون على أنهم سدنة الكعبة وحُجّابها، لكن من سدنتهم أنه قد وضعوا فيها مئآت الأصنام، ينذرون لها، ومنهم من كان يطوف بالبيت عريانا، ولا يذكر الله عند البيت إلا مكاء وتصدية،

كما أنهم كانوا يمنعون الموحّدين من عباد الله المخلصين منها، فهم أقصى ما يفعلون يسقون الحجيج، وينورون الحرم بالسراج، أو يكسون الكعبة ستارا، ويقومون بإصلاح الكعبة وترميمها عند الحاجة، فكل هذه الأعمال كانت خالية عن الروح، لأن المشرك لا يعرف ربه معرفة صحيحة، فكيف يمكن أن يتوجه فى أعماله وحسناته إلى الله الواحد الأحد، المنبع لكافة الكمالات، لذلک لا يُعتد بشىء من أعماله وخيراته، وهذا الذى عبّر عنه بلفظ {حبطت أعمالهم} وباختصار.. إن الكفار والمشركين الذين يشهدون بحالهم ومقالهم على كفرهم وشركهم لا يمكنهم أن يعمروا مساجد الله تعميرا حقيقياً. (التفسير العثمانى)

{أن يعمُرُوا} وضده الخراب، ومن ضمن إعمار المسجد تشغيله بالصلاة فيه والذكر، الدخول فيه، وبناءه، وخدمته.

عمارة المسجد تكون بمعنيين، إحداهما زيارته والكون فيه، والآخر بنيانه وتجديد ما التزم منه. (جصاص) . (التفسير الماجدى)

لا يمكن الثقة بالمشركين:

وفيه دلالة على أن حياة المشركين والكفار عبارة عن سعى وراء الباطل، ولهف عليه، فإن التزموا ببعض الأعمال الصالحة، وتظاهروا بين الناس فى هيئة الملائكة، وأكّدوا على براءتهم الكاذبة للناس أنهم يكنّون كل الاحترام لكافة أماكن العبادة، ولا يتدخلون فى شؤون المسلمين الدينية، وأنهم يبذلون ما بوسعهم لراحتهم، إن فعلوا ذلک فإن على المسلمين أن لا يثقوا فى وعودهم الكاذبة، ولا يمتنعوا عن محاربتهم، لأنهم لا يفعلون ما يفعلون إلا لأجل منع المسلمين من النهوض ضدهم، لكى لا يحاربوهم، فالثقة بهم وبوعودهم هو بمثابة تدمير المسلمين والقضاء عليهم، لأن المشركين لن يلتزموا بعهودهم». (التفسير الفرقان)

تفسير سهل لطلاب العلم:

«{ما كان للمشركين} ما صح لهم وما استقام {أن يعمُروا مساجد الله} مسجد الله مكى وبصرى، يعنى المسجد الحرام، وإنما جمع فى القراءة بالجمع لأنه قبلة المساجد، فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجدٌ أو أريد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلک أن لا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس، وهو آكد. إذ طريقه طريق الكناية كما تقول: فلان لا يقرأ كتاب الله، فإنه أنفى لقراءة القرآن من تصريحک بذلک. {شاهدين على أنفسهم بالكفر} باعترافهم بعبادة الأصنام وهو حال من الواو فى يعمروا، والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متضادين عمارة متعبدات الله مع الكفر بالله وبعبادته. {أولئک حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون} دائمون». (المدارک)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 18}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين}.

ملخص معانى الآية:

لا يعمر المساجد إلا من كان يؤمن بالله واليوم الآخر بقلبه، ويواظب على فروض الإسلام من الصلاة والصوم والزكاة، ولا يخاف أحداً إلا الله، ويستعد للجهاد والقتال دفاعا عن المساجد وحماية لها، فهؤلاء المؤمنون الذين أطاعوا ربهم بالقلب واللسان والجوارح والمال والثروة يعمرون مساجد الله، وأخرجوا المشركين الذين يدّعون إعمار المساجد من مكة ولو كانوا ذوى قرابة، لأن بوجودهم الآثم لا يحصل شىء من إعمار المساجد، كل ما يعول ببقاءهم هناك هو خراب المساجد. (خلاصة التفسير العثمانى وغيره)

نكتة :

لا يمكن المحافظة على المساجد إلا بالجهاد، والدعوة إلى الجهاد لا تنطلق إلا من المساجد، وفيها يتدربون عليه، فإعمار المساجد من مسئوليات المجاهدين المؤمنين بالله، وما من مجاهد ابتعد عن المساجد إلا وضعف جهاده، فالواجب عليهم أن يعمروا مساجد الله، ويحموها، تأمّلوا فى معنى الآية الكريمة، ولاحظوا سياقها وسباقها، تُدركون هذه النكتة المهمة. (والله أعلم بالصواب)

فوائد:

تناولت الآية الإيمان بالله، ولم تتناول الإيمان بالرسول؟ الرد عليه: إن الإيمان بالله يشمل الإيمان بالرسول، إذ هما لا يفترقان، كما لا يفترقان فى كلمة الإسلام والأذان والإقامة والتشهد. والرد الثانى: إن الآية تناولت الصلاة والزكاة، وهى من الأمور التى جاء بها الرسول ، فثبت الإيمان بالرسول.

قال الرازى:

ولم يذكر الإيمان بالرسول عليه السلام، لما علم أن الإيمان بالله قرينة الإيمان بالرسول لاقترانهما فى الأذان والإقامة، وكلمة الشهادة وغيرها، أو دل عليه بقوله: {وأقام الصلاة وآتى الزكاة}. (المدارك)

2- {ولم يخش إلا الله} بأن يخاف غير الله فيما يتعلق بالدين فيعصيه، أو أن يمتنع عن عبادة الله خوفا من أن يصيبه أذى من غيره، وليس المراد من الخوف الخوف الطبيعى الذى لا يمكن الاحتراز عنه، مثل الخوف من الحية والثعبان والوحوش المفترسة والعقارب.

إن قيل: ما من مؤمن إلا وقد خشی غير الله، وما زال المؤمنون والأنبياء يخشون الأعداء من غيرهم. قيل له: المعنى ولم يخش إلا الله مما يعبد، فإن المشركين كانوا يعبدون الأوثان ويخشونها ويرجونها. جواب ثان: أی لم يخف فی باب الدين إلا الله. (القرطبی)

فمعنى قوله {ولم يخش إلا الله} : أن لا يخاف أحداً فيما يتعلق بالدين، ولا يتخلی عن حكم من أحكامه خنوعا له، فأما الخوف من الأشياء المخيفة فذلک أمر طبيعی، يخاف الناس من الحيتان والثعابين واللصوص وقطاع الطرق، لذلک لمّا حوّل السحرة الحبال والعصی إلی الحيتان والثعابين بين يدی موسی عليه السلام خاف منها.

كما قال الله تعالی {فأوجس فی نفسه خيفة موسی} فالخوف الطبيعی من الحيوانات المؤذية لا يخالف الحكم القرآنی، ولا الرسالة والولاية، أما المغلوبية به والتخلی عن أحكام الله تعالی أو تركها فهذا ما لا يليق بحال المسلم، وهذا هو المراد هنا. (معارف القرآن)

{إنما يعمر مساجد الله} ماهی الأمور التی يشملها عمارة المساجد؟

قال النسفی:

عمارتها رم ما استرم منها وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، لأنها بنيت للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم. (المدارک)

وفی تفسير المظهری:

والمراد بعمارة المساجد: العبادة والذكر والعلم و تعليم القرآن فيها، ومن ضمن إعمار المساجد إعادة بناءها، وتزيينها، وإنارتها، وحمايتها مما لا ينبغی لها، مثل البيع والشراء وحديث الناس. (المهری)

وفی أنوار البيان:

بناء المساجد وتنظيم شئونها، وترميمها، وقضاء حوائج المصلين من ضمن إعمار المساجد، وهناک إعمار آخر يكبر عن الأول، وهو أن تكون عامرة بالمصلين والذاكرين والتلاوات، وحلقات الدروس، إذ المساجد لا تُبنی إلا لها. روی أبو سعيد الخدری عن النبی ‧ أنه قال: إذا رأيتم الرجل يتعاهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان. لأن الله تعالی قال {إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر} (مشكاة عن الترمذی وابن ماجة). (تفسير أنوار البيان)

فی المسجد النبوی الشريف كانوا يدعون الناس إلی الجهاد، ومنه يؤذن بالجهاد، وتُجمع الأموال له، ويُنظّم شئونه فيه، والمساجد من أصلح المواضع له، فالأولی تشغيل المساجد بها. (والله أعلم بالصواب)

4 {فعسی أولئک أن يكونوا من المهتدين} هذا وعد بأولئک المذكورين، أنهم سوف ينالون غايتهم، وهی النجاة من النار والدخول فی الجنة. (الماجدی)

والمعنى أن الله سبحانه وتعالی يدلهم علی طريق التوصل إلی الجنّة. يوفّقهم لعمل الطاعات والصالحات فی الدنيا، تكون ذريعة ووسيلة للدخول فی الجنة يوم القيامة. (أنوار البيان)

فائدة:

وقد جمع المفسرون فى تفاسيرهم من ابن كثير وغيره أحاديث فضائل المساجد تحت هذه الآية الكريمة، وكذا من الأحاديث ما تتعلق بفضل بناء المساجد، وتنظيها، والجلوس فيها وغيرها من الأمور، كلها تؤكّد على منع حديث الناس فيها.

فليعد المسلمون إلى المساجد، ويقوموا بتشغيلها وإعمارها، ويحافظوا عليها فى جميع أنحاء العالم، ويجاهدوا دفاعا عنها ومحافظة على حرياتها، ولتعد الحركات الدينية من الفنادق والصالات إلى المساجد، كى تَسْلَمَ من الفتن، وتنشأ فيها الروح الدينى الخالص. (والله أعلم بالصواب)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 19}

بسم الله الرحمن الرحيم

{أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله، لا يستوون عند الله، والله لا يهدى القوم الظالمين}.

ملخص معانى الآية:

لا يستوى الذين يسقون الحجاج ويعمرون المسجد الحرام بمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله، فالذين لم يؤمنوا لا يستوون بالمؤمنين المجاهدين، مهما بلغت خدماتهم للحجاج وعمارتهم للمسجد الحرام، أما الذين آمنوا فالذين جاهدوا منهم أولى ممن يسقون الحجيج ويعمرون المسجد الحرام، أى «الجهاد فى سبيل الله» من أحب الأعمال عند الله، ولا يهدى القوم الظالمين إلى ما ذكرنا من الأعمال.

الأقوال ومراجعها

رفض العذر الثانى عن الجهاد:

قال اللاهورى رحمه الله:

لا يمكن للمسلمين أن يعتذروا عن المشاركة فى الجهاد لاشتغالهم بالذكر والفكر فى المساجد. (حاشية اللاهورى)

فضل الإيمان والجهاد:

«الإيمان والجهاد أفضل من السقاية وعمارة المسجد الحرام، وفيه رد على المشركين لابتعادهم عن الإيمان، وكذلك الجهاد أفضل من السقاية والعمارة، وفيه رد على بعض المؤمنين الذين يعتبرونهما أفضل من الجهاد. (بيان القرآن بتسهيل).

الجهاد أفضل من تولى شئون الحرم:

«فعلمنا أن الإيمان لا شك أنه أفضل الأعمال، لكن الجهاد فى سبيل الله كذلك أفضل من السقاية وتولى شئون الحرم وتنظيمها».

فقد قال الله تعالى: {لا يستون عند الله} (التفسير العثمانى).

الجهاد أفضل من تولى شئون الحرم:

لقد لخّص شيخ الإسلام جميع ما ذكره المفسرون تحت هذه الآية الكريمة، ونسرده فيما يلى:

«كان المشركون يعتزون بما يقدمون إلى الحجيج من السقاية والرفادة وعمارة المسجد الحرام وترميمه وكسوته وإنارته، فكانوا يقولون: إن كان المسلمون يعتزون بجهادهم وهجرتهم فإن لدينا جانباً من الطاعات نعتز بها، وكان العباس قد جادل مع على بن أبى طالب فيها، كما أخرجه مسلم فى صحيحه، أن بعض المسلمين كانوا يتنازعون فيما بينهم، فقال أحدهم: لا شىء أفضل عندى بعد الإيمان بالله من السقاية، فقال الثانى: خدمة الكعبة أفضل عندى من السقاية والإنارة والكناسة، وقال الثالث: الجهاد فى سبيل الله من أفضل الأعمال وأعلاها بعد الإيمان. فوبخهم عمر رضى الله عنه على ما يتكلمون يوم الجمعة عند منبر رسول الله ، وقال اصبروا حتى يخرج النبى فنسأله عنها. فلما سألوه عقب الجمعة نزل قوله تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام} أى لا تستوى السقاية وعمارة المسجد الحرام بالإيمان بالله والجهاد فى سبيله، ناهيک عن أفضليتها لها. ذكر الجهاد مع الإيمان بالله إما للرد على اعتزاز المشركين وفخرهم، فقد أكّد على أن الإيمان بالله روح الطاعات كلها، ولا روح فى السقاية والعمارة بدون الإيمان، فالعمل الذى لا روح فيه كيف يتساوى مع العمل الحى؟ {وما يستوى الأحياء ولا الأموات} (فاطر ركوع 3).

وإن كان الغرض التقابل بين أعمال المؤمنين المتنوعة، فالإيمان بالله تعالى يكون بمثابة التمهيد للجهاد فى سبيل الله، إذ الغرض الحقيقى بيان أفضلية عزائم الأعمال من الجهاد وغيره، وبذكر الإيمان أكّد على أن بدون الإيمان بالله لا عبرة بالعمل سواء كان جهادا فى سبيل الله أو غيره من الأعمال، وتقوُّم عزائم الأعمال لا يتم إلا بالجهاد، ولا يفهم هذا إلاّ من رزقه الله فهما سالما، أما الظالمون فلا يتوصلون إلى تلک الحقائق». (التفسير العثمانى «تسهيل»).

تحذير من يستثنى نفسه من الجهاد:

«فى الآيات السابقة أكّد على التعليمات الأوّلية للإسلام من الصلاة والزكاة وغيرهما، فإن اتخذها أحد غاية حياته، وادعى أن الإسلام ليس إلا أداء الصلاة وإلزام الناس ببعض أحكامه، ويزعمها مكملة للدين، ويستثنى نفسه من الجهاد فى سبيل الله، فإن مثل هذه المزاعم يردها قوله تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج...} الخ

ثم قال:

لقد أشار القرآن فى موضع آخر إلى أن الجهاد فى سبيل الله من أحب الأعمال إلى الله، فقال: {إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنّهم بُنيان مرصوص} (61: 4).

ثم قال:

فاعلموا أنه لا مقارنة بين عمارة المسجد والجهاد فى سبيل الله، ومن زعم ذلک فقد عدَّهُ القرآنُ من ضمن الظالمين، لأنه جهل بسرّ حياة الأمم ومماتها، فإن كنتم تزعمون أن الصلاة جعلها

النبی ﷺ أفضل الأعمال، فلا شک أنه صحیح فی حد ذاته، إذ الصلاۃ من أفضل الأعمال فی ذاتها، لکن السؤال إن کان یتعلق بحیاۃ الأمم ومماتها فالجواب الصحیح عنه أنه الجهاد فی سبیل الله. (تفسیر الفرقان)

ملحوظۃ:

لقد استخلصنا من الآیۃ السابقۃ لزوم بناء المساجد علی المجاهدین، وإعمارها بالمصلین، والمحافظۃ علیها، وتطهیرها من وجود المشرکین الآثم، وفی هذه الآیۃ تلقین لدرس جدید، وهو أن عمارۃ المساجد وبناءها سواء کانت عموم المساجد أو المسجد الحرام فإنه لا یساوی الجهاد فی سبیل الله، لاشک أن سقایۃ الحاج وعمارۃ المسجد الحرام وسدانته من الأعمال الروحیۃ الجذّابۃ، لکن قد یحسبها المؤمن غایۃ، فیشتغل بها ویتولی عن الجهاد، فهذه الأعمال من مسئولیات المسلم، لکن علیه القیام بها إلی جانب الجهاد فی سبیل الله، لأن الجهاد أفضل منها. لعل هذا هو المعنی الذی لاحظه عبد الله بن المبارک، حتی کتب الأبیات التالیۃ لفضیل بن عیاض، ولقیت إعجاب الدنیا:

یا عابد الحرمین لو أبصرتنا لعلمت أنک بالعبادۃ تلعب

وهذا ما صدّقه فضیل بن عیاض نفسه، وأقر الجهاد أفضل من عمارۃ المسجد. (والله أعلم بالصواب)

فالواجب علی الإخوۃ المجاهدین فی سبیل الله الاهتمام بعمارۃ المساجد وتشغیلها بالمصلین والمحافظۃ علیها.

{والله لا یهدی القوم الظالمین} هذه الجملۃ الأخیرۃ فی الآیۃ، وأشار بها إلی أن ذلک أمر بسیط ویسیر، فالإیمان أساس الأعمال کلها وأفضلها، وأن الجهاد أفضل من السقایۃ وعمارۃ المسجد، لکن الله لا یوفّق الظالمین لإدراک الحق، لذلک یتعنتون فی مثل هذه الأحکام الواضحۃ ویبغونها عوجاً. (معارف القرآن)

تأمّلوا قلیلاً:

تصوروا .. کم یکون سعیدا ذلک المسلم الذی وفّقه الله تعالی لعمارۃ المسجد الحرام بماله الخاص وسقایۃ الحاج وسدانۃ الکعبۃ، ولاشک أنه کذلک، لکن الجهاد فی سبیل الله أولی وأفضل من عمله، فتصوروا سعادۃ المجاهد وقدّروا مکانته. والله أعلم بالصواب.

السعادۃ الحقیقیۃ فی التضحیۃ بالنفس والمال:

وفی التفسیر الحقانی: «أما السقایۃ التی کان یعتز بها عباس بن عبد المطلب، والتی کان یعتبرها مثل الجهاد والهجرۃ، فقد أکّد الله هنا أنها لا تساوی الإیمان بالله والیوم الآخر والجهاد فی سبیله، کلا وحاشا لا یتوصلون بالسقایۃ والعمارۃ إلی السعادۃ، إذ هی تحصل بالتضحیۃ بالنفس والمال جهاداً فی سبیل الله. (تفسیر حقانی)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 20، 21، 22}

بسم الله الرحمن الرحيم

{الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، وأولئک هم الفائزون. يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم. خالدين فيها أبداً، إن الله عنده أجر عظيم}.

ملخص معانى الآيات:

فيها إشارة إلى الدرجة العالية لكل من آمن وهاجر وجاهد بالنفس والمال، وهؤلاء هم الفائزون، وقد بشرهم الله تعالى بالرحمة والرضوان وجنات فيها نعيم مقيم، وأن الله عنده أجر عظيم.

بشائر:

إن أعظم الأعمال درجة عند الله بعد الإيمان بالله والهجرة: الجهاد فى سبيل الله، لهم بشائر من الرحمة والرضوان وجنات مقيم لا يلحقها الفناء. (حاشية اللاهورى)

لهم الفوز الكامل:

وهؤلاء لهم الفوز الكامل، والمشركون الذين فى مقابلتهم، لم يحصل لهم فوز أصلاً، أما المسلمون فلاشک الفوز يشملهم، لكن فوز المهاجرين والمجاهدين أعلى مرتبة منهم، لذلک المعتبر نجاح هؤلاء. (بيان ومعارف تسهيل)

أربع خصال تعلو بالبشرية إلى أسمى المنازل

أشار الإمام الرازى إلى الملاحظة المهمة التالية:

فقال: إن من كان موصوفا بهذه الصفات الأربعة كان أعظم درجة عند الله الخ.

وهى: (1) الإيمان (2) الهجرة (3) الجهاد بالمال فى سبيل الله (4) الجهاد بالنفس فى سبيل الله.

والدليل على أن هذه الخصال الأربعة تعلو بالبشر إلى أسمى المنازل، فهو أن أغلى شىء لدى الإنسان ثلاثة أشياء، وهى : (1) الروح (2) الجسم (3) المال.

فالروح بعدما ابتعد عنه الكفر، وحل الإيمان محله، صار فى منزلة عالية من السعادة.

وأما الجسم والمال فقد تعرّضا للخطر والهلاک بسبب الهجرة والجهاد، لاشک أن الروح والمال من أحب الأشياء إلى النفس، ولا يُعرّضها للهلاک قط، إلا إذا كان يتوقع شيئا أغلى منهما، فلو لم يكن رضا الله سبحانه وتعالى أغلى عند المجاهد منهما، لما ضحّى بهما فى سبيل الله تعالى،

فتحقق أن ما من مسلم يتحلى بهذه الخصال الأربعة إلا وصار بأعلى مرتبة من مراتب البشرية، وبالمرتبة الأولى من المراتب الملائكة. (ومرتبة الأنبياء فوق هذه المرتبة بكثير) (التفسير الكبير).

وهذا الذى ذكره صاحب التفسير الحقانى بفرق بسيط، فليعد إليه طلاب العلم، وهنا نستعرض بعض جمله، لتتعمقوا فيها.

إن أهم الأشياء بالنسبة للإنسان ثلاثة أشياء، وهى: الروح والبدن والمال. ولن ينال السعادة ما لم يصلحها ويوجّها إلى الخير، فتزكية الروح بالإيمان بالله واليوم الآخر، وعند إنارة الروح يندفع إلى حيّزه الطبيعى وهو عالم النور والسرور تلقائيا. أما المال فيُصرف لنفع النوع البشرى ولإنقاذه من هاوية الهلاک ليتمتع بالسعادة الأبدية، ولإضاءة اسم المحبوب الحقيقى على الأرض الطاهرة، وللإطاحة بكافة العوائق والعراقيل فى طريقه، وهذا ما يسمى بالجهاد.

ما الجهاد؟ ليس الجهاد إلا إنقاذ من يصطلى بالنار، وتخليص الغرقى، تُبذل فيه النفس والمال والجسم، وفيه تزكيتها وتزيينها، كأنّهم يتركون آثارهم الخالدة على الأرض من التوحيد واتباع الحق، وعوضاً عنها يفوزون بالسعادة العظمى والحياة الأبدية، لذلک أشار الله تعالى إلى مساعيهم الجميلة أولاً بلفظ {آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله} فهذه الأمور الثلاثة الإيمان والهجرة والجهاد، ثم أشار إلى النتائج التى ترتبت عليها بلفظ {أولئک أعظم درجة عند الله} ثم أتبعه بقوله {وأولئک هم الفائزون} ثم قال: {يبشرهم ربهم برحمة منه} وهذه البشارة بالرحمة ومنزلة الحب لا يمكن وصفها، فهذا هو الأمر الثالث، ثم هذا الأخير يشتمل على ثلاثة أمور : الأول: الرضوان، أى البشارة برضا الله الأبدية، فلا يسخط عليهم قط. والثانى: الجنة، أى الحدائق والبساتين، لا تنفک من النعم والفخر. والثالث: يخلدون فيها، فهذه النِعم الثلاثة كانت عوضا عن مساعيهم الجميلة، وهى (الإيمان والهجرة والجهاد) إضافة إلى ذلک فإن الله سبحانه تعالى يبشرهم من عنده ببشارة عظيمة، وهى الأجر العظيم، وما هو الأجر العظيم؟ تنوعت فيه آراء أهل العلم، ومنها أن المراد منه: رؤية الله تعالى يوم القيامة، ولا أجر فوقه. (التفسير الحقانى بتسهيل)

الرحمة والجنة والرضوان عوضا عن الإيمان والهجرة والجهاد

أشار الإمام ابن حبان فى البحر المحيط إلى ملاحظة إيمانية، وفيما يلى لاحظوا نص ما كتبه:

«ولما كانت الأوصاف التى تحلّوا بها وصاروا بها عبيده حقيقة هى ثلاثة، الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، قوبلوا فى التبشير بثلاثة: الرحمة والرضوان والجنات، فبدأ بالرحمة لأنها الوصف الأعم الناشىء عنها تيسير الإيمان لهم، وثّنى بالرضوان، لأنه الغاية من إحسان الرب لعبده، وهو مقابل الجهاد، إذ هو بذل النفس والمال، وقدم على الجنات، لأن رضا الله بالعبد أفضل من إسكانهم الجنة، وفى الحديث الصحيح «أن الله تعالى يقول: يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون يا ربنا كيف لا نرضى وقد باعدتنا نارک، وأدخلتنا جنتک، فيقول: لكم عندى أفضل من ذلک فيقولون: وما أفضل من ذلک؟ فيقول: أحل عليكم رضائى، فلا أسخط عليكم بعدها، وأتى ثالثا بقوله {وجنت لهم فيها نعيم مقيم} أى لا دائم لا ينقطع، وهذا مقابل لقوله وهاجروا، لأنهم تركوا أوطانهم التى نشؤوا

فيها وكانوا فيها منعمين فآثروا الهجرة على دار الكفر إلى مستقر الإيمان والرسالة، فقوبلوا ذلك بالجنات ذوات النعيم الدائم» (البحر المحيط).

فال شيخ الإسلام رحمه الله:

فى الآية السابقة ذكر ثلاثة أشياء، وهى الإيمان والجهاد والهجرة، وبشّر عليها بثلاثة أشياء، وهى: الرحمة والرضوان والخلود فى الجنة. قال أبو حيان: الرحمة تترتب على الإيمان، ولا نصيب من رحمة الله فى الآخرة بدون الإيمان، والرضوان منزلة من أعلى المنازل عوضاً عن الجهاد فى سبيل الله، فالمجاهد يضحى بالنفس والمال بإفناء جميع العلائق والحظوظ النفسية، سعيا إلى مرضاة الله تعالى بفداء أغلى ما يملكه، وهذا يتوجب عوضاً عاليا، فذلك هو رضا الله سبحانه وتعالى. أما الهجرة فهى ترك وطنه المألوف لله تعالى، لذلك بشّر المجاهد بأن لك داراً خيراً من دارك ووطناً خيرا من وطنك، تخلد فيها بالهنا والسعادة، ولن تضطر إلى الهجرة منها. (التفسير العثمانى)

الفائزون:

وفى التفسير الفرقان:

جاء فى الحديث: «أنا آمركم بخمس، الله أمرنى بهن. الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله.

ولا يتحقق الفوز لأحد ما لم يتقدم خطوات إلى هذه التوجيهات النبوية، ووقف حياته للجهاد فى سبيل الله، وبه تمحو ذنوبه كلها:

«إن السيف محاءٌ للخطايا» (أحمد).

«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف» (مسلم). (تفسير الفرقان)

نعيم الجنة مقيم:

لقد أوضحت كلمة {مقيم} أن نعيم الجنة يبقى ويدوم ولا يزول، لا كزاد المسافر وقتى وآنى.

استعارة للدائم (روح) دائم (بيضاوى)

ونكّر الرحمة والرضوان للتفخيم والتعظيم (بحر)

وأكّد الخلود بالتأبيد لأنه قد يستعمل للمكث الطويل (بيضاوى)

وبه اتضحت هذه الحقيقة ثانية أن نعيم الجنة عظيم ومقيم لا يزول ولا يفنى ولا ينقطع. (الماجدى).

{أعظم درجة عند الله} اعترضوا على صيغة اسم التفضيل فى «أعظم» ثلاثة اعتراضات، ذكرها الإمام الرازى ثم رد عليها، فمن شاء فليعد إلى التفسير الكبير للرازى.

طالبوا الرضا الربانی:

دلت الآيات على أن المجاهد يتقرب إلى الله، (ولفظ «عند الله» يشير إليه) وله منزلة عالية عنده، والأعظم من الجميع أنه يحصل له رضاه، لذلک يجب على المسلمين أن يتسابقوا فی الجهاد، أما الذين أخرجوا الجهاد عن حياتهم فلهم وقفة تأمّل هنا. (والله أعلم بالصواب).

{سورة التوبة مدنية، الآية : 23}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أوليآء إن استحبوا الكفر على الإيمان. ومن يتولهم منكم فأولئک هم الظالمون}.

ملخص معانى الآيۀ:

ينبغى للمؤمنين أن لا يفضّلوا الأقارب على أمر الله وولايته، فإن أصرّوا على الكفر فلا يرتبطوا معهم بالمودۀ والمحبۀ، فمن فعل ذلک وتخلّى عن الهجرۀ والجهاد فى حب الأقارب فأولئک هم الظالمون.

المناسبۀ بين الآيات ومضامين الجهاد

رباط القرابۀ لا يعيق طريق الجهاد:

لا يمكن لرباط دنيوى أو نسبى إعاقۀ طريق الجهاد. (أى لا يمكن أن تشكّل أعذاراً للتخلف عن الجهاد) (حاشيۀ اللاهورى).

الصلات التى تعرقل طريق الجهاد:

«فى الآيات السابقۀ أشار إلى أن الجهاد والهجرۀ من أفضل الأعمال وأعظمها. لكن روابط القرابۀ والعشيرۀ قد تعيقهما، لذلک أشار إلى أن ذلک لا يفعل إلا من استحب الكفر على الإيمان، إذ المؤمن لا يمكن له أن يفعل ذلک. لأنه لا يليق بحال المسلم أن يقيم روابط المودۀ والمحبۀ مع الكفار بحيث تمنع من الهجرۀ والجهاد، فمن فعل ذلک فقد ظلم نفسه». (التفسير العثمانى)

لا يقصر من محاربۀ الأقرباء فى الجهاد:

«فيها أمر المسلمين بإيذان الحرب مع المشركين، فكان الرجل يضطر إلى محاربۀ أولاده وعشيرته، فقد يسلم الرجل ويبقى أهله وعشيرته على الكفر، ثم قد يؤمر بالهجرۀ، فيتفرق الأهل والأولاد والإخوان والعشيرۀ، وتفسد تجارته، ويعانى من الفقر والجوع، وهى أمور تمنع المرء عادۀ من الجهاد والهجرۀ، لكن الذى تقرر عند الله هو اجتماع المسلمين فى المدينۀ لإشاعۀ نور الحق والتوحيد فى العالم بمحو سواد الكفر والوثنيۀ بالسيف، لذلک أكّد عليه بلفظ {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان. ومن يتولهم منكم فأولئک هم الظالمون}.

فائدة:

هذا الذى ذكرناه يتعلق بما حققه الإمام الرازى، فهو يربط هذه الآية بالإيذان بالبراءة، لأن هذه الآية نزلت لتهيئة الأجواء بعد الإيذان بالبراءة عن المشركين وعهودهم ومواثيقهم وببدء القتال معهم، فمن فضّل الأقارب على ما أمر الله به، فقد ضل وغوى، وظلم نفسه.

قال الرازى:

«اعلم أن المقصود من ذكر هذه الآية أن يكون جوابا عن شبهة أخرى ذكروها فى أن البراءة من الكفار غير ممكنة، وتلك الشبهة أن قالوا إن الرجل المسلم قد يكون أبوه كافرا أو الرجل الكافر قد يكون أبوه أو أخوه مسلما، وحصول المقاطعة التامة بين الرجل وأبيه وأخيه كالمتعذر الممتنع، وإذا كان الأمر كذلک كانت تلک البراءة التى أمر الله بها، كالشاق الممتنع المتعذر، فذكر الله تعالى هذه الآية ليزيل هذه الشبهة». (التفسير الكبير)

تنديد المبالغة فى مودة ذوى القرابة

«فيها بيان فضائل الهجرة والجهاد، والمرء كان يضطر إلى هجر الوطن وذوى القرابة والأحبة والأصدقاء والأموال. ولاشک أنها من الأمور الشاقة على النفس، لذلک ذم المبالغة فى حبها ومودتها فى الآية التالية إعداداً لنفوسهم للهجرة والجهاد، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم...} الآية. لقد أكثر القرآن من أمر تقوية الصلات مع ذوى القرابة والإحسان إليهم، لكن هنا أشار إلى أن لكل رابطة حدودها ومقاديرها، وكل رابطة سواء كانت رابطة الأمومة أو الأخوة أو البنوة فإنها تقل أهمية مقارنة بالرابطة التى بين العبد وربه ورسوله، وما من موضع تتعارض فيه الرابطتان إلا تفوق رابطة العبد مع ربه على غيرها، ويجب عدم تولّى الأخيرة أىّ اهتمام يُذكر. (بيان ومعارف القرآن)

مناسبة غريبة أخرى:

الآيات السابقة تناولت البشائر العظيمة لكل من هاجر وجاهد فى سبيل الله، وهنا إشارة إلى أنهما ليسا من الأعمال الهيّنة، فقد يتصادم المرء مع ذوى قرابته، لذلک أمر لكل واحد منهما بجوائز عظيمة.

وفى تفسير المدارک أن هذه الآية نزلت بشأن الهجرة من مكة المكرمة، لمّا نزل بعدم العبرة بإيمان أحد ما لم يهاجر فى سبيل الله، فقد توجّه البعض إلى المدينة، والبعض الآخر تعلّق به أهله وعياله، وقالوا: نضيع دونک. وهؤلاء ارتكبوا خطأ فادحا، فقد كانت قلوبهم ليّنة، وبقوا بمكة ولم يهاجروا، ولم يُوفّقوا للهجرة. فهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بالظالمين. وعلى كل حال، فالهجرة والجهاد من الأعمال الشاقة، وفى الآيات السابقة بشائر لصاحبهما، وهنا وعيد لمن تركهما. وقد أورد الإمام الرازى هنا شبهة، وقال: نزلت هذه السورة بعد فتح مكة، فكيف يمكن حمل هذه الآيات على الهجرة من مكة؟ وقد أجاب عنه الآلوسى فى روح المعانى، وقال معنى نزول سورة التوبة بعد فتح مكة أن أكثرها نزلت بعد الفتح، فلا ينافيه نزول بعض الآيات قبل الفتح. (والله أعلم بالصواب)

وعید شدید:

لقد اتضح معنی قوله {فأولئک هم الظالمون} من خلال العبارات التی سردناها. لکن القرطبی أخرج عن ابن عباس رضی الله عنهما أن «ظالم» بمعنی المشرک فی هذه الآیة، والمعنی: کل من والاهم فهو ظالم، أی مشرک بالله.

قال ابن عباس: هو مشرک مثلهم، لأن من رضی بالشرک فهو مشرک. (القرطبی)

درس مهم:

لقد أرسل الله تعالی المسلم لغرض عظیم، یستعد للهجرة والجهاد سعیا إلی نشر الدعوة الإسلامیة فی ربوع الأرض ورفعة کلمته، فکان من الواجب علیه أن تکون اهتماماته بالشئون المنزلیة أقل، کی لا یصیر «إنسانا منزلیا» فیتغافل عن مسئولیاته الجماعیة، لا یُغلِّب علی نفسه حب الوالدین والأولاد والأهل وذوی القرابة بحیث لا یصعب علیه فراقهم للجهاد، لا مفر من الموت، فقد رحل من الدنیا من کان قد هاجر إلی المدینة بعدما ترک کل ما کان یملکه، وقد سبق فی الآیة التی قبل هذه أن لهم عند الله الرحمة والقرب والرضا، کما مات أولئک الذین کان قد تعلق بهم أهلهم وعیالهم، ومنعوهم من الهجرة والجهاد، ومثل هؤلاء استقبلوا العذاب فور موتهم. والکل هنا یفترق عن الآخر، والسعداء من یفترق من أحبائه لرضا الله سبحانه، فیجازیهم الله تعالی فی الدنیا والآخرة. (والله أعلم بالصواب)

رباط الإیمان أقوی من رباط النسب والوطن وفداء علیه

دلت الآیة الکریمة علی مسألة مهمة، وهی أن رابطة الإیمان والإسلام أولی من رابطة القرابة والصداقة، فما تعارضت معها تساقطت، وعمل الصحابة الذی بفضله صاروا أفضل أمته أنهم کانوا یوثرون علاقتهم مع الله ورسوله علی جمیع العلائق الأخری.

بلال الحبشی، وصهیب الرومی، وسلمان الفارسی، وقریش مکة وأنصار المدینة کلهم صاروا إخوانا، (رغم انتساب کل واحد منهم إلی عشیرة مختلفة) ویوم بدر وأُحد واجه الوالد ابنه، والأخ أخاه، وشهدوا بأن اتجاههم هو هذا:

اللهم ارزقنا اتباعهم واجعل حبک أحب الأشیاء إلینا، وخشیتک أخوف الأشیاء عندنا. (معارف القرآن)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 24}

بسم الله الرحمن الرحيم

{قُل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأمـوال اقترفتموهـا وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين}.

ملخص معانى الآية:

إن كنتم لا تُذعنون لما يأمركم الله ورسوله ∴ لا تهاجرون ولا تُجاهدون، لأنكم تضطرون للانفصال عن أهليكم وعشيرتكم، أو تضيع أموالكم، أو تكسد تجارتكم، أو تفقدون راحتكم فى مساكنكم التى ترضونها، فانتظروا عذاب الله، الذى سينزل على راحة البدن وطمع الدنيا، فمن له ارتباطات مع المشركين، أو له علائق مع الدنيا، ولم يُذعن لما أمر الله تعالى به، فلن يتوصل إلى الفوز الحقيقى. وفى الحديث عن ابن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلالا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم. (التفسير العثمانى بالتسهيل)

موضوع الآية:

قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى:

ثم أمر الله تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد فى سبيله فقال: {قل إن كان آباءكم} الآية. (تفسير ابن كثير)

ذكر الجهاد موضع الهجرة:

فى السابق ذكر الهجرة، وهنا لا يوجد ذكرها، إنما ذكر الجهاد، أشار الشيخ أشرف على التهانوى إلى أحد أسبابه فقال:

{من الله ورسوله} أى من العمل بأمر الله ورسوله، والهجرة من ضمن ما أمر الله بها، أما التصريح بلفظ الجهاد فللمبالغة، لأن الهجرة لاشك أنها أيسر مقارنة بالجهاد، لكن المقصود ترجيح الجهاد على الأشياء المذكورة، بأن يستهين نفسه وروحه، أو نفوس ذوى قرابته الذين جاءوا لمحاربته. (بيان القرآن)

{من الله ورسوله} أى العمل بأمر الله ورسوله.

وفى الكلام حذف أى أحب إليكم من امتثال أمر الله تعالى ورسوله. (بحر)

{وجهاد فى سبيله} ذكر الجهاد فى سبيل الله الذى فوق الهجرة بدرجة، وذلك للإشارة إلى ضرورة تغليب الجهاد على كل ارتباط دنيوى، ناهيک عن الهجرة. (التفسير الماجدى)

فائدة:

دلت الآية على وجوب حب التوجيهات الإلهية، ووجوب الحب بذات الله وذات الرسول ، فقد سرد ابن كثير العديد من الأحاديث فيها، فمن شاء فليعد إليه.

من المدهش أن يترک المسلم الجهاد:

«ومن المستغرب بعد ادعاء الإيمان بالله ترک الجهاد فى سبيل الله لغرض من أغراض الدنيا، فإن فعلتم، فذلک يعنى أنکم استدعيتم عذاب الله، الذى يحل بکم بشکل الذُل والعبودية». (تفسير الفرقان)

بعيدون عن الإيمان والعقل:

من دلائل الابتعاد عن الإيمان والعقل عدم النظر إلى الوعيد، والعناية بالقرابات والتجارات والبيوت، وترک الجهاد والهجرة فى حبها. (أنوار البيان)

الشيطان يقيم جبهة لمنع الجهاد:

أورد الإمام القرطبى رحمه الله تعالى الحديث الآتى تحت الآية الكريمة:

«إن الشيطان قعد لابن آدم ثلاث مقاعد: قعد له فى طريق الإسلام، فقال : لم تذر دينک ودين آباءک فخالفه وأسلم. وقعد له فى طريق الهجرة، فقال له: أتذر مالک وأهلک، فخالفه وهاجر، ثم قعد له فى طريق الجهاد، فقال له: تجاهد فتقتل فينكح أهلک ويقسم مالک فخالفه وجاهد، فحق على الله أن يدخله الجنة». (القرطبى)

(وقد صحّحه القرطبى).

فى الآية بيان فضل الجهاد:

قال القرطبى رحمه الله:

وفى قوله {وجهاد فى سبيله} دليل على فضل الجهاد، وإيثاره على راحة النفس وعلائقها بالأهل والمال. (القرطبى)

قَلَّ من تجدون يفعل ذلک..

ذكر البيضاوى أن فى الآية شدة، وقلَّ من تجدون من يتقى الوعيد المذكور، أى قل من تجدون من يحب الله ورسوله أكثر من أهله وعياله وماله وولده. (التفسير المظهرى)

وهذا الذى تحزَّن له النسفى، فقد قال:

والآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين، إذ لا تجد عند أروع الناس ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والأموال والحظوظ..

وهذه الجريمة لم تبق عاراً اليوم..

لقد تحزّن البيضاوى والنسفى على أحوال زمانهما، وما مدى حزنهما لو رأيا أحوال الناس اليوم؟ فقد تحوّل المسلمون اليوم إلى «الخدم المنزلى» أو «عبيد المال» فقد اقتصرت أنشطة الناس اليومية على إدارة الشئون المنزلية، وتزويج الأولاد، ومعالجة القضايا الأسرية، همهم الأكبر بناء المنزل، فإن فرغوا من بناء منزل واحد صاروا يهتمون بالثانى، ثم بالثالث، وهكذا.. حياتهم تضيع فى تنظيم أمور الزواج الذى يمتد لسنة أو نصف، صار اليوم كسب المال وادخاره من أهم المقاصد والكمالات، يبتعد المرء من دينه لأجل أولاده وأمواله، يسافرون إلى بلاد الكفار، ويقومون بكل عمل محرّم لبناء بيوت فاخرة، لا يتردد على عقولهم فكر الجهاد وتصوره فكيف بالجهاد عملاً؟ وبعد مشاهدة أحوالهم بات المشركون يردّدون اليوم أن المسلمين لا يجاهدون إلا للفقر، ولا يجاهد إلا فقراء المسلمين، فإن وجّهتموهم إلى كسب المال وادخاره، تخلَّوا عن الجهاد، وفى مثل هذه الظروف الحالكة نرى هذه الآية القرآنية كأنها قطعة من البرق سقطت من السماء، تؤذن بالعذاب الأليم لكل من آثر الأهل والعيال والأسرة والتجارة والبيوت الفاخرة على الجهاد... (والله أعلم بالصواب)

أرجو من الإخوة المسلمين كافةً قراءة هذه الآية بكل تأنٍّ، ويسأل الله تعالى الوقاية من العذاب المذكور فى هذه الآية.

عبارة ناصحة:

«للشرع أحكام ومقتضيات، والمرء بعد الإيمان بالله مُطالب بتطبيق أحكامه، وفيها كثير من الأعمال التى تكرهها النفوس البشرية، ومنها الهجرة والجهاد، والتخلى عن المال المحرّم، وقطع العلاقة مع كثير من الأقارب فى ضوء أحكام الشرع، وغيرها كثير من الأمور التى تشق على النفوس. فمن يعلم ويؤمن أن الله خالقه ومالكه ورازقه، وحقه علينا من أكبر الحقوق، وهو الذى منحنا المال، وأنشأ لنا قرابات، لا يصعب عليه العمل بأحكام الله تعالى. يوثرون حب الله وحب رسوله على الجميع.

روى أنس عن النبى ﷺ قال: ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان.

الأول: من كان الله ورسوله احب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لايحبه الا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار. (رواه البخارى)

وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين. (رواه البخارى 10/7)

ومعنى حلاوة الإيمان أن لا يشعر بالثقل عند تأدية الصلاة والطاعات، بل يتلذذ بها، وأن يسهل عليه تحمل المصاعب والمحن كافة فى سبيل رضا الله ورسوله ﷺ. (تفسير أنوار البيان)

مناسبة الآية بالبراءة:

لهذه الآية مناسبة بالإيذان بالبراءة من المشركين عند الإمام الرازى، لأن الحرب التى جاء الإيذان بها فى البراءة كانت تقتضى كثيرا من التضحيات، إذ فى العدو من هو من قرابته وعشيرته، إضافة إلى خطر خسارة كافة المكاسب التجارية والمالية والمنشآت الحيوية من البيت وغيره، لذلك أمر المسلمين بأن لا يصيّروها عوائق فى سبيل الجهاد والعمل بما أمر الله، فمن فعل ذلك نزل عليه العذاب. وقيل: فى هذه الآية وعيد لمن لم يهاجر، وأخبرهم أن مكة سوف تُفتح، فتلحقكم الذلة والندامة.

قال الآلوسى رحمه الله:

{حتى يأتى الله بأمره} أى بعقوبته سبحانه لكم عاجلا أو آجلا على ما روى عن الحسن واختاره الجبائى، وروى عن ابن عباس ومجاهد ومقاتل أنه فتح مكة. (روح المعانى)

غزوة حنين

شوال سنة 8 هـ

تناولت الآيات 25 و26 و27 من سورة التوبة غزوة حنين، وفيما يلى لاحظوا قصتها.

غزوة حنين:

هذه من إحدى المعارك التى قادها النبى ˚ بنفسه، وأنزل الله الملائكة من السماء لنصر المؤمنين، ظهرت فيها كثير من الوقائع والحوادث خلاف العادة بصورة مستغربة، بالتأمّل فيها تحصل القوة فى الإيمان، والهمّة فى العمل، وهى مليئة بكثير من الدروس والعبر والنصائح للمسلمين.

غزوة حنين

2 شوال سنة 8 هـ (1 فبراير 630م)

حنين موضع بالقرب من مكة والطائف، على بعد عشرة أمال من مكة، كان فتح مكة فى رمضان سنة 8 هـ ولما استسلم المشركون أمام النبى ، أقلق ذلك هوازن وهى قبيلة معروفة بثراءها ورجالها وأبطالها وحروبها، ومن أحد فروعها بنو ثقيف فى الطائف، فجمعت حشودا، وقالت: لقد تقوّى المسلمون بعد فتح مكة، وبعد استيفاء فتحها سيغيرون علينا، فمن المصلحة أن نبادرهم بالهجوم، واحتشدت قوة عظيمة تشتمل على فروعها المنتشرة بين مكة والطائف، ولم يتخلف أحد منهم إلا قليل لا يتجاوزون على مائة رجل، يقودها سيدها مالك بن عوف، وقد أسلم فيما بعد، وظلّ ممن يحملون لواءه، لكنه يومئذ من أكثر من تحمّس لقتال المسلمين، وقد وافقه معظم أفراد قبيلته، وباتوا يجهّزون العدّة، أما فروعها الصغيرة مثل بنى كعب وبنى كلاب فكانوا يعارضونه، لما مَنَحهم الله جانباً من العلم والبصيرة، فقالوا: لو اجتمعت الدنيا فى مشرقها ومغربها على محاربة محمد ، لانتصر عليهم جميعا، لا طاقة لنا بمحاربة القوة الإلهية، أما القبائل الباقية فوافقت مالكاً واستعدت للحرب، وتعهدوا مالكا على الحرب، أما مالك بن عوف فهو من جهته أمر الناس بالخروج مع أهلهم وعيالهم كى لا يقدروا على الفرار يوم الزحف، أما عن عددهم فقد اختلف أهل السير، وقد ترجح لدى حافظ الحديث العلامة ابن حجر رحمه الله تعالى أنهم كانوا ما بين أربع وعشرين إلى ثمان وعشرين ألفاً، وقيل: كانوا أربعة آلاف، ويمكن الجمع بين القولين بأن المقاتلين كانوا أربعة آلاف، وبمجموع النساء والأطفال والشيوخ صاروا أربعا وعشرين ألفا أو ثمان وعشرين ألفا.

وعلى كل حال، لمّا بلغ النبى عن نواياهم السيئة تجاه المسلمين عزم على الخروج لدحرهم، وأمّر عتاب بن أسيد على مكة، وأمر معاذ بن جبل بتعليمهم أمور الدين، واستعار السلاح والعتاد من قريش، فقال صفوان بن أمية سيد قريش: أغصبا تريدها؟ فقال: بل عارية، نضمن إعادتها، فلمّا سمع ذلك أعار مائة درع، وعرض نوفل بن الحارث ثلاثة آلاف رمح. فتوجه النبى على رأس أربعة عشر ألفا من المسلمين، كما روى الزهرى. منهم اثنا عشر ألفا من المهاجرين والأنصار، الذين خرجوا معه من المدينة لفتح مكة، وألفان ممن كانوا حديثى عهد بالإسلام عند الفتح من مكة وما جاورتها من المناطق، وتُطلق عليهم كلمة الطُلقاء، وأكثر المفسرين يذكرون عدد المسلمين اثنى عشر ألفا، خرج النبى يوم السبت السادس من شوال، ثم قال: ننزل غدا بموضع من خيف بنى كنانة الذى تجمّع فيه المشركون، وكتبوا وثيقة مقاطعة المسلمين.

ولمّا خرج هذا الجمع العظيم من المسلمين، رافقه عدد آخر من رجال ونساء مكة كمتفرجين، كانوا يقولون فى قلوبهم: إن مُنى المسلمون بهزيمة سنحت لنا فرصة للانتقام منهم، وإن انتصروا على عدوهم، فذاك لهم، ولا ضرر لنا فيه.

وممن كانت تختلج فى قلبه تلك المشاعر، شيبة بن عثمان، أسلم ثم ذكر قصته، قال: قُتل والدى بيد حمزة، وعمى بيد على بن أبى طالب، وكان قلبى يلتهب بنار الانتقام، فاغتنمت الفرصة

وخرجت مع المسلمين، حتى إذا تمكنتُ منه قتلتُه، فكنتُ أتحيّن الفُرص، حتى تزلزلت أقدام المسلمين فى بداية المعركة، وانفضوا من حول النبى ، فذهبتُ حتى وصلتُ قريبا منه، فوجدت العباس عن يمينه، وأبا سفيان بن حرب عن يساره، يحرسانه، فعزمت على أن أحمل عليه بسيفى من وراءه حتى رآنى النبى ، فنادانى فلما وصلت إليه وضع يده على صدرى، ودعا أن يُبعد الله الشيطان منى، فوجدت نفسى أنه صار أحب إلىّ من عينى وأذنى ونفسى، ثم أمرنى وقال: اذهب وقاتل المشركين، فصرتُ أضحّى عليه بنفسى وروحى، حتى قاتلتُ المشركين ببسالة، فلما رجع النبى أتيته، وذكرت له ما كنتُ أجده فى قلبى، فذكر لى وقت خروجى من مكة، وأنى كنتَ أحوم حوله لأقتله، لكن الله أراد بى الخير، فكان كما أراد.

ومثله حدث مع النضر بن الحارث، كان قد توجّه إلى حنين بتلك النية، لكن الله تعالى ألقى فى قلبه حب النبى وبراءته، حتى صار مجاهداً يقرع صفوف الأعداء.

ومثلهما حدث مع أبى بردة بن نيار رضى الله عنه، لمّا بلغ الأوطاس، وجد النبى يستريح تحت شجرة، ورجل عنده قاعد، فقال النبى : لقد أخذنى النوم حتى وجدتُ هذا قد أخذ سيفى وقام على رأسى ثم قال: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فسقط السيف من يده، فقال أبو بردة: يا رسول الله.. ائذن لى أضرب عنق عدو الله هذا، قد يكون عين العدو، فقال النبى : اهدأ يا أبا بردة، فإن الله يمنعنى، ما لم يظهر دينى على الأديان كلها، ثم أطلقه ولم يذمه.

ولمّا نزل المسلمون فى حنين جاء سهل بن حنظلة إلى رسول الله ، وقال: إن راكباً جاء من عند العدو، ويقول: لقد خرجت هوازن مع رجالها ونسائها ومالها، فتبسم النبى ثم قال: لا تقلقوا، فإن ذلك المال يقع بأيدى المسلمين غنيمةً.

ثم أرسل النبى عبد الله بن الحدرد للجتسس عن أحوال العدو، فذهب وأقام فى قومه يومين، فرأى وسمع ما يقول القوم، ورأى سيد قومه مالك بن عوف يقول لقومه: ما قابل محمد أحدا من الأبطال جرّب حربا، إنما قابل قومه قريشا من أهل مكة السُّذّج، فزعم أن لديه قوة، وسوف يعلم. واصطفوا بكرة بحيث وراء كل واحد منكم امرأته وولده وماله، واكسروا جفون أغماد سيوفكم، ثم احملوا عليهم ضربة رجل واحد. وكانوا قد برعوا فى فنون الحرب، وأخفوا رماتهم فى الشعاب.

إن كان المشركون قد استعدوا للحرب بكل قوتهم، فإن المسلمين فى جانب آخر احتشدوا بأكبر أعدادهم للمرة الأولى، وبالعتاد والسلاح الكثير، وكانوا قد شاهدوا فى بدر وأُحد أن جماعة من المؤمن العُزّل لا تتجاوز على ثلاثمائة وثلاثة عشرة قد تغلبت على جيش قوامه ألف رجل، واليوم بعدما شاهدوا عددهم وعُدّتهم جرى على لسان بعضهم كما أخرج البزّار والحاكم: «لن نُغلب اليوم من قلة»، وإذا ابتدأت المعركة لاذ العدو بالفرار.

هذا ما لم يكن يُعجب مالك الملك والملكوت، الاعتماد على القوة الظاهرة، لذلك لقّنهم درسا، حيث حملت هوازن على المسلمين ضربة رجل واحد، والرماة واجههم بوابل من الرماح، وفرضوا عليهم حصارا، والنهار صار ليلا بسبب الأتربة المتطايرة، فتزلزلت أقدام المسلمين، وهربوا، إلا رسول الله الذى كان على دابته يتقدم إلى العدو، ولم يثبت معه إلا مائة، وقيل ثلاثمائة، وقيل أقل من ذلك، وكانوا لا يريدون أن يتقدم رسول الله .

ولمّا رأى النبى ﷺ ذلک أمر العباس وکان صيّتا، فقال: ناد الذين بايعوا تحت الشجرة، وأين أصحاب سورة البقرة؟ أين الأنصار الذين تعهدوا بالتضحية بالنفوس، فليعودوا، فإن رسول الله ﷺ هنا فى الميدان.

فلما نادى العباس استجابوا لنداءه، وندموا على هروبهم، وعادوا بشجاعة، وقابلوا العدو ببسالة، فأنزل الله تعالى الملائكة ونصرهم، فلاذ سيدهم مالک بن عوف بالفرار، وخذل أهله وماله، واختبأ فى حصن الطائف، ثم هرب آخرون، فقتل سبعون من صناديدهم، وأصيب بعض أطفالهم بجروح بأيدى المسلمين، فنهاهم النبى ﷺ عنه، وحصل للمسلمين مغانم کثيرة، منهم ستة آلاف أسرى، أربع وعشرون ألف بعير، أربعون ألف غنم، وأربعة آلاف أواقى فضة.

فالآيات التى نزلت بشأن غزوة حنين تناولت المضمون المذکور، قال: {ويوم حنين إذ أعجبتکم کثرتکم، فلم تُغن عنکم شيئا، وضاقت عليکم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل سکينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذّب الذين کفروا وذلک جزآء الکافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلک على من يشاء. والله غفور رحيم}.

وقال فى الآية الثانية: {ثم أنزل الله سکينته على رسوله وعلى المؤمنين} والمعنى أن أولئک المؤمنين الذين تزلزلت أقدامهم فى أول الأمر، أنزل الله سکينته عليهم، فعادوا إلى النبى ﷺ. أما معنى إنزال السکينة على الرسول والمؤمنين الذين ثبتوا معه فى الموقف، فهو إراءة الفتح لهم قريبا، وبما أن التسلية کانت بنوعيها للذين هربوا والذين ثبتوا مع النبى ﷺ، لذلک ذکرها بتکرار «على» {على رسوله وعلى المؤمنين}.

ثم قال: {وأنزل جنودا لم تروها} أى ما رأى عامتکم، وهو لا ينافى رؤية الأفراد والآحاد الذى ورد ذکره فى بعض الروايات.

ثم قال: {وعذَّب الذين کفروا. وذلک جزآء الکافرين} والمراد من الجزاء انتصار المؤمنين عليهم وغلبتهم، الذى کان واضحا للعيان، والمعنى أنها کانت عقوبة دنيوية فورية، أما المعاملة الأخروية فقد أشار فيها فى الآيات التى تليها، وهى..

{ثم يتوب الله من بعد ذلک من يشاء والله غفور رحيم} فيها إشارة إلى أن أولئک الذين عاقبهم الله بتغليب المسلمين عليهم والفتح والانتصار، فإن منهم من يوفّقه الله تعالى للإيمان فيما بعد، فکان کما وعد.

توزيع غنائم حنين:

وفى شهر ذى القعدة الحرام رجع النبى ﷺ من الطائف إلى الجعرانة، وفيها الغنائم مجموعة، ستة آلاف أسرى، أربع وعشرون ألف بعير، أربعون ألف شاة، وأربعة آلاف أواقى فضة. ثم انتظر هوازن لمدة عشرة أيام، لعلهم يأتون إليه ليخلّصوا نساءهم وأطفالهم، لکنهم ما جاءوا، فقسمها بين الغانمين. (ابن حجر، فتح البارى 138/8 ابن سيد الناس، عيون الأثر 193/2).

ثم جاء وفدهم، وفيه تسعة رجال، فأسلموا وبايعوا على يديه، وسألوا إعادة أموالهم وعيالهم إليهم، وکانت حليمة السعدية أمه من الرضاعة منهم، فقام خطيبهم وقال: يا رسول الله.. إن بين

الأسری خالاتک وعماتک وحواضنک، فلو کانت هذه الروابط بيننا وبين ملک لنفعتنا، وأنت أفضل منهم وأحسن، وما نزل علينا غير خافيۀ عليک، فأحسن إلينا، ثم أنشد بالأبيات التاليۀ:

امنن علينا رسول الله فی کرم   فإنک المرء نرجوه وندخر

فقال النبی ˑ: لقد انتظرتکم مدۀ، لکنکم ما أتيتم، ثم قسّمتها، وإنی أخيرکم بين أمرين: المال والأسری، فخذوا أيهما شئتم، فقالوا: لقد خيّرتنا بين المال والنسب، فنختار النسب علی المال، ولا نقول لک شيئا فی الغنم والبعير.

فقال النبی ˑ: ما کان من نصيبی ونصيب بنی هاشم وبنی عبد المطلب من هذه المغانم فهی لکم، أما الذی کان من نصيب بقيۀ المسلمين فقوموا بعد صلاۀ الظهر، واطلبوا من الناس، وأنا أشفع لکم، فقاموا بعد الصلاۀ وألقوا خُطباً بليغۀ، وطالبوا من المسلمين إطلاق أسراهم، ثم قام النبی ˑ خطيبا، فحمد الله وأثنی عليه خيرا ثم قال: إن إخوانکم هؤلاء من هوازن جاءواکم بعدما أسلموا، وقد أعطيتهم نصيبی ونصيب بنی هاشم وبنی عبد المطلب، وأری أن يفعل ذلک بقيۀ المسلمين، فمن أراد أن يفعل ذلک بطيب نفس منه فليفعل، وإلا عوّضته بمال من عندی، فقالوا: لقد رضينا بطيب نفس منا، وهکذا أطلقوا ستۀ آلاف أسری فی مناسبۀ واحدۀ. (ابن حجر، فتح الباری 26/8)

وکانت من بين الأسری «شيماء» أخته من الرضاعۀ، لمّا أسرها الناس قالت: أنا أخت نبيکم من الرضاعۀ، فجاءوا بها إلی النبی ˑ، فقالت: يا محمد أنا أختک من الرضاعۀ، والدليل عليها أنک عضضتنی يوما، وهذه علامتها، فعرفها النبی ˑ، فرحب بها، وفرش لها رداءه، وامتلأت عيونه دمعا، ثم قال: إن شئت أقمت عندی معززۀ مکرمۀ، وإن شئت رجعت إلی قومک. فقالت: بل أرجع إلی قومی، فأسلمت. فلما أرادت العودۀ أعطاها النبی ˑ البعير والشياه وثلاثۀ عبيد وجاريۀ. (ابن حجر، الإصابۀ (637) 344/4).

أما أشراف قريش الذين دخلوا فی الإسلام يوم فتح مکۀ لا زالوا مذبذبين، ولمّا يترسخ الإيمان فی قلوبهم، فهم الذين وصفهم القرآن بمؤلفۀ القلوب، وقد أعطاهم الرسول ˑ الکثير من الغنائم، بعضهم نال مائۀ من الإبل، وبعضهم مائتی إبل. (ابن حجر 38، الزرقانی 36).

وباختصار، جميع ما أعطی أعطی أشراف قريش، وما أعطی الأنصار شيئا، حتی قال بعضهم: لقد والله أعطی رسول الله ˑ قريشا وما أعطانا جماعۀ الأنصار شيئا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، وقال البعض: يطلبنا عند الشدائد، وعند تقسيم الغنائم لا يطلبنا، فبلغ ذلک النبی ˑ، فطلب الأنصار، فقال: ما هذه القالۀ التی بلغتنی عنکم؟ فقالوا: لم يقل ذلک ذووا الرأی منا، فقال: يا معشر الأنصار، أما کنتم ضُلاّلا فهداکم الله بی، أما کنتم أعداءً فألف الله بين قلوبکم بی، أما کنتم عالۀ فأغناکم بی، فقالوا: الله ورسوله أبر وأمنّ، ثم قال: إن شئتم قلتم صدقتم فصدقتکم، لقد کذبوک فصدقناک، وخذلوک فآويناک، وکنت عائلا فواسيناک، ثم قال: يا معشر الأنصار أوجدتم علیّ فی لعاعۀ من الدنيا تآلفت بها قلوبهم، وفوّضتکم إلی إسلامکم.

وفی روايۀ البخاری قال النبی ˑ: لقد أصابت قريش مصيبۀ القتل والأسر، (أی مقارنۀ مع المسلمين أصيبوا فی أرواحهم وأموالهم) لذلک أردتُ أن أداوی بعض جروحهم بهذا العطاء، ليستأنسوا بالإسلام، فقد قُتل إخوانهم وأُسروا وأُوذوا، وقد صانکم الله منها، فأردتُ أن أعطيهم من

المال تأليفا لقلوبهم، أما أنتم فأهل إيمان ويقين، وهما من كبرى نِعَم الله التى لا تزول، أما ترضون أن يعود الناس إلى ديارهم بالبعير والشاه، وتعودوا إلى دياركم برسول الله، فوالله الذى نفسى بيده لو لا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وواديا وسلكت الأنصار واديا وشعبا، لسلكتُ شعب الأنصار وواديهم، اللهم ارحم الأنصار، وولد ولدهم.

فما أن انتهى النبى • من كلامه حتى بكوا واخضلوا لحاهم، ثم قالوا: رضينا بهذا القسم والحظ.

الأحكام والمسائل:

فى ثنايا القصص المذكورة وردت كثير من الأحكام والتوجيهات والفوائد، وهى المقصود من سرد هذه القصة.

وكان التوجيه الأول فى هذه الآيات النهى عن الاغترار بالعدد والعُدة، إن كنتم تنظرون إلى الله تعالى فى حالة الضعف من ناحية العدد والعتاد، فكذلك يجب أن تنظروا إليه فى حالة القوة والعدد الكثير.

الكلمة التى قالوها يوم حنين بعدما لاحظوا عددهم الكبير وعُدتهم العميمة وهى: «لن نُغلب اليوم من قلة» لم تُعجب الله تلك الكلمة، لذلك زلت أقدامهم فى أول الأمر، ولاذوا بالفرار، ثم أنزل الله نصره على المؤمنين.

الحيطة والحذر والعدل فى أموال الكفار المهزومين المغلوبين

والتوجيه الثانى الذى وُجّه إليهم خلال هذه القصة أن ما أخذ النبى • من قريش المغلوبين المنهزمين فى مكة من الدروع والرماح لقتال هوازن من باب العارية، أرجعها إليهم، وكان بإمكانه أن يأخذها غصبا منهم، لكنه أخذها منهم عارية، ثم أرجعها إليهم.

فهذه القصة علّمت المسلمين درساً كاملا للعدل والإنصاف والرحمة مع الأعداء.

والتوجيه الثالث فيها أن النبى • لمّا كان متوجها إلى حنين فإنه قال لمّا نزل بخيف بنى كنانة، سننزل غداً بموضع كان المشركون قد تعاهدوا فيه لمقاطعة المسلمين، وفيه إشارة أن المسلمين إن نصرهم الله تعالى على أعداءهم، وجعل لهم قوة وسلطانا، لا ينسون ما وقع عليهم فى الماضى من المحن والبلايا، حتى يقدروا على شكره. ثم إنه • كان يتعرض إلى الهجمات المتتالية من هوازن وطعناتهم وسهامهم، لكنه لم يدع عليهم، إنما دعا لهم بالإيمان، وهذا فيه درس ونصيحة للمسلمين أن جهادهم ليس لمجرد إلحاق الهزيمة بالعدو، بل الغرض منه إرشادهم إلى الإسلام، لذلك لا يتغافل عن هذا الهدف لدقيقة.

والآية الثالثة أشارت إلى أن الكفار المهزومين والمغلوبين يمكن أن يدخلوا فى دين الله، فلا يجوز اليأس والقنوط منهم، كما ثبت ذلك بقصة إسلام هوازن.

عند مطالبة وفد هوازن بأهلهم وأولادهم شفع النبى ۠ لهم، فرضى المسلمون على إطلاق الأسرى عن طيب خاطرهم، لكنه ۠ لم يكتف بالقول بشكل عام، حتى سألهم بشكل خاص.

ثبت بهذا أنه لا يجوز أخذ مال أحد إلا بطيب نفس منه، وأن سكوت أحد حياء من الناس، أو إبداء الموافقة بشكل جماعى لا يكفى، ومن هنا قال أهل العلم: لا يجوز الحصول على التبرعات من الناس باستغلال الرعب الشخصى أو الهيبة بين الناس، لأن كثيرا من الناس فى مثل هذه الظروف يستحيون، فيتبرعون حياء بدون طيب نفس، ولا يبارك الله فى مثل هذا المال.

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 25، 26، 27}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلن تُغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحُبت ثم ولَّيتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذّب الذين كفروا وذلك جزآء الكافرين. ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشآء، والله غفور رحيم}.

ملخص معانى الآيات:

لا يتحقق النصر فى الجهاد إلا بإذن الله، فلا تتركوا الجهاد بحجة قلة العدد والعُدّة، ولا تتفاخروا عند ازدياد عددكم، وانظروا كم نصركم الله فى مواطن كثيرة، من بدر، وبنى قريظة، وبنى النضير، والحديبية، وخيبر وفتح مكة.. كما نصركم يوم حنين، رغم ما لها من قصة غريبة، فقد كنتم تتفاخرون بعددكم وعُدّتكم، فلم تنفعكم، وأُصبتم بالهلع والذُعر لمّا أحاطكم العدو بالرمى، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبت، ثم ولّيتم مدبرين. ثم أنزل الله على قلب رسوله سكينته الخاصة بالنصر والفتح، وعلى المؤمنين، وأنزل من السماء جنوداً لنصركم لم تروها، وعذّب الذين كفروا بأيديكم بالهزيمة والذلة والموت والحبس، ثم يتوب الله على من يشاء منهم، فقد أسلم كثير منهم، والله غفور رحيم، يكرم أولياءه بالنصر بعد الهزيمة.

درس عجيب للمسلمين يوم حنين

الدرس الأول : لا تتركوا الجهاد بحجة قلة العدد:

قال اللاهورى رحمه الله: قلة العدد لا تمنع من الجهاد، والنصر لا يتحقق فيه إلا بإرادة الله، سواء كان الجيش الإسلامى بعدد أقل، وكثيراً ما جرّ الهزيمة إلى الجيش الإسلامى اغترارهم بكثرة العدد. (حاشية اللاهورى)

وإيذان البراءة يشمل الإيذان بمحاربة المشركين كافة، وفى تلك الظروف كانت الحاجة إلى تذكيرهم بالدرس المذكور، لأن عدد المسلمين لم يبلغ مبلغ محاربة المشركين كافة قط، وذكّرهم بالمواقع التى نصرهم الله فيها، وغلبتم عليهم، رغم قلة عددكم وعدتكم، وفى إحدى المرات زاد عددكم، وأعجبتكم كثرتكم، فعانيتم من الهزيمة، ثم نصركم الله، فلا تنظروا إلى الأسباب، وانظروا إلى الله. (والله أعلم بالصواب)

لاحظوا العبارة التالية:

البعض يعتذر لقلة العدد والعُدّة، يقول: نحن ضعفاء ولا حيلة لنا، والعدو يفوق علينا بالعدد والعُدّة والقوّة والشوكة ووفرة العتاد والسلاح ووسائل النقل والحمل، وخوض المعركة فى مثل هذه الظروف ليس إلا الإقدام على الانتحار، وقد قال الله تعالى فى القرآن الكريم {ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة}. فهذا جواب لمثل هؤلاء بقوله: {لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين} الآية، فيها تأكيد على أنه لا ينبغى للمسلمين أن يتخلوا عن الجهاد فى سبيل الله بحجة قلة العدد والعُدّة، لأن النصر فى الحرب لا يعتمد على العدد، بل على الصبر والثبات والإيثار والشجاعة والإيمان والتفانى. (تفسير الفرقان)

الدرس الثانى: لا تعتزوا بعددكم وقوتكم..

لاحظوا العبارة التالية تتلألأ الأنوار والمعارف من كل سطر فيها:

«فى الآية السابقة أكّد على أن المؤمنين لا ينظر إلى العشيرة والقبيلة والمال والأثاث للقتال فى سبيل الله، (أى لا يترک الجهاد لأجلها)».

وهنا أكّد على أن لا يعتزوا بجمعهم وعددهم، فالنصر والتأييد من الله، وقد تذوّقتم حلاوته مراراً، ببدر وقريظة والنضير والحديبية وغيرها، وما ترتبت من النتائج الحسنة فبنصر الله وتأييده، والآن فى الأخير يوم حنين النصر الإلهى الذى نزل من السماء اعترف به ألد الأعداء.

لقد بلغ النبى ﷺ أن قبائل العرب من هوازن وثقيف قد حشدوا جنودا كثيرين وعُدّة عظيمة للإغارة على المسلمين، فخرج النبى ﷺ مع عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار الذين كانوا معه فى فتح مكة إلى الطائف، وفيهم ألفا رجل من الطُلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة، فكان أول حدث فى تاريخ الإسلام يخرج جيش قوامه اثنا عشر ألف رجل لقتال العدو مجهّزين بالعتاد والسلاح، فلما رأى ذلک بعض أصحابه، لم يتمالكوا على أنفسهم، وسبق لسانهم إلى القول «لن نُغلب اليوم من قلة». كلمة خرجت من أفواه حملة التوحيد لم تلق ترحيبا عند الأحد الصمد، فما أن خرجوا من مكة حتى تقابل الجيشان، العدو لم يكن يتجاوز على أربعة آلاف معظمهم من النساء والولدان الذين خرجوا مستميتين لخوض معركة حاسمة، خرجوا بكل ما يملكون من الماشية ومتاع البيت، وكانوا معروفين بحذاقتهم فى الرماية، واختبأت عصاباتهم من رماة الحدق فى شعاب ووديان حنين يترصدون المسلمين. أخرج الشيخان عن البراء بن عازب أن المشركين لقوا هزيمة فى أول القتال، وخلّفوا كثيرا من الأموال، فتلهف المسلمون على الغنائم، فخرج الرماة من الشعاب وأغاروا على المسلمين بوابل من السهام، فلم يقدر المسلمون على الثبات فى ساحة القتال، وأول من هرب كان الطلقاء، فلم يثبتوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وأحاط العدو بالنبى ﷺ ومعه عدد من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر والعباس وعلى وعبد الله بن مسعود وغيرهم رضى الله عنهم مائة أو ثمانون، وقيل بل عشرة أنفس، فكانوا أشد ثباتا من الجبل، وكان هذا من أحد تلک المواقع التى شاهدت الدنيا نموذجا لصدق الرسول وتوكله، ومشهدا مدهشا للشجاعة الخارقة، بالعيون الظاهرة، أن النبى ﷺ راكب على بغل أبيض، والعباس بن عبد المطلب آخذ بأحد ركابيه، وأبو سفيان بن الحارث بركابه الثانى، وقد حمل عليهم جيش مجهّز بالسلح قوامه أربعة آلاف من كافة الأطراف، يمطرون عليهم

وابلا من السهام والرماح، تفرّق عنه أصحابه، لكن الرفيق الأعلى كان معه، فطفق النصر الربانى والتأييد والسكينة السماوية تنزل عليه وعلى أصحابه المعدودين، حتى يحيط بأثره الهاربين، وكان وجه دابته إلى الجهة التى تُقبل منها هوازن وثقيف، ويدفعها لتتقدم إليها، والقلب معلق بالله، أما لسانه فَطَرِىٌّ بكل استغناء وطمأنينة: «أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب» ثم نادى أصحابه فقال: إلىَّ يا عباد الله، أنا رسول الله. ثم نادى العباس وكان جهورى الصوت، نادى أصحاب السمرة الذين بايعوه عند الشجرة على الموت، وما إن وقع الصوت على الآذان حتى حوّلوا وجهة خيلهم إلى الساحة، ومن تأخرت ناقته فى التحول، جعل حبلها فى غاربها ووثب منها حتى وصل إلى النبى ، ثم أخذ النبى قبضة من تراب ورماها باتجاه العدو، فما بقيت عين من العدو إلا دخلته، وأنزل الله تعالى الملائكة من السماء، فكان سببا فى الربط على قلوب المسلمين وتشجيعهم، وإدخال الرعب فى قلوب المشركين، فكان الذى حدث أن صار الكفار يَحُكّون عيونهم من التراب، والمسلمون يكرّون عليهم بالهجوم حتى صفا الجو، وعاد كثير من الهاربين إلى النبى ، فرأوا أن القتال قد انتهى، والأسرى اصطفوا بين يدى النبى بالآلاف، وتراكمت الغنائم أمامهم، فسبحان من بيده ملكوت كل شىء، وهكذا عُوقب المشركون فى الدنيا. (التفسير العثمانى)

الدرس الثالث: تذكّر مواطن النصر تُقوّى القلب

لقد بدأ الله تعالى هذه الآية بذكر مواطن النصر والفوز، وقد حصر المفسرون ثمانين موطنا نزل فيه نصر صريح من الله.

قال النسفى رحمه الله:

وقيل: إن المواطن التى نصر الله فيها النبى عليه السلام والمؤمنين ثمانون موطناً.

وفى التفسير الماجدى:

لقد نصر الله المؤمنين فى مواطن كثيرة، من بدر وفتح مكة وغيرها.. وفى مقابلة بنى قريظة وبنى نضير..وقس على هذا. سواء سمّيناه النصر الإلهى أو التأييد الغيبى كانت بادية، وقد عدّ العلماء ثمانين موطنا منها. (التفسير الماجدى)

فإن أئمة التاريخ والعلماء والمغازى نقلوا أنها كانت ثمانين موطنا. (البحر المحيط بالإحالة إلى التفسير الماجدى)

إن كانت هذه الآيات تؤذن بالحرب الشعواء مع المشركين فإنها تُذكّر بقصتين من قصص الماضى، نصر فيهما المؤمنين وأيّدهم بتأييده، فدل على أن بتذكر مواطن النصر فى الماضى تتقوّى القلوب، وتزيد همة إلى همة، ويزداد إيمانا إلى إيمانهم بالله، ولا تتركز الأنظار على الأسباب، لذلك ينبغى على المجاهدين أن يلتزموا بهذا، وهذا هو الغرض من وراء تأليف هذا الكتاب من جمع غزوات الرسول بالتفصيل، إذ هى ترشد إلى استيعاب معانى الجهاد بالوضوح، وتساعد فى وعى مضامين الجهاد فى القرآن. (والله أعلم بالصواب)

الدرس الرابع: يعود النصر بترک المعصية التى تسببت فى رفعه

كان سبب رفع النصر الربانى يوم حنين إعجاب المسلمين بأنفسهم، فلمّا تزلزلت أقدامهم، وأدركوا خطأهم، عاد النصر، لاحظوا العبارة التالية:

«{سكينته على رسوله} قال المفسر التهانوى: ليس المراد منها السكينة العامة، إذ هى كانت حاصلة للنبى ﷺ والذين كانوا معه، لذلک ثبتوا أمام العدو ولم تتزلزل أقدامهم، بل المراد منها السكينة الخاصة التى دفعت إلى تعليق الآمال بالفوز والنصر، قال المرشد التهانوى: ترک العُجب يتسبب فى نزول السكينة. (التفسير الماجدى)

ومن هنا تلقينا درساً جديداً، وهو أن المجاهدين إن أحسوا بعدم نزول النصر الإلهى، فعليهم المبادرة إلى إصلاح النوايا والأعمال، وليبادروا بالتوبة إلى الله، حتى ينزل نصر الله عليهم. (والله أعلم بالصواب)

الدرس الخامس: إصلاح النفس أثناء القتال

صرّحت هذه الآيات أن المؤمنين صدر منهم خطأ أثناء القتال، فتنبهوا له، ووفّقهم الله لإصلاحه، فنصرهم الله، ومن هنا تلقينا درساً جديداً وهو أنه لا يجوز القعود عن الجهاد باسم الإصلاح، لاحظوا أن النبى ﷺ استصحب معه الطلقاء من أهل مكة يوم حنين، وهم حديث عهد بالإسلام، وقد اكتسبوا قوة فى إيمانهم بمشاهدة مراحل الجهاد المتنوعة، وقام بعضهم بأعمال بطولية فيما بعد، وبالتأمل فى هذه المعركة والدروس المستفادة منها تندفع كثير من الوساوس والأخطاء. (والله أعلم بالصواب)

الدرس السادس: الجهاد من إحدى وسائل التوبة من الكفر

{ثم يتوب الله من بعد ذلک على من يشاء} ..

هذه الحقيقة القرآنية من أحد الدروس المهمة لعموم المسلمين، فبفضل جهاد المسلمين يوفق الله الكفار للتوبة من كفرهم، وقد سبق هذا المعنى فى الآية الخامسة عشرة من سورة التوبة، ثم أعاده هنا، لاحظوا غزوة حنين عن كثب، وانظروا كم من الناس دخلوا فى الإسلام بفضلها، وصاروا من المخلصين. ... فمثلاً

(1) أسلم مشركوا مكة الذين الذين خرجوا لإلحاق الأضرار بالمسلمين، تابوا عن كفرهم.

(2) أسلم وفود من هوازن وثقيف الذين جاءوا لإنقاذ أسراهم.

(3) أسلم كثير من أولئک الأسرى الذين أفرج عنهم المسلمون.

(4) والأغرب من هذا كله مالک بن عوف سيد هوازن قدم إلى النبى ﷺ وأسلم، وقد أنشد أبيات تشير إلى تأثّره الكبير بشجاعة النبى ﷺ الفذّة.

قال صاحب أنوار البيان:

وكان منهم مالك بن عوف الذى قدم إلى حنين بحشود كبيرة، فلما انهزم عاد وتحصّن فى الطائف، فلما بلغه كتاب النبى ﷺ عاد وأسلم، فاستعمله النبى ﷺ على قومه، كما أسلم كثيرون من هوازن نجوا من الموت، توجّه النبى ﷺ إلى الطائف وفرض حصارا شديدا عليها، ثم عاد، فأسلم أهلها. كما أسلم آخرون من الأعداء الكبار، وتأهّلوا للدخول فى الجنة، وقد عفا الله عما فعلوا فى الجاهلية، نسرد فيما يلى الأبيات التى أنشدها مالك بن عوف بعد إسلامه:

ما ان رأيت ولا سمعت بمثله فى الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا جتدى ومتى تشاء يخبرك عما فى غد
وإذا الكتيبة عردت أنيابها بالسمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله وسط الهباءة خادر فى مرصد

ذكرها الحافظ ابن حجر فى البداية والنهاية 4/361. والخادر (بالخاء) الأسد الذى اختفى فى أجمته كما فى القاموس.

وباختصار، بفضل الجهاد يُوفّق كثير من المشركين للدخول فى الإسلام، فمن شاء من المسلمين أن يدخل الكفارُ فى الإسلام أفواجاً فعليه إحياء فريضة الجهاد، ومعنى التوبة هذا ورد فى مواطن أخرى من القرآن الكريم، ومنها.. {إذا جآء نصر الله والفتح} (والله أعلم بالصواب).

الدرس السابع: ورثة الرسول يتحلّون بالشجاعة

الشجاعة الفذّة التى أبداها الرسول ﷺ فى هذه الغزوة، أشار إليها القرآن بلفظ : {ثم أنزل سكينته على رسوله} لأن سكينته لا تنزل إلاّ على أولئك الذين ثبتوا فى الميدان، فبشجاعة النبى ﷺ وبسالته وبراعته فى إدارة شئون الحرب توصّلنا إلى درس مهم، وهو قادة هذه الأمة من العلماء والحكّام يجب أن يتحلّوا بالشجاعة أكثر من عوامهم، أربعة آلاف من الأعداء يرشقون وابلاً من السهام، ويغيرون على المسلمين بالاستمرار، لكن الرسول يتقدّم إليهم بالاستمرار، يناضلهم ويردّد أبياتا رجزية، وينادى جنوده، فالله أكبر كبيراً. كل هذه دلت على أن الشجاعة والبسالة والمناضلة من شعار المؤمنين وطريقة الروحانيين.

ففى حديث أخرجه البخارى أن رجلاً جاء إلى البراء بن عازب وقال: يا أبا عمارة، هل ولّيتم أدباركم يوم حنين؟ فقال: أشهد الله أن رسول الله ﷺ لم يولّى يوم حنين. ولفظ البراء فى آخر هذا الحديث:

«كنا والله إذا احمر البأس نتقى به، وأن الشجاع منا للذى يحاذى به، يعنى النبى ﷺ». (القرطبى)

وينبغى على أهل العلم والتقوى والمتدينين أن يتأسّوا بالنبى ﷺ، وأن ينشئوا فى نفوسهم تلك الصفات الحسنة من الشجاعة والبراعة فى فنون القتال، وبذلك يمكن لهذه الأمة أن تنجو من المؤمرات التى يُدبّر لها. اللهم وفّقنا لاتباع رسولك محمد ﷺ.

الدرس الثامن: لا تقنطوا من إيمان المقهورين من المشركين

وفى معارف القرآن:

أما الآيۃ الثالثۃ {ثم يتوب الله من بعد ذلک} فقد أرشدت إلى أن الكفار الذين تغلبتم عليهم، لا تيأسوا من إسلامهم، قد يوفقهم الله تعالى للإسلام والإيمان، كما ثبت ذلک من إسلام وفد هوازن. (معارف القرآن)

الدرس التاسع : من آثر دينه على دنياه أعطاه الله دينه ودنياه

وقد أشار الإمام الرازى إلى نكتۃ مهمۃ حول الآيات الثلاث، نلخصها فيما يلى:

فى الآيۃ السابقۃ لمّا نهى الله تعالى عن الإفراط فى حب ذوى القرابۃ والأسرۃ والمال والتجارۃ والدار، وأمر بتقديم المصلحۃ الدينيۃ على المصالح كلها، وأنه عارف بأن ذلک صعب على النفوس، ذكر فى هذه الآيۃ قصۃ أراد من خلالها تفهيمهم دينهم، وأن من آثر دينه على دنياه، فإن الله عزوجل لا يحرمه عن الدنيا.

ذكر فيها قصۃ حنين أن المسلمين كانوا أقوياء يومئذ، لكنهم انهزموا لمّا بطروا بكثرتهم، ثم إنهم تضرعوا إلى الله أثناء الهزيمۃ، فأعاد إليهم قوتهم حتى انهزم المشركون.. دل ذلک أن ما من شخص اعتمد بدنياه إلا ضيّع دنياه وآخرته، أما إن أطاع الله تعالى، وآثر الدين على الدنيا، آتاه الله الدين والدنيا بأحسن طريق، ففيها تطمين لأولئک الذين هجروا أهلهم وذويهم وديارهم ومتاجرهم لأجل الدين، ووعدهم بطريق الإشارۃ أن الله سوف يعيد إليهم كل ما هجروه بطريق أفضل. فيما يلى لاحظوا الجزء الأخير مما كتبه الرازى رحمه الله:

ثم فى حال الانهزام لما تضرّعوا إلى الله، قواهم حتى هزموا عسكر الكفار، وذلک يدل على أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا، فاته الدين والدنيا، ومتى أطاع الله، ورجح الدين على الدنيا، آتاه الله الدين والدنيا على أحسن الوجوه، فكان ذكر هذا تسليۃ لأولئک الذين أمرهم الله بمقاطعۃ الآباء والأبناء والأموال والمساكن لأجل مصلحۃ الدين، وتصبيراً لهم عليها ووعد إليهم على سبيل الرمز بأنهم إن فعلوا ذلک فالله تعالى يوصلهم إلى أقاربهم وأموالهم ومساكنهم على أحسن الوجوه. (التفسير الكبير)

الدرس العاشر: أهم شىء للكفار الهزيمۃ

{وذلک جزاء الكافرين} دلّ على أن الهزيمۃ والندامۃ مصير الكافرين، فإن تحقق لهم انتصار فى معركۃ مّا، فلا يدل على أنهم على الحق، بل بسبب بعض تقصيرات المسلمين، لذلک إن استطاع المسلمون ترسيخ هذا المعنى فى قلوبهم، لم يرعبوا بقوۃ المشركين.

وفى التفسير الماجدى:

{وذلک جزآء الکافرین} فقد لحقت هزیمة نکراء بالمشرکین یوم حنین، قُتل منهم سبعون، وأُسر ألوف، عدد النساء منهم بلغ إلی ستة آلاف، والإبل 24 ألفاً، والغنم 40 ألفا، وأربعة آلاف أوقیة فضة.

جاء فی «الموسوعة الإسلامیة» الإصدار الجدید، المجلد الثانی، ص 571 ک1، وک2:

فباختصار، مُنی العدو بالهزیمة الکاملة، وقد قُتل اثنا عشر رجلا من المسلمین، وسقط عدد کبیر منهم فی الأسر، بلغ عدد النساء والأطفال إلی ستة آلاف، کما غنموا 24 ألف إبل.

وهنا أشار إلی الأصل العام، وهو أن الهزیمة والندامة والعذاب الدنیوی هی العقوبة الحقیقیة للکفر، إلا إذا عارضه عارض. (التفسیر الماجدی)

دروس أخری...

تعتبر غزوة حنین من إحدی معارک الإسلام العظیمة، وفیها کثیر من الدروس والعبر، اکتفینا هنا بالإشارة إلی عشرة منها، التی دلّت علیها ألفاظ القرآن، ویمکن التوصّل إلی مزید منها بالنظر فی الأحادیث والسیر. (والله أعلم بالصواب)

{والله غفور رحیم} ...

قال النسفی: (والله غفور) بستر کفر العدو بالإسلام (رحیم) بنصر الولی بعد الانهزام. (المدارک)

هذه من آیات الأحکام:

لقد توصّل کثیر من الفقهاء إلی مجموعة حسنة من المسائل، فیما یلی نسرد نصا من باب المثال:

لقد عدَّ أهل العلم هذه الآیة ضمن «آیات الأحکام» وبما أنه جاء فی حدیث مالک أن المشرک «صفوان» کان ممن شهد هذه المعرکة إلی جانب المسلمین، لذلک استنبطوا منه العدید من المسائل، منها أنه لا یجوز الاستعانة بالمشرکین فی محاربة الکفار عند الإمام مالک رحمه الله، إلا إذا قاموا بدور الخدم.

قال مالک: ولم یکن ذلک بأمر رسول الله ﷺ ولا أری أن یستعان بالمشرکین علی المشرکین إلا أن یکونوا خدما. (القرطبی)

وقال أبو حنیفة والشافعی والثوری والأوزاعی : لا بأس بذلک إذا کان حکم الإسلام هو الغالب، وإنما تکره الاستعانة بهم إذا کان حکم الشرک هو الظاهر. (التفسیر الماجدی)

کلام برکة:

ما کتب الشاه عبد القادر رحمه الله لا یخلو عن حلاوة وعلم وجاذبیة، وفیما یلی نسرده رعایة لمشاعر الطلبة:

«بعد فتح مكة بلغ النبى ﷺ أن المشركين احتشدوا بين مكة والطائف لمحاربة المسلمين، فزحفهم النبى ﷺ مع عشرة آلاف مسلم، ثم انضم إليهم ألفان آخرون، وصاروا يمرون بين الجبال، والطرق الوعرة تُعرقل سيرهم، وهوازن أخفت رُماتها فى الشعاب، حتى سقطوا على المسلمين، فتولوّا مدبرين، وتفرّق الذين كانوا مع رسول الله ﷺ، فنزل من دابته، واستعد لمواجهتهم، فنادى العباس الأنصار بصوت عال، فعاد المهاجرون والأنصار، وحمى وطيس الحرب، وفتح الله عليهم، وفى بداية المعركة كان قد قال بعض المسلمين: لن نُغلب اليوم من قلة، فأدّبهم الله تعالى، كى لا يركّزوا أنظارهم على الأسباب، ثم أسلم أكثر الأعداء من المشركين». (موضح القرآن)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 28}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا. وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شآء. إن الله عليم حكيم}.

ملخص معانى الآية:

لمّا كسر الله تعالى قوة الكفر وشوكتها، وفتح على المسلمين عاصمة الجزيرة العربية مكة المكرمة، وطفقت القبائل العربية تدخل فى دين الله أفواجا، جاء الإيذان بعدم دخول مشرك (أو كافر) المسجد الحرام، بل لا يقتربوا من حدوده، لأنهم بقلوبهم النجسة بدنس الكفر والشرك لا يقدرون على الدخول فى مركز التوحيد والإيمان وأقدس بقاع الأرض، وقد ثبت فى أحاديث صحيحة أن النبى ﷺ أمر فيما بعد بإخراج جميع المشركين واليهود والنصارى من الجزيرة العربية. وقد تم تطبيق آخر وصية وصّى بها النبى ﷺ فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلا يجوز موافقة المسلمين على بقاء المشركين فيها كمواطنين أو مسيطرين عليها، بل من واجبهم الدينى السعى إلى إخراج المشركين والكفار من جزيرة العرب.

وعند منع المشركين من القدوم إلى الحرم قد يخشى البعض على التجارات والمعاملات، وأن البضائع التى كانوا يحملونها إلى الحرم تتوقف عنه، لذلک أراد الله تطمينهم، لا تجزعوا، لأنكم لا تنعمون بنعمة الرخاء إلا بفضل الله وبإرادته، وهكذا صار، فقد دخل فى الإسلام الجزيرة العربية بكاملها، وتوافدت البضائع عليها من الأقطار كلها، ونزل الماء من السماء، وزادت الزروع والثمار، وفتح الله عليهم أبواب الانتصارات والغنائم، وتحصلوا على الجزية من أهل الكتاب، حتى جمع الله عليهم أسباب الغناء والرخاء من الوجوه كلها، إن الله عليم بكل شىء، وحكيم لا يخلو فعله عن حكمة. (التفسير العثمانى مع تسهيل)

موضوع الآية الكريمة:

لا يمكن التخلّى عن الجهاد بحجة احتمال عدم توفّر بعض الضروريات الدنيوية، لأن الضرورة إن كانت مهمة، فإن الله سوف يوفّرها من جهة أخرى، فلا يجوز الامتناع عن الجهاد رعاية للمخاطر الاقتصادية. (حاشية اللاهورى)

ومثله ما كتبه الإمام الرازى، أن البعض كانوا يخشون من تعرض المسلمين لمخاطر اقتصادية بعد إيذان الحرب والبراءة من المشركين علناً، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليهم، لاحظوا التفسير الكبير.

والعبارة التالية تُساعد فى استيعاب معنى الآية الكريمة:

المسلمون ارتبطوا بالمشركين بالمعاملات التجارية، مصادر دخل المسلمين بأيدى أعداءهم، ويستلمون منهم مبالغ، فإن طولبوا بالقتال فى سبيل الله قالوا: إن فعلنا ذلک حُرمنا من مصادر دخلنا، ولا نجد المال، ويحيط بنا الفقر والبطالة، فمن المصلحة عدم محاربتهم، وإلا لتضرر به الجميع، فردّ الله تعالى على هذه المزاعم بقوله: {يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس} الآية.

فى موسم الحج كانت مكة تكتظ بالضائع التجارية، ويتسوق الناس فى أسواقها، وكانت أشهر أسواقها فى الجاهلية ذو المجاز وعكاظ، تقام فيها معارض تجارية، ويفتح التجار الكبار متاجرهم للزبائن، إلى جانب ذلک كانت أسواقا لترويج الأشعار والقصائد والأبيات والمفاخر، فلما أمروا بمنع دخول المشركين بمكة، راودتهم شكوک حول إمكانية استمرار توفر مستلزمات حياتهم، لانسداد مصادر الدخل كلها بعد منع المشركين من الدخول، حتى قال قائل: من أين نعيش؟ فرد الله عليهم، وقال: إنما المشركون نجس، تسربت فيهم جرثومة المرض، فقد جُبلوا على الشرک والكفر وعبادة الأوثان، لا يتحولون إلى مكان إلا ورافقتهم، ثم تنتشر فيها بشكل الأوبئة، وذلک يستلزم منعهم من الاقتراب من المسجد الحرام، أما إن تخشون كساد أسواقكم لمنعهم من دخول الحرم، فتلک مزاعم فاسدة، لا تتخلوا عن الجهاد بسببها. أما ما وعد الله تعالى المسلمين فى هذه الآيات من غنائهم وثراءهم، فقد تحقق ذلک فى فترة قياسية، فقد استولوا على خزائن قيصر وكسرى خلال مدة يسيرة، وخضعت لهم كافة الأمم المتحضرة. (تفسير الفرقان)

الاقتصاد.. أكبر صنم فى العصر الحاضر

لم يكن نظر أولئک الذين كانوا حديث عهد بالإسلام إلا على الرزق الحاضر بين يديهم، وكان يصل إليهم بعد المرور على المشركين، فأكد لهم القرآن على أن لا تذهب عقولهم على الظاهر، بل عليهم أن يطيعوا الله العليم الحكيم، وليعلموا أن رزقهم تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء جعل لهم قناطير الطعام والشراب. ولمّا سمعوا هذه الآية آمنوا بنصر الله، ولم يتخلفوا عن الجهاد خشية انهيار الاقتصاد، لذلک فتح الله عليهم أبواب الرزق والمعاش، فلم يبق مشكلة يجب معالجتها. وصاروا أغنياء بحيث لم يبق للمال طالب. لاحظوا المشركين اليوم جعلوا البلاد الإسلامية من فئة العالم الثالث بعد ما سيطروا على جميع مصادر الرزق الظاهرة، ولجأوا إلى وسائل الإعلام المتنوعة لتعظيم الاقتصاد حتى ألّهوه، وبات الناس يعبدونه، وسعوا إلى ترسيخ دعائم الفكر الحديث الذى يعتمد على أصل واحد، وهو: التقدم فى المجال الاقتصادى هو التقدم الحقيقى فى كافة مجالات الحياة، وأن الجهاد سبب فى تخلف المسلمين اقتصاديا ومعيشيا، بل هو السبب الحقيقى لتدمير اقتصادهم.

فهذه الآية القرآنية قضت على الصنم الاقتصادى، وأرشدت المسلمين إلى ضرورة تطهير الرزق من جميع أشكال الدنس، ومنها مرور الرزق على المشركين الذين هم نجس.

فالرزق بيد الله تعالى، توكّلوا عليه وجاهدوا فى سبيله، تتوصلون إلى خزائن رزقه المخفية، فلا تحتاجون إلى المشركين، فثقوا بالله وبعلمه، لا بعلمكم.. واذعنوا لحكمة الله، وليس لعقولكم. (والله أعلم بالصواب)

{إنما المشركون نجس}

«نجس» مصدر نَجِسَ يَنْجَسُ بمعنى الدنس، فيها مبالغة للإشارة إلى أن المشركين من رأسهم إلى رجلهم نجس، لا فرق بين ظاهرهم وباطنهم. فهذه الجملة تعطى المسلمين أصلا قويا لا يتأثرون بفضلها من المشركين الغارقين فى أنجاس الكفر والشرك والمهمكين فى ملذات الدنيا ورونقها وجمالها والفواحش، فقد أرشدهم الله تعالى إلى أن المشركين نجس كلهم.

وفى التفسير الماجدى:

كلمة «نجس» مصدر، وبابه سمع، بمعنى الدنس، يأتى للمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، والغرض هنا التأكيد على دنس المشركين، بأنهم عين النجاسة.

أخبر عنهم المصدر للمبالغة كأنهم عين النجاسة أو المراد ذوو نجس (روح) أى ذوو نجس وهو مصدر (مدارک). (التفسير الماجدى)

وقال المفتى محمد شفيع بعد الإشارة إلى أنواع النجاسة الثلاث:

كلمة «إنما» تدل على الحصر، فمعنى قوله {إنما المشركون نجس} إن المشركين عين النجاسة، والواقع أن المشركين لا يخلون عن أنواع النجاسة الثلاث، لأن كثيراً من النجاسات الظاهرة لا يعتبرونها نجاسة، فلا يبتعدون عنها، مثل الخمر ومشتقاتها، أما النجاسة المعنوية من الاغتسال من الجنابة وغيرها، فلا يؤمنون بها، كما أنهم لا يتعافون عن الأخلاق الرذيلة والعقائد الفاسدة. (معارف القرآن)

أحكام الآية المباركة:

تأمّل أهل العلم فى معانى هذه الآية المباركة، واستنبطوا منها المسائل الكثيرة، ومن أبرزها:

(1) المراد من المسجد الحرام: حدود الحرم كلها، وليس المراد الكعبة والمسجد الذى حولها.

(2) والمراد من نجس المشركين: النجس القلبى والروحى والمعنوى، وليس الجسدى.

(3) حكم دخول المشركين فى حدود الحرم، ودخولهم فى المسجد الحرام وبقية المساجد.. لا شك أن سيطرتهم عليهم محرّم عند جميع الائمة، لكنهم اختلفوا فى مرورهم عليها.

وللتوسع فيها ولمعرفة أحكامها وتفاصيلها راجعوا: تفسير المدارك، والقرطبى، وأحكام القرآن للجصاص، وروح المعانى، وبيان القرآن وغيرها.

والحكم يشمل اليهود والنصارى:

«هذا ما ثبت عن رسول الله ﷺ أن الحكم يشمل اليهود والنصارى والمشركين، وقد تم تطبيق الحكم المذكور فى عهد عمر بن الخطاب فى كافة مناطق الجزيرة العربية، والغرض من الحكم عند الحنفية بقاءهم كمواطنين أو مسيطرين عليها، أما المرور عليها كسافرين بإذن الإمام فلا مانع فيه إن كان فيه مصلحة للمسلمين. (التفسير الماجدى)

فهذا جهاد عظيم..

«لم يكن قطر من الأقطار العربية ينبت المواد الزراعية، كانت التجارة عماد حياة قريش، لذلک كان خوف حديثى العهد بالإسلام طبيعيا، فمن أين يأكلون إن قطعوا العلاقات التجارية مع المشركين؟

وقد طمّنهم الله تعالى عليها، وبما أن قريش كانت مسيطرة على تجارات الجزيرة العربية وعلى أسواقها ومعارضها التجارية، بل كانت قد رسخت أقدامهم فى التجارة الدولية بين آسيا وأوروبا، لذلک لم يكن من السهل قطع الروابط التجارية معها.

مفاتيح الرزق عند الله:

ذكر العلامة التهانوى رحمه الله نكتة مهمة، جمعها الماجدى فى نصه الآتى:

{إن شآء} الغرض منه الإشارة إلى حقيقة واضحة، وهى أن الله ليس فى حاجة إلى أسباب كبيرة لإنجاز وعده، إنما تكفيه إرادته، فقد تحولت الجزيرة العربية بكاملها إلى الإسلام بعدما شاء الله تعالى لها ذلک، تنهال اليضائع التجارية عليها من كل صوب وحدب، هطلت أمطار غزيرة فتضاعفت الثمار والزروع، فتح الله عليهم أبواب الفتوحات والمغانم، وهطلت أمطار غزيرة فتضاعفت الثمار والزروع، فتح الله عليهم أبواب الفتوحات والمغانم، وحصلوا على أموال الجزية من أهل الكتاب، فباختصار إن إرادة الرب جمعت خزائن الأرض وغناها من كل صوب وحدب. (التفسير الماجدى)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 29}

بسم الله الرحمن الرحيم

{قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حــرّم الله ورســوله ولا يدينون دين الحق من الذين أُوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون}.

ملخص معانى الآية:

فيها أمر المسلمين بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويداموا عليه حتى يُسلموا، أو يخضعوا لسلطان المسلمين، فيدفعوا الجزية، أمر قتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى جاء لأسباب كثيرة، أبرزها:

(1) أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر كما ينبغي، فهذا هو السبب الرئيسى لقتالهم.

(2) ولا يؤمنون بالآخرة كما ينبغى.

(3) ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله.

(4) ويدينون دين الحق، ولا يؤمنون به.

فحاربوهم للأسباب المذكورة، حتى تنهار قوتهم وحكومتهم وشوكتهم، ويذعنوا لقوة الإسلام وشريعته، ويعطوا الجزية بعد أن صاروا من رعايا الدولة الإسلامية، ومن هنا عرفنا أن ما من قوم ارتكبت المفاسد الأربعة المذكورة إلا وجب قتالهم، وفيها تأكيد على مداوامة القتال حتى التغلب على الكفار، لأن أهل الكتاب يختلفون عن غيرهم فى الإدراك لأمور الدين، وينتسبون إلى الأنبياء والكتب السماوية، فإن كان قتالهم للأسبا الأربعة المذكورة، فمن الأولى محاربة بقية المشركين.

تهيئة أسباب الرزق للمسلمين:

إشارةً إلى المناسبة بين الآيات قال معظم المفسرين : إن فى الآيات السابقة وعد المؤمنين بالغنى شريطة عدم تخليهم عن الجهاد، وفى هذه الآية أكّد على أن أموال الجزية تأتى إليهم من الأرض كلها، لتيسير أسباب رزقهم.

قال القرطبى:

لمّا حرّم الله تعالى على الكفار أن يقربوا المسجد الحرام، وجد المسلمون فى أنفسهم خوفا من زوال تجارتهم التى كان المشركون يأتون بها، فقال الله تعالى: {وإن خفتم عيلة..} الخ

ثم أحل فى هذه الآية الجزية وكانت لم تؤخذ قبل ذلك فجعلها عوضا مما منعهم من موافاة المشركين بتجارتهم. (القرطبى)

أمر بقتال أهل الكتاب بعد قتال المشركين:

قال بعض أهل العلم بشأن المناسبة بين الآيات: فى الآيات السابقة أمر بقتال المشركين، وأعطى منهجا متكاملا بشأنه، وفى هذه الآيات أمر بقتال أهل الكتاب، وفيها تحريض على غزوة تبوک، قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:

وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى. (تفسير ابن كثير)

التمهيد لغزوة تبوک:

وفى التفسير المظهرى:

قال مجاهد: أمر الله تعالى رسوله بقتال الروم، فنزلت هذه الآية، فتوجه النبى ﷺ إلى تبوک لقتال أهل الكتاب. (التفسير المظهرى)

فى الآية أمر بقتال الكفار كافة:

قال القرطبى رحمه الله:

فأمر سبحانه وتعالى بمقاتلة جميع الكفار لإصفاقهم على هذا الوصف. (القرطبى)

وقال اللاهورى رحمه الله:

ينبغى محاربة كل قوم اتصف بالصفات الأربعة المذكورة، حتى يخضعوا لراية الإسلام. (حاشية اللاهورى)

وهنا قد يتساءل أحد أن الأمر بالقتال يشمل جميع الكفار، فلماذا التخصيص باسم أهل الكتاب فى هذه الآية؟ أجاب عنه العلماء بعدة أجوبة، نذكر ثلاثة منها:

(1) «أمر بقتال أهل الكتاب خاصة لدفع ما قد يتردد بعض المسلمين فى قتالهم نظراً إلى إيمانهم بالله تعالى فى نطاق خاص، يؤمنون بالتوراة والإنجيل والزبور (بطريقتهم الخاصة)، فانتسابهم إلى الأنبياء السابقين والكتب السابقة قد يمنع بعض المسلمين من محاربتهم، لذلک أمر بقتالهم خاصة». (معارف القرآن)

(2) أهل الكتاب من أكابر المجرمين، إذ ورد فى كتبهم ذكر الإسلام ورسوله، وكانوا ينكرون الحق رُغم معرفتهم له، لذلک ذكرهم بالتخصيص فى الآية الكريمة. قال ابن كثير:

ولكونهم عالمين بالتوحيد والرسل والشرائع والملل، وخصوصا ذكر محمد ﷺ وملته وأمته، فلما أنكروه تأكدت عليهم الحجة وعظمت منهم الجريمة. (القرطبى)

(3) وجاء فى تفسير الفرقان:

إن تأملتم لأدركتم أن كبرى الديانتين فى العالم اليهودية والنصرانية كانتا تستقبلان الأنبياء لفترة طويلة، ولديهم الكتب السماوية، رغم ذلک لاحظوا أحوالهم كيف ابتدعوا عقائد باطلة، إن كان

هذا حال كذبهم وخيانتهم فما بال غيرهم؟ فإن لزم محاربة أهل الكتاب فلزوم قتال غيرهم بالطريق الأولى، لذلک يناقش القرآن معتقدات أهل الكتاب خاصة، لتقيسوا عليها غيرهم. (تفسير القرآن).

عشرة مباحث ذكرها العلماء فی تفسير الآية الكريمة:

هذه الآية من إحدى آيات الجهاد التی تحتوی على كثير من أحكام ومسائل وفوائد ونكات الجهاد، وأن العلماء ذكروا تحتها المسائل التالية:

(**1**) ممن تُقبل الجزية، وممن لا تُقبل؟

تُقبل الجزية من جميع الكفار ما عدا مشركی العرب، سواء كانوا أهل كتاب أو مجوسا أو مشركين، أما مشركی العرب فليس لهم إلا السيف، وقد ذكر المفسرون الأقوال والأدلة بالتفصيل.

(2) الأصل فی الإسلام توجيه الدعوة إلى الكفار قبل قتالهم، فإن آمنوا فهم إخوة لنا فی العقيدة، وإن رفضوا طلبنا منهم الجزية، بأن يخضعوا لسلطان المسلمين وحكمهم، ويعطوا الجزية، فإن فعلوا فبها، وإلا يُقاتَلون، لكن لا ذكر هنا للدعوة إلى الإسلام. أجاب عنه المفسرون، وقالوا: لا حاجة إلى توجيه الدعوة إلى أولئک الذين بلغتهم الدعوة.

(3) ما معنى الجزية؟ هل هی كلمة عربية أم معربة من عجمية؟ معنى الجزية العوض، فإن كان كذلک فهی عوض عن أی شیء؟ ذكر المفسرون أقوالا كثيرة هنا بالتفصيل، فقيل: هی عوض عن القتل، نأخذ منهم الجزية لأننا لم نقتلهم.

ففی معارف القرآن:

وسبب ذلک أن الكفر والشرک معصية الله تعالى ورسوله، وعقوبته الحقيقية هی القتل، لكن الله سبحانه وتعالى بفضله وكرمه خفّف فی عقوبتهم، إن وافقوا على البقاء داخل الدولة الإسلامية ضمن رعاياها بعدما يدفعون الجزية، ويلزم على الحكومة حماية أنفسهم وأرواحهم وأموالهم، ولا تُفرض قيود على طقوسهم الدينية، وهذا المال يُسمى جزية. (معارف القرآن)

وقيل: الجزية عوض عن الخدمات الوطنية التی تُقدم إليهم، لأن على كل مسلم يجب المشاركة فی الجهاد، أما الذميين فليس عليهم إلا دفع المال. وقيل: الجزية عوض عن كفرهم وشركهم. لأنهم يحافظون على كفرهم، فالجزية جزاء عنه. وهذا القول من أضعف الأقوال. وأفضل الأقوال الأول، لأن الله تعالى قال: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله} وفی آخره {حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون} دل على أن الجزية عوض عن قتلهم. ارجعوا إلى كتب التفسير للتفاصيل.

(4) ما هو مقدار الجزية؟ لقد أكثر فيه أهل العلم، ارجعوا إلى كتب التفسير.

(5) {عن يد} ما المراد منها؟ قيل: المراد منها أن يعطوا الجزية بأيديهم، لا يجوز لهم توكيل غيرهم، وقيل: يسلّموا غلبة الإسلام، ويعطوا الجزية وهم مطيعون منقادون له. وقيل: يوافقوا على دفع الجزية يدا بيد نقداً، لقد أكثر العلم فی معنى {عن يد} لاحظوها فيما يلی:

قال التهانوی رحمه الله: الغرض من {عن يد} أن لا تكون لهم شوكة، ومعنى {صاغرون} أن يكونوا مسئولين عن قوانين الشريعة الإسلامية المتعلقة بالمعاملات والسياسات. (بيان القرآن)

(6) {وهم صاغرون} ما معناها؟ ذكر أهل العلم عدة أقوال وروايات فى معناها، وملخصها: أن يعطى الذمى الجزية وهو مُهان ذليل، وهذه الإهانة إما ظاهرة، بأن يُستهان به أثناء استلام الجزية منه. والثانى: أن يظلوا رعايا الدولة الإسلامية، ويلتزموا بعموم تشريعات المسلمين، ويعطوا الجزية، فتبعيّتهم للمسلمين أكبر إهانة لهم، وهذا القدر يكفى.

(7) ذكر بعض أهل العلم أحكام الذميين تحت هذه الآية، من حيث الحقوق التى ينالونها، والقيود التى تُفرض عليهم. وقد نقل العلامة ابن كثير رحمه الله كتاب عمر بن الخطاب الذى أصدره، وفيه أحوال الذميين بالتفصيل. ونحن عندما نقرأ كتابه هذا تنغص أنفاسنا على العزة التى كانت للمسلمين فى ذلك العصر، وعلى الراغبين مراجعته فى تفسير ابن كثير.

(8) هل تسقط الجزية عن الذمى إن أسلم؟ نقل الرازى أقوال أهل العلم فيه، فعند أبى حنيفة رحمه الله تعالى تسقط الجزية فور اعتناقه الإسلام.

(9) إن أنكر أهل الذمة دفع الجزية إلى المسلمين بمنطقة من مناطق المسلمين، يقاتلهم الإمام، وتصير المنطقة فى حكم دار الحرب، ونساءهم تعتبر فيئا. وقد ذكر القرطبى تفاصيلها.

(10) ومن أهم المباحث التى ذكرها أهل العلم تحت هذه الآية هى أن اليهود والنصارى يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكيف جاء فى هذه الآية أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ لقد أكثر أهل العلم فى الرد عليه، وأثبتوا أن إيمانهم بالله واليوم الآخر ليس كما ينبغى، وأن إيمانهم المذكور باطل وكفر صريح، وأن كفرهم بلغ من الشدة مبلغا تكاد السماوات يتفطرن منه، كما قال الله تعالى:

{وقالوا اتّخذ الله الرحمن ولداً، لقد جئتم شيئاً اِداً، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا اَن دعوا للرحمن ولدا} (سورة مريم 88 إلى 91).

والحاصل أن أهل العلم برهنوا على عدم العبرة بإيمان اليهود والنصارى، لعدم صحته.

وإيمانهم الذى يزعمونه ليس على ما ينبغى فهو كلا إيمان. (روح المعانى)

أى لا عبرة بقولهم : إنا نؤمن بالله واليوم الآخر، بل ينبغى أن يؤمنوا كما يُرضى الله سبحانه وتعالى.

وللتوسع ارجعوا إلى التفاسير المعتمدة.

فائدة:

هذه هى المباحث العشرة التى ذكرها أكثر المفسرين تحت هذه الآية، نسردها هنا، وهذه أسبابها:

(1) الحكم الأساسى فى الآية هو أن من واجب المسلمين تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة، ويقاتلوا كل من يرفضها، ويرغموه على تبعية الإسلام والمسلمين، وهذه الآية تأمر «بالجهاد الهجومى» وتحث المسلمين على تغليب الإسلام فى العالم كله، وللأسف الشديد إن أكثر المسلمين تركوا الجهاد فى سبيل الله، وقد أصيب تصور الجهاد الهجومى بالوهن عند المسلمين، وفى الظروف المحيطة بنا يبكى القلب عندما نخوض مبحث الجزية العالى، أين نحن اليوم من الجزية والذمى؟ بل العكس هو الصحيح، فالمسلمون صاروا محكومين يعطون المشركين الجزية، والحاجة اليوم إلى

إحياء الحكم الأساسى فى الآية، وهو الجهاد فى سبيل الله، وبتعميم الجهاد تأتى الجزية، ويصيرون ذميين، فتثمر تلك الجهود العظيمة التى صرفها الفقهاء والمفسرون فى تفهيم هذه المسائل.

(2) هذه المباحث كلها مذكورة فى كتب الحديث والفقه والتفسير، ولقد طوينا البحث عنها رعاية لاختصار الكتاب.

عبارة تملأها الأحزان:

كتب العلامة الآلوسى رحمه الله أن من الواجب على الكفار أن يعطوا الجزية وهم صاغرون، وما شكل هذا الصغار؟ نقل فيه أقوالا، ثم كتب بكل حزن: حكامنا اليوم لا يعملون بها، حتى إن الذمى إن أرسل الجزية بيد وكيل قبلوها، ومثل هؤلاء الناس يُضعفون الإسلام، فالله يكفيهم.. فيما يلى نص ما كتبه:

وكل الأقوال لم نر اليوم لها أثراً، لأن أهل الذمة فيه قد امتازوا على المسلمين، والأمر لله عزوجل بكثير حتى إنه قبل منهم إرسال الجزية على نائب منهم وأصح الروايات أنه لا يقبل ذلك منهم، بل يكلفون أن يأتوا بأنفسهم مشاة، عامل الله تعالى من كان سببا له بعدله. (روح المعانى)

هذا كان حال عصر العلامة الآلوسى، لكن كانت الجزية تأتيهم، إنما كان يتحزن ويتأسّف على طريقة الاستلام، لكن اليوم لا وجود للجزية، نخلّف اليوم لأبنائنا ربقة العبودية والذل بجبننا وحبنا للدنيا، سلفنا الصالح كان يثمّن كل حكم من أحكام الإسلام أكثر من نفسهم وروحهم، حتى فازوا، أما نحن فقد اعتبرنا نفوسنا أغلى من كل شيء، لذلك لا مكانة لنا، وأحد المفسرين قرأ نص ما ذكره الآلوسى: (أرجو قراءة العبارة بكل تأمل):

وقال فى آخره {وهم صاغرون} أى يعطوا الجزية فى حالة الصغار والذلة، فقيل: يعطوا الجزية وهم واقفون، والآخذ من المسلمين يأخذ وهو قاعد. ورُوى عن ابن عباس أنه يمسک عنق الذمى ثم يقال له: أعط الجزية يا ذمى. وقيل: قال الآخذ المسلم: أد حق الله تعالى يا عدو الله. وقال الشافعى: معنى صغارهم أن يعملوا بتلك الأحكام التى نزلت بشأنهم، ويعيشوا بين المسلمين بشكل أتباع، ذكر كل هذه الأقوال صاحب روح المعانى فى (79/1)، وكتب فى آخره: ترک المسلمون اليوم العمل بكل ما جاء فى الآية، فهم يرسلون الجزية مع نائبهم، فيُقبل منهم ذلک. والصحيح أن يُجبروا على الإتيان بأنفسهم، وهم مشاة، لا يجوز لهم ركوب الدابة، فإن خالفوا ذلک فدليل على ضعف الإسلام، الخ. واشتكى صاحب روح المعانى من ملوک وأمراء عصره، وقال: هم ما كانوا يكلّفون أهل الذمة بحمل الجزية بأنفسهم، بل يقبلونها من نائبهم ووكيلهم، أما فى يومنا هذا فلا يصدر قانون لأخذ الجزية من الكفار، لأنهم يخافون من الكفار، ولا يفرضون عليهم الجزية، بل يولون المشركين أكثر أهمية من المسلمين من أهل البلد، يكرمونهم وينتخبونهم أعضاء المجلس التشريعى. أسأل الله تعالى أن يرفع من همة المسلمين ويقوّى قلوبهم، ويُلقى فى قلوبهم قُبح الكفر والشرک وشناعته ودنسه وبغضه، كى يحتقروا الكفار ويصاغروهم». (تفسير أنوار البيان)

أسئلة سهلة تساعد فى فهم أحكام الآية المباركة:

(1) الكفر بالله أعظم معصية أم قتل نفس محرّمة؟
(2) الكفر أعظم معصية أم قطع الطريق؟
(3) الكفر أعظم معصية أم السرقة؟
(4) الكفر أعظم معصية أم الزنا؟
(5) الكفر أعظم معصية أم تهريب المخدرات؟
(6) الكفر أعظم معصية أم الخروج على حكومة؟

الجواب:

جواب هذه الأسئلة واحد، وهو أن الكفر بالله أعظم الذنوب وأكبر المعاصى.

فإن كانت..

منظمات حقوق الإنسان ترفع الدنيا على رؤوسها على معاقبة اللص وقاطع الطريق والقاتل والقراصنة، لكن تأخذها رأفة على معاقبة الكافر بكفره، فذلک دليل على أن قدر الذات فى النفس أكبر من قدر الله تعالى. (نعوذ بالله من ذلک)

السؤال الثانى:

إن كان مرض السرطان فى حالة متقدمة، ونصحه الطبيب بالوقاية من أشياء كثيرة، وأمر ببتر أجزاء من جسمه، فهل ذلک من باب النصيحة أم الإهلاک؟

لاشک أنه من باب النصيحة، فلاحظوا الآن مريض الكفر فى وضع يسير نحو الموت الرهيب والعذاب الخالد، فوفاة الكافر على الكفر عذاب كبير لا يُرجى التخلص منه، ولا إلى النجاة سبيل، فهو يخلد فى الجحيم، فوقاية له من الجحيم إن كان الإسلام يأمره بالاجتناب عما يقوّيه على الكفر من العزة والنخوة، فهذا نصح له من الإسلام أو سعى إلى إهلاكه؟

كلام صريح:

لو لم يكن يأمر الإسلام بالجهاد والجزية وبإذلال الكفر والشرک، لما بلغ الدين إلينا، ولوقعنا فى عذاب الكفر، فللأسف الشديد إن العمل الذى أبلغنا إلى الإسلام تركناه وتخلينا عنه، وتركنا أجيالنا القادمة لقمة سائغة بيد الكفر والكفار، اللهم ارحم علينا، ووفّق أمة الإسلام للقيام بفروض الإسلام. آمين يا أرحم الراحمين.

فائدۃ:

لا يجوز قتل أولئک الكفار والمشركين الذين يأتون إلى البلاد الإسلامية بتأشيرۃ أو يقيمون فيها كمواطنين، وهذا هو فتوى أهل العلم فى يومنا هذا، وقد قال النبى ﷺ:

«من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ شيئا منه بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامۃ». (القرطبى عن أبى داود)

لكن أهل العلم والفقهاء حدّدوا أموراً تُنهى العهد والذمۃ، مثلاً مجاهرۃ عمل ما يضاد الإسلام، أو الإساءۃ إليه، أو التطاول على ذات الرسول ﷺ وغيرها. لاحظوا للمزيد كتب التفسير والفقه. (والله أعلم بالصواب)

كلام بركۃ:

قال الشاه رحمه الله تعالى:

فى السابق أمر بمحاربۃ المشركين وطردهم عن الدولۃ الإسلامية، والآن أمر بمحاربۃ أهل الكتاب، فهم مثل المشركين ينكرون بالدين الحق، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر كما ينبغى، لكن ترک باب الجزيۃ مفتوحا إن كان كبراءهم وسقاطهم يعطونها عن يد وهم صاغرون، لكن لا تقبل الجزيۃ عن مشركى العرب، فليس لهم إلا الإسلام أو السيف، وتُقبل الجزيۃ عن غيرهم عند الحنفيۃ، وهى فى كل شهر ربع الدرهم أو نصفه أو ثلاثۃ أرباعه، وفق طاقتهم مع ذلهم وإهانتهم فى الملبس والسير فى الطرقات وحمل السلاح بحيث لا يتساوون مع المسلمين، إلى غير ذلک من الترتيبات. (موضح القرآن)

تحفۃ لأهل العلم:

يبدو من ظاهر الآيۃ اشتراكا فى بيان أسباب محاربۃ أهل الكتاب، ومما كتبه القرطبى رحمه الله يندفع هذا الإشكال، لاحظوا هذه العبارۃ:

{الذين لا يؤمنون بالله} وذلک بيان للذنب الذى أوجب العقوبۃ وقوله {ولا باليوم الآخر} تأكيد للذنب فى مخالفۃ الأعمال ثم قال {ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله} زيادۃ للذنب فى مخالفۃ الأعمال ثم قال {ولا يدينون دين الحق} إشارۃ إلى تأكيد المعصيۃ بالإنحراف والمعاندۃ والأنفۃ عن الاستسلام. ثم قال {من الذين أُوتوا الكتاب} تأكيد للحجۃ، لأنهم كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراۃ والإنجيل ثم قال {حتى يعطوا الجزيۃ عن يد} فبين الغايۃ التى تمتد إليها العقوبۃ وعين البدل الذى ترتفع به. (القرطبى)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 30}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وقالت اليهود عُزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله. ذلک قولهم بأفواههم، يُضاهئون قول الذين كفروا من قبل. قاتلهم الله أنّى يؤفكون}.

ملخص معانى الآيۀ:

من أسباب محاربۀ اليهود والنصارى:

بعض اليهود يقولون إن عزير ابن الله، ومعظم النصارى يقولون المسيح ابن الله، فذلک قولهم بأفواههم، شابه قولهم بما كان المشركون يقولون فى القديم، قاتلهم الله وأهلكهم أنّى يؤفكون ويضلون.

فيها تحريض المؤمنين على قتال اليهود والنصارى:

قال العلامۀ ابن كثير رحمه الله:

هذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه الشنيعۀ والفريۀ على الله تعالى. (تفسير ابن كثير)

وقال اللاهورى رحمه الله:

أنبياء اليهود والنصارى من أقرب الأنبياء زمانا إلى المسلمين، لكنهم تخلوا عن التوحيد، وعكفوا على الشرک، فإن وجب قتالهم فمن الأولى قتال غيرهم الذين طال عهد أنبياءهم. وهم أبعد عن الحق مقارنۀ بغيرهم، فينبغى على المسلمين أن يصلحوا كافۀ الأمم. (حاشيۀ اللاهورى)

سؤال وجوابه:

عامۀ اليهود لا ينسبون عزيرا إلى الله، ولا يقولون أنه ابن الله، إنما البعض منهم يفعل ذلک، فكيف يصح نسبتها إلى جميع اليهود؟

الجواب:

كان ذلک وفق معتقد بنى قريظۀ من يهود المدينۀ فى عهد الرسول ، وإلا لاعترضوا على ما ورد فى القرآن، لكن اعتراضهم لم يثبت، فدل على صحۀ ما جاء فى القرآن. لكنهم اعترضوا على الآيۀ الثانيۀ، وقالوا : لا نعبد علمائنا ورهباننا، كما ورد فى القرآن. فأجابهم النبى وقال: أما تحلّون ما أحلّوا وما تحرّمون ما حرّموه، فقالوا: نعم. فقال: هى العبادۀ. لاحظوا (القرطبى، والتفسير العثمانى، وبيان القرآن)

الجواب الثانى: كان بعض كبار الزعماء الدينين من اليهود يقولون ذلک، مثل سلام بن مشكم، ونعمان بن أبى أوفى، وشاس بن قيس، ومالک بن صيف، ثم انقرضوا فيما بعد. (القرطبى)

الجواب الثالث: أراد به الابن المجازى، بمعنى الحبيب، وليس الابن الحقيقى والسلالى، والقرآن لم يستخدم كلمة «الولد» إلا للولد الحقيقى من سلالة واحدة، ومن سوء الأدب والضلالة والشناعة نسبة الولد إلى الله من باب المحبة. قال القرطبى رحمه الله:

ويقال إن بعضهم يعتقدها بنوة حنوٍ ورحمة، وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه، وهو كفر.

وهذا الذى اختاره صاحب التفسير الماجدى، فيما يلى لاحظوا عبارته، وفى أولها تعريف بعُزير:

«عُزير» وفى لفظ التوراة «عزرا» (المتوفى 458 قبل الميلاد، فى الغالب)

اشتهر فى كتابات اليهود بالكاتب أكثر من اشتهاره بصفته نبيا، لمّا ضاعت نُسخ التوراة من اليهود عقب هجوم بخت نصر (604 إلى 561 ق م) على القدس (عام 586 ق م)، كتب عُزير (أو عزرا) التوراة من حفظه بالكامل، لذلک يقول اليهود عنه أنه «مثل موسى» بل البعض منهم تغالوا فيه، ورفعوا مرتبته أكثر منه.

ابن الله... فى اللغة العربية كلمتا «ابن» و «ولد» تدلان على معنيين مختلفين، وقد اُطلق لفظ **child of God** و لفظ **son of God**، وترجمة كلمة «ابن الله» هى **child of God** ، ومعناها الحبيب أو الابن المجازى، وليس الابن الصُلبى الحقيقى، كما جاء فى القرآن فى موضع آخر على لسان أهل الكتاب {نحن أبناء الله وأحباؤه} ومعناه الصريح هو الابن المجازى، وبهذا المعنى يعتبر اليهود عزيراً «مُطاعَهم الكل» أو «المحبوب المطلق عند الرب». أما النصرانية فلها ضلالتان، ثانيتهما أشد من الأولى، فأولاهما قولهم فى المسيح أنه ولد الله، أى **son of God** ، وكلّما ذكره القرآن قرنه بالوعيد الشديد، حيث قال: {تكاد السماوات يتفطرن} والضلالة الثانية هى قولهم فى المسيح أنه ابن مجازى لله تعالى، أى **child of God**، وهذا ما عبّر عنه القرآن بابن الله، ولاشک أنه شنيع، لكن الأولى وهى عقيدة «ولد الله» أشد منها، وقد توصل إلى هذه الحقيقة كثير من علمائنا القدامى، أن المراد من الابن فى الآية ليس الابن الحقيقى والنسبى، بل بمعنى المحبة والمودة، وهو أيضاً كفر.

قال ابن عطية: ويقال إن بعضهم يعتقدها بنوة حنوٍ وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تُطلق البنوة عليه وهو كفر. (القرطبى) (التفسير الماجدى)

نكتتان مهمتان:

الأولى: ذكر المفسرون العديد من القصص التى تُشير إلى أن عزيرا عليه السلام كان يحفظ التوراة بكاملها، وقد أسمعها بنى إسرائيل، وأملاها عليهم، ثم أخرجوا النسخ الأصلية من التوراة، فوجدوها مطابقة لما أسمعهم عزير، فتعلقوا به، ولقّبوه بألقاب متنوعة، ومن هنا يمكن للمسلمين أن يحمدوا الله تعالى على ملايين أولاد المسلمين الذين يحفظون القرآن عن ظهر القلب من كل عام، وهذا إن دلَّ على شيء فإنه يدل على عظمة الإسلام وفضله.

الثانى: ما كان اليهود والنصارى يقدّرون الله تعالى من أعماق قلوبهم، لذلك يسيئون إليه برفع مراتب البشر إلى مرتبته، ومن هنا وجب على المسلمين أن يعرفوا الله حق قدره، ولا يسيئوا إليه برفع أحد إليه. (والله أعلم بالصواب)

{قول الذين كفروا من قبل}

من هؤلاء الذين كانوا فى القديم؟ فيه أقوال عديدة.. لاحظوها فيما يلى:

(1) هى الأمم الكافرة المشركة التى كانت تؤمن بتجسيم الله تعالى، أو عقيدة «الحلول» أو الأشكال. ففى الآية إشارة خاصة إلى مشركى اليونان، الذين تأثر بفلسفتهم اليهود والنصارى، حتى اتخذوا توجيهاتهم الشركية من ضمن عقائدهم الدينية. (الماجدى)

(2) قيل: المراد منه مشركوا مكة، لأن ضلالهم كان قديما، كانوا يقولون عن الملائكة أنهم بنات الله، تعالى الله عمّا يقولون علوا كبيراً. (القرطبى)

(3) المراد بهم سلفهم الضالون. (القرطبى)

قال الشاه عبدا القادر رحمه الله:

كانوا يتشابهون مع المشركين رغم كونهم أهل الكتاب. (موضح القرآن)

(لذلك يُقاتَلون كما يُقاتل عامة المشركين)

{قاتلهم الله} معناه العام الذى ذكره أهل العلم: أهلكهم الله تعالى. لكن معناه عند ابن عباس: لعنهم الله، وفيه تحريض للمسلمين على قتالهم، لأنهم ملعونون، حتى لا ينتشر اللعن، أى هم محرومون عن نصر الله وتأييده. (والله أعلم بالصواب)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 31}

بسم الله الرحمن الرحيم

{اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم. وما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً، لا إله إلا هو سبحانه عمّا يشركون}.

ملخص معانى الآيةَ:

ومن أسباب محاربة اليهود والنصارى:

إنهم واقعون فى الشرک العملى إضافة إلى الشرک فى العقيدة، لأنهم اتخذوا علماءهم وأحبارهم أرباباً من دون الله، واتخذوا المسيح بن مريم إلهاً.

يحلون لهم ما يشاءون ويحرّمون ما يشاءون، ويطيعونهم فيما ذُكر مثل طاعة الله، وبه أنكروا التوحيد فى الطاعة، وصاروا مشركين، أما المسيح بن مريم فيجعلونه ابن الله وجزءاً منه، مع أنهم ما أُمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا، لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون.

الأقوال والمراجع

عباد علماء السوء وصوفية الزور:

قال اللاهورى رحمه الله:

اتخذوا علماء السوء وصوفية الزور أرباباً من دون الله، وجعلوا الله وشريعته وتعاليم أنبيائه وراء ظهورهم. ارتبطوا معهم بالصلات التى هى من ميزات الله تعالى. (حاشية اللاهورى)

بابا الفاتيكان فى روما:

«لقد تعدّت الطائفتان حدود التشريعات كلها، حيث اتخذ اليهود أحبارهم وعلماءهم والنصارى رهبانهم وقساوستهم أرباباً من دون الله، بأن كانوا يفتون بما يعارض أحكام التوراة والإنجيل والعقل، فكان عوامهم يذعنون لها ويعدلونها بأحكام الله وأوامره، ونصبوا البابا فى الفاتيكان بمنزلة الرب. (التفسير الحقانى – مع تسهيل)

رواية:

لقد ذكر أكثر المفسرين الحديث التالى فى تفسير هذه الآيةَ:

عن عدى بن حاتم (وكان نصرانيا ثم أسلم) قال قدمتُ النبى ◌ وفى عنقى صليب من ذهب، فقال النبى ◌: يا عدى، ارم هذا الصنم من عنقک، فرميته، فلما رجعت إليه طفق يقرأ {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله} قلت يا رسول الله، لم نكن نعبد الأحبار والرهبان، فكيف

اتخذناهم أربابا؟ فقال النبیﷺ: ألا تحرمون ما حرموا عليكم؟ وتحلون ما أحلوا لكم؟ قلت: نعم، فقال: هی عبادتهم. (معالم التنزيل 2/258 أنوار البيان)

من ترک الوحی السماوی:

«ما كانوا مهتمّين بالكتب السماوية، إنما كانوا يتبعون تعليمات الأحبار والرهبان، أما الرهبان فكانوا يبدّلون حكم الشرع لمصلحة دنيوية قليلة». (التفسير العثمانی)

هذا هو حال الناس اليوم، فقد انتهج أحبة الدنيا وصوفية الزور على توجيه الناس إلى اتباعهم بدلاً من الكتاب والسنة، فيبتعدون عن الجهاد وغيره من أمور الشرع. قال الشاه عبد القادر رحمه الله:

«أقوال العلماء سند العوام، إن كان وفق الشرع، ولم يكن من الهوى، فإن كان فلا». (موضح القرآن)

من إحدى مشاكل اليوم..

قال صاحب أنوار البيان:

«المتحررون من قيود الدين يشعرون بالصعوبات اليوم عند العمل بأحكام الدين، وقد تأثروا بأعداء الإسلام، يطلبون من أهل العلم الجلوس إلى المائدة لمناقشة أمور الدين، ولاستبدال بعضها بغيرها، وتحليل بعضها، وهذا إن دلَّ على شیء فإنه يدل على جهلهم وغباءهم، لأن العلماء إن جلسوا خنوعا لمطالبهم، خرجوا من الدين، ولا يحل الحرام بإحلالهم». (أنوار البيان)

وقال النسفی رحمه الله:

{اتخذوا} أی أهل الكتاب {أحبارهم} علماءهم {ورهبانهم} نُسَّاكهم {أربابا} آلهة من دون الله حيث أطاعوهم فی تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحل الله، كما يطاع الأرباب فی أوامرهم ونواهيهم. (المدارک)

واليوم يطالب حكام المسلمين المتغربين من العلماء بتقديم الوجه الصحيح للدين إلى الناس، فالدين الصحيح ما كان خاليا عن الجهاد فی سبيل الله، وما كان حائزاً على رضا الكفار، نعوذ بالله منه نعوذ بالله منه..

نص محقّق:

«اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، أی اتخذوهم أصحاب الخيار فی الدين بشكل دائم، كأنهم معبودون ومربوبون، يحلون ما شاءوا، ويحرمون ما شاءوا، جعلوا كافة السلطات التشريعية بأيديهم، فبابا الفاتيكان فی روما حائز على كافة الصلاحيات التشريعية بصفته نائب المسيح عليه السلام لدى الكاثوليک من النصاری، وكذلک الحال بالنسبة إلى طائفة البروتستانت من النصاری، فقد جعلت كافة الصلاحيات للكنيسة، أما اليهود فقد تغلبت تعاليم الربّيين على تعاليم التوراة عندهم».

«الأكثرون من المفسرين قالوا ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم». (التفسير الكبير)

{من دون الله} أى بعدما نبذوا «التوحيد فى الطاعة»، فهم لا ينكرون ألوهية الرب سبحانه وتعالى، لكنهم من الناحية العملية يشركون معه غيره فيما يتعلق بالطاعة والانقياد. (التفسير الماجدى)

{سورة التوبة مدنية، الآية: 32}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يريدون أن يُطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يُتمّ نوره ولو كره الكافرون}.

ملخص معانی الآیۂ:

ومن أحد أسباب قتال اليهود والنصارى..

أنهم من ألدّ أعداء الإسلام، ويريدون أن يزيلوا هذا الدين، فهم يعادون الدين الحق ويخالفونه، وهو كفر، يريدون أن يُطفئوا نور الله وهو الإسلام بأفواههم (باعتراضاتهم وإشكالياتهم وخبثهم) والله متم نوره ولو كره الكافرون.

الأقوال والمراجع:

(1) لقد تغيرت أذواقهم، لكنهم يسعون إلى إزالۂ الإسلام من الوجود، والله متم نوره ولو كره الكافرون. (حاشيۂ اللاهوری)

(2) بعد طلوع شمس الإسلام والتوحيد الخالص لا مساغ للكلمات المزدوجۂ والدعاوی الشركيۂ، إن كانوا يسعون إلى إطفاء نور الله بما يخالف العقل والواقع، فحالهم كمن يسعى إلى إطفاء نور الشمس والقمر بنفخه، واعلموا أن الله متم نوره مهما احترقوا بنار الحقد. (التفسير العثمانی)

خبر و وعد..

أخبرت الآیۂ الكريمۂ عن اليهود والنصارى وغيرهم من الكفار والمشركين أنهم يسعون إلى إزالۂ الإسلام، ويجتهدون له بالاستمرار، هذا الخبر جاء فی القرآن فی غير موضع بتعبيرات مختلفۂ، لذلک ينبغی على المسلمين أن يحذروا أعداءهم، ويتفكروا فی القضاء على قوتهم وشوكتهم ويجتهدوا لذلک، لأن من عادى الدين الحق فكأنّه عادى البشريۂ بأكملها، يسعون إلى منع الناس من النور، ودفعهم نحو الظلام، يريدون غرس بذور الكفر فيهم بعد إبعادهم عن الصدق، ثم أشارت الآیۂ إلى أن هؤلاء الأغبياء يزعمون أنهم قادرون على إطفاء نور الله بأفواههم كما يُطفئ أحد نور السراج بفمه، لأن الإسلام ليس السراج الذی أشعله أحد من البشر، بل هو نور الله، ولا يطيق أحد إطفاء نوره، وفی آخر الآیۂ وعد بنصر المؤمنين، وبإيصال النور إلى كماله.

قال الإمام الرازی رحمه الله تعالى:

ثم إنه تعالى وعد محمداً ﷺ بمزيد النصرۂ والقوۂ وعلو المرتبۂ وكمال المنزلۂ فقال: {ويأبى الله إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون}. (التفسير الكبير)

الصدق المكشوف:

وفی التفسير الماجدی:

وخير شاهد على صدق الآية الكريمة تاريخ الأمة المحمدية الممتد على ألف وأربعمائة سنة، فاليهود والنصارى والمشركون والملاحدة والزنادقة والمعاندون والحاقدون ظلوا يستخدمون كافة التدابير والحيل والسلطات والقُوى لاستئصال الإسلام من جزوره، لكنه ظل ينتشر فی الآفاق على قدم وساق، ويزداد عدد أهله يوما فيوما، ويكفی هنا الإشارة إلى تلك الاعترافات التی جاءت على لسان منظمی الجمعيات التنصيرية أنها فشلت فشلا ذريعا فی القارة الإفريقية أمام المسلمين رغم ما أنفقت من أموال طائلة. (التفسير الماجدی)

تسلية كبيرة:

فيها تسلية كبيرة وتبشير للمسلمين بعدم زوال الإسلام رغم ما يتعرّض له من حملات ومؤامرات وانتقادات، وهی فی الواقع بمثابة مشاغب ينفخ بفمه ليطفئ نور الشمس، لذلك ينبغی على المسلمين أن يتمسكوا بنور الله، وهو الإسلام، تحصل لهم القوة والغلبة بقدر تمسكهم به، وتدابير المشركين وجهودهم ومؤامراتهم ليست أكثر من شبكة عنكبوتية أو نفخات أفواه. (والله أعلم بالصواب)

نزلت هذه الآية من القرآن فی الوقت الذی كان الإسلام مقتصرا على الجزيرة العربية، أما الحكومات النصرانية واليهودية فكانت منتشرة على أكبر جزء من الأرض، لكن نور الإسلام ظل ينتشر كما وعد به القرآن، ونوّر عالماً كبيراً فی فترة قياسية. والحمد لله رب العالمين.

{سورة التوبة مدنية، الآية : 33}

بسم الله الرحمن الرحيم

{هوالذى أرسل رسوله بالهُدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}.

ملخص معانى الآية:

لم يأت الإسلام إلى العالم إلا ليكون غالبا ومسيطرا عليه، فقد أرسل الله رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق أى الإسلام، ليُغلبه على الدين كله، ولو كره المشركون، ومن ضمنهم اليهود والنصارى. وهؤلاء اليهود والنصارى سوف يسعون إلى منع انتشاره وغلبته على العالم، وينبغى على المسلمين أن يقاتلوهم للقضاء على قوتهم وشوكتهم، لكى لا يقدروا على عرقلة طريق الإسلام.

الأقوال والمراجع

هذا الدين نزل للغلبة..

(1) سيجعل الله الإسلام ينتصر على الأديان كلها، ولم يكن نزوله إلا لهذا الغرض. (حاشية اللاهورى)

(2) أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق لينتصر على كافة المذاهب والمزاعم الباطلة، ولينقذ سفينة بنى آدم من الغرق، فهو يغلب دينه الحق والصحيح، وقد تحقق ذلك فى عهد الصحابة، وانتشر نور الإسلام من المشرق إلى المغرب، وسوف ينتشر بعد المهدى عليه السلام. (التفسير الحقانى)

(3) غلبة الإسلام على غيره من الملل والأديان من ناحية عقلانيته وصدقه وتوفر أدلة العقل والنقل فى كل عصر وزمان، وذلك بحمد الله وفضله. أما غلبته من ناحية السلطان والحكم فهى حاصلة له، وستحصل له أكثر. أما تمسک المسلمين بتعاليم الإسلام بشكل كامل، وقوتهم فى جوانب الإيمان والعقيدة والتقوى، وثباتهم فى ساحة القتال، فهذه إما تحققت له، أو سيتحقق فى المستقبل. أما غلبة دين الحق بحيث يزيل الأديان الباطلة عن الوجود، فهى تتحقق بعد نزول المسيح عليه السلام قرب الساعة. (التفسير العثمانى)

(4) قال المحققون: لاشک أن غلبة الإسلام على الأديان كلها متحققة على الإطلاق من ناحية الدليل والمنطق، وهذه لا تختص بزمان، أما الغلبة المادية فمشروطة بكفاءة المسلمين وتأهلهم لها، ومال كثير من المفسرين إلى أن الغلبة الكاملة تظهر بالقرب من الساعة، عند نزول المسيح وزوال بقية الأديان.

وأكثر المفسرين على الاحتمال الثانى قالوا وذلک عند نزول عيسى عليه السلام، فإنه حينئذ لا يبقى دين سوى الإسلام. (روح) (التفسير الماجدى)

وجوه غلبة الإسلام الثلاثة:

«لغلبة الإسلام ثلاثة أوجه، الأول: الغلبة بالدليل والحجة، وهذا متحقق منذ اليوم الأول، وسيبقى إلى الأبد. لأن أحدا لا يقدر على مواجهة المسلمين بالدعوى والدليل، أيا كان ذلک، سواء كان ممن يؤمن بإحدى الديانات السماوية أو وثنيا أو مجوسيا أو كافرا أو ملحدا أو زنديقا، فحجج الإسلام وبراهينه غالبة على الجميع من اليهود والنصارى والمشركين والزنادقة والملاحدة، وسيبقى غالباً من هذه الناحية. فالإسلام دين كامل يشمل كافة شئون الحياة. أما أصحاب الديانات الأخرى فليس لديهم إلا بعض الأفكار والمعتقدات التى اقترفوها، فليس لديهم ضوابط تنظم حياتهم السياسية والاجتماعية والمعيشية والتجارية والروحية والخلقية والثقافية، أما الإسلام فقد أعطى ضوابط لتنظيم كافة شئون الحياة، إلى جانب تعاليم الأخلاق العالية.

والوجه الثانى لغلبة الإسلام هو: أن يترک الناس شركهم وكفرهم، ويدخلوا فى دين الإسلام جميعا، فلا دين إلا الإسلام، وله الحكم والسلطان، وهذا يظهر قبل قيام الساعة، فقد ينتشر الإسلام بكل قوة فى عهد المسيح والمهدى عليهما السلام، فتمتلئ الأرض بالعدل والإنصاف. روى عن أبى هريرة أن النبى ٭ تذكر عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض فقال: «ويبطل الملل حتى يهلک الله فى زمانه الملل كلها غير الإسلام». (مسند الإمام أحمد 2/437)

والوجه الثالث لغلبة الإسلام من ناحية السلطان والحكم على الأرض، وهذا قد تحقق، لمّا كان المسلمون يجاهدون فى سبيل الله، يحملون دين الله تعالى إلى الآفاق، يبتغون فضلاً من الله ورضوانا، فزالت كبرى الحكومات فى تلک الأزمنة، وسيطر المسلمون على بلاد قيصر وكسرى، أما الأسرى فقد تم استرقاقهم، ورضى كثير من المشركين وأهل الكتاب بدفع الجزية، وعاشوا فى ظل النظام الإسلامى، وبقيت بلاد شاسعة فى أوروبا وإفريقيا وآسيا تحت الحكم الإسلامى، وهى قارات الأرض الثلاث التى عرفتها الدنيا، ولم يتم اكتشاف البقية فى ذلک العصر، ولا زال سلطان المسلمين وحكمهم منتشرا على قدر كبير من الأرض، فإن قاموا الآن بالجهاد فى سبيل الله، وتحالفوا فيما بينهم وتنفروا من الكفار ولم يلجأوا إلى الحكومات الكافرة لحل مشاكلهم، لاستعادوا مجدهم الضايع.

وقد تحقق وعد الله تعالى من ناحية السلطان والحكم، وسوف يتحقق مرة أخرى فى المستقبل، بإذن الله تعالى. روى المقداد بن الأسود أن النبى ٭ قال: لا يبقى على الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخل الله فيه الإسلام بعز عزيز وذل ذليل. وقال المقداد بعدما روى الحديث: فيكون الدين كله لله. (المشكاة ص 116 من مسند الإمام أحمد). والمعنى أن الذى يُعزه الله جعله يقبل كلمة الإسلام، ومن يُذله الله تعالى قُتل أو اضطر إلى دفع الجزية. (أنوار البيان)

فيها دعوة إلى الجهاد:

«لقد أُعطى الله أهل الكتاب أفضل الأديان، لكنهم شوّهوا تعاليمه، والآن جاء رسول لتحقيق الغرض الحقيقى من الدين، الذى يظهر دينه على الأديان كلها. وسوف يسعى اليهود والنصارى إلى إذلاله، لذلک يجب على المسلمين أن يقضوا على قوتهم بالجهاد فى سبيل الله».

ولقد ورد ذكر الفتح والنصر المذكور بالتفصيل، فقد قال النبى ﷺ يوما:
«إن الله زوّى لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوّى لى منها».
وعند أحمد فى مسنده: «أنه سيفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة». (تفسير الفرقان)

أحاديث غلبة الإسلام:

المراد من الغلبة التى وردت فى الآية عند أكثر المفسرين: غلبة الإسلام الظاهرة على كافة الأديان وفرض سلطانه عليها، قال الإمام النسفى رحمه الله:
{ليُظهره} ليُعليه، ومثله فى الجلالين وغيره من التفاسير، وهذا المعنى أراده ابن كثير، ثم جمع من الأحاديث ما تدل على ظهور الإسلام وإعلاءه وانتشاره فى الأرض. راجع تفسير ابن كثير.

بحث شيّق:

لقد ناقش الإمام القرطبى رحمه الله تعالى تحت هذه الآية مسألة الإمام المهدى، وأنه من آل الرسول ﷺ، لما تواترت عليه الأدلة من السنة، فدل على أن عيسى بن مريم غير الإمام المهدى، وأنهما شخصيتان منفصلتان، ولا تصح من الروايات ما تقرر المهدى هو المسيح، راجع للتفاصيل تفسير القرطبى. (لقد ادّعى كثير من الناس فى زماننا باطلا وزورا، وقالوا إنهم المسيح أو المهدى، فينبغى معرفة هذه المسألة معرفة صحيحة حذراً من الفتن).

نكتة غريبة:

قال الإمام الرازى رحمه الله: أراد بالظهور غلبة الإسلام على الأديان كافة، لأنه قال واعداً: {ليُظهره على الدين كله} والظاهر أن الوعد لا يكون إلا بما لم يحصل حتى الآن، وأنه سوف يحصل، فإن كان المراد من الظهور ظهور الحجة والغلبة فقد كان حاصلا فى عصر النزول، ولكن المراد منه القوة والسلطان، وهو ما لم يكن حاصلا له فى ذلك العصر، ثم منحه الله تلك القوة والسلطان فيما بعد، فدل على أن هذه الآية من ضمن المعجزات، بأن الوعد الذى قطعه الله على نفسه قد تحقق. لاحظوا فيما نص ما قاله الإمام الرازى:
واعلم أن ظهور الشىء على غيره قد يكون بالحجة وقد يكون بالكثرة والوفور، وقد يكون بالغلبة والاستيلاء، ومعلوم أن الله تعالى بشّر بذلك، ولا يمكن أن يبشّر إلا بأمر مستقبل غير حاصل، وظهور هذا الدين بالحجة مقرر معلوم، فالواجب حمله على الظهور بالغلبة. (التفسير الكبير)
ثم كتب.. كانت الآية تقتضى غلبة الإسلام على كافة الأديان، لكنها لم تحصل بشكل كامل، فقد ظلت الهند والصين والروم على ما هى عليها من الوثنية والشرك، ويجاب عنه بعدة أجوبة، الأول: أن الإسلام قد تغلّب على أديان العالم الكبرى فى عدة مواضع، ففى الجزيرة العربية على اليهود والمشركين، وفى الشام على النصارى والمجوس، وعلى الوثنية فى تركيا وأطراف الهند وغيرها. والجواب الثانى أن غلبة الإسلام يكتمل عند نزول المسيح وظهور المهدى عليهما السلام.

فثبت أن الذى أخبر الله عنه فى هذه الآية قد وقع وحصل وكان ذلك إخباراً عن الغيب، فكان معجزاً. (التفسير الكبير)

وقال السدى: ذلك عند خروج المهدى، لا يبقى أحد إلا دخل فى الإسلام أو أدى الخراج. (التفسير الكبير)

عناصر غلبة الإسلام:

يبدو مما ذكرنا أن فى رأى الإمام الرازى ثقلاً، لأن الآيات السابقة تناولت الجهاد، والآيات اللاحقة مرتبطة بغزوة تبوک، أما هذه الآيات فقد قال أكثر المفسرين أنها نزلت تُحرّض على غزوة تبوک، فالمراد من الظهور حينئذ الغلبة والقوة. ثم لو تأملنا فى معنى الآية الكريمة لتوصلنا إلى أن غلبة الإسلام الظاهرة مرتبطة ببعض الشروط. فقوله تعالى {هو الذى أرسل رسوله} يشير إلى ضرورة تواجد الرسول ﷺ بين أظهر المسلمين، وبعد وفاته تواجد أحد خلفاءه، فدل على أن من ضروريات تحقق غلبة المسلمين وجود جماعة وخليفة بين المسلمين.

{بالهدى} أشار إلى أن القرآن دستور المسلمين وقائدهم، فينبغى أن يتخذوه قائدا ودستورا ونظاما. {ودين الحق} أشار إلى أنه ينبغى على المسلمين أن يتخذوا غلبة الإسلام وتنفيذه وتصديقه غاية حياتهم. {ليُظهره على الدين كله} يشير إلى ضرورة محاربة الأعداء لغلبة الإسلام.

فكلّما اتفق المسلمون على أمير وخليفة، واتخذوا القرآن دستورا وقانونا، وتقدّموا لتنفيذ الإسلام وصدقه، وقاموا بالجهاد فى سبيل الله بكل قوة، حصلت لهم الغلبة المذكورة فى الآية. وهذا هو الحال اليوم، فما من موضع يجاهدون فيه إلا وحصلت لهم الغلبة.

ثم تأملوا فى أمر مهم، أجمع المفسرون على أن الأحاديث تواترت على أن المسلمين إن اتحدوا تحت راية الإمام المهدى واتخذوه أميرا وخليفة لهم، ثم هو لمّا يتخذ عيسى بن مريم أميرا فيجاهد فى سبيل الله تخت رايته، تغلبوا على العالم كله. ومن هنا عرفنا أن سر الغلبة فى الجهاد والخلافة، أسأل الله أن يحيهما فى المسلمين. آمين (والله أعلم بالصواب)

{سورة التوبة مدنية، الآيات : 34، 35}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله، فبشرهم بعذاب أليم. يوم يُحمى عليها فى نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون}.

ملخص معانى الآيتين:

ومن أحد أسباب قتال اليهود والنصارى:

أن زعامتهم الدينية ضالة طمّاعة، أغلب علمائهم ومشايخهم يكسبون المال بوجه محرّم، ويبيعون الدين للدنيا، ويصدون الناس عن الإسلام. (وبقاء مثل هؤلاء فى السلطة والقوة مضر بالبشرية) عوامهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وهم أحرص ناس على المال والدنيا، وحفاظا عليهما لا يقبلون دين الحق، ويصدون الناس عنه، إضافة إلى ذلک فإن اليهود والنصارى يسعون إلى خلق بون اقتصادى ومعيشى بين الناس ويظلمون، (فقد ينتهكون حقوق الناس بالاستثمار المحرّم) كما أنهم يدّخرون المال ولا ينفقونه فى سبيل الله، لذلک أعدّ الله لهم عذابا أليما، يعذبهم بأموالهم يوم القيامة.

أهم ميزات علماء الدين عند اليهود والنصارى:

وفى التفسير الحقانى:

كان علماءهم قد تعوّدوا على التحريف والتبديل فى كتبهم، يوقعون الناس فى شبهات كثيرة، كما هو حال الجمعيات التنصيرية اليوم. ففى الآية أراد الله تعالى اطلاع المسلمين على خبث من الخبائث الكثيرة التى اتصفوا بها، كى يحذروهم، وهو أنهم طمّاعون، يجمعون المال بالحيلة والمكر، ويدخرونه، لا ينفقونه فى سبيل الله، مثل البرهمنية – علماء الدين عند الهندوس– لذلک لا عبرة بما يقولون، والأموال التى يدخرونها سوف تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

وفى الآية كذلک إشارة إلى أولئک المسلمين الذين لا يدفعون زكاة أموالهم، وادخار المال بعد أداء الزكاة جائز عند الجمهور. (مع شروط). فعلماء اليهود والنصارى ما كانوا يحتالون الحيل وينصبون الفخ إلا للمال والذهب، وعاقبته الكيّ فى نار جهنم. والواقع إن طمع المال لا يقتصر على اليهود والنصارى، بل هو بلاء الإنسان الذى قلّ من يتخلص منه، وقد هلكت طوائف عدة من المسلمين للهثهم وراءه، فقد تستروا بأسماء الزهد والولاية ثم تلهفوا على المال، وأخذوا منه ما استطاعوا حمله، فهناک إما محافل على القبور أو النذور، ثم القصص المنسوبة إلى الزاهد التى

تضاهيه مع الله، إلى جانب الحصانة التى يوفّرها لهم علماء السوء فى صورة تأويلات فاسدة، وإضفاء الصبغ الدينى عليها، وهناک محافل الرقص والغناء واللهو واللعب التى اعتدوها من الدين، وإظهار البراعة فى الدين لإحقاقها منه، ثم إصدار الزاهد أوامر تعظيمه وتكريمه وسجوده واستقبال الهدايا والنذور، والاستلذاذ بالملذات والشهوات، كل ذلک ليس إلا تقليداً للرهبان والأحبار. نسأل الله حب رسوله ﷺ واتباع سنته. (آمين) (التفسير الحقانى بتسهيل)

مضامين الآيتين المذكورتين:

لقد أكثر أهل العلم الحديث حول الآيتين، وتحدثوا بالتفصيل حول ما يأتى:

(1) إفراط اليهود والنصارى وأحبارهم ورهبانهم فى حب الدنيا وطمع المال واستثمارهم الآثم.

(2) توجيه المسلمين إلى الابتعاد عنها وذم علماء الدنيا.

(3) مفهوم الكنز، وعلى أى مال ينطبق وعلى أى مال لا ينطبق.

(4) ذكر الذهب والفضة باعتبارهما أصول الأموال، والغرض الإشارة إلى كافة أنواع المال والأراضى، والأدلة عليه.

(5) هل يجوز ادخار المال بعد أداء الزكاة أم لا؟

(6) الوعيد الشديد على عدم أداء الزكاة، وكذلک الوعيد على ادخار المال، ومعنى ذلک.

(7) ما الذى يجب على المسلم أن يدخره؟ فقد ورد فى الحديث بيان ثلاثة أشياء:

(1) لسان رطب مع الذكر (2) قلب شاكر (3) امرأة تعينه على الطاعات وأمور الآخرة.

(8) هل هذه الآية خاصة مع اليهود والنصارى أم أنها تعم المسلمين أيضا؟

(9) ذكر الأحاديث التى أشارت إلى أن الأمة الإسلامية ستتبع سنن الذين كانوا قبلهم.

(10) ذكر أبى ذر الغفارى وغيره من أهل الزهد.

أكثر المفسرين ذكروا المباحث المذكورة، وعلى الراغبين مراجعة أمهات التفاسير.

دعاء:

نقل ابن كثير عن مسند أحمد الدعاء الآتى:

وعن شداد بن أوس رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا كنز الناس الذهب والفضة، فاكنزوا هؤلاء الكلمات:

«اللهم إنى أسألک الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسألک شكر نعمتک وأسألک حسن عبادتک وأسألک قلبا سليما وأسألک لسانا صادقا وأسألک من خير ما تعلم وأعوذ بک من شر ما تعلم وأستغفرک لما تعلم إنک أنت علاّم الغيوب». (تفسير ابن كثير)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 36}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فی کتاب الله يوم خلق السماوات والارض منها أربعة حُرُم. ذلک الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسکم وقاتلوا المشرکين کآفة کما يقاتلونکم کآفة واعلموا أن الله مع المتقين}.

ملخص معانی الآية:

إن من إحدى جرائم اليهود والنصارى والکفار والمشرکين أنهم يغيّرون أحکام الله تعالى حسب هواهم، کما يبدلون أوقاتها ومواعيدها، لذلک وجّه الله تعالى إليهم فی هذه الآية تعليمات صريحة بأن تعداد الشهور عند الله اثنا عشر شهرا، فالسنة القمرية تشتمل على اثنى عشر شهراً، أربعة منها محرمة ومعظمة، وهی ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، وأن العبرة عند الله بالسنة والشهور التی فيها أربعة أشهر محرمة، وهی السنة القمرية، ولا عبرة عند الله بغيرها، وحکم الأشهر الحُرُم أنه يجب فيها الاهتمام بالابتعاد عن المعاصی والمظالم أکثر من غيرها، ثم أکّد على أننا بعد بيان جرائم اليهود والنصارى والمشرکين، نوجّه المسلمين إلى قتالهم ومطاردتهم کافة کما يقاتلونهم کافة، ولتيقنوا أن نصر الله مع المتقين، ومن أهم مقتضيات التقوى الاشتغال بالجهاد فی وقته المناسب.

ربط الآية:

قال الرازی:

اعلم أن هذا شرح النوع الثالث من قبائح اليهود والنصارى والمشرکين وهو سعيهم فی تغيير أحکام الله. (التفسير الکبير). فدل على أن هذه الآية تشتمل على بيان أسباب القتال.

الجهاد يدوم:

بما ذکرنا من الآيات ثبت أنه لا يمکن المنع من الجهاد رعايةً لحرمة جماعة کبيرة (مثل اليهود والنصارى) والآن يشير إلى أن الأشهر الحرُم لا تمنع الجهاد، بل الجهاد ماض إلى يوم القيامة». (التفسير الفرقان)

مناسبة الآية:

وفی التفسير الحقانی:

ثم أشار إلى أمر من تلک الأمور، وهو الجهاد والقتال فی سبيل الله. (التفسير الحقانی)

نكتة مهمة:

كان المشركون يتلاعبون بما قرّره الله تعالى من الأشهر، ويقدمون فيها أو يؤخرونها حسب هواهم، قيل: كانوا قد تعلموا هذه الخصلة السيئة من اليهود والنصارى.

وفى التفسير الماجدى:

«لقد ذكر الإمام الرازى مبحثا مفصلا ومحققا فى هذا الموضع، وقال: لقد تعودت العرب على الأشهر القمرية منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فكان موسم الحج يختلف بين فصول السنة المختلفة، فرأوا ذلک يضر بتجاراتهم، فتعلموا حساب الكبيسة من اليهود والنصارى ليوثروا مصلحتهم الدنيوية على دينهم، فصاروا يزيدون فى شهورهم شهرا بعد كل مدة معينة، حتى حدّدوا الحج وفق الحساب الشمسى، فكان تدخلا واضحا فى مصالح الشريعة. ومن هنا استنبط أهل العلم مسألة مهمة، وهى أنه يجب الالتزام بالسنة القمرية فيما يتعلق بالمعاملات والعبادات، ويحرم اتباع السنة الشمسية أو الرومية أو السنة العجمية.

قال أهل العلم: الواجب على المسلمين بحكم هذه الآية أن يعتبروا فى بيوعهم ومدد ديونهم وأحوال زكاتهم وسائر أحكامهم السنة العربية بالأهلة، ولا يجوز لهم اعتبار السنة العجمية والرومية. (التفسير الكبير) (التفسير الماجدى)

حرمة الأشهر الأربعة:

هنا تكلم أهل العلم بشأن الابتداء بالقتال فى الأشهر الأربعة الحرُم، هل يجوز أم لا؟ ذكر ابن كثير قولين بأدلتهما فى تفسيره، فليراجع.

قال الشاه عبد القادر رحمه الله:

عدة الشهور فى أحكام الشرع اثنا عشر شهرا، لا زيادة فيها ولا نقصان، وفى دين إبراهيم كانت أربعة أشهر محرمة، ذى القعدة وذى الحجة ومحرم ورجب، مُنع من القتال فيها. والأمن كان يسود بلاد العرب، ليتيسر للناس أداء مناسک الحج والعمرة، للقاصى والدانى، وهذا ليس عند أكثر أهل العلم. وقد دلت الآية على جواز قتال المشركين فى جميع الأيام، والظلم معصية، والظلم فيها أكبر من غيرها، والأفضل أن أحدا من المشركين إن استعظم حرمتها وامتنع عن قتال المسلمين فيها، جاز عدم بدء القتال معه. (موضح القرآن)

وعلى كل حال، فهذه مسألة خلافية، وقد سبق قول الجمهور فيها، لكن بينهما فرقا، وهو أن المشركين إن سبقوا المسلمين بالهجوم، جاز لهم الدفاع عن أنفسهم، ولا يجوز الامتناع عن القتال احتراما لها، أما اللاهورى فيرى حرمة القتال فى الأشهر الأربعة المذكورة:

بما أن على المسلمين أن يحاربوا العالم كله، لذلک يحصل جيش محمد على أربعة أشهر لأخذ الراحة من كل سنة، فلا يبتدئون القتال فيها، إلا إذا هاجمهم الكفار، فيضطرون إليه. (حاشية اللاهورى)

وبناء عليه يحترم مسلموا العالم الأشهر الأربعة، وليس يعنى ذلك أن يقعدوا مكتوفى الأيدى، بل أعداءهم يتحالفون للقضاء عليهم، فليتحالفوا للقضاء عليهم. (التفسير الفرقان)

والأمر الثانى وجوب الاهتمام بالابتعاد عن كافة أشكال المعاصى والذنوب فى تلك الأشهر أكثر من غيرها، كما فى تفسير الجلالين:

«{فلا تظلموا فيهن} أى الأشهر الحُرم {أنفسكم} بالمعاصى فإنها فيها أعظم وزرا. (الجلالين)

{وقاتلوا المشركين كافةً} فمعنى «وقاتلوا المشركين كافةً» لا يتخلف أحد منكم عن قتالهم أو لا تتركوا قتال واحد منهم. (روح المعانى)

وقال القرطبى: {وقاتلوا} أمر بالقتال {وكآفةً} معناه جميعا، وهو مصدر فى موضع الحال، أى محيطين بهم ومجتمعين. (القرطبى)

ثم قال:

وإنما معنى هذه الآيةِ الحض على قتالهم والتحزّب عليهم وجمع الكلمة. (القرطبى)

ومعنى قوله {كما يقاتلونكم كآفةً} فبحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا لهم. (القرطبى)

مناسبة أخرى بين الآيات:

وفى التفسير العثمانى:

وارتباط المضمون بما سبق فى نظرى أن فى الركوع السابق كان الأمر بقتال اليهود والنصارى بعد الأمر بقتال المشركين، وفى أول هذا الركوع أشار إلى أن اليهود والنصارى لا يختلفان عن المشركين فى المعتقدات، يقولون عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وهذا كما يقول المشركون: الملائكة بنات الله، فعقيدة بنوّة المسيح انتقل إلى النصارى من الوثنيين، الذين يصفون الأصنام آلهة، وقد قالوا بألوهية المسيح وروح القدس، يدعون أن لديهم كتبا سماوية، ثم جعلوا ما يقول الأحبار والرهبان بمنزلة الشريعة، أى إن حرّم الأحبار والرهبان الحلال بعد أخذ الرشوة قبلوه، وإن أحلوا الحرام بالرشوة وافقواهم، وهذا ما يطابق المشركين الذين يحلون ما أحل لهم زعماءهم، ويحرّمون ما حرّموا عليهم، وينسبون ذلك إلى الله، وقد سبقت التفاصيل فى سورة الأنعام.

وهنا نشير إلى مثال له. فالعرب منذ القِدم كانوا يعتبرون أربعة أشهر من السنة محرّمة لا يقاتلون فيها، فكانوا يسافرون للتجارة والحج والعِمرة بكل حرية، لم يكن أحد يتعرض لقاتل والده فيها، قال بعض أهل العلم: تقررت حرمة تلك الأشهر الأربعة فى الملة الإبراهيمية، لما تعدى العرب حدود الهمجية والجهالة قبل الإسلام، بعض القبائل منها لم تكن تراع شرائع سماوية أو أرضية فى إرواء نزعتها القتالية والثأر من العدو، حتى ابتدعوا «النسى»، وهو من أحد العناصر التى زادت فى كفر العرب وضلالهم، أنهم فوّضوا تحليل ما حرّمه الله إلى سيد كنانة، شأنهم شأن اليهود والنصارى الذين جعلوا ذلك فى أيدى الأحبار والرهبان الطامعين فى أموال الناس، وللإشارة إلى أوجه التشابه بينهما ذكر الله تعالى عادة «النسى» ومهّد الطريق للرد عليه بقوله {إن عدة الشهور عند الله} والمعنى إن

تعداد الأشهر عند الله اثنا عشر شهرا منذ أن خلق السماوات والأرض لإجراء كثير من أحكام الشرع، وقرّر أربعة منها حرما، ويجب فيها الابتعاد عن المعاصى والظلم أكثر من غيرها، هذا هو الدين القيّم. (أى دين إبراهيم عليه السلام) (التفسير العثمانى)

{واعلموا أن الله مع المتقين}

إن أجمعت الدنيا على تدميركم فمن كمال التقوى الاستعداد لتدميرهم. (التفسير الفرقان)

{سورة التوبة مدنية، الآيات : 37}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنّما النسىءُ زيادةٌ فى الكفر يُضل به الذين كفروا يحلّونه عاما ويحرّمونه عاما ليُواطئوا عدةَ ما حرّم الله فيحلوا ما حرّم الله، زُيّن لهم سوء أعمالهم، والله لا يهدى القوم الكافرين}.

ملخص معانى الآية:

النسىء من أحد أمثلة تدخّل المشركين فى أحكام الله تعالى، كانوا يتلاعبون بالأشهر الحُرم إرضاء لسادتهم، وبه يزدادون فى كفرهم وشركهم، يضلون به عوامهم، يُكملون عدة أشهر الحُرم، لكنهم لا يحرّمون ما حرّمه الله، ولا يشعرون بالندامة عليها، إنما يعتزون بها، والله لا يهدى القوم الكافرين.

معنى النسىء:

«مشركو العرب ما كانوا يرعون حرمات ولا قوانين، سواء كانت سماوية أو أرضية، خاصة إن أرادوا إشباع همجيتهم، أو أخذ الثأر من عدوهم، وقد ابتدعوا «النسىء»، فإن أراد سيد قبيلة شديدة البأس، أن يقاتل قوما، أعلن بإخراج «محرم» من الأشهر الحُرم، واعتداد «صفر» مكانه، وبعد سنة قالوا: عادت السنة إلى وضعها الطبيعى، فالمحرم حرام والصفر حلال، ثم إن كانوا يريدون إكمال عدة الأشهر الحُرم وأشهر السنة، كانوا يتلاعبون بها، فيقدّمونها ويؤخرونها حسب هواهم، وقد توصل ابن كثير بعد التحقيق فى الموضوع إلى أن النسىء كان عبارة عن التقديم والتأخير فى شهرى محرم وصفر، على الوجه الذى أسلفناه.

وقال محمد بن إسحاق إمام المغازى: إن أول رجل ابتدع النسىء كان «قلمَّس الكنانى» ثم جرى فى أولاده، حتى كان أبو ثمامة جنادة بن عوف الكنانى يقوم فى موسم الحج ليعلن للملأ أيبقى شهر محرم من ضمن الأشهر الحُرم أم أن صفر يحتل مكانه، فكانوا يحلون أحد الشهرين ويحرّمون الآخر، والناس يذعنون له». (التفسير العثمانى)

فائدة:

مضامين الآية 36 و37 مرتبطة بعضها ببعض، وعند ضم معارف بعضها إلى بعض يتضح مفهوم الجهاد بشكل أوضح، أن من إحدى جرائم المشركين أنهم كانوا يتلاعبون بقوانين الله والفطرة ليغيروا منها حسب هواهم، ولا فرق بينهم وبين اليهود والنصارى، وأبسط مثاله النسىء، فوجب قتال الجميع. (والله أعلم بالصواب)

مسألة مهمة:

وفی معارف القرآن:

دلت الآيتان على أن أسماء وترتيب الأشهر المعروفة لدى المسلمين إلهامية وليست بوضعية، حدَّدها الله يوم خلق السماوات والأرض، كما دلت على أن المعتبر عند الله الأشهر القمرية، وعليها مدار الأحكام الشرعية من صوم وحج وزكاة وغيرها، لكن الله سبحانه إن كان قد جعل القمر مواقيت للناس والحج، فقد جعل الشمس مثله.

{لتعلموا عدد السنين والحساب} فجاز معرفة التاريخ والحساب بالاثنين، وبما أن الله اختار القمر لأحكامه، وجعل مدار الأحكام الشرعية عليه، دلّ على أن المحافظة على الحسابات القمرية فرض على الكفاية، تأثم الأمة إن أجمعت على تركها، وإن حافظوا عليها جاز استعمال غيرها، لكن فيه مخالفة لسنة الله وطريقة السلف، لذلک لا داعی إلى استعمالها بدون حاجة. (معارف القرآن)

وفی تفسير أنوار البيان:

لا مانع من استخدام ما عدا الأشهر القمرية لتسجيل المعاملات الدنيوية ولتذكيرها، لكنها ليست بمحبوبة، فقد شاع بين المسلمين أشهر أخرى غير القمرية، اختارها أعداء الإسلام، ولا يقيمون لأشهرنا الهجرية وزنا، فما الذی يجبرنا على الميل إليها. (أنوار البيان)

«قال المحققون من أهل العلم: المعتبر فی أحكام العبادات الأشهر القمرية، ولا يتعبر الإسلام بشيء من الأشهر الرومية أو الفارسية أو المصرية».

هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها أنها يكون بالشهور أو السنين تعرفها العرب دون الشهور التی تعتبرها العجم والروم والقبط وإن لم تزد على اثنی عشر شهرا. (القرطبی، والتفسير الماجدی)

فائدة:

الآية 29 من سورة التوبة وما بعدها كانت تحرّض على قتال أهل الكتاب، وبيان حكمه، وكان العرب يعتبرون اليهود والنصارى متدينين، فالآيتان 36 و37 أشارتا إلى وجوه التشابه بين أهل الكتاب والمشركين، وفی جميع الآيات المذكورة إعداد المسلمين لقتال أهل الكتاب، فكأنّها تمهّد الطريق لغزوة تبوک، وتحرض عليها، لذلک أعقبها بغزوة تبوک. (والله أعلم بالصواب)

غزوة تبوك

الخميس .. رجب سنة 9 هـ

آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ وقادها بنفسه، بيّنها من الآية 38 وما بعدها من سورة التوبة، وقبل قراءتها لاحظوا قصتها الملخصة، ليتيسر فهم تفاسيرها، قصة غزوة تبوك طويلة، نستعرض فيما يلى ملخصها.

غزوة تبوك

يوم الخميس رجب سنة 9 هـ

روى الطبرانى عن عمران بن حصين رضى الله عنه أن نصارى العرب كتبوا إلى هرقل، يخبرونه بوفاة رسول الله ، وبهلاك الناس جدبا وجوعا، وأن الفرصة سانحة لمهاجمة العرب، فأمر بالتجهيز، وخرج بجيش قوامه أربعون ألفاً لقتال رسول الله . (مجمع الزوائد 191/2)

كان الأنباط من أهل الشام يقدمون إلى المدينة لبيع الزيت، فأبلغوا أن هرقل عظيم الروم قد خرج بجيش عظيم لمحاربة المسلمين، قد وصلت مقدمتها إلى البلقاء، ودفع هرقل مسبقاً إلى الجنود أرزاقهم لسنة كاملة.

فأمر النبى بالاستعداد للخروج لمواجهة العدو عند حدوده تبوك، كان السفر طويلا، والجو حاراً، والجدب عاما، إلى جانب غلاء الأسعار وعموم الفقر والإمكانيات المادية الضعيفة، وما إن أمر بالخروج فى هذه الظروف الصعبة إلا وقد أُصيب المنافقون الذين يدّعون الإسلام بالهلع والذُعر، وتخوّفوا من عدم مقدرتهم على تغطية نفاقهم، حتى بادروا بقولهم : {لا تنفروا فى الحر} ليتمكنوا من التخلف، وليغوا آخرين.

إلى أن قال قائلهم: لقد علم الناس أنى مغرم بالنساء، وإنى أخشى إن خرجتُ أن أُفتتن بنساء بنى الأصفر. (ابن سيد الناس، عيون الأثر 215/2 ابن هشام، سيرة النبى 170/4).

أماالمخلصون من المؤمنين فاستعدوا للقتال سمعا وطاعة، فأول من جاء منهم أبو بكر، جاء بجميع ما كان يمتلكه، ووضعه بين يدى رسول الله ، وكان أربعة آلاف درهم، (رياض النضرة). فقال النبى : هل خلّفت لأهلك شيئا؟ فقال: الله ورسوله. فجاء عمر وقدّم نصف ما كان يمتلكه، ثم جاء عبد الرحمن بن عوف وقدّم مائتى أوقية فضة، وجاء عاصم بن عدى وقدّم سبعين وسقا من تمر. (الزرقانى، شرح المواهب 64/3).

ثم جاء عثمان مع ثلاثمائة بعير، عليها أوكارها وألف دينار، وقدّمها إلى رسول الله ، ففرح النبى كثيرا، وكان يقلبها بيده ويقول: لن يضر عثمان بعد اليوم عمل، اللهم إنى رضيت عن عثمان، فارض عنه. (الزرقانى، ابن حجر، فتح البارى 44/7)

وقد ساهم أغلب المسلمين بما استطاعوا، لكن لم يكن ما يكفى من الزاد والراحلة لكثير من الناس الذين أرادوا الخروج مع النبى ، وجاء بعض المسلمين، وقالوا: ليس لدينا شىء، فأعطنا يا رسول الله من الزاد والراحلة ما نتقوى على الخروج معك، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه. فعادوا يبكون، فنزل قوله تعالى: {ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلتَ لا أجد ما أحملكم عليه، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حَزَنا ألاَّ يجدوا ما ينفقون} (التوبة 92).

وعاد عبد الله بن مغفل، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب باكيا من عند رسول الله ، فلقيهما يامين بن عمرو النضرى فى الطريق، فقال لهما: لمَ تبكيان؟ فقالا: لا يجد رسول الله ما يحملنا عليه،

وليس لدينا من الزاد والراحلة ما تبلغنا الغزو، فأشفق عليهما يامين بن عمرو النضرى، وابتاع لهما بعيرا وزاداً. (الزرقانى، 66/7)

ولمّا أرادوا الخروج، أمّر محمد بن مسلمة الأنصارى على المدينة، وخلّف عليا بين الأهل والعيال لحمايتهم وتفقد أحوالهم، فقال على: يا رسول الله.. أتخلّفنى بين النساء والأطفال؟ فقال: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبى بعدى. (البخارى، الجامع الصحيح، جص 526، مناقب على، كتاب المناقب)

وباختصار، خرج النبى ་ من المدينة مع جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل، وعشرة آلاف فرس. (ابن سيد الناس، عيون الأثر، 216/2، الزرقانى شرح المواهب 73/3)

المرور على ديار ثمود:

ومرّ فى الطريق على ديار قوم ثمود، الذين عُذّبوا وأُهلكوا، فلما بلغها جعل على وجهه ثوبا، وأسرع ناقته، وأمر أن لا يدخل أحد فى ديارهم، ولا يشرب من مائها ولا يتوضئوا به، فمرّ منها خافضا رأسه باكيا. ومن أخذ الماء منها وعجن به العجين، أمر بإراقته، وإطعام البعير العجين. (البخارى، الجامع الصحيح، 478/1، أخاهم صالحا، قوله تعالى: كذب أصحاب الحجر المرسلين، كتاب الأنبياء، ابن حجر، فتح البارى، 268/6، الزرقانى بالمرجع المذكور)

المساجد الثلاثة فى الأرض، المسجد الحرام والمسجد الأقصى والمسجد النبوى الشريف من الأماكن العامرة بالطاعات والعبادات، وشدّ الرحال إليها، والإقامة فيها، من القربات والطاعات، الموجبة للخير والبركة ونزول الرحمة. أما الدخول فى الأماكن التى كانت مراكز لمعصية الله والكفر به، وأنزل الله عليها عذابه، من الأمور الخطيرة. فكما أن حكم من دخل حرم الله تعالى أنه {ومن دخله كان آمنا} كذلک حكم من دخل أماكن العذاب يُخشى عليه العذاب، أما الكعبة البيت الحرام فلاشک أنها مركز الخير والبركات والأنوار والتجليات، سواء طاف بها أحد أو لم يطف، تبتعد الظلمات والأكدار عن القلوب بالنظر إليها، هواءها شفاء للأمراض النفسية والروحية، وليس من المستبعد أن تكون أجواء موقع العذاب مسمومة فى نظر الأطباء الروحيين، وتضر بالروح والقلب الأجرام الملطخة، لذلک منع النبى ་ من استعمال مياه ديار ثمود، وأمرهم أن لا يأخذوا الماء إلا من البئر التى كانت تشرب منها ناقة صالح، لابتعادها عن المعصية والغضب، شأنه شأن ماء زمزم، لبركته وشفاءه للأمراض الظاهرة والباطنة، لذلک أمر بالإكثار من شرب ماءه. أما الأشقياء الذين عصوا الله ورسوله فغضب الله عليهم وعذبهم وأهلكهم فأولئک كالأنعام بل هم أضل، كما قال تعالى: {أولئک كالأنعام بل هم أضل} (الأعراف 179) لذلک أمر أن يُطعموا العجين الذى عجنوه بماء ديار ثمود البعير، لأنه يناسب طبيعة الماشية، ولا يناسب الطبيعة البشرية. فباختصار.. لمّا مرّ النبى ་ من هذه المنطقة التى نزل عليها العذاب خشى من أن يُصاب المسلمون بسموم العذاب، فوصف علاجا له، وأمر بالمرور منها فى حالة البكاء خاضعى رؤوسهم، مع التضرع والتخشّع، وهما بمثابة الترياق للوقاية من الأجواء المسمومة، لأنه لا بأس بالمرور من الحى المطعون بعد التطعيم ضد الطاعون أو إعطاء حقنة ضده.

فاعلموا إخوانى وأصدقائى.. إن الندم على المعاصى والبكاء والتوبة من أقوى التطعيمات التى تقضى على كافة أنواع الفساد والسموم عند الله. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. قال تعالى: {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار}. {وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم}.

وبعدما وصل النبى ﷺ إلى حجر أمرهم أن لا يخرجوا إلا فى جماعة، فخرج شخص منفردا، فشعر بالاختناق، فرقاه النبى ﷺ حتى شَفُى، وخرج آخر فحمتله الرياح إلى جبال طى، فلم يبلغ المدينة إلا بعد مدة، رواهما البيهقى وابن إسحاق. أما حديث مسلم فيشير إلى أن القصة وقعت فى تبوك، وللجمع بينهما نقول: لا يستبعد أن تكون قصتان، أو أنها من وهم الراوى فى رواية البيهقى وابن إسحاق. والله أعلم

ثم ساروا منها حتى نزلوا بموضع، فما وجدوا الماء، فأنزل الله تعالى الماء بعدما دعا النبى ﷺ وسقاهم، ثم ساروا ففقدوا ناقته، فقال منافق: تُخبرنا عن أخبار السماء ولا تخبرنا عن ناقتك؟ فقال النبى: والله لا أدرى شيئا إلا ما يُنزّل علىّ، وقد أوحى أنها الآن فى الوادى الفلانى، وأن زمامها معلق بشجر، فهى الآن متوقفة عنده، فذهب المسلمون وجاءوا بها. (رواه البيهقى، وأبو نعيم، والزرقانى، شرح المواهب 73/3).

وقبل الوصول إلى تبوك قال النبى ﷺ لهم: إنكم ستأتون غدا إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان فتكون مثل الشراك تبض بشىء من ماء قال فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم هل مسستما من مائها شيئا قالا نعم فسبهما النبى صلى الله عليه وسلم وقال لهما ما شاء الله أن يقول قال ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلا قليلا حتى اجتمع فى شىء قال وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو قال غزير شك أبو على أيهما قال حتى استسقى الناس ثم قال يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانا. (رواه مسلم) وفى رواية ابن إسحاق أن الماء لا يزال يفور منه، يسمع صوته من بعيد.

فلما بلغ النبى ﷺ تبوك، أقام بها عشرين يوما، فلم يخرج أحد للقاءه، لكن خروجه لم يذهب هدرا، فقد أُرعب العدو، واستسلمت القبائل المجاورة، وحضر إليه حكام جربة وأذرح وأيلة، وصالحوه على الجزية، فكتب لهم كتاب العهد، وأعطاهم إياه. (السيوطى، الخصائص الكبرى، 273/1).

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد من تبوك إلى أكيدر دومة آذانه من كندة نصرانى كان عليها وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد إنك ستجده يصيد البقر فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر فى ليلة مقمرة وهو على سطح له فبانت بقر الوحش تحك قرونها بباب القصر فقالت له امرأته هل رأيت مثل هذا قط؟ قال لا والله فنزل فأمر بفرسه فأسرج له فركب وركب معه نفرٌ من أهل بيته فيهم أخٌ له يقال له حسان وخرجوا معهم فتلقتهم خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذته وقتلوا أخاه وعليه قباء ديباج مخوصٌ بالذهب وهو الذى قال فيه رسول لله صلى الله عليه وسلم لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن منه فحقن رسول الله صلى

الله عليه وسلم دم أكيدر بن عبد الملک وصالحه على الجزية. (ابن سيد الناس، عيون الأثر، 22/2، الزرقانى، شرح المواهب 77/3).

مسجد الضرار:

وبعد عشرين يوما قفل النبى ٠ عائدا إلى المدينة المنورة حتى بلغ ذى آوان، موضع على بعد ساعة من المدينة، فبعث مالک بن دخشم ومعن بن عدى لهدم مسجد الضرار وإحراقه، هذا المسجد بناه المنافقون ليتشاوروا فيه خلاف رسول الله ٠، وكانوا قد جاءوا إلى النبى ٠ لمّا كان متوجها إلى تبوک، وقالوا: لقد بنينا مسجدا للمرضى والمعاقين، فصل فيه صلاة ليقبله الله ويبارک فيه، فقال: لا حتى أرجع من تبوک، فلما رجع أمر الرجلين بإحراقه، وفيه نزل قوله تعالى: {والذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفراً وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وليحلفُنّ إن أردنا إلا الحسنى، واللهُ يشهد إنهم لكاذبون، لا تقم فيه أبداً، لمسجد أُسّس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين}. (التوبة 107-108)

وفى رواية ابن هشام أن النبى ٠ أمر بإحراق دار سويلم اليهودى الذى كان يجتمع فيه المنافقون للتشاور ضد النبى ٠، فتوجه طلحة إليها مع رجال، ثم أحرقها. فلما بلغ النبى ٠ المدينة استقبله المشتاقون إلى جمال النبوة وقمرها وشمسها، حتى خرجت النسوة المتحجبات من حرمهن، تردد البنات والأطفال:

طلــــع البدر علينا   من ثنيات الــوداع
وجب الشكر علينا   ما دعــــــا لله داع
أيها المبعوث فينـا   جئت بالأمر المطاع

فلما بدت له منازل المدينة، قال: هذه طابة، ثم لمّا بدا له أُحد قال: هذا جبل يحبنا ونحبه.

ثم دخل المدينة فى آخر شعبان أو بداية رمضان، وابتدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس يستقبل الناس، ثم توجه إلى داره ليستريح. (الزرقانى، شرح المواهب 71/3).

وكانت هذه آخر غزوة غزاها النبى ٠ بنفسه.

المتخلفون عن غزوة تبوک:

لمّا توجّه النبى ٠ إلى تبوک، خرج معه المؤمنون الصادقون، وتخلف عنه نفر من المنافقين، وبعض الصادقين من المؤمنين تخلفوا لعذر أو حَرّ، حسب المقتضيات البشرية.

أما أبو ذر الغفارى رضى الله عنه فكان له بعير هزيل، فظن أنه إن علفه قوى، فخرج عليه، فصبر أياما، لكنه لم يتقوى، فأخذ متاعه على ظهره، وخرج وحيدا يمشى على قدميه، حتى بلغ تبوک. فلما رآه النبى ٠ قال: رحم الله أبا ذر، يأتى وحيدا، ويموت وحيدا، ويُحشر وحيدا، فكان كما قال. مات بربذة وحيدا، لم يكن عنده أحد يكفّنه ويجهّزه، وكان عبد الله بن مسعود عائداً من الكوفة، فكفّنه وصلّى عليه ودفنه. (الزرقانى، المرجع المذكور)

وفى المعجم للطبرانى عن أبى خيثمة أن النبى ٠ توجه إلى تبوك، وبقيت بالمدينة، وكان الحر شديداً، ويوما رشّ أهل بيتى الماء على العريش، ووضعوا الطعام والماء البارد بين يدى، فلما رأيته خطر بقلبى أنه ظلم، نبى الله ٠ فى الحر الشديد، وأنا أستظل بالظل ورغد العيش، فنهضت وأخذت بعض التمور، وركبتُ البعير وسرتُ سريعا، حتى بدا لى الجيش، فلما رآنى النبى ٠ قال: هذا أبو خيثمة يأتى، ثم جئته وبيّنتُ له القصة، فدعا لى بالخير. (ابن حجر، فتح البارى 88/8، الزرقانى شرح المداهب 71/3)

وكان ممن تخلف عن رسول الله ٠ يوم تبوك من المؤمنين الصادقين : كعب بن مالك، ومراره بن الربيه، وهلال بن أمية.

ففى صحيح البخارى عن كعب بن مالك رضى الله عنه أنه قال: وتجهّز رسول الله ٠ والمسلمون معه فطفقت أغدو لكى أتجهّز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا فأقول فى نفسى وأنا قادر عليه فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ٠ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم. فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز فرجعت ولم أقض شيئا. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت، فلم يقدَّر لى ذلك، فكنتُ إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ٠ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء.

وفى مغازى ابن عائذ أن كعب بن مالك رضى الله عنه قال:

فلما قيل إن رسول الله ٠ قد أظلّ قادما زاح عنى الباطل وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشىء فيه كذب، فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله ٠ قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ٠ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم، ووكّل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلّمت عليه تبسم تبسم المُغضَب ثم قال: تعال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى: ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت بلى أنى – والله – لو جلست عند غيرک من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيت جدلا، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علىَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليه فيه أنى لأرجو فيه عفو الله.

لا والله ما كان لى من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ٠: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك. وجاء هلال بن أمية ومرارة بن الربيع العمروى، وقالا مثل ما قال كعب، فقال لهما النبى ٠ مثل ما قال لكعب.

ونهى رسول الله ٠ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفسى الأرض، فما هى التى أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج

فأشهد الصلاة مع المسلمين، وكنتُ أتفكر فى أن النبى ° والمسلمون لا يصلون علىّ صلاة الميت إن حضرنى الموت فى هذه المدة.

فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله : قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته:

يا كعب بن مالك ... أبشر..

قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء فرج.

وآذن رسول الله ° بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننّا وذهب قبل صاحبىّ وركض إلىّ رجل فرسا وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما.

وانطلقت إلى رسول الله ° فيتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئونى بالتوبة يقولون: لتهنئك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله ° جالس حوله الناس، فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنّأنى. والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ° قال رسول الله ° وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك. قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من الله؟ قال: لا بل من عند الله.

وكان اليوم الذى أسلم فيه كعب من أفضل الأيام، لكن هذا اليوم كان أفضل منه، لأن فيه قُبلت توبته عند الله، وطبع الله على إيمانه وإخلاصه، ونزلت هذه الآيات:

{لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسر من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم، إنه بهم رءوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} (التوبة 117 إلى 119).

فلما جلستُ بين يديه قلتُ: يا رسول الله.. إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله. قال رسول الله °: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر، فقلت يا رسول الله .. إن الله إنما نجّانى بالصدق، وإن من توبتى أن لا أحدّث إلا صدقا ما بقيت.

{سورة التوبة مدنية، الآيات : 38}

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض اَرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل}.

ملخص معانى الآية:

فيها تنبيه على التهاون فى الجهاد... الأمراض التى تمنع من الجهاد.. وعلاجها

تنبيه:

فيها خطاب للمؤمنين، وتنبيه على التهاون فى الجهاد، فقال: يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل.

الأمراض التى تمنع من الجهاد:

أرضيتم بالحياة الدنيا وملذاتها الزائلة من الآخرة. (دلّ على أن الأمراض المانعة من الجهاد حب الدنيا، يبتعد عن الجهاد كل من ينسى الآخرة ويعتبر الدنيا أهم من الجميع).

علاج المرض:

عباد الله.. ما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل، وهل من المعقول الاهتمام بلذات الدنيا الفانية والتغافل عن نعيم الآخرة الباقية؟ هذه تجارة خاسرة، ما نسبة لذات الدنيا أمام لذات الآخرة إلا كقطرة ماء فى بحر.

وعلاج المرض أن تجعلوا الآخرة غاية حياتكم، وقدّموا فكر الآخرة على فكر الدنيا، والحاصل أن الآية أشارت إلى ثلاثة أمور: (1) الجريمة: التباطؤ فى الخروج للجهاد جريمة (2) سبب الجريمة: مرض حب الدنيا (3) علاج المرض: فكر الآخرة.

المناسبة بين الآيات:

(1) كان الغرض من الآيات السابقة التوجيه إلى قتال أهل الكتاب، والآن يذكر الغزوة التى قاتل فيها أهل الكتاب. (التفسير الفرقان)

(2) فى هذه الآية (رقمها 38) تحريض المؤمنين على غزوة تبوك، فى الركوع الأسبق من هذا الركوع الذى قال فيه: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر..} وفيها تحريض على قتال

أهل الكتاب، أما الآيات البينية ذات الموضوعات الفرعية فقد سبقت الإشارة إلى مناسباتها، كأن جميعها تمهّد الطريق للركوع الحالى، وهو تمهيد لغزوة تبوك. (التفسير الحقانى)

(3) المروى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى غزوة تبوك. (التفسير الكبير)

(4) فى الآيات السابقة ذكر عيوب الكفار وجرائمهم، والآن يحرّض على قتالهم.

اعلم أنه تعالى لمّا شرع معايب هؤلاء الكفار وفضائحهم عاد إلى الترغيب فى مقاتلتهم. (التفسير الكبير)

ثم أشار إلى النكتة المهمة التالية:

وتقرير الكلام أنه تعالى ذكر فى الآيات السابقة أسبابا كثيرة موجبة لقتالهم الخ.

كما ذكر الفوائد التى تحصل من القتال .. {يعذبهم بأيديكم ويُخزهم وينصركم} ثم ذكر أقوالهم الباطلة وسلوكياتهم السيئة، وعند توفر كل هذه لا شىء يمنع المؤمن من القتال إلا الخوف من القتل والموت، وترجيح الحياة الدنيا على الآخرة، ففى هذه الآية أكّد الله تعالى على أنه ليس بسبب معقول، لأن سعادة الدنيا مقارنة بسعادة الآخرة كمقارنة قطرة ماء ببحر، ومن الجهل والغباء المحرومية عن هذه السعادة العظيمة فراراً من ألم حقير.

تحريض شديد على الجهاد:

فى الآية الحاضرة تحريض شديد للمؤمنين على القتال، وأشار إلى أن الرضا بالحياة اليسيرة والتخلى عن الجهاد بمثابة الهبوط من العلو إلى السفل، فملذات لا قيمة لها فى نظر المؤمن مقارنة بملذات الآخرة، وجاء فى الحديث أن الدنيا لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة لما أعطى الكافر منها شُربة. (التفسير العثمانى)

سر حياة المسلمين فى الجهاد:

«لقد قررت جماعة من النصارى القضاء على المسلمين، وما للمسلمين إذا قيل لهم انفروا فى سبيل الله دفاعا عن مركز الإسلام اثّاقلوا إلى الأرض، مع علمهم بأن سر حياة المسلمين فى الجهاد ... {استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم} أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما الحياة الدنيا من الآخرة إلا متاع الغرور.

وفى الحديث: ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع وأشار بالسبابة. (التفسير الفرقان)

ماساة الفكر المنير:

«إن ثواب الآخرة أغلى ما يدعو الأمة ويبعثها على العمل، كما ظهر ذلک بكثير من آيات القرآن، وللأسف الشديد فإن أصحاب الأفكار المنيرة جعلوا الباعث الأقوى والسبب الأقوى أضعف ما يمكن، وباتوا يطمعون على جميع الأشياء، من التطور المادى والحرية الشخصية والفلاح والسعادة المالية، إلا ثواب الآخرة الذى يتحاشون عن ذكره. (التفسير الماجدى)

{اثّاقلتم إلى الأرض} المراد الذى ذكرناه فى الخلاصة، لاحظوا تأييده فى عبارة المدارك التالية:

أى ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه أو ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم. (المدارک)

غزوة تبوک وستة أصناف من الناس:

توصل صاحب بيان القرآن بعد التحقيق إلى أنه لمّا أُذن بالخروج لغزوة تبوک انقسم الناس على ستة أصناف:

(1) الذين استعدوا على الفور، بدون أى تردد.

(2) الذين ترددوا فى بادى الأمر، ثم أصلحوا وخرجوا.

هذان الصنفان ذكرهما الله تعالى فى قوله: {الذين اتبعوه فى ساعة العسر من بعدما ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم} (التوبة 117).

(3) الذين منعهم عذر حقيقى، فتخلفوا. ذكرهم الله تعالى فى قوله: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى} التوبة 91).

(4) الذين تخلفوا عنها تكاسلا وليس نفاقا، واعترفوا بذنوبهم بعد العودة، ذكرهم الله فى الآيات التالية:

{وآخرون اعترفوا بذنوبهم} الآية (التوبة 102)

{وآخرون مُرجَون لأمر الله} الآية (التوبة 106)

{وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا} الآية (التوبة 118)

(5) المنافقون الذين عجزوا عن إخفاء نفاقهم فى ساعة العسرة، ولم يشاركوا فى الغزو، نزلت بشأنهم آيات كثيرة.

(6) المنافقون الذين شهدوا الغزو للتجسس والفساد بين الناس، نزلت بشأنهم آيات كثيرة، منها:

{وفيكم سمّاعون} الآية (التوبة 47) (فى أحد الأقوال التفسيرية)

{ولئن سألتَهم ليَقولنّ} الآية (التوبة 65)

{وهَمُّوا بما لم ينالوا} الآية (التوبة 74)

وقال بعدما ذكر الأقسام المذكورة : الآية 38 مرتبطة بالصنف الرابع، الذين تخلفوا عن الغزو تكاسلا. (مفهوم بيان القرآن)

والمعنى أن الآية ومفهومها عام، لكن مخاطبيها الأوائل هم أولئک الذين تخلفوا عن غزوة تبوک تكاسلا، وعلى العموم انتهج القرآن نهجا مختلفا، وهو توجيه الدعوة بلفظ قوى، ليتصلب العاملون، وليُصلح الكُسالى أحوالهم. (والله أعلم بالصواب)

ثم كتب بعدما دفع التحقيق المذكور إلى الأمام:

الآيات التى سبق ذكرها (الآية 38 وما بعدها من سورة التوبة) مرتبطة بأولئك الذين تخلفوا عن غزوة تبوک تکاسلا وتهاونا بعد عذر شرعی، وقد نبههم على ما فعلوا فى الآية الأولى، ثم أشار إلى سبب المرض وعلاجه، ومن خلال ما ذكر اتضح أن خصوص الآية بقصة لا يمنع عموم مفهومها، وقد توصلنا إلى أن التهاون والتكاسل فى أمور الدين وحب الدنيا أم الأمراض ورأس الخطايا والذنوب، حيث قال النبی :

«حب الدنيا رأس كل خطيئة».

وبعد تحديد المرض أشار إلى علاجه، فقال: {فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل}.

وملخصها أن هَمَّ الآخرة ينبغى أن يكون الهمّ الأكبر، وهو العلاج الأوحد والأهم والأكمل لجميع الأمراض، والوصفة المتميزة للقضاء على الجريمة. تتبنّى عقائد الإسلام على ثلاثة أصول: التوحيد، والرسالة والآخرة... فعقيدة الآخرة روح إصلاح العمل وحاجز حديدى دون الذنوب والمعاصى والجريمة. (معارف القرآن)

مسألة شرعية:

ومن هذه الآية استنبط الفقهاء مسألة مهمة، وهى وجوب النفير على الجميع عند الاستنفار.

«اقتضى ظاهر الآية وجوب النفير على من لم يستنفر».(جصاص) (التفسير الماجدى)

إهداء إلى طلبة العلم الخاص:

لقد كتب الإمام الرازى عبارة مفعمة بالحماس بشأن الآية، يُرجى مراجعة التفسير الكبير للاطلاع عليها، كما أنه كتب بشأنها:

«اعلم أن هذه الآية تدل على وجوب الجهاد فى كل حال». (التفسير الكبير)

والمعنى أن وجوب الجهاد لا يقتصر على وقت هجوم العدو، بل يبقى فرضاً على الكفاية فى الأحوال كلها، أما عند مهاجمة المشركين فيصير فرضاً على الأعيان، والقرطبى كتب تفاصيلها مبرهنة فى كتابه. ثم إن المسلمين فى غزوة تبوک لم يتعرضوا لأى هجوم على يدى العدو، بل خرجوا بأنفسهم لمحاربة العدو، إنما بلغهم عن استعداد الروم والشاميين لمهاجمة المسلمين، فخرجوا إليهم، وفيها درس عظيم للمسلمين. (والله أعلم بالصواب)

لم يورّى النبى فى غزوة تبوک:

قال النسفى:

وقيل: ما خرج رسول الله فى غزوة إلا ورّى عنها بغيرها إلا غزوة تبوک ليستعد الناس تمام العدّة. (المدارک)

ومثله ما قال المظهرى بلفظه:

قال البغوى: لمّا رجع النبى من الطائف أمر بالاستعداد لقتال الروم، وقال محمد بن يوسف الصالحى: كان عام شدة وعسر وحر لمّا أراد النبى محاربة الروم، والأرض يابسة، وقد حان وقت

الحصاد، فالثمار نضجت، وكان الناس يحبون البقاء بالمدينة لتعهد الثمار والاستظلال بالظل، وقد ثقُل عليهم الخروج، وكان النبى ˚ إذا أراد سفرا ورّى بغيره، وأشار إليه بالكناية، إلا فى غزوة تبوک، فإنه صرّح فيها عن وجهه، لأنه استقبل سفرا طويلا، وعدواً كثيرا، لذلک صرّح باسم الجهة التى يريدها ليتأهب الناس أهبة الغزو. هذا كما ذكره كعب بن مالک فيما أخرجه عنه ابن أبى شيبة والبخارى وابن سعد، بزيادة يسيرة، وهى أن النبى ˚ طلب المشاركة فى الغزو من قبائل العرب القاطنة بالقرب من المدينة، كما أرسل إلى أهل مكة، فكثر الناس وزاد عددهم.

فائدة:

التورية «تدبير عسكرى حربى» مهم جدا، وليس فيها شىء من الكذب، أما عن وجه إيراد الحديث هنا فللتعريف بأهمية الجهاد، فلو عرفوا كيف استعد النبى ˚، وأدركوا مدى اهتمام الرسول ˚ بالتدابير العسكرية، وأنه كان قائدا عسكرياً فذاً، متضلعاً بفنون الحرب. فينبغى لأمته أن يتحلوا بتلک الصفات، ويولوا الجهاد وما يتعلق به اهتماما خاصا. (والله أعلم بالصواب)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 39}

بسم الله الرحمن الرحيم

{اِلاَّ تنفروا يُعذبكم عذابا أليما، ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا، والله على كل شىء قدير}.

ملخص معانى الآيۃ:

فيها وعيد شديد وتحذير قوى إلى كل من يتهاون فى أمر الجهاد ويتكاسل فيه... لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرۃ، ويستبدل بهم قوما غيرهم يجاهدون فى سبيل الله، فينصرهم الله وينصر نبيه ويُهلک أعداءه، وهو غنى عن العالمين، ليس بحاجۃ إليكم، يفعل ما ذكر بدون مساعدتكم، لذلک لا يتخلف أحد عن الجهاد إلا أضرّ بنفسه، ولا يضر الله شيئا.

وعيد شديد:

قال القرطبى:

هذا تهديد شديد ووعيد مؤكّد فى ترک النفير..

ثم قال:

فوجب بمقتضاها النفير للجهاد والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمۃ الله هى العليا. (القرطبى)

وبالآيتين المذكورتين ثبت وجوب الجهاد.

قال الإمام الرازى:

قال القاضى: هذه الآيۃ دلت على وجوب الجهاد سواء كان مع الرسول أو لا معه، لأنه تعالى قال: {يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا} ولم ينص على أن ذلک القائل هو الرسول، فإن قالوا: يجب أن يكون المراد هو الرسول، لقوله تعالى: {ويستبدل قوما غيركم} ولقوله {ولا تضروه شيئا} إذ لا يمكن أن يكون المراد بذلک إلا الرسول. قلنا: خصوص آخر الآيۃ لا يمنع عموم أولها. (التفسير الكبير)

وقال النسفى:

سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيرا منهم، وأطوع، وأنه غنى عنهم فى نصرۃ دينه لا يقدح تثاقلهم فيها شيئا. (المدارک نقلاً عن الكشّاف)

وفى التفسير الفرقان:

إن تخلفتم عن الجهاد فلا تزعموا أن ذلک يمنع المسلمين عن التقدم، لن يحدث هذا، لكن الذى يترتب عليه أنكم تُعذّبون فى الدنيا والآخرة عذابا أليما، فماضى الأمم السابقة بين يديكم، ما من أمة وضعت السيف إلا وخذلت وندمت. (التفسير الفرقان)

وقال ابن كثير:

ثم توعّد تعالى من ترک الجهاد فقال: {إلاّ تنفروا يعذبكم عذابا أليما}.

وقال ابن عباس: أمر النبى ﷺ قوما من العِرب بالخروج فى سبيل الله، فتثاقلوا، فمنع الله عنهم المطر. (وأُجدبوا) .. فكان عذابا لهم. {ويستبدل قوما غيركم} أى لنصرة نبيه وإقامة دينه. {ولا تضروه شيئا} أى ولا تضروا الله شيئا بتوليكم عن الجهاد ونكولكم وتثاقلكم عنه. {والله على كل شىء قدير} أى قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم. (تفسير ابن كثير)

من القوم الثانى؟

قال الله تعالى : {ويستبدل قوما غيركم} من هؤلاء؟ فيه أقوال:

(1) ليس قوم بعينه، بل المقصود أنه سبحانه يستبدل بكم قوما غيركم إن تركتم الجهاد، فهم يجاهدون ويطيعونه.

وهذا أقوى الأقوال.

(2) هم أهل اليمن.

(3) هم أهل فارس.

(4) هم التابعون.

وقال الإمام أبو حيّان:

والمستبدل الموعود بهم قال: جماعة أهل اليمن، وقال ابن جبير: أبناء فارس. وقال ابن عباس: هم التابعون، والظاهر مستغن عن التخصيص. (البحر المحيط)

{عذابا أليماً} إن تهاونتم فى الجهاد، عُذّبتم عذابا أليما. وفيه أقوال لأهل العلم، قال الآلوسى: بالإهلاک بسبب فظيع لقحط وظهور عدو. (روح المعانى)

وخلاصة الأقوال كلها أن بقاءكم فى الجهاد، وفى تركه هلاككم وظهور عدوكم عليكم ومذلتكم. أعاذنا الله منها. (والله أعلم بالصواب)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 40}

بسم الله الرحمن الرحيم

{اِلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين هما فى الغار إذ يقــول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السُّفلى وكلمة الله هى العليا. والله عزيز حكيم}.

ملخص معانى الآية:

إن خذلتم الرسول وما نصرتموه، لن يضر الله ولا رسوله ولا دينه شيئا، لاحظوا أن الله نصر رسوله لمّا أخرجه الذين كفروا من مكة، فتوجه نحو الغار، كان خروجه أولاً وسط الأعداء، ثم بلوغه إلى الغار مع السلامة والعافية، ثم حمايته من الأعداء لمّا بلغوا إلى الغار، وإعادة من خرج فى طلبه دون أن يتحقق لهم نجاح، ثم إخراجه من الغار دون أن يصيبه أذى بأيدى من أرادوا ملاحقته، ثم توجهه نحو المدينة بالعافية والسلامة، كل ذلك كان بنصر الله وتأييده.

ثم لمّا وصل الأعداء الذين خرجوا فى طلبه إلى الغار، ورأى أبو بكر أقدامهم، قلق من أن يصيبوه بأذى، فقال له: لا تحزن إن الله معنا، وقال: ما ترى فى اثنين ثالثهما الله؟ أى إن الله معنا، فلا تحزن. وأنزل الله سكينة خاصة على قلب رسول الله ، وببركته على قلب أبى بكر، يحرسهما جند الملائكة وينصرونهما، وهكذا جعل الله كلمة الذين كفروا هى السفلى، وقضى على ما دبّروا لقتله. (ونجاح الهجرة كانت بداية مذلة المشركين وإهانتهم وهزيمتهم) ثم توجه النبى إلى المدينة بعدما أقام ثلاثة أيام فى الغار، ولاشك أن كلمة الله هى تعلو فى مآل الأمر، وهو عزيز غالب على أمره، حكيم لا يخلو شىء عن الحكمة. (تلخيص من العثمانى وأنوار البيان)

الأقوال والمراجع

نموذج النصر:

لقد شاهدتم جانباً من نصر الله، إذ لم يكن فى الغار مع الرسول أحد سوى أبا بكر، ثم أنجاهما الله من محاصرة الأعداء. (حاشية اللاهورى)

التذكير بقصة الهجرة بمناسبة غزوة تبوك:

وقعت غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة، وهنا يُذكّرهم الله تعالى بقصة وقعت قبل تسعة أعوام، ويحثّهم على الجهاد بأسلوب جديد. إن كان السفر إلى تبوك طويلا وشاقا فقد كان مثله يوم

الهجرة ومحفوفا بالمخاطر، لم يكن معهما أحد، لم يتحقق لكم الإيمان والدخول فى دين الله إلا بفضل هذا السفر، فلماذا تقلقون من طول سفر تبوک؟

أما العدو يوم تبوک فقد کان شديد البأس، جحافل الروم ومُلکُهم، أقوى الدول فى ذلک العصر، تذّکروا قصة الهجرة، کانا رجلين فقط، وفى مقابلتهما مکة مع رجالها وجيوشها والقبائل العربية المتحالفة معهم، لکن الله أنقذها ووقاهما، وأظهرهما عليهم، ولهما السلطان والحکم اليوم فى مکة. يا من لا يرى إلا ما ظهرت من القوى، تذکروا الهجرة... وثانيا: عند نهاية القتال يدّعى الجانبان النصر والفتح لنفسه، حتى من عانى من الهزيمة وتجرّع کأس المذلة يطمّن نفسه بانتصارات وهمية، لکن قصة الهجرة تمتاز عن غيرها لوضوح النصر لدين الله، فهو سبحانه وتعالى موجود غالب على أمره، وينصره رسوله والمؤمنين. فکل هذه لاحظتموها من خلال قصة الهجرة أن الرسول ﷺ بلغ إلى المدينة رغم تدابيرهم لقتله، وبإمکان الجميع أن يلاحظوا أن الرسول ﷺ متواجد فى المدينة، فأخبرونا من أبلغه إليها؟ ومن ذهب به إلى غار ثور رغم الحصار الشديد الذى فُرض على داره؟ والعدو وصل إلى الغار، فمن أعمى بصره عن الرسول؟ حتى إنه لو نظر ما تحت قدمه لرأى النبى وصاحبه. وکيف فقد أهل القيافة وعيهم حتى عجزوا عن التوصل إليه؟ فباختصار إن قصة الهجرة تدعو وتنادى بأعلى الأصوات أن الله حى قائم وموجود، وغالب على أمره، وناصر المؤمنين. فالغرض من التعرض لقصة الهجرة فى ثنايا غزوة تبوک ليس إلاّ إحياء ذلک اليقين فى القلوب، حتى تنکشف الهموم والغموم عن قلوب المؤمنين، وليتذکروا تلک التضحية التى قدّمها الحبيب المصطفى ﷺ عشية الهجرة، ليکتسبوا علماً ودرسا منها أن النبى ﷺ هاجر وسافر فانتشر الدين، کذلک أنتم سافروا لأجل الجهاد لينتشر الدين، وتعلو کلمة الله.

ففى التذکير بقصة الهجرة فى غزوة تبوک العسيرة فوائد جمّة، اکتسب بها المسلمون قوة وطراوة فى إيمانهم ومشاعرهم، ولا يمکن إدراک أبعاد القصة إلا باستيعابها تماما من مظانّها فى کتب السيرة المعتمدة، حيث تنکشف کثير من الحِکَم لذکرها فى تبوک. (والله أعلم بالصواب)

جاهدوا فى سبيل الله أيها المسلمون..

قال صاحب التفسير الفرقان تحت فوائد الآية الکرية:

لا شک أن کلمة الله تعلو، لکن الأولى للمسلمين أن يصبحوا ساعد العمل الإلهى ليرفعوا کلمته، وبإمکانه أن يسخّر الملائکة لتأدية هذه الخدمة، وسوف تُدمرون إن لم تتخذوه غاية حياتکم. (التفسير الفرقان)

فيها تحريض على الجهاد:

قال الإمام الرازى رحمه الله:

اعلم أن هذا ذکر طريق آخر فى ترغيبهم فى الجهاد.

لاشک أن هذه الآية من جميع جوانبها تنهض بالأمة إلى الجهاد، من حيث اليقين بنصر الله، ومنزلة التضحية للدين، وثواب المساعدة فى ساعة العسر وغيرها..

جانب من فوائدها ونكاتها:

لقد أسهب أهل العلم فی الكتابة بشأن هذه الآیة، حیث یتكوّن كتاب مستقل إن حشدنا ما كتبه بعض أهل العلم، من قصة الهجرة، ومناقب أبی بكر الصدیق، ومعارف ورموز {ثانی اثنین} والفرق بین {لا تحزن} ولا تخف، وملاحقة قویة للروافض، وأقوال أهل العلم فی {بجنود لم تروها} وشرح حافل بالإیمان لكلمة {إن الله معنا}.

بالإضافة إلی كتب التفسیر فإن كتب السیرة أیضاً سلّطت الأضواء الكثیفة علی هذه الآیة، فقد كتب العلامة الشیخ محمد إدریس الكاندهلوی رحمه الله 13 صفحة فی كتابه «سیرة المصطفی ﷺ» المجلد الأول. وعلی الراغبین مراجعته. ونشیر هنا إلی بعض أهم النكات نظراً إلی ضیق المقام.

النص القطعی علی صحبة أبی بكر الصدیق:

قال العلامة النسفی رحمه الله:

من أنكر صحبة أبی بكر فقد كفر، لإنكاره كلام الله، ولیس ذلک لسائر الصحابة. (المدارک)

وقال صاحب التفسیر الماجدی:

ومما كتب أهل العلم فی هذا الموضع أن من أنكر صحبة أبی بكر فقد أنكر القرآن، واستلزم ذلک الكفر، هذا الشیء لم یحصل لغیره من الصحابة. (التفسیر الماجدی)

أبو بكر كان سبّاقا إلی الهجرة وغزوة تبوک:

روی عن علی والحسن البصری وسفیان بن عیینة أن الله عاتب العالم كله فی هذه الآیة لعدم نصر رسوله ﷺ إلا أبا بكر، فإنه لم یكتف باستثنائه منه، بل امتدح مصاحبته ومرافقته فی ساعة العسر والحرج. (مفهوم سیرة المصطفی)

فیها دلیل علی أن أبا بكر خلیفة بلا فصل:

قال الإمام القرطبی رحمه الله:

قال بعض العلماء: فی قوله تعالی {ثانی اثنین إذ هما فی الغار} ما یدل علی أن الخلیفة بعد النبی ﷺ أبو بكر الصدیق رضی الله عنه، لأن الخلیفة لا یكون أبداً إلا ثانیاً. (القرطبی)

حزن الصدیق وغمه:

قال صاحب معالم التنزیل: لم یكن ما أصیب أبو بكر من حزن وغمّ لجُبنه وخوفه علی نفسه، إنما كان یتخوّف علی رسول الله ﷺ ویتفكر فیه، فقد قال: «إن أُقتَل فأنا رجل واحد، وإن قُتلتَ هلكت الأمة». وفی (الدر المنثور 241/2) : قبل الوصول إلی غار ثور كان أبو بكر قد یتقدم علی رسول الله ﷺ، وقد یتخلف عنه، وعن یمینه ویساره، خشیة أن یصیبه أذی من المشركین، وأن یكون هو أول ضحایا اعتداء المشركین. زد علیه أن أهل السیر كتبوا أن أبا بكر كان یحمل رسول الله ﷺ علی

ظهره ويمشى على رؤوس أصابعه، خشية أن يعرفه أهل القيافة من المشركين، حتى أدمت أصابعه». (أنوار البيان)

غار ثور:

غار ثور كائن فى ضواحى مكة المكرمة، بجنوب شرقها، أقام ﷺ فيه لثلاثة أيام، ولم يكن موقعه على طريق المدينة، بل كان مائلا إلى الجنوب، ولمّا توجه النبى ﷺ إلى المدينة بدّل الطريق، فلفّ ودار كى لا يدركه الباحثون، وفوّهة الغار ضيّقة لا يمكن الدخول فيه إلا مفترشا على الأرض. وقد ذكر الشيخ رشيد رضا المصرى فى «التفسير المنار» التفاصيل بشأن مساحة الغار وقدره نقلاً عن رفعت باشا أمير الحج (عام 1381هـ) وأشار إلى ضيق الفوّهة بصراحة. (التفسير الماجدى)

{سورة التوبة مدنية، الآيات : 41}

بسم الله الرحمن الرحيم

{اِنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلک خير لكم إن كنتم تعلمون}.

ملخص معانى الآيۂ:

اخرجوا للجهاد إذا استُنفر له، سواء كنتم فى حالۂ اليسر أو العسر، اُخرجوا فى الأحوال كلها، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون.

الأقوال ومراجعها

حاجاتكم الشخصيۂ لا تعرقل طريق الجهاد:

الواجب على المسلم الخروج للجهاد كلما سمع الاستنفار، مهما كانت الظروف، ويقدّم ما يملكه من الغالى والنفيس لأجله، فلا يعيق الإفلاس طريقه ولا الثراء، لا الظروف الشخصيۂ ولا الاجتماعيۂ، لا شبابه ولا هرمه، سواء كان رجالا أو ركبانا، وباختصار عليه الاستعداد للجهاد فى جميع الأوقات بغضّ النظر عن مصالحه الشخصيۂ. (التفسير الفرقان)

إن أردتم أن يُكتب لكم شرف نصر الدين المتين، فاخرجوا كلّما سمعتم الاستنفار، قل العتاد أو كثر. (حاشيۂ اللاهورى)

خفافا وثقالا:

وردت كلمتا «خفافا» و «ثقالا» فى الآيۂ، وقد اختلفوا فى المراد منها.

قال الرازى:

{انفروا خفافا وثقالاً} : والمراد انفروا سواء كنتم على الصفۂ التى يخف عليكم الجهاد أو الصفۂ التى يثقل. (التفسير الكبير)

وفى التفسير الماجدى:

خفافا وثقالا كلمتان متقابلتان، وقد وردت لهما تفاسير مختلفۂ ومتنوعۂ، كاليسر والعسر، والشاب العدّاء والهرم البطىء، النافع والمهمل، مع العتاد وبدونه، بطيب خاطر وبدونه.

أى شيبا وشبانا (ابن جرير عن الحسن) أى أغنياء ومساكين (ابن جرير عن قتادۂ) أى مشاغيل وغير مشاغيل (ابن جرير عن الحاكم) أى نشاطا وغير نشاط (ابن جرير عن ابن عباس وقتادۂ).

والغرض منه توجيه الأمر بالجهاد، فى أى حال كان، اخرجوا له، وقد حسم ابن جرير النزاع عقب سرده أقوال أهل العلم بقوله: المراد من الخفاف كل من كان قويا صحيحا شابا موسرا متفرغا، متمتعا باليسر بأى نوع كان. والثقال المراد منه كل من كان عكس ما ذكرنا فى الخفاف من الأحوال والظروف. وقد كتب ابن كثير ما يقاربه، فقال: حتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكره والعسر واليسر. (ابن كثير، وتفسير الماجدى)

وفى التفسير المظهرى:

وردت تفاسير عديدة لكلمة «خفافا وثقالا» :

(1) شبابا كانوا أو شيوخا. (الحسن، الضحاك، مجاهد، قتادة، عكرمة)

(2) سريعا أو بطيئا.

(3) موسرا أو معسرا.

(4) رجالا أو ركبانا. (عطية العوفى)

(5) قل العتاد أو كثر. (ابن عباس)

(6) تمتلكون العقارات أو لا تمتلكونها، والتى يشق عليكم فراقها. (ابن زيد)

(7) متفرغون عن العمل أو مشغولون فيه.

(8) صحيحا أو مريضا. (الهمدانى)

(9) عُزّابا أو متزوجين.

(10) مع الخدم والحشم أو بدونهم. (اليمانى)

(11) أثرياء أو فقراء. (أبو صالح)

(12) قيل: المراد منه الخروج للجهاد فور سماع الاستنفار بدون أى تردّد وتأمل، أو مع التأمّل والاستعداد. روى الزهرى أن سعيد بن المسيّب خرج للجهاد فى سبيل الله و إحدى عينيه تشتكى، وتكاد تضيع، فقيل له: ألستَ مريضاً تشتكى عينك؟ فقال: لقد قال الله تعالى: {انفروا خفافا وثقالا} والتنفير عام، كثّرتُ سواد المسلمين إن عجزتُ عن قتال العدو، أحرس متاعهم. (التفسير المظهرى)

ومثله سرد القرطبى عدة أقوال، لاحظوا فيما يلى نص ما كتبه:

وفيه عشرة أقوال: الأول: يذكر عن ابن عباس فانفروا ثبات أو سرايا متفرقين. الثانى: روى عن ابن عباس أيضاً وقتادة: نشاطا وغير نشاط. الثالث: الخفيف: الغنى والثقيل الفقير، قاله مجاهد. الرابع: الخفيف: الشاب، والثقيل: الشيخ، قاله الحسن. الخامس: مشاغيل وغير مشاغيل، قاله زيد بن على والحكم بن عتيبة. السادس: الثقيل: الذى له عيال، و الخفيف الذى لا عيال له، قاله ابن زيد. الثامن: الخفاف: الرجال، والثقال: الفرسان، قاله الأوزاعى. التاسع: الخفاف: الذين يسبقون إلى الحرب كالطليعة وهو مقدم الجيش، والثقال: الجيش بأسره. العاشر: الخفيف : الشجاع، والثقيل: الجبان. حكاه النقاش، والصحيح فى معنى الآية أن الناس أُمروا جملة، أى انفروا خفت عليكم الحركة أو ثقلت.

فيه من الأقوال ما سبق نقلها عن التفسير المظهرى، مع اختلاف فى بعضها، وهى:

(1) خفافا: سرايا متفرقين، وثقالا: الجيش بأسره.

(2) الخفيف: الشجاع، والثقال: الجبان.

(3) خفافا: أى الطليعة ومقدم الجيش، وثقالا: أى الجيش بأكمله.

وقال القرطبى بعد سرد الأقوال:

والمعنى الصحيح للآية أن فيها أمر الجميع بالخروج للجهاد فى سبيل الله، سواء خفّ عليهم الخروج أو شقّ. (القرطبى)

فائدة:

قال بعض أهل العلم: عموم معنى الآية قد نُسخ، نسخها قوله تعالى: {ليس على الضعفاء ولا على المرضى} وغيره، إلا أن القرطبى وغيره من أهل العلم رفض ذلك، وقالوا: إنها آية محكمة لم ينسخ شيء، وأن علاقتها بحالة الاستنفار العام إذا صار الجهاد فرضاً على الأعيان.

كأن يهاجم العدو على بلد، ويحتلوه، أو استنفار عام من جهة أمير المؤمنين، ويجب على الأمير إرسال جيش لقتال المشركين على الأقل مرة من كل عام.. لاحظوا تفسير القرطبى للتفاصيل.

بعض الحوادث:

لقد استدل بهذه الآية صحابة رسول الله ﷺ بعد وفاته، وفيه دليل على عدم نسخها، وقد حاربوا الأعداء فى الظروف الصعبة استنادا إلى هذه الآية، أشار القرطبى إلى بعض تلك الوقائع فى تفسيره، حيث قال:

والصحيح أنها ليست بمنسوخة، روى عن ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى: {انفروا خفافا وثقالا} قال شبانا وكهولا الخ.

ثم خرج أبو طلحة نحو الشام، وجاهد فى سبيل الله حتى آخر لحظة من حياته. وروى عن أنس أن أبا طلحة تلا سورة التوبة حتى وصل إلى قوله تعالى: {انفروا خفافا وثقالا} فقال: يا أبنائى! أعدّوا جهازى للغزو، أعدّوا جهازى للغزو، فقالوا: رحمك الله، ألم تجاهد مع رسول الله ﷺ حتى فارق الدنيا، ثم جاهدت مع أبى بكر حتى فارق الدنيا، ثم جاهدت مع عمر حتى فارق الدنيا، والآن نحن نجاهد عنك، (وأنت تتقاعد عنه) قال: لا، أعدّوا جهازى، ثم شهد غزو البحر، ومات فيه، فما وجدوا أرضا ليدفنوه فيها، وبقيت جثته معهم سبعة أيام، ولم تفسد، ثم وصلوا إلى جزيرة فدفنوه فيها. رضى الله عنه

وروى الطبرى بسنده أن رجلا رأى المقداد بن الأسود قاعداً على صندوق لصرّاف بحمص فى الشام، لا يستوعبه الصندوق لبدانته، وكان يستعد للغزو، فقالوا: لقد عذّرك الله، فقال: لقد نزلت السورة التى تكشف أحوال المنافقين: {انفروا خفافا وثقالا} (القرطبى).

سؤال:

قال القرطبی: فإن امتنع الناس كلهم عن الجهاد فى سبيل الله إلا واحدا منعهم، فما الحيلة له؟ أجاب عنه فقال: يحرّر أسيراً مسلماً بالفدية، أو يجاهد بنفسه إن قدر عليه، أو يحمل زاد المجاهدين ويبلغه إليهم. (القرطبى)

وباختصار، يسعى إلى الجهاد فى سبيل الله بأى شكل من الأشكال.

مسألة:

وفى التفسير الماجدى:

استنبط الفقهاء مسألة من قوله تعالى: {انفروا خفافا وثقالا} فقالوا: الجهاد لا يسقط بعد وجوبه، سواء تفسق الإمام والجنود أو لم يتفسّقوا.

«فإن قيل: هل يجوز الجهاد مع الفساق؟ قيل له أن كل أحد من المجاهدين فإنما يقوم بغرض نفسه، فجائز له أن يجاهد الكفار، وإن كان أمير الجيش وجنوده فساقا. (الجصاص)

{ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون}

أى لاشک أن بالجهاد يسعد المرء فى آخرته ويفوز بنعيمه، لكنه يسعد فى ديناه أيضاً، بالفتح والغنيمة والمال والعزة والشهامة وغيرها.

قال الإمام الرازى رحمه الله تعالى: لم يقل الله تعالى {إن كنتم تعلمون} إلا للإشارة إلى أن منافع الجهاد لا يدركها إلا من قوى إيمانه باليوم الآخر وثوابه وعقابه.

«ولذلک قال تعالى: {إن كنتم تعلمون} لأن ما يحصل من الخيرات فى الآخرة على الجهاد لا يدرک إلا بالتأمّل، ولا يعرفه إلا المؤمن الذى عرف بالدليل أن القول بالقيامة حق، وأن القول بالثواب والعقاب حق وصدق. (التفسير الكبير)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 42}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوک ولكن بعُدت عليهم الشقهٔ، وسيحفلون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلكون أنفسهم، والله يَعلمُ إنهم لكاذبون}.

ملخص معانى الآيهٔ:

المنافقون الذين تخلفوا عن رسول الله ‧ فى غزوهٔ تبوک كان بسبب حبهم للدنيا، فقد اتخذوا الدنيا غايتهم، وجعلوا الآخرهٔ وراء ظهورهم، لا يتحملون لها تعبا ولا مشقهٔ ولا يضحون لها، آمنوا فى الظاهر للمكاسب الدنيويهٔ، فلمّا استُنفروا لغزوهٔ تبوک ما رأوا فيها مصلحهٔ ظاهرهٔ من مصالح الدنيا، بل رأوا أن فيها خسارهٔ لهم، لأن السفر كان طويلا وشاقا، ولا أمل للغنائم، لأنهم كانوا يزعمون الروم أقوياء لا ينهزمون، فرفضوا الخروج مع رسول الله ‧، لو كان السفر قريبا، وتيقنوا من حصول الغنائم، لخرجوا، ليكسبوا المال، وليبقى نقافهم مستورا، ظنوا أن الرسول وأصحابه لن يعودوا إلى المدينهٔ من تبوک، لكنه لمّا رجع منصورا وغالباً، وهابت الحكومات الكافرهٔ المسلمين، لحقهم العار والندامهٔ. وبعد عودتكم إلى المدينهٔ يأتون إلى رسول الله ‧ للاعتذار، قال الله تعالى: وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يُهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يحلفون، وأنهم كانوا يستطيعون، لكنهم ما خرجوا لنفاقهم وشركهم.

موضوع الآيهٔ:

(1) قال اللاهورى:

ما من رجل يدعى الإسلام ثم يخاف من الخروج للجهاد بعد النفير العام، إلا وأهلک نفسه. (حاشيهٔ اللاهورى)

أى موضوع الآيهٔ هو أن ترک الجهاد يستلزم التهلكهٔ.

وقال القرطبى:

لمّا رجع النبى ‧ من غزوهٔ تبوک أظهر الله نفاق قوم. (القرطبى)

أى فى الآيهٔ المباركهٔ وعيد شديد للمنافقين، وفيها ورد بيان أحوالهم وأفكارهم. قال صاحب أنوار البيان:

ثم ذكر أحوال أولئک المنافقين الذين لم يخرجوا مع المجاهدين، قال فيهم: إنهم طلاب الدنيا، لو عرفوا أن هناک متاعا قريبا من متاع الدنيا، أوكان السفر خفيفا ليس فيه شىء من المتاعب، لخرجوا مع المجاهدين، وحافظوا على إسلامهم الظاهرى، وبقيت آمالهم معلقهٔ بالمنافع الظاهرهٔ التى لأجلها أشهروا الإسلام، لكنهم لمّا تأمّلوا فى السفر وجدوا أنه طويل وشاق، فظهر نفاقهم، واستقر

رأيهم على عدم الخروج، فتخلفوا عنه. عادةً يتحمل المنافقون المتاعب القليلة، لكن المتاعب الكثيرة تشكف عن نفاقهم. (أنوار البيان)

وفى التفسير الفرقان:

إلى هنا كان بيانا لتلك المشاكل التى تعرقل الطريق قبل البدء فى الجهاد، ومن هنا بدأ تلك الأمور التى تظهر أثناء القتال. (التفسير الفرقان)

المنافقون هابوا قوة الروم النصارى:

قال الإمام الرازى:

فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة بسبب أنهم كانوا يستعظمون غزو الروم، فلهذا السبب تخلفوا. (التفسير الكبير)

ومن أهم أمراض المنافقين أنهم يخافون الكافرين، ولا تتركز أنظارهم على قوة الله ونصره.

اسم غزوة تبوک:

ذكر أهل السير عدة أسماء لغزوة تبوک، ومنها «الغزوة الفاضحة» وقال مؤلف السيرة الحلبية: «قد تُطلق على هذه الغزوة اسم العسيرة، (لعسر المسلمين وضعف إمكانياتهم المادية) كما يقال لها الفاضحة، وهى ما كشفت الأسرار، والفضيحة هى الذلة والندامة، فقد كشف الله تعالى أحوال كثير من المنافقين فيها، (وكانوا قد أخفوا نفاقهم، وقاموا بأعمال معادية للمسلمين فى السر). (السيرة الحلبية)

وابتدأ الآن بيان فضائح المنافقين، وهو من أهم موضوعات سورة البراءة.

عبارة مليئة بالألم والحزن:

«تحالف النصارى اليوم للقضاء على الوجود الإسلامى، يتعرض المسلمون للهجوم من الأطراف كافة، يحتل النصارى دولهم وبلادهم، وهم للأسف الشديد يسعون إلى الابتعاد عن واجب الدفاع فى هذه الظروف المحدقة، فقبل كل شىء يبحثون عن التطمينات بشأن الانتصار، يتفكرون حول النهاية والنتيجة، ويعتبرون ذلک مخالفا للعقل والمنطق، ثانيا : يتمنون أن يكون السفر قريبا، لا يتعبون له، وتتحقق الغاية بكل راحة. ولاشک أنهما من المهملات، إذ لا ترد مثل هذه الأفكار إلا فى قلب خال عن حب الشعب والوطن، يريدون إرضاء المسلمين بالكلمات المعسولة، يحلفون لهم يقولون لو استطعنا لخرجنا معكم، والواقع لم يكن يحق لهم استثناء أنفسهم منه، وكان واجبهم هو الاستعداد، وسوف يعاقبون على تخلفهم عن واجبهم، فهم إنما يضرون أنفسهم ولا يضرون الإسلام شيئا. (التفسير الفرقان)

ثلاثة أسباب الهلاک:

قال الله تعالى بشأن المنافقين: {يُهلكون أنفسهم} أشار أهل العلم إلى ثلاثة أسبابه: (1) النفاق (2) التخلف عن فريضة الجهاد (3) الحلف الكاذب.

وقد اجتمعت فى هؤلاء الأشقياء الأسباب الثلاثة رغم كفاية الواحدة منها للهلاک. قال العلامة أبو حيان:

والمعنى: إنهم يوقعونها فى الهلاک، بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف (البحر المحيط).

وقال القرطبى: يُهلكون أنفسهم، أى بالكذب والنفاق. (القرطبى)

{**سورة التوبة مدنية، الآية**: 43}

بسم الله الرحمن الرحيم

{عفا الله عنک لِمَ أذنتَ لهم حتی يتبيّن لک الذين صدقوا وتعلم الكاذبين}.

ملخص معانى الآيۀ:

لقد قرّر المنافقون أنهم لا يشاركون فی غزوۀ تبوک، لكنهم جاءوا إليک ليستأذنوک بحيل واهيۀ، يظنون أن إذنک يستر نفاقهم، ويقدرون علی البقاء فی المنازل، وقد قرّروا أنهم لا يخرجون، سواء أذنت لهم أم لم تأذن. فلما جاءوا للاستئذان أذن لهم الرسول ، فقال الله تعالی: {عفا الله عنک لِمَ أذنت لهم} أی كان منعهم أفضل من إذنهم لكی يتبين لک كذبهم من صدقهم.

عبارۀ جامعۀ:

وأفضل خلاصۀ لما كتبه أهل العلم حول هذه الآيۀ هو ما كتبه العلامۀ العثمانی فيما يلی:

«إذا جاء المنافقون للاعتذار عن القعود من الجهاد، غضّ النبی عن كيدهم ونفاقهم، وأذن لهم بالقعود درءً للفتنۀ التی يخلقونها إن خرجوا مع المسلمين، فقال الله تعالی: لو لم تأذن لهم لكان خيراً، حتی يتبيّن لک أن امتناعهم عن الغزو غير مقيد بإذنک، فهم لا يوفّقون للمشاركۀ فی الجهاد، لكن عند منعهم تبيّن لک كذبهم، فإذنهم لم يكن ذنبا، لكن كان الأولی فی الظروف الحاليۀ عدم الإذن، وللتعبير عن هذا الوجه الأفضل ابتدأ الله تعالی الكلام بلفظ {عفا الله عنک} وكلمۀ العفو لا تدل علی الإثم فی الأحوال كلها، والبعض قالوا: أراد بلفظ {عفا الله عنک} الدعاء والتعظيم، كما كان ذلک معروفا فی محاورات العرب، لكن المروی عن السلف هو ما أسلفناه الآن. يؤيده لفظ {لِـمَ أذنتَ لهم}. والله أعلم (التفسير العثمانی بتسهيل)

وفی التفسير الماجدی:

{لِـمَ أذنتَ لهم} أی فی القعود عن القتال وعدم الخروج له، وهذا الإذن لم يكن معصيۀ، لكن الأولَی كان المنع رعايۀ للظروف المحيطۀ، وكلمۀ العفو فی {عفا الله عنک} لا تدل علی صدور الإثم، لأن العفو كما أنه يجری علی الإثم والجريمۀ كذلک يجری علی إتيان ما هو مخالف للأفضل والأولی. (التفسير الماجدی)

والغضب الحقيقی علی المنافقين:

وبالتأمل فی الآيۀ الكريمۀ يتضح لنا أن الغضب الحقيقی يصب علی المنافقين، وفی ثنايا الغضب والعتاب ذكر حبيبه المصطفی مع غايۀ اللُطف والمحبۀ، أن توفير الغطاء الموقت بالإذن لم يكن من الأولَی والأفضل. قال صاحب التفسير الماجدی:

معنى الآيۀ أن المنافقين حصل لهم بعض الاطمئنان بعدما أذن لهم النبی ﷺ بالقعود فی بيوتهم، ولو لم يأذن لهم لما حصل لهم ذلک، وظهر خبثهم للجميع. (التفسير الماجدی)

العفو أولاً ثم التنبيه:

قال مفسر القرآن الكريم العلامۀ ابن كثير رحمه الله:

عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبۀ أحسن من هذا؟ نداء بالعفو قبل المعاتبۀ فقال: {عفا الله عنک لم أذنتَ لهم}. (تفسير ابن كثير)

أسلوب المنافقين:

قال مجاهد: نزلت هذه الآيۀ فی أناس قالوا: استأذنوا رسول الله ﷺ، فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا. (تفسير ابن كثير)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 44}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لا يستأذنک الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، والله عليم بالمتقين}.

ملخص معانی الآيۀ:

الجهاد من أحد أفضل الوسائل لإرضاء الله تعالی، فهو العمل العظيم الذی يساعد فی الفوز بسعادۀ الآخرۀ، وعلامۀ التقوی، لذلک لا يستأذن بالقعود فی المنازل أولئک الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، بل يبالغ فی الجهاد فی سبيل الله بالمال والنفس، والله عليم بالمتقين، وسوف يجازيهم حسب أعمالهم.

الأقوال ومراجعها

التمييز بين المؤمن والمنافق:

قال الإمام الرازی رحمه الله: الغرض من هذه الآيۀ الكريمۀ الإشارۀ إلی التمييز بين المؤمن والمنافق، فالمؤمن سبّاق إلی الجهاد إن استُنفر له، ولا يتردّدُ فيه، أما المنافق فيتردد، ويلجأ إلی حِيَلٍ واهيۀ للابتعاد عنه.

والمقصود من هذا الكلام تمييز المؤمنين عن المنافقين متی أمروا بالخروج إلی الجهاد تبادروا إليه، ولم يتوقفوا، والمنافقون يتوقفون ويتبلدون ويأتون بالعلل والأعذار. (التفسير الكبير)

تعامل الصحابۀ:

ليس من شعار المؤمنين أن يستأذنوک عند الاستنفار للجهاد، لذلک قال المؤمنون الصادقون من المهاجرين والأنصار: لن نستأذن رسول الله ˚ بالقعود، بل نقاتل إلی جانب رسول الله ˚ بأموالنا وأنفسنا».

ليس من عادۀ المؤمنين أن يستأذنوک فی أن يجاهدوا، وكان الخلص من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبی ˚ أبداً أو لنجاهدن أبداً معه بأموالنا وأنفسنا. (كشاف)

الجهاد من مقتضيات الإيمان:

تأمّلوا هذه الآيۀ الكريمۀ، لاحظوا أن الله تعالی أشار إلی آيۀ المؤمنين أنهم لا يستأذنون للتخلف عن الجهاد، بل يتسابقون إليه، فدلت علی أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر كان سبّاقا إلی الجهاد.

قال المفسر ابن كثير رحمه الله:

لأنهم يرون الجهاد قربة، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا. (تفسير ابن كثير)

فإن قمنا بمقارنة هذه الآية بأعمال الصحابة لوجدنا أنهم كانوا على ثلاث حالات:

(1) كانوا يتسابقون إلى الجهاد، ويخافون من أن يُوقفوا عنه.

(2) ومن مُنع منهم من الجهاد، شقَّ عليه القعود فى البيت، كما وقع مع على بن أبى طالب فى غزوة تبوك مُنع منها، فقال: يا رسول الله ! أ أقعد مع النساء والأطفال فى البيت؟ فطمّنه النبى ﷺ. قال الإمام الرازى رحمه الله: وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول بالقعود لشق عليهم ذلك، ألا ترى أن على بن أبى طالب لما أمره رسول الله ﷺ بأن يبقى فى المدينة شق عليه ذلك ولم يرض إلى أن قال له الرسول: أنت منى بمنزلة هارون من موسى. (التفسير الكبير)

(3) أما الذين لا يقدرون على الخروج لعذر فكانوا مهمومين مغمومين، تفيض أعينهم من الدمع، كما تأتى فى سورة التوبة... {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا}. (التوبة 92)

بعض العبارات الشيّقة:

كيف بإمكان أهل الإيمان التهرّب من الجهاد، إنما هم يتسابقون إلى الامتثال لأمر الله. وقال المرشد التهانوى رحمه الله: لا يسمع المؤمن الاستنفار إلى الجهاد إلا تسابق إليه، وهذه الحالة لا تنشأ إلا بالرغبة، ومن هنا تحققت الرغبة. (التفسير الماجدى)

(2) المؤمنون لا يتهرّبون من الجهاد. (حاشية اللاهورى)

(3) فى هذه الآية أشار إلى قاعدة كلية، وهى أن المؤمنين المخلصين لن يطلبوا استثناءهم من المشاركة فى الجهاد، لأن من أكبر أمانيهم أن يضحوا أغلى ما يملكون لله ... {إن صلاتى ونُسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين}. (التفسير الفرقان)

(4) {لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين} (بيان القرآن).

شهادة قرآنية على تقوى المجاهدين:

قال الله تعالى فى آخر الآية: {والله عليم بالمتقين} قال أهل التفسير: فيها إشارة إلى أمرين، الأول: أن المجاهدين أتقياء. والثانى: يعدهم الله تعالى بالأجر والثواب.

{والله عليم بالمتقين} شهادة لهم بالانتظام فى زمرة المتقين، وعدة لهم بأجزل الثواب. (كشاف، البحر المحيط)

فى الجملة الأخيرة شهادة لهم بالتقوى، ووعد (كناية) بالأجر. (التفسير المظهرى)

ملاحظة:

قال أبو حيان: قيل: التقدير لا يستأذنك المؤمنون فى الخروج ولا القعود، كراهة أن يجاهدوا، بل إذا أمرت بشىء ابتدروا إليه، وكان الاستئذان فى ذلك الوقت علامة النفاق. (البحر المحيط).

وهذا الذى اختاره القرطبى. راجعوا تفسير القرطبى.

المؤمن ينتظر الجهاد بفارغ الصبر:

ذكر الآلوسى تحت هذه الآية الكريمة الحديث الذى جاء فيه أن المؤمن يظل فى انتظار الجهاد، يسمع النداء فيطير إليه، يطلب الموت فى سبيل الله. (روح المعانى)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 45}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنما يستأذنک الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فــى ريــبهم يترددون}.

ملخص معانى الآيهٔ:

لقد تعوّد على الاستئذان للتخلف عن الجهاد أولئک الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وارتابت قلوبهم فى الوعود الربانيهٔ بشأن انتصار الإسلام والمسلمين. (العثمانى بتسهيل)

منكروا الجهاد أعداء الإسلام فى السر:

«يفصل الله تعالى ميزات أولئک الذين يدّعون الإسلام ظاهرا، ويسعون إلى استئصاله من جزوره سراً، والواجب على المسلمين قراءهٔ هذه الأحوال بتأنٍّ، ثم مراجعهٔ أنفسهم ليعلموا أنه لا يسعى إلى التهرب من الجهاد إلا من كان قلبه خاليا عن الإيمان بالله، يقلقون لمستقبلهم، يزعمون أنهم لن يحققوا تطورات اقتصاديهٔ وماديهٔ ما داموا ملتزمين بدينهم، فلا يزال مترددا متحيرا لا يدرى ما يفعل وما لا يفعل. (التفسير الفرقان)

واقعون فى التردد:

«لا يستأذن فى التخلف عن الجهاد إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، مترددون ومتحيرون، يستعدون للجهاد مرهٔ كى لا يحرموا عن الغنائم، أو لا يؤذيهم المسلمون، ولا يستعدون له مرهٔ أخرى». (التفسير المظهرى)

الإيمان يدفع إلى الجهاد واللاإيمان يمنع منه:

أشار الآلوسى وغيره من المفسرين إلى نكتهٔ مهمهٔ، قال: لقد تناولت الآيتان الإيمان، ففى الآيات السابقهٔ أكّد أن المؤمنين لا يستأذنون عن الجهاد، وفى هذه الآيهٔ أنه لا يتهرب عن الجهاد إلا من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ومن هنا عرفنا أن الإيمان يأتى بالمرء يوقفه أمام الجهاد، وأن عدم الإيمان يمنع عن الجهاد، فمن آمن بالله جاهد لدين الله وتوحيده، ولا يشق عليه الموت فى سبيله، لأنه يرجو نعيم الآخرهٔ الذى لا يزول، أما الذى لا يؤمن بالله فإنه لا يشارک فى الجهاد، لأنه لا يرجو ثواب الآخرهٔ.

تخصيص الإيمان بهما فى الموضعين للإيذان بأن الباعث على الجهاد والمانع عنه الإيمان بهما وعدم الإيمان بهما، فمن آمن بهما قاتل فى سبيل دينه وتوحيده، وهان عليه القتل فيه لما يرجوه

فی الیوم الآخر من النعیم المقیم، ومن لم یؤمن بمعزل عن ذلک علی أن الإیمان بهما مستلزم للإیمان بسائر ما یجب الإیمان به. (روح المعانی)

ما المراد من التردد؟

«أی لا یُقبلون علی الإیمان مع إرادة قویة، ولا یتشجعون للانفصال عن إطار الأمة الإسلامیة».

{یترددون} أی یتحیرون ویتخبطون ویترددون شاکین، فهذا هو حال المنافقین، یتبدل قلبهم من حالة إلی حالة. (التفسیر الماجدی)

لدیهم میول نفاقیة:

نعم، ذووا میول نفاقیة یلجأوون إلی الحیل للتخلف عن الجهاد. (حاشیة اللاهوری)

تسع وثلاثون شخصا:

هذه الآیة علی العموم تبیّن أحوال شریحة من أفراد المجتمع أصیبوا بمرض النفاق، لکنها بادئ ذی بدء نزلت فی تسع وثلاثین شخص کما روی عن ابن عباس، ولم تکن لدیهم أعذار، ومع ذلک استأذنوا للتخلف عن الجهاد.

والآیة نزلت کما روی عن ابن عباس رضی الله عنهما فی المنافقین حین استأذنوا فی القعود عن الجهاد بغیر عذر وکانوا علی ما فی بعض الروایات تسعة وثلاثین رجلا. (روح المعانی)

وقال النسفی: وکانوا تسعة وثلاثین رجلا. (المدارک)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 46}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدةً، ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين}.

ملخص معانى الآيةً:

إن المنافقين ما أرادوا الخروج للجهاد، لم تكن لديهم نيةً الخروج، لكن كذبوا لمّا قالوا: أردنا الخروج ولكن العذر الفلانى والفلانى يمنعنا، لأنهم لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدةً، جهّزوا عدةً الجهاد، وأحيوا حبه ونيته فى قلوبهم، لكنهم ما اتخذوا شيئا، فدل على أنهم ما يريدون الخروج للجهاد، بل الحق أن الله تعالى كره انبعاثهم للجهاد بسبب نفاقهم، ولا يريد تكريمهم بشرف الجهاد، لذلك جعلهم كسالى متباطئين، وأقعدهم مع النساء والأطفال وأصحاب الأعذار.

«لا يتأهل لسفر الجهاد المبارک من لا إيمان له، بل ما استعدوا للجهاد بنيته قط، ومثل هؤلاء لا يريد الله أن يخرجوا للجهاد». (حاشيةً اللاهورى)

مثقفوا اليوم:

حالةً طاعنى الجهاد المتسترين باسم الثقافةً مثل المذكورين فى الآيةً، أنهم لا يريدون الخروج للجهاد قط، فقد تعلقت الدنيا بجذر قلوبهم، يطعنون فى الجهاد كى يخفوا جبنهم، يقولون: جهاد فلان وفلان بالمنطقةً الفلانيةً ليس وفق الشريعةً، إذ هو من مسئوليات الحكومةً، والحكومةً هنا لا توافقه، والجهاد فى الموضع الفلانى يعارض الشريعةً، لأنه جهاد حكومى، إذ وكالاتها تمدهم بالعتاد والسلاح. نسأل هؤلاء ومن كان مثلهم: نفرض أن الجهاد الشرعى ابتدأ فى بلد من البلاد وفق الشروط التى وضعتموها أنتم، فما هى الاستعدادات التى اتخذتموها بشأنه؟ وهل نويتم بقلوبكم للجهاد قط؟ والواقع إن مثل هؤلاء قد أخرجوا الجهاد من حياتهم، اللهم ارحم المسلمين كلهم.

معنى «عُدّةً» فى الآيةً:

قال الله تعالى: {ولو أرادوا الخُروجَ لأعدُّوا له عُدّةً} فما المراد من العُدةً؟ ذكر أبو حيان عدةً أقوال:

(1) قال ابن عباس: عدةً من الزاد والماء والراحلةً.

(2) عن ابن عباس العدةً النيةً الخالصةً فى الجهاد.

(3) وحكى الطبرى كل ما يعد للقتال من الزاد والسلاح.

كان الناس فى القديم يركبون الخيول ويستخدمون السيوف، وهى من ضرورات الحرب، أما اليوم فعتاد الحرب تَغَيَّرَ، لذلک اكتساب المهارات لاستخدام السلاح يُعتبر من «العُدّة». (والله أعلم بالصواب)

الاستعداد للجهاد فرض:

«لو سلّمنا أنهم أرادوا الخروج للجهاد، لکنهم ما خرجوا لعذرهم، هذا ليس بصحيح، لأن الاستعداد كان واجبا عليهم، ثم إن عرض لهم عذر، كان على الإمام أن يستثنيهم من الخروج، فمن يكون هؤلاء يستثنون أنفسهم من الخروج؟ لا يريدون إلا أخذ الأمور بأيديهم. وفى الحقيقة أراد الله تعالى أن يمنع هؤلاء المتخلفين عن شرف الجهاد، لذلک صاروا عُرضة للتهاون والتكاسل، وحُرموا من الجهاد». (تفسير الفرقان)

«ما أرادوا الخروج للجهاد، وإلا لأخذوا العُدّة، ولما بادروا بالأعذار الكاذبة، والواقع إن الله كره خروجهم للجهاد، لأنهم إن خرجوا خلقوا مشاكل وفتنا للمسلمين، ولمّا تخلفوا علموا أن المؤمنين لم يعبأوا بهم، ولذلک لم يوفقهم للانضمام إلى صفوف المجاهدين، ووبال امتناعهم عن الجهاد يترتب عليهم، كأنه قيل لهم تكوينا: اقعدوا مع القاعدين من النساء والأطفال والمعاقين، أما إذن النبى ﷺ لهم بالبقاء فى منازلهم، فكأنه قيل لهم ذلک من الله، لذلک لا حاجة إلى التصريح بقيد «تكوينا»». (التفسير العثمانى)

اقعدوا..اقعدوا..

جاء فى آخر الآية: {وقيل اقعدوا مع القاعدين} من النساء والأطفال والمعاقين، هذه جملة عجيبة وغريبة تبين إهانتهم وحرمانهم. قال بعض المفسرين: فقد قال بعضهم لبعض: اقعدوا اقعدوا. وقيل: لمّا استأذنوا لاختلاق أعذار كاذبة بين يدى النبى ﷺ، قال لهم النبى ﷺ: اقعدوا. وقال بعض أهل العلم: كان أمرا تكوينيا من الله بالقعود، أى لمّا قام المؤمنون للجهاد، كانوا متسابقين إلى الجنة، متسابقين إلى التضحية بالمال والنفس، فكان المحرومون من المنافقين يناديهم بصوت موحد من ظاهرهم وباطنهم: اقعدوا اقعدوا، أى لا تحصلوا ذلک النعيم العظيم. نسأل الله الوقاية من وضع مهين كهذا، فالقعود فى البيت فى وقت الجهاد ليس إلا مذلة، كأنه قيل لهم: اقعدوا فى قعر المذلة والهوان.

قال النسفى رحمه الله:

هو ذم لهم وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود فى البيوت. (المدارک)

الآية تدعو إلى الفكر:

(1) لا ينوون الجهاد، ولا يتدربون له، ولا يستعدون، لا رغبة لهم فى الجهاد، لكنهم يتكلمون بكلام كبير، أهذه طريقة المؤمن؟ تأملوا فى الآية المباركة...

(2) بعض الناس يتصورون أنه لا جهاد عليهم، لا يريدون الخروج للجهاد فى سبيل الله مهما كانت الظروف، فهل هذه طريقة المؤمنين؟ تأملوا فى الآية المباركة..

(3) المسلمون خرجوا لغزوۀ تبوک، فارق النبی ٠ المدينۀ مرکز الإسلام، والصحابۀ فارقوا المسجد النبوی الشريف، ومدرسۀ الصفۀ، کانوا يقومون بالتربيۀ والتعليم والتزکيۀ وإصلاح النفس بالمدينۀ المنورۀ، والآن يترکونها ويتوجهون إلی تبوک للجهاد، لأی نوع من الجهاد يريدون؟ ورد فی الآيۀ الکريمۀ ذکر غزوۀ تبوک صراحۀ، والسفر هنا سفر الجهاد والحرب، فی تلک الظروف کل من أراد البقاء بأرض المدينۀ، توعّدهم الله بالعذاب، وأن الله لا يحبهم. لاحظوا اليوم أحوال المسلمين، فقد فصلوا الجهاد عن حياتهم لأمور صغيرۀ، هل يجوز لهم ذلک؟ تأملوا فی الآيۀ المبارکۀ.

رسالۀ الآيۀ الکريمۀ:

کل من لم ينو الجهاد بالصدق، ولم يستعد له، ثم قدّم أعذراراً وحِيَلاً کاذبۀ ليبتعد عن الجهاد، فذلک منافق، إذ لا يفعل ذلک إلا المنافقين، اللهم قنا مرض النفاق.

{سورة التوبة مدنية، الآية : 47}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأ أوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنـة، وفـيكم سمّاعون لهم، والله عليم بالظالمين}.

ملخص معانى الآيةَ:

عدم خروج المنافقين مع المؤمنين للجهاد كان فى مصلحة المؤمنين، لأن هؤلاء الجُبناء الأشرار الفاتنين إن خرجوا زادوا المسلمين شراً وخبالا، ولأشعلوا نار الفتنة بينهم، ولأرجفوا فيهم، نشروا الذعر والهلع بينهم بنشر شائعات، وبين المسلمين من يسمع كلامهم إما لعلاقة سابقة بينهم، أو لأنهم بُسطاء، فينفعلون بها، فكان تخلف المنافقين خيرا للمؤمنين، والله عليم بالظالمين، لا يقدرون على الهروب منه، وسوف يعاقبون على أعمالهم.

الأقوال ومصادرها

تخلفهم خير تكوينيا:

«أى عدم خروج المشركين مع المؤمنين عاد بالنفع إلى المسلمين باعتبار التكوين، لأنهم إن خرجوا أشعلوا نار الفتنة بين المسلمين، نشروا الشائعات، وملئوا القلوب بالإرجاف والرعب. (التفسير الماجدى)

{خبالا} ذكروا له معانى عديدة، وقد راعيناها فى المعانى التى أسلفناها، قال الآلوسى رحمه الله:

{خبالا} أى شرا وفسادا.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عجزا وجبنا.

وعن الضحاك غدرا ومكرا.

وقال صاحب روح المعانى بعدما سرد الأقوال المذكورة:

أصل الخبال كما قال الخازن: اضطراب ومرض يؤثر فى العقل كالجنون.

أى إن الجهاد يقتضى استقرارا قلبيا وراحة نفسية ووحدة فى الأهداف، وهؤلاء المنافقون يحرمونكم منها ويزيدونكم خبالا وفسادا.

يضعفون هممكم:

«أى لو خرجوا معكم لأضعفوا معنوياتكم بجُبنهم وضعف همتهم، وسعوا إلى الإفساد بين المسلمين، وأرعبوكم بنشر شائعات كاذبة، فوجودهم لم يكن ليزيد إلا شراً وخبالاً، لذلك لم يوفقهم

الله تعالى للخروج، {وفيكم سمّاعون} أى لا زال بينكم جواسيس أو بُسطاء، يسمعونهم ويتأثرون منهم. (ابن كثير). لكن لا يمكنهم لهؤلاء الضعفاء نشر الفساد بالمستوى الذى يمكن للمنافقين، بل بقاء هؤلاء الجواسيس والضعفاء خير من ناحية نقل المعلومات إلى رؤسائهم المنافقين من قصص بطولات المسلمين وتضحياتهم وتفانيهم وصبرهم وهمتهم. (التفسير العثمانى)

من هم السمّاعون؟

قال تعالى: {وفيكم سمّاعون لهم} ما المراد منهم؟ ذكروا له معنيين: الأول: بعض المسلمين الصادقين البُسطاء، لا يعرفون مكامن الأمور، فيتأثرون بكلامهم المعسول، فلو خرج المنافقون مع المسلمين، ونشروا الخبال بينهم، لتأثروا بهم وضعفت معنوياتهم واختلفت كلمتهم. وهذا المعنى ذكره الجمهور. وللتفاصيل ارجعوا إلى ابن كثير.

وقيل: المعنى إن بعض الناس انضموا إلى صفوف المؤمنين بنيۀ التجسس عليهم، ليعودوا إلى كبرائهم بما يسمعون لديكم. ففى التفسير الماجدى:

{سمّاعون} أى المتجسسون والمتصدون لمعرفۀ العلل ومكامن الأمور.

أى جواسيس الكفار (ابن عبّاس) المراد فيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم (كبير عن مجاهد وابن زيد) وفيكم مخبرون لهم يودّون إليهم ما يسمعون منكم وهم الجواسيس (معالم عن مجاهد) . (تفسير ماجدى)

{سمّاعون} إن أردنا المسلمين الذين يسمعون كلام المنافقين، ويتأثرون به، فيرد عليه أنه كيف يمكن تواجد مثل هؤلاء بين أولئک الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ للجهاد؟

قال الرازى:

كيف يجوز ذلک على المؤمنين مع قوۀ دينهم ونيتهم فى الجهاد؟

ثم رد عليه بنفسه وقال:

قلنا لا يمتنع فيمن قرب عهده بالإسلام أن يؤثر المنافقين فيهم ... أو رقۀ قلوب بعض المسلمين، وتأثرهم بكلامهم، أو قرابۀ المسلمين ببعض المنافقين، فيحافظوا على منزلۀ كبراء المنافقين، ويستمعوا إليهم. (التفسير الكبير)

أُسدد منافذ الأسماع:

فباختصار، ما من مؤمن صادق فى إيمانه، يسعى إلى الاستمرار على الجهاد، إلا وعليه سدّ جميع منافذ الأذن أمام الفتّانين. (والله أعلم بالصواب)

أهم شيء للنجاح فى الجهاد:

لقد أشار الإمام الرازى إلى أهم شيء للنجاح فى الجهاد، وقال : الابتعاد عن الخلافات البينيۀ أهم شيء للنجاح فى الجهاد، لأن الخلافات البينيۀ تسبب فى إضعاف الجماعۀ، والجماعۀ الضعيفۀ تنهزم أمام العدو بكل بساطۀ، حيث أكّد الله تعالى فى هذه الآيۀ الكريمۀ أن المنافقين لو خرجوا مع

المؤمنين لزرعوا بذور الفتنۂ والخلاف بين المسلمين، ثم نمّوا بين كباركم بحيث يتنازعوا ويختلفوا ويتفرقوا. (ففی عدم خروجهم خير كبير، لأن أضر شیء على الجهاد الخلافات البينيۂ، وهؤلاء المنافقين لن يمتنعوا عن خلق الاختلاف).

والخبال هو الإفساد الذی يوجب اختلاف الرأی، وهو من أعظم الأمور التی يجب الاحتراز عنها فی الحروب، لأن عند حصول الاختلاف فی الرأی يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه، ثم بيّن الله تعالى أنهم لا يقتصرون على ذلک بل يمشون بين الأكابر بالنميمۂ، فيكون الإفساد أكثر وهو المراد بقوله {ولا أوضعوا خلالكم}. (التفسير الكبير)

{والله عليم بالظالمين} ذكر المفسرون عدۂ أقوال فی الظالمين، من هم؟ والمراد منهم فی الحقيقۂ المنافقون، وهم الذين يتخلفون عن الجهاد بحيلٍ كاذبۂ، الساعون إلى زرع الفتن بين المسلمين. وقيل: لا بل المراد منهم جواسيس المنافقين الذين خرجوا معكم، يعلمهم الله، لكنهم لا يضرونكم، لأنهم من سفلۂ المنافقين وسقطتهم.

وفی التفسير الماجدی:

{والله عليم بالظالمين} يعلمهم الله جيداً، أن الذين لحقوا بكم من عملاء المنافقين ليسوا من أهل الرأی، فلا يضر بقاءهم بينكم. (التفسير الماجدی)

{والله عليم بالظالمين} يعم كل ظالم، ومعنى ذلک أنه يجازيه على ظلمه، واندرج فيه من يقبل كلام المنافقين، ومن يؤدی إليهم أخبار المؤمنين، ومن تخلف عن هذه الغزاۂ من المنافقين. (البحر المحيط)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 48}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لقد ابتغوا الفتنۀ من قبلُ وقلّبوا لک الأمور حتی جـآء الحـق وظهـر أمـرُ الله وهـم کارهون}.

ملخص معانی الآیۀ:

لقد سبق وأن اجتهدوا لزرع الفتنۀ مرات عدیدۀ قبل غزوۀ تبوک، وعادوا إلی بیوتهم یوم أُحد بنیۀ إضعاف معنویات المسلمین، وتفریق کلمتهم، کما استخدموا المکر والخداع والأذیۀ ضد المسلمین فی مناسبات عدیدۀ، إلی أن فتح الله علی رسوله أبواب الانتصارات والفتوحات، وتغلّب الحق علی الباطل، وکل ذلک لم یعجبهم، لکنهم ما استطاعوا إلحاق الأضرار بک وبالإسلام، وفی النهایۀ اضطروا إلی الإشهار بإسلامهم. ففی هذه الآیۀ الکریمۀ تطمین للرسول ٠ أن تدابیرهم وتآمرهم مستمرۀ ضدک، وقد عصمک الله منهم، فلا تغتم لما یدبرون فیما تأتی من الأیام، ولا تحزن علی تخلفهم عنک یوم تبوک، فالتخلف عن الجهاد فی سبیل الله ومعاداۀ الإسلام ورسوله مما جُبلوا علیه. (أنوار البیان والمظهری وغیره)

نصوص المفسرين

لیس فی مصلحۀ المسلمین مشارکۀ المنافقین فی الجهاد:

«هذا أسلوب رحیم بأن حمّل المجرم جریمته، ومن جهۀ ثانیۀ طمّن المسلمین علی عدم خروجهم باعتباره یضر مصالحهم، لأن ضررهم أشد من نفعهم، ولهم آثار سلبیۀ علی العامۀ، یسعون إلی زرع الفتنۀ والعداوات بینکم، هذا ما جُبلوا علیه، ولن یکفُّوا عنه، فإن کان هؤلاء المنافقین خارج المیدان، فإن عیونهم لا یزالون یعملون بین أیدیکم، وُکّلت إلیهم مهمۀ إعداد محضر تشتمل علی نکات الضعف فیکم، وعند رجوعکم قدموه إلی العالم. فقد رجع عبد الله بن أُبی بن سلول مع أصحابه یوم أُحد، ویوم الأحزاب نقض الیهود العهد، ولحقوا بالمشرکین، ویوم تبوک لم یقصّروا فی شیء مما سبق ذکره، لکنکم انتصرتم بفضل الله، وهو ما کانوا یبغضونه... فکل من أراد التهرب من الجهاد فی سبیل الله، راجعوا ماضیهم، فإن کانوا فُسّاقا منذ الیوم الأول، فلا تقلقوا من تخلفهم، إذ علی خروجهم لن تترتب نتائج إیجابیۀ». (التفسیر الفرقان)

عبارۀ جامعۀ:

لاحظوا فیما یلی ملخص ما ذکره ابن کثیر وغیره من المفسرین:

«لمّا قدم النبى ؐ إلى المدينة، طفق اليهود والمنافقون يخلقون الفتن له، وسعوا إلى قلب وتيرة ازدهار الإسلام السريع بكل ما استطاعوا».

ويوم بدر لمّا سقطت كبرى زعامات الكفر والشرك، وانتصر الإسلام بشكل مدهش، قال عبد الله بن أُبى وزملاءه: «إن هذا أمرٌ قد توجه» أى إنه أمر قد اتخذ وجهه فلا يتوقف، فتخوّف كثير من الناس، ونطقوا بكلمة الإسلام، وبما أنهم قد بطّنوا الكفر، لذلک تقطعوا غيظا وغضبا كلما شاهدوا المسلمين يتقدمون ويحققون انتصارات، وباختصار إنهم جُبلوا على المكر والفتن، وليست هذه المرة الأولى، فقد عادوا من الطريق يوم أُحد، لكنهم أدركوا كيف يعز الحق، وكيف يذل الباطل». (التفسير الحقانى)

قول :

نقل الرازى وغيره من المفسرين عن ابن جريج أن فى الآية إشارة إلى المؤامرة التى دبّرها المنافقون لاستشهاد النبى ؐ «ليلة العقبة».

قال ابن جريج، هو ان اثنى عشر رجلا من المنافقين وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبى ؐ. (التفسير الكبير).

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 49}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ومنهم من يقول ائذن لى ولا تَفتنّى. ألا فى الفتنة سقطوا. وإن جهنم لمحيطة بالكافرين}.

ملخص معانى الآية:

بعض المنافقين يتسترون بستار الدين لإخفاء نفاقهم وجبنهم، يقولون: ائذن لنا بالبقاء فى منازلنا، وعدم الخروج معك، لأننا إن خرجنا وقعنا فى المعصية والفتنة لضعفنا.

فهذه حيلتهم الكاذبة، لأنهم وقعوا فى المعصية والفتنة بعدما تخلفوا عن الجهاد، (إذ التخلف عن الجهاد عند الاستنفار فساد وفتنة) وقد أحاطت بهم جهنم، حيث أحاطت بهم المعاصى فى الدنيا، المؤدّية إلى النار، وسوف يُلقون فيها يوم القيامة.

الأقوال ومراجعها

التحايل بالفتنة الدينية:

«وكان اسمه جُد بن قيس، احتال بأنه يقع فى فتنة النساء، ونساء الروم من أجمل النساء، فإن خرجتُ معك وقعتُ فى فتنتهن، وضيّعتُ دينى، لذلك ائذن لى. (كذا فى الدر المنثور) (بيان القرآن).

زعيم بخيل وجبان:

قال المفسرون: نزلت هذه الآية فى جُد بن قيس، سيد بنى سلمة.

وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجد بن قيس، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة. (ابن كثير)

دعاه النبى ﷺ إلى الجهاد بنفسه، فقال: لا تصحبنى معك، وائذن لى فى البقاء بالبيت، لأننى أرغب فى النساء، وقد أقع فى الفتنة إذا رأيتُ نساء الروم، لكننى أساعدك بمالى، فسخط عليه النبى ﷺ، وأذن له فى البقاء بالبيت.

قال رسول الله ﷺ للجد بن قيس أخى بنى سلمة لما أراد الخروج إلى تبوك «يا جُد» هل لك فى جلاد بنى الأصفر، تتخذ منهم سرارى ووصفاء، فقال الجُد: قد عرف قومى أنى مغرم بالنساء، وإنى أخشى إن رأيت (بنات) بنى الأصفر ألا أصبر عنهن، فلا تفتنى، واذن لى فى القعود، وأعينك بمالى، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك. (القرطبى)

ثم أقاله النبى ﷺ من منصبه من زعامة قومه بعد معاملته المذكورة.

ولما نزلت قال النبى ﷺ لبنى سلمة، وكان الجُد بن قيس منهم «من سيدكم يا بنى سلمة» قالوا: جُد بن قيس، غير أنه بخيل جبان، فقال النبى ﷺ: وأى داء أدوى من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن معرور.

ترک الجهاد أكبر فتنة ومعصية:

{ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين} أراد بالفتنة تخلفهم عن الجهاد.

أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلک به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم. (ابن كثير)

وقال القرطبى:

أى فى الإثم والمعصية وقعوا وهى النفاق والتخلف عن النبى ﷺ. (القرطبى)

وفى التفسير المظهرى:

«إن الآفة الحقيقية هى ما سقطوا فيها، أى تخلفهم عن الجهاد وتكشف نفاقهم. (التفسير المظهرى)

فائدة:

بعض الناس يقولون: نحن ضعفاء، إن خرجنا للجهاد هربنا من ساحة القتال، لذلک لا نخرج. على مثل هؤلاء أن يتأملوا فى هذه الآية الكريمة، ويحترزوا عن مثل هذا القول. (والله أعلم بالصواب)

مفهومان آخران للآية:

أحد مفهومى الآية ذكرناه عند بيان سبب النزول، وقد أشار أهل العلم من المفسرين إلى مفهومين آخرين:

(1) المراد بالفتنة: المعصية، والمعنى: إن بعض المنافقين قالوا للنبى ﷺ: ائذن لنا بالقعود عنک فى بيوتنا، لأننا إن قعدنا فيها بدون إذنک أثمنا، فأُجيب: بأنكم سقطتم فى الإثم، لأنكم لا تريدون الخروج للجهاد.

(2) والبعض منهم قالوا: لا نخرج معک لأرضنا وبيوتنا، فلا تفتنا باستصحابک، لأننا إن خرجنا معک، هلک زرعنا، ولا يخلفنا فى البيت من ينظر فى أموالنا وأهلنا، فيضيعون، فقيل: لقد هلكتم بنفاقكم وترک الجهاد، وأى هلاک بعده؟ قال النسفى رحمه الله:

ولا تفتنى ولا توقعنى فى الفتنة وهى الإثم، بأن لا تأذن لى فإنى إن تخلفت بغير إذنک أثمت، أو لا تُلقنى فى الهلكة فإنى إن خرجت معک هلک مالى وعيالى. (المدارک)

وفى التفسير المظهرى:

قال بعض أهل العلم فى معنى الآية: ائذن لى فى القعود، لأننى أخشى أن أقع فى المعصية بسب تخلفى، وأقعد بدون إذنک.

وقيل: أراد بالفتنة المال والأهل والعيال، أى ليس ورائى من يقوم عليهم، فقد يهلكون. (التفسير المظهرى)

وأشار صاحب روح المعانى إلى معنى رابع:

وقال أبو مسلم: أى لا تعذبنى بتكليف الخروج فى شدة الحر.

فائدة:

وبملاحظة المفاهيم الأربعة التى سردنا للآية نعلم الحيل والأعذار التى يلجأ إليها المنافقون للتخلف عن الجهاد، فعلى كل مسلم مراجعة نفسه، وإبعادها من حيل النفاق.

أحاطت بهم جهنم:

قال الإمام النسفى:

وإن جهنم لمحيطة بالكافرين الآن، لأن أسباب الإحاطة معهم، أو هى تحيط بهم يوم القيامة. (المدارك)

وأشار الرازى إلى نكتة مهمة، وهى أن الآية الكريمة أشارت إلى حالة خاصة بالمنافقين تورّطوا فيها، وملخصها ما يلى:

(1) حُرموا من الإيمان وحلاوته.

(2) نفاقهم ومعاداتهم للرسول ﷺ قد ظهرت للناس.

(3) زعموا أن المال والجاه أساس السعادة.

(4) يشاهدون رُقى الإسلام وقوته كل يوم رغم أنفهم.

(5) ظلال الخوف تُخيّم على أنفسهم وأموالهم وأولادهم كل حين.

وباختصار وقعوا فى جحيم الجهل الشديد والخوف الرهيب، (فليس لهم الدنيا ولا الآخرة) وهذا ما ذكره بلفظ {وإن جهنم لمحيطة بالكافرين}.

(أى يدخلون نار جهنم فى الآخرة، وقد أحاطت بهم آثارها فى الدنيا) (مفهوم التفسير الكبير).

فتفسير الآية هو ما أسلفناه عن تفسير المدارك، وأما ما ذكره الرازى فبيانٌ للحالة التى تكون طارئة على أهل النار من أمثالهم. العياذ بالله...

وهذا ما ذُكر فى التفسير الماجدى باللفظ التالى:

حُرم من نعمة الأمن فى عهد الرسول ﷺ عند نزول القرآن كل من زعم الدين آفة، والطاعة ابتلاء، أما صحابة رسول الله ﷺ فقد شغلوا أنفسهم بالجهاد، فأنعم الله عليهم بنعمة النصر والسعادة على اختلاف أنواعها... لم يتمن المنافقون بالابتعاد عن أحكام الدين إلا وأحاطت بهم المصائب والفتن. (التفسير الماجدى)

الذين استثنوا أنفسهم من الجهاد:

قال اللاهورى رحمه الله:

الطائفة الأولى – ممن تم استثناءهم – لم تكن مستعدة للخروج، والآية تناولت بيان أحوال الطائفة الثانية منهم، قالوا إن خرجنا معكم لا يمكننا إنجاز شىء، لأننا نخاف أن نُفتن بنساء الروم. (حاشية اللاهورى رحمه الله)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 50}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إِنْ تُصبک حسنۀ تسؤهم، وإن تصبک مصيبۀ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون}.

ملخص معانی الآيۀ:

هؤلاء المنافقون يدعون الإسلام، ولکن حال عداءهم للإسلام وضلال قلوبهم أن المسلمين إن أصابهم فتح وغنيمۀ ونصر قلقوا، واضطربت قلوبهم حقدا وعداوۀ، وإن أصابتک مصيبۀ ظاهرۀ فی الجهاد، أو هزيمۀ، فرحوا، وقالوا: لذلک لم نخرج معهم عملا بالبصيرۀ والعقلانيۀ والحذر، وقد نفعتنا تلک التدابير الاحتياطيۀ التی اتخذناها لمنع أنفسنا من الهلاک من إقامۀ الروابط الحسنۀ مع المشرکين.

الأقوال ومراجعها

الاغترار بالبصيرۀ الوهميۀ:

{حسنۀ} أی فتح وغنيمۀ و{مصيبۀ} هزيمۀ أو مشقۀ وتعب، کما کان يوم أُحد، أی فرح المنافقون إن أصيب النبی ۰ وأصحابه بمصيبۀ فی الغزو من هزيمۀ وغيرها، وأثنوا على بصيرتهم، وقالوا: لقد اتخذنا التدابير اللازمۀ للوقايۀ من الابتعاد عن الحرب. {يتولوا} عن رسول الله ۰ أو عن جمعه أو بعد المقولۀ المذکورۀ يعودون فرحين على ما أصاب المسلمين من مصيبۀ. (المظهری)

حکمۀ المنافقين وتدابيرهم الاحتياطيۀ:

من سوء حظ المنافقين أنهم يفرحون على الحرمان من الجهاد والشهادۀ فی سبيل الله، کأنهم يعتبرون وجوب النار عليهم حکمۀً. قال فی هذه الآيۀ الکريمۀ: إذا لحقت بالمسلمين هزيمۀ ظاهرۀ قالوا: {قد أخذنا أمرنا من قبل} أی اتخذنا تدابير احتياطيۀ لحمايۀ أنفسنا، وما هذه التدابير؟ قال صاحب روح المعانی:

يعنون به التخلف والقعود عن الحرب والمداراۀ مع الکفرۀ وغير ذلک من أمور الکفر والنفاق قولا وفعلا.

هذه هی حکمتهم ودهاءهم وبصيرتهم. نعوذ بالله من ذلک.

الفائز من أدّى الفريضۀ:

«من عموم أحوال المنافقين أن المسلمين إذا أُصيبوا بحسنۀ تسؤهم، وإن أصابت المسلمين مصيبۀ فرحوا، وقالوا: لقد استفدنا من بصيرتنا، فلم نخرج معهم. کنا علمنا أن هذه هی التی تنتج عن

المعركة. يا للأسف لو أدركوا أن النجاح الحقيقى خاص بالمسلمين، لأنهم قاموا بتأدية واجبهم». (التفسير الفرقان)

ولاشک أن من السعادة الحقيقية قطع الأوصال والأعضاء أثناء تأدية الواجب، وتحصيل ملک الدنيا خسارة إن كان على حساب التخلى عن الفريضة.

مصداق الحسنة والمصيبة:

قال الإمام أبو حيان رحمه الله:

روى عن ابن عباس أن المراد من الحسنة يوم بدر، ومن المصيبة يوم أُحد. يمكن أن يكون مبنى هذا القول على التمثيل.

(أى مثال الحسنة يوم بدر، ومثال المصيبة يوم أُحد) وعلى العموم تُطلق كلمة الحسنة والمصيبة على كل خير وكل مصيبة، لكن سياق الآية وسباقها يشير إلى الخير والبلية فى الجهاد. قال أهل العلم: أراد بالحسنة الفتح، وبالمصيبة الهزيمة.

قال ابن عباس: الحسنة يوم بدر، والمصيبة يوم أُحد، وينبغى أن يحمل قوله على التمثيل، واللفظ عام فى كل محبوب ومكروه، وسياق الحمل يقتضى أن يكون ذلک فى الغزو ولذلک قالوا: الحسنة الظفر والغنيمة والمصيبة الخيبة والهزيمة. (البحر المحيط).

نكتة غريبة:

أشار صاحب التفسير الماجدى إلى نكتة مهمة، فقال: إن الجهاد كله خير للمؤمن، لا مصيبة له فيه، أما استعمال لفظ المصيبة فى الآية الكريمة، فكان من وُجهة نظر المنافقين، فإن المصيبة عندهم هى الخسارة الدنيوية...

جاء استعمال لفظ {حسنة} و {مصيبة} باعتبار وُجهة نظر المنافقين، أى نفع الدنيا المادى. (التفسير الماجدى)

عبارة شيّقة:

«كان المنافقون قد جُبلوا على التأذّى عند إصابة المؤمنين بالحسنة، أما إذا لحق بالمسلمين أذى، بأن استُشهد بعضهم، أو أُصيبوا بجروح، قالوا بكل اعتزاز وفخر: لقد أخذنا الحيطة والحذر، كنا عالمين بالمصير الذى صاروا إليه، لذلک لم نخرج معهم، وباختصار يعدّون فضلهم ويثنون دهاءهم، ويضربون على صدورهم وإبطهم فرحا ومسرة، ويعودون إلى منازلهم». (التفسير العثمانى)

وهذا هو أسلوب تعامل مثقفى اليوم ممن تأثّروا بالحضارة الغربية، عند انتصار المجاهدين أو الهزيمة. اللهم ارحم أمة محمد ﷺ.

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 51}

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون}.

ملخص معانى الآيۃ:

لا يمتنع المؤمنون عن العمل بأحكام الله تعالى خوفا من الوقوع فى المصيبۃ، لأنهم يعلمون أنه لا يصيبهم إلا ما كتبه الله لهم، فلماذا يتخلون عن الجهاد وغيره من الفرائض خوفا من الموت والهزيمۃ، والله مولى المؤمنين وناصرهم، لا يقدّر لهم إلا ما كان نافعا، فإن كتب لهم الفتح ففيه خير، وإن كتب لهم الشهادۃ والإصابات فخير، وبملاحظۃ هذا الأصل الأصيل يجب على المؤمنين أن يركزوا أنظارهم على ذات الله سبحانه وتعالى، وليس على الأسباب الظاهرۃ والتدابير البشريۃ، ويتوكلوا على الله. (يختاروا الأسباب وفق الشريعۃ، لكن لا يعتمدوا عليها مثل المنافقين، بل يجب ثقتهم بالله).

الأقوال والمراجع

أحوال أهل الإيمان كلها خير...

{قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا} من العيش الكريم والخير والطيب أو البليۃ والمحنۃ والحادث، كلها مقدّرۃ ومحدّدۃ من الله تعالى. {هو مولانا} رضينا بقضائه وقدره، والكل منه، ولا يخلو شيء من أحوالنا من الخير، الفتح والظفر والغنيمۃ خير، والإصابۃ بالجروح خير باعتبار الثواب والأجر، والشهداء منا على خير. {وعلى الله فليتوكل المؤمنون} يفوضوا أمورهم كلها إلى الله، يرجوا الخير ورغد العيش والفضل منه، يثقوا بالله، ولا يثقوا بغيره، قد يختارون الأسباب، لكن ثقتهم بالله، وليس على السلاح والعتاد والقوۃ والطاقۃ، اختيار الأسباب لا يخالف التقدير والتوكل، فقد علّمنا رسول الله ٠ التوكل واختيار الأسباب، وأمرنا بها، فليس على أهل الإيمان إلا أن يفعلوا ويختاروا ما فعله الرسول ٠ وما اختاره، لا يتركوا الأسباب ولا يتوكلوا عليها. (أنوار البيان)

الشدائد لا تمنع المؤمن من الطاعۃ:

«أى الشدۃ أو النعمۃ تأتيان فى الوقت المحدّد لهما، ولا مفر منهما، لا حيلۃ فى الدنيا للوقايۃ منها، وبما أن يقينه على الله على أنه مولاه ظاهرا وباطنا، فقد خضعت رقابنا لله وأمام حكمه، لا تمنع الشدائد طاعته، نثق فيه، وأنه قادر على تغيير المصيبۃ العارضۃ بالنعمۃ فى الآخرۃ، وربما فى الدنيا أيضاً. (التفسير العثمانى، بتسهيل)

المؤمن لا يثق إلا بالله:

قل لهم لقد توكلنا على الله، وما يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا، ولا يخلو عن خير. (حاشية اللاهورى)

لا يغلب إلا من كان مؤمنا بالله:

«المؤمن إذا انقاد للقضاء والقدر، رفع الله رأسه أمام جميع المبطلين فى العالم، يعلم أن شيئا لن يضره إلا بإذن الله». (تفسير الفرقان)

أى الإيمان الجازم بالقضاء يجعل المؤمن قويا، فلا يتخلى عن الجهاد خوفا من الموت، ولا يخاف من قوة العدو وطاقته، يعلم أن كل شيء بيد الله، وأنه مع المؤمنين. هذه هى الحالة التى لا يكرم الله تعالى بها المنافقين، كما سبق فى الآية الماضية.

فائدة:

أشار الإمام الرازى إلى ثلاثة معانى لقوله تعالى: {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا} وأشار أبو حيان إلى ثلاثة معانى لقوله: {هو مولانا}، ولمعرفة المزيد عن البحثين المفيدين نرجو مراجعة التفسير الكبير والبحر المحيط.

نكتة عجيبة:

وفى التفسير المظهرى أن الآية الكريمة أشارت إلى أن قدر الله تعالى كله خير، لأن الله تعالى قال: {كتب الله لنا} وكلمة {لنا} تدل على معنى النفع.

فالمعنى أن ما من شيء كتبه الله تعالى فى اللوح المحفوظ لنفعنا لاشک أنه بالغ إلينا، (الفتح أو الشهادة). لم يستعمل كلمة «علينا» مكان «لنا». فدل على أنه ليس هناک ما يضرنا. (خلاصة ما جاء فى التفسير المظهرى)

أى التقدير بيد الله، وهو مولانا، فلماذا نتخلى عن الجهاد خوفا من عدو أو ظروف معينة.

تحفة عظيمة:

هذه الآية الكريمة تمثل نعمة كبيرة وتحفة عظيمة من الله تعالى لعباده، وتسلية وبشارة، إن صيّرناها يقين قلوبنا، تبدّد رعب قوة أمريكا وحلفائها من قلوبنا، وشاهدنا الانتصارات والفتح فى الأطراف كلها، اللهم ارزقنا إيمانا كاملا بالقدر، وهبنا اليقين، فأنت مولى المؤمنين وناصرهم، واجعلنا ممن يتوكلون عليک. (آمين)

وفى التفسير الماجدى:

كم جربوا هذه الوصفة السهلة المؤثرة النافعة المهدئة للقلب والمريحة، لا يلتفت إليها من كان محروما عن الخير. (التفسير الماجدى)

وقال القرطبى:

قيل فى اللوح المحفوظ، وقيل: ما أخبرنا به فى كتابه من أنّا إما أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا، وإما أن نقتل، فتكون الشهادة أعظم حسنى لنا. (القرطبى)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 52}

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحُسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا، فتربّصوا إنّا معكم متربصون}.

ملخص معانى الآيۃ:

كل من خرج من المؤمنين للجهاد فى سبيل الله ينال إحدى الحُسنيين، إما الفتح والظفر وهو خير، وإما الشهادۃ وهى كذلک خير، فالمنافقون الذين قعدوا فى بيوتهم خوفا على أنفسهم، وظنّوا أن لديهم شيئا من البصيرۃ فى الأمور، لا يحسبوا أن شيئا من الشر يصيب المؤمنين، لأنهم إن رجعوا عن الغزو كانوا على خير، وإن استُشهدوا كانوا على خير، أما الهزيمۃ فهى مقدرۃ للمنافقين، سواء عاقبهم الله على نفاقهم بنفسه، أو بأيدى المسلمين، بأن أذن للمؤمنين بقتالهم.

فالواجب على المسلمين الترقب حتى يتحقق وعد الله، وعلى المنافقين أن يترقبوا حتى يتحقق وعد الشيطان، ولاشک أن وعد الله يتحقق، فسيعلمون من كان أبصر بالأمور، المسلم أو المنافق.

الأقوال ومراجعها

لا خسارۃ للمسلم:

«لا يمكن للمسلم أن يخسر شيئا للحظۃ واحدۃ، لأنه إن مات فى سبيل الله، نال شرف الشهادۃ، وإن رجع سالما بقى غازيا، أدّى الفريضۃ التى كانت عليه، أما أعداء الإسلام فيمكن أن تنزل عليهم آفۃ سماويۃ أو أرضيۃ فيُهلكوا، أو يلقوا الخزى والندامۃ بأيدى المسلمين، إن أردتم أن تترقبوا فترقبوا». (التفسير الفرقان)

الخطاب للكفار أو المنافقين:

{قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحُسنيين} الخطاب للكفار أو المنافقين، وإحدى الحُسنيين ... إحداهما الشهادۃ فى سبيل الله المؤديۃ إلى دخول الجنۃ والحياۃ السرمديۃ، والثانيۃ الفتح والمغانم. يعنى تتمنون قتلنا، وهو شر فى نظركم، لكنه خير كله. وقد روى عن أبى هريرۃ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال إنتدب الله ولمسلم تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وايمان بى وتصديق برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنۃ أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمۃ ولمسلم مثل المجاهد فى سبيل الله والله أعلم بمن جاهد فى سبيله كمثل وتوكل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنۃ أو يرجعه سالما مع

أجر أو غنيمة. (متفق عليه) أى أعطيه إحدى الحسنيين، (إما الفتح وإما الشهادة) ولا يستبعد الجمع بينهما، أى الفتح والجنة معاً.

{ونحن نتربص أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا} إن كان الخطاب للكفار فالمراد منه أنكم إن انتصرتم علينا فإن الله سوف يعذّبكم بأيدينا فى الآخرة، وإن هُزمتم قُتلتم بأيدينا فى حالة الكفر، وتستحقون العذاب الدائم. وإن كان الخطاب للمنافقين فالمعنى: إن لم يظهر كفركم أهلككم الله مثل الأمم الماضية، ثم أدخلكم فى نار جهنم. وإن أشهرتم كفركم، قُتلتم بأيدى المسلمين بكفركم. (المظهرى بتسهيل) (والخطاب للمنافقين عند أكثر المفسرين).

نرضى بكل ما يأتى من عند الله:

نرضى بكل ما يأتينا من الله، سواء كان سببا للراحة أو الغم، بل نترقب نزول العذاب عليكم؟ أو ننتظر متى نُؤمر بمعاقبتكم؟ (حاشية اللاهورى)

انتظروا...

قال تعالى: {فتربصوا إنّا معكم متربصون}:

(1) انتظروا مصيرنا، وننتظر مصيركم، وبعدما ينال كل منّا جزاءه، سوف ترون ما يسرنا، ونرى ما يحزنكم.

فإذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه لا نشاهد إلا ما يسوءكم ولا تشاهدون إلا ما يسرنا. (روح المعانى)

(2) فتربصوا مواعيد الشيطان، إنا متربصون مواعيد الله تعالى من إظهار دينه واستئصال من خالفه. (القرطبى، وروح المعانى)

(3) وعلى كل، ينبغى على كل واحد منا أن ينتظر لمعرفة مصير الآخر، فسوف تعلمون من أبصرنا وأعقلنا؟ (التفسير العثمانى)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 53}

بسم الله الرحمن الرحيم

{قل أنفقوا طَوعاً أو كَرْهاً لن يُتقبل منكم، إنكم كنتم قوما فاسقين}.

ملخص معانى الآيۂ:

قال بعض المنافقين للنبى ﷺ: لا نخرج معک، ولكننا نعينک بأموالنا، فرد الله عليهم، وقال: لن يُتقبل منكم، إنكم كنتم قوما فاسقين.

سبب النزول:

قال ابن عباس: نزلت فى الجُدّ بن قيس، إذ قال: ائذن لى فى القعود، وهذا مالى أعينک به. (القرطبى)

حكم الآيۂ عام:

قال الإمام الرازى:
واعلم أن السبب وإن كان خاصا إلا أن الحكم عام. (التفسير الكبير)
«إن كان سبب نزول الآيۂ قصۂ الجد بن قيس، لكن ألفاظ الآيۂ عام تشمل جميع المنافقين». (أنوار البيان)

فيها عبرۂ لكل من يعتبر الإنفاق غايۂ:

«فى الآيۂ عبر ودروس لأشراف قومنا، الغافلين عن تقويۂ الإيمان والعمل الصالح، والمعتزين بتبرعاتهم الكبيرۂ، والمعتمدين عليها، لاشک أن فى الإعانۂ الماليۂ خدمۂ كبيرۂ للدين، لكنها لا تُغنى ما لم يتوفر الإيمان ذاته، ثم الصحيح منه. (التفسير الماجدى)

معنيا القبول..

الرد على نوعين، الأول: أن لا يؤخذ منهم أصلا، والثانى: أن لا ينالوا عليه الأجر والثواب.
ونفى التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم، ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابۂ عليه. (روح المعانى)
وقال صاحب روح المعانى: يمكن أن يراد المعنيين.

لا قيمة لمثل هذا المال..

«لقد تقاطع المسلمون المنافقين بعدما ذُكرت أحوالهم فى الآيات السابقة، فطفقوا يتبرعون بأموالهم، حتى قيل لهم: إن كنتم آمنتم بتعاليم الإسلام وصدقتموها، فاستعدوا للتضحية بالنفس فى سبيله، لأن الإسلام لا يحتاج الآن إلا إليها، ثم تُقبل منكم أموالكم أيضاً، وإلا فلا فائدة للتبرع بالمال، لا قيمة له فى نظر الشريعة، ومن يكون أذل منكم، تنفقون أموالكم، ولا تضحون بأرواحكم». (التفسير الفرقان)

«بما أن لديكم مشاعر معادية للشريعة، لذلك لا تُقبل تبرعاتكم». (حاشية اللاهورى)

أموال سيء العقيدة مردودة عليه:

وكان من ضمن ما قال جُد بن قيس لمّا تخلف عن رسول الله ﷺ بحجة الافتتان بنساء الروم: ولكنى أعينك بمالى. فردَّ الله عليه، وقال: لا تُقبل أموال فاسد العقيدة، سواء أنفق طوعا أو كرها، وأنّى لهم الإنفاق طوعا فى سبيل الله؟ {ولا ينفقون إلا وهم كارهون} وثانيا: نفرض أنهم أنفقوا طوعا، لكن الله عزوجل لا يقبلها، وذكر سببه فى الآية التى تليها. (التفسير العثمانى)

وقال بعض المفسرين فى معنى طوعا وكرها: كان الإنفاق على نوعين، الأول: ما فُرض عليهم، والثانى: ما لم يُفرض عليه. فالمفروض يقال له كرها، و غير المفروض يقال له طوعا. (والله أعلم بالصواب)

{سورة التوبة مدنية، الآية : 54}

بسم الله الرحمن الرحيم

{وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كُسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون}.

ملخص معانى الآية:

ومن أهم أسباب رفض أموالهم أنهم رغم ادعائهم الإسلام لا يؤمنون بالله وبرسوله، وأكبر علامة ظاهرة عليه أنهم لا يأتون الصلاة إلا كسالى، ويشق عليهم أن ينفقوا فى سبيل الله، لأنهم يعتبرونه غرامة.

الأقوال ومراجعها

تخلفوا عن الجهاد فتبرعاتهم مرفوضة:

قال اللاهورى رحمه الله:

«لقد عصوا فيما أمروا من الخروج فى سبيل الله، لذلك تبرعاتهم مرفوضة» (حاشية اللاهورى).

عبارة جامعة:

فيما يلى من العبارة تضمن ما كتب حول الآية الكريمة فى أمهات التفاسير:

لا مانع من قبول تبرعاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله، والأعمال لا تقبل مع الكفر، وإن كانوا يدّعون الإسلام ويخفون كفرهم، لكن كفرهم ظاهر من أعمالهم.

الصلاة أكبر فريضة بعد الإيمان بالله، وأكبر وأول علامة للإيمان، لا يحضرونها إلا كسالى، كأن مصيبة عظيمة حلّت بهم.. وفى مناسبات الإنفاق فى سبيل الله يتبرعون بالأموال وهم كارهون، لا إيمان لهم بالله ولا باليوم الآخر، فلا يرجون ثواب الإنفاق، وبدون أمل الثواب لا معنى للإنفاق طوعا، فلا شك أنهم ينفقون كرها.(أنوار البيان)

الصلاة أمام الناس:

قال القرطبى:

قال ابن عباس: إن كان فى جماعة صلّى، وإن انفرد لم يصل، وهو الذى لا يرجو على الصلاة ثوابا، ولا فى تركها عقابا، فالنفاق يورث الكسل فى العبادة لا محالة. (القرطبى)

ثم كتب:

لأنهم يعدونها مغرما ومنعها مغنما. (القرطبى)

نصيحة للمسلمين:

«فيها تحذير للمسلمين بأن الكسل والتهاون فى الصلاة والكره فى الصدقات من علامات النفاق، وعليهم أن يحذروها». (معارف القرآن)

إن كان التكاسل فى الصلاة نفاقا فما بال تركها؟

«قال أهل العلم: إن كان التكاسل فى الصلاة من علامات النفاق، فما بال تركها؟» (التفسير الماجدى)

مقام الخشية للجميع:

«فى الآية الكريمة ما يكفى لخوفنا نحن المسلمين بالاسم فقط، فالأعمال الظاهرة للمنافقين كانت مشابهة بأعمال المسلمين، أسماءهم مثل أسماء المسلمين، أطوارهم وهندامهم مثل المسلمين، يصلون بوجه أو بآخر، يتصدقون فى بعض المناسبات، ومع كل هذه تقرر أنهم لا زالوا على الكفر، نسأل الله تعالى أن لا يكون حال أحدنا الناطقين بكلمة الشهادة مثلهم». (التفسير الماجدى)

فالواجب على المسلمين إحياء عملية الجهاد فى سبيل الله، للوقاية من النفاق.

{سورة التوبة مدنية، الآية : 55}

بسم الله الرحمن الرحيم

{فلا تُعجبک أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فی الحيوة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم کافرون}.

ملخص معانی الآیة:

الواجب علی المسلمين أن لا يُصابوا بالإحباط بملاحظة أموال المنافقين وأولادهم، ولا ينظروا إليها نظرةَ إعجاب، ولا يحسبوا أنهم علی أفضل حال، لأن أموال المنافقين وأولادهم وبال عليهم، يتحملون المصاعب والمحن والمتاعب لأجلها، ولأجلها يتخلفون عن الجهاد، ثم لا يتوبون إلی الله، فلا يموتون إلا علی الکفر، وهو من أشد أنواع الموت، والعذاب بعده أشد وأکبر.

عموم الخطاب:

هذا الخطاب، وإن کان فی الظاهر مختصا بالرسول عليه السلام، إلا أن المراد منه کل المؤمنين، أی لا ينبغی أن تعجبوا بأموال هؤلاء المنافقين والکافرين، ولا بأولادهم ولا بسائر نعم الله عليهم. (التفسير الکبير)

عدم الإعجاب بثراء المنافقين:

{فلا تُعجبک} عند المظهری:

الإعجاب: المسرة علی حصول شیء يحبه، والمعنی أن الأموال والأولاد التی أعطيناهم ليست محل إعجاب ومسرة، إنما هی استدراج لهم، وهی وبال عليهم. (المظهری)

وفی البحر المحيط:

ولا يعجبک أيها السامع بمعنی لا يستحسن ولا يفتتن بما اوتوا من زينة الدنيا. (البحر المحيط)

«المجاهدون الذين تُعجبهم أموال أهل الدنيا، ويستحسنونها، يقعون عادة فی حب الدنيا، ويُحرمون عن الجهاد فی سبيل الله، وفی التفسير الماجدی: ومن هذه الآية استنبط أهل العلم بأنه لا يجوز استحسان ما يلاحظ عند المشرکين والکافرين والفاسقين من نعمة ولا تمنِّی بمثلهم. (التفسير الماجدی)

وقال:

فيها تحذير لأهل الإيمان أن لا يستحسنوا أموال أهل الدنيا وزينتهم، حتی لا يُحرموا من أعمال الآخرة والاهتمام بها. (التفسير الماجدی)

وفی تفسير روح المعانی:

أی لا يروقک شیء من ذلک، فإنه استدراج لهم ووبال عليهم. (روح المعانی)

وهذا العذاب عليهم بسبب كفرهم..

لقد كفروا بالله، فلا تحصل لهم الراحة النفسية، أموالهم وأولادهم نقمة، لأنها لا تجلب الخير والعافية، إنما تجلب الآفة. (حاشية اللاهوری)

تفسير جامع:

«قد يتساءل أحد أن المنافقين إن كانوا ملعونين، فلماذا أنعم الله عليهم بنعمة المال والأولاد؟ فأجاب عنه وقال: إن هذه الأموال نقمة وليست بنعمة، فكما أن طعاما شهياً ولذيذاً يزيد فی قوة الجسم الصحيح، وتذهب بمن أصيب بفساد الأخلاط إلى الهلاک، كذلک حال النِعَم الدنيوية، فهی بمثابة السُّم القاتل للكافر، لانهماكه فی الدنيا، ولكدّه فی تحصيلها، ثم إن أصيبتِ بمصيبة أو تلف حزن بقدر حبه لها، ولا يخلو وقت من الليل والنهار يتفكر فيها، والموت لمّا يأتيهم، ويفرّقهم عنها، أُصيب من الحسرة والندامة ما لا يمكن وصفه. وباختصار، عاشق الدنيا وحريصها لا يهدأ قلبه، وخير شاهد عليه ما قاله كبار رجال الأعمال الأوروبيين. أما المؤمنون الذين لا يعبدون المال والأولاد، ولا يعتبرونها غاية حياتهم، فقلوبهم خالية عن حب الدنيا، لذلک تعينهم أموالهم وأولادهم على الدنيا، أما عامة الكفار فإنهم يغترون بالمال والأولاد، ويستمرون فی طغيانهم وضلالهم بأقوى وأشد مما كانوا، فيموتون على الكفر.

أما منافقوا المدينة الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة، فإنهم ينفقون أموالهم كرها ورياء فی وجوه الخير من الجهاد وغيره، أما أولادهم فمنهم من أخلص إيمانه لله، وشهد مع النبی ﷺ المعارک، وهذا مما يُبغض المنافقين ويخالف هواهم، وتحولت أولادهم وأموالهم إلى نقمة بدلاً من نعمة.

قال الشاه عبد القادر رحمه الله:

«لا تستغرب كيف أعطى الله الكافر نعيم الدنيا، إذ الأولاد والمال وبال عليهم، تهتم بها قلوبهم، ولا تفارقهم حتى يموتوا، أو يتوبوا أو يعملوا الصالحات. (أی لا يخرج للجهاد خوفا على ماله وأهله، ولايتوب عن نفاقه، لأنه لا يقدر على التخلی عنهما». التفسير العثمانی)

قول تفسيری:

قيل: فی الآية تقديم وتأخير، والمعنى:

فلا تعجبک أموالهم ولا أولادهم فی الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها فی الآخرة. (ابن كثير)

الموت الشديد:

{وتزهق أنفسهم} معنى الزهوق فى اللغة الصعوبة، أى تخرج أنفسهم متقطعة مجزّأة مع الحسرة والندامة. (التفسير المظهرى)

الوقاية من حب الدنيا:

لا زال بصدد ذكر أحوال غزوة تبوک، التى تخلف عنها المنافقون لأجل مالهم وأولادهم، ففيها إرشاد إلى الوقاية من حب الدنيا، وحذّر من أن يصيروا مثل المنافقين، فقد تحوّلت أموالهم وأولادهم إلى نقمة فى الدنيا والآخرة.

قال الرازى:

وذكر عبيد بن عمير ورفعه إلى الرسول عليه السلام: من كثر ماله اشتد حسابه، ومن كثر بيعه كثرت شياطينه، ومن ازداد من السلطان قربا، ازداد من الله بعدا، والأخبار المناسبة لهذا الباب كثيرة، والمقصود منها الزجر عن الارتكان إلى الدنيا والمنع من التهالک فى حبها والافتخار بها. (التفسير الكبير)

تحفتان علميتان:

ذكر الإمام الرازى بيانا مفصلا ومحيرا فى تفسير الآية الكريمة وحب الدنيا، أما ابن كثير فقد أورد الآيات التى تحث على عدم النظر إلى أموال المشركين وتقدمهم الظاهرى.

يرجى من الإخوة الراغبين مراجعة تفسير ابن كثير والتفسير الكبير.

{سورة التوبة مدنية، الآية : 56}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ويحلفون بالله إنهم لمنكم، وما هم منكم ولكنهم قوم يفرَقون}.

ملخص معانى الآيۃ:

من إحدى عادات المنافقين أنهم يُقسمون على إسلامهم، وما هم مسلمين، لكنهم قوم خائف، لا يهمهم إلا أنفسهم، ولا يسعون إلا لحمايۃ أرواحهم.

لا داعى للمسلم الصادق إلى الحلف:

«لا يحتاج المسلم الصادق فى إيمانه إلى الحلف بالله على إيمانه، فأهل الإيمان يعرفونه بأحواله وتعاملاته وسلوكياته، إذ أطوار المنافق وعاداته تدل على نفاقه وعدم إيمانه فى باطنه، لذلك يحذرونه، ولا يوالونه، لكنه يلح عليهم بأنه مؤمن ويقسم بالله» (أنوار البيان)

الحلف على الإيمان طريقۃ المنافقين:

بيّن أن من أخلاق المنافقين الحلف بأنهم مؤمنون. (القرطبى)

لمّا دعاهم نبى الله إلى الجهاد تخلفوا عنه، ثم تكاسلوا فى الصلاۃ والزكاۃ والصدقات، إلى جانب ولاءهم للكفار والارتباطات معهم، ثم الآن يحلفون لكم بأنهم مسلمون.

هذا الصنف من الناس ظل يخلق المشاكل للمسلمين فى كل عصر وزمان.

وُلدوا فى أسرۃ مسلمۃ:

«تعوّد المنافقون على إخفاء الباطل بالحلف، يريدون أن يؤكّدوا للمؤمنين بأنهم منهم، رغم خوفهم وفرقهم، ولا ينطقون بالحق، لأنهم إن كانوا يملكون قليلا من الجرأۃ، لما تخلفوا عن التضحيۃ بالروح فى سبيل الله، فكأن حالتهم الحقيقيۃ هى أنهم يدّعون الإسلام فى الظاهر، لأنهم وُلدوا فى أسرۃ مسلمۃ، وجميع أقاربهم مسلمون، لكنهم لو وجدوا فرصۃ لتبرأوا عن الإسلام بدون تضييع لحظۃ، والآن الظروف المحيطۃ بهم قد أجبرتهم على الاحتفاظ بالإسلام. (التفسير الماجدى)

وقد أشار فى عبارته إلى بعض الناس فى عصره، كما أشار صاحب التفسير الماجدى فى النص التالى:

«يوجد اليوم فى مجتمعاتنا الإسلاميۃ كثير من الناس الذين يتظاهرون بالإسلام إما خوفا من المجتمع أو لأن المجتمعات الأخرى لا تستقبلهم، فهم مسلمون من ناحيۃ بحكم التعايش بين المسلمين، كما تم تسجيلهم كمسلمين فى سجلات الدوائر الرسميۃ والتعداد العام للسكان». (التفسير الماجدى)

وهناک كثيرون من الناس من وصلوا إلى سدة الحكم فى البلاد الإسلامية بالإلحاح على أنهم مسلمين، مع أنهم لا ينفعون الإسلام والمسلمين بشىء.

لا يغنون فى وقت الحرج:

«لا ينفعون الإسلام فى أوقات الحرج (مثل الجهاد وغيره) لكنهم يحلفون كذبا وزوراً أنهم مسلمين». (حاشية اللاهورى)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 57}

بسم الله الرحمن الرحيم

{لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون}.

ملخص معانی الآيۀ:

إذا تقوّى الإسلام والمسلمون، تحرّق المنافقون من الخوف والحقد، لأنه لا مكان لهم للهروب، فيدعون الإسلام خوفا على أنفسهم، لكنهم يترقبون أن يجدوا ملجأ ومأوى عند أحد من الناس، حتى يذهبوا إليهم ويعيشوا بينهم فی حالۀ الكفر والفسوق.

يُبغضون الإسلام والمسلمين:

«ثم أشار إلى عدم الرابطۀ القلبيۀ بين المنافقين والمسلمين، وقال إنهم لا يجدون ملجأ، لذلک ارتبطوا معكم، وتظاهروا بالإسلام، ونسبوا أنفسهم إليكم، فلو أنهم وجدوا ملجأ ليلجأوا إليه، أو مغارات ليختفئوا فيها، لأسرعوا إليها، وصرفوا الأنظار عنكم، وخانوكم، فلا رابطۀ قلبيۀ بينكم وبينهم». (أنوار البيان)

معنی ملجأ:

وفی التفسير المظهری:

{ملجأ} أی مكان للحمايۀ، يذهبون إليه، أو قوم من الناس يلجأون إليهم طلبا للأمن. (المظهری)

تطمين المسلمين:

فی هذه الآيۀ يذكر الله تعالى أحوال غزوۀ تبوک، وكان المنافقون قد رفضوا الخروج إليها، فالله يطمّن المسلمين، ويقول: كان الخير فی عدم خروجهم إلى تبوک، لأنهم لا يحبونكم، فلا ينفعونكم إن خرجوا معكم، هم فی الواقع أعداءكم، لو وجدوا فرصۀ لخذلوكم. (والله أعلم بالصواب)

لا يسرون بانتصار المسلمين وتقدمهم:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ولهذا لا يزالون فی همّ وحزن وغم، لأن الإسلام وأهله لا يزال فی عز ونصر ورفعۀ، فلهذا كلما سرّ المسلمون ساءهم ذلک، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين. (ابن كثير)

كذلک اليوم إن انتصر الإسلام فى بلد من البلاد، وأنشأوا فيه حکومة إسلامية، وقاموا بتطبيق الشريعة الإسلامية، لشاهدت الدنيا تطبيق هذه الآية عملا، وكيف يفر كثير من الذين يدعون الإسلام إلى الدول الكافرة، خاصة فى مثل هذه الأيام التى تعوّد فيها الناس على اللجوء إلى الدول الأجنبية، رغم ادعاءهم الإسلام.

{**سورة التوبة مدنية، الآيات** : 58، 59}

بسم الله الرحمن الرحيم

{ومنهم من يلمزک فی الصدقات. فإن أُعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هـم يسخطون. ولو أنهم رضوا مآ آتاهم الله ورسوله، وقالوا حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنّا إلی الله راغبون}.

ملخص معانی الآيتين:

والآن يذکر الله تعالی أولئک المرتزقة الذين يهربون من الجهاد لعدم تواجد المال، فهم مستعدون لخوض کافة المعارک إن حصلوا علی المال، فهم عبيد المال. (التفسير الفرقان)

هذا صنف ثالث ممن سعوا إلی استثناءهم عن الجهاد وعدم الخروج له، يريدون من الجهاد مکاسب مالية دون مرضاة الله واتباع الرسول ، فإن وجدوا أقل مما کانوا يتوقعونه، تبدلوا وتغيّروا، وإن أخلصوا أعمالهم لله تعالی، ولم يکن همهم المال، لاکتفوا بما وجدوا، وقالوا حسبنا الله، وإن شاء لأعطانا وسدّ حاجاتنا». (حاشية اللاهوری)

المناسبة بين الآيات:

فی هذه الآيات يذکر الله تعالی قصة غزوة تبوک، التی تخلف عنها المنافقون بحجج واهية. ويشير إلی قبائح المنافقين وأحوالهم، ومن أحد قبائحهم أنهم طامعون للمال، فإن وجدوا المال أقل مما کانوا يتوقعونه، تطاولوا علی ذات الرسول. ومن إحدی قبائحهم أنهم لا يثقون فی ذات الرسول ، يخشون أنه لا يعدل فی تقسيم الغنائم، کما أنهم لا يشارکون فی الجهاد، وإن شارکوا فللمال، والأفضل للمسلمين أن لا يشارک هؤلاء معهم فی الجهاد. (والله أعلم بالصواب)

وقائع أسباب النزول:

لقد ذکر المفسرون فی أسباب نزول الآية الکريمة العديد من الوقائع، ومن أشهرها قصة «ذو الخويصرة التميمی» وکان اسمه الحقيقی «حرقوص بن زهير» والقصة أخرجها الشيخان فی صحيحيهما..

بينا رسول الله يقسم مالا إذ جاءه حرقوص بن زهير، أصله من الخوارج، ويقال له ذو الخويصرة التميمی، فقال: اعدل يا رسول الله فقال: ويلک ومن يعدل إذا لم أعدل، فنزلت الآية. (القرطبی)

والروايات تشير إلی أن القصة وقعت عند تقسيم المغانم التی غنموها من هوازن، (بعد الانتصار فی حنين) وفی بعض الروايات أن القائل هو «معتب بن قشير»، وکان منافقا. (المظهری)

وفى الدر المنثور (3/250) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قسّم الغنائم يوم حنين، فقال رجل: هذه قسمة لم يقصد منها رضا الله، (العياذ بالله) فجئت النبى ﷺ وذكرت له ذلك، فقال: لقد أُوذى موسى أكثر منه فصبر، فنزلت: {ومنهم من يلمزك فى الصدقات} (أنوار البيان).

كما ذكر صاحب التفسير المظهرى قصصا عديدة حول أسباب النزول، ورد عليها فقال:

وعندى أن الآية نزلت لما تجهّز المسلمون لتبوك، وجاءوا بالأموال والصدقات، وكان النبى ﷺ يقسمها. (فانتقد المنافقون) (التفسير المظهرى)

المنافقون طلاب الدنيا:

«كل من أحب الدنيا، لا يسر إلا بالمال، فالدين والإيمان والأعمال الصالحة والجهاد فى سبيل الله لا تجلب المسرة إلى قلوبهم، لا يفرحون على نعمة الإسلام والأعمال الصالحة، إنما يترقبون المال لما دخل حبه فى مجامع قلوبهم، فإن أصابوه فرحوا، وإلا غضبوا، وبما أن قلوب المنافقين كانت فارغة عن الإيمان، ولايدّعون الإسلام إلا لمكاسب دنيوية، فإن فقدوه سخطوا. {فإن أُعطوا منها رضوا. وإن لم يُعطَوا منها إذا هم يسخطون} فطالب الدنيا لا يهمه إلا المال، وهو فانى، ولا أهمية له فى مقابلة الإيمان والأعمال الصالحة. فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: لعن عبد الدينار ولُعن عبد الدرهم، إن أُعطى فرح، وإن مُنع سخط، أهلكه الله، وأكب بوجهه فى النار، فإن اشتاكته شوكة لا خرجت. (البخارى)

لاحظوا كيف دعا النبى ﷺ على طالب دنيا.

وقال الله تعالى: {ولو أنهم رضوا مآ آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون}.

والواقع إن المؤمن يثق بالله، ويرجو منه الخير، ويرضى بالقليل الذى يجده من ربه، أما المنافق فلا يرضى بالقليل، ولا يعلم البركة، ولا يرتبط مع الله، يهتم بالمال ويطلبه كثيراً. (أنوار البيان)

{**سورة التوبة مدنية، الآية** : 60}

بسم الله الرحمن الرحيم

{إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل، فريضة من الله والله عليم حكيم}.

ملخص معانى الآية:

بما أن المنافقين طعنوا النبى ﷺ فى تقسيم الصدقات، لذلك أراد التنبيه بهذه الآية على أن طريقة تقسيم الصدقات حدّدها الله تعالى، وعيّن لها مصارف، وأعطى قائمتها بيد الرسول ﷺ، قسّم ويقسّم وفقها، فلا يمكن له اتباع أحد وفق هواه. وقد جاء فى الحديث أن الله تولى تقسيم الصدقات بنفسه، ولم يجعله إلى نبى مرسل، وحدّد مصارف ثمانية، وهى: (1) الفقراء (الذين ليس لديهم شىء) (2) المساكين (الذين ليس لديهم شىء يف بحاجتهم) (3) العاملين (الذين كلّفتهم الحكومة الإسلامية بجمع الصدقات) (4) مؤلفة قلوبهم (الذين يُرجى إسلامهم أو كانوا ضعفاء فى الدين) (وغير ذلك من الأنواع) وقد سقط هذا الصنف (بشكل إدارى) بعد وفاة النبى ﷺ عند أكثر أهل العلم. (5) الرقاب (تحرير الرقبة بعد أداء بدل الكتابة، أو يُحرّر بعد الشراء، أو دفع فدية الأسير) (6) الغارمين (وهو من تعرّض لحادث فاضطر إلى الاستقراض، أو وقع تحت وطأة الكفالة) (7) سبيل الله (تقديم المساعدات إلى من أراد الجهاد وغيره) (8) ابن السبيل (المسافر الذى لا يملك نصابا من المال أثناء سفره، وإن كان غنيا فى داره). (التفسير العثمانى، مع تسهيل)

الأقوال ومراجعها

الغرض من بيان مصارف الزكاة فى ثنايا الجهاد إشارة إلى أن تقسيم المال قد يجلب النزاع إلى الجماعة، والطمّاعون فى المال يتهمون الموزّعين بتهم واهية، ويؤدى إلى النزاع والجدال، فقد تكلم المنافقون بمثل هذا الكلام يوم تبوك إضافة إلى الحيل الكاذبة التى ذكروها، لذلك نبّه على أن تقسيم أموال الزكاة تولاه الله تعالى بنفسه، وينفذّه النبى ﷺ، إذ هو مفوّض إليه، وجعل الله تقسيمه إليه، حيث قال اللاهورى:

انتقد المنافقون تقسيم الصدقات، والآن يعلن بمصارف الزكاة، ليعلم المنافقون أنه لا منفعة ذاتية له ﷺ فى تقسيم الغنائم، لم يكن يستعد لأخذ قرش واحد منه. (حاشية اللاهورى)

فائدة:

لقد أكثر أهل العلم فى البيان تحت هذه الآية، نظراً إلى أن فيها بيانا لركن من أركان الإسلام.

كما أن فى معنى الفقير والمسكين أقوال، واختلاف الأئمة فى بعض مسائل الزكاة، ذكروها بالأدلة. وعلى الراغبين مراجعة أمهات التفاسير.

المراد من سبيل الله الجهاد:

ومن أحد مصارف الزكاة «سبيل الله» وأكثر المفسرين أرادوا به الجهاد. ففى الماجدى:

أراد بها الغزاة فلهم سهم من الصدقة (معالم) فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم فى الديوان. (ابن كثير) هم الغزاة وهذا قول أكثر العلماء وهو تحصيل مذهب مالك (القرطبى) (التفسير الماجدى)

لاحظوا فيما يلى بعض النصوص فى تأييد ما ذكرنا:

(1) {وفى سبيل الله} أى القائمين بالجهاد، ممن لا فىء لهم، ولو أغنياء (الجلالين).

(2) {وفى سبيل الله}، أى الإنفاق فى الجهاد (موضح القرآن)

(3) فى شراء متاع المجاهدين (بيان القرآن)

(4) {وفى سبيل الله} وهم الغزاة وموضع الرباط يعطون ما ينفقون فى غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء (القرطبى). (بشرط الفقر عند الحنفية).

(5) {وفى سبيل الله}: فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم. (المدارك)

(6) {وفى سبيل الله} قال المفسرون: يعنى الغزاة (التفسير الكبير)

(7) {وفى سبيل الله}: هو المجاهد يعطى منها إذا كان فقيرا، والجمهور على أنه يعطى منها وإن كان غنيا، ما ينفق فى غزوته. (البحر المحيط)

وعرفنا بما ذكرنا من الأقوال أن مصداق {فى سبيل الله} الأول هو: المجاهدون.

وأشار بعض المفسرين بلفظ «فى» إلى نكتة، قالوا: هذا المصرف أهم وآكد من غيره من المصارف.

وكثير من المفسرين أدخلوا – إضافة إلى المجاهدين – أناساً آخرين فى معنى {فى سبيل الله}، يُرجى مراجعة القرطبى وروح المعانى وغيرها من التفاسير المعتمدة لمعرفة التفاصيل. (والله أعلم بالصواب).

❊❊❊